

روية تصحيحية للتاريخ الإسلامي
(العصر الأموي)

الدولة الأموية المقتري عليها

دراسة الشبهات ورد المقتريات

تأليف الدكتور

حمدي شاهين

كلية دار العلوم - جامعة القاهرة



رؤية تصحيحية للتاريخ الإسلامي
(العصر الأموي)

الدولة الأموية المفترى عليها

دراسة الشبهات وردّ المفتريات

دراسة في مصادر التاريخ الأموي وأسباب تحريفه ، وبحث الشبهات التي أثارها المؤرخون حوله في مختلف النواحي ؛ مثل : حقيقة موقف الأمويين من الإسلام منذ بداية الدعوة الإسلامية ، ووسائلهم للوصول إلى الخلافة ، وموقفهم من الشورى وولاية العهد ، وسياساتهم تجاه المعارضة السلمية ، وبحث أبرز الثورات ضدهم : ثورة أهل المدينة وابن الزبير مع التركيز على ثورة الحسين وموقف الأمويين من آل البيت ، ودراسة اتهام الأمويين بالعصبية القبلية وظلم الموالي ، مع بحث التجاوزات المالية والإنجازات الحضارية للأمويين ..

دكتور حمدي شاهين

كلية دار العلوم جامعة القاهرة

الناشر

دار القاهرة للكتاب

١١٦ شارع محمد فريد . ت ٣٩٢٩١٩٢

حقوق الطبع محفوظة

اسم الكتاب :	الدولة الاموية المفترى عليها دراسة الشبهات ورد المفتريات
اسم المؤلف :	الدكتورة / حمدي شاهين
عدد الصفحات :	٥٠٧
رقم الإيداع :	١٨٨٢٣
الترقيم الدولي :	I. S. B. N.
	977 - 314 - 115 - 2
سنة النشر :	٢٠٠١
الناشر :	دار القاهرة للكتاب
العنوان :	١١٦ شارع محمد فريد - القاهرة
البلد :	القاهرة - جمهورية مصر العربية
تليفون :	٣٩٢٩١٩٢
فاكس :	٣٩٣٣٩٠٩ - ٣٩٢٩١٩٢

بسم الله الرحمن الرحيم

يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء
بالقسط ، ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا
تعدلوا، اعدلوا هو أقرب للتقوى؛ واتقوا الله،
إن الله خبير بما تعملون .

سورة المائدة ، آية : ٨

مقدمة

يبحث هذا الموضوع — الذي سنتناوله في هذا الكتاب إن شاء الله — في تاريخ الدولة الأموية ؛ ويطمح إلى استجلاء ملامحها الأساسية على حقيقتها ، محاولا التحرر من تلك العوامل التي أسهمت على مدار قرون عديدة في تشويه تاريخ هذه الدولة ورجائها وأعمالها .. وذلك من خلال بحث الروايات التاريخية التي كانت عماد هذه النظرة المتحاملة على الأمويين ، وبيان مدى الصدق أو الزيف فيها ..

والبحث عن حقيقة التاريخ الأموي لا يعد ضرورة ثقافية فقط بل يستمد أهمية تربوية ومعنوية خاصة ، في ضوء ما نلمسه كبارا وناشئة من فوارق حمة بين نقاء عصر النبوة والخلفاء الراشدين — كما تصوره صفحات التاريخ — وقاتمة عصر الأمويين كما تصفه هذه الصفحات ، حتى لكاننا ننتقل في تصور هذين العصرين من حلم جميل إلى واقع ثقيل .. إن هذه النقلة المفصلة قصد منها — آلي حد كبير تقليص سنوات الأسوة والمجد والوضاءة في التاريخ الإسلامي .. لأغراض يعرفها من يقدرون دور التاريخ في صياغة الأمم ؛ والدفع بها إلى آفاق أرحب ..

إن قبول التاريخ الأموي كما يعرض علينا في جل كتابات القدماء والمحدثين يضعنا أمام تساؤلات ملحة تفرضها عدة تناقضات حادة ؛ فنحن أمام دولة حققت إنجازات كبرى في مجالات الفكر والعلم والأدب ، وشهدت قفزات هائلة — لم تتكرر — في مجال الفتوح ونشر الإسلام ، وقدمت شخصيات فذة تركت آثارا ضخمة في ميدان السياسة والحرب والإدارة ، واستمرت تقود المسلمين آنذاك — على اختلاف أجناسهم وألوانهم وأديانهم وطموحاتهم أكثر من تسعين عاما في دولة واحدة ، امتدت من حدود الصين إلى جنوبي فرنسا ..

غير أن كثيرا مما وصلنا من تاريخ تلك الدولة لا يظن مع عظمة منجزاتها السالفة الذكر ، فقد ذاع عن ذلك العصر أنه كان عصر مؤامرات سياسية وردة خلقية واضطراب اجتماعي وخلل اقتصادي واستهانة بمقدسات المسلمين ، فتولدت عن ذلك ثورات كثيرة وسالت دماء غزيرة ، وهو العصر الذي شهد — كما استقر في أذهان كثير من المسلمين — توارث الحكم بعد أن كان شورى ، وتبديد أموال الدولة على هوى حكامها بعد أن كانت مصنونة ، وهو العصر الذي شهد قتل الحسين ، وصلب ابن الزبير ، وضرب الكعبة بالجنانيق ، وانتهاك حرمة المدينة المنورة ، وظلم الموالي .. إلى آخر ما يشيع عن بني أمية ، وما أصبح يشكل في وعي الكثيرين صورة عن عصر قام ..

أما الإنجازات الكبرى التي سبقت الإشارة إليها فيثور حولها لغط كبير وغبش وجدال تصعب معه الرؤية الصافية والنظرة المتسقة ..
وبعيداً عن ذلك التباين والتناقض غير المبرر بين المنجزات والمثالب نرتد إلى هذه المسلمات الأساسية الواضحة ؛ إن تاريخ هذه الدولة يقع في دائرة خير القرون ؛ المشهود لها بذلك من المعصوم عليه السلام في قوله " خير الناس قرني ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم " (متفق عليه) ، ولا يمكن للعقل تصور هذه النقطة الكبيرة التي يتحدث عنها المؤرخون بين صفاء عصر الراشدين وظلام عصر بني أمية ؛ وليس الثاني إلا امتداد طبيعي للأول ، فيه عاش بقية رجاله ، ومن تبعهم بإحسان ، وصاغوا تاريخه وأمجأه .. مع التسليم بوجود فارق لا بد منه بين هذا العصر وذاك .

وإن ما خلفه الأمويون من آثار تاريخية خالدة — سبق بيان بعضها — لا يصدر عن حقبة تاريخية بهذه السوءات التي لا تلبث تضخمها كثير من كتابات المؤرخين وغيرهم .
كما أن التاريخ لا ينفرد بصياغته في عصر ما ثلثة من الرجال — ولو كانوا ممتازين — على امتداد هذه العقود من الزمان التي عمرتها الدولة الأموية ، وإنما هو نتاج عوامل شتى تتداخل فيها تأثيرات الزمان والمكان والبشر ، وتلعب فيها قوى المجتمع وتكويناته الظاهرة والمسترة دوراً كبيراً ... ومن خلال هذا المنظور ينبغي تفسير التاريخ الأموي ، فلا يجوز أن يتحمل حكامه من بني أمية كل أوزاره ومثالبه ، ولا أن ترد جميعها إلى صنعهم وتأثيرهم ، تماماً كما لا ينبغي أن تنسب إليهم وحدهم شرف كل أمجأه ومفاخره ...

إن هذه الحقائق الثابتة تقودنا إلى البدايات الطبيعية للبحث عن حقيقة التاريخ الأموي ، ألا وهي بحث الظروف التاريخية التي دُون فيها ذلك التاريخ ، والعوامل المتعددة التي حكمت ذلك التدوين أو أثرت فيه ، فقد تمت كتابة التاريخ الأموي في العصر العباسي ، وفي أجواء معادية لبني أمية ، وعلى أيدي رجال تعددت مذاهبهم واتجاهاتهم الفكرية ولواءاتهم السياسية ، وقد ترك ذلك كله آثاراً ضخمة على تناولهم تاريخ هذه الحقبة بالغة الأهمية والحساسية .. وعلى ذلك تأتي دراسة مصادر ذلك التاريخ وتحليل موقفها من بني أمية واتجاهات أصحابها ومؤلفيها في مكان الصدارة من هذا البحث ..

وإن دراسة مصادر ذلك التاريخ ، وكوفاً تمثل المادة الأولى للتاريخ الأموي لا يعني بحال عن دراسة كتابات المؤرخين المعاصرين عن هذه الفترة ؛ حيث أسهمت بشكل واسع في تشكيل رؤى الكثيرين عن الدولة الأموية .. ولما كان من الصعب تتبع كل هذه الكتابات المتشعبة والمتكاثرة بلغتنا العربية وبغيرها ، فقد اكتفيت بدراسة اتجاهاتها العامة

وملاحظها البارزة من حيث موقفها من بني أمية وتاريخهم إنصافاً أو تحريفاً ، مع تحليل نماذج محدودة من هذه الاتجاهات .. وقد شغلت هذه الدراسة الباب الأول من هذا الكتاب ..

وبعد ذلك جاء دور البحث في التاريخ الأموي نفسه في نواحيه المختلفة الدينية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية ... ولما كان التقيّد بالبحث في كل هذه النواحي - كما يقتضي عنوان الكتاب - يبدو عملاً ضخمًا يعجز عنه فرد واحد أو مجموعة محدودة من الأفراد ؛ لامتداد ذلك التاريخ زماناً ومكاناً ، وتشعب نواحيه وكثرة مصادره .. فقد اكتفيت بدراسة الشبهات البارزة التي لصقت بذلك التاريخ في عدة نواح منه ؛ وحاولت إثبات وجه الحق فيها ، ودراسة أقوال المؤرخين عنها ؛ في إنصاف وعدالة .. وقد احتلت هذه الدراسة الباب الثاني من هذا الكتاب ؛ حيث خصصنا الفصلين الأولين لبحث الشبهات المثارة حول موقف الأمويين من الإسلام منذ البعثة النبوية حتى قيام الخلافة الأموية ، مع ما سبق قيامها - وواكبه - من أحداث خطيرة الشأن منيرة للجدل وتباين الرؤى ، وكذا دراسة الشبهات المثارة حول تدين الحكومة واجتماع ودوافع الفتن والحركات الإسلامية في العصر الأموي ، وفي الفصل الثالث سنجد دراسة عن النظام السياسي في العصر الأموي مع بحث دعوى الاستبداد السياسي عند الأمويين ، وفي الفصل الرابع سندرس موقفهم تجاه المعارضة السلمية والمسلحة ؛ وبخاصة موقفهم من آل البيت وثورة الحسين رضوان الله عليه ، ثم بحثنا في الفصل الخامس موقفهم من الموالي والعصبيات القبلية التي تفجرت في عهدهم ، وخصص الفصل السادس لدراسة الشبهات التي ثارت حول سياستهم المالية ، في حين تناول الفصل الأخير الحديث عن منجزاتهم في ميدان الحضارة والفكر والعلوم ..

ورغم وفرة ما كُتب عن الأمويين فإن أكثره يتميز بالتكرار الملحوظ ، وسيطرة الآراء السائدة عن الأمويين ، وعديد منها لم يفد البحث إفادة حقيقية ، إذ يكفي بترديد روايات القدماء مع زهد واضح في بحثها وتحصيلها .. وقليل من هذه الكتابات الكثيرة تكفل ببحث بعض الشبهات المثارة حول تاريخ هذه الدولة ، وبعضها أعطى إشارات مركزة من الإنصاف لجوانب مختلفة من التاريخ الأموي دون أن يتفرغ لبحث الشبهات المثارة حول هذه الجوانب بحثاً مستفيضاً .

ولذا فإني أرجو أن تسد هذه الدراسة التي بين يدينا مكاناً شاغراً في المكتبة الإسلامية ، وأن تقدم جديداً في هذا الميدان الذي مازال يحتاج كثيراً من الجهد والعمل الدؤوب من أجل بحث جوانب هذا التاريخ المختلفة بحثاً جديداً يستهدف النصف والعدل ، وينفي عنها شبهات موروثة أفرزتها عوامل تاريخية خاصة مضى زمانها ..

ويدين هذا البحث لبعض هذه المصادر التاريخية الأولى والكتابات المعاصرة التي رسمت أطر الإنصاف للأمويين ، ونهت إلى ما أصاب تاريخهم من غبن وتحريف ، وقدمت الروايات التاريخية التي أسهمت في تقديم الرؤية المنصفة لهم ، وتقويم النظرة الموروثة عنهم .. فمن هذه المصادر تاريخ الطبري المعروف باسم تاريخ الرسل والملوك ؛ الذي أسهم بفيض رواياته ، وذكر أسماء رواة ، في معرفة اتجاهات هؤلاء الرواة ودورهم في تحريف التاريخ الأموي أو إنصافه ... وهي نفس المهمة التي أفادت فيها بصورة مباشرة كتب علم الرجال ؛ التي اهتم أصحابها ببيان أحوال الرواة ، وبعض هؤلاء كانوا يعملون في ميدان التاريخ والحديث معاً ، وقد قدمت هذه الكتب رأى علماء الحديث في عدالة هؤلاء الرجال أو جرحهم ، وهي آراء يجب أن يستأنس بها أو يلتزم الباحث في روايات التاريخ التي رواها هؤلاء الرجال .. وقد أفادت ، بصورة خاصة ، كتب المتأخرين من علماء هذا الشأن ، الذين جمعوا أقوال سابقهم من العلماء ، مثل كسابي " لسان الميزان " و " تهذيب التهذيب " لابن حجر العسقلاني ، على حين ترجم لعديد من هؤلاء الرواة والمؤرخين ياقوت الحموي في كتابه " معجم الأدباء " وابن النديم في كتابه " الفهرست " ، وقد أفدت من هذين الكتابين إفادة كبيرة ، وتكلفت كتب التراجم والطبقات بتقديم مزيد من المعلومات الضرورية عن هؤلاء الرواة والمؤرخين ، ونذكر منها بصورة خاصة " وفيات الأعيان " لابن خلكان و " تاريخ بغداد " للخطيب البغدادي ، وغيرها .

إن كتب الطبقات والتراجم قد أدت خدمة جليلة أخرى ، حيث قدمت رؤى أكثر موضوعية لبعض مشاهير بني أمية من الصحابة والتابعين ، ومن هذه الكتب " الطبقات الكبرى " لابن سعد و " سير أعلام النبلاء " للحافظ الذهبي و " الإصابة في تمييز الصحابة " لابن حجر و " تاريخ دمشق " لابن عساكر ، وغيرها ..

ومن المصادر القديمة التي أفادت البحث إفادة كبيرة : " فتوح البلدان " للبلاذري ؛ حيث يقدم معلومات مهمة فيما يخص الفتوحات الإسلامية في العهد الأموي ، ويقدم صوراً عديدة للاهتمامات الحضارية للأمويين ، وهو مصدر لا غنى عنه في هذا الجانب ، كما أنه ضروري لبحث السياسة المالية لبني أمية ، تماماً كما تفيد كتب الخراج في هذا المجال وعلى رأسها " الخراج " لأبي يوسف ..

أما كتب الأدب — بفهومه العام — فقد قدمت معلومات مهمة لفهم الحياة الاجتماعية في العصر الأموي . ولكنها يجب أن تدرس بمزيد من العناية والحد ، مثل " الأغاني للأصفهاني ، وكتابات الجاحظ المتنوعة ..

ومن المصادر المهمة في هذا المجال كتابات الفقهاء التاريخية حيث تناولت مسائل غاية في الأهمية فيما يخص مكانة زعماء بني أمية الأولين من الصحابة وكبار التابعين وقدمت تأويلات مهمة لاجتهادهم ، كما ناقشت المسائل المثيرة للتحامل على الأمويين ، مثل قتال معاوية عليا ، وتوليته العهد ابنه يزيد ، وقتل الحسين بن علي ، والثورات الأخرى ضد الأمويين مثل ثورة أهل المدينة ، وثورة ابن الزبير . وقد حاولت عرض هذه المباحث بشكل منصف للأمويين ؛ منبهة إلى حدوث تحريف كبير لتاريخهم ، ومن هذه الكتابات "منهاج السنة النبوية" لابن تيمية " ومقدمة " ابن خلدون و " العواصم من القواصم " لابن العربي ..

ومن الكتابات الحديثة التي تتصف بالرغبة في تحري الحقيقة ولا تستسلم لآراء التاريخية السائدة تعليقات الشيخ محب الدين الخطيب في تحقيقه لكتاب ابن العربي " العواصم من القواصم " وكتاب " المنتقى من منهاج الاعتدال " لابن تيمية ، وكذلك كتاب " محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية " للشيخ محمد الحصري ، و "مقدمة في تاريخ صدر الإسلام " للدكتور عبد العزيز الدوري وغيرها ... حيث تبهت هذه الكتابات إلى ما حدث من تحامل على الأمويين وعرضت نماذج لإنصافهم ..

وختاما فإني لأرجو أن يتقبل الله تعالى هذا العمل ؛ وأن يجعله خالصا لوجهه الكريم ، وأن يغفر لي ما شابه من نقص وتقصير وادعاء ؛ فقد كتب سبحانه على عباده النقص وتفرد بالكمال ... وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ...

الباب الأول

اتجاهات الكتابات التاريخية عن الدولة الأموية

تمهيد: صورة قائمة عن الأمويين في التاريخ:

ليس الغرض من عرض هذه الصورة القائمة عن الأمويين تكرار ما شاع عنهم من مثالب وعيوب ، ولا ما أحاط دولتهم من مطاعن واتهامات ، فذلك ما تكاد ترخر به كثير من كتابات المؤرخين عنهم في القدم والحديث ، ولكن يبدو أنه من الأجدي إعادة هذا الغرض بين يدي الحديث عن الأمويين وما تعرضوا له من إنصاف أو إجحاف ، لتستبين سبيل المقارنة البصرة بين حقيقة ذلك التاريخ كما حدث ، والصورة الشائعة التي عرفها كثير من الناس واستقرت في أذهانهم ، على أن هذه الشبهات التي ثارت حول تاريخهم سوف تكون موضع دراسة في خطوطها العريضة واتجاهاتها الكبرى في الجزأين التاليين من هذا الكتاب .. بمشيئة الله ...

أ) حول علاقة بني أمية وبني هاشم :

رغم أن بني أمية وبني هاشم ينتمون إلى جد واحد هو عبد مناف ؛ إلا أن عديدا من المؤرخين قد خصوهم بمطاعن حمة في نسبهم وشرف آبائهم في الجاهلية والإسلام على السواء^١ .. وقد ارتد بعض المؤرخين بصور العداء بين بني أمية وبني هاشم في الإسلام ليجعل لها أصولا منذ أيامهم الأولى ، فجعلوا هاشما وعبد شمس يولدان ملتصقين فلا يفرق بينهما إلا بالسيف^٢ ؛ فسالت الدماء بينهما في لحظة الميلاد ؛ ويمتد أثر ذلك فيتمثل في المفاخرات الدائمة — على ما يزعم هؤلاء المؤرخون — بين أمية وعمه هاشم بن عبد مناف ، وبين حرب بن أمية وعبد المطلب بن هاشم ، وفي كل مرة ينخزل بنو أمية وينتصر بنو هاشم^٣ ..

^١ المقرئزي : الزاع والتخاصم فيما بين بني أمية وبني هاشم ص 21—22 ، ابن أبي الحديد : شرح نهج البلاغة

336/1 ، العقاد : أبو الشهداء الحسين ص 6—47

^٢ المقرئزي : الزاع والتخاصم ص 18

^٣ ساء والملوك 252 — 254 ، المقرئزي : الزاع والتخاصم 21/20

فلما جاء الإسلام تحكّم العداء الموروث — كما يصور المؤرخون — في موقف الأمويين من الدين الجديد ، فحاربوه وطاردوا المؤمنين به بدافع العصبية المقيتة ^١ ، واستمر ذلك العداء بعد أن هاجر المسلمون إلى المدينة ، فقاد بنو أمية الجيوش ضد الإسلام في بدر وأحد والخندق وغيرها ، وقد اختلطت عداوة النساء بعداوة الرجال ، فمثلت هند بنت عتبة بجسد حزة بن عبد المطلب يوم أحد؛ وأخرجت كبده فلاكتها ولفظتها لما لم تسفها ^٢ ..

ولما انتصر الإسلام وفتحت مكة ، دخل بنو أمية في الإسلام ، ولكنهم — كما يرى بعض مؤرخينا — لم يكونوا صادقين في إسلامهم ؛ بل دخلوه مدفوعين بدوافع المصلحة الشخصية ، إذ رأوا في انتشار الدين الجديد عاملا من عوامل ارتفاع شأنهم وإعلاء كلمتهم ^٣ ، وظلوا دائما موسومين بأنهم الطلقاء ..

(ب) الأمويون في الطريق إلى الخلافة:

ولى الأمويون بعض الأعمال في حياة الرسول ﷺ — بعد الفتح — وفي خلافة أبي بكر وعمر رضي الله عنهما ، ولكن كان دورهم أكثر بروزا مع خلافة عثمان رضي الله عنه — وهو أحد بني أمية. وقد أحاطت خلافة عثمان شبهاً كثيرة عند المؤرخين ، ولكنهم يرجعون معظم أسباب الثورة عليه إلى الأمويين الذين كانوا — فيما يزعمون — وراء الدفع به نحو تولي الخلافة ، ثم كانوا — فيما يرى هؤلاء المؤرخون مستغلين تلك الخلافة حتى ولوا له معظم الولايات ، واتسمت ولايتهم لها بالاستهتار وعدم الكفاية ، وتنصب معظم الاتهامات هنا على مروان بن الحكم ومعاوية بن أبي سفيان والوليد بن عقبة ، فلما حوَصر عثمان نتيجة ممارسات أقاربه من الأمويين — فيما يروى مؤرخونا — استنجد بمعاوية وبني أمية فخذلوه ولم ينجدوه ؛ حتى قتله الناثرون عليه ^٤ ..

^١ سيد أمير علي : مختصر تاريخ العرب والتمدن الإسلامي ص 41 ، د. حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام السياسي

375/1-376 ، د. الطيب النجار : الدولة الأموية في الشرق بين عوامل البناء ومعاول القضاء ص 23

^٢ ابن هشام : السيرة النبوية 31/3 ، الطبري تاريخ الرسل والملوك 254/2

^٣ انظر سيد أمير علي : مختصر تاريخ العرب ص 41 ، د. حسن إبراهيم : السابق 284/1 ، علي سامي النشار :

نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام 229/2

^٤ راجع : جرحي زيدان : تاريخ التمدن الإسلامي ٦٣-٦٤ ، د. محمد جمال الدين سرور : الحياة

السياسية في الدولة العربية الإسلامية ص ٥٧ ، بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية ١/١٣٣ ، د. طه

حسين : الفتنة الكبرى ١/٩٨-١٢٥ ، د. إبراهيم بيضون : الحجاز والدولة الإسلامية ص ١٦١ ، د.

الخربوطلي : تاريخ العراق في ظل الحكم الأموي ص ١٤ ، د. محمد حلمي : الخلافة والدولة في العصر

الأموي ص ٦٧-٧٧ ، محمد مهدي شمس الدين : ثورة الحسين ص ٣٩-٤٠ ، فلهوزن : تاريخ الدولة

العربية ص ٤٠-٤١ ندلي جوري من تاريخ الحركات الفكرية في الإسلام ص ٦٠

فلما بويح علي بالخلافة تمرد عليه معاوية بحجة الطلب بدم الخليفة الشهيد ؛ واتخذ ذلك ستاراً للخروج على الخليفة الشرعي للمسلمين وطلب الخلافة لنفسه^١ ، وقد تم له مما أراد عبر ممارسات عديدة هي موضع النقد الشديد عند كثير من المؤرخين^٢ .. وكما تخلص من علي بن أبي طالب — كما يزعم المؤرخون —^٣ فعل مع منافسيه الآخرين حتى صفا له الجو فورث الخلافة لولده يزيد بن معاوية لتصبح ملكا يتوارث بعد أن كانت خلافة رحمة وشورى ..

(ج) تأريخ الخلفاء والولاة:

تعرض تأريخ الخلفاء الأمويين لقدر كبير من التشويه ، ولم يسلم من ذلك أحد ؛ وإن علا قدره في مضمار السياسة أو العلم ..

وظفر معاوية بن أبي سفيان بحظ وافر من فيض المطاعن والاقامات وكانت مواجهته علي ابن أبي طالب — بمكانته السامية عند المسلمين — سبياً في ذبوع هذه الاقامات وترسخها .. فوصفوا سياسته "بالمكيافيلية" وإرهاب الخصوم وإحياء الرعة القبلية وتخذيّل المعارضة بشل الروح الثورية وبث روح الجبر والإرجاء^٤ ، وقتل الخصوم بالسم والدعاء ؛ فكل من مات ولم يعرف سبب وفاته اهم معاوية بقتله ؛ وذكروا من ذلك موت الأشتر النخعي والحسن بن علي وسعد بن أبي وقاص وغيرهم^٥ ، هذا علاوة على الاقام القديم بتحويل مسيرة الأمة في الحكم وسلب حقها في اختيار خليفتها وجعل الخلافة ملكا هرقليا ، كلما مات هرقل قام هرقل^٦ ..

^١ السيوطي : تاريخ خلفاء ص ٢٠٠ ، الإمامة والسياسة ٩٨/١ ، دوزي : تاريخ مسلمي إسبانيا ٤٥/١ ،

محمد عبد الله عنان : تاريخ الجمعيات السرية والحركات الهدامة في المشرق ص ١٦

^٢ ابن طباطبا : الفخري ص ٩١ - ٩٣ ، راضي آل ياسين : صلح الحسن ص ٥٧ - ٥٨ ، فلهرون : تاريخ الدولة العربية ١٣٠ ، العقاد : عبقرية علي ص ٨١ ، عمر أبو النصر . الحسين بن علي ص ٣١ - ٣٢

^٣ الطبري : السابق ١٥٥/٥ - ١٥١

^٤ المراجع السابقة ، على سامي النشار نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام ٢٢٩/٢ بل شككوا في دينه — وهو كاتب الوحي — وزعموا أن الشافعي كان لا يقبل شهادة أربعة أحدهم معاوية : النظر أبو الفدا : المختصر في أخبار البشر ١٨٦/١ ، وزعم الجاحظ أن معاوية خرج من حكم الفجار إلى حكم الكفار ، وهو قول عجيب أملتة الخصومة المذهبية من رجل المعتزلة البارز ، أنظر رسالة في الثابتة ضمن مجموعة رسائل الجاحظ ١٢/٢

^٥ الطبري : السابق ٩٥/٥ - ٩٦ ، الأصفهاني : مقاتل الطالبين ص ٦٠ ، والنظر دحض ابن تيمية هذه

الاقامات في : منهاج السنة النبوية ٢٢٥/٢

^٦ محمد حلمي : الخلافة والدولة في العصر الأموي ص ١٥٨ - ١٥٩

ولم يقل نصيب يزيد بن معاوية من المطاعن عن نصيب أبيه ؛ إن لم يفقه ؛ ومشهور عنه ذلك الوصف بشرب الخمر والتفنن في ضروب اللهو والعبث^١ ، وكما كانت حروب معاوية لعللى كرم الله وجهه سببا في اشتداد الحملة عليه كان مقتل الحسين بن علي زمن يزيد بن معاوية سببا في إثارة قدر هائل من الكراهية والبغض له وبخاصة أن عصره شهد ثورة ابن الزبير وضرب الكعبة بانجانيق وإنهاء ثورة أهل المدينة المنورة بعد اقتحامها بصورة مروعة حسبما يفصل هؤلاء الرواة والمؤرخون^٢ ..

ولما مات يزيد وتولى بعده ابنه معاوية بن يزيد — وكان شابا زاهدا مشفقاً من تبعات الموقف تنازل عن الخلافة ورد الأمر شورى إلى الأمة ، ولكن المؤرخين لم يفتلوا عن إلصاق سبب موته السريع بعد ذلك بعشيرته من الأمويين الذين زعموا أنهم دسوا له السم فقتلوه^٣ .. واستطاع مروان بن الحكم أن يعيد للبيت الأموي وحدته ، ورد له سيطرته على الشام ومصر فوصفوه بعد موته بوضاعة النسب^٤ ، وجعلوا وفاته ضربا من الشذوذ حيث خففته امرأته بوسادها حتى مات^٥ ..

وجاء بعده ابنه عبد الملك بن مروان ، فاستطاع بمواهبه الفذة إعادة توحيد الأمة تحت قيادته ، ولم يجد معارضوه في حياته سبيلا لتحقيق آمالهم ، فأظهروا تاريخه بعد انقضاء دولته مزيجا من الأخبار المضطربة والروايات المتناقضة ، فهو كريم ولكنهم يلقبونه رشح الحجر لبحله^٦ ؛ وهو مهيب ولكنهم يلقبونه بأبي الذباب لبحره ، ويزعمون أن الذباب كان لا يمر لذلك أمام فمه إلا مات لوقته^٧ ؛ وهو فقيه عالم ، ولكنهم يجعلونه لما يأتيه خبر استخلافه يطبق المصحف في حجره ويقول هذا آخر العهد بك^٨ ، ويزعمون أنه منع المسلمين بالشام من الحج أيام ابن الزبير وبني لهم قبعة الصخرة ليظفروا حولها بدلا من الكعبة^٩ ..

^١ ابن الأثير : الكامل ٣١٧/٣-٣١٨ ، حيث يزعم أنه كان يشرب الخمر بحضرة الحسين بن علي ويدعوه لشربها

معه !!

^٢ يصفه المسعودي بأنه كان يسير سيرة فرعون ؛ بل كان فرعون أعذل منه في رعيته ؛ وأفضل منه لخاصته وعامته

(راجع : مروج الذهب ٧٨/٣)

^٣ المسعودي مروج الذهب 82/3

^٤ زعموا أن أمه كانت بغيا من ذوات الرايات : ابن طباطبا : الفخري ص 119

^٥ الطبري : السابق 610/5-611

^٦ ابن قتيبة : المعارف ص 105 ، القلقشندي : صبح الأعشى 477/5

^٧ النويري : نهاية الأرب في فنون الأدب 98/21

^٨ السابق والصفحة

^٩ اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي 7/3

أما إنجازاته الحضارية مثل سك العملة والتعريب فنسبونها إلى أسباب تافهة أو جعلوا دواعيها دواعي شخصية^١ ..

وكذلك صنعوا مع الوليد بن عبد الملك الذي كان ذا نزعة معمارية واضحة ، فقد جعلوا مثلاً إعادة بنائه مسجد الرسول ﷺ بغية إزالة حجرات النبي كيلا يقيم بها أبناء فاطمة الزهراء^٢ ..

وصور المؤرخون سليمان بن عبد الملك حقوداً قاسياً عصبي المزاج — فقد عزل قادة الفتح العظام مثل قتيبة بن مسلم ومحمد بن القاسم الثقفي وموسى بن نصير مدفوعاً بعوامل شخصية^٣ ؛ وزعموا أنه كره رؤية المجذومين فأمر بحرقهم لولا شفاعته عمر بن عبد العزيز^٤ ؛ كما أسرفوا في الحديث عن نممه وجهه الشديد للطعام^٥ ..

واقموا عمر بن عبد العزيز — خامس الراشدين — بالسلفية والتزمت^٦ ، وبأن ممارساته السياسية عجلت بنهاية حكم أسرته^٧ ؛ وتغادى بعضهم فنسب إليه ما لا يليق ولا يصدق عقل^٨ ، ووصفه أحد الكذابين بأنه أعور بين عميان .. متافق يدعى الورع^٩

وسطروا الأساطير عن يزيد بن عبد الملك وصوروه خليفة لاهياً عن مصالح دولته لاهئاً خلف جاريته ؛ ولما ماتت إحدهما رفض أن يدفنها وظل مقيماً بجوارها يكي حتى جففت ، ولما دفنوها عاد ينبشها من جديد^{١٠} ..

^١ د. عبد العزيز الدوري : مقدمة في تاريخ صدر الإسلام ص 15-16 ، البيهقي : الخاسن والمساوي 1/ 467-469 حيث يزعم أن سك العملة كان بمشورة الإمام الباقر محمد بن علي زين العابدين بن الحسين ؛ وعلى هذا فلا فضل لعبد الملك بن مروان إلا التنفيذ لوصية الإمام !

^٢ ابن رسة : الأعلاق النفيسة ص 68

^٣ د. حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسي 331/1 ، د . وفاء محمد علي : سليمان بن عبد الملك وعهده تصفية الحسابات (مقال بمجلة ندوة التاريخ الإسلامي ص ٨٧٢-٣١٣ ، العدد ٨ سنة ١٤١٠/١٩٩٠)

^٤ فنفاهم بعد شفاعته إلى قرية معزولة (انظر يعقوب : تاريخ يعقوب 35/3)

^٥ المسعودي : مروج الذهب 155/3

^٦ فان فلوتين : السيطرة العربية ترجمة إبراهيم بيضون ص 115 ، د . بيضون : الدولة الأموية والمعارضنة ص 34 ، د. حسن إبراهيم حسن : النظم الإسلامية ص 279

^٧ فان فلوتين : السيطرة العربية 115-116

^٨ يعقوب : تاريخ يعقوب 7/3

^٩ ابن أبي الحديد : شرح نهج البلاغة 254/15 ، المقرئ : الراع والتخاصم ص 16

^{١٠} الأصفهاني الأغاني 147/13 - 158 القرطبي : آثار الدول ص 141 ، ابن أبي الدم : التاريخ المظفر

أما هشام بن عبد الملك فحكوا الكثير عن بخله^١ ، وزعموا أنه أخذ يعلم ولده ذات يوم فجور قریش : قتل هذا وأخذ مال هذا^٢ ..

وكان الوليد بن يزيد محوراً لكثير من التشويه التاريخي الذي رسم له صورة الشاعر العاثر الذي لا يقيم وزناً لخرمات الدين ومقدسات المسلمين ، وينشد الأشعار التي يعلن فيها كفره البواح ، ويجعل المصحف غرضاً لسهامه في نوبة من نوبات الطيش والرق^٣ ، إلى غير ذلك من خيالات كثيرة وأساطير مستطيلة ، يستهجن ذكرها ويحسن إغفالها^٤ ..

وظل حال الدولة بعده في الهيار ، فقد ثار عليه أهله وجنده فقتلوه وولوا يزيد بن الوليد بن عبد الملك الذي لم يطل عهده فولي بعده أخوه إبراهيم بن الوليد فلم يستقم له الأمر حتى جاء مسروان " الحمار " كما يلقبه المؤرخون فحاول رد العافية إلى الجسد العليل ؛ فلم يقلح أمره ، واستمر حكمه في تضعف وثورات حتى قامت دولة العباسيين

ولاية الأمويين :

يمتاز التاريخ الأموي ببروز عديد من شخصيات الولاية الذين تركوا بصماتهم واضحة على أحداث ذلك العصر ، وإن عدداً من الأسماء المثيرة للجدل مثل عمرو بن العاص والمغيرة بن شعبة وزيد بن أبيه وعبيد الله ابنه والحجاج بن يوسف وخالد القسري وغيرهم لجدير بأن يلفت انتباه المؤرخين فيقفوا عندهم طويلاً ، ويتلون تاريخهم لهم بألوان شتى من الإعجاب أو الحيرة أو البغض الشديد .. وكما نلاحظ دائماً في التاريخ الأموي توارت الروايات التي تشيد هؤلاء الرجال فلا تظهر إلا على استحياء ، وتوزعت الصورة النهائية لهم بين الحديث عن " دهاء " هؤلاء الولاية والحديث عن " قسوتهم وجبروتهم " واستهتارهم بحرمات الدين

فوصف المؤرخون عمرو بن العاص بالدهاء الذي يكاد يكون مرادفاً لمعاني النفعية السياسية ، فقد كان — فيما يرون — من المخرضين على عثمان ثم تحالف مع معاوية بن أبي سفيان للطلب بدمه^٥ ، ووصفوا هذا التحالف بين الصحابين الجليلين بأنه " تحالف الصبيبة الأشقياء " ^٦ ، وأسرفوا في

^١ الطبري : السابق 204/7 — 205 ، المسعودي : مروج الذهب 222/3

^٢ ابن عبد ربه : العقد الفريد 448/4

^٣ المسعودي : السابق 228/3—229 ، ابن طباطبا : الفخري ص 134 ، ابن أعمش الكوفي : الفتح 137/8 —

140 ، العنقوبي : السابق 62/3 ، ابن عبد ربه : العقد الفريد 460/4

^٤ الأصفهاني : الأغاني 60/7 ، ص 19 171—172 ، المسعودي : السابق 228/3

^٥ فلهوون : تاريخ الدولة العربية ص 130 ، راضي آل ياسين صلح الحسن هاشم ص 227 ، العقاد : معاوية بن أبي سفيان في الميزان ص 100

^٦ د. محمد حلمي : الخلافة والدولة في العصر الأموي ص 83

الحديث عن دهاء عمرو الذي أنقذه من الموت في صفين بطريقة لا تليق^١، لينقذ معه معاوية من الهزيمة المحققة بمخدعة التحكيم، فظفر بعد قليل بولاية مصر طعمه جزاء له على خدماته الكبيرة^٢.. واثموا المغيرة بن شعبة بالكذب والاستغلال^٣ والسخرية بأحكام الدين^٤، وزعموا أنه كان وراء استخلاف معاوية لابنه يزيد كي يضمن استمرار ولايته على العراق^٥. وتحدثوا كثيرا عن استلحاق معاوية زياد بن أبيه وكيف تحكمت رغبة معاوية في ضم زياد إليه والإفادة من ذكائه وخبراته في إتمام هذا الاستلحاق^٦..

أما الحجاج بن يوسف فأحاطته أجواء الدعاية بغيوم ملبدة من يوم أن ولد حتى مات!.. فكان مولده في جو دموي نسجته أسطورة تزعم انه ولد مشوها لا دبر له؛ وأنه أبي أن يقبل ثدي أمه أو غيرها حتى تمتل لهم الشيطان في صورة الحارث بن كلدة فوصف لهم أن يذبحوا ذبائح ويولغوه دمها ثلاثة أيام فسوف يقبل الثدي في اليوم الرابع^٧، وخرجوا بقسوة الحجاج المعروفة عن حدود العقول؛ فزعموا أنه قتل في يوم واحد في مسجد البصرة سبعين ألفا، وأنه قتل صبرا مائة وعشرين ألفا؛ سوى من قتل في معاركه وحروبه، وأنه مات في مجنه ألف رجل وثلاثون ألف امرأة منهم ست عشرة ألفا مجردة^٨، وأنه — فيما يزعمون — صلب ابن الزبير لما هزمه بعد أن سلخ جلده وحشاه تبنا^٩!!

^١ الإمامة والسياسة المنسوب لابن قتيبة 107/1، البيهقي: الخاسن والمساوي 53/1 حيث يزعمان أنه بارز عليا فلما علاه على بالسيف وأدرك أنه مقتول سقط عن فرسه وتلقى عليا بعورته فاستحيا وتركه..

^٢ راضي آل ياسين: صلح الحسن هاشم ص 227

^٣ فلهوزن: تاريخ الدولة العربية ص 111

^٤ الطبري: السابق 160/5 — 161، ابن الأثير: الكامل في التاريخ 202/3

^٥ الإمامة والسياسة 165/1

^٦ النظر أبا القدا: المختصر في تاريخ البشر 186/1

^٧ المسعودي: مروج الذهب 132/3، ابن العماد: شذرات الذهب في أخبار من ذهب 107/1، العيني: عقد الجمان 401/11

^٨ الإمامة والسياسة 32/2—33، المسعودي: مروج الذهب 175/3

^٩ ابن الأثير: الكامل في التاريخ 27/4 — بل يزعمون أنه صلبه سنة حتى عتش فيه الحمام والفرخ وعندما تسلمته أمه تقطع ثم تماسك وأثما حاضت آنذاك — وهي في حوالي التسعين من العمر — ينزل اللبن من ثديها؛ فقالت: "قد حنت إليه مواضعه، ودرت عليه مواضعه"، الكشي: فوات الوفيات 212/1

أما عن دينه فقد أخرجه بعضهم من حظيرة الإسلام ، وأقمه بالكفر ، وما الظن برجل يرمونه بالتطاول على أنبياء الله ؛ فضلا عن أوليائه ^١ ..
وجاء خالد بن عبد الله القسري — أمير الحجاز ثم العراق — في إبان انبعاث العصية القبلية بين المضربة واليمية فجاء تاريخه مهلهلا ، فشكك المؤرخون في نسه ؛ وحاول بعضهم نفيه من قبيلته " قسر " ورده إلى يهود تيماء ^٢ ، وشككوا في أخلاقه فأقموه بالتخنث واللهو ، ثم رموه بالزندقة والتطاول على أنبياء الله وأوليائه ^٣ ، وكانت أمه نصرانية فكان — فيما يزعمون — يولى النصرى والنجوس على المسلمين ، وكانوا يشترون الجوازي المسلمات ويطنوهن فيطلق ذلك لهم ولا يغير عليهم ^٤ ، وهكذا قدموا تاريخ هؤلاء الولاة في صورة كريهة تنطق بالتحامل والعداء ..

(د) تصوير المؤرخين نظام الحكم والمجتمع في العصر الأموي :

صور كثير من المؤرخين الحكم الأموي بأنه كان حكم استبداد وسفك دماء وإرهاب في مناخ مشبع بالخوف بواسطة طبقة من الأرستقراطية القرشية ^٥ ووصفوه بأنه الحكم الذي جوع الشعب المسلم وصرف أمواله في الملذات والرشا وشراء الضمائر وقمع حركات التحرر واكتر الأموال بالقهر والعسف ^٦ .. وأقموه بالفساد الخلقي وشيوع الانحلال والعبث ^٧ ، والعودة إلى روح الجاهلية بأحقادها وصراعاتها القبلية ^٨ ، وانعكس أثر ذلك على المجتمع والشعب الذي سرت فيه

^١ المسعودي : السابق ١٥١/٣ ، حيث يزعم أنه وصف سليمان عليه السلام بالحسد والبخل ، بينما يناقض نفسه فينقل عنه قبل ذلك بصفحة واحدة وصفه إياه بالعبد الصالح !!

^٢ الأصفهاني : الأغاني ١٧/٢٢-١٨

^٣ السابق ٢٢-١٥-١٧ ، يعقوبي : تاريخ يعقوبي ٣٢/٢

^٤ الأغاني 16/22

^٥ د. حسن إبراهيم حسن تاريخ الإسلام السياسي 331/1 ، النظم الإسلامية 23 ، إبراهيم بيشون : الحجاز والدولة الإسلامية ص 248 ، الدولة الأموية والمعارضة ص 24

^٦ محمد مهدي شمس الدين : ثورة الحسين ص 177 ، جرحى زيدان : تاريخ التمدن الإسلامي 87/4 ، 89

^٧ حيث زعموا شيوع قصص الحب العذري والصريح في ذلك العهد (انظر لتفيد ذلك محمود شاكور : التاريخ الإسلامي 42/4-43) حتى اعتبر بعضهم موسم الحج موسما للشعر والغناء ، ومعرضا إسلاميا للجمال (انظر طه حسين : حديث الأربعاء 292/1 — 293)

^٨ د. حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام السياسي ١ / ٢٨٤ ، د. محمود إسماعيل : الحركات السرية في الإسلام

السلبية والجهل والاستخفاف بالدين^١، حتى أصبح بعض أشياخهم وأهل النعمة والرياسة فيهم لا يعرفون أهل بيت نبهم فيما يزعم هؤلاء المؤرخون^٢..

هـ) الفتوحات الإسلامية في عصر بني أمية وأحوال الموالي:

امتدت الفتوحات الإسلامية في عهد الأمويين لتشمل ما بين حدود الصين في أقصى الشرق وبلاد الأندلس وجنوبي فرنسا في أقصى الغرب؛ وما بين التوبة في الجنوب إلى أراضي آسيا الصغرى وقديد القسطنطينية — عاصمة البيزنطيين العتيدة — في أقصى الشمال وحصارها عدة مرات^٣.

لكن بعض المؤرخين وجدوا في هذه المفاهيم وسائل للهجوم أيضا فصوروا التقدم الإسلامي والفتوحات بأنها كانت " احتلالا مسلحا يذكرنا بالاحتلال الروماني قديما والاحتلال الإنجليزي حديثا^٤، وعلى ذلك فلا يصح اعتباره تلاحا بين جنس وآخر أو انتصارا روحيا لدعوة ما^٥، بل جعلوه صورة لشعب يعيش حالة على شعب آخر^٦، وجعلوا الهدف من هذه الفتوحات العظيمة التغلب وحشد الأموال^٧، ورآها آخرون أحيانا حملات للإرهاب وقطع الطريق ضد شعوب لا تبغي سوى السلام^٨..

ونمي كثير من المؤرخين حال الموالي وما تعرضوا له من ظلم على يد الأمويين على ما يتصور هؤلاء، فزعموا أن نظرة الأمويين إلى الشعوب المغلوبة كانت نظرة السيد للمسود، ونظرة الاحتقار والازدراء^٩.

^١ فكانوا لا يفرقون بين الجمل والناقة في دمشق (انظر : المسعودي : مروج الذهب ٣ / ٤١) ويصلي لهم معاوية — فيما يزعمون — الجمعة يوم الأربعاء (المسعودي : السابق والصفحة) ويتناول بعض أمرائهم الطعام على منبر الرسول ﷺ بالمدينة فيما يزعم صاحب الإمامة والسياسة (٢ / ١٧٧-١٨)

^٢ المسعودي : السابق ٣ / ٤٢-٤٤

^٣ سيأتي حديث أكثر تفصيلا عن الفتح في الجزء الثاني .

^٤ سيدة كاشف : مصر في فجر الإسلام ص ٧٣

^٥ فان فلوتين : السيطرة العربية ، ترجمة ييخون ص ٧٧

^٦ السابق ص 78

^٧ جرجي ريداء : تاريخ التمدن الإسلامي ٤ / ٩٣

^٨ هلوتس . السابق ٨١

^٩ د حس إبراهيم حس تاريخ الإسلام السياسي 542/1 ، وانظر ص ٣٤٩

١) موقف الأمويين من حركات المعارضة :

واجه الأمويون عددا من حركات المعارضين لهم كالشيعة والخوارج والزبيريين والموالي ، وكان كثير من هذه المواجهات عنيفا ، أريق في الدماء ، وبددت فيه طاقات الأمة .. والاتجاه العام لتناول المؤرخين لهذا البحث يتجه إلى وجهتين :

١ - تمجيد الحركات المعارضة للأمويين فكرا وقيادة :

فيصور بعض المؤرخين حركات المعارضة على أنها حركات تقدمية ضد السلطة الطاغية ؛ فالتشيع - كظاهرة سياسية - يرمي إلى معارضة السلطة الجائرة عبر ثورة إصلاحية^١ ، والخوارج شكلوا حزبا سياسيا يتبنى العدالة الاجتماعية كما نادى بها الإسلام^٢ ، وثورات الموالي كانت بسبب الظلم الذي تعرضوا له من الأمويين ذوي النظرة العصبية الضيقة^٣ ، أما العباسيون الذين ظفروا ببني أمية في نهاية الأمر فقد كانت دولتهم هي "الدولة المباركة"^٤ ، وهي التي أنقذت المسلمين من دولة الأمويين التي كانت على ما يصف ابن طباطبا "مكروهة عند الناس ملعونة مذمومة ؛ ثقيلة الوطأة ، مستهترة بالمعاصي والقبالح ، فكان الناس من أهل الأمصار ينتظرون دولة ببني العباس صباح مساء"^٥

وقادة المعارضة كانوا - كما يصورهم المؤرخون - أطهارا حوارين بخلاف بني أمية .. وتعدت محاولات تمجيد معارضي الأمويين مجال الرواية التاريخية إلى محاولة وضع الأحاديث النبوية لتمجيدهم ، وقد تتبع ابن الجوزي في كتابه "الموضوعات" - الذي أوضح فيه كثيرا من الأحاديث الموضوعية - بعض هذه المحاولات ، ويظهر منها أنهم جعلوا الحسن والحسين رضي الله عنهما إمامين معصومين شأن أئمة الشيعة ، ونسبوا إلى رسول الله ﷺ نعيه الحسين ولعنه قاتله^٦ ، وزعموا أن الله تعالى أوحى إلى رسوله أني قتل بيحيى بن زكريا سبعين ألفا ، وأن قاتل بابن بترك سبعين ألفا وسبعين ألفا^٧ ..!!

^١ د. ييغون : الدولة الأموية والمعارضة ص 47

^٢ د. محمود إسماعيل : الحركات السرية في الإسلام ص 15

^٣ فلوتن : السيطرة العربية 113 ، 222

^٤ البلاذري : فوح البلدان ص 147

^٥ ابن طباطبا : الفخري ص 143

^٦ ابن الجوزي : الموضوعات 409/1

^٧ نفسه 408/1

أما عبد الله بن الزبير ؛ فقد كان معروفا بكثرة عبادته ، غير أن بعض المؤرخين يبالغ في ذلك فيجعله قد قسم دهره على ثلاث أحوال : فليلة قائما حتى يصبح ، وليلة راكعا حتى يصبح ، وليلة ساجدا حتى يصبح^١ ، وزعموا أنه مكث أربعين سنة لم يزع ثوبه عن ظهره^٢ ..
ونال العباسيون مزيدا من التمجيد لجدهم العباس بن عبد المطلب فنسبوا إليه وإلى ولده من الفضائل الكثير ، وأسبغوا المشروعية — على لسان النبي ﷺ — على ثورتهم ؛ فقد جعلوا العباس وصي النبي ﷺ ووارثه ورفيقه في الجنة^٣ ، ونسبوا إلى الرسول ﷺ قوله — فيما يزعمون أنه رواه عن ربه — : " إذا سكن بنوك السواد ولبسوا السداد وكان شيعتهم أهل خراسان لم يزل الأمر فيهم حتى يدفعوه إلى عيس بن مرجم"^٤ ..

٢- تجريم المواجهة الأموية لحركات المعارضة :

ومواجهة الأمويين للمعارضة — في تصور هؤلاء المؤرخين — تتسم بالقسوة والوحشية ، ويجدر دراسة أسباب هذه القسوة في داخل نفوس بني أمية وخلفائهم الجاهلية ، فيما يرى هؤلاء المؤرخون ، لا من خلال الممارسات السياسية للمرحلة والمعطيات التاريخية الخاصة لعصرهم .
فيزعمون أن تلك الروح الجاهلية والتأثر لأجداد الأمويين الصرعى في معاركهم ضد الإسلام قبل الفتح ، كانت وراء عنف مواجهتهم لثورة الحسين حتى إن مروان بن الحكم لما أتهه رأس الحسين رمى بها نحو قبر النبي عليه السلام — كما يزعم بعض المؤرخين — وهو يقول : يا محمد ؛ يوم بيوم بدر"^٥ .. وأنه لما قتل الحسين هتف يزيد بن معاوية فيما يزعمون قائلا :

ليت أشياخي بدر شهدوا
جزع الخزرج من وقع الأسل^٦

وادعى بعض المؤرخين أن الأمويين استباحوا المدينة المنورة في موقعة الحرة في خلافة يزيد ثارا من أهلها الذين قاتلوا الأمويين في بدر وأحد وغيرها^٧ ..
إني غير ذلك من مبالغات وأغاليط سوف نعرض لبعضها عند الحديث عن هذه الثورات ..

^١ التبري نهاية الأرب 143/21

^٢ السابق : 145/21

^٣ ابن الجوزي : الموضوعات 31/2 — 32

^٤ السابق والصفحة

^٥ ابن أبي الحديد : شرح نهج البلاغة 72/4

^٦ ابن عبد ربه العقد الفريد ٣٩٠/٤

^٧ د طه حسين الفتنة الكبرى 226/2 ، د بيضون الحجاز والدولة الإسلامية 207 208

نرى دور بعض كتب التفسير والحديث في تحريف التاريخ الأموي :

لعبت كتب التفسير والحديث دوراً مهماً في تحريف التاريخ الأموي ؛ وقام رواة الفرق الإسلامية خاصة الشيعة بث أفكارهم وتصوراتهم في هذا المجال^١ ، والحقيقة أن هذه الجهود لم يستشر خطرهما — مثلما حدث في روايات التاريخ — وذلك لأن العلماء المسلمين قد تعقبوا محاولات الكذب في التفسير والحديث منذ عصر مبكر ، فنبهوا إليها وحذروا منها ؛ فالكشف أمرها ، وقلل خطرهما ..

فقد عقد السيوطي فصلين في كتابه " تاريخ الخلفاء " يتضح فيهما إلى أي مدى تسرب الطعن ضد بني أمية إلى الحديث الشريف الذي بذل علماء الأمة جهوداً مضنية في صيانته وحفظه .. أما الفصل الأول فتحت عنوان : " فصل في الأحاديث المنذرة بخلافة بني أمية " وأما الفصل الثاني فتحت عنوان : " فصل في الأحاديث المبشرة بخلافة بني العباس " .

وجاء في الفصل الأول عدة أحاديث منها : قال رجل للحسن بن علي لما صالح معاوية بن أبي سفيان : " سودت وجوه المؤمنين ، فقال : لا تؤنّبني رحمك الله ؛ فإن النبي ﷺ رأى بني أمية على منبره فسأه ذلك ، فرلت : إنا أعطيناك الكوثر " ونزلت : " إنا أنزلناه في ليلة القدر ، وما أدراك ما ليلة القدر ، ليلة القدر خير من ألف شهر " يملكها بنو أمية بعدك يا محمد^٢ .. وروى ابن جرير الطبري في تفسيره : " رأى رسول الله ﷺ بني الحكم بن أبي العاص يرون على منبره نزول القردة فسأه ذلك ، فما استجمع ضاحكا حتى مات ، وأنزل الله في ذلك " وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس^٣ .. وجاء في الفصل الثاني عدة أحاديث تمتدح العباس وبنيه وتبشر باستمرار خلافتهم حتى نهاية العالم^٤ ..

^١ انظر . ابن رسته الأعلام النفسية ص 65 ، الكليني : الكافي 424/1 ، وانظر مبحث " موقف الشيعة من القرآن وأدلة اعتقادهم تحريفه " في كتاب الشيعة والسنة لاحسان إلى ظهور ص 57 وما بعدها .. وابن حزم الظاهري : الفصل في الملل والأهواء والنحل ١٤٦/4 ، وراجع : فاهد عبد المجيد : مسائل الخلاف الفقهي بين الشيعة الإمامية وأهل السنة ، فصل بعنوان : رأي الشيعة في تحريف القرآن ص ٧٢-١٠٦

^٢ ابن الأثير الكامل في التاريخ 204/3 ، وقال ابن كثير في البداية والنهاية 19/8 : حديث غريب ، بل منكر جدا

^٣ سورة الإسراء من آية ١٧ ، وراجع الطبري : جامع البيان ١٤ / ٧٥-٧٩ ، الشوكاني : فتح القدير ٣/٢٣٠

^٤ السيوطي 13-15 ، وما يستغرب لجوء السيوطي إلى رواية هذه الأحاديث مع علمه بحقيقة وضعها ؛ ولكن ذلك الاستغراب يقل حين نعرف مدى عمق الصلة بين السيوطي والخليفة العباسي المتوكل في القاهرة ؛ حتى لقد كتب له رسالة بعنوان " الأساس في مناقب بني العباس " ؛ جمع فيها بناء على طلب الخليفة أربعين حديثاً نبوياً في فضائل بني العباس ؛ ولا ريب أن معظمها أحاديث موضوعة مثل التي مضى ذكرها (راجع هذه الرسالة وهي مخطوطة في المكتبة الأزهرية تحت رقم ٤٠٢٢ تاريخ ، وراجع عن صلات السيوطي بهذا الخليفة العباسي مقال د. حنين ربيع : منهج

وهذه الأحاديث — كما هو واضح — ظاهرة الوضع ؛ وقد نبه السيوطي نفسه إلى ذلك عند سرد بعضها ...

وربما تصبغ الوضعون خلفاء بني أمية واحدا واحدا يضعون في ذمهم الأحاديث ؛ وقد ظفر معاوية بن أبي سفيان وابنه يزيد بحظ وافر منها .. فمما وضعوا في معاوية حديث " إذا رأيتم معاوية يخطب على منبري هذا فاقتلوه " ^١ ، وحديث " لا تذهب الأيام والليالي حتى يجتمع أمر هذه الأمة على واسع السرم ، ضخم البلعوم ، يأكل ولا يشبع ، لا ينظر الله إليه ، ولا يموت حتى لا يكون له في السماء عاذر ، ولا في الأرض ناصر ، وإنه لمعاوية ، وإن عرفتم أن الله بالغ أمره " ^٢ .. وقد يجمعون معاوية مع عمرو بن العاص أحيانا ، مثل زعمهم أنه ﷺ سمعهما يتغنيان فقال " اللهم اركسهما في الفتنة ركسا ، اللهم دعهما في النار دعا " ^٣ ، كما يجمعون معاوية وابنه يزيد في مثل زعمهم أنه ﷺ قال : " يطلع عليكم رجل يموت على غير سنتي ، فطلع معاوية ، وقام النبي ﷺ خطيبا : فأخذ معاوية بيد ابنه يزيد وخرج ولم يسمع الخطبة ، فقال النبي ﷺ : " لعن الله القائد والمقود ، أي يوم يكون للأمة مع معاوية ذي الإساءة " ^٤ ، كما نسبوا إلى الرسول ﷺ حديثا يقول : " لا بارك الله في يزيد الطعان اللعان ، أما إنه نعي إلى حبيبي حسين ، وأتيت بترته ، وأريت قاتله ، أما إنه لا يقتل بين ظهرائي قوم ولا ينصروه إلا عمهم الله بعقاب " ^٥ ، وقالوا إنه ﷺ قال " لا يزال أمر أممي قائما بالقسط حتى يثلمه رجل من بني أمية يقال له يزيد " ^٦ ..

وكما نكروا اسم يزيد هذا لعله يصلح لابن معاوية أو لابن عبد الملك أو لابن الوليد ، أو لهم جميعا ، فقد نكروا اسم الوليد في هذا الحديث الموضوع : " ليكون في هذه الأمة رجل يقال له

السيوطي في كتابة التاريخ ، ضمن كتاب : جلال الدين السيوطي ص ٥١-٥٢ ، و د. الخربوطلي : دراسات نقدية وتحليلية لكتاب تاريخ الخلفاء للسيوطي ، مقال ضمن المرجع السابق ص ١٦٤)

^١ ابن الجوزي : الموضوعات 24/2-26 ، السيوطي : اللآلئ المصنوعة في الأحاديث الموضوعة ١/ ٢٢٠-٢٢١

^٢ الأصفهاني مقاتل الطالبين 76 وقال الذهبي في منهاج الاعتدال : سفيان (راوي الخبر) مجهول والخبر منكر ..

^٣ ابن الجوزي الموضوعات 28/2 : السيوطي : اللآلئ المصنوعة ١/ ٢٢١-٢٢٢

^٤ ابن تيمية : منهاج الاعتدال (اختصره) الحافظ الذهبي ص 258 — 259

^٥ قال ابن الجوزي في الموضوعات 46/2 : هذا الحديث موضوع بلا شك ...

^٦ السيوطي : تاريخ الخلفاء ص 139 ، ابن طولون : قيد الشريد في أخبار يزيد ص 36-37 ، ورواه البخاري في

التاريخ الكبير وقال حديث معلول وانظر الهيثمي مجمع الروايات ٢٤١/١-٢٤٢

الوليد ؛ هو شر على هذه الأمة من فرعون لقومه " ١ ؛ لعله ينطبق على الوليد بن عبد الملك أو الوليد بن يزيد أو عليهما جميعا ٢ ..

هذا ناهيك عن وضع أحاديث كثيرة في فضائل علي بن أبي طالب ٣ والحسن والحسين ٤ والعباس بن عبد المطلب ٥ وعلى بن الحسين بن علي ٦ ، وفي كثير منها يقذف بني أمية بأشنع الأوصاف ٧ ..

١ ابن الجوزي : الموضوعات 46/2

٢ وقد ذهب ابن الجوزي آلي هذا الظن بالفعل ، فقال : " فإن صحت هذه الرواية ودلت على ثبوت الحديث ؛ فالوليد ابن يزيد أولى به لأنه كان مشهورا بالإلحاد ، مبارزا بالعناد " (الموضوعات 47/٢)

٣ ابن الجوزي : السابق 338/1-339، 347، 350، 355 — 370

٤ ابن الجوزي : السابق 405/1 — 409

٥ السابق 30/2 — 39

٦ السابق 44/2 — 45

٧ السابق 371/1، 409، 12/2

الفصل الأول

أدلة تحريف التاريخ الأموي وأسباب ذلك التحريف

المبحث الأول: أدلة تحريف التاريخ الأموي

رأينا فيما مضى أمثلة لتلك الروايات التاريخية التي تشتمل منها رائحة الوضع والمبالغة والاختلاق ، ويتضح منها مدى التحامل الذي تعرض له بنو أمية عند تدوين تاريخهم .. كما مرت بنا أمثلة أخرى محاولات تشويه تاريخ الأمويين بالكذب والدس في بعض كتب التفسير وبعض الأحاديث الشريفة ؛ على ما في ذلك من خطورة عظيمة لما للقرآن والحديث من مكانة خاصة عند المسلمين ، مما دفع بجمهرة من علماء الأمة إلى التصدي لهذه المحاولات وكشف زيفها وتعقب أصحابها. وإذا كان الله تعالى قد قبض للحديث الشريف من يكشف صحته من ضعفه وموضوعه ، لما له من أهمية تشريعية خاصة فإن طبيعة علم التاريخ واتساع مجاله وتعدد عصوره وفيض رواياته قد وقفت حائلا دون تتبع كل محاولات التحريف والكذب فيه ، على اتساع مصادره وتنوعها .. ورغم ذلك فقد ظلت هناك أدلة متعددة على حدوث تحريف كبير للتاريخ الإسلامي بوجه عام والتاريخ الأموي — الذي هو جزء منه — على نحو خاص ... ومن هذه الأدلة :

أولا: إثبات بعض المؤرخين القدماء حدوث التحريف في التاريخ الإسلامي وتحذيرهم منه:

لقد تنبه بعض كبار مؤرخينا القدماء إلى شيوع الوضع في الرواية التاريخية إلى درجة أن هؤلاء المؤرخين لم يجدوا بدا من ذكر هذه الأخبار الموضوعة لشيوعها أحيانا ولكيلا يتهمهم أحد بجعل شيء ذكره آخرون ، أو لأنهم كانوا يعتبرون من الأمانة العلمية أن يذكر أحدهم كل ما يروى له ، واتجه فريق آخر منهم إلى الانتقاء من هذا الركام الكبير فاختار ما صح عنده ونبه إلى زيف كثير مما عده .. فيقول شيخ مؤرخينا القدماء ابن جرير الطبري في مقدمة كتابه " تاريخ الرسل والملوك " : " فما في كتابي هذا من خبر يستكره قارئه ، أو يستشعره سامعه من أجل أنه لم يعرف له وجهها في الصحة ، فليعلم أنه لم يؤت ذلك من قبلنا ، وإنما أتى من قبل بعض ناقله إلينا ، وإنما أدينا ذلك على نحو ما أدى إلينا " ^١ .. ويروى أبو الفرج الأصفهاني ما يعتبره من الأكاذيب وبينه إليه أحيانا فيقول

^١ الطبري : السابق 8/1

: ".... وهذا من أكاذيب ابن الكلبي ، وإنما ذكرته على ما فيه لئلا يسقط من الكتاب شيء قد رواه الناس وتداولوه" ^١ ..

هذا بينما ينتقي ابن الأثير بعض الروايات ويهمل بعضها ويقول في سبب ذلك : " لم أذكر في موقعة الجمل إلا ما ذكره أبو جعفر (يعني الطبري) إذ كان أولق من نقل التاريخ ، فإن الناس قد حشدوا تواريخهم بمقتضى الأهواء " ^٢ .. ويشن ابن العربي حملة عنيفة على أهل الأهواء من المؤرخين ولا يثنى إلا برواية أهل الحديث الذين يتفحصون رواياهم ويميزون بين غنها وسميتها ، فيقول : " ولا تقبلوا رواية إلا عن أئمة الحديث ، ولا تسمعوا كلاما لمؤرخ إلا للطبري " ^٣ وغير ذلك هو الموت الأحمر والخطر الأكبر ، فإنهم ينشئون أحاديث استحقار الصحابة والسلف والاستخفاف بهم ، واختراع الاسترسال في الأقوال والأفعال عنهم ،... فإذا قاطعتم أهل الباطن واقتصرت على رواية المدول سلمتم من هذه الحوائل " ^٤ .. ويحذر ابن خلدون من قبول الروايات الموضوعية في حق الصحابة والتابعين ، فيقول : " فكثيرا ما يوجد في كلام المؤرخين أخبار فيها مطاعن وشبه في حقهم ، أكثرها من أهل الأهواء " ^٥ ، ولا يكتفي ابن خلدون بذلك بل يتوقف بحسه التاريخي الواعي لدراسة هذه الظاهرة وشرح عللها وأسبابها ^٦ ..

ثانيا : شيع الكذب على الأمويين في دولتهم وبعد زوالها :

في أيام دولتهم تعرض الأمويون لعداء عديد من الفرق الإسلامية — كما سيأتي بيانه — فحاول بعض أنصارها تشويه صورة رجال هذه الدولة أثناء وجودها وبعد زوالها ... من ذلك ما رواه أبو الفرج الأصفهاني من أنه لما تزوج خالد بن يزيد بن معاوية رملة بنت الزبير بن العوام أنشد فيها أبياتا من الشعر تقول:

أحب بنى العوام طرا لحبها ومن حبها أحببت أخوالها كلها ..

فلتلق بعض خصوم الأمويين هذه الأبيات وزاد فيها ..

فإن تسلمي نسلم ، وإن تنصري يسخط رجال بين أعينهم صلبا

^١ الأغاني 40/10 ، 182/18

^٢ الكامل في التاريخ 25/4

^٣ بسبب ذكره أسانيد رواياته فبين منها أصحاب الصدق أو الكذب من الرواة ..

^٤ المواصم من القواصم 260—261

^٥ المعبر 188/2

^٦ راجع : المقدمة 35/1

فلما سمع عبد الملك بن مروان هذا الشعر قال لخالد : تنصرت يا خالد ؟ فقال : وما ذاك ؟ فأنشده هذا البيت ، فقال خالد : على من قاله ومن لحنيه لعنة الله ^١ ..

وقد يكون الخوف من بني أمية حال أحيانا دون التماذي في صنع الروايات ضدهم ، فلما ذهبت دولتهم اتسع نطاق الكذب عليهم ، حتى أصبح الكذابون يقدمون قصصا مخترعة بكاملها ؛ فقد ذكر الأصفهاني أيضا أنه قد وقع فخار بين رجل من زنادقة الشعوبية ورجل من ولد الوليد بن عبد الملك — وذلك في دولة بني العباس — خرجا فيه إلى أن أغلظا المسابة ، فوضع الشعبي عليهم كتابا زعم فيه أن أم البتين زوجة الوليد بن عبد الملك عشقت الشاعر وضاح اليمن ، فكانت تدخله صندوقا عندها إن خافت عليه أن يتكشف أمره ، فوقف على ذلك خادم للوليد فأفأه إليه ، وأراه الصندوق فأخذه الوليد فدفعه ودفن الشاعر فيه حيا ^٢ .. وسوف يأتي مزيد بيان لذلك عند الحديث عن دور الفرق الإسلامية في الكذب على الأمويين ..

٣) "كتب ضائعة في فضائل بني أمية"

حكمت دولة بني أمية المسلمين أكثر من تسعين سنة ، وكان لهم في هذه المدة دعاة وأولياء وحواريون من مؤرخين وفقهاء ومتأدين وشعراء ، وعلى ذلك فمن البدهي أن نفترض أنه كان هناك نتاج ضخم من الكتابات لصالح بني أمية ودولتهم ، لم يأخذ حظه من العناية والتدوين ، أو من النشر والإذاعة ، أو تعرض عمدا للإضاعة والإخفاء ؛ ويذكر المسعودي ما يعزز هذا الافتراض بقوله : " فقد رأينا بعض المتأخرين ممن ينحرف عن الهاشمين — الطالبين منهم والعباسيين — ويتحيز إلى الأمويين ويقول بإمامتهم ، ويذكر أنه كانت لمن ملك من بني أمية ألقاب كألقاب خلفاء العباسيين " ^٣ ، ويقول في موضع آخر : " ورأيت في سنة 324 بمدينة طبرية من بلاد الأردن من أرض الشام عند بعض موالى بني أمية — ممن ينتحل العلم والأدب ، ويتحيز إلى العثمانية — كتابا فيه نحو من ثلاثمائة ورقة بخط مجموع مترجم بكتاب " البراهين في إمامة الأمويين ونشر ما طوي من فضائلهم ، أبواب مترجمة ، ودلائل مفصلة " ^٤ ..

وإن ضياع هذه الكتب وهذه الروايات التي لا بد أن هؤلاء المتأخرين المنحرفين عن الهاشمين والموالين لبني أمية كانوا يتناقلونها ويحتجون بها ، إن ضياع هذه الثروة يجعلنا نتساءل بشغف عن

^١ الأغاني 260/17 — 261

^٢ السابق 211/6

^٣ التبيين والإشراف ص 289 — 290

^٤ السابق 291

الظروف التي صاحبت عصر التدوين الأموي لدولة بني أمية ، والمؤثرات أو العوامل التي أثرت فيه .. وهو ما سنتناوله في البحث التالي ...

البحث الثاني: أسباب تحريف التاريخ الأموي

شاع عند كثير من المؤرخين القدماء والمحدثين أن تدوين العلوم الإسلامية ومنها التاريخ — قد بدأ في العصر العباسي ، وأن هذه العلوم كانت قبل ذلك تنتقل بواسطة الرواية الشفهية من راوٍ إلى آخر ، ومن جيل إلى آخر^١ ، غير أن دراسات حديثة أثبتت أن بدايات التدوين ترد إلى ما قبل العصر العباسي بكثير ، وأن بعض الآثار المكتوبة وجدت منذ عصر الرسول ﷺ وصحابته ، الذين أخذ عنهم جيل التابعين^٢ ؛ ولكن من المرجح أن هذه الآثار المكتوبة ظلت محدودة ، وأنها كانت تمثل مذكرات يستعين بها الرواة والعلماء الذين ظلوا يعتمدون على الرواية الشفهية كدلالة على سعة العلم وعلو الشأن ، وينظرون بتوجس إلى احتمالات التحريف والتصحيف في الآثار المكتوبة .. وأن تدوين العلوم لم يصبح ظاهرة واسعة مشتهرة يقر بها العلماء والمريدون إلا في العصر العباسي؛ وإن كان ذلك لم يحدث فجأة ، وإنما سبقته مراحل طويلة من الكتابة ..

وقد وجدت عدة عوامل أحاطت بذلك التدوين التاريخي في طوره التمهيدي الباكر قبل العصر العباسي ، وفي طوره النشط الذي أصبح فيه ظاهرة عامة زمن العباسيين ... وبعض هذه العوامل أثر تأثيرا كبيرا على تحريف التاريخ الأموي بما يستدعي وقفة تفصيلية نذكر فيها بعض هذه العوامل وكيفية تأثيرها ..

أولا: ضياع معظم النتاج التاريخي الباكر:

لقد ضاع كثير من ذلك الجهد التاريخي الباكر والضخم الذي بذله علماء القرن الأول للإسلام ، وما أكثرهم ، فلم يصلنا منه شيء ذو بال إلا ما حفظه لنا المؤرخون المتأخرون ونسبوه إلى أصحابه ، فحفظوا لنا قائمة كبيرة من أسماء العلماء والرواة ، الذين — لولا هذه الاقتباسات — لم تكن سنعرف عن جهودهم الكثير .. ومن المؤكد أن كثيرا من ذلك النتاج التاريخي كان سيصنف ببني أمية ، وسيلقى مزيدا من الضوء على تاريخهم ، وسيعطي وجهات نظر محايدة عنهم ، أو مؤيدة

^١ حاجي خليفة : كشف الظنون 26/1 ، الغزالي : إحياء علوم الدين 97/1 ، الذهبي : تذكرة الحفاظ 151/1 ،

^٢ ممن اهتموا بتقرير ذلك فؤاد سزكين في كتابه : تاريخ التراث العربي ، وعثمان مواني : منهج النقد التاريخي

لهم، إذ إن معظمه إنما كتب في عهدهم، ويبد بعض رجالهم، أو علمائهم المقربين منهم والخبرين بهم، وبعض هذا النتاج كان لبعض الخلفاء والولا فضل فيه وفي إتمامه، كما سوف نعرف حين يلقي الحديث عن دور الأمويين في نهضة العلوم الإسلامية، كما ضاعت جل الوثائق السياسية لذلك العصر. بما تحمل من دلالات قوية على سير الحياة فيه من وجهة نظر حكومية أو إدارية.

وقد ساعدت عدة أسباب على ضياع ذلك التاريخ، منها نظرة العلماء آنذاك إلى الآثار المكتوبة كعامل مساعد على التذكرة والحفظ؛ غير أنه لا يصح أن يعول عليها بشكل أساس في التعليم وحلقات الدرس، وذلك لتخوفهم مما يعرض للكتابة من تغيير وتبديل أو نسخ وإزالة أو تحريف وتصحيف، فكان شعارهم "لا يقي الناس صحفي ولا يقرئهم مصحفى"، وكان من منهجهم "لا تأخذوا العلم من الصحفيين" ^١ ..

ومن أسباب ضياع هذه الآثار قيام كثير من الثورات التي أكلت كثيرا من التراث المعارض لها وسط مظاهر الغضب الجامح، مثلما حدث بقيام الثورة العباسية، ثم قيام الدويلات المستقلة عنها، مما أتلّف كثيرا من الوثائق السياسية للحكومات البائدة؛ أو إضاعة هذه الوثائق أو إخفائها بسبب الخصومات السياسية والمذهبية.. بل إن كثيرا من هذه الوثائق السياسية الخاصة بالعصر الأموي لحقها الدمار حين تعرضت بعض الدواوين التي كانت تحفظ فيها للحريق في أيام بني أمية، مثلما حدث في ديوان الكوفة الذي احترق بما كان يضمه من وثائق سنة ٨٢ هـ إبان فتنة ابن الأشعث ^٢، ومثلما حدث لديوان القسطنطين الذي تعرض للحريق أيضا في العصر الأموي ^٣ .. وهكذا لم يصلنا شيء من مستندات الدولة الأموية غير مجموعة قليلة خاصة بمصر عثر عليها مع مجموعة من الأوراق البردية المكتوبة بالعربية واليونانية والقبطية ^٤، وبعض النصوص الوثائقية التي حفظتها لنا كتب التاريخ المتأخرة مثل كتب ابن سعد والبلاذري والقلقشندي وغيرهم، ويجب تناولها بحذر شديد إذ إنه قد نقل معظمها من كتب مقدمة وليس من الأصول ^٥، كما أنه قد عثر أخيرا على بعض المسكوكات التي توضح بعض ملامح التصور السياسي والمالي للدولة، وأسفرت جهود العلماء

^١ الخطيب البغدادي: الكفاية في علوم الحديث 162-163

^٢ أبو يوسف الخراج 68، وراجع جواد علي: موارد تاريخ الطبري ص ١٥٦ مجلة المجمع العلمي العراقي ج ١ سنة ١٩٥٠م

^٣ راجع د. السيد عبد العزيز سالم: التاريخ والمؤرخون العرب 135-136

^٤ د. عبد المنعم ماجد: التاريخ السياسي للدولة العربية 12/1

^٥ السابق والصفحة

حديثاً عن اكتشاف بعض قصور الخلفاء والأمراء الأمويين بالشام ، مما يعطي صورة قريبة من الواقع للتطور المعماري والفني للأمويين واهتمامهم بهذه النواحي الحضارية ، ومدى ما بلغوه في هذا الشأن^١. ومن المؤكد أن ضياع هذه الآثار التاريخية عن دولة الأمويين قد أساء كثيراً إلى تاريخهم ؛ حيث انفردت الكتابات المتأخرة والتي تم معظمها في العصر العباسي بالتأثير الأكبر والدور الأعظم في رسم صورة بني أمية ، ومعروف عداً العباسيين للأمويين كما سيأتي ..

ويجدر بنا أن نقدم نموذجاً لما كان يمكن أن تسهم به الوثائق السياسية — لو سلمت — من خدمات جلييلة في إنصاف الأمويين .. فمصادرونا التاريخية لا تقدم صورة طيبة للعامل الأمويين على مصر قرّة بن شريك (96-90 هـ) حيث تسرف في الحديث عن جشعة وحبه للمال وقسوته مع رعيته من أهل مصر ، على حين تظهره أوراق البردي التي عثر عليها في كوم أشقا بمصر في صورة الحاكم العادل اليقظ الذي لا تغيب عنه أخبار رعيته ، والحازم الذي لا تخدعه ألاعيب ولاته ، ففسي إحدى هذه البرديات ذكر أن قرّة بن شريك قد أرسل إلى صاحب الكورة يطلب منه ما تجمع لديه من الضرائب ؛ لكنه خاف أن يظلم العامل رعيته فأوصاه أن يعدل بين الناس ولا يفعل شيئاً يكرهونه ؛ ونراه في مرة أخرى يرسل إلى عامله هناك يذكر له أن صاحب البريد أخبره بأنه أوقع الغرامة على بعض القرى ؛ ويطلب من ذلك العامل أن يرد ما جمعه من غرامة حتى يرسل إليه في هذا الشأن .. وفي كتاب آخر نجد قرّة بن شريك يرسل إلى صاحب كورة أشقوة يطلب منه سداد الدين عن أحد رعيته ، ونجدّه أيضاً يأمر بالقبض على أحد المجرمين ، مما يدل على يقظته وإحاطته بأخبار رعيته ، وفي كتاب آخر نراه يحدد أجور الصناع الذين يعملون في بناء السفن ، ويخشى أن يترك تحديد ذلك إلى صاحب الكورة التي منها الصناع مخافة أن يجور أو يحايي^٢ ..

ثانياً : تأثير الخيرية السياسية على تدوين التاريخ الأموي :

شهد العصر الأموي تكوين عدد من التجمعات الإسلامية التي ناصبت الأمويين العدا ، ودخلت في صراع معها استمر حتى سقطت دولة بني أمية ، وبعض هذه التجمعات أو الفرق الإسلامية ظهر مبكراً كالشيعة والخوارج والزييريين ؛ وبعضها نشأ متأخراً نتيجة اجتهادات دينية وكلامية مثل المعتزلة ، كما كان هناك بعض الموالى القرس الذين اعتصموا بقوميتهم الفارسية ، وشكلوا جبهة مناوئة للأمويين في معظم فترات تاريخهم ..

^١ راجع الفصل الخاص بالمنجزات الحضارية في العصر الأموي بالجزء الثالث ..

^٢ د. سيدة كاشف : مصر في فجر الإسلام 30 ، الوليد بن عبد الملك ص 80 — 89 ، جروهان : أوراق البردي المصرية 23/3 — 24 وانظر نماذج لعدله وحرصه على بيت المال 3/3 — 43

وقد كان لهذه التجمعات جهود باررة في تشويه صورة بني أمية كحلقة من حلقات العداء لهم ، أثناء قيام دولتهم وسيطرتها ، كما ساهم بعضها في تحريف تاريخهم لما كتب ذلك التاريخ بعد ذهاب دولتهم ، حيث برز كثير من المؤرخين الذين يدينون بأفكار هذه الاتجاهات المعادية للأمويين وكان من الطبعي أن تأتي كتابتهم عنها متأثرة بذلك العداء . وسوف نخص بمزيد من التفصيل بعض هذه الاتجاهات وتأثيرها على تدوين تاريخ الأمويين وتحريفه .

— الشيعة —

ولعل أبرز جهودهم في ذلك المجال اتجهت صوب تمجيد زعمائهم من الثائرين على بني أمية ، أو تعظيم علي عليه السلام وأبنائه ، واختلاق الفضائل لهم — وهم غير محتاجين إليها — كما مر بنا ، حتى بلغ عدد الأحاديث الموضوعة في فضل علي بن أبي طالب أربعة وستين حديثاً ، كما ذكر الشوكاني حتى قال مؤرخهم ابن أبي الحديد ^١ : " وأعلم أن أصل الأكاذيب في أحاديث الفضائل كان من وجهة الشيعة ، فإنهم وضعوا في مبدأ الأمر أحاديث مختلفة في صاحبهم . حملهم على وضعها عداوة الخصوم ^٢ ، وكان الإمام الشعبي يقول عنهم : لو أردت أن يعطوني رقابهم عبيداً ، وأن يملئوا بيتي ذهباً على أن أكذب لهم على علي عليه السلام لفعلوا ، ولكن والله لا كذبت أبداً ^٣ "

وكان المختار بن أبي عبيد الذين ادعوا التشيع — ليصل من خلال ذلك إلى الخلافة — مناوئاً لبني أمية ، وقد تمت له السيطرة على الكوفة بعد مقتل يزيد بن معاوية واضطراب الأمر بالشام ، وأراد أن يضم إليه آنذاك إبراهيم بن الأشتر لينجح به ثورته ، فلم يجد أيسر من اختلاق وثيقة مدعاة دعم أمه رسالة إليه من محمد بن الحنفية يلقيه فيها بالمهدى ، ويجعله وزيراً له ؛ طالباً بدماء آل البيت وقد أحكم المختار أمره فأعد شهود الزور الذين يشهدون بصحة هذه الرسالة أمام إبراهيم بن الأشتر ليقتنع بذلك بوجود نصرته المختار ، وقد تم له ما أراد ^٤ .

وكان المختار نفسه يقول لأحد أصحاب الحديث : ضع لي حديثاً عن النبي صلى الله عليه وآله بأي كائن بعده خليفة ، وطالب له بكرة ولده . وهذه عشرة آلاف درهم وخلعة ومركوب وخنادم ، فقال الرجل : أما عن النبي صلى الله عليه وآله فلا . ولكن اختر من شئت من الصحابة ، وأحطك من الثمن ما شئت فقال عن النبي صلى الله عليه وآله أوكد . فقال الرجل . والعذاب أشد ^٥ ، وكان بعض الصادقين من آل البيت

الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة 330 — 384 ونقل ذلك عنه د . مصطفى حلمي نظام الخلافة في

الفكر الإسلامي 190-191

^٢ شرح معج البلاغة 48/11

^٣ ابن الجوزي الموضوعات 338/1

^٤ الطبري السابق 16/6-17

^٥ ابن الجوزي الموضوعات 39/1

يرعون من هؤلاء الكذابين على الملأ ؛ ويحذرون منهم مثل علي زين العابدين^١ وجعفر الصادق^٢ وعمر بن علي بن الحسين^٣ ..

وإذا كان ذلك الكذب كله قد تم في العصر الأموي ، وفي أثناء سيطرة الأمويين ، وفي الحديث الشريف والتاريخ معا ، فإنه قد ظهر جماعة في العصر العباسي من كبار المؤرخين الذين ترجموا تلك العداوة المتأصلة إلى تزييد في روايات التاريخ الأموي ، واختلاق لبعض الأخبار التي تسيء إلى بني أمية وتشوه سيرتهم ، وتلون أخبار ثورات الشيعة ضدهم بألوان البطولة والتعاطف مع اللاترين ، والاقام والتشنيع على الأمويين ، ومن هؤلاء المؤرخين البارزين أبو مخنف لوط بن يحيى وهشام بن الكلبي وأبوه محمد بن السائب الكلبي ثم الأصفهاني واليعقوبي والمسعودي وغيرهم ممن سوف تأتي تراجمهم وبيان مدى تحاملهم على الدولة الأموية...

— الموالـي :

وقد شاع بين المؤرخين اقام الأمويين بالتعصب للعرب واضطهاد الموالي ، وهذا الاقام له حظه من البحث والدراسة في موضع تال إن شاء الله ؛ ولكننا هنا نؤكد أن بعض هؤلاء الموالي قد صدق إسلامه وخلص انتماؤه للدين والعربية ، حتى برعوا في العلوم الإسلامية فكان منهم أمثال سيويه في النحو ، والطبري في التفسير ، وأبي حنيفة في الفقه ، والبخاري ومسلم والترمذي والمسجستاني في الحديث ، وآلاف غيرهم في شتى نواحي العلوم الإسلامية^٤ ؛ كما برع بعضهم في التاريخ وروايته مثل الواقدي والمدائني وابن إسحاق وأبي معشر السندي وأبي عبيدة والبلاذري والطبري والدينوري وغيرهم^٥ ؛ على حين احتفظ آخرون بقوميتهم الفارسية وأحقادهم على العرب واستعلائهم عليهم ، فشكّلوا طائفة الشعبوية ، وهي حركة اجتماعية عنصرية استهدفت ضرب الكيان العرب الإسلامي من خلال ثقافته وفكره وكل القيم التي تضمنها تراثه الحضاري^٦ ، وأصبح همها المقيم " تشويه الهالة التي وضعها الدين الإسلامي والفكر الإسلامي من حول العرب بتشويه تاريخهم ، والـدس عليهم ، والأخذ بأخبار المثالب ، وإبراز النقصات وتقصيها " ^٧ ، وزاد من خطر هذه

^١ إحسان إلهي ظهير : السنة والشيعة 30

^٢ السابق والصفحة

^٣ مصعب الزبيدي : لسب قريش 62

^٤ راجع د. شاكر مصطفى التاريخ العربي والمؤرخون 447/1 — 448

^٥ السابق 87/1

^٦ د. فاروق عمر . حول طبيعة الحركة الشعبوية مقال بمجلة المجتمع العلمي العراقي الجزء الثاني من المجلد السادس

والثلاثين سنة 1405هـ / سنة 1985 م ص 197

^٧ د. شاكر مصطفى التاريخ العرب والمؤرخون 68/1 — 87

الشعبوية ألما ازدهرت في عصر تدوين العلوم ، فكان ذلك من سوء حظ العلم ^١ ؛ وكانت لها آثارها السيئة على تدوين التاريخ والأدب والأنساب ^٢ ...

وبرع الشعوبيون في تأليف كتب المثالب يجمعون فيها كل ما يشتهون من مساوئ العرب وقبائلهم ورجالهم وقد ينسبون بعض هذه الكتب إلى رجال من قادة العرب أنفسهم ، ليخفى عرضهم . ويشيع وضعهم ، فقد نسبوا إلى زياد بن أبي سفيان وضع كتاب في " المثالب " ، فيقول الأصفهاني : " وأصل المثالب زياد — لعنه الله — فإنه لما ادعى إلى أبي سفيان ، وعلم أن العرب لا تقر له بذلك مع علمها بنسبه ، ومع سوء آثاره فيهم ، عمل كتاب المثالب ، فالصق بالعرب كلها كل عيب وعار ، وحق وباطل " ^٣ ..

وكان زيادا لما اتصل نسبه بأكبر بيوتات العرب أراد هدم كرامة العرب كلهم ؛ وزياد الذي اشتهر بعقله لا يمكن أن يفعل ذلك ، ولا يمكن أن يقبله منه بنو أمية الذين التحق به نسبهم ، ولا أشراف العرب الذين استمرت به صلاحهم ، لكنها براعة الكذب ، أن يلصقوا فعلتهم بأحد قلدة العرب ويظنوا هم برآء !

ورعوا أن هشام بن عبد الملك أمر النضر بن شميل وخالد بن سلمة المخزومي فوضعا كتابا في مثالب العرب ومناقبها ؛ وليس لقريش في هذا الكتاب ذكر ^٤ ؛ وتلك أيضا دعوى بلا دليل ، تسير في ذات الطريق التي اتهموا فيها زيادا ، وهي دعوى مشتهرة تلقفها القدماء واخذثون ^٥ .

وجاء أبو عبيدة معمر بن المثنى فجدد الكتاب المنسوب إلى زياد وزاد فيه وكتب كتاب " الموالى " و " فضائل الفرس " ، ورغم مولته العلمية العالية فإن أخباره تكشف عن مثالب بشعة ^٦ .. ثم نشأ غيلان الشعوبي ؛ واسمه علان — أو غيلان بن الحسن الوراق وعرف بالشعوبي لعصبية الشديدة على العرب وبغضه لهم ^٧ ؛ كما أنه كان " زنديقا ثويا لا يشك فيه ، عرف في حياته بعض مذهبه .. ثم انكشف أمره بعد وفاته ، فأبدع كتابا لطاهر بن الحسين ^٨ ، وكان شديد التشعب والعصبية

^١ أحمد أمين : ضحى الإسلام 77/1

^٢ راجع السابق 66/1 — 77 ، د عبد العزيز الدري : مقدمة في تاريخ صدر الإسلام 12

^٣ الأغاني 21/20

^٤ حسن السندي : هامش البيان والتبيين للمحافظ ج 3 ص 4

^٥ انظر ذكرها عند بعض ائمة مثل د. شاكرك مصطفى التاريخ العرب والمؤرخون ج 1 ص 95

^٦ الضعالي : لطائف المعارف ص 99 ، ابن التميمي : الفهرست ص 79-80

^٧ د محمد نبيه حجاب : مظاهر الشعبوية في الأدب العربي ص 563

^٨ طاهر بن الحسين : قائد جيش المأمون في صراعه مع أخيه الأمين ثم واليه على خراسان ، وتغير طاهر على خليفته فأعلن استقلاله بخراسان فارس وريز المأمون أحمد بن أبي خالد الأحول من دس له السم (انظر : ابن طهطا الفخري ص 214 — 215 — 224)

خارجا عن الإسلام ، فبدأ فيه بمثالب بنى هاشم وذكر مناكحهم وأمهاتهم وصنائعهم ، وبدأ منهم بالطبيب الطاهر رسول الله ﷺ فغمصه وذكره ، ثم والى بين أهل بيته الأذكى والنجاء عليهم السلام ؛ ثم ببطون قريش على الولاء ، ثم بسائر العرب فالصق بهم كل كذب وزور ، ووضع عليهم كل خير باطل " ١ .

وما يذكر عن إعلان الشعبي ثري الدلالة على ما بلغت حركة الشعبية من قوة وخطورة ؛ حتى إن أحد أكابر دعاها لا ينكشف أمره إلا بعد وفاته — كما حدث مع إعلان هذا — وحتى إن أحد كبار رجال الدولة المقربين إلى خليفته ، بل صاحب الفضل الكبير في نصره واستخلافه ؛ كان أحد الشعبيين المبرزين ، يمارس نشاط الهدام متحصنا بمركزه ومكانه ..

ولا ريب أن كتب المثالب هذه وجدت بغيتها في ثلب بني أمية ، تدفعها إلى ذلك ثارات التاريخ وما يحمله الموالي للأمويين من ذكريات سيئة ؛ حيث كان دورهم في دولتهم أكثر تحجيما ، ومكانتهم فيها أقل شأنا مما أصابوه مع العباسيين فقد كانت لهم معهم اليد الطولى والخطر الأكبر ، وساعد على استمرار ثلبيهم للأمويين اشتواء الحكام ذلك ، وما الظن بالهجوم على قريش — وآل العباس هم الحاكمون — وأحد الشعبيين إذا انتقد جدهم العباس بشيء كان جزاءه السجن عديد سنين — كما حدث مع الهيثم بن عدى ٢ ؛ ما الظن بالهجوم على قريش إلا إذا انصب معظمه على الأمويين .. وقد ضاعت كتب المثالب فلم تصلنا ، ولكن وصلتنا روايات أصحابها في كتب التاريخ ؛ وما أحرانا أن نقف عندها وقفة متريثة وقد عرفنا اتجاهات أصحابها ونواياهم ..

أمثلة لتأثير الشعبيين على التاريخ الأموي :

ونكتفي هنا بذكر اليسر من ذلك ، فسوف يأتي مزيد من صور التشويه الشعبيي للتاريخ الأموي — عند الحديث عن رواقم ومؤرخيهم فيما بعد إن شاء الله ..

زعم الهيثم بن عدى أن المهلب بن أبي صفرة كان أبوه مشركا أسلم زمن عمر بن الخطاب ، ولم يكن اختن ، فاختن هو وامراته ، وأنه كان من موالي الأزد — أزد عمان — وليس من خلص العرب ، وقد عقب الأصفهاني على ذلك بقوله : وليس هذا من الأقوال المعول عليها ٣ ، ويرد ذلك فيقول عن الهيثم بن عدى : إنه كان دعيا فأراد أن يعر أهل البيوتات تشفيا منهم ٤ ..

ويقول د. عبد العزيز الدوري عن تحريفهم للتاريخ الإسلامي " .. فكلما لاحظ الشعبية عملا رائعا حاولوا تقليل شأنه ، بنسبته إلى أمور تافهة ، فحركة التعريب الكبرى في زمن عبد الملك

١ الأصفهاني : الأغاني 22/20

٢ ابن خلكان : وفیات الأعيان 302/2

٣ الأغاني 21/20

٤ السابق 21/20—22

والوليد وهشام تلك الحركة التي شملت الدواوين والنقد والطرز ، كانت مرحلة حاسمة في التطور الثقافي وفي الاستقرار السياسي والاقتصادي ، وربما كان التعريب هذا أعظم حدث ثقافي سياسي بعد جمع القرآن ، نظم وفق خطة شاملة ، ولكن الروايات تظهره مرتجلا ، وتنسبه إلى أمور تافهة ، كغضب الخليفة على دلال كاتب ، أو غضب وال من تباطؤ مولى .. أو بسبب تهديد البيزنطيين بلأن يشتموا الرسول على النقود ، كأن النقود صحف للدعاية ، وكأن الناس يقرعون الحروف اليونانية ، وكأن البيزنطيين كانوا يسكون النقود للعرب " ^١ ...

— المعتزلة :

وقد ظهرت هذه الفرقة على يد واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد في الفترة الأخيرة من عمر الدولة الأموية ، وموقف المعتزلة من الأمويين موقف سافر العداء ؛ إذ يعدونهم فاسقين وسلططي العدالة الواجب توافرها في الخلفاء ، وهم يعتبرون أن الفاسق في منزلة بين الإيمان والكفر — وهو ما يعرفون عنه في أحد أصولهم الخمسة — بالمنزلة بين المرتين ^٢ ، وهو على ذلك في النار إذ لا توجد في الآخرة إلا الجنة والنار .

وقد بدأ بجنهم عن الأمويين حين تعرضوا للحديث عن القتال الذي نشب بين الصحابة في موقعة الجمل ، فأروا أن أحد الفريقين المتحاربين في النار ، ولا يعينونه ، إذ غم عليهم تحديده ^٣ ، ولكنهم في صراع علي مع معاوية وأهل الشام يرون أن عليا كان على الحق ، وأن معاوية وأتباعه كانوا بغاة خارجين على الإمام الحق ، ولذا فهم يتبرعون من معاوية وعمرو بن العاص ومن كان في صفهما ^٤ ..

والمعتزلة يشترطون توافر العدالة في الخلفاء ، ويرون أنها لم تتوافر في خلفاء بني أمية ؛ ولذلك تجوز الثورة عليهم إعمالا لأصل ثان من أصولهم الخمسة وهو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ^٥ ، وقد كان معاوية باغيا فاسقا — فيما يزعمون — لأنه غصب الحق أهله ^٦ ، ولم يكن العام الذي بويع فيه بالخلافة وسمي عام الجماعة ، عاما للجماعة ، بل كان عام فرقة وقهر وجبرية وغلبة ،

^١ مقدمة في تاريخ صدر الإسلام 15-16

^٢ عن هذه الأصول الخمسة ومذهب المعتزلة راجع البهتادي : الفرق بين الفرق ص ١١٤ وما بعدها ، القاضي عبد الجبار : شرح الأصول الخمسة ، زهدي الجار الله : المعتزلة ص ٥١-١٠٤

^٣ البهتادي : السابق ص ١١٩-١٢٠

^٤ ابن الخياط : الانتصار ص 98 ، د. عبد الرحمن سالم : التاريخ السياسي للمعتزلة ص 100

^٥ د. عبد الرحمن سالم : السابق ص 91 — 92

^٦ القاضي عبد الجبار : المفتى 7123

والعام الذي تحولت فيه الإمامة ملكاً كسروياً ، والخلافة منصباً قهرياً ، على ما يرى شيوخ المعتزلة^١ .. ومعروف أن الصلة وثيقة بين التشيع والاعتزال ، فقد تأثر المعتزلة كثيراً ببعض آراء الشيعة^٢ ، وقد أدى ذلك إلى كراهية مشتركة للأمويين وتحامل عليهم .

وسوف نرى فيما بعد أن جماعة من أبرز المؤرخين والأدباء كان يدين بالاعتزال ، وقد ظهر ذلك واضحاً في كتابتهم المعادية للأمويين والتي يُخرج بعضها الأمويين عن دائرة الإسلام إلى دالسة الكفر لا الفسوق فحسب ، ومن أشهر هؤلاء وأشدهم عداء للأمويين الجاحظ وابن أبي الحديد ، وسوف تأتي أمثلة لكتاباتهم عن بني أمية ودولتهم ..

وهكذا يتضح لنا أن هذه الأحزاب السياسية والدينية التي ناصبت الأمويين العداء إبان دولتهم ، قد استمرت تناصبهم العداء بعد زوال هذه الدولة ؛ وذلك من منطلقات دينية وسياسية أيضاً ، وأن خطورة هذا العداء قد نجمت من كون بعض كبار مؤرخينا كانوا ينتمون إلى هذه الأحزاب ويدنون بمعتقداتها وقت تدوينهم تاريخ الدولة الأموية ، وقد انعكس ذلك العداء على رؤيتهم لها ، ونظرتهم لتاريخها ، فجاء كثير منه مشوهاً قائماً بصورة تناقض الثابت من منجزاتها التي لا تقوم بها دولة عاجزة ذات تاريخ قائم ..

ثالثاً : تأثير السلطة العباسية على تدوين التاريخ الأموي :

مر بنا القول بأن حركة تدوين التاريخ — والعلوم عامة — إنما نشطت وأصبحت ظاهرة عامة في العصر العباسي ... وقد كان ذلك من سوء حظ بني أمية — خصوم العباسيين — الذين كُتب تاريخهم في ظل السيطرة العباسية كتاريخ دولة مهزومة ، يحيط بتدوين تاريخها مناخ فكري معاد لها ، ومناخ سياسي متسلط ضدها ، وقديماً قيل " ويل للدولة المهزومة حين يكتب تاريخها المتصورون " ..

وقيام دولة مكان دولة لا ينتهي بسقوط خليفة وظهور خليفة آخر ، بل إن هذا التبدل في شخص الحاكم يمثل نهاية مرحلة الإعداد الناجح للثورة ، وتبقى أمامها مراحل أخرى من الهدم والبناء ، فهي لاشك إنما جاءت لتهدم كثيراً من البناء السابق عليها ، وتبنى بناءها الخاص على أسس فكرية وشعورية جديدة .. وبقدر عمق البناء القديم وقوته يكون عنف الثورة وقسوة التغيير ،

^١ الجاحظ . الثابتة ضمن مجموعة رسائل الجاحظ 12/2 — 14 ، د. عبد الرحمن سالم . السابق 94

^٢ راجع د. سامي النشار . نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام 230/2 — 233 ، د. حسن إبراهيم . تاريخ الإسلام السياسي 434/1 — 436 د. مصطفى حليمي . نظام الخلافة في الفكر الإسلامي 381 — 382 . د. الرئيس

النظريات السياسية 71/70

وكذلك كان الأمر لما قامت ثورة العباسيين ودولتهم ؛ فقد كانت للأمويين دولة شائعة تركز على عصبية قوية ومنجزات كبرى ، وتاريخ ممتد لما يزيد عن تسعين عاما...

ولم تنته قوة الأمويين بأفكار دولتهم ، بل انبعث أحدهم — عبد الرحمن بن معاوية الداخل — عبر البحار والمفاوز ليصل إلى بلاد الأندلس فيقيم بها دولة ظلت تنافس العباسيين وتهددهم في بعض الأحيان ، وظلت ذكراهم عالقة في نفوس بعض المسلمين الذين صدمهم الواقع بعد ذهاب دولة الأمويين وبخر الأحلام في تغيير حقيقي وردي ، حتى قال قائلهم :

يا ليت جور بني أمية عاد لنا يا ليت عدل بني العباس في النار^١

ونتيجة هذا الخوف من الخطر الجاثم في الشمال الغربي الأقصى — الأندلس — واحتمالات امتدادها عبر ما تبقى من عصبية للأمويين في المشرق ، مع ما يغذي هذه المخاوف من ماض مؤلم من الحروب والصراع بين الأمويين وخصومهم إبان حكمهم ، نتيجة هذه العوامل جاء الانتقام المريع من الأمويين على يد العباسيين وأعوامهم ..

حول انتقام العباسيين من الأمويين وإثارة الكراهية ضدهم :

وقصص هذا الانتقام تملأ صفحات من التاريخ ، ورغم ما قد يكون فيها من تحيز ومبالغة وافعال " فلما تظل حية الدلالة على مشاعر الكراهية التي حكمت سنوات من خلافة العباسيين ضد الأمويين ، فقد أعمل العباسيون القتل الذريع فيمن اشتهر من رجال بني أمية ، حتى اضطر كثير منهم إلى الاختفاء عن العيون^٢ والتسمي بغير أسمائهم ، والانتساب إلى غير جدودهم^٣ ، حتى تزعم بعض الروايات أن العباسيين في الشام قد نبشوا قبور بني أمية وأحرقوا ما وجدوه فيها من العظام البالية . ولم ينج منهم إلا قبر عمر بن عبد العزيز^٤ ، ووجد الشعراء الموتورون ، أو المستزلفون إلى الحكم الجدد ، السبيل إلى رفع شعارات الموت للأمويين والتحريض عليهم ، فقال أحدهم للخليفة العباسي السفاح :

لا تقبلن عبد شمس عثارا لا تقبلن عبد شمس عثارا
أقصهم أيها الخليفة واحسم عنك بالسيف شأفة الأرجاس^٥

وقال آخر أمام عبد الله بن علي العباسي :

^١ الأصفهاني : الأغاني ١٧ / ٢٥١ ، والبيت لأبي العطاء السندي ..

^٢ ابن عبد ربه : العقد الفريد 188/2 ، ابن الأثير : الكامل 174/5 — 175 ، الأصفهاني : الأغاني 91/4 — 94 ،

ابن حجر : تهذيب التهذيب 340/7 — 341 ، مؤلف مجهول : محاسن المساعي في مناقب الأوزاعي 79 — 81

^٣ د. محمد أحمد خلف الله : صاحب الأغاني أبو الفرج الأصفهاني 33 ، أبو نعيم : أخبار أصفهان 182/2

^٤ المسعودي : مروج الذهب 192/3 — 219

^٥ الأصفهاني : الأغاني 348/4 ، المبرد : الكامل 307/2

فضع السيف وارفح السوط حتى لا ترى فوق ظهرها أمويا^١

وفي كل من حالات الإثارة هذه كان رد فعل الأمراء والخلفاء لوريا ودمويا .

وإذا كان العباسيون قد ارتكبوا كل ذلك أو كثيرا منه ، بقصد التخلص من خطر الأمويين السياسي على دولتهم ، وإنهاء قوتهم ونفوذهم فقد قاموا أيضا بعمل دعوب للتخلص من مكانة الأمويين عند أفراد الشعب الذي استمر تحت حكمهم أكثر من تسعين عاما ، ولذلك فقد تعرض الأمويون لحمالات شديدة تهدف إلى إثارة كراهية الناس ضدهم ، وبغضهم لهم ، من ذلك ما ذكره من أن الخليفة المنصور بعث المستهل بن الكميث الشاعر خطيبا يرتقى منابر الشام يذكر مناقب بني هاشم ، ومثالب بني أمية فأخذ المستهل ينفذ أوامر الخليفة وينتقل من مدينة إلى مدينة يعبى الشهور ضد بني أمية ولمصلحة العباسيين^٢ ؛ وظلت هذه المحاولات تتور بين الحين والآخر ، حتى بعد مضي ربح طويل من الزمان على سقوط بني أمية وذهاب خطرهم ودولتهم ، مما ينبس باستمرار ولاء قطاعات مهمة من المسلمين لبعض رموز الأمويين التاريخية واعتراهم بجلالهم^٣

ففي سنة 212 هـ أمر الخليفة المأمون مناديه بالنداء ببراءة الذمة من أحد من الناس ذكر معاوية بنجر ، أو قدمه على أحد من أصحاب رسول الله ﷺ ، بل أنه أراد أن يكتب — فيما يزعم الرواة — إلى الآفاق لبعن معاوية على المنابر لولا أن أشار عليه القاضي يحيى بن أكثم بترك ذلك خوفا من هياج العامة ، وفي السنة نفسها فرض المأمون على الناس تفضيل على بن أبي طالب على غيره من الصحابة^٤ ..

وما لم يجرؤ المأمون على فعله ، من لعن معاوية ، فعله الخليفة المعتضد^٥ سنة 284 هـ حيث أصدر منشورا جاء فيه : اللهم العن أبا سفيان بن حرب ومعاوية ابنه ويزيد بن معاوية ومروان ابن الحكم وولده ، اللهم العن أئمة الكفر ، وقادة الضلال ، وأعداء الدين ومجاهدي الرسول ومغريي الأحكام وسفاكي الدم الحرام ، اللهم إنا نبرأ إليك من موالة أعدائك ... الخ^٦

ولما ضعف سلطان الخلفاء وذهبت قوة الخلافة في العصر العباسي الثاني ؛ أصبحت السلطة الكاملة في يد المتغلبين من الجند ، وقامت الدويلات المستقلة التي اتخذ بعضها التشيع المغالي مذهبها ، كالفاطميين والبويهيين ، ولقد ظهر في ذلك العصر جماعة من أشهر وأنشط المؤرخين في تاريخ

^١ المبرد : السابق 306/2 — 307 ، الأصفهاني : السابق 351/4

^٢ ابن أبي الدم : التاريخ المظفري 288/1

^٣ الطبري : 8 / ٦١٨ ، ابن أبي الحديد : شرح نهج البلاغة 342/3 — 344 ، شارل بلات : الجاحظ في بغداد ص

391

^٤ هو أبو العباس أحمد بن الموفق طلحة بن المتوكل بوبع سنة 279 هـ ومات سنة 289 هـ (ابن طباطبا : الفخوري

257—256)

^٥ الطبري ١٠ / ٥٤ — ٦٣

الإسلام كالتطري (ت 310 هـ) والمسعودي (ت 346 هـ) وابن الأثير (ت 630 هـ) ، ولم يعد توجه الدولة السياسي متوجها صوب معاداة بني أمية ، فقد ذهبت دولتهم وزوال محطهم ، وظهرت مستجدات سياسية جديدة ، غير أن عوامل أخرى ساهمت في استمرار النظرة التاريخية المتحاملة على الأمويين ؛ منها استقرار الرواية التاريخية إلى حد كبير بشأن الدولة الأموية ، فبعد مضي عقود من الزمان على ذهاب هذه الدولة كانت أجيال من الرواة لأخبارها الذين شبوا في عصر العداء الشديد لها ، قد تركوا رواياتهم وكتبهم لتمثل المادة التي سبني عليها المؤرخون من المؤرخين في العصر العباسي الثاني وما تلاه ، ومنها أنه في غياب السلطة الشرعية المؤثرة للخلافة الموهورة ، وشيوع روح الخوف والبطش من الجند المتغلبين على الخلافة علا شأن طبقة من العوام والغوغاء ، تغذوها مشاعر الكراهية التي تأصلت منذ عصور سالفة ضد الأمويين ، كما تغذوها اتجاهات بعض الدويلات المستقلة من التشيع والمغالاة والرفض ؛ " وطبقة كهذه من الغوغاء أصبحت مخيفة ، أزعمت الرواة فلم ينقلوا من مفاخر الأمويين كل ما كان يمكن أن ينقل ، وأزعمت الكتاب فلم يبرزوا ما وصلهم من أقوال الرواة " ^١ .

وقد حفظت لنا كتب التاريخ والتراجم بعض صور الرعب التي عاشها بعض المؤرخين خوفا من العامة في ذلك العصر الذي أصبح عصر إرهاب وفوضى " فلم تعد أمور الناس تجري على طمأنينة وأمن ، بل عاشوا حياة يسودها الفزع والخوف ، الظفر فيها لمن غلب " ^٢ ؛ فقد توفي أبو بكر محمد بن يحيى بن العباس الصولي ، صاحب كتاب " الأوراق " مستترا بالبصرة ؛ لأنه روى خبرا ضد علي بن أبي طالب عليه السلام ؛ فطلبته العامة والخاصة لقتله ^٣ ، كما قتل أبو العبر الهاشمي محمد بن أحمد ابن عبد الله العباسي بيد قوم من الرافضة سمعوه يتناول عليا عليه السلام فرموا به من فوق سطح بيت كان نائما عليه ، فمات سنة خمسين ومائتين ^٤ !!

حول علاقات العباسيين بالعلماء والمؤرخين :

من المعروف أن بعض العلماء قد تعرض لضغوط وأذى على أيدي العباسيين ، وأن العباسيين كانوا يتدخلون بصور شتى في حياة هؤلاء العلماء وحياتهم ، والأهملة على ذلك عديسة لعل أشهرها ما تعرض له الأئمة الثلاثة أبو حنيفة ومالك وأحمد بن حنبل من ضرب والفتنان بسبب

^١ د. شلي : موسوعة التاريخ الإسلامي 18/2

^٢ د. تروت عكاشة مقدمة تحقيق لكتاب المعارف لابن قتيبة ص (١ ، ب)

^٣ ابن النديم : الفهرست 215

^٤ السابق ص 217

أفكارهم ومواقفهم المعارضة لبعض أفكار وأراء بنى العباس^١ ، كما شهد ذلك العصر تدخلا في علوم النحو والفقه والأدب والشعر^٢ ..

ولدينا مثال رائع من أمثلة الأنفة والاعتزاز بالرأي جاءنا هذه المرة من أحد أشهر رواة العلم — بمفهومه الواسع — أبي عمرو بن العلاء ، قال أبو عبيدة : دخل أبو عمرو بن العلاء على سليمان بن علي — عم السفاح — فسأله عن شيء فصدقه ، فلم يعجبه ما قاله ، فوجد أبو عمرو في نفسه وخرج وهو يقول :

أنفت من الذل عند الملوك وإن كرموني وإن قربوا
إذا ما صدقتهم خفتهم ويرضون مني بأن يكذبوا^٣

ورغم هذه النماذج الرائعة من بعض العلماء " فليس كل العلماء في أي وقت وفي أية أمة بالذين يتزهون عن الغرض دائما ، ولا يفرهم المال والجاه أبدا ، فكان من بين العلماء من استمسك بالحق وخالف تعاليم الدولة وميولها وتعرض للعذاب ، ومنهم من شاعبها وأخذ يؤيد بعلمه وجهة نظرها فأعذقت عليه ماها^٤ ..

ومن أمثلة الساعين إلى الراحة في قصر السلطان ؛ أو المشفقين من السباحة في وجه التيار ؛ ما روى عن الهيثم بن عدي (ت 206 أو 207 هـ) الذي اعتاد ثلب الناس والظعن في أنسابهم وذكر معانيهم ، فذكر ضمن ذلك العباس بن عبد المطلب بشيء ، فحبس لذلك عدة سنوات^٥ ، ولم يكن الهيثم هذا من أصحاب المبادئ الذين يضحون في سبيلها ، بل كان حاطب ليل بمحانة عن مثالب الناس ، فوقع في شرك بغيض^٦ ..

وغض الواقدي محمد بن عمر (ت 207 هـ) الطرف عن ذكر اسم العباس بن عبد المطلب ضمن أسرى بدر من المشاركين^٧ ..

وروى الطبري عن محمد بن عمر بن حفص قال : " كان هشام الكلبي صديقا لي ، فكنا نتلاقى فتتحدث وتتناشد ، وكنت أراه في حالة رثة ، وفي أخلاق ، وعلى بغلة هزيلة ، والضرب يس فيهِ وعلى بغلته ، فما راعني إلا وقد لقيني يوما على بغلة شقراء من بغال الخلافة ، وصرج وجام من

^١ راجع أحمد أمين : ضحى الإسلام 2 / 30-36

^٢ السابق 25/2-26 ، 32-36

^٣ ابن خلكان : وفيات الأعيان 551/1

^٤ أحمد أمين : ضحى الإسلام 25/2

^٥ ابن خلكان : وفيات الأعيان 302/2

^٦ سيأتي حديث عن الهيثم بن عدي في موضع تال من هذا الكتاب ..

^٧ الواقدي كتاب المغازي 138/1

سروج الخلافة ولجمها ، وفي ثياب جداد ورالحة طيبة ؛ فأظهرت السرور ثم قلت له : أرى نعمة ظاهرة ، قال لي : نعم ، أخبرك عنها فإستمع ، بينا أنا في منزلي منذ أيام بين الظهر والعصر إذ أتاني رسول المهدي ، فصرت إليه ودخلت عليه وهو جالس خال ، ليس عنده أحد ، وبين يديه كتاب ، فقال : ادن يا هشام ، فدنوت فجلست بين يديه ، فقال : خذ هذا الكتاب ، فاقرأه ، ولا يمنعك قد فيه مما تستفظعه أن تقرأه ، قال : فنظرت في الكتاب ، فلما قرأت بعضه استفظعته ... فإذا كتاب قد ثلبه فيه كتابه ثلثا عجيبا ، ولم يبق له فيه شيئا ، فقلت : يا أمير المؤمنين : من هذا الملعون ؟ قال : هذا صاحب الأندلس ، قلت : فالثلب والله يا أمير المؤمنين فيه وفي آبائه وأمهاته ؛ قال : ثم اندرأت أذكر مثالبهم ، فسر بذلك ، وقال : أقسمت عليك لما أمللت مثالبهم كلها على كاتب ، ودعا بكاتب من كتاب السر ، فأمره فجلس ناحية ، وأمرني فصرت إليه ، فصدر الكاتب من المهدي جوابا ، وأمللت عليه مثالبهم ، فأكثر فلم أبق شيئا حتى فرغت من الكتاب ، ثم عرضته عليه ، فأظهر السرور ، ثم لم أبرح حتى أمر بالكتاب فحتم ، وجعل في خريطة ، ودفع إلى صاحب البريد ، وأمر بتعجيله إلى الأندلس ، قال : ثم دعا لي بمندبل فيه عشرة أثواب من جواد الثياب ، وعشرة آلاف درهم ، وهذه البغلة بسرجها ولجامها فأعطيني ذلك ، وقال لي : اكتم ما سمعت ^١ ..

إن وضوح التأثير السياسي للخلافة العباسية على تدوين تاريخ الأمويين أمر قد لفت انتباه كثير من الباحثين المحدثين الذين رغم اعتقاد بعضهم بأن التاريخ لم يصبح عملا رسميا في العصر العباسي ^٢ ، إلا أنهم يلحظون عظيم تأثيره على تدوين التاريخ الأموي بوجه خاص ^٣ ؛ وهو أمر متوقع على أية حال ، فالأورخ بشر يتأثر بالأجواء المحيطة به قطعاً؛ والضغوط الواقعة عليه أحيانا ، والتأريخ بطبيعته عظيم التأثير على صنع الرأي العام للجماهير ، وتوجيه تأييدها للسلطة الحاكمة أو الإيحاء بذلك ...

^١ الطبري : السابق 13/10

^٢ راجع حول ذلك المعنى : د. سيدة كاشف : مصادر التاريخ الإسلامي 48 ، د. حسين نصار : نشأة التدوين التاريخي 75 د. شاکر مصطفى : التاريخ العرب والمؤرخون 90/1 ، روزنتال : علم التاريخ عند المسلمين ص 91
^٣ أحمد أمين ضحى الإسلام 27/22-28 ، د. شلبي : موسوعة التاريخ الإسلامي 18/2 ، وشاکر مصطفى : التاريخ العرب والمؤرخون 449/1 ، محمود شاکر : التاريخ الإسلامي 50/4 ، عبد المنعم ماجد : التاريخ السياسي للدولة العربية 21/1 ، محب الدين الخطيب : هامش العواصم من القواصم 179 ، د. محمد جاسم المشهداني : موارد البلاذري عن الأسرة الأموية 41/1 ، وانظر روزنتال : مرجع سابق ص 90 ، عماد الدين خليل : التفسير الإسلامي للتاريخ ص 11

محاولات قديمة لتحريف التاريخ في العصر الأموي :

ولذا فإن من النصفة أن نذكر أن عصوراً أخرى ، غير العصر العباسي ، قد شهدت تدخلاً في حياة العلماء والمؤرخين لاكتساب المحامد ونفى المثالب ؛ منها العصر الأموي ذاته الذي شهد نشاطاً في الرواية التاريخية وتأصيلها ، حيث وجدنا وجهي التأثير المتوقعين :

الأول : محاولة التأثير على بعض العلماء لتشويه المعارضين للأمويين وقيادتهم ورموزهم ، مثلما ذكر عن محاولة هشام بن عبد الملك الضغط على ابن شهاب الزهري ليقول إن "الذي تولى كبره منهم" في حديث الإفك هو علي بن أبي طالب وليس عبد الله بن أبي ، فلما أصر الزهري على أنه ابن أبي قال له هشام : كذبت ، فقال الزهري : أنا أكذب لا أبأ لك ، فوالله لو نادى مناد من السماء إن الله أحل الكذب ما كذبت ..^١ ..

ولكن هذه الروايات على أية حال نادرة ، وربما لم يوجد منها إلا الرواية السابقة لوصحت ، وليس كل العلماء كالزهري في ورعه وشجاعته وليس كل الخلفاء كهشام يسمع رجلاً يقول له : لا أبأ لك ، ويحدثه خشن الحديث ؛ ثم يصفح عنه ؛ ويظل قريباً منه حتى موته !

والثاني : ما وجد من روايات تمجد بعض قادة بني أمية المرموقين مثل معاوية بن أبي سفيان الذي وضع الكاذبون في مناقبه أحاديث عديدة ، تعقبها العلماء فبينوا زيفها وكذبها^٢ ، كما حاولوا تمجيد عمر بن عبد العزيز بصورة مبالغ فيها ؛ فنسبوا إليه من دلائل الورع والزهد ما يضره ولا ينفعه^٣ ، وإن كان بلا شك قد صح ما يؤكد زهده وورعه .. حتى قال د. حسين مؤنس عن ذلك : "وقد كثرت خلال العصر الأموي القصص التي تظهر فضائل معاوية ومروان وعبد الملك بن مروان ومن إليهم ؛ فلما جاء العصر العباسي عمد المؤرخون والرواة إلى تعديل هذه القصص بما يوافق صالح الدولة الجديدة ، وحذف معظم ما وضع في مدح الأمويين من كتب التاريخ التي كتبت في المشرق أيام العباسيين ، ولم يبق منها إلا ما يبرز مساوئ الأمويين ، ويظهر فضائل العباسيين والعلويين"^٤ .

هذه هي أبرز العوامل التي أدت إلى تحريف التاريخ الأموي ، وقد وجدت عوامل أخرى أدت إلى نفس النتيجة وإن لم تقصد إليها ، ومن ذلك مثلاً دور العصية القبلية والإقليمية التي نشطت في العصر الأموي . حيث وجد بعض المؤرخين من أصحاب هذه العصيات أو تمثيلها ، وفي

^١ د. نصار : نشأة التدوين التاريخي 75-76 ، روى ذلك عن الذهبي تراجم رجال روى عنهم ابن إسحاق ص 72

^٢ ابن حجر : فتح الباري 131/7

^٣ راجع ابن سعد : الطبقات الكبرى 397/5 ، حيث زعموا أنه لم يفتسل من جنبه أو احتلام منذ استخلفه الله حتى قبض وحتى شكته زوجته فاطمة بنت عبد الملك إلي بعض الفقهاء .. وقد روى ابن سعد نفسه ما يناقض ذلك (السابق 3378/5-379)

^٤ هامش كتاب تاريخ التمدن الإسلامي لجرجي زيدان ج 4 ص 91

أنشاء محاولة كل فريق أن يظهر فضائله وأمجاده ؛ ويغض من شأن الآخرين ؛ كان يزيد من الغبش والتحريف ينال المراد من قادة الأمويين ومواقفهم ؛ من ذلك مثلاً إقام أبي مخنف الأزدي الرواية بشر ابن مروان بتحريض عبد الرحمن بن مخنف الأزدي — قائده لحرب الخوارج — على عصيان أوامر القائد الأعلى للقتال المهلب بن أبي صفرة الأزدي أيضاً ، بغية تمجيد شأن عبد الرحمن بن مخنف الذي رفض ذلك التحريض واستقص أمر بشر بن مروان ^١ ..

كما برز التأثير التاريخي للعصبيات الإقليمية عندما ظهرت مدارس تاريخية متميزة في عدد من الأمصار الإسلامية مثل مدرسة العراق والحجاز ومصر والشام ^٢ .. وقد نشطت حركة التدوين التاريخي في مدرستي العراق والحجاز ؛ وكلا المصربين كان من المعارضين في أحيان كثيرة للأمويين ، فتأثرت كتابات مؤرخيه بهذا العداء القديم ، ونظرة عجيلى في تاريخ الطبري تثبت تغلب الروايات الحجازية والعراقية على ما سواها ، والطبري شيخ لكثير ممن تلاه ، وعلى ذلك جاءت معظم أخبار أحداث ثورة الحسين وغيرها من ثورات الشيعة ، وثورات الخوارج ، ومعظم أخبار ولاية الأمويين البارزين كزياد والحجاج وخالد القسري من رواة مدرسة العراق ؛ مما لونها بالوان العداء للأمويين .. كذلك جاءت معظم أخبار أحداث ثورة أهل المدينة زمن يزيد بن معاوية وثورة ابن الزبير وأخبار مجتمع الحجاز متأثرة برواة مدرسة الحجاز التاريخية...

ومن المؤسف له ذلك الضمور الملحوظ في نشاط التدوين في مدرسة الشام آنذاك ؛ والسقي كنا نتوقع أن تجمي أكثر إنصافاً للأمويين ودولتهم ..

^١ الطبري : السابق 196/6 — 197

^٢ راجع د. شاكر مصطفى : التاريخ العربي من المؤرخون 50/1 وما بعدها

الفصل الثاني

دراسة في مصادر التاريخ الأموي

مقدمة : كلمة عن مصادر التاريخ الأموي :

تعدد مصادر التاريخ الأموي وتتناثر المعلومات التاريخية عنه في كثير من فروع التراث العربي المختلفة ؛ فليست كتب التاريخ العام التي تتناول غالباً التاريخ السياسي للدولة هي وحدها المصدر المهم للتاريخ الأموي فإن هناك مصادر أخرى لا تقل أهمية عنها ؛ إن لم تفقها في بعض الأحيان ؛ فكتب الفتوح الإسلامية والمصادر الجغرافية والنقوش التاريخية ودواوين الشعر وكتب الأدب العربي وكتب الطبقات والأنساب والتراجم التاريخية ؛ ناهيك عن كتب الفقه الإسلامي والفرق الإسلامية وكتابات المتكلمين .. كل هذه مصادر مهمة للتاريخ الإسلامي ساهمت في تكوين ملامح الصورة العامة لعصر بني أمية بكل ما تحويه من إنصاف أو تحريف ..

وسوف يأتي هذا الفصل في أربعة مباحث ؛ الأول منها يتناول بالدراسة بعض رواة التاريخ الأموي البارزين موضحاً آراءهم الفكرية ومعتقداتهم السياسية ودور ذلك في روايتهم عن الأمويين ؛ إذ إن هؤلاء الرواة ورواياتهم هي التي مثلت المادة الخام التي بنى عليها المؤرخون فيما بعد كتبهم وأحكامهم وأفكارهم ؛ ثم في المبحث الثاني نتحدث عن كتب التاريخ العام وأحوال بعض كبار مؤرخي الدولة الأموية واتجاهاتهم الفكرية والمذهبية وأثر ذلك على روايتهم .. بينما يتناول المبحثان الباقيان كتابات الأدباء والفقهاء التي تحدثت عن تاريخ الأمويين ، ومواقف أصحابها من بني أمية وتاريخهم ، إنصافاً لهم ، أو تحاملاً عليهم ..

المبحث الأول : دراسة عن بعض رواة التاريخ الأموي

تميزت بعض مصادر التاريخ الإسلامي بالاحتفاظ بإسناد الرواية التاريخية ، ذلك الإسناد الذي يتسلسل من لدن الشيخ المباشر للمؤرخ ويمتد حتى يصل إلى راوي الخبر الأول .. وقد تساهل بعض هؤلاء المؤرخين في إيراد العديد من الروايات الضعيفة والموضوعة بحجة أنه يسند كل رواية إلى رواها ويتقن بفهم القارئ لأحوال هؤلاء الرواة واتجاهاتهم الفكرية والمذهبية ، وفي أنه سيأخذ ممن يشق به ويترك من لا يأمنه أو يشك في حديثه ونزاهته ، مما يجعل من الضروري على الباحث في تاريخ هذه الحقبة أن يعرف المعلومات الأساسية عن هؤلاء الرواة وميولهم واعتقاداتهم حتى يكون على بينة من أمره ؛ ويحسن فهم المادة التاريخية من مصادرها الأصلية ؛ والإفادة منها ، وينفي عنها ما يشوبها من تناقض أو غيبش من خلال هذه المعرفة برواها ؛ ومن خلال منهج المؤرخ في النقد الداخلي للخبر .. ولذا لسوف أقدم في تلك الصفحات المقبلة دراسة لبعض أخطر هؤلاء الرواة شأنًا ؛ إذ تتعدى الإحاطة بكل رواية التاريخ الأموي المعروفين وتقديم رؤية عامة عنهم ..

١- عوانة بن الحكم الكلبي (ت 147 هـ) :

يزعم بعض الباحثين أن عوانة هذا كان عثمانيًا ، ينتصر لعثمان بن عفان ويميل لبني أمية ؛ ويحتجون على ذلك بما رواه ياقوت الحموي من أن عوانة بن الحكم كان عثمانيًا ، وكان يضع الأخبار لبني أمية^١ ، ويرجح محرر دائرة المعارف الإسلامية هذا الرأي^٢ ، ويذكر الدكتور عبد العزيز الدوري تبريرا لذلك الرأي فيقول : " ويحتمل أن عوانة بن الحكم كان عثمانيًا في ميوله ، أي أنه كان أقرب إلى الأمويين ، فتراه يقدم روايات أموية ، ولجده يبيد بعض التسامح حتى مع يزيد (بن معاوية) ؛ إذ يروي عن سكينه (بنت الحسين) قولها : ما رأيت رجلا كافرًا بالله خيرًا من يزيد^٣ ، ومع أنه يعرض رأي جابر بن عبد الله عن بيعه معاوية بأنها بيعه ضلالة إلا أنه يظهر الصراع خلال الفتنة على أنها نزاع بين شيعة عثمان وشيعة علي ، ويفسح المجال في أخباره لوجهة النظر الأموية في التأكيد على القضاء والقدر ، ويورد عوانة أن يزيد بن معاوية كان يخاطب علي بن الحسين إثر فاجعة كربلاء ويبين له أن والده لم يتذكر الآية (قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وترفع الملك

^١ ياقوت : معجم الأدباء 137/16 ، 162

^٢ دائرة المعارف الإسلامية مادة عوانة

^٣ الطبري : السابق 464/5

ممن تشاء ، وتعز من تشاء وتذل من تشاء ، بيدك الخير انك على كل شيء قدير ^١ ، وعلى كل
فإن الأخباريين عامة يؤكدون على مسئولية البشر عن الحوادث ، ولا يجذون فكرة الجبر في الشئون
العامة ^٢ ..

وعلى ذلك فإنهم ينون الرأي القائل بعثمانية عوانة على مثل هذه الحجج ؛ وبذا يكون
قول سكيئة : إن يزيد رجل كافر ، تسامحاً مع الأمويين ! ويكون تصوير الصراع بين علي ومعاوية
على أنه نزاع بين شيعة عثمان وشيعة علي تسامحاً مع الأمويين ! كما يكون الاحتجاج بآية من
القرآن — إن صحت هذه الرواية الآتية الذكر — مدعاة لاثام الأمويين بالجبر ! ويكون عرض هذه
الروايات من عوانة دليلاً على القول بعثمانية وميله إلى الأمويين .. وهذا تأويل لا ينهض بحجه قائله.
ولذا فإن مؤرخين آخرين يقفون موقف الشك من دعوى تحيز عوانة للأمويين أو
عثمانية ^٣ ؛ إذ إننا نجد روايات عديدة لعوانة هذا شديدة التحامل على الأمويين ، واضحة العداء لهم ،
مثل روايته عن امتناع أبي سفيان بن حرب عن بيعه أبي بكر بالخلافة إذ كان يفضل أن تكون الخلافة
في بني عبد مناف وفي علي بن أبي طالب خاصة ، ويزعم عوانة أن علياً زجره عن ذلك ، وقال له :
إنك والله ما أردت بهذا إلا الفتنة ، وإنك والله طالما بغيت الإسلام شراً ، لا حاجة لنا في نصيحتك^٤ ،
ويروي عوانة أيضاً أن وقعت صفين بين علي ومعاوية كانت أربعين وقعة كلها لصالح علي
وأهل العراق ! فلما خاف عمرو بن العاص على أهل الشام الهلاك أو الهزيمة أشار على معاوية برفع
المصاحف وطلب التحكيم فالتفت بذلك أهل العراق ^٥ ، إلى غير ذلك من روايات ^٦ ..

ولعل هذه الشبهة عن تحيز عوانة للأمويين ووضعه الأخبار لهم جاءت لسببين ؛ أولهما أنه
قد يظهر في روايات عوانة بعض الاعتدال في مواطن الصراع المهيج للعواطف ، والسذي تسير
الروايات التاريخية فيه على نحو معاد للأمويين ، وثانيهما انتماء عوانة إلى قبيلة كلب بولائه —
وموطنها الأصلي بالشام — جعله أكثر تعرضاً للروايات الخاصة بقبيلته التي ساندت بني أمية وملكهم

^١ سورة آل عمران آية ٢١

^٢ د. الدوري : بحث في نشأة علم التاريخ ١٣٣

^٣ شاعر مصطفى : التاريخ العربي والمؤرخون ١٢٨/١ ، مرجليوث : دراسات عن المؤرخين العرب ٩٧

^٤ الطبري : السابق ٢٠٩/٣

^٥ ابن العديم : بغية الطلب في تاريخ حلب ٣٢٦/١ نسخة مصورة عن مخطوط بايا صوفيا رقم ٣٠٣٦ نشر معهد

تاريخ العلوم العربية الإسلامية فرانكفورت ١٩٨٨ م

^٦ راجع د. الدوري : بحث في نشأة علم التاريخ ٣٦-٣٧ حيث أورد عن ذلك روايات أخرى ..

ولكن ذلك لا يعني أن عوانة كان عثماني أهوى ، أو أنه كان يضع الأخبار لبني أمية ، وإلا لوجدنا صورة مناقضة إلى حد كبير لروايات أبي مخنف ونصر بن مزاحم وغيرهما من رواة الشيعة ...
لقد كان عوانة فيما يبدو جماعة للروايات التاريخية التي تصل إليه، يرى أنه من العلم أن يجمعها جميعاً من شتى الرواة والاتجاهات ، ثم يسندوها إلى أصحابها فيكون قد حفظ العلم من الضياع ، وألقى التبعة على الرواة ، وترك سامعيه وقارئيه أمام مسئوليتهم في نقد الخير ونقد الرجال ؛ وهكذا فعل الطبري فيما بعد وفعل بعض الأخباريين الذين سنتناول الحديث عنهم بعد قليل ..

٢- أبو مخنف لوط بن يحيى (ت 157 هـ) :

هو لوط بن يحيى بن مخنف بن سليمان الأزدي ، كان جده مخنف بن سليمان من أصحاب علي بن أبي طالب وقد روى عن النبي ﷺ .. وكان أبو مخنف راوية أخباراً صاحب تصانيف في الفصح وحروب الإسلام ، وكتابه " تقدم أحياناً صورة أحاذة حية للحوادث ، مع كثير من الخطب والمحاورات ، ويتخللها الشعر في بعض المناسبات ، وهكذا نجد يعكس أثر مجالس السمر وشيئاً من وجهة قصص الأيام في أسلوبه " ^١ ، وزيادة على هذا المنحى القصصي في أخباره ، والذي يلقي ظلالاً من الشكوك حولها ، نجد أن رواياته متحيزة نحو التشيع " فهو أميل للعلوين تجاه الأمويين ، كما أن اعتزاز القبائل بمآثرها ينعكس أحياناً في رواياته ، فهو يعتمد بكثرة على روايات قبيلته الأزدي ، وإن استفاد من الروايات الكوفية الأخرى أحياناً " ^٢ ..

وأمر تشيعه جعله متروكاً عند أصحاب الحديث ، قال عنه ابن حجر : " أخباري تالف لا يوثق به ، تركه أبو حاتم وغيره ، وقال الدارقطني : ضعيف ، وقال يحيى بن معين : ليس بثقة ، وقال ابن عدي : شيعي محترق ، صاحب أخبارهم " ^٣ ، وقد ترجم له بعض الشيعة في كتبهم وامتدحوه كمد في أعيان الشيعة للعالملي ^٤ ..

وبعض رواياته تنبئ عن تعصب مقيت والتزام كامل بآراء غلاة الشيعة ، قال في كتاب " الجمل " — علي ما يروي ابن أبي الحديد — : إن علياً بعد انتصاره على أصحاب الجمل استعرض القتلى فوجد فيهم طلحة بن عبيد الله — أحد العشرة المبشرين بالجنة فزعم أبو مخنف أن علياً لم يدره

^١ الدوري : السابق 36

^٢ السابق 35 ، على بكر حسن : الطبري ومنهجه في التاريخ 335 رسالة ماجستير بدار العلوم ، وانظر عن انصر قبلته الأزدي في رواياته : الطبري : السابق 615/5 — 622 ، 196/6 — 197 ، 211 — 215 ، 301 — 308

^٣ ابن حجر : لسان الميزان 492/4

^٤ محسن الأمين : أعيان الشيعة ج 1 ق 1 ص 127

قال : ويل أملك طلحة ، لقد كان لك قدم لو نفعلك ، ولكن الشيطان أضلك فأزلك فجعلك إلى النار ^١ ، ورغم ذلك يقول عنه المستشرق الألماني فلهوزن معلقاً على روايته في مقتل الحسين : وأبو مخنف هو الحجة الكبرى ، وبوصفه كذلك اعتمد على اسمه المزيفون فيما بعد ، فنسبوا إليه الأسطورة المتأخرة المتعلقة بمقتل الحسين ^٢ ، ويزعم ابن أبي الحديد أن أبا مخنف من المحدثين ، ومن يرى صحة الإمامة بالاختيار ، وليس من الشيعة ولا معدوداً من رجالها ^٣ ، ويمتدحه أحد الكتاب المعاصرين بقوله عنه أنه يُعرف بدقة رواياته ^٤ وبموضوعيته فيها ^٥ ..

ولا ريب أن اعتماد أبي مخنف كأحد الرواة أو المؤرخين المبكرين الموثوق بهم سوف يقود إلى نتائج وخيمة على نزاهة البحث العلمي وسوف يمرر ذلك روايات شيعية صرفة ومكذوبة تدين مسالك الصحابة والتابعين في صدر الإسلام ..

وقد اعتمد الطبري في تاريخه على روايات أبي مخنف اعتماداً يكاد يكون كاملاً في بعض المواقف التي كان الأولى به أن يعتمد فيها على رواة محايدين عدول ، مثل رواياته عن موقعه صفين ومقتل الحسين وثورات الشيعة والخوارج ، وإذا كان الطبري قد رسم منهجه وحدد مساره في مقدمة كتابه في أنه يذكر كل ما يروى له ويترك للقارئ الحضيف مهمة الاختيار والموازنة ؛ فإن ترك الطبري عديداً من الروايات والأخبار والكتب المصنفة في هذه الأحداث واعتماده أساساً على رواية أبي مخنف يظل أمراً يحتاج إلى تحليل .. وربما كان السبب في ذلك أن روايات أبي مخنف أكثر تفصيلاً من غيرها إذ عاش صاحبها في الكوفة في أسرة شيعية قريبة من الأحداث ، وربما كان السبب أن أبا مخنف أقرب زمنياً إلى هذه الأحداث من غيره من الأخباريين المشهورين الذين كتبوا عنها كالواقدي ، فقد كان أبو مخنف (ت 157هـ) يمارس نشاطاته التاريخية قبل الواقدي (ت 207هـ) بنحو خمسين عاماً ^٦ ..

^١ ابن أبي الحديد : شرح نهج البلاغة 1/248

^٢ فلهوزن : الخوارج والشيعة 179 ، وانظر نقده لروايته تلك ص 180-186

^٣ ابن أبي الحديد : شرح نهج البلاغة 1/147

^٤ د. بوضون : الحجاز والدولة الإسلامية 209

^٥ السابق 279

^٦ راجع على بكر حسن : الطبري ومنهجه في التاريخ 335-336

٣- هشام بن محمد الكلبي (ت 204 هـ / ٨١٩ م) :

هو من أنشط المؤرخين العالمين بالنسب ، وقد روى الطبري روايات أبي مخنف وكثير من روايات عوانة بن الحكم عن طريقه ، وذلك موطن خطورة لاشك فيه ؛ إذ إن هشاما معروف بعدائه لبني أمية ، وقد ورث عن أبيه محمد بن السائب الكلبي التشيع والرفض^١ ؛ كما كانت أسرته معروفة بكراهيتها الشديدة للأمويين ، حيث قاتل أبوه الحجاج بن يوسف عامل الأمويين على العراق والمشرق ضمن صفوف عبد الرحمن بن الأشعث في ثورته المشهورة. ، كما قتل جده السائب الكلبي مع مصعب بن الزبير في حروبه ضد عبد الملك بن مروان ، وكان جده الأكبر بشر مع علي ابن أبي طالب في موقعي الجمل وصفين^٢ .

وفضلا عن ذلك كان هشام متين الصلة بالعباسيين قريبا من خلفائهم وأمرائهم ، فقد كتب كتابه " الملوكي " في الأنساب لجعفر البرمكي كما ألف كتابه " الفريد " في الأنساب للمأمون^٣ ، وقد سبقت الإشارة إلى دخوله على المهدي العباسي وقلبه الأمويين في الأندلس وأجدادهم إرضاء له ، فظهرت عليه بعدها دلائل النعمة وعلامات الرخاء ، وكان قبلها في فقر وضرب...

وهو علاوة على ما مضى سبي السمعة عند أصحاب الحديث ورجال الخبيرين بأحوال الرواة ، فقد وضعه أحمد بن حنبل والدارقطني وابن عساكر ويحيى بن معين وغيرهم^٤ ، بل اقمه بعض الأدباء بالكذب مثل الأصمعي^٥ والأصفهاني الذي ذكر بعض رواياته ثم قال : " هذه الأخبار التي ذكرتها عن ابن الكلبي موضوعة كلها ، والتوليد بين فيها وفي أشعارها " ^٦ ..

وعلى ذلك فإننا لا نعجب أن نرى مثل هذه الخرافات التي ذكرها عن بني أمية وأجدادهم ومكانتهم في الجاهلية^٧ ؛ ولا أن نقرأ له مثل هذه الرواية الساقطة القدر الواضحة الكذب : " كتب معاوية إلى قيس بن سعد : أما بعد ؛ فإنك يهودي ابن يهودي .. فكتب إليه قيس : أما بعد فإنك وثن

^١ راجع عن أبيه وإقامه بالتشيع والكذب واشتهاره بذلك : ابن حجر : تهذيب التهذيب 180/9 ، ابن خلكان : وفیات الأعيان 625/1 ، محب الدين الخطيب : هامش المنتقى من منهاج الاعتدال لابن تيمية 318-319

^٢ أحمد أمين : ضحى الإسلام 340/2

^٣ ابن النديم . الفهرست 97 ، شاکر مصطفى : التاريخ العربي والمؤرخون 192/1

^٤ راجع ابن حجر : لسان الميزان 196/6-197 ، والبخاري : التاريخ الكبير 20/4 ترجمة رقم ٢٧٠٨

^٥ ابن حجر : السابق 197/6 ، وانظر : جواد علي : موارد تاريخ الطبري ، مقال بمجلة النجم العلمي العراقي لسنة

١٩٥١ م ج ٢ ص ١٣٧

^٦ الأصفهاني : الأغاني 40/10

^٧ راجع ص من هذا الكتاب

ابن وثن ، دخلت في الإسلام كرها وخرجت منه طوعا .. ووصفه في رسالة أخرى كتبها إلى معاوية بقوله إنه ولد ضالين مضلين ، طاغوت من طاغيت إبليس^١ ...

٤ - الهيثم بن عدي (ت 206 هـ أو 207 هـ) :

هو أحد انشط مؤرخينا الباكين وله مكانة عالية في التأليف التاريخي^٢ ولكنه رغم ذلك مرمي بالكذب ، متهم بالشعوية ، ينسب إلى رأي الخوارج ، وقد جعله كل ذلك ذا جنابة كبيرة على التاريخ الأموي ..

فقد كان أبو نواس الشاعر يتهمه بالتلون وادعاء الأنساب^٣ وكانت جاريته تقول عنه : " كان مولاي يقوم عامة الليل يصلي ، فإذا أصبح جلس يكذب " ^٤ ، أي يروي الأخبار الكاذبة ، بينما كان الجاحظ يصفه بأنه يرى رأي الخوارج^٥ وأنه كان يحرف الأخبار لعداوات شخصية^٦ ، كما كان شديد الميل إلى العباسيين ، قوي الصلة بهم فكان ذلك مما زاد من عداوته لبني أمية وتحريفه أخبارهم^٧ ، ويبدو أن العباسيين كانوا - على صلاقم به - لا يأمنونه لسلطة لسانه ، فلما ذكر أنساب الناس ومعابهم وذكر العباس بن عبد المطلب بشيء حبسه العباسيون بضع سنين^٨ ، وقد أنكر غرامه بذكر مثالب الناس وعيوبهم أبا الفرج الأصفهاني حتى علل ذلك بأن الهيثم كان دعيا لفراد أن يعر أهل البيوتات تشفيا منهم^٩ وأن جده كان يهوديا أسلم على يد بعض آل أبي بكر الصديق فانتفى إلى ولاء بني تميم^{١٠} ..

^١ الجاحظ : البيان والتبيين 68/2 - 69

^٢ شاعر مصطفى : مرجع سابق 184/1 - 185 ، مرجليوت : دراسات عن المؤرخين العرب 109 ، الدوري :

بحث في نشأة علم التاريخ 32

^٣ راجع الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد 52/14 ، ابن حجر : لسان الميزان 211/6

^٤ الخطيب البغدادي : السابق والصفحة ، ابن حجر : السابق 210/6

^٥ الجاحظ : البيان والتبيين 274/1

^٦ السابق 63/1

^٧ د. جاسم المشهداني : موارد البلاذري 433/1

^٨ ابن خلكان : وفيات الأعيان 302/2

^٩ الأصفهاني : الأغاني 21/20 - 22

^{١٠} السابق 22/20

وهو متهم بالتأكيد عند علماء الحديث حيث ينفون عنه العدالة والصدق فيقول عنه علي ابن المديني : " لا أرضاه في الحديث ، ولا في الأنساب ، ولا في شيء " ^١ ، وكذبه البخاري وأبو داود والنسائي وأبو حاتم وأبو زرعة وغيرهم كثير ، وقال فيه احمد بن حنبل : كان صاحب أخبار وتدليس ^٢ ، وقد مر بنا ذكر محاولته نسبة شناعات إلى سيرة المهلب بن أبي صفرة وانتقاص مكانته ^٣ ، كما أنه قد حاول تشويه تدين هشام بن عبد الملك وأخلاقه إذ زعم أنه كان يعلم ولده فجور قريش ؛ قتل هذا واخذ مال هذا ^٤ ، وله أخبار بشعة ينسبها إلى الوليد بن يزيد الخليفة الأموي تدخل في باب الفحش والإسفاف الذي لا يدرك مثاه ^٥ ..

٥- الواقدي محمد بن عمر (130 — ٢٠٧ هـ) :

وهو أحد الموالى البارزين في التاريخ وغيره من العلوم ، حيث علت مكانته في ذلك المجال ^٦ ، وكان قوي الصلة بالعباسيين ، متصلاً بوزيرهم يحيى بن خالد البرمكي ^٧ ، كما اتصل بالرشيد والمأمون وولى له قضاء بعض البلدان وتلقى منه صلاته وهباته ^٨ ، وقد روى أنه كان يتشيع ولكنه يلزم التقية ؛ وأنه هو الذي روى أن علياً عليه السلام كان من معجزات النبي ﷺ كالعصا لموسى عليه السلام ، وإحياء الموتى لعيسى بن مريم عليه السلام ، وغير ذلك من أخبار تدل على تشيعه ^٩ ، ولعل التزامه التقية جعل بعض الباحثين يرى أنه كان بعيداً عن التحزب ^{١٠}

^١ الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد 51/14 — 52

^٢ ابن حجر : لسان الميزان 210/6

^٣ راجع ص من هذا الكتاب

^٤ ابن عبد ربه : العقد الفريد 448/4

^٥ راجع الأصفهاني : الأغاني 171/19 — 172

^٦ ابن الندم : الفهرست 144 ، الخطيب البغدادي : السابق 5/3 — 6 ، الدوري : بحث في نشأة علم التاريخ

32—31 ، شاکر مصطفى : مرجع سابق 163/1 — 164 مرجليوث : دراسات عن المؤرخين العرب 108

^٧ الخطيب البغدادي : السابق 5—4/3

^٨ السابق ٤/٣ ، 19—20 ابن الندم : السابق 144 ، شاکر مصطفى : السابق 163/1

^٩ ابن الندم : السابق 144—145

^{١٠} د. الدوري : السابق 31 ، شاکر مصطفى : السابق 165/1

يعدونه في رجالهم^١ ، رغم أن بعضهم ترجم له في كتبه مثل أعيان الشيعة لحسن الأمين^٢ وروضات الجنات للخواصاري^٣ ، وغيرها^٤ ..

وقد اختلف موقف علماء الحديث منه فبعضهم يوثقه وآخرون يكذبونه ويضعفونه^٥ ...
وحين ننظر في تاريخه نجد تأثير الاتصال بالعباسيين ، حيث حذف اسم العباس عم النبي ﷺ من قائمة أسرى بدر^٦ ، كما تنطق أخباره عن الفتنة في عهد عثمان بتحاميل كبير عليه وعلى غيره من الصحابة؛ مما قد يدل على نزعات شيعية فيه ، حتى لقد تحفظ الطبري — وهو الذي حدد منهجه في نطاق الرواية للأخبار لا نقدها — على رواية الواقدي لهذه الأحداث وقال : " وأما الواقدي فإنه ذكر في سبب مسير المصريين (الثوار) إلى عثمان ونزولهم ذا خشب أمورا كثيرة منها ما تقدم ذكره ، ومنها ما أعرضت عن ذكره ، كراهة من لبشاعته "^٧ ولذلك فإننا نجد أخبارا عديدة يرويها شديدة التحامل على الأمويين منها : زعمه أن زعيم الثائرين على يزيد بن معاوية بالمدينة — عبد الله بن حنظلة الغسيل — كان يقول : " والله ما خرجنا على يزيد حتى خفنا أن نرمى بالحجارة من السماء ، إنه رجل يتكح أمهات الأولاد والبنات والأخوات ، ويشرب الخمر "^٨ ، وهذا كذب لا شك فيه على يزيد ، ومنها زعمه أن عبد الملك بن مروان — رغم المعروف من فقهه وعدالته — أول من أحرر الصلاة من الظهر إلى العصر^٩ ، ومنها زعمه أن عامل الأمويين على مكة — خالد القسري — كان يعلن في بعض خطبه إن الخليفة أفضل من رسول الله ! وأن البثر التي حفرها الوليد بن عبد الملك بمكة أفضل من زمزم^{١٠} ..

^١ د. شاکر مصطفى : السابق والصفحة

^٢ أعيان الشيعة 128/1

^٣ روضات الجنات 268/7 — 270

^٤ راجع إحسان المي ظهر : الشيعة والتشيع 84—86

^٥ الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد 8/3—9 ، 11—14 ابن حجر : تهذيب التهذيب 363/9—368

^٦ راجع كتابه المغازي 138/1 ، وانظر أحمد أمين : ضحى الإسلام 236/2 ، فتحي عثمان : أضواء على الساريين

الإسلامي ص 50

^٧ الطبري : السابق 356/4

^٨ ابن سعد : الطبقات الكبرى 5/66 ، السيوطي تاريخ الخلفاء 209

^٩ راجع د. جاسم المشهداني : موارد البلاذري 1/405

^{١٠} الطبري : السابق 6/440 ، ابن الأثير : الكامل 4/110—111

٦- أبو عبيدة معمر بن المثنى (114 - 211هـ) :

أحد الموالى المشهورين بالحفظ وسعة العلم^١ ، وقد سبقت الإشارة إلى شعوبيته ، ويتضح ذلك أكثر إذا راجعنا قائمة مؤلفاته وما فيها من كتب عن مثالب العرب وفضائل الفرس^٢ ، حتى يروى ابن النديم أنه كان وسخا مدخول الدين ، وأنه لما مات لم يحضر جنازته أحد ، لأنه لم يسلم منه شريف ولا غيره^٣ ، ورغم ذلك يدافع عنه بعض المستشرقين بأنه لم يكن متحيزا للعرب مما جعل الآخرين يتهمون به بالتحيز للموالى^٤ .

وكذلك نسب أبو عبيدة إلى رأى الخوارج ورويت عنه دلائل على ذلك^٥ ، ولقد كان " يكتنم مذهبه ولكنه يخالفه في الصميم ، فهو يتقى الجهرية ، ثم هو أكره للعرب ، وأميل إلى الشعوبية ، ومتصل بالخلفاء والأمراء ومتملقهم ، فهو ليس خارجيا - إن كان - إلا في بعض عقائدها كالطعن على الخلفاء وكثرة التكفير للمخالفين ، على أن يكون ذلك أمرا مكتوما " ^٦ .. ومن المنتظر من رجل كهذا أن يكون ممن يشعرون على بني أمية ، وينشرون مثالبها ، بل يخترعونها إن لم يجدوها ...

زعم أبو عبيدة أنه لما قتل الحسين أرسل عبيد الله بن زياد إلى المدينة يبشر أميرها عمرو بن سعيد بن العاص ؛ فقرأ عمرو كتابه على المنبر وأنشد:

يا حبيذا بردك في اليدين حمرة تجرى على الحدين

وأرأى إلى قبر النبي ﷺ قائلا : يوم بيوم بدر ، فأنكر عليه قوله قوم من الأنصار^٧ ، وروى أبو عبيدة أن خالدا القسري أخذ بعض التابعين فحبسهم؛ فلما أنكر عليه ذلك بعض الناس قال : والله لو أمرني أمير المؤمنين أن أنقص هذه الكعبة حجرا حجرا لنقصتها ، والله لأمر المؤمنين أكرم على الله من

^١ راجع ابن النديم : الفهرست 79 ، ياقوت : معجم الأدباء 165/6 ، الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد 252/13 اليافعي . مرآة الجنان 44/2-46 ، طه الحاجري : أبو عبيدة مقال بمجلة الكاتب المصري ص 280 السنة الثانية العدد السادس سنة 1926م

^٢ راجع ابن النديم : السابق 79 ، ياقوت : السابق 165/6 ، شاعر مصطفى : التاريخ العربي والمؤرخون 199/1

^٣ ابن النديم : السابق 79

^٤ جب : دراسات في حضارة الإسلام 149

^٥ ابن خلكان : وفيات الأعيان 61/5

^٦ أحمد أمين . ضحى الإسلام 336/3

^٧ ابن أبي الحديد : شرح نهج البلاغة 71/4-72

أنبيائه^١ ١١ ، وقال أبو عبيدة حدثني الهذيل العلاف قال: صعد خالد القسري على المنبر فقال : إلى كم يغلب باطلنا حقكم ؟؟ أما آن لربكم أن يغضب لكم ؟^٢ .. وعلى ذلك لا يبدو مقنعاً قول الدكتور عبد العزيز الدوري عن أبي عبيدة : " وهو لا يتهم بالوضع في رواياته ، ومولته العلمية عالية إلا أن أخباره تكشف عن مثالب بشعة "^٣ ..

٧- المدائني علي بن محمد (135-225هـ) :

وهو أحد الموالى من المؤرخين المعروفين بوفرة النتاج التاريخي^٤ ورغم أن بعض العلماء بالرجال كان يفتي به^٥ ، إلا أن تعلقه بالغرائب والمعارف الطريفة والتفاصيل الشيقة المثيرة للفضول^٦ ربما وورطه في رواية الموضوعات وما لا يوثق به ، ولقد كان ياقوت يحرص في تقيمه له حيث قال: كان ثقة إذا روى عن الثقات^٧ ، ولكن يبدو أن رغبته في الظهور بكثرة العلم ووفرة الرواية قد أدت به إلى رواية كثير من الأخبار الواضحة العداء لبني أمية ..

فهو الذي زعم أن معاوية كتب إلى عماله بعد عام الجماعة أن برئت الذمة ممن روى شيئا في فضل علي بن أبي طالب وأهل بيته ، فقامت الخطباء في كل كورة وعلى كل منبر ، يلعنون عليا ويرعون منه ويقعون فيه وفي أهل بيته ، ثم كتب معاوية إلى عماله نسخة واحدة إلى جميع البلدان : أن النظر من قامت عليه البيعة أنه يجب عليا وأهل بيته فامحوه من الديوان ، وأسقطوا عطائه وورقه، وشفع ذلك بنسخة أخرى : من اتمتموه بموالة هؤلاء القوم فنكلوا به واهدموا داره^٨ ، ولا ريب أن ذلك كله كذب صراح ، وقد حفظ لنا التاريخ سبلا من الروايات والأخبار في تفضيل آل البيت وعلى^٩ منها الصحيح وأكثرها الزائف الموضوع ، فما منعهم من ذلك أحد بقوة السلطان ،

^١ الأصفهاني : الأغاني 25/22

^٢ السابق 23/22

^٣ الدوري : بحث في نشأة علم التاريخ 45

^٤ راجع ابن النديم : الفهرست 102 ، ياقوت : معجم الأدياء 126/14 ، مرجليوث : دراسات عن المؤرخين

العرب 99-103 ، شاعر مصطفى : التاريخ العربي والمؤرخون 186/1

^٥ ياقوت : السابق 125/14 — 126

^٦ شاعر مصطفى : مرجع سابق 155/1

^٧ ياقوت : السابق 126/14

^٨ ابن أبي الحديد : شرح نهج البلاغة 44/11 — 45

وأكثرها إنما أتى من العصر الأموي ... وقد كانت علاقة الأمويين بآل البيت تنطق بالاحترام والود ؛ ما لم يثر أحدهم ، فعندها يعاملونه كآي ثائر آخر^١ ..

وشاركت روايات المدائني في تشويه صورة يزيد بن معاوية ، حيث نسب إليه سخفا كثيرا^٢ ، وكذلك فعل مع الوليد بن زيد^٣ ؛ وإن وجدنا له روايات أخرى منصفة ليزيد بن معاوية^٤ ، ولكن ما أكثر ذاك وما أقل هذا .. ولقد ساهم المدائني كذلك في الحملة على خالده القسري والي الأمويين على العراق في بعض رواياته^٥ ..

^١ راجع ص من هذا الكتاب

^٢ البلاذري : أنساب الأشراف 1/4

^٣ راجع الأصفهاني : الأغاني 46/7 — 47

^٤ راجع البلاذري السابق 11/4 ، ابن طولون : قيد الشريد 33 وانظر روايات أخرى فيها إنصاف لبني أمية (أنساب الأشراف 296/5 — 297)

^٥ الأصفهاني : الأغاني 21/22 — 22

المبحث الثاني: الأمويون في كتابات المؤرخين القدماء

تمثل كتابات المؤرخين القدماء المصدر الرئيس للتاريخ الأموي فهي بكثرة رواياتها واتساع رؤيتها ووفرة تفصيلاتها تكاد تغطي معظم جوانب ذلك التاريخ السياسية وكثيرا من الجوانب العسكرية والاقتصادية ، مما يدفع بالمصادر الأخرى ككتب الأدب وكتب الفقه والحديث — غالبا — إلى مرتبة ثانوية مساعدة ؛ من أجل شمول الرؤية واستكمال النقص ، وإن ظلت من هذه الزاوية مصادر لا غنى عنها ...

وتحتل كتابات المبكرين من هؤلاء المؤرخين كالبلاذري واليعقوبي والطبري والمسعودي أهمية خاصة فقد اهتم هؤلاء المؤرخون باستيفاء جل الروايات السابقة عليهم ، وضمنوا في كتبهم جهود من سبقهم من الرواة والمؤرخين الأوائل كابي مخنف وابن الكلبي والواقدي والمدائني الذين كتبوا أجزاء مختلفة متفرقة من التاريخ جمعها هؤلاء المؤرخون ليكونوا منها تاريخا شاملا متصل الحلقات وافر المادة ، فاستغنى الناس بكتاباتهم عن كتابات من سبقهم فقل شأنها وضع معظمها ... كما أن من تلاهم من المؤرخين المتأخرين اعتمد عليهم وأخذ عنهم ، فجاءت كتابات هؤلاء المتأخرين في كثير من الأحيان تكرارا لكتابات من سبقهم أو اختصارا لها وإن لم تخل أحيانا من الجديد المفيد في المادة والفكر ..

واتسمت كتابات المؤرخين القدماء التي وصلت إلينا في مجملها فيما يخص التاريخ الأموي بسمتين أساسيتين :

١. الاعتماد على الرواية وقصور النقد التاريخي :

ويعتمد بعض هؤلاء المؤرخين على الرواية اعتمادا كاملا ، فتأتي كتاباته مجموعة من الروايات المتتابعة تغطي في مجملها الحدث التاريخي موضع التناول ، ويذكر إسناد كل رواية إلى راويها الأول ، ثم يترك لقارئه فرصة قبولها أو رفضها ؛ ملقيا التبعة كاملة على القارئ والرواة ... فلا يمنعه ذلك المنهج من رواية ما يستغرب ويعاب ، دون نقده أو تمحيصه ، فمهمته كما يراها تنحصر في النقل لا النقد ^١ ، وفي استيعاب الأخبار والحفاظ على عليها ^٢ وجمعها بشكل شامل ومنظم ^٣ ، وإن

^١ د. عثمان مواني : منهج النقد التاريخي الإسلامي والمنهج الأوربي 229

^٢ د. ماجد : التاريخ السياسي للدولة العربية 21/1

^٣ د. شاكر مصطفى : التاريخ العربي والمؤرخون 173/1

وصلت أحيانا إلى حد التناقض والاختلاف^١ ، حتى " وصلت إلينا هذه التركة ، لا على أنها هي تاريخنا ، بل على أنها مادة غزيرة للدرس والبحث يستخرج منها تاريخنا " ^٢ ...
ويعد الطبري (ت. 31٠هـ) رائد هذا الاتجاه ، فيقول في مطلع كتابه "تاريخ الرسل والملوك " : " فما في كتابي هذا من خير يستكره قارئه ، أو يستشعه سامعه من أجل أنه لم يعرف له وجهها في الصحة ، فليعلم أنه لم يؤت في ذلك من قبلنا ، وأنه إنما أتى من قبل بعض ناقله إلينا ، وإنما أدينا ذلك على نحو ما أدي إلينا " ^٣ ..

ونجد المنهج نفسه عند ياقوت الحموي (ولد سنة 626هـ) بعد حوالي ثلاثمائة سنة من وفاة الطبري حيث يقول في مقدمة كتابه " معجم البلدان " وهو كتاب جغرافي في المقام الأول ، لكنه يحوى كثيرا من المعلومات التاريخية المهمة: " لقد ذكرت (أي في هذا الكتاب) أشياء كثيرة تأباه العقول ، وتنفر منها طابع من له محصل ، لبعدها عن العادات المألوفة ، وتنافرها مع المشاهدات المعروفة ... وأنا مرتاب بها ، نافر عنها ، متبرئ إلى قارئها من صحتها ، لأني كتبها حرصا على إحراز الفوائد ... ولتعرف ما قيل في ذلك حقا كان أو باطلا " ^٤ ..

وبجوار هؤلاء المؤرخين الذين يلتزمون بذكر مصادرهم وروايتهم دائما عند كل رواية جديدة ، وجد نوع آخر من المؤرخين القدماء يكتفي بذكر مصادر رواياته في مقدمة كتابه جملة ، أو بذكر بعض هؤلاء الرواة بين الحين والآخر في صفحات الكتاب ، مثلما فعل اليعقوبي الذي ذكر مصادره الأساسية في مقدمة القسم الثاني من كتابه^٥ ، والمسعودي الذي ذكر مصادره في مقدمة كتابه " مروج الذهب " ^٦ ، وأبو حنيفة الدينوري الذي كان يذكر مصادره بين الحين والآخر^٧ ..
إن قصور النقد التاريخي عند مؤرخينا القدماء لا يعني عدم وجوده بالمرة ، ففسد كانوا يمارسونه بصورة غير ظاهرة في كتاباتهم ، " فمن فيض هائل من الروايات التاريخية كان المؤرخ يعدد بعدد منها فقط ، محدود على أية حال ، وكان يقوم بمجهود كبير في الانتقاء للروايات ومقارنتها ، ونفى

^١ د. ماجد : السابق 25/1

^٢ محب الدين الخطيب : هامش العواصم من القواصم لابن العربي 179

^٣ تاريخ الرسل والملوك 8/1

^٤ معجم البلدان 5 / ١ ، ونجد ذلك أيضا عند ابن عساكر ، راجع مقدمة د. صلاح الدين المنجد لتاريخ دمشق ١ / ٤

٣٥ ،

^٥ تاريخ اليعقوبي 4-3/2

^٦ مروج الذهب 5/1

^٧ د. شاکر مصطفى . 248/1 - 249

ما لا يقبله منها ، أو دمج بعضها في بعض ، إن التدوين التاريخي الإسلامي في الحقيقة إنما يتضمن في شكله الوصفي المعطى تلك العمليات الفكرية من استقراء ومناقشة وتفضيل رواية على أخرى ، ولكن دون الإعلان أو التسجيل لكافة تلك المراحل التحضيرية السابقة للكتابة ، والتي قلما يكشف عنها المؤلف ، ونذكر جدا من المؤرخين من كانت كتابته مجرد سرد ساذج لا يحمل ضمن السطور تأويله الخاص وتفسيره الذاتي ...^١ ..

إن هذا الاعتماد على الرواية من جانب مؤرخينا القدماء مع قصور النقد التاريخي وإلقاء التبعة على القارئ فيما يأخذ ويدع من هذه الروايات بعد أن علم أسماء رواتها ، يحتم على دارس التاريخ الإسلامي معرفة هؤلاء الرواة وأحوالهم حتى يعرف أهل الثقة فيهم فيأخذ منهم ، ويعرف أصحاب الهوى والغرض فيتجنب مروياتهم ، وعلم الترجمة والجرح والتعديل بمدننا بكثير من المعلومات المهمة التي تيسر لنا هذه السبيل ؛ إن ذلك " النقد الظاهري " للخبر يجب أن يصاحب النقد الداخلي للرواية حيث تدرس الرواية في أجزائها مع مقابلتها بغيرها من الروايات المناظرة لها ، كما يجب أن تفحص مصادر هؤلاء المؤرخين الذين يذكرونها مجملة ولا يذكرون الرواة عند كل خبر ، أما ما ينهجه بعض المؤرخين المعاصرين من اختيار جانب من الروايات التاريخية وإغفال جانب آخر دون دراسته أو محاولة معرفته لأن هذا الجانب أو ذاك يناسب فكرا معيناً لسدى المؤرخ أو الكاتب فذلك مزلق يخالف التجرد والعدالة ، فإذا كانت غاية المؤرخ هي الوصول إلى الحقيقة ، فالحقيقة هي كل الحقيقة ، لا بعضها ، وهي وحدة تامة لا تتجزأ " ^٢ ..

٢- شيوع التحامل على الأمويين :

يبدو في معظم كتابات المؤرخين القدماء التحامل على بني أمية ، وتلك نتيجة طبيعية لاعتمادهم على الرواية وقصور النقد التاريخي عندهم ، ولقد مر بنا عند ذكر رواة التاريخ الأموي أن كثيرا منهم كانوا من المتحيزين ضد بني أمية ، سواء كانوا من الشيعة أو من المناهزين بهم ، كأبي

^١ السابق 457/1 ، روزنثال : علم التاريخ عند المسلمين 92

^٢ د. أسد رستم : مصطلح التاريخ ص 4 ، وقد اتبه علماؤنا قديما خطأ منهج الانتقاء هذا ، فقال أحد علماء الحديث الشريف في معرض ذكره لأدب طالب الحديث : " ليكتب وليسمع ما يقع إليه من كتاب أو جزء على التمام ، ولا ينتخب ، فقد قال بن المبارك (ض) : ما انتخب على عالم قط إلا لدمت ، وروينا عنه أنه قال : لا ينتخب على عالم إلا بلذب ، وروينا أن بلغنا عن يحيى بن معين أنه قال : " سيدم المنتخب في الحديث حين لا تنفعه الندامة " (ابن الصلاح : مقدمة ابن الصلاح في علوم الحديث 212) وإن السبب الذي دفعهم إلى التحيز من الانتقاء في الحديث هو ما يدفعنا إلى الحذر في التاريخ ، حيث إن تشدان الحقيقة هو غاية كلا العلمين

مخنف والهيثم بن عدي وابن الكلبي وغيرهم ، أو الناقلين عن هؤلاء ممن تلاهم من أوائل المؤرخين الجُماعين كالواقدي والمدائني ، وقد أدى اعتماد كبار مؤرخينا القدماء على هؤلاء وأولئك إلى شيوع رواياتهم في كتبهم ، وهي روايات في مجملها معادية لبني أمية ودونست في ظل السيادة السياسية للعباسيين .. فإذا أضفنا إلى ذلك أن جماعة من أكابر هؤلاء المؤرخين كانوا من الشيعة أو المرتبطين بالبلاط العباسي أو القرييين منه كان من المتوقع أن تصطبغ معظم روايات التاريخ الإسلامي عند هؤلاء المؤرخين ، ومن نقل عنهم ممن تلاهم بالعداء للأمويين ...

فمن المؤرخين الشيعة :

١- يعقوبي^١ :

وهو أحد المؤرخين الموالي المنتمين إلى أصل فارسي^٢ ، كما كان من بيت وثيق الصلة بالأسرة العباسية حيث عمل أبوه وجده — وربما هو في بعض المناصب الإدارية في الحكومة العباسية^٣ ، كما أن هذه الأسرة عرفت بميوها العلوية القوية^٤ ، وقد تركت هذه العوامل آثارها على تأريخه للأمويين .

فثمة روايات تحمل وجهة نظر عباسية في كتابه " تاريخ يعقوبي " ^٥ وروايات أخرى تختفي بذكر آراء الأئمة العلويين وسرهم^٦ ، بينما تحمل رواياته عن بني أمية روحا معادية ، فهو يزعم — مثلا — أن عبد الملك بن مروان بنى قبة الصخرة ليحجج الناس إليها بدلا من الكعبة أيام ثورة ابن

^١ هو أحمد بن إسحاق بن جعفر بن واضح يعقوبي تولى سنة 248 هـ على ما يقول ياقوت الحموي (معجم الأديلة ١٥٤/٥) بينما يرجح شاكِر مصطفى أن وفاته كانت سنة 292 هـ كما تدل بعض الأخبار الواردة في كتابه البلدان

(انظر التاريخ العربي والمؤرخون 249/1) ، (Al Yaqubi) ، E , L .

^٢ يرجح أن جده الأكبر " واضحا " كان من أصقهان بفارس فيسميه العاملي: الأصفهاني (أعيان الشيعة 330/10)

^٣ كان جده واضح أحد موالى الخليفة المنصور (ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة 40/2) أو كان مولى صالح ابن الخليفة المنصور كما يرى الطبري : السابق 591/10 ، وقد تولى ذلك الجدة بعض الوظائف الإدارية في أرمينيا وأذربيجان وفي مصر ، وكان أبو يعقوبي من كبار عمال البريد ، وتولى يعقوبي نفسه بعض الوظائف عند الطاهريين على ما يبدو ، كما كان يحمل لقب العباسي نسبة إلى البيت العباسي (الجعفرى يعقوبى المؤرخ والجغرافى 21 ، 24 ، 26-27)

^٤ الطبري : السابق 591/10

^٥ تاريخ يعقوبي 318/2 ، 392 ، 408 حيث يسمى الدعوة العباسية الدعوة الهاشمية ، وانظر تاريخ يعقوبى 54/3 حيث يزعم أن هشام بن عبد الملك تنبأ باستيلاء أبي العباس السفاح على الحكم ، وروايات أخرى موالية للعباسيين (تاريخ يعقوبى 61/3-62)

^٦ تاريخ يعقوبى 35/2 ، 52 ، 125 ، 126-127

الزبير^١ ويزعم أنه في عهد الوليد بن عبد الملك — الذي كان عهد رفاهية وتحضر وعمران — قد انكسر الخراج فلم يحمل كثير شيء^٢ ، وتبدو صورة سليمان بن عبد الملك قائمة في تاريخه ، فهو يزعم أنه قد أمر بإحراق المجذومين لأنهم طافوا ببيته حتى منعه النوم، ثم خفف الحكم عنهم إلى النفي^٣ ، وأنه لما أراد بناء مدينة الرملة خرب من أجلها مدينة اللد ، فأمر أهلها بهدم منازلهم والبناء بالمدينة الجديدة وعاقب من امتنع عن ذلك حتى أذعن لأمره^٤ ، وعلى نفس النمط مسن التحامل كانت بعض رواياته عن عمر بن عبد العزيز ؛ فيزعم أنه دفن سليمان بن عبد الملك — وبه بقية من الروح — عجلا كي تتول إليه الخلافة^٥ ، وذلك ما لا يمكن أن يحدث من ذلك الخليفة الراشد ، كما تحمل رواياته عن هشام بن عبد الملك نفس العداء فتصفه بالغلظة والظلم والقسوة وأنه قد فشا الطاعون في عهده ، حتى هلك عامة الناس ، وذهبت الدواب والبق^٦ ، إلى غير ذلك من روايات. وهذا لا نستطيع أن نصدق تلك الدعوى التي يرددها بعض الباحثين من أن اليعقوبي كان دقيقا في معلوماته صادقا في رواياته مما أعطى مؤلفاته القيمة العلمية ، وروايته التقدير من قبل الباحثين والمؤلفين^٧...

٢- ابن أعمش الكوفي^٨ :

ورغم قلة المعلومات المتوافرة عنه فإن كتابه "الفتوح" ينضح بالمغالاة في التشيع ، بل ربما كان الدافع الأول إلى تأليف ذلك الكتاب هو الدعاية لمذهبه ، ولعل ذلك هو ما دفع جل مؤلفينا

^١ السابق 7/3

^٢ السابق 29/3

^٣ السابق 30/3

^٤ السابق 31/3

^٥ السابق 37/3

^٦ السابق 58/3

^٧ روزنثال علم التاريخ عند المسلمين 13 ، ياسين الجعفري : اليعقوبي المؤرخ والجغرافي 78

^٨ تختلف المصادر اختلافا كبيرا حول اسم ذلك الرجل ، فقليل إنه أحمد بن أعمش ، وقليل إنه محمد بن علي أو أحمد ابن علي أو أحمد بن محمد بن علي ، أو أبو محمد علي ، كما لا تقدم هذه المصادر الكثير عنه ؛ غير النص على أنه كوفي ؛ وربما كان أزديا نظرا لإشادته بهم في كتابه الفتوح ، كما يظهر الكتاب عنه تشيعا واضحا (راجع : ياقوت : معجم الأدباء ١/ ٢٣٠ ، ابن حجر : لسان الميزان ١/ ١٣٨ ، الزركلي : الأعلام ١/ ٩٦ ، حاجي خليفة : كشف الظنون ٢/ ١٢٣٩ ، د. محمد جبر أبو سعدة : ابن أعمش ومنهجه التاريخي في كتاب الفتوح ص ٣٩-٤١) ، وتوفي ابن أعمش سنة

القدماء إلى التغاضي عن ذكر ذلك الكتاب أو الاستشهاد به ، مع ما فيه من أخطاء تاريخية فادحة " ^١ ؛ وتحامل على كثير ممن ينحاز عن التشيع أو يعاديه ..

وعلى ذلك فهو يعلي من شأن علي عليه السلام وأولاده ؛ فيزعم معرفة علي بالغيب ^٢ ، ويورد أغاليط عديدة وأحاديث مكذوبة عن ثورة الحسين ومقتله ^٣ .. وتأريخه للأمويين ينطبق بالعداء لهم ؛ مثل مغالطاته بشأن أبي سفيان بن حرب ^٤ ، وتحامله على عثمان بن عفان ^٥ ، وإيراده الأحاديث الموضوعة عن دعاء النبي على معاوية وابنه يزيد ^٦ ، وزعمه موت يزيد نتيجة شربه الخمر ^٧ ، وإجرائه حديثا مكذوبا على لسان شيخ مجهول إلى هشام بن عبد الملك يكيل فيه السباب لبني أمية وأعلامهم ^٨ .. إلى آخر هذه الأمثلة التي يزخر بها الكتاب الذي لا يصرح رغم ذلك بمصادره ولا شيوخه في معظم الأحوال ؛ وإن صرح بهم كانوا رجالا مجهولين أو رجالا ماتوا قبله بعشرات السنين ^٩ !

^١ راجع عن أخطائه . الفتح ١ / ١٢٥ ، وعن الفتح في عصر الراشدين راجع : الفتوح ١ / ١٠٩ - ١١٢ ، ١٦٠ -

١٦١ ، ١٢٨ / ٢ - ١٣١

^٢ الفتوح ٧ / ٢ - ١٨٠ ، ١٢٠ / ٤

^٣ السابق ٤ / ٢١٤ - ٢٢٠ ، ٩٢ / ٥ - ٩٤ ، عن مسلم بن عقيل

^٤ حيث يزعم إنه هو الذي أصر على محو اسم النبي ﷺ من وثيقة الصلح في الحديبية وليس سهيل بن عمرو (الفتح ٨ / ٩ - ٨ / ٩)

^٥ الفتوح ١٢ / ١٥١ - ١٥٣ ، ١٥٥ ، ٢٢٤ - ٢٢٦

^٦ السابق ٥ / ١٨ - ٣٩

^٧ السابق ٥ / ٣٠٣

^٨ السابق ٢ / ٤٨١ - ٤٨٧

^٩ أبو سعدة ابن أعثم ومنهجه ٦١ - ٦٥

٣- المسعودي^١ :

يتم المسعودي بالتشيع والاعتزال وأن كتبه طافحة بذلك^٢ ، وقد كان معتزليا فعلا ، ولكننا لا نجد في كتبه ما يشير إلى هذا المذهب بشكل يوحى بتعصبه أو تحيزه^٣ ، أما تشيعه فهو أمر يثبت استعراض قوائم كتبه ففيها كتب ألقت في الإمامة وآل البيت^٤ ، وقد ظهر آثار ذلك التشيع على روايات تاريخية في كتابه مروج الذهب حيث يتحدث بإعجاب كبير عن علي بن أبي طالب^٥ ، كما ظهرت في تاريخه للأمويين ؛ حيث لا تحمل رواياته ودا نحو معاوية بل تزخر بالسباب واللعن^٦ ، وإن لم يخف إعجابه بمهارته السياسية^٧ ، ويتهمة بالافتراءات الشائعة غير الثابتة مثل اتهامه بقتل الحسن ابن علي^٨ ، وقد صور المسعودي حياة يزيد بن معاوية وضروب اللهو المزعوم الذي ينسب إليه بطريقة لا تخلو من الإسفاف^٩ ، بل تخرجه من دائرة الإسلام^{١٠} ، ويرى أن فرعون كان أعدل منه في رعيته^{١١} ، كما كان المسعودي واضح التحامل على الوليد بن عبد الملك الذي يصفه بالقسوة والظلم^{١٢} ، وأسرف في الحديث عن هو يزيد بن عبد الملك وحكاياته مع جواريه التي لا تخلو من الوضع والافتعال^{١٣} ، وكذلك يفعل حين يتحدث عن الوليد بن يزيد الذي يبلغ جدا في وصف

^١ المسعودي : هو علي بن الحسين المثلثي ، ينتهي نسبه إلى الصحابي عبد الله بن مسعود ، ولد سنة 287 هـ في بغداد ، وطاف ببلاد كثيرة ثم مات بمصر سنة 345 أو سنة 346 هـ (راجع ابن النديم : الفهرست 154 ، السبكي : طبقات الشافعية 456/3 - 457 ، ابن حجر : لسان الميزان 225/4)

^٢ ابن حجر : السابق 225/4 ، السبكي : السابق 456/3

^٣ الخربوطلي : المسعودي 31

^٤ منها كتاب الصفوة في الإمامة ، ورسالة البيان في أسماء الأنمة ، وكتاب الاستبصار في الإمامة (ابن النديم الفهرست 155 ، شاکر مصطفى : التاريخ العربي والمؤرخون 49/2) وكتاب مناقب أهل البيت وأخبارهم (المسعودي : مروج الذهب 86/3)

^٥ حيث يفضل عليا على جميع الصحابة (مروج الذهب ٦١ / 3)

^٦ السابق ١٣/٣ - ١٤

^٧ السابق ٤٥/٣ ، التبيه والإشراف ص ٢٦٦

^٨ مروج الذهب ٥/٣

^٩ السابق ٧٧/٣

^{١٠} السابق ٨١/٣

^{١١} السابق ٧٨ / ٣

^{١٢} السابق ١٦٦/٣

^{١٣} السابق ٢٠٩/٣

لهو وعشه^١، ويتهمه بالكفر وتزريق المصحف بسهامه وإنكار الوحي^٢. ويجب ألا ننسى هنا رواياته التي تتسم بالخرافة والأسطورة عن ميلاد الحجاج بن يوسف وكثرة ضحاياه^٣، وتبدو مع ذلك في كتابته روايات عباسية^٤، ولم يخل كتابه بالرغم من ذلك من روايات معتدلة عن بني أمية^٥!

مؤرخون مرواة:

ويمثل هذا الاتجاه جماعة على رأسهم البلاذري والطبري؛ فهما يرويان أحداث التاريخ مستندة إلى رواقات، ولا يتدخلان في هذه الرواية نقداً أو تعليقا إلا فيما ندر، ومن الطبيعي أن يكون هذا الاتجاه أكثر حيادا من الاتجاه السابق الذي التزم مؤرخوه فحج التشيع والتحامل على الأمويين غير أنه ظهر في هذا الاتجاه أيضا قدر كبير من التحامل على بني أمية، فتأثير العصر الذي عاش فيه هؤلاء المؤرخون — وهو العصر العباسي — وتحيز معظم الرواة الذين اعتمدوا عليهم، قد طبع كثيرا من أخبارهم بهذا التحامل.

١- البلاذري^٦:

كان البلاذري وثيق الصلة بالبيت العباسي، فقد امتدح بعض خلفائهم، كما عمل مريضا لعبد الله بن المعتز الخليفة والشاعر المشهور^٧، ورغم ذلك فإن رواياته توصف بالاعتدال والموضوعية وأما "لا تشرد وراء الاستطراد والهوى"^٨، وفي "كتابه فتوح البلدان" قدم بعض المعلومات التاريخية والحضارية المهمة، ولكن كتابه "أنساب الأشراف" اهتم اهتماما خاصا بالتاريخ الأموي؛

^١ السابق ٢٢٧/٣-٢٢٨

^٢ السابق ٢٢٨/٣-٢٢٩

^٣ السابق ١٣٢/٣، ١٧٥-١٧٦

^٤ السابق ١٨٨/٣-١٨٩

^٥ السابق 58/3، 169-170، 184، 187، 221-222، التنبيه والإشراف ص 276

^٦ هو أحمد بن يحيى بن جابر؛ بغدادى تولى سنة 279 هـ (انظر ياقوت: معجم الأدباء 91/5-92، مرجليوث:

دراسات عن المؤرخين العرب 131-132، الدوري: بحث في نشأة علم التاريخ عند العرب ص 49 وما بعدها)

^٧ امتدح المأمون (ياقوت: السابق 99/5، ابن عساكر: تهذيب تاريخ دمشق 109/2، ابن حجر لسان

الميزان 323/1) وكان من المقربين إلى الموكل (ياقوت: السابق 128/1-129) وامتدح المستعين بالله وكان من

جلسائه (الكتبي: فوات الوفيات 156/1) وعن تربيته ابن المعتز انظر: ياقوت: السابق 99/5، شاکر مصطفى

التاريخ العربي والمؤرخون 243/1

^٨ الدوري: مرجع سابق ص 50، شاکر مصطفى: السابق 245/1

حيث فاقت الروايات التي أوردتها البلاذري عن الأسرة الأموية ما أورده عن غيرها ، فهي تكسبون ثلث الكتاب تقريبا ^١ .. وروايات البلاذري تبدو متزنة بالنسبة للعصر الأموي في أحيان كثيرة كما سبق القول ؛ مثل تأريخه لثورة المدينة على حكم يزيد بن معاوية ^٢ ، وإن كان تحامل الرواة قد ترك تأثيره الواضح على عديد من صفحات الكتاب ، فبدا البلاذري شديد التحامل على يزيد بن معاوية ^٣ ، شديد التعاطف مع بعض حركات المعارضة ضد الأمويين ؛ كما ظهر في تناوله أحداث ثورة الحسين بن علي ؛ حيث اعتمد بصورة أساسية على رواية أبي مخنف لوط بن يحيى وهو شيعي متعصب ضد الأمويين ^٤ ، وبينما يصف البلاذري الدولة العباسية بأنها " الدولة المباركة " ^٥ ، والخلافة العباسية ^٦ ، فإنه لا يسمي الحكام الأمويين خلفاء إلا اثنين منهما هما عثمان بن عفان الخليفة الراشد وعمر بن عبد العزيز ^٧ ...

٢- الطبري ^٨ :

وقد اشتهر كفقيه ومفسر بتحرره من الضغوط السياسية التي تؤثر على عمل المؤرخين في أحيان كثيرة ^٩ ، كما تحرر من الضغوط المذهبية حيث كان يكفر الخوارج والرافضة ولا يقبل شهادتهم ولا يميز التواتر بينهم وبين المسلمين ^{١٠} ، وبالتالي يبدو اتهامه بالتشيع غير ذي قيمة حقيقية ^{١١} .

ويعد كتابه " تاريخ الرسل والملوك " أغزر مصادرها التاريخية المتاحة مادة عن العصر الأموي ، وقد أتاح إسناد هذه المادة إلى مصادرها الأصلية ورواها المتابعين الفرصة لدراسة اتجاهات

^١ د. جاسم المشهداني : موارد البلاذري 10/1

^٢ أنساب الأشراف 32/4 — 35

^٣ السابق 1/4—2

^٤ السابق 21/4—30

^٥ فتح البلدان 156

^٦ المشهداني : موارد البلاذري 60/1

^٧ السابق والصفحة

^٨ ولد محمد بن جعفر بن جرير الطبري في آمل بطبرستان سنة 225 هـ وتوفي سنة 310 هـ (انظر المراجع التالية)

^٩ السبكي : طبقات الشافعية 137/2 — 138 ياقوت : معجم الأدباء 87/18 ، السيوطي: طبقات المفسرين 11 ،

الحوي : الطبري ص 50 — 54

^{١٠} ياقوت : السابق معجم البلدان 13/13 ابن حجر : لسان الميزان 100/5 ، د. الحوي : الطبري 252—256

^{١١} ياقوت : معجم الأدباء 40/18 ، ابن حجر : السابق 100/5 ، ياقوت : معجم البلدان 63/1 مادة آمل .

هؤلاء الرواة ومواقفهم من الحكم الأموي وتناولهم لأحداث تاريخه ، غير أن السمة البارزة في تسليخ الطبري هي عنايته الفائقة بتاريخ العراق والمشرق الإسلامي — وبدرجة أقل تاريخ الحجاز — في حين يقل اهتمامه إلى حد كبير بتاريخ مصر وشمال أفريقيا والمغرب والأندلس؛ بل بتاريخ الشام حيث دار الخلافة الأموية وموطن القرار الأول في الدولة ، ولقد ترتبت على ذلك نتائج مهمة ، فبينما أفسرد الطبري مساحات واسعة للحديث عن الفتوحات الإسلامية في بلاد خراسان وما وراء النهر نجده يمرر مروراً سريعاً بالفتوحات الإسلامية لشمال أفريقيا والمغرب والأندلس ؛ رغم ما واجهته من مشاق واستغرفته من زمن ، وكذلك كان الأمر بالنسبة للحروب في الجبهة الشمالية في اتجاه القسطنطينية وجزائر البحر المتوسط . لقد خسر تاريخ الأمويين بذلك مترجماً ما هو الإحدى أكبر المنجزات التاريخية لبني أمية في هذه الجبهات ..

ولقد خسر التاريخ الأموي مرة أخرى عندما لم يهتم الطبري بإبراز المنجزات الحضارية في العهد الأموي ، فتعريب الدواوين ، وتعريب العملة وتنظيمها ، والجهود المعمارية الضخمة في عهد بني أمية والتي لا يزال بعضها — أو آثارها — باقية حتى الآن لا تظفر من مؤرخنا إلا بالنظرة العجلى أو اللمحة المتسرفة ...

على أن النتيجة الأخطر لاهتمام الطبري بتاريخ العراق والمشرق بصورة أساسية واهتمامه بتاريخ الحجاز في المرتبة التالية ، على حساب بقية العالم الإسلامي المتسع ، هي تركيز الأنظار على حركات المعارضة ضد الأمويين ، باعتبارها أبرز الظواهر التاريخية في تاريخ العراق والحجاز ، ولقد تناول الطبري هذه الثورات من خلال الرؤية العراقية لها؛ وهي رؤية لا شك في تحملها على الأمويين، وأبرز رواة الطبري في هذه الأحداث هم من الشيعة أو الشعوبيين أو الخاضعين والناقلين لروايات هذين الصنفين من الرواة^١ ، وهكذا جاء حديثه المسهب عن ثورة الحسين وابن الزبير وابن الأشعث وغيرهم ليحمل وجهة نظر هؤلاء النافرين في الدولة الأموية وليزيد من الصورة القائمة لها . ورغم كل ذلك فالباحث المنصف يجد في تاريخ الطبري روايات معتدلة متعددة تحقق في مجملها شيئاً من التوازن عن هذه الحقبة من تاريخنا ...

^١ من أبرز هؤلاء الرواة هشام الكلبي الذي يروى عن أبي مخنف وعوانة بن الحكم ، ومنهم الواقدي والمهيم بن عدي وأبو عبيدة معمر بن المثنى وغيرهم .

المبحث الثالث: الأمويون في كتابات قدامى الأدباء

تمثل كتب الأدب العربي مصدرا مهما من مصادر التاريخ الإسلامي ، ويحتل تاريخ بني أمية مكانة مهمة في هذه الكتب التي لم تقصر اهتمامها على فنون الأدب المعروفة من شعر ونثر ، بل تطرقت إلى ذكر لمحات من التاريخ السياسي للدولة ، واهتمت بجوانب شتى من حياة الخلفاء والأمراء والقادة الذين ساهموا في تشكيل أحداث ذلك التاريخ، كما اهتمت بعلاقات هؤلاء الخلفاء والقادة الاجتماعية وصلاتهم ببعض الشعراء والأدباء الذين لعبوا دورا بارزا في أحداث ذلك العصر ، وصورت الحياة الخلقية في المجتمع الإسلامي في العصر الأموي تصويرا خاصا يحقق غايات كتب الأدب التي تهدف أول ما تهدف إلى تقديم المتعة الفنية واللذة الأدبية للقارئ ، وعلى ذلك فإن مكانة الأدب في العصر الأموي ، وحركة المجتمع وتكويناته ؛ ورفق الأخلاق وتدنيتها ، وتوزيع الفقر والثروة ، وتحضر الدولة وبدائها .. كل ذلك تسعفنا فيه كتب الأدب أكثر من غيرها ..

وقد اهتم المؤرخون قديما وحديثا بذلك المصدر الثقافي المهم ، فأخذوا عنه ما بنوا عليه أحكاما تاريخية ، أو ما استشهدوا به على صحة مروياتهم التاريخية ، فالطبري والمسعودي وغيرهما من القدماء يروون كثيرا من هذه الشواهد الأدبية في مواطن شتى من تأريخهم ، كما نجد اعتمادا واضحا عند المؤرخين المحدثين على ما يرد في كتب الأدب مثل الأغاني والبيان والبيان وغيرهم ، كما نجد اعتمادا واضحا عند المؤرخين المحدثين على ما يرد في كتب الأدب مثل الأغاني والبيان والبيان وغيرهم ، كما نجد اعتمادا واضحا عند المؤرخين المحدثين على ما يرد في كتب الأدب مثل الأغاني والبيان والبيان وغيرهم ، كما نجد اعتمادا واضحا عند المؤرخين المحدثين على ما يرد في كتب الأدب مثل الأغاني والبيان والبيان وغيرهم .

وكتب التاريخ عادة يتداولها فريق من الناس له شغف خاص بها أو قدرة على التعامل معها ، أما كتب الأدب فتشيع عند جماهير الناس ، ويتداولها عوام الخلق ، فمن لا قدرة لهم على تمييز الصحيح من الزائف في أخبار هذه الكتب ؛ بينما تغريهم سلاسة أسلوبها وطرافة مادتها ، والتصاقها بالنفس ؛ فيصدقون ما فيها دون نقد أو درس أو تمحيص وبذا تكون في بعض جوانبها أشد خطورة وأعمق أثرا من كتب التاريخ العام ومصادر التاريخ الأخرى .

وفيما يختص بتناول كتب الأدب العربي للحياة في العصر الأموي نستطيع أن نرصد ظاهرتين أساسيتين .

١. القصد إلى تحقيق المتعة الفنية أو أغراض أدبية وضموم النقد التاريخي :

يحتاج الباحث في كتب التاريخ العام إلى قدر كبير من الحذر والحيلة والدراسة بأسس النقد التاريخي للخبر ، سواء كان نقدا خارجيا ينقد الإسناد وسلسلة الرواة ، أو داخليا ينقد الخبر ذاته ، ويدرس منطقته وجزئياته ؛ ويقارنها بغيره مما ورد في بابه .. بينما يحتاج القارئ لكتسب الأدب إلى

حذر أشد ، وحيطة أتمل ، قبل اعتماد ما ورد فيها من أخبار وروايات تخص حقائق التاريخ وأحداثه ، فإن القصد الأول من هذه الكتب كان تقديم جرعات متنوعة من الثقافة العامة ، بطريقة مشوقة ؛ تدفع الملل عن القارئ وتدخل على نفسه المتعة واللذة والموانسة ، وتستعين على ذلك بسوق الأمثال والحكم والطرائف والنوادر ، متخففة في ذلك من نقد مصادرها ، فيختلط فيها الجسد بالهزل .. والخزم بالسخف ، وأحاديث الرسول صلوات الله عليه وأخبار الراشدين والصالحين بأخبار الجنان والمغنين والساقطين وقصص الأدب المكشوف ..

فذلك ما صرح به أصحابها ، وأعلنه كتابها ، ولكنه غاب عن ذهن بعض القارئ والدارسين في عصرنا وغيره ، فيقول ابن قتيبة في مقدمة كتابه عيون الأخبار : " وهذه عيون الأخبار نظمها لمغفل التأديب تبصرة ، ولأهل العلم تذكرة ، ولسائس الناس وموسمهم مؤدبا ، وللملوك مستراحا من كد الجد والتعب .. واعلم أنا لم نزل نتلقت هذه الأحاديث في الحدائث والاكتهال ؛ عمن هو فوقنا في السن والمعرفة ؛ وعن جلسائنا وإخواننا ، ومن كتب الأعاجم وسيرهم ، وبلاغات الكتاب في فصول من كتبهم ، وعمن هو دوننا ، غير مستكفين أن نأخذ من الحديث سنا لحدائثه ، ولا عن الصغير قدرا لحساسته ، ولا عن الأمة الوكلاء لجهلها ؛ فضلا عن غيرها ، فإن العلم ضالة المؤمن ؛ من حيث أخذه نفعه ، ولن يزري بالحق أن تسمعه من المشركين .. فأما علم الدين والحلال والحرام ؛ فإنما هو استيعاب وتقليد ، ولا يجوز أن تأخذ إلا عمن تراه لك حجة ، ولا تقدح في صدرك منه الشكوك .. " ^١

فابن قتيبة يفرق بين علم الدين الذي ينبغي أن يؤخذ عن الثقات ، والأخبار التي تساق لتحصل الفائدة والراحة من الكد والتعب ، فهذه تروى عن أي أحد ؛ إذ لا يترتب عليها حكم شرعي أو خطر ديني ..

وكذلك يفعل أبو الفرج الأصفهاني في كتاب "الأغاني" فهو يروي عن كثير من الوضعيين والكذابين غير الضابطين ^٢ ؛ وينبه أحيانا إلى أن هذا الخبر أو ذاك موضوع مختلق ، وأنه إنما أتى به لاستكمال الفائدة ونفي الجهل .. يقول في بعض صفحات كتابه المذكور : " هذه الأخبار التي ذكرتها عن ابن الكلبي موضوعة كلها ، والتوليد بين فيها وفي أشعارها .. وهذا من أكاذيب ابن الكلبي ، وإنما ذكرته على ما فيه لئلا يسقط من الكتاب شيء قدر رواه الناس وتداولوه .. " ^٣

^١ عيون الأخبار : المقدمة ص (س ، ع ، ل)

^٢ راجع في بيان ذلك : د محمد أحمد خلف الله · صاحب الأغاني أبو الفرج الأصفهاني الراوية ص 220

^٣ الأغاني 40/10 ، وانظر أمثلة أخرى عن روايته الأكاذيب مع علمه بها (نفس المصدر السابق 11/16 ، 20/22

وينص ابن عبد ربه في مقدمة كتابه "العقد الفريد" على حذفه من الكتاب ، وحذفه أسانيد روايته ؛ إذ لا يستلزم تحقيق هدفه ذكرهم ، فيقول : " وحذفت الأسانيد من أكثر الأخبار طلبا للاستخفاف والإيجاز ، وهربا من التثقل والتطويل ؛ لأنها أخبار ممّعة ، وحكم ونوادر لا ينفعها الإسناد باتصاله ، ولا يضرها ما حذف منها ، وقد كان بعضهم يحذف أسانيد الحديث من سنة متبعة ، وشريعة مفروضة ، فكيف لا نحذفه من نادرة شريفة ومثل سائر وغير مستطرف " ^١ ..

وترتب على ذلك أنه كان " لا يمحّص الأخبار ، ولا يقف منها موقف الفاحص المدقق ، إنما يعرضها كيفما تأتت له ، فيذكر في مكان من " العقد " أن معاوية توفى وولده يزيد عنده ، ثم يشير في مكان آخر إلى أن يزيد كان بعيدا عن دمشق حين وافته المنية معاوية ، ثم يعرض لأشياء هي إلى الخرافات والأساطير أقرب ، دون أن يعلق عليها ، أو يثيره شذوذها ، كحديثه عن رجل عاش مائة وتسعين عاما ، ثم اسود شعره ، ونبتت أضراسه وعاد شابا " ^٢ ..

وقد قصد المبرد في كتابه " الكامل في اللغة والأدب " إلى تحقيق غايات أدبية ولغوية خالصة ^٣ ، وإن احتوى الكتاب على معلومات تاريخية مهمة ، وبسبب النهج ذاته يقع المبرد فيما وقع فيه ابن عبد ربه من رواية الأخبار المتناقضة دون تعليق أو نقد ، فهو يروى في موضع في كتابه أن الأشعث بن قيس كان شريكا لابن ملجم الخارجي في مؤامرة قتل علي بن أبي طالب ^٤ ؛ بينما يروى في موضع آخر قريب أن الأشعث كان حريصا على حياة علي ؛ وأنه فضح أمر ابن ملجم عنده ولكن عليا قال له : ما قتلني بعد ^٥ .

أما كتاب ابن أبي الحديد " شرح نهج البلاغة " فهو شرح لمجموعة من الخطب والأقوال المنسوبة إلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ، وهي نسبة مشكوك فيها منذ زمن بعيد ، ومن المؤكد أن بعضها منحول عليه ، غير صحيح النسبة إليه ، كما سيأتي بيانه ..

دتحيز كثير من الأدباء القدامى ضد بني أمية :

ثلاثة من أكبر أدبائنا القدماء يمكن تصنيفهم ضمن المتحاملين على بني أمية ، وهم الجليلي وأبو الفرج الأصفهاني وابن أبي الحديد ، بينما يوجد عدد آخر من الأدباء تحف عنهم نبرة العداء

^١ العقد الفريد ١/٤

^٢ د. الطاهر مكي : مصادر الأدب 229-230

^٣ الكامل في اللغة والأدب 1/1-2

^٤ السابق 179/1

^٥ السابق 147/2

لبنى أمية ويفسحون في كتاباتهم بعض الشيء لروايات معتدلة عن الأمويين ، أو يقل نشاطهم في جمع المادة عن الأمويين وتاريخهم ؛ ضمن المواد الثقافية المتعددة التي تزخر بها كتبهم .

(١) أدباء متحاملون على الأمويين :

١ - الجاحظ ^١ :

للجاحظ مكانة أدبية وعقلية كبيرة في التراث الإسلامي ، ولكنه لم يبحث بشكل كاف كمؤرخ أو كاتب في التاريخ ، وثمة عاملان مهمان ساهما في تشكيل موقف الجاحظ من بني أمية وتاريخهم وتحامله عليهم وهجومه الشديد على قادهم ورموزهم ، أول هذين العاملين هو صلاته الوثيقة بالعباسيين ، فقد نال عندهم مكانة عالية وأهدى لهم بعض كتبه وانتالت عليه جوائزهم ، وألف من الكتب ما يتنصر به لفكرهم ويؤكد به أحقيتهم في الملك والسلطان ^٢ .. ومن المؤكد أن ذلك الاتصال الوثيق بالعباسيين والدعاية لهم قد ترك أثره على رؤية الجاحظ للتاريخ الأموي .

^١ ولد الجاحظ عمرو بن بحر بن محبوب في البصرة سنة 150 هـ (على اختلاف في تاريخ مولده) وتوفى فيها سنة 255 هـ ، وقد تنوع في كونه عربيا أو مولى ، وأكد حسن السندوي على عروبته في كتابه أدب الجاحظ ص 11-15 والنظر المراجع التالية

^٢ سألته الخليفة المأمون أن يكتب له رسالة في " العباسية " والاحتجاج لها ففعل ، وأسند إليه ديوان الرسائل ، وتوثقت صلات الجاحظ بالوزير الأديب محمد بن عبد الملك الزيات وزير المعتمد والوائق وامتدحه وأهدى إليه كتاب الحيوان ، فأجازه بخمسة آلاف دينار ، وأهداه ضيعة كبيرة عرفت بالجاحظية ، كما أهدى كتابه البيان والتبيين ، للوزير القاضي أحمد بن أبي دؤاد وزير المتوكل فأجازه بخمسة آلاف دينار أخرى ، وكذلك كان حاله مع الوزير الفتح بن خاقان الذي كتب له رسالة في مناقب الترك وعامة جند الخلافة ، وطالما أثنى الفتح على الجاحظ عند المتوكل وأخذ له الجوائز ، بل كان يحصل منه على مرتب منتظم (ياقوت : معجم الأدياء 77/16 - 80 حنا الفاخوري الجاحظ ص 17، 19، شارل بلات : الجاحظ في بغداد 390، 396) وتذكر للجاحظ رسالة أخرى في " إمامة ولد العباس " وربما كانت هي كتاب العباسية السابق ذكره (السندوي: أدب الجاحظ ص 121-122) وقد احتج في هذا الكتاب المذهب العباسي - وإن لم يكن مذهبه هو - ولكنه فعل ذلك تماجنا وتقربا كما يقول المسعودي (مروج الذهب 57/6) كما ألف رسالة أخرى في " تفضيل بني هاشم " (ياقوت : السابق 116/218) مما جعل بعض الباحثين يرى في الجاحظ كتابا عباسيا مهمته نشر أفكار العباسيين والدفاع عنها (بلات : السابق 264-265 ، 272 ، 394 .

أما العامل الثاني الذي شكل موقف الجاحظ من الأمويين فهو الاعتزال ، فقد كان الجاحظ أحد شيوخ المعتزلة وصاحب إحدى فرقهم التي تعرف بالجاحظية^١ ، وموقف المعتزلة من الأمويين هو موقف العداء السافر ، حيث يروّغهم فاسقين وساقطي العدالة الواجب توافرها في الخلفاء ، والجاحظ يجاوز القصد في ذلك ، فلا يكتفي بالحكم عليهم بالفسق ، بل يحكم عليهم بالكفر ، ويزيد فيحكم بكفر من لا يكفروهم^٢ ، ففي كتابه " البيان والتبيين " ينقل عددا من الروايات التي تهجم معاوية بن أبي سفيان رأس الأسرة الأموية^٣ ، وينفي عنه ما ينسب إليه من أحاديث تحض على التعمد والزهادة لأنه لم يجد معاوية " في خال من الحالات يسلك مسلك الزهاد ، ولا يذهب بذهب العباد"^٤ .

ويظهر تطرف الجاحظ في موقفه من الأمويين في رسالته المعروفة باسم " النابتة " أو " برسلة في بني أمية " حيث يصف معاوية وخلفاءه بالكفر^٥ ؛ ويكفر من يتركون تكفيرهم^٦ ، وإن كان ذلك اعتقاد الجاحظ فسوف يقوده إلى تكفير كثير من المسلمين الذين يرون في بني أمية مسلمين يصيبسون ويخطئون ، ولا يحسن الجاحظ الظن بأحد منهم حتى لو كان الخليفة الزاهد عمر بن عبد العزيز الذي يصفه بأنه " أعور بين عميان "^٧ ..

^١ راجع عن الجاحظية : البغدادي الفرق بين الفرق ص ١٧٥-١٧٨

^٢ د. عبد الرحمن سالم : التاريخ السياسي للمعتزلة ص 116

^٣ البيان والتبيين 68/2-69 ، 161/3 - 162

^٤ السابق 46/3-47

^٥ راجع عن تكفيره معاوية : رسالة النابتة ضمن مجموعة رسائل الجاحظ 12/2 ، وعن تكفيره يزيد بن معاوية

12/2-13 ، وعن تكفيره زياد وابنه عبيد الله 14/2

^٦ السابق 12/2-14

^٧ روى ذلك عن الجاحظ ابن أبي الحديد في شرح فتح البلاغة 254/15 ومن العجيب أنهم ينسبون إلى الجاحظ كتابا بعنوان " إمامة أمير المؤمنين معاوية بن أبي سفيان " وهو كتاب في الانتصار له من علي بن أبي طالب وشيعته الرافضة (المسعودي : مروج الذهب 253/3 ، شارل بلاد الجاحظ في بغداد والبصرة وسامراء ص276) وإن صحت نسبة هذا الكتاب إليه فإنه يعبر بالدرجة الأولى عن عبثه بالرافضة ، وجملة عليهم ، مما يعد تأييدا بطريق غير مباشرة للعباسيين ؛ وهذا يخالف ما ذهب إليه د . طه الحاجري في كتابه " الجاحظ حياته وآثاره " ص ١٨٧ من أن كتاب " إمامة معاوية " هو نفسه رسالة " النابتة " ..

٢- أبو الفرج الأصفهاني^١

وهو أديب أموي النسب ولكنه كان شيعيا أصيلا في التشيع ، مما كان مثار دهشة وعجب عند القدماء والمحدثين الذين درسوا فكره ، وفسروا ذلك تفسيرات شتى^٢ ، كما كان أبو الفرج رقيق الدين متهما في خلقه^٣ ، وقد ترك تشيعه وتبذله الأخلاقي أثرهما في تناوله تاريخ الأمويين . فقد ألف كتابه " مقاتل الطالبين " ليؤرخ فيه لقتلى آل البيت ويذكر مآثرهم ، كما جعل من بعض صفحات كتابه " الأغاني " ترجمات لبعض خلفاء الأمويين وولائهم ، فضلا عما تناوله من سيرهم في ثانيا الصفحات الأخرى ، وفي كل ذلك كان يتضح تعاطفه الشديد مع الخارجين على بني أمية من آل البيت ، وتحامله على مسلك الأمويين تجاههم^٤ ، كما كان يولي اهتماما خاصا بتراجم بعض الخلفاء والولاة الذين ثارت حول أخلاقهم الشبهات ، مثل يزيد بن عبد الملك^٥ ، والوليد بن يزيد^٦ ، وخالد القسري^٧ وغيرهم ، فبالغ في تضخيم ما نسب إليهم ، ولم يحقق هذه المزاعم ، بل أتى بها - وأضاف إليها ، ليضفي على كتابه جو المرح والدعابة ، وليحقق غايته من سرد حكايات السمر والمؤامرات وكانت ضعيفة أو موضوعية ، ولو كان يعلم ضعفها وكذبها ، فقد كان كثير من شيوعه ورواياته من الكذبة الواضحة ، ومن غير الضابطين^٨ ، فساهم ذلك في تكوين صورة غير صحيحة عن أخلاق بعض الخلفاء والولاة من بني أمية ..

ثم أضاف الأصفهاني مزيدا من الألوان على هذه الصور العابثة حين صرف عنايته إلى تتبع أخبار جماعة من الشعراء والمغنين والخلفاء الذين وجدوا في العصر الأموي ، وروى كثيرا من حكاياتهم ومغامراتهم وقصصهم المخترعة ، التي تقدم في مجملها صورة غير واقعية عن عفة المجتمع

^١ الأصفهاني هو علي بن حسين بن محمد الأموي ، ينتهي نسبة إلى مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية ، ولد سنة 284 هـ بأصفهان ، وتوفى في بغداد سنة 356 هـ وفي تاريخ وفاته خلاف ، راجع ذلك في محمد أحمد خلف الله :

صاحب الأغاني 18-20

^٢ ابن الأثير : الكامل 209/8 ، الخوانساري روضات الجنات 221/5 ، د. خلف الله : السابق ص 141

^٣ الثعالبي . يتيمة الدهر 281/2 ، ياقوت : معجم الأدباء 113/13 - 115 ، 117 - 121 ، 132 - 133

^٤ انظر رواياته عن قتل الحسين في مقاتل الطالبين 98 وما بعدها ، وثورة زيد بن علي صفحة 124 وما بعدها

^٥ الأغاني 99/15 وما بعدها

^٦ الأغاني 60/7

^٧ السابق 15/22 وما بعدها

^٨ انظر ص من هذا الكتاب

الإسلامي في العصر الأموي وأخلاقه ، وستكون بعض هذه الروايات موضع دراسة في هذا الكتاب^١.

إن مزاج أبي الفرج ومن حوله من الأدباء والندماء " قد وضع في اختيار بعض الجوانب من حيوات بعض الشعراء والمغنين والخلعاء ، وإن هذه الجوانب ما كانت إلا الخليفة الماجنة لتوافق هوى هؤلاء ، وتدخل السرور على أنفسهم ، وتكون مادة سمرهم وأحاديثهم ، ولعلها بذلك تصور واقعهم وترضي خيالهم أكثر مما ترضي عقولهم ، لعلها أن تكون للتنفيس ، لا للحقيقة والتاريخ " ^٢.

٣- ابن أبي الحديد ^٣ :

وهو أحد الأدباء الشيعة المعتزلة الذين ظهوروا آخر العصر العباسي ، وارتبط تاريخه السياسي بالوزير الشيعي ابن العلقمي الذي يتهم بالتمهيد لدخول هولاكو عاصمة الخلافة ببغداد وارتكاب مذابحه المروعة فيها ^٤ ، فقد امتدحه ^٥ ، وألف له كتابه الشهير " شرح نهج البلاغة " فأتابه وأحسن جائزته ^٦ ..

و " شرح نهج البلاغة " هو شرح لبعض الخطب والمقالات المنسوبة إلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ^٧ ، وفيها تكفير جماعة من كبار الصحابة المبشرين بالجنة ، وطعن على الشيعيين أبي بكر

^١ راجع البحث الخاص بتلدين المجتمع في العصر الأموي في هذا الكتاب .

^٢ د. خلف الله : صاحب الأغاني 151-152

^٣ هو عز الدين عبد الحميد بن هبة الله ، أبو حامد ابن أبي الحديد ؛ ولد بالمداين سنة 586 هـ وتلقى مبادئ التشيع هناك في هذه البيئة الخصبة به ، وقد لقي الحظوة عند خلفاء بغداد ، فكان كاتباً في ديوان النشـريقات ثم في ديوان الخليفة وناظراً لليمارستان ، ثم أميناً لخزان الكتب ببغداد وتوفي سنة 655 هـ أو 656 هـ على اختلاف الروايات ، راجع بن كثير : البداية والنهاية 199/13 - 200 ، محمد أبو الفضل إبراهيم : مقدمة تحقيقه كتاب شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ص 13 - 18

^٤ ابن كثير : السابق 201/12-202 ، 203/13 ، ابن طباطبا : الفخري ص 338-339

^٥ ابن كثير : السابق 200/13

^٦ ابن طباطبا : السابق 337

^٧ قام بجمع هذه الكتب في " نهج البلاغة " الذي شرحه ابن أبي الحديد الشريف الرضي أبو الحسين محمد بن الحسين (ت 404 هـ) أو أخوه الشريف المرتضى علي بن الحسين (ت 436 هـ) وينتهي نسبهما إلى الإمام علي عليه السلام (راجع الخطيب البغدادي تاريخ بغداد 246/2 - 247 ، ابن كثير : السابق 3/12-4 ، ابن خلكان وفيـات الأعيان

وعمر رضي الله عنهما ؛ مما جعلها موضع شك وارتياح منذ زمن بعيد ، حيث نفى صحة نسبتها لعلي عليه السلام جماعة من الفضلاء قديما وحديثا^١ ، وإذا كان ذلك هو موقف هذه الخطب من هؤلاء الأعلام فإنها تنطق بالخصومة الحادة مع بني أمية ، يغذوها في ذلك تشيع الشارح واعتزاله .

فابن أبي الحديد الذي ينسب إلى علي بن أبي طالب المعرفة بالغيب^٢ يوثق رواية الشيعة من الكذابين والضعفاء كابي مخنف لوط بن يحيى^٣ ، ونصر بن مزاحم^٤ ، ويثهم معاوية وعمرو بن العلس بالكفر والإلحاد^٥ ويصوغ ذلك في رؤية اعتزالية واضحة ، فيقول معبرا عن رأي معتزلة بغداد في الحروب الناشئة بين الصحابة " أما أصحاب أجمل فهم عند أصحابنا هالكون كلهم إلا عائشة وطلحة والزبير — رحمهم الله — فإنهم تائبون ، ولولا التوبة لحكم لهم بالنار لإصرارهم على البغي ، وأما عسكر الشام بصفين فإنهم هالكون كلهم عند أصحابنا ، لا يحكم لأحد منهم إلا بالنار ، لإصرارهم على البغي ، وموتم عليه ؛ رؤسائهم والأتباع جميعا^٦ " ويروي ابن أبي الحديد عدة أحاديث موضوعة تنسب إلى معاوية الظلم والابتداع والكفر^٧ ، ثم يترج عن الأمويين النبل والكرم وفضائل الأخلاق ، بعد أن نزع عنهم الدين والإيمان^٨ ، حتى لو كان عمر بن عبد العزيز الذي يروي عن الجاحظ قوله فيه : إنه أعور بين عميان^٩ ..

322/4—324 ، الصفدي : الوالي بالوفيات 313/3 ، الزركلي : الأعلام 329/6 — 330 ، ابن حجر : لسان الميزان 223/4

^١ من هؤلاء الحافظ الذهبي : ميزان الاعتدال 101/1 ، ابن حجر : لسان الميزان 223/4 ابن خلكان : السابق 333/4 ، الصفدي السابق 375/2 ، محمد محيي الدين عبد الحميد : مقدمته لشرح نهج البلاغة لحمد عبده ، محمد كرد علي : الإسلام والحضارة العربية 391/2 ، العقاد : عبقرية علي 127

^٢ عقد لذلك فصلا تحت عنوان " الأخبار الواردة عن معرفة الإمام علي بالأخبار الغيبية " (شرح نهج البلاغة / 286 — 297) وانظر دفاع أحد كتاب الشيعة المعاصرين عن هذا الاعتقاد الفاسد وتأنيده رأي ابن أبي الحديد في ذلك : عبد الزهراء الحسيني الخطيب : مصادر نهج البلاغة وأسانيده 197/1 — 208 ، وهو يشاركه أيضا في التطاول على مقام الصحابة المشهود لهم بالخير والمبشرين بالجنة (راجع السابق 131/1 — 38)

^٣ شرح نهج البلاغة 147/1

^٤ السابق 206/2

^٥ السابق 65/2 والنظر ص 61

^٦ السابق 9/1 ، 65/2

^٧ السابق 79/4

^٨ السابق 251/15 — 252

^٩ السابق 254/15 والنظر 71/4

ب) أدباء معتدلون :

وظهر فريق آخر من الأدباء لا يتهم باتخاذ العداء للأمويين مذهباً ومنهجاً ، ولا يسلم أقسام من اتهم منهم بذلك من رد وماخذ ، لكنهم كانوا بطبيعة الحال يأخذون مادتهم من الرواة السابقين — وكثير منهم مجانب للأمويين — غير أن شخصية الاعتدال عندهم تظهر حين يـروون روايات محايدة ومنصفة للأمويين بجوار ما يروونه من أخبار معادية لهم ، أو حين يعبرون مواطن الخلاف بين السلف بغير تفصيل ، أو يتناولونها بتعفف واختصار ..

١- ابن قتيبة^١ :

وهو واحد من علماء الحديث ، وثقه جمهور العلماء وانتقده آخرون^٢ ؛ اتصل كشأن كثير من علماء عصره بعدد من وزراء العباسيين وأهدى لهم بعض كتبه ونال جوائزهم^٣ ، وفي كتابه "المعارف" الذي يبدو كمخطط لدائرة معارف شديدة الإيجاز^٤ ترجم ابن قتيبة لعدد من خلفاء وأعلام العصر الأموي ترجمات مقتضبة^٥ ، تذكر الشائع من أمرهم ، والشائع من أمر بني أمية ليس في صالح كثير منهم في أحيان كثيرة ، ولذا فقد خضع الكاتب لكثير من الآراء السائدة المهاجمة للأمويين^٦ ، ولم يتسع منهج الكتاب لمناقشتها وتحيصها ، وفي كتابه الآخر "عيون الأخبار" الذي

^١ أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة سنة 213 هـ نشأ في الكوفة أو بغداد لأسرة فارسية من مرو الروذ ، وتولى قضاء الدينور للمتوكل العباسي وتولى سنة 270 أو 271 أو 276 على خلاف بين الرواة (الخطيب : تاريخ بغداد 170/10 ، ابن خلكان : وفيات الأعيان 246/2 ، السمعاني : الأنساب 443)

^٢ البغدادي : تاريخ بغداد 670/10 ، الذهبي : تذكرة الحفاظ 187/2 ، السيوطي : بغية الرواة 291 ، ابن حجر : سان الميزان 358/3 ، ابن الجوزي : المنتظم 102/6 ، ابن تيمية : تفسير سورة الإخلاص 95-133

^٣ اتصل ابن قتيبة بالوزير عبيد الله بن يحيى بن خاقان (ت 263 هـ) وزير المتوكل ، وأهدى إليه كتابه : أدب لكتاب فأحسن جائزته (السمعاني : الأنساب 238 ، ابن خلكان : السابق 246/2 ، وتولى قضاء الدينور للمتوكل ، استقدمه الموفق طلحة أخو الخليفة المعتمد على الله ووزيره إلى بغداد سنة 266 هـ فقرأ عليه كتاب المعارف فأجازه بعشرة آلاف دينار (د. تروت عكاشة : مقدمة تحقيقه كتاب المعارف ص 65)

^٤ د. شاکر مصطفى : التاريخ العربي والمؤرخون 240/1

^٥ لا تستغرق ترجمات الخلفاء الأمويون عنده — في الطبعة التي اعتمدت عليها — أكثر من ستة وعشرين صفحة من ص 344 حتى 370 (و يترجم ليزيد بن معاوية رغم كل ما حدث في عصره من أحداث خطيرة في صفحة ونصف) ص 351 — 352)

^٦ راجع المعارف 318 — 319 عن الوليد بن عقبة ، 429 عن يزيد بن معاوية ، 355 عبد الملك بن مروان ، 64 عن يزيد بن عبد الملك ، 366 عن الوليد بن يزيد ، 397 ، 445 ، 548 عن الحجاج بن يوسف ...

أعلن في مقدمته أنه يروى أخباره للمتعة والفائدة ، جاءت تنف متفرقة من أخبار الأمويين لا تشكل تاريخاً متصلاً ، وهي تحمل رغم ذلك بعض الروايات المنصفة لبني أمية ^١ .

وثمة كتاب آخر ينسب إليه هو " الإمامة والسياسة " وهو كتاب تاريخ في المقام الأول وليس كتاب مختارات أدبية كسابقه ، على أن شكوكاً قوية توجه إلى نسبة هذا الكتاب لابن قتيبة ، وترجح استبعاد ذلك ، ففي الكتاب أخطاء تاريخية يصعب أن يقع فيها عالم كابن قتيبة ، إلى جوار أسباب أخرى تؤكد أن مؤلف الكتاب شخص آخر ^٢ ، وفي ثنايا الكتاب توجد روايات شيعية قلجهم بني أمية ^٣ ، كما توجد روايات أخرى تحمل قدراً من الإنصاف لهم ^٤ ..

٢- ابن عبد ربه ^٥ :

كان ابن عبد ربه مولى لبني أمية في الأندلس ، وكان شاعر البلاط الأموي ، وله في بعض خلفائهم مدائح سجلتها كتب التاريخ ^٦ ..

وبينما يصفه بعض المؤرخين بمجاملة بني أمية ووضع الأقاصيص في مدحهم ^٧ ، يتهمه آخرون بالتشيع والتحامل على الأمويين ، وهو أقام قديم يصوغه ابن كثير بقوله : " ويدل كثير من كلامه على تشيع فيه ، وميل إلى الخط على بني أمية ، وهذا عجيب منه ؛ لأنه أحد مواليهم وكان الأولى به أن يكون ممن يواليهم لا ممن يعاديهم " ^٨ ، وقال عنه أيضاً في موضع آخر : " كان فيه تشيع

^١ عيون الأخبار 9/1 ، 167/2 ، 247/2

^٢ راجع في بيان هذه الأسباب : مرجليوث : دراسات عن المؤرخين العرب 134-135 محب الدين الخطيب : مقدمة كتاب المسير والقلاح لابن قتيبة ص 26 ، هامش العواصم من القواصم لابن العربي 261-262 ، د. ثروت عكاشة مقدمة كتاب المعارف 56 ، شاعر مصطفى : التاريخ العربي والمؤرخون 242/1

^٣ الإمامة والسياسة 55/1 - 56 ، 97-98 ، 107 ، 193-202 ، 215 ، 17/2 - 18 ، 32-33 ، 1-53 ، 55-56

^٤ السابق 36/1 ، 38 ، 152 ، 202 ، 213-215 ، 8/2 ، 15-16 ، 33 ، 72 ، 128

^٥ عبد ربه هو أحمد بن محمد بن عبد ربه بن حبيب بن حدير مولى هشام بن عبد الرحمن بن معاوية ، أديب أندلسي قرطبي ولد سنة 246 ، وتوفي سنة 328 هـ (راجع ابن الفرضي : تاريخ علماء الأندلس 38 ، السيوطي : بغية الوعاة 161 ، دائرة المعارف الإسلامية 223/1 والمراجع التالية)

^٦ بالنسبة : تاريخ الفكر الأندلسي 169 ، د. الطاهر مكي : مصادر الأدب 226 ، ابن خلكان 32/1 ، الصفدي

الوفاي بالوفيات 12/8

^٧ د. حسين مؤنس : هامش تاريخ التمدن الإسلامي لجرجي زيدان 92/4

^٨ البداية والنهاية 193/11

شنيع ، ومغالة في أهل البيت ، وربما لا يفهم من كلامه ما فيه من التشيع ، وقد اغتر به شيخنا الذهبي فمدحه بالحفظ وغيره ^١ ..

والحقيقة أن لكلا الطرفين عذره فيما وصل إليه بشأن موقف ابن عبد ربه من بني أمية ، فبينما نجده في بعض أشعاره — كما يروون — يعد معاوية بن أبي سفيان رابع الخلفاء الراشدين بدل علي بن أبي طالب عليه السلام ^٢ ويضيف إلى ذلك عدة روايات تمدح الأمويين ^٣ ، نجده في إماكن أخرى من كتابه يروي خبر إعطاء معاوية مصر طعمة لعمر بن العاص على أنها صفقة مربية باع عمرو فيها دينه لمعاوية ؛ ورضى بالدنيا بديلا عن الآخرة كما رضى بها معاوية ^٤ ، ويروي قصة ثورة أهل المدينة ضد يزيد بن معاوية في موقعه الحرة وهزيمتهم أمام الجيش الأموي بقيادة مسلم بن عقبة الموري ؛ ثم يعقب على ذلك بقوله : " ومات مسلم بن عقبة لا رحمه الله " ثم " مات يزيد لا رحمه الله " ^٥ ، ثم يروي روايات أخرى تدين جيش عبد الملك بن مروان الذي أرسله لحرب ابن الزبير ؛ وتزعم أن قائد الجيش جلس على منبر النبي صلى الله عليه وسلم فدعا بخبز ولحم فأكل ، ثم دعا بماء فوضأ على المنبر ^٦ ، وأن جيشه كان يبيت في المعازف والخمور قبل أن يشن معاركة ضد الزبيريين ^٧ ، ويعقد ابن عبد ربه بابا تحت عنوان " باب من زعم أن الحجاج كان كافرا " ^٨ ، كما يروي روايات عديدة ضد هشام بن عبد الملك ^٩ ، والوليد بن يزيد ^{١٠} وغيرهما ..

من الواضح إذن أن ابن عبد ربه لا يمكن أن يوصف بمجاملة الأمويين ؛ وأنه راوية للأخبار بقصد المتعة والفائدة ، لا ينقد مصادره ، ولا يجهد نفسه في ذلك ، وكانت الروايات الشائعة المتحاملة على الأمويين تجد طريقها في يسر إليه من خلال اعتماده على ما كتبه المؤرخون المشلوقة في

^١ السابق 21/10

^٢ الزركلي : الأعلام ١/ ١٩٧

^٣ العقد الفريد 394/4 ، 424 ، 428 — 429 ، 446 — 448 ، 451 ، 7/5 ، 14/5 — 15

^٤ السابق 345/4

^٥ السابق 391/4

^٦ السابق 402/4 — 403

^٧ السابق والصفحتان

^٨ السابق 50/5 — 55 وانظر 48/5 — 49

^٩ السابق 448/4 على حين يروي في موضع آخر أنه لم يكن في ولد عبد الملك أكمل من هشام راجع السابق

446/٤

^{١٠} السابق 460/4 حيث يروي أنه أخرج جارية له قد نكحها وهي جنب متلثمة لتصلى بالناس ١١

عنده ، ممن كانوا يعيشون تحت تأثير السلطة العباسية في الشرق ، ولم يكن يمكنه أن يتقصى الروايات المؤيدة للأمويين في سر وسهولة ، وهو يعيش في الأندلس بعيدا عن مسرح الأحداث وجماعات الرواة والمؤرخين القريبين منها ، ولم يكن ما في كتابه من تحامل على الأمويين والذي يضر مكانته عند أمويي الأندلس ، فقد مضى عهد الدولة الأموية الأم ، وضعف شأن العباسيين وظهر خطر آخر قريب آنذاك يتمثل في الفاطميين بالمغرب ..

المبحث الرابع: الأمويون في كتابات الفقهاء التاريخية

من المعروف مدى الفائدة الكبيرة التي تقدمها الدراسات الإسلامية من تفسير وحديث وفقه وغيره للتاريخ الإسلامي ، وبخاصة في هذه الفترة المبكرة منه في عصر الراشدين والأمويين ، وقد مر بنا نموذج لذلك عند بحث أحوال رواة التاريخ الأموي ، والاستئناس بأقوال علماء الحديث والجرح والتعديل عنهم ، كما أننا سوف نجد هذه المعونة الدائمة — لدى فقهاءنا — في عديد من مواطن البحث التاريخي عن الأمويين ، غير أن علماءنا وفقهاءنا لم يقصروا جهودهم على هذا الجانب من الدراسات ، بل كان لبعضهم جهود تاريخية أصيلة ، وكتب خصصت كلها أو بعضها لبحث بعض فترات هذا التاريخ ...

إن ما سبق يعني أن التاريخ الإسلامي جزء لا ينفصل عن الدراسات الإسلامية^١ ، وأن معايير الصواب والخطأ في الحكم على ممارسات الدولة الإسلامية في العهد الأموي ينبغي أن تؤخذ من هذه الدراسات وترتبط بها ، مما يشكل خصوصية يتميز بها التاريخ الإسلامي عما عداه ..

بحوث الفقهاء التاريخية الأصيلة :

أدلى بعض الفقهاء المسلمين بدلوهم في مجال التاريخ الإسلامي ، ومن ذلك التاريخ الأموي ، وجاء إسهام بعضهم في شكل كتابة تاريخ متصل للدولة الإسلامية حتى عهده كما فعل ابن كثير في كتابه " البداية والنهاية " ^٢ ؛ بينما جاء معظم إسهام الآخرين على شكل مسائل متفرقة في التاريخ ضمن مباحث كتبهم .. فقد كتب ابن حزم الأندلسي (383 — 454 هـ) عن المفاضلة بين الصحابة

^١ أحمد شلبي . موسوعة التاريخ الإسلامي ١ / ١٦٠

^٢ يصلح كتاب البداية والنهاية ليكون ضمن كتب التاريخ العام كتاريخ الطبري وابن الأثير وغيرهما ، غير أنه حمل أيضا سمات خاصة من منهج الفقهاء والمحدثين في قبول الرواية ورفضها ، كما سيأتي بيانه ، مما جعله صالحا للاستشهاد به هنا

ضمن كتابه " الفصل في الملل والأهواء والنحل " وكتب ابن العربي (468 — 543 هـ) " العواصم من القواصم " على صورة شبهات حول تاريخ صدر الإسلام والدولة الأموية والرد عليها، وكتب ابن تيمية (661—728هـ) عن بعض أحداث التاريخ الأموي ضمن ردوده على أحد المعتزلة الروافض في كتابه " منهاج السنة النبوية " ، وكتب ابن خلدون (732—808 هـ) في بعض مباحث التاريخ الأموي في مقدمته وفي كتابه " العبر " ، وكذلك فعل بعض الفقهاء الآخرين ..

لاشك أن الذي دفع هؤلاء الفقهاء إلى كتابه هذه المباحث التاريخية التي اتجه معظمها إلى نواح معينة في تاريخ صدر الإسلام والدولة الأموية هو ما لها من أهمية دينية ؛ إذ تخص حياة الجيل الأول من رجالات الإسلام من الصحابة والتابعين ، وهم موضع القدوة ومناطق الأسوة للمسلمين ، وعلى ذلك فقد اتجه اهتمام هؤلاء الفقهاء إلى بحث هذه الشبهات التي أثارها بعض الفرق الإسلامية وعلى رأسها الرافضة والمعتزلة ، فبحثوا أسباب اختلاف الصحابة أثناء الفتنة الكبرى بعد مقتل عثمان رضي الله عنه وما أدت إليه من أحداث كان أهمها قيام الدولة الأموية ، كما بحثوا مكانة عدد من رجال ذلك العهد مثل معاوية بن أبي سفيان ومروان بن الحكم وابنه عبد الملك وعمر بن عبد العزيز وغيرهم ، غير أن روح الإنصاف عندهم تجلت على نحو خاص عند بحث بعض المسائل موضع الطعن على الأمويين مثل ولاية العهد ومقتل الحسين ومهاجمة المدينة المنورة أيام يزيد بن معاوية واقتحام مكة في أثناء فتنة ابن الزبير وغيرها كما سوف يأتي قريباً ...

وأهم ما يلاحظ على بحوث الفقهاء التاريخية السابقة هو شيوع روح الإنصاف للأمويين على نحو ملحوظ ، وقد كان ذلك لعدة أسباب ترجع في مجملها إلى سببين رئيسيين هما : التحرر من الحزبية السياسية والأهواء المذهبية ، وتأثير منهج علم الحديث في نقد الروايات والأخبار .. وسوف أتناول هذين السببين وكيف أديا إلى تحقيق الإنصاف للأمويين فيما يلي ..

1- التحرر من الحزبية السياسية والأهواء المذهبية :

لقد مر بنا فيما مضى أن أكبر أسباب تحريف التاريخ الأموي كان تأثير السلطة العباسية على تدوين ذلك التاريخ ، وتأثير الفرق الإسلامية المعادية للأمويين وعلى رأسها الشيعة والمعتزلة ، إن هذين العاملين لم يؤثر ذلك الأثر الضار بالتاريخ الأموي على هؤلاء الفقهاء الذين كتبوا فيه فإن أبرز هؤلاء الفقهاء تربوا بعيداً عن سيطرة العباسيين وعن التأثير بالرفض والاعتزال ، فقد عاش ابن حزم وابن العربي في الأندلس ، وعاش ابن تيمية وابن خلدون بعد القضاء على الخلافة العباسية في بغداد بفترة طويلة ، وكان كل هؤلاء من الملتزمين باعتدال أهل السنة والجماعة بعيداً عن غلو التشيع وشطط الاعتزال ..

ولعل عصور الانقسام السياسي التي عاشوا فيها ، وزيادة الخطر الخارجي على المسلمين المتمثل في مؤامرات الصليبيين بالأندلس ، وهجوم التار بالشرق ، قد حفزهم على محاولة جعل التاريخ الإسلامي بمراحله المشرقة عامل بعث ديني ، وتوسيع مجال القدوة والتأسي والاعتزاز ليشمل صدرا من خلافة الأمويين مع عصر الرسالة والخلافة الراشدة .. وأخيرا فقد كان تدين هؤلاء الفقهاء وورعهم حائلا دون قبول الظلم الواقع من بعض المؤرخين على بني أمية ، أو ترديد الشبهات عن تاريخهم بغير دليل أو بحث ؛ وكان حبهم للعدل وحسن ظنهم بالسلف دافعا لهم إلى تحقيق موافقهم ، كما سيأتي بيانه ..

2. تأثير منهج علم الحديث في نقد الروايات والأخبار :

من المعروف أن علم التاريخ وعلم الحديث ينتميان إلى أصول مشتركة ، منذ كان التاريخ يهدف إلى دراسة السيرة النبوية والمغازي والفتوح. ويعتمد — كما اعتمد الحديث — على الرواية الشفهية وسلاسل الإسناد^١ .. وهكذا ظلت بعض أحداث التاريخ الإسلامي — والتاريخ الأموي جزء منه — ذات أهمية دينية خاصة كما سبق القول ، وأحس هؤلاء الفقهاء والمحدثون بضرورة تنقية هذه الروايات ذات الأهمية الدينية مما علق بها من شبهات أثارها مؤرخو الفرق الإسلامية ورواقها ، وجاء بحثهم في هذه الروايات متأثرا إلى حد كبير بمنهج البحث في علم الحديث ، مع تنبه هؤلاء الفقهاء للفروق التي تميز كلا العلمين عن الآخر ، ولذا فقد أجروا معظم روايات التاريخ الإسلامي مما لا خطر ديني فيه مجرى الأحاديث الضعيفة التي تروى في فضائل الأعمال وفيما لا تشريع فيه ، حيث يتساهلون في إسناد وصحة هذا الصنف من الأحاديث والروايات^٢ ..

وقد اتضح تأثير منهج علم الحديث على الجهد التاريخي هؤلاء الفقهاء في النواحي الآتية :

أ) رفض روايات أهل البدع الأهواء :

وكثير من رواة التاريخ الأموي من أصحاب الأهواء ، وبخاصة الرافضة ومن روى عنهم كابي مخنف ومحمد بن السائب الكلبي وابنه هشام وغيرهم .. وعلماء الحديث يتشددون في رفض روايات الشيعة الرافضة والخوارج ومن شابههم في بدعهم وأهوائهم ، فيقول الإمام مالك عن

^١ راجع د. سيدة كاشف : مصادر التاريخ الإسلامي 25

^٢ راجع ابن حجر : تقييد التهذيب 273/7 ، ابن الصلاح : مقدمة في علوم الحديث 110—113 ، محمد بن سامي السلمي . منهج كتابة التاريخ الإسلامي ص 225—226 ، وقد عقد الخطيب البغدادي في كتابه : لكفاية في علم الرواية ص 211—213 بابا تحت عنوان التشدد في أحاديث الأحكام والتجوز في فضائل الأعمال

الرافضة: " لا تكلمهم ولا ترو عنهم ، فإنهم يكذبون " ^١ ، ويقول الشافعي : " لم أر أشهد بالزور من الرافضة " ^٢ ، ولما بحثوا في التاريخ الإسلامي حذر هؤلاء الفقهاء من قبول روايات الرافضة أيضا وذلك لوضوح دورهم في التحامل على الصحابة وبنى أمية وتشويه تاريخهم .. فيقول ابن العربي في معرض تحذيره من روايات أهل الأهواء : " فلا تبالوا بما رويوا ؛ ولا تنقلوا رواية إلا عن أئمة الحديث ، ولا تسمعوا كلاما لمؤرخ إلا للطبري (وذلك لأنه يذكر سلاسل روايته ، فيظهر للقارئ العارف أحوالهم) ؛ وغير ذلك هو الموت الأحمر والداء الأكبر ... فإذا قاطعتم أهل الباطل ؛ واقتصرت على رواية العدول سلمتم من هذه الحياتل " ^٣ ، كما رفض ابن العربي الاعتماد على بعض مصادر التاريخ والأدب التي تحوي الموضوعات والأباطيل مثل كتاب الإمامة والسياسة والبيان والتبيين وكتابات المسعودي وغيرها ^٤ ..

وتوقف ابن كثير أمام كثير من الروايات التي تشنع على بني أمية فأعلن شكه فيها بسبب أهواء ناقلها وتحزيم ضد بني أمية ؛ من ذلك ما فعله إزاء الأخبار التي تنسب إلى الحجاج بن يوسف ويقتضي ظاهرها الكفر الصريح فيقول : " ... ولكن قد يخشى أنها رويت عنه بنوع من الزيادة عليه ، فإن الشيعة كانوا يغيضونه لوجوه ، وربما حرفوا عليه بعض الكلم ، وزادوا فيما يحكونه عنه بشلعات وشناعات .. " ^٥ ، ويقول أيضا عن مقتل الحسين : " وللشيعة الرافضة في مصرع الحسين كذب كثير وأخبار باطلة ، وفيما ذكرنا كفاية ، وفي بعض ما أوردناه نظر " ^٦ ، وذلك ما يقرره أيضا ابن خلدون ^٧ وغيره ^٨ .

وقد اعتمد الفقهاء في معرفة أصحاب الهوى من الرواة والمؤرخين على ما كتبوه هم وغيرهم من كتب الجرح والتعديل وعلم الرجال ^٩ ..

^١ ابن حجر لسان الميزان 10/1

^٢ السابق والصفحة

^٣ العواصم من القواصم 260

^٤ السابق 261-262، 264-265

^٥ البداية والنهاية 132/9-133

^٦ السابق 202/8 ، وانظر 189/8

^٧ العبر 188/2

^٨ انظر ابن الصلاح مقدمة في علوم الحديث 251 في أخذه على ابن عبد البر اعتماده على الأخباريين لا المحدثين في كتاب الاستيعاب ..

^٩ انظر المبحث الخاص بالرواة ص ٤٧ - ٥٥

ب) اعتماد كتب الحديث والفقه كمصدر تأريخي :

وإزاء شك هؤلاء الفقهاء في رواية الأخباريين وأصحاب الهوى كان لابد أمامهم لتحقيق رواياتهم وتوسيع مجالها من الاعتماد على مصادر أخرى أكثر دقة وأمانة وأولى بالثقة ، وأهم هذه المصادر التي أسعفتهم في هذا المجال كتب الفقه والحديث حيث الروايات الصحيحة والمنضبطة وإن كانت قليلة لا تقدم تاريخاً متصلاً ..

وقد ظهر أثر اعتماد كتب الفقه والحديث عند هؤلاء الفقهاء في توثيقهم جيل الصحابة — وإن تفاضلوا في الدرجات — بما فيهم من كان له أثر كبير في قيام الدولة الأموية ، أو كانوا من أبوز ولائها مثل معاوية وعمرو بن العاص والمغيرة بن شعبة وغيرهم^١ ، وقد تعرض هؤلاء الصحابة لحمولات عنيفة من التشويه من خصوم الأمويين .

ثم ظهر أثر اعتمادهم على كتب الحديث والفقه في بحثهم بعض مسائل التاريخ الأموي .. فحين يتحدث ابن العربي عن فقه معاوية وتدينه يقول : " وقد شهد له في صحيح الحديث بالفقه^٢ ، ويعتمد ابن كثير على ما أورده الطبراني وابن عساكر من أحاديث في مناقب معاوية^٣ ، ولما تحدث ابن تيمية عن الخلاف بين علي ومعاوية شرح ذلك في ضوء قواعد الاجتهاد الإسلامي الذي يجوز فيه الصواب والخطأ ، لا الاتهام والطعن^٤ وكذلك فعل ابن خلدون وابن كثير حين بحثا هذه القضية^٥ ، وحين بحث ابن تيمية وابن خلدون بعض تصرفات يزيد بن معاوية بحثاها من زاوية إضافية حين تحدثا عن تحريم لعنه وتفسيره ، وخلاف العلماء في ذلك^٦ .. ولما تناولوا ثورة الحسين بحثاها بحث فقهاء أصوليا ، من ناحية هل يجوز الخروج على الحاكم الجائر ؛ أم أن الصبر أولى ، وضوابط هذه المسألة^٧ ، ولما تحدث ابن العربي عن عدالة مروان بن الحكم ومكانته اعتمد على كتب الفقه

^١ عن المراد بتسمية " الصحابي " راجع ابن تيمية مجموع الفتاوى 59/35 — 62 ، ابن حجر : فتح الباري 6/7 — ابن الجوزي : تلقيح فهم أهل الأثر ص 100 — 102 ، ابن الأثير : مقدمة أسد الغابة ، وعما شجر بينهم من خلاف ونظرة العلماء إليه ومكانتهم الرفيعة انظر فتح الباري 24/13 ، ابن تيمية مجموعة الفتاوى 734/4 ، النووي : شرح صحيح مسلم 149/15 ، ابن أبي العز الحنفى : شرح العقيدة الطحاوية 400 — 401

^٢ العواصم من القواصم 211 — 213

^٣ البداية والنهاية 120/8

^٤ منهاج السنة النبوية 144/1 — 145 ، 202/2 — 203

^٥ مقدمة ابن خلدون 617/2 ، البداية والنهاية 277/7

^٦ منهاج السنة النبوية 251/2 — 252 مقدمة ابن خلدون 614/2 — 615

^٧ منهاج السنة النبوية 243/2 — 256 ، مقدمة ابن خلدون 621/2 — 623

ومرويات العلماء الثقات فقال: "وأما فقهاء الأمصار ، فكلهم على تعظيمه واعتبار خلافته ، والتلفت إلى فتواه ، والانقياد إلى روايته ، وأما السفهاء من المؤرخين والأدباء فيقولون على أقدارهم " ^١ ، وهو نفس ما يفعله ابن كثير حين ينقل مناقب مروان بن الحكم على لسان الشافعي وأحمد بن حنبل وابن المبارك والليث بن سعد ^٢ .

ج) النقد الداخلي للروايات التاريخية :

لم يكف هؤلاء الفقهاء في بحوثهم التاريخية بنقد إسناد الروايات ورفض ما رواه أهل الأهواء منها ، بل تطرقت أبحاثهم إلى نقد بعض الروايات التاريخية — وإن بدت قليلة نسبياً — نقداً داخلياً يظهرون به تماتها ويعززون به ردهم لها ، وأكثر هذه الروايات التي ظفرت بهذا النوع من النقد جاءت عن الأمويين في عصر عثمان بن عفان ، وقليل منها جاء عن الأمويين بعد قيام الدولة .. ومن النوع الأول تحقيق ابن تيمية مسألة طرد الرسول ﷺ للحكم بن أبي العاص وابنه مروان بن الحكم ورد عثمان لهما " ، وكذلك ينهج ابن العربي في بحثه مسألة اتهام الوليد بن عقبة عامل عثمان الأموي على الكوفة — فيما بعد — بالفسوق ، وأنه المقصود بقوله تعالى " إن جلاءكم فاسق بنبأ فتينوا " ^٤ ..

وفيما يخص تاريخ الأمويين بعد قيام الدولة نجد أمثلة أخرى للنقد الداخلي للروايات .. مثال بحث ابن تيمية مسألة دس السم للحسن بن علي واتهام معاوية بذلك ، وأنه أمر الأشعث بن قيس بتنفيذ هذه الجريمة ؛ وكانت ابنته تحت الحسن ، يقول ابن تيمية : " وإذا قيل إن معاوية أمر أباهما كان هذا ظناً محضاً ، والنبي ﷺ قال : إياكم والظن ؛ فإن الظن أكذب الحديث ... ثم إن الأشعث بن قيس مات سنة أربعين ، وقيل سنة إحدى وأربعين ، ولهذا لم يذكر في الصلح الذي كلن بين معاوية والحسن بن علي في العام الذي كان يسمى عام الجماعة ، وهو عام واحد وأربعين ؛ وكلن الأشعث حماً الحسن بن علي ، فلو كان شاهداً لكان يكون له ذكر في ذلك ، وإذا كان قد مات قبل الحسن بنحو عشر سنين فكيف يكون هو الذي أمر ابنته " ^٥ ..

^١ العواصم من القواصم 101—102

^٢ البداية والنهاية 257/8—258

^٣ منهاج السنة النبوية 195/3—196 ، 197

^٤ العواصم من القواصم 102—104

^٥ المنتقى من منهاج الاعتدال 266

ولابن العربي محاولات شبيهة بما مر أثناء بحثه ما يثار حول إجبار معاوية أبناء الصحابة على البيعة لابنه يزيد بولاية العهد ، فهو يقابل هذه الرواية بما ورد في صحيح البخاري من أحاديث ؛ وينتهي بذلك إلى رفض شبهة المؤرخين ^١ ، وينهج ابن تيمية منهج النقد الداخلي أيضا حين يتحدث عن مزاعم الرافضة بظهور علامات كونية تدل على غضب الكون لما قتل الحسين فيقول : " يتبين أن كثيرا مما روى في ذلك كذب مثل كون السماء أمطرت دما ، فإن هذا ما وقع قط في قتل أحد ، ومثل كون الحمرة ظهرت في السماء يوم قتل الحسين ، ولم تظهر قبل ذلك ، فإن هذا من الترهات ، فمازالت هذه الحمرة تظهر ولها سبب طبيعي من جهة الشمس ، فهي بمنزلة الشفق .. " ^٢

إن هذه التأثيرات من منهج علم الحديث هي أهم ما يميز كتابات هؤلاء الفقهاء التاريخية عن كتابات فريق آخر من الفقهاء كتبوا في التاريخ العام كالطبري وابن الأثير وابن عساكر وغيرهم ، فهؤلاء رَووا ما وصلهم من روايات دون تدخل فيها ، كما حدث من الطبري وابن عساكر ، أو باختيار بعضها كما حدث عند ابن الأثير ، لكنهم لم يخضعوا كتاباتهم لمنهج النقد الحديثي ، أو لم تتأثر كتاباتهم على نحو واضح بذلك المنهج كما رأينا عند هؤلاء الفقهاء موضع الحديث في ذلك البحث ..

نماذج من إنصاف الفقهاء بني أمية :

١- ابن العربي ^٣ وكتابته عن الأمويين :

ويعد كتابه " العواصم من القواصم " من أبرز الكتابات التاريخية التي تسعى لإنصاف الأمويين وتنقية تاريخهم مما علق به من شبهات المؤرخين والأدباء .. وهو لم يحاول إنصاف الأمويين وحدهم ، بل امتد بحثه إلى تحقيق مواقف الصحابة بعد وفاة النبي ﷺ ورد الشبهات عن تاريخهم .. ويتعجب ابن العربي من استكثار الناس ولاية بني أمية مع أن أول من عقد لهم عقد الولاية رسول الله ﷺ ، ويرد الزعم بوجود أحاديث نبوية هاجم الأمويين وتغض من شأنهم ^٤ ، وعندما

^١ العواصم من القواصم 1/22-23

^٢ منهاج السنة النبوية 2/249-250

^٣ هو محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الله بن أحمد الماعز الأشبيلي المالكي ، ولد في شعبان سنة 468 هـ بمدينة أشبيلية في أحضان أسرة كانت لها حظوة لدى المعتمد بن عباد في عصر ملوك الطوائف ، وكان لهم جهاده السياسي مع المرابطين ثم المرحدين ، كما كان له جهده العلمي المتميز وتناحه الحصب في الفقه وأصول الدين وعلوم القرآن والحديث واللغة وغير ذلك ، وتوفي بمدينة فاس بالمغرب في ربيع الأول سنة 543 هـ (انظر مقدمة العواصم من القواصم 13-29 ، ابن بشكوال : الصلة ترجمة رقم ١٢٩٧ ، ص ٥٥٨-٥٥٩ ، د حسين مؤنس: شيوخ العصر في الأندلس 87-88)

^٤ العواصم من القواصم 248

يتحدث عن حروب علي ومعاوية يرى أن كلا الفريقين كان يجتهد رأيه لتقرير الحق ، وأنهم جميعاً مؤمنون كما قال تعالى " وإن طائفتان من المؤمنين اختلفوا فاصلحوا بينهما " ^٢ ، ويتحدث ابن العربي عن مزايا معاوية ومكانته العالية في السياسية والفقه ^٣ ، ويرفض الرواية المشهورة عن التحكيم وخداع عمرو بن العاص أبا موسى الأشعري ، ويرى أن كلا من الحكّمين خلع صاحبه وترك الأمر شورى بين المسلمين بغير سبب بينهما ^٤ ، ويتعرض ابن العربي لبحث بعض الشبهات التي تثار حول خلافة معاوية مثل قتله حجر بن عدي ، فيرى أن حجراً " أراد أن يقيم الخلق للفتنة ، فجعله معاوية ممن سعى في الأرض فساداً " ^٥ ، ويرى أن استلحاق معاوية زياد بن أبيه لم يكن خروجاً عن شريعة الإسلام كما يزعم أعداء الأمويين ، فإن المسألة محل خلاف بين العلماء ، وقد فعل معاوية الحق في ذلك على ما يذهب الإمام مالك ^٦ ، وحين يبحث ابن العربي تولية معاوية يزيد العهد يرفض القول بأن يزيد لم يكن عدلاً ، ولم يكن يستحق الخلافة ^٧ ؛ كما ينفي الزعم بأن يزيد كان شارب خمر " فإن قيل كان يزيد خماراً قلنا : لا محل إلا بشاهدين ، فمن شهد بذلك عليه ؟ بل شهد العدول بعدالله " ^٨ ..

ولما بحث ثورة الحسين وخروجه على يزيد بن معاوية أخذ على الحسين أنه " لم يقبل نصيحة أعلم أهل زمانه ابن عباس وعدل عن رأى شيخ الصحابة ابن عمر " ^٩ ، ويلتمس العذر لقاتليه فإنه " ما خرج إليه أحد إلا بتأويل ، ولا قاتلوه إلا بما سمعوا من جده المهيم على الرسل ؛ المخير بفساد الحلل ؛ المخدر عن الدخول في الفتنة " ^{١٠} ، ثم يذكر الأحاديث التي تنهى عن الخروج على الجماعة وتفريق الأمة ، ويعتبر على الحسين حسن ظنه بأهل الكوفة الذين أسلموه ^{١١} ..

^١ السابق والصفحة

^٢ السابق 172

^٣ السابق 209—218

^٤ السابق 179—181

^٥ السابق 219—220

^٦ السابق 250—255

^٧ السابق 229

^٨ السابق 232

^٩ السابق 237—238

^{١٠} السابق 244

^{١١} السابق 245

وأخيراً فإن بحث ابن العربي لم يقتصر على هذه الفترة الباكورة من العصر الأموي بل يمتد بعض الشيء حتى يروى الروايات عن فقه عبد الملك بن مروان وعلمه^١

ابن تيمية^٢ وكتابته عن الأمويين :

ويحتوي كتابه "منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة والقدرية" على نظرات نلفذة في التاريخ الأموي تشد العدل والإنصاف ، وتليق بتلك العقلية الناهة لشيخ الإسلام ، التي ترفض التقليد والجمود وتؤثر التفكير والاجتهاد ..

يتعقب ابن تيمية شبهات الشيعة والمعتزلة عن الأمويين ويناقشها ويرد عليها ؛ ومن أبرزها الشك في جدية إسلام بعض كبار الأمويين بدعوى أنهم من الطلقاء الذين أسلموا بعد الفتح لما لم يكن أمامهم غير الإسلام ، فيرى إن كلمة الطلقاء ليست بصفة ذم ، فإن الطلقاء غالبيتهم حسن إسلامهم .. وكانوا من خيار المسلمين ومعاوية ممن حسن إسلامه^٣ ، وكذلك حسن إسلام أبيه أبي سفيان بن حرب وأمه هند بنت عتبة^٤ ، وقد أصبحت مكانة معاوية عظيمة في الإسلام منذ عهد عمر بن الخطاب^٥ ..

ويرد ابن تيمية الأحاديث الموضوعة التي يزعمها أعداء الأمويين في ذم بني أمية على لسان الرسول ﷺ^٦ ، وقد استعمل النبي ﷺ بعضهم على بعض ولاياته^٧ ..

وينص ابن تيمية على العلاقات الوثيقة بين بني أمية وبني هاشم فهما يتبعان معا إلى جسد واحد هو عبد مناف ؛ وما زالوا متفقين في أيام النبي ﷺ وفي إمرة الشيخين^٨ ، ولما وقع القتال بسين على ومعاوية كانا "أطلب لكف الدماء من أكثر المقتولين ، لكن غلبا فيما وقع"^٩ ، وكان لكل

^١ السابق 263-264

^٢ ولد سنة 661 وتوفى سنة 728 ، واشتهر بالجرأة والصلابة والتحرر في الاجتهاد ، كما رفع راية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وجاهد التار بنفسه ، (راجع ابن حجر : الدرر الكامنة 144/1-160 ، السداوى : طبقات المفسرين 48/1 ، دائرة المعارف الإسلامية 109/1-116 ، أبو زهرة : ابن تيمية)

^٣ المنقلى من منهاج الاعتدال ص 248-249

^٤ السابق 268

^٥ السابق 249

^٦ السابق 258

^٧ السابق 261 ، 382

^٨ السابق 372

^٩ السابق 263

فريق من المتحاربين وجهه نظره المتأسسة على دلائل شرعية^١ .. ولما يبحث ثورة الحسين بن علي يرى أنه قتل مظلوما شهيدا ، غير أن يزيد لم يأمر بقتاله ، ولكن كتب إلى ابن زياد أن يمنعه عن ولاية العراق ، ويحمل أهل العراق وجيش ابن زياد مسؤولية قتله " ، ولما بلغ ذلك يزيد أظهر التوجع على ذلك ، وأظهر البكاء في داره ، ولم يسب له حربيا أصلا (كما يزعم الرافضة) ؛ بل أكرم أهل بيته وأجازهم حتى ردهم إلى بلدتهم^٢ ، ورغم ذلك فإن ابن تيمية يرى أنه لم يكن في خروج الحسين على يزيد مصلحة لا في دين ولا في دنيا ، "وكان في خروجه وقلته من الفساد ما لم يكن يحصل لو قعد في بلده" ^٣ ؛ وينفى كثيرا من مبالغات الشيعة في قصة استشهاد^٤ ..

ويتحدث عن ثورة أهل المدينة على يزيد فيذكر أنهم " لما خلعه وأخرجوا نوابه وعشيرته أرسل إليهم مرة بعد مرة يطلب الطاعة فامتنعوا ؛ " فأرسل إليهم جيشه فأوقع بهم ، ولكن لم تحدث الفظائع التي ينسبها المؤرخون إلى ذلك الجيش ، ويزعمون أنه ارتكبها بمدينة الرسول " ^٥ ..

حول إنصاف الفقهاء للأمويين :

إن محاولة الفقهاء إنصاف الأمويين في بحوثهم التاريخية لا تعني أبدا محاباتهم الأمويين أو تزيف التاريخ لصالحهم ، فكما كشف هؤلاء الفقهاء زيف كثير من الروايات التي تهاجم الأمويين كشفوا أيضا وضع بعض الروايات التي تعلي من شأهم وتمجدهم ، فقد كان هدفهم تقصي الحقيقة ، لا الانتصار لفريق على آخر ، فقد نبه ابن الجوزي في كتابه : " الموضوعات " على بعض الأحاديث التي وضعها أنصار الأمويين في فضائل معاوية^٦ ، كما انتقد الحافظ ابن حجر إيراد مثل هذه الأحاديث^٧ ، وقال ابن كثير بعد أن أورد بعض ما صح من الأحاديث في مناقب معاوية " وقد ذكر ابن عساکر بعد هذا أحاديث كثيرة موضوعة ، والعجيب منه مع حفظه وإطلاعه كيف لا ينبه عليها وعلى نكارتها وضعف رجالها " ^٨ ..

^١ منهاج السنة النبوية 202/2-203 ، وراجع مجموعة فتاوى شيخ الإسلام 72/35-73

^٢ منهاج السنة النبوية 225-226

^٣ السابق 241/2-242

^٤ السابق 248/2-250

^٥ السابق 253/2 وانظر ص 251

^٦ الموضوعات 15/2-24

^٧ فتح الباري 131/7

^٨ البداية والنهاية 120/8

وقد لفتت ظاهرة إنصاف الأمويين عند بعض الفقهاء الذين كتبوا في التاريخ أنظار بعض الباحثين ، غير أن أحدهم فسرها تفسيراً بعيداً لما وجدها في أعمال بعض علماء الأندلس كابن حزم وابن العربي فذهب إلى أنها ظاهرة أندلسية جاءت نتيجة تأثير خلافة الأمويين التي كانت هناك فيقول : " نجد هذه الأخبار (أي المظهرة لفضائل الأمويين) متواردة في معظم كتب التاريخ التي كتبت في الأندلس ، واطهر مثال لذلك أبو محمد علي بن حزم الذي يدافع عن الأمويين دفاعاً عظيماً ، وأبو بكر بن العربي الذي ذهب في كتابه العواصم من القواصم إلى درجة أنه أيد يزيد في قتله الحسين بن علي رضي الله عنه ، وتوضح هذه الظاهرة في كتاب في التاريخ لم ينشر بعد لعبد الملك بن حبيب الفقيه الأندلسي ، فقد ملأ كتابه هذا بفضائل الأمويين والتعصب لهم " ^١ ..

إن من أهم ما يعكس صفو هذه الرؤية أن الأسماء التي ذكرها الباحث كلها من أسماء الفقهاء ^٢ ، وأن هذه المظاهرة لم تمتد لتشمل غيرهم من المؤرخين والأدباء الأندلسيين ، وقد مرت بنا دراسة لكتاب ابن عبد ربه الأندلسي " العقد الفريد " سار فيها على نهج مؤرخي وأدباء المشرق ؛ فجاءت بعض رواياته مملوءة بالتشجيع على بني أمية ، وقد كان ابن عبد ربه أحد مواليهم .. وإذا كان التأثير بالأمويين في الأندلس هو الدافع لكتابات ابن حزم وابن العربي .. وكانا غايصة في عفة النفس وعزتها وإبائها .. فما الداعي إلى ظهور نفس المظاهرة من إنصاف الأمويين عند فقهاء آخرين لم يدخلوا تحت سلطان الأندلس مثل ابن تيمية وابن كثير والذهبي وابن حجر وغيرهم ؟؟ ..

^١ د حسين مؤنس هامش تاريخ التمدن الإسلامي لجرجي زيدان 91/4 ، وليس دقيقاً القول بأن ابن العربي أيد يزيد في قتل الحسين تأييداً مطلقاً ، بل التمس لقاتليه العذر حيث كانوا — فيما يرى — يتأولون بعض النصوص الشرعية التي تبيح قتل الخارج على الجماعة (انظر العواصم من القواصم 244 — 245)

^٢ ومن لم يذكرهم د. حسين مؤنس من الفقهاء الذين أبرزوا فضائل الأمويين قاسم بن أصبغ .. وكان جده من موالى الوليد بن عبد الملك ، وكان هو عالم الحديث بالأندلس يجلس إليه الخلفاء يتعلمون ؛ مثل عبد الرحمن بن محمد وابنيه الحكم ، وقد ألف القاسم كتاباً في فضائل بني أمية وآخر في فضائل بني هاشم والكتابات ضائعة ، وربما كانا في فضائل بني أمية بالأندلس (راجع الداودي : طبقات المفسرين 31/2 ، بالنسبة : تاريخ الفكر الأندلسي 216)

الفصل الثالث

الأمويون في كتابات المؤرخين المعاصرين

مقدمة

كان من الطبيعي أن يؤثر شيوع التحريف للتاريخ الأموي في مصادرنا القديمة على الكتابات التاريخية الحديثة ، فقد اعتمد المحدثون على هذه المصادر ، وأخذوا عنها ، وتأثروا بها .. على أن العصر الحديث قد شهد دخول عوامل جديدة على كتابة التاريخ الإسلامي كان من أهمها ظهور حركة الاستشراق التي خلقت أثراً واسعاً على حياتنا الثقافية عامة وأفرزت جهوداً كبيرة في بعث التراث الإسلامي بحثاً وتنقيحاً ، ودراسة وتحقيقاً ، وطباعة ..

وواكبت حركة الاستشراق سيطرة الاستعمار الغربي على العالم الإسلامي ، فأثّر كلا العاملين لونا من التبعة الثقافية والانهيار الحضاري عند بعض مثقفينا الذين تلمذوا على نتاج المستشرقين أو تبعوا مناهجهم ، وكان من المتوقع أن تحوي دراسات بعض المستشرقين عن التاريخ الإسلامي بوجه عام — والتاريخ الأموي جزء منه — قدراً كبيراً من محاولات الدس والتحريف لأسباب شتى .. وسارت دراسات تلامذة المستشرقين من العرب والمسلمين في ذات الطريق ، فجاءت كتاباتهم عن الأمويين حاملة الكثير من مظاهر التشويه والتحامل عليهم ..

على أن تياراً آخر موازياً للتيار السابق اهتم بإنصاف الأمويين ، وأدرك مقدار الغبن الذي تعرض له تاريخهم وأسبابه ، وكانت السمة البارزة لرواد ذلك التيار هي ارتباطهم الوثيق بالفكر الإسلامي ، وغيرهم على تاريخ الإسلام ، وإدراكهم خصوصية ذلك التاريخ التي تنبع من الطبيعة الخاصة للامة الإسلامية وعوامل تكوينها ، وأسباب تطورها ، ودور الإسلام كدين متميز في مسارها ، حيث صاغ منها تشكيلاً منسجماً له صفاته الخاصة كما أن له طابعه الإنساني العام ..

على أنه ينبغي أن ننتبه دائماً إلى نسبية استعمال مصطلح الإنصاف أو التحريف ؛ ففسي بعض الكتابات المتحاملة على الأمويين سنجد إشارات إلى منجزات عظيمة لهم ، ولّى بعض الكتابات المنصفة للأمويين سنجد تأثراً بالأراء السائدة ضدهم ، وترديداً غير منقح لبعض مثالبهم.

وعلى ذلك فسوف ينقسم البحث في هذا الفصل إلى مبحثين : الأول منهما : يتحدث عن اتجاه تحريف التاريخ الأموي ؛ بينما يتحدث المبحث الثاني عن اتجاه إنصاف الأمويين ..

المبحث الأول: اتجاه تحريف التاريخ الأموي

أولاً: دور المستشرقين في دراسة التاريخ الأموي

يرجع بعض الباحثين ب بدايات الاستشراق إلى أمد بعيد ، تطور فيها مدلوله وتعددت وسائله ^١ ، ولكن من المؤكد أن القرنين الأخيرين قد شهدا طفرة هائلة في نشاط الاستشراق وآفاقه ، ولقد كان التاريخ الإسلامي واحداً من أخصب مجالات عمل المستشرقين وأخطرها ، سواء في ناحية بحث التراث التاريخي ونشره ، أو في ناحية تأويله وفلسفته ودرسه ...

ويحسن في البداية أن نشير إلى أن الشكوك الواسعة التي تحيط بحركة الاستشراق ودوافعها نحو الاهتمام بالإسلام وأمثه لا تعني بحال أن نغمت حقوق جماعه من هؤلاء المستشرقين كان البحث عن الحق رائدهم ، وكان الدافع الذاتي عندهم يقف خلف ما بذلوا من جهد وعناء ، وقد انتهى ذلك ببعضهم إلى اعتناق الإسلام ^٢ ، غير أن معظم جهود المستشرقين فيما يخص التاريخ الأموي — والتاريخ الإسلامي بوجه عام — قد خضعت لعدة مؤثرات منهجية ، نحت بها إلى ما نلجده في كتاباتهم التاريخية من تحامل على الأمويين وتاريخهم ، وأهم هذه المؤثرات المنهجية :

١ — الاستشراق نشاط غربي :

ظهر في بيئة غربية عن الإسلام لها رؤيتها الحضارية الخاصة بها ... فللغرب نظرتة الخاصة إلى الدين فإراه بعضهم صناعة بشرية لا دخل للسماء فيها ^٣ ، وإراه بعضهم قيمة روحية محدودة الأثر فيما بين الإنسان وربه ، لا دخل لها بالسياسة والحكم والاقتصاد والإدارة ، وهذه الرؤية أسبأها التاريخية الخاصة بالغرب وصراعه ضد الكنيسة ، وللغرب نظرتة إلى الإنسان ونشأته وتأثير

^١ المتعارف عليه الآن عن معنى الاستشراق هو " التبحر في لغات الشرق وآدابه وتبسيط الأضواء على حضارته ودراساته " (انظر آري برى : المستشرقون البريطانيون ص 8 ، د. حسين نصار : الاستشراق بين المصطلح والفهوم (مقال بمجلة المنهل السعودية ص 12-13 عدد 471 سنة 1979) وانظر عن تطور مدلول هذه الكلمة : آري برى المرجع السابق ص 8 ، أما وسائل الاستشراق فمتعددة منها إنشاء كراسي للغات الشرقية ، وإقامة المتاحف الشرقية ، وجمع المخطوطات وتحقيقتها ونشرها وإصدار المجلات العلمية المتخصصة ، وعقد المؤتمرات الدولية للمستشرقين (راجع نجيب العقيلي : المستشرقون 1122 — 1148)

^٢ العقيلي السابق 1162 ومن أشهر المستشرقين الذين أعلنوا إسلامهم كرنكوف وليوبولد فايس وجرمانوس وغيرهم

^٣ محمد قطب التفسير الإسلامي للتاريخ 28

الدين فيه ومكانة القيم الأخلاقية عنده ^١ ، وقد أفرزت هذه الرؤى الغربية نظريات فلسفية خاصة كانت لها نظرتها إلى الدين والإنسان والتاريخ ، ومن أبرز هذه الفلسفات التي تركت أثرا على تناول المستشرقين وبعض تلامذتهم التاريخ الأموي فلسفة التفسير المادي للتاريخ ..

وقد ترك ذلك أثره على تاريخ المستشرقين العصر الأموي ، ومرحلة الصراع بين المسلمين التي سبقت قيامه ، وتاريخ بعض رجاله ، والفتوحات الإسلامية فيه ، ومكانة الدين عند الأمويين والمجتمع الإسلامي في عهدهم على نحو ما سنرى عند تقديم نماذج لكتابات المستشرقين عن العصر الأموي.

2- ارتباط الاستشراق بالاستعمار الغربي والتنصير :

كان تزايد نشاط الاستشراق في القرنين الأخيرين مواكبا انطلاق الاستعمار الغربي وحملات التنصير ضد العالم الإسلامي مما ترك أثره على رؤية المستشرقين للإسلام وتاريخه .. وقد ظهر ذلك عند تناول بعض المستشرقين الفتوحات الإسلامية ، حيث بالغوا في أهمية الدافع الاقتصادي لها ؛ كمد فسروا انتشار الإسلام على أنه نتيجة السيطرة السياسية والقوة العسكرية للمسلمين ، وصوروا أحوال الشعوب المفتوحة وعلاقتها بالمسلمين والحكم الأموي على أنها علاقة بين المغلوب المقهور والمنتصر الظالم ، وانعكس ذلك على تناولهم قضية الموالي في العصر الأموي ، ومبالغتهم في تصوير الظلم الأموي ضدهم ، كما سوف يبدو ذلك عند تناول نماذج من تاريخهم للأمويين ..

3- قصور المعرفة الكافية بأحكام الإسلام :

فالدراسة الصحيحة للتاريخ الأموي تقتضي اتصالا وثيقا بمصادر العلوم الإسلامية من تفسير وحديث وفقه ، مع المعرفة الصحيحة باللغة العربية والمصادر التاريخية الأصيلة .. وقد كانت بضاعة كثير من المستشرقين قليلة في العلوم الشرعية ، مما أثر بصورة سلبية على تناولهم التاريخ الإسلامي ^٢ ، وقد ظهر أثر ذلك على تناول بعض المستشرقين بعض الشبهات التي تثار حول الحكم

^١ راجع الفصل الخاص بعنوان " ما الإنسان " في المرجع السابق ص 24 وما بعدها ..

^٢ عن ارتباط الاستشراق بالاستعمار والتبشير راجع د. محمد البهي : الفكر الإسلامي الحديث ؛ فصل بعنوان " المستشرقون والاستعمار " ص 48-63 ، د. علي جريشة ومحمد شريف الزبيد : أساليب الغزو الفكري 18-22 ، د. عمر فروخ : الاستشراق ماله وما عليه ص 15-16 مقال بمجلة المنهل السعودية ، وراجع تراجم جماعة من المستشرقين الذين اشتهروا بصلاتهم القوية بالاستعمار والتبشير مثل شميليون ولورانس ودنلوب وهانوتو وماسنيون وفليب حقي وزويمر وبراون ودونالدسون في (نجيب العقيلي : المستشرقون ود. البهي : السابق ، في ملحقات الكتاب ص 477-494)

^٣ راجع محمد بن عبود . منهجية الاستشراق في دراسة التاريخ الإسلامي ص 234 مقال بمجلة المنهل السابقة ، طيباوي المستشرقون الناطقون بالإنجليزية ، ملحق بكتاب الفكر الإسلامي الحديث للبهي ص 525 - 528

الأموي وسيرة بعض الخلفاء والولاة مثل بحثهم عن حركات المعارضة للأمويين التي كان يجب على باحثها الاطلاع على المباحث الفقهية الخاصة بالخروج على الجماعة في الإسلام، وتصويرهم المجتمع الإسلامي في العصر الأموي حيث كان اعتمادهم بصورة أساسية على كتابات أدبية طغى اهتمامهم بها على ما عداها من مصادر الثقافة الإسلامية ، ووقع بعضهم في مزالق خطيرة عند بحث النظام المالي في العصر الأموي وتطبيقه في البلاد المفتوحة .. كما سوف يبدو عند تناول نماذج لتأريخهم للأمويين ..

نماذج من تناول المستشرقين التاريخ الأموي :

لعل أول ما يصدم القارئ المسلم في كتابات المستشرقين ذلك الأسلوب الفظ الذي يتناولون به حياة بعض كبار الصحابة ، فضلاً عن تطاولهم في الحديث عن الرسول الكريم نفسه صلوات الله عليه ^١ ، ويحسن أن نذكر هنا أن المستشرقين اعتمدوا في بعض قبحهم على هذه الرموز الإسلامية العظمى على ما ذكره الروافض والخوارج والشعبيون ، مما نجده في تراثنا ؛ ولكن كان يجب على هؤلاء المستشرقين " حملة المنهج العلمي التوثيقي " أن يرفضوا هذه الروايات لتحامل المصادر التاريخية المعتمدة عندهم ، ولاستبعاد النطق التاريخي حدوث مثل هذه الأفعال المنسوبة إليهم في مثل زمانهم وسابقتهم وصحيح سيرتهم .. غير أننا ندهش حين يوثق بعض كبار المستشرقين البارزين هؤلاء الضعفاء والكذابين من الرواة ، مثلما فعل فلهوزن حين وصف أبا مخنف الأخباري الشيعي الكذاب بأنه " الحجة الكبرى " ملقياً بكل إدانات علماء الجرح والتعديل له وراء ظهره ^٢ .. وفلهوزن هذا هو الذي يصف المغيرة بن شعبة رضي الله عنه بأنه كان دائم الكذب ، وظل متمتعاً بما ينهب حتى نهاية أمره ^٣ ، وذلك في حين يصفه بروكلمان بأنه " انتهازي لا ذمة له ولا زمم " ^٤ ، ويشكك فلهوزن أيضاً في تدوين معاوية بن أبي سفيان أحد كتاب الوحي فيقول عنه " لم يكن في قلبه تعلق عميق بالإسلام " ^٥ ، ويبدو فلهوزن أقل مغالاة من رينيه غروسيه الذي يقول عن معاوية أنه

^١ للأب لامنس اليسوعي دراسة بعنوان " محمد هل كان مخلصاً في دعوته؟ " وله كتاب عن المأمرة الثلاثية التي يزعم أنها تمت بين أبي بكر وعمر وأبي عبيدة بن الجراح للاستيلاء على الخلافة وتوارثها بالتوالي (راجع عمر فروخ .

الاستشراق ماله وما عليه ص 21 مقال سابق)

^٢ الخوارج والشيعية 179

^٣ تاريخ الدولة العربية 111 وانظر قبلها 110

^٤ تاريخ الشعوب الإسلامية 73/1

^٥ تاريخ الدولة العربية 129

كان " خيراً محباً للفنون ، ملحداً تقريباً " ^١ ويصف فلهوزن عمرو بن العاص بأنه ألب على عثمان أختب تأليب " ^٢ ، إبان الثورة عليه ، ويصف تحالفه مع معاوية بأنه " تحالف بين الصبية الأشقياء " ^٣

ويتحدث سايكس عن الحسن بن علي عليه السلام على هذا النحو فيصفه بأنه " غير جدير بأن يكون ابناً لعلي ، ذلك الرجل العظيم ، فقد شغل الحسن بملذاته بين نسائه ، وظل يتزهر في الحداثق في المدائن ، وخاف أن يجرب جيشه في ميدان القتال " ^٤ ، ويقول فلهوزن عن أخيه الحسين بن علي عليه السلام أثناء حديثه عن ثورته ضد الأمويين إنه " مد يديه كالطفل ليأخذ القمر " ^٥ ..

ويستمر ذلك النمط من الحديث الفج عن أعلام المسلمين ؛ فيصف دوزي عبد الملك بن مروان بأنه ساذج الإيمان ، وأن ممارسته السلطان قضت على سلامة قلبه ^٦ ، بينما يصف فان فلوتسن عمر بن عبد العزيز بالرجعية والحفاظة الدينية ، ويرى أن هذه كانت غلطته الكبرى ^٧ ..

وتستمر هذه النغمة في التردد حتى تصل إلى دعوى عريضة عند بعضهم مفادها انه " مما لا ريب فيه (!) أن بني أمية لم يكونوا متدينين ولا متظاهرين بالتقوى " ^٨ ..

وتتضح تأثيرات المصطلحات السياسية الغربية والتقسيم الطبقي للمجتمع هناك في تصوير الأمويين ودولتهم ، فيحدث نيكلسون عن أن الموالي قد لقوا " من أسياهم الأرستقراطيين معاملة كلها ذل وهوان " ^٩ ، بينما يقول سايكس : " إن هذه المعاملة تفوق ما تحمله النورمان من السكسون الفاتحين " ^{١٠} ! وهو نفسه يصف الأمويين بأنهم " الأرستقراطية الوثنية " ^{١١} ، وعلى نفس الدرب يسير بندلي جوزي الذي يتحدث عن نظرة العرب إلى الموالي بعين الاحتقار ، ونظرهم إليهم نظرهم

^١ نقله عنه حيدر بامات : مجالي الإسلام ص 80

^٢ تاريخ الدولة العربية ص 130

^٣ راجع د. محمد حلمي : الخلافة والدولة في العصر الأموي ص 83

^٤ History of Persia p538 نقله عنه د. الخربوطلي تاريخ العراق 74—75

^٥ الخوارج والشيعة 187

^٦ تاريخ مسلمي إسبانيا 109/1

^٧ السيطرة العربية ص 50

^٨ جولدسيهر : العقيدة والشريعة ص 70—71

^٩ نقل ذلك عنهما د. الخربوطلي : تاريخ العراق ص 158

^{١٠} راجع السابق والصفحة

^{١١} راجع د. حس إبراهيم : تاريخ الاسلام السياسي 283/1

إلى بقرة حلوب ومورد جديد للإثراء وسوء الاستعمال ، كما كانت الحال مع اليهود في أوروبا في الأجيال الوسطى ، أو في بعض أنحاء روسيا قبل الحرب الأخيرة ^١ ..

وإذا كانت الظروف السياسية والاقتصادية التي مرت بها أوروبا قد تركت ظلالها على تفسير المستشرقين لأوضاع الموالى في الدولة الإسلامية في عهد بنى أمية فقد تركت الممارك الاستعمارية الأوروبية للشرق الإسلامي ظلالها على تفسيرهم الفتوحات الإسلامية ومراميها ؛ فهم يعلنون من شأن الدافع الاقتصادي لتلك الفتوح ، بل إن بعضهم ليغالي ويجعله المحرك الرئيس للفتوحات الإسلامية ، ويشترك في ذلك التحليل جماعه من أبرز أساطينهم مثل فلهوزن وكيتاني ولامنس ونولدكه وبارتولد وغيرهم ^٢ ، فيرى كيتاني مثلاً أن " الإسلام هو آخر مهاجرة هاجرها العرب ، وأن الدافع إليها هو ما كان يدفع سابقاً إلى مثلها في جزيرة العرب ، أي جفاف أرضهم المستمر ، وما يتبع ذلك من الضيق والفقر " ^٣ ، بل إن الدافع إلى دخول العرب أنفسهم من أهل المدينة ومكة وسائر القبائل في الإسلام لم يكن الإيمان به ، وإنما يرجع ذلك إلى أسباب غير دينية كما يرى المستشرق الهولندي الشهير دي جويه ^٤ ، وينظر فان فلوتن إلى الفتوحات الإسلامية على أنها " احتلال مسلح " وليس " تلاحاً بين جنس وآخر أو انتصاراً روحياً لدعوة ما " ^٥ ، ويصف بعض هذه الفتوحات بأنها ليست سوى " حملات من الإرهاب وقطع الطريق ضد شعوب لا تبغي سوى السلام " ^٦ ..

ويصف أحد تلامذة المستشرقين من العرب فان فلوتن هذا بأنه صاحب منهج علمي ، ورغم ذلك فإنه يؤخذ عليه " رغم منهجه العلمي (١) ذلك الموقف المتشنج من الدولة الأموية ، والمتعاطف عموماً مع حركات المعارضة ذات الاتجاه الشعبي ، ^٧ ، " ويفسر موقفه السابق من الفتوحات الإسلامية بالتأثر " بالمناخ الفكري الذي ساد أوروبا في القرن التاسع عشر وترك بصماته على نتاج المستشرقين بصورة متفاوتة " ، مما جعله ينظر إلى الشعوب الخاضعة للعرب في ظل قساعة الغالب والمغلوب " ^٨ ...

^١ من تاريخ الحركات الفكرية في الإسلام 58-59

^٢ السابق 17/16

^٣ السابق 17

^٤ السابق 17-18

^٥ السيطرة العربية 77

^٦ السابق 81

^٧ د. إبراهيم بيضون : الدولة الإسلامية والمعارضة ص 13 - ١٤

^٨ السابق ص 10

وبالنسبة للتفسير المادي للتاريخ الأموي تعني محاولة بندلي جوزي متبينة له وشارحة : فهو يفترض أن الصراع بين العرب والموالي في ظل الحكم الأموي كان صراعاً طبقياً ، حيث تجمعت الثروات الكبيرة في أيدي قليلة ، واستغل هؤلاء الأغنياء " علوج البلاد أو زنوج إفريقيا الذين كانوا يجبرونهم على العمل في مستنقعات مصر والعراق وما وراء القوقاس حيث كانت الملاريا والحسر والجوع تقتلهم فتكا ذريعاً " ^١ وهكذا اشتعل الصراع بين الطبقة العليا من الأغنياء ، والطبقة الدنيا من الفقراء ، في حين أن " حالة الطبقات الوسطى من الأهالي أخذت تسوء في أواخر أيام بني أمية " ^٢ ..

وأخيراً يقف قصور المعرفة بأحكام الإسلام وراء الخلل في بعض تحليلات المستشرقين مثلما نجد عند فلهوزن الذي يبرر غضب بعض المسلمين الوريثين من مقتل حجر بن عدي أيام معاوية بن أبي سفيان بأن سبب ذلك الغضب " أن قتل المسلم لا يحل إلا إذا قتل مسلماً آخر ، أي أن النفس بالنفس " ^٣ ، وفات الكاتب — أو أغفل — أن الحديث الشريف ينص على أنه " لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث : النفس بالنفس ، والريب الزاني ، والتارك لدينه المفارق للجماعة " ^٤ ، ويقول حديث آخر " من جاءكم وأمركم جميع على رجل منكم يريد أن يشق عصا الطاعة فاضربوه بالسيف كأننا من كان " ^٥ ..

كما أن تصور فلهوزن وآخرين من المستشرقين عن النظام المالي في العصر الأموي — يهمل كتب الفقه الإسلامي تماماً ، حين يزعم أن أقوال الفقهاء عن الجزية والحراج إنما جاءت في العصر العباسي ، "ولذا يجب تجاوزها إلى البحث التاريخي في كتب التاريخ وحدها عن ذلك النظام " ^٦ .

ثانياً : اتجاه تحريف التاريخ الأموي عند المؤرخين الحديثين من العرب والمسلمين :

أثرت عوامل متعددة في استمرار ظهور ذلك الاتجاه في التاريخ للأمويين ، رغم زوال العوامل التي سببت ظهور التحريف للتاريخ الأموي عند مؤرخينا القدماء ..

^١ جوزي . من تاريخ الحركات الفكرية في الإسلام ص 65

^٢ السابق 62

^٣ الخوارج والشيع 158—159

^٤ حديث شريف رواه البخاري : كتاب الديات ، مسلم : كتاب القسامة والخارجين ، الترمذي : كتاب الحدود

^٥ حديث شريف رواه مسلم ، صحيحه ، كتاب الإمارة

^٦ راجع فلهوزن : تاريخ الدولة العربية 273 ، فيليب حتى : تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين 20/2 — 21 ، وانظر د .

الدوري نظام الضرائب في خراسان . مقال بمجلة انجمن العلمي العراقي مجلد ١١ ، سنة ١٩٦٤م

ولعل أول هذه العوامل هو التأثير بالآراء القديمة السائدة عن الأمويين والتي زخرت بها مصادرنا القديمة ، وقبول هذه الآراء بنوع من التسليم بها ، وفقدان الرغبة في مناقشتها أو تمحيصها في أحيان كثيرة ؛ كما انضم إلى ذلك العامل التراثي عامل مستحدث نتيجة تأثير الظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي مرت بها أمتنا الإسلامية في هذا العصر على نظرة المؤرخين المحدثين إلى العصر الأموي ؛ فإن حالات القهر السياسي والفساد الاقتصادي والخلل الاجتماعي التي مرت بها أمتنا ومازالت ، قد ولدت هذه الحساسية الشديدة عند بعض كتابنا المخلصين من بعض الممارسات الأموية التي وجدت في ظروف مغايرة لظروفنا المعاصرة ، ونتيجة عوامل متعددة تبحت في ضوء ملامستها التاريخية .. مثل تحويل الخلافة عن منهج الشورى في اختيار الحاكم إلى الملك العضوض ، والتوسع في استعمال الأموال لتوطيد أركان الدولة ، وتجنب مزيد من إراقة الدماء واشتعال الثورات التي تقف خلفها عوامل عديدة منها ما لا يمت للإسلام بصلة ، كما سيأتي ... ومعالجة الشعوب المسلمة تحت الاحتلال الغربي زادت ذلك الشعور الفطري عند مؤرخينا بحب الحرية وكرهية الظلم، وانعكس ذلك بصورة غير صحيحة تماما على ممارسات الأمويين مع بعض الموالى في فترات تاريخية محدودة من العصر الأموي الممتد إلى ما يزيد على تسعين عاما .. وامتدت هذه الحساسية تجاه بعض هذه الممارسات لتشمل النظرة المتسعة إلى بني أمية وتاريخهم .. ناهيك عن الحب الجارف الذي يشمل غالبية المسلمين تجاه آل البيت ، ذلك الحب الذي استغلته أقلام خصوم الأمويين من الشيعة لتزيد الكراهية ضد بني أمية ، ولتزيد التعاطف مع هذه الفرقة التي لا تزال حتى اليوم بحاجة إلى ذلك التعاطف لأسباب سياسية ودينية..

ثم جدت عوامل أخرى معاصرة أدت إلى شيوع التحامل على الأمويين في عديد من الكتابات الحديثة عنهم ، ولعل من أخطر هذه العوامل تأثير الاستشراق على الكتاب المسلمين ، الذي واكب حالة الضعف الحضاري التي مرت بها أمتنا ، وقد تسلل تأثير المستشرقين إلى بعض كتابنا نتيجة دراسة نتائجهم الفكري والتاريخي ، أو التلمذة المباشرة لهم في البعثات العلمية إلى أوروبا ، أو تدريس بعض هؤلاء المستشرقين في بعض الجامعات العربية والإسلامية ، أو اشتراكهم في المجمع العلمية ، أو غير ذلك ..

ولعل من دواعي الإنصاف أن نشير إلى بعض الآثار الحميدة للاستشراق والتأثر به ، مثل تحقيق بعض كتب التراث ، أو محاولة تحري الدقة والبحث الموضوعي التي أدت إلى بعض النتائج في صالح التاريخ الإسلامي بوجه عام .. غير أن آثاره الضارة كانت كبيرة وخطيرة عند بعض هؤلاء الآخذين عنهم أو المقتدين بهم ، فقد " نشأ منا جيل كان فيه عدد من الأسماء اللامعة لم يكتف أصحابها بالاقتداء بالمستشرقين في نهج بحثهم — وهذا أمر محمود في بعض وجوهه — ولكنهم تبنوا

مفردات آراء المستشرقين في كثير من الأحوال ، وكان عدد من تلك الآراء ظاهر الخطأ كثير التحامل " ^١ ..

ومن قبيل التأثير بالغرب والانبهار به تبني بعض كتابنا نظرياته الفكرية والسياسية ومحاولة تطبيقها في مجال التاريخ الإسلامي ، ومن أبرز الأمثلة لذلك محاولة تطبيق مذهب التفسير المادي للتاريخ — وهو مذهب خطير أثبت الأيام والأحداث الأخيرة فشلة وإفلاسه — على التاريخ الإسلامي .. ومعلوم أن هذه المناهج والمذاهب إنما نبتت في بيئة غريبة ، ونتيجة عوامل مختلفة أثمرتها ، لوجودها ، أو لا خطر منها ، عندنا .. وسوف نعرض في هذا الفصل أمثلة لذلك التطبيق ونتائج المسئنة على التاريخ للأمويين ..

ثم أدلى بعض كتابنا — من غير المختصين بالتاريخ — بدلوهم في ذلك المجال .. فكتبوا في التاريخ الإسلامي عدة كتابات مهمة.. ويلاحظ على هذه المحاولات أنها اتجهت لمعالجة بعض الأحداث التاريخية الحساسة والمثيرة للجدل والاختلاف مثل الفتنة الكبرى وثورة الحسين وغيرها .. وهي أحداث تحتاج إلى استكمال أدوات عديدة للبحث التاريخي لم تكن متوافرة عند أصحابها كما سوف نرى .. ومن ثم فقد أدت إلى نتائج غير صحيحة ، وساهمت — نتيجة ذيوها وسلاستها وطلاوة أسلوبها وشهرة أصحابها — في ذبوع الآراء المعادية للأمويين .. وسوف نعرض في هذا المبحث الأمثلة عديدة لذلك الاتجاه المناوئ للأمويين مع إبراز العوامل التي أثرت فيها ..

أ) التيار المتأثر بالاستشراق:

١ — جرجي زيدان ^٢ في كتابة : تاريخ التمدن الإسلامي :

ينظر جرجي زيدان إلى الأمويين منذ البداية نظرته إلى قوم اغتصبوا الخلافة من أصحابها ، وأصحابها هم أهل البيت في رأي الكاتب ، وأن بني أمية كانوا يعلمون أن أهل البيت أحق بها منهم ، ويستندون في حقهم وفي طلبها إلى أساس صحيح ^٣ ، ويحظون بتعاطف وتأييد أكثر الفقهاء والعلماء

^١ د. عمر فروخ : الاستشراق ماله وما عليه ص 21 مقال سابق .

^٢ ولد جرجي زيدان في بيروت سنة 1861 م من عائلة أرثوذكسية وهاجر إلى مصر سنة 1883 بعد فترة وجيزة من سيطرة الإنجليز عليها ، فتوقفت صلاته بهم ، وعمل ضمن جهاز المخابرات البريطانية مترجماً ، ورافق الحملة البريطانية على السودان سنة 1884 ، وقد نال على جهوده آنذاك ثلاثة أوسمة بريطانية ، كما كان وثيق الصلة بالاستشراق ونتاج المستشرقين وقد مدحهم وأشاد بهم في مادة كتبه كثيراً (راجع شوقي خليل : جرجي زيدان في الميزان ، مقدمة الدكتور حسين مؤنس لكتاب زيدان : تاريخ التمدن الإسلامي ، د. جمال عبد المادي : منهج كتابة التاريخ الإسلامي

وسائر رجال الدين ^١ ، ولكنه لم يشرح لنا ذلك الأساس الصحيح الذي يستند إليه أهل البيت في أحقيتهم بالخلافة من دون المسلمين ، ولم يبرهن لنا على تعاطف رجال الدين معهم كما يقول ثم يحمل حملات منكرة على خلفاء الأمويين في بضع صفحات من كتابه ، فيرى أن معاوية نال الخلافة بالدهاء والتدبير ، وطلبها كما يطلبها أهل المطامع وطلاب السيادة في كل عصر بلا علاقة بالدين ^٢ ، كما يرى أن عبد الملك بن مروان كان " يرى الشدة ويجاهر بطلبه التغلب بالقوة والعنف ولو خالف أحكام الدين " ^٣ . إذ إنه كان يتظاهر قبل توليه الخلافة بالتدين ، فلما تولاه استهوته الدنيا ^٤ ، وكذلك يقبل جرجي زيدان تلك الروايات التي تتحدث عن بطش الحجاج وقتله عشرات الآلاف ^٥ كما يقبل الكاتب الخرافات التي تنسب إلى الحجاج وخالد القسري مثل تلك التي تزعم أن خالد كان يفضل الخليفة الأموي على رسول الله ؛ أو يهزأ بالقرآن الكريم ^٦ ... ثم يذكر مزاعم عريضة لا أساس لها حول استباحة جند الحجاج الكعبة بعد قتلهم ابن الزبير وقتلهم الناس فيها ثلاثاً ، وإحراقهم لها ، ويزعم أن جنود الشام لما دخلوا المدينة المنورة أيام يزيد سفكوا دماء أهلها واستباحوا حرمتهم . " حتى إن الأقباط والأنباط كانوا يدخلون على نساء قريش فيزعون خمرهن من رؤوسهن ، ويغسلهن من أرجلهن ، يسوفهن على عواتقهن ، والقرآن تحت أرجلهم " ^٧ ، وهذا كذب صراح ، وزعم محض بغير دليل ، فلم يحدث مطلقاً في عهد بني أمية ، ولا من تلاهم أن استهان المسلمون بقرآهم ومقدساتهم إلى هذا الحد ، وشبهه بهذا رعمه أن " السياسة والدين لا يلتحمان إلا نادراً ، وما التحامهما أيام الراشدين إلا فلة قلما يتفق مثلها " ^٨ ..

ثم يتحدث الكاتب عن سفاهة الوليد بن يزيد " سكير بنى أمية " — كما يصفه — ويزعم أنه كان يرمى المصحف بالنبل والقوس ^٩ وقد حشد الكاتب كل هذه الاتهامات في عدد وجيز جداً من الصفحات ، واعتمد في ذلك على روايات العقد الفريد والأغانى والمسعودى المتشيع .

وعندما تحدث عن السياسة الاقتصادية للأمويين انتقى من الروايات التاريخية المتكاثرة ما شاء مغفلاً غيرها ، غير مفرق بين الخطأ الجزئي والسياسة العامة للدولة ، فتحدث عن شدة الأمويين

^١ السابق والصفحة

^٢ السابق 63/3

^٣ السابق 90/4

^٤ السابق والصفحة

^٥ السابق 95/4

^٦ السابق 92/4

^٧ السابق 90/4-91

^٨ السابق 64/1 وهل ترعى هذه الأقوال إلا روح العصب الديني وهوى الاستعمار الغربي ^٩

^٩ السابق 92/4

في جمع الأموال غير مبالين بأحكام الدين^١ ، وفساد ذمم ولائهم ، وقبولهم الرشوة يبيعون بها الولايات^٢ ، وجعلهم العطاء وسيلة لاستعباد الرعية^٣ ، ثم يصدر بعد ذلك حكماً خطيراً موحياً بأغراضه فيقول : " فمن قبض على بيت المال قبض على رقاب المسلمين ، فيجدر بهم أن يتقربوا منه ، أو يتزلفوا إليه " ^٤ ..

وعندما نتحدث عن الفتوح الإسلامية الكبرى في عهد الأمويين زعم أن همهم لم يكن نشر الدين ، بل كان الفتح والغلب ، ويسوق في ذلك مجموعة من الأقوال المتهاففة عن توقف انتشار الإسلام في العهد الأموي في أطراف الدولة نتيجة جشع الولاة^٥ ، مما سوف يبدو لنا بعد ذلك خطؤه وقهافته ...

٢- سيد أمير علي^٦ في كتابه " مختصر تاريخ العرب والتمدن الإسلامي " :
يحدد الكاتب هدفه من تأليف ذلك الكتاب الذي كتبه باللغة الإنجليزية بأنه للفت " نظر الغربيين ، ولاكتساب عطفهم ، واستثارة اهتمامهم " ، وهو بذلك يأمل أن يكون قد وفق إلى " إزالة التعصب الأعمى الذي أوجدته الحروب في العصور السالفة " ^٧ ، وذلك المهدف وحده داع إلى الحذر من تناول المؤلف للتاريخ الإسلامي الذي جاء من منطلق الضعف والإحساس بالحاجة إلى خطب ود السادة من الغربيين ، ولفت نظرهم واكتساب عطفهم ..
ولقد جاءت مصادر الكتاب في معظمها غربية مما يعد خللاً منهجياً في تناول التاريخ الإسلامي من مصادر معظمها غريب عنه ^٨ ..

^١ السابق 87/4

^٢ السابق 89/4

^٣ السابق 84/4

^٤ السابق 82/4

^٥ السابق 91/4

^٦ هو كاتب هندي شيعي ولد سنة 1849 م وتولى سنة 1928 م ، كان من كبار المحققين وعمل قاضياً في محكمة البنغال العليا في عام 1904 م ، وتم اختياره كأول عضو هندي في اللجنة القانونية للمجلس الملكي البريطاني (راجع حيدر بامات : مجالي الإسلام 517-519 ، أبو الحسن الندوي : المرتضى 78-79 حاشية 4)

^٧ راجع مقدمة كتابه مختصر تاريخ العرب

^٨ يصل عدد المراجع الأجنبية في كتابه إلى ثمانية وخمسين مرجعاً ، بينما لا تزيد المراجع والمصادر العربية عن خمسة وأربعين ، وربما يرجع ذلك إلى أن الكاتب كتب كتابه باللغة الإنجليزية ، وربما أراد تمكين القارئ الغربي من العودة إلى هذه المراجع بلغته ، غير أن ذلك لا يعد مبرراً كافياً لقلّة المراجع العربية عن الأجنبية في كتاب تاريخي إسلامي .

ويلاحظ على ذلك الكتاب ، فضلاً عن التأثير الشديد بمقولات المستشرقين ، والتأثيرات الشيعية الواضحة ، الغلظة التي تصدم مشاعر القارئ المسلم في حديثه الفج عن النساء المسلمات في عصر النبوة وعصر الراشدين^١

ففي حديث الكاتب عن الأحداث التي مهدت لقيام دولة الأمويين يزعم أن عثمان بن حذاف^٢ ورع بيت المال بين أهله ومحاسبيه ليتمكنهم من الكفاح في سبيل الاستيلاء على السلطة :نفسهم^٣ ، كما يتحدث عن الثائرين على عثمان على أنهم طلاب عدل وإنصاف^٤ ، وهو يدين صرفات الأمويين إبان محنة عثمان إدانة شديدة^٥ ، هذا على حين يزعم الكاتب أن بيعة علي عليه السلام كانت بالإجماع^٦ ، ويشن حملة قاسية على مخالفيه ومنهم طلحة والزبير^٧ ، ويستمر على هذا النمط في حديث عن الصحابة في الجمل وصفين^٨ ، وعند التحكيم حيث يصف أبا موسى الأشعري عليه السلام بسداجة وخيانة العهد ، ويصف عمرو بن العاص بالمكيدة والدهاء^٩ ..

وعند حديثه عن الدولة الأموية يصف الكاتب الأمويين بالحقْد والضغينة ضد بني هاشم ، وبأنهم لم يعتنقوا الإسلام إلا ببواعث المصلحة الشخصية ، وبأنهم كانوا يحقدون على الخلفاء الراشدين ويحسدونهم^{١٠} ...

وذلك الموقف المبذني حيال بني أمية ترك بصمته على تناوله تاريخ خلفائهم وولاتهم وهو يرى أن معاوية كان يقوم بأداء الفرائض الدينية طالما لا تعوق تحقيق مآربه الخاصة^{١١} ، أما مروان بن الحكم

^١ راجع حديثه عن عائشة (ض) وموقفها من علي بن أبي طالب يوم الجمل (مختصر تاريخ العرب 45) ، وحديثه عن فاطمة الزهراء وكأنها إحدى فتيات أوروبا (السابق 48) ، وحديثه عن نساء المدينة وجمال أصواتهن واستماع عمر بن الخطاب لهناتهن وموسيقاهن (السابق 58) !!

^٢ السابق 53

^٣ السابق 43

^٤ السابق 43-44

^٥ السابق 44

^٦ السابق 45

^٧ السابق والصفحة

^٨ السابق 48 وبقية تاريخه لعصر النبوة والراشدين يحتل بالأخطاء الدينية والتاريخية (راجع ص 43 ، 60 — 62)

^٩ السابق 41

^{١٠} السابق 70

فيصفه بالدهاء والبراعة في حياكة المؤامرات السياسية ، والاستعانة بالرشوة في تحقيق أهدافه^١ ، ثم يشبه ابنه عبد الملك بشارلمان مرة وببطرس الأكبر مرة أخرى ويصفه بالنشاط والتأمر^٢ .. ثم يتحدث عن أحقاد سليمان بن عبد الملك وعصبيته القبلية وتحاذله عن فتح القسطنطينية ومعاونة قائده مسلمة بن عبد الملك^٣ ، ثم ينتقل إلى الحديث عن صرامة هشام بن عبد الملك وبخله وتعصبه وضيق أفقه وتشككه في أصحابه واعتماده على الجواسيس والمؤامرات إلى غير ذلك من مزاعم لا حقيقة لها^٤ .

أما تصوير حركات المعارضة في العصر الأموي فملئء بالإثارة والتحامل على الأمويين ، وبخاصة في وصفه لقتل الحسين ، حيث قدمه كمأساة بشعة نفذها بنو أمية في الحسين ونسائه وأهل بيته^٥ ، وكذلك كان حديثه عن ثورة أهل المدينة التي يزعم أن فيها " هدمت معظم المدارس والمنشآت العامة ، ودخلت شبه الجزيرة العربية في عهد مظلم شديد الحلكة حتى قُيِّض لها جعفر الصادق بعد بضع سنوات فبعث في المدينة روح الحركة العلمية التي كانت قد ازدهرت في عهد علي ابن أبي طالب " ^٦ .. وهكذا تسيطر الرعة الشيعية على الكاتب حتى يجعل عمراً طويلاً يبين علي وجعفر الصادق من حياة المسلمين ظلاماً دامساً ..

وهكذا يتضح لنا من النموذجين السابقين مدى تأثير بعض الكتاب من العرب والمسلمين بروح الاستشراق ومناهجه ، ورغم أن هناك أمثلة أخرى أكثر معاصرة لذلك التأثير^٧ ، إلا أن المثالين السابقين واضحاً الدلالة على ذلك بصورة كافية ..

(ب) التفسير المادي للتأريخ :

وهو أحد أسس النظرية الماركسية^١ التي ظهرت في أوروبا في أواخر القرن التاسع عشر نتيجة ظروف سياسية واقتصادية وفكرية خاصة ، ووجدت لها أنصاراً هناك ، ثم وجدت حاملين لها في

^١ السابق 77 — 78

^٢ السابق 79 — 87

^٣ السابق 105 ، 108

^٤ السابق 119

^٥ السابق 73 ، 75

^٦ السابق 70 — 71

^٧ من ذلك كتاب د. حسن إبراهيم: " تاريخ الإسلام السياسي " ، وكتابه مع أخيه علي إبراهيم حسن: النظم الإسلامية ، وانظر نقداً لكتابات د. حسن إبراهيم عن سيرة الرسول وصدر الإسلام عند د. جمال عبداً هسادي : منهج كتابة التاريخ الإسلامي 85 — 89 ، ومن الأمثلة على تأثر بعض كتابنا بالمستشرقين مع وضوح الروح الشيعية كتاب : د. إبراهيم بوضون : الحجاز والدولة الإسلامية ، والدولة الإسلامية والمعارضة ، وغير ذلك ..

بلاد الإسلام ، وقد راجت هذه النظرية رواجاً هائلاً في الفترة التي تلت نجاح الثورة السوفيتية في أعقاب الحرب العالمية الأولى سنة 1917م ولكنها الآن تعاني هزائم هائلة وتراجعاً كبيراً بعد الأحداث التي شهدتها أوروبا الشرقية في عامي 1989 — 1990م ..

وال تفسير المادي للتاريخ هو " نوع من فلسفة التاريخ يحاول توضيح العادات التي تطورت فيها الجماعات من الماضي البدائي إلى الوقت الحاضر، مع التنبؤ بما سيحدث في وقتنا الحاضر ، وكذلك بما سوف يقع بالمستقبل " ، وهو يرى أن حركة التاريخ تتم من خلال علاقة جدلية (Dialectic) بين القوة الاقتصادية المادية ومثلها من خلال ما يعرف في هذه النظرية بصراع الطبقات " ٢ ..

ولا ريب أن المجتمع الإسلامي لم يعرف هذه الطبقات — بالمفهوم الغربي — الذي وجد في بعض المجتمعات الغربية أثناء تطورها التاريخي ، " فالطبقة في الاصطلاح الجدلي وضع اجتماعي اقتصادي سياسي يورث جيلاً بعد جيل ، وليس وضعاً فردياً قابلاً للتغير ، وهذا الوضع الطبقي يتعلق في الجاهلية (أي في المجتمعات غير الإسلامية) بقضية التشريع ، فالمالكون لهم حق التشريع ، وغير المالكين عليهم التنفيذ، أما الغنى والفقر في المجتمع الإسلامي فليس طبقة ، لأنه لا تتعلق به حقوق تشريعية " ٣ تؤدي إلى تكريس هذا الواقع فيحدث الصراع الطبقي كما هو الشأن في الغرب . وهذا لا ينفي أنه قد حدث صراع كبير في التاريخ الإسلامي ، ولكنه لم يكن صراعاً لبقياً ، فالصراع يحدث بين المسلمين وبعضهم " كما وقع بالفعل في صدر الإسلام ، ولكنه لا يكون مسقاً ، ولا يكون على سفايف الأمور ، ولا يهبط بمجموع الناس عن قيمهم العليا ، ولا يجعل الناس يخرجون على الإيمان ، وإلى ذلك تشير الآية من سورة الحجرات : (وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا ...) ٤ ..

^١ تنتسب النظرية الماركسية إلى كارل ماركس Karl Marx وهو فيلسوف يهودي ألماني وعالم اجتماع ولد سنة 1818 ومات سنة 1883 (راجع د. البهي الفكر الإسلامي الحديث ص 307 حاشية 1 ، أحمد العوايشة : موقف الإسلام من نظرية ماركس)

^٢ راجع د. البهي السابق 307 — 312 ، 314—316 ، محمد قطب : حول التفسير الإسلامي للتاريخ 12—13 ، أحمد العوايشة : السابق ١١٨ — ١٢١

^٣ محمد قطب السابق ص 128 حاشية 2

^٤ السابق 161

وقد وجدت عدة محاولات لتطبيق التفسير المادي للتاريخ على بعض فترات تاريخنا^١،
نكتفي منها بهذا المثال :

د. محمود إسماعيل في كتابه " الحركات السرية في الإسلام " :

يفسر الكاتب انتصار الإسلام زمن النبي ﷺ بأنه انتصار لطبقة المستضعفين من الموالي والعبيد على طبقة الأرستقراطية التجارية في مكة^٢ ؛ وما لبث ذلك الصراع الطبقي أن عاد زمن عثمان بن عفان فظهرت طبقة أرستقراطية جديدة من كبار الصحابة مثل طلحة والزبير وعبد الرحمن ابن عوف (١) وقاد علي بن أبي طالب الطبقات المستضعفة في نضال ضدها انتهى بانتصار الأرستقراطية السفليانية^٣ وقصارى القول أن الصراع حول الخلافة رغم مظهره السياسي الديني كان صراعاً طبقياً بالدرجة الأولى ولم يكن خلافاً اجتهادياً حول قضية ظنية^٤ ..

وهكذا يقفز الكاتب إلى هذه النتيجة الخطيرة — غير الصحيحة بالمرء — دون مقدمات مسلم بها . وهو يحمل بعنف على عثمان بن عفان رضي الله عنه^٥ ، وينسب إلى بني أمية الاستبداد السياسي والانصراف إلى حياة الترف والجون ، وإهمال الواجبات الشرعية^٦ ، كما يهتمهم بالفرقة العنصرية ، وإحياء الصراعات القبلية القديمة بين عرب الشمال وعرب الجنوب^٧ ، وهو اتهام غير صحيح يشارك فيه الكاتب غيره ، وله نصيب من الدراسة في هذا البحث^٨ ...

وفي الوقت نفسه يمجّد الكاتب حركات المعارضة ضد الأمويين ويفسرها تفسيراً طبقياً اقتصادياً .. فيرى أن الموالي الذين كانوا منقسمين إلى طبقات برجوازية وأرستقراطية وبروليتاريا ساخطة^٩ كانت ثورتهم عملاً اجتماعياً ثورياً لا اعتقادياً مذهبياً^{١٠} ؛ ويفسر بنفس الطريقة ثورة الحارث بن سريج ضد الأمويين في خراسان وما وراء النهر: فكانت ثورته غضبة الطبقات المستضعفة

^١ مثل المحاولة السابقة الإشارة إليها عند بندلي جوزي في كتابه "تاريخ الحركات الفكرية في الإسلام ، وكتاب أحمد عباس صالح : " اليمين واليسار في الإسلام " وكتاب الدكتور محمد عبد الحفي شعبان " : صدر الإسلام والدولة الأموية " ، والكتاب موضع الدراسة التالية للدكتور محمود إسماعيل ..

^٢ الحركات السرية في الإسلام ص

^٣ السابق 196

^٤ السابق 14

^٥ السابق 62،45

^٦ السابق 62—63

^٧ راجع رد هذه الشبهات في الباب الثاني من هذا الكتاب ..

^٨ السابق 65

^٩ السابق 70

عد الأرسطراطية الفارسية والعربية^١ ، ويبرهن بذلك على أن " الأوضاع الطبقية كانت فيصلاً في تمييز بين جند الثوار وأعدائهم ، بين جند الله وجند الحكومة " ^٢ ١
وهذه العلاقة الثنائية التي يصورها الكاتب " جند الله وجند الحكومة " لا تعبر بحال عن العلاقة بين الأمويين ومعارضيههم ، فقد كان الفريقان من المسلمين الذين يعبدون الله ويؤمنون به ، والتجسّلات والأخطاء كانت من نصيب كليهما بطبيعة الحال ..

ويقسم الكاتب المجتمع الإسلامي في هذه الفترة إلى يمين وهم الأمويون ويسار وهم الخوارج^٣ ، ثم انضم إليهم المرجئة الذين تحولوا من موالاة اليمين إلى موالاة اليسار^٤ ، وعندئذ من الخوارج يصفهم بأنهم " يمثلون من الناحية الدينية الفئة القليلة المؤمنة ، والتي لا تقبل في حق مساومة ولا إدهاناً " ^٥ ، وأن ظهورهم في ذلك المجتمع هو " تعبير عن تناقضات اقتصادية اجتماعية اكتسبت طابعاً دينياً نتيجة لتفجير تلك التناقضات من خلال مشكلة الإمامة " ، وعلى ذلك فهو يرى أن جماعة الخوارج تشكل حزباً سياسياً يتبنى مبدأ العدالة الاجتماعية كما نادى بها الإسلام ، وقد كان فكرهم — على ما يرى الكاتب — : " معبراً عن قطاع عريض من الجماهير الساخطة على الخلافة " ^٥ ..

ما يحور الدماء التي كان الخوارج سبباً في إرسالها عبر ممارساتهم العنيفة ، وأما تكتل المجتمع الإسلامي في حركته دون هواده في العصر الأموي ثم في العصر العباسي حتى تم القضاء على خطرهم ، فهذه أمور لا يتطرق إليها بحث المؤلف ولا قلمه

ويبقى سؤال ملح : ترى لو أعاد الكاتب النظر إلى كتابه الآن بعد انهيار الماركسية والتفسير المادي للتاريخ في البلاد التي احتضنته طويلاً ، وثبت فشلها فيها ، هل سيقفي على أفكاره السالفة ؟ أم أنه سوف يتطور بها ؟ ..

ج) كتابات غير المختصين :

تعرض التاريخ الإسلامي في بعض فتراته إلى التناول على يد غير المؤرخين المتخصصين في التاريخ .. وغير المؤرخ حين يكتب في موضوع تاريخي إنما يكتب لغير المتخصصين في التاريخ غالباً ، وذلك يفرض عليه منهجاً خاصاً في اختيار الموضوع والأسلوب المناسبين ، كما نتوقع أن تأتي كتابته

^١ السابق 45

^٢ السابق 45

^٣ السابق 35-36

^٤ السابق 14

^٥ السابق 15-16

متأثرة إلى حد كبير بناحية تخصصه ومجال بحثه وأسلوب أدائه ؛ وهذا ما حدث في تأريخ الدولة الأموية على أيدي ليس التاريخ ميدانها الأصيل .. لقد كتب طه حسين (الفتنة الكبرى) ، وكتب العقاد (عبقريه علي) و (أبو الشهداء الحسين بن علي) و(عثمان بن عفان ذو النورين) و(معاوية بن أبي سفيان في الميزان) فاختاروا زمناً شائكاً للبحث ؛ وهو آخر عهد الراشدين وأول عهد الأمويين ، كما كتب طه حسين (حديث الأربعاء) فعرض فيه ألواناً من الحياة الاجتماعية والسياسية للدولة الأموية ، وكتب أحمد الحوفي (أدب السياسة في العصر الأموي) فرصد مظاهر الأدب وأنواعه ونشاطاته في العصر الأموي ، وفي خلال ذلك تعرض لما لا بد منه من الحياة السياسية في العصر الأموي ، وكتب على سامي النشار (نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام) فبحث الفرق الإسلامية ونشأتها وتطورها من خلال منظور خاص يركز على دور المجتمع الإسلامي في نشأة هذه الفرق وتطورها ، مع استبعاد التأثيرات الأجنبية ، وكان الحياة في العصر الأموي كانت بمعزل عن العالم المحيط بها فلم تتأثر به ، ولم تتفاعل معه .. وكتب غير هؤلاء في مثل هذه الموضوعات مثل كتابات عبد الرحمن الشرقاوي عن علي إمام المتقين وعن عثمان بن عفان وعن الحسين شهيداً .. والعديد من الكتابات الصحفية عن مثل هذه الموضوعات .

ويمكننا أن نرصد عدة ظواهر تميزت بها هذه النوعية من الكتابات : أول هذه الظواهر: أن نوعية المصادر والمراجع التي اعتمدتها هذه الكتابات لم تكن في معظمها تاريخية أصيلة ، بل إن مكتبة الكاتب غير المؤرخ ، وهي مكتبة متخصصة في مجالات أخرى غير التاريخ كالأدب والفلسفة ، تركت بصماتها على مادة كتاباته ..

والأسلوب الذي صيغت به هذه الكتابات كان أسلوباً أدبياً مؤثراً — يهدف إلى التأثير والإقناع — ففضاض العبارة ، واضح الحماس ، وهذه الخصائص الأسلوبية تقلل من الدقة العلمية الواجب اتباعها ..

وغاب منهج المؤرخ الذي يستقصي المادة العلمية وينقد مصادرها ، ويقارن بينها ، ويحلل مدلولاتها ، وسوف نجد عند بعض هؤلاء الكتاب روايات ضعيفة أو مرجوحة يصفها بالثبات والشهرة والتواتر ، وسوف نجد مصادر شيعية مغالية يعتمد عليها في الحديث عن بني أمية ، ويرجح رواياتها على غيرها مما لا يتصف بالتحيز والحزبية ، بل إن بعضهم لا يهتم بذكر مراجعه أو مصادر معلوماته ، ثقة منه في اعتماد القارئ أحكامه بغير مراجعة .. بل إنه ليس ممن المستغرب أن نجد الكاتب يؤكد بعض الآراء في أحد كتبه ، ثم يعود فيذكر ما يخالفها في الكتاب نفسه أو في كتاب آخر له ، وذلك لأن المنهج الذي يقود البحث عنده فيه الكثير من التأثير الذاتي ... وأخيراً فإنه يجدر ألا ننسى تأثير بعض هؤلاء الكتاب بالمستشرقين ومناهجهم في البحث وكتاباتهم عن هذه الفترة ..

إن كتابات غير المتخصصين عن صدر الإسلام والدولة الأموية وبخاصة كتابات الأدباء المشهورين منهم ، هي وسيلة مهمة لنشر المعلومات التاريخية للقارئ العادي — وهنا ممكن خطورتها — فإن شهرة هؤلاء الأدباء وسلاسة أسلوبهم ، وقدرتهم على التأثير الواسع ، وانفتاح مجالات النشر الواسعة أمامهم مع ثقة القارئ فيهم المستمدة من براعتهم في مجال تخصصهم ، كل هذه العوامل تستدعي مزيداً من الحذر والنقد لكتيبهم عن فترة من أخطر فترات تاريخنا ..

وقد اخترت نموذجين لاثنتين من أكابر مفكرينا وأدبائنا ذوى الانتشار الواسع والتأثير الثقافي الكبير هما العقاد وطه حسين للتناول فيما يلي من صفحات :

— كتابات عباس محمود العقاد :

لا يذكر العقاد مصادره ومراجعته في كتبه الأربعة سالفة الذكر ؛ والمصادر التي تحدثت عن عثمان وعلى ومعاوية والحسين كثيرة ولكن معظمها ينحاز عاطفياً ضد الأمويين تجاه آل البيت ، ويحوي كثيراً من روايات الشيعة وتزييدات الرواة ، مما يستدعي ذكرها على الأقل في هامش الكتاب أو آخره . ونقدها لبيان الصحيح منها من الزائف ... والنتائج التي وصل إليها الكاتب في كتبه المذكورة تجعلنا نفترض أنه اعتمد على مصادر شيعية غير تلك التي صرح بها في حالات نادرة في كتاباته^١ .

وعداء الكاتب للأمويين يبدأ منذ الحديث عن جاهليتهم ، حيث يشكك في صحة نسب جدهم الأكبر أمية بن عبد شمس^٢ ، كما يقبل ما يرويه صاحب كتاب " الزاع والتخاصم " من روايات ، تحوطها الشكوك ولا يمكن التسليم بها ، عن مثالب خلقية تنسب إلى الأمويين في هذا الشأن قبل الإسلام^٣ ..

ثم يعود بالعداء بين الأمويين والهاشميين إلى جذور جاهلية عتيقة ، فيتحدث عن المناكرات بينهم قبل الإسلام^٤ ، حتى ينتهي إلى نتيجة يؤكد فيها عدة مواضع من كتبه تقرر أنه " قد مضى تاريخ بني أمية في الجاهلية وليس بينهم واحد معدود حين يعد العرب فرسانهم المقدمين ، وأجوادهم لشهورين وذوي النجدة من صفوة عشائريهم ونخبة ساداتهم " ^٥ ، ومن المؤكد أن هذه النتائج غير صحيحة بالمرّة ، فلم تستأثر قبيلة من قريش — حتى لو كانت بني هاشم — بالشرف والسيادة دون

^١ ذكر العقاد أنه اعتمد على شرح نهج البلاغة ، وأنه يشك في نسبة بعض أخباره إلى الإمام علي ، انظر عقريه على

^٢ ذو النورين عثمان بن عفان 47—48 ، أبو الشهداء الحسين بن علي 46—47

^٣ ذو النورين عثمان 49—51 ، أبو الشهداء الحسين 47—49

^٤ ذو النورين عثمان 47—50 52—54 معاوية في الميزان 18

^٥ معاوية في الميزان 79

غيرها على طول معاشتهم واحتكاكهم في مكة قبل الإسلام كما سوف نرى في الأجزاء الأخرى من هذه الدراسة ..

وحين يقارن بينهم وبين الهاشميين يرى أن بنى هاشم " في الأغلب الأعم مثاليون أريحيون ، ولا سيما أبناء فاطمة الزهراء ، وبنو أمية في الأغلب الأعم نفعيون ، ولا سيما الأصلاء منهم في عبد شمس من الآباء والأمهات " ^١ ..

ثم يفترض الكاتب أن ذلك العداء القديم قد اتصل في الإسلام ، ويحتاج لذلك بمواقف أبي سفيان من الرسول ﷺ ^٢ ، بل إنه يبالغ في ذلك فلا تكفيه الأدلة الكثيرة من تاريخ الأمويين في هذه الفترة فيلجأ إلى التماس الأدلة في عداء من عادى الإسلام من بنى هاشم مثل أبي لهب ، فيفترض أن ذلك العداء " إنما جاءه من بنائه بأم جميل بنت حرب أخت أبي سفيان ... " ^٣ ؛ ولا ريب أن في ذلك محاولة لالتماس العذر لأحد كبار الهاشميين المشركين ، وتحويلاً لحجة من يحتاج بقديم صلات النسب والمصاهرة بين الهاشميين والأمويين مما يسقط زعم تأصل العداء بينهما .

ويجمع الكاتب كل الشبهات المثارة حول حقيقة إسلام أبي سفيان بعد فتح مكة فيلقى بها دفعة واحدة على أنها حقيقة لا تقبل الشك ^٤ ..

وفي حديثه عن عثمان بن عفان رضي الله عنه يزعم أن اختياره للخلافة من مجلس الشورى الذي كونه عمر بن الخطاب كان لا يخلو من " بواعث شخصية " إذ يتهم عبد الرحمن بن عوف — صهر عثمان ومن العشرة المبشرين بالجنة — بمجاملته على حساب علي بن أبي طالب ^٥ ، وآفة عثمان كما يزعم الكاتب " أنه لم يخلُ من الأموية " ^٦ ، وهو يتهم مروان بن الحكم بالجنابة على عثمان رضي الله عنه ^٧ ، ثم يصفه بأنه أبغض أعوان عثمان إلى المسلمين ، وأنه كان "عنصر السوء في هذه المأساة كلها " ^٨ ، ورغم ذلك فهو يدافع في موضع آخر عن موقف عثمان في اختيار مروان وزيراً له ^٩ ، وينفي أن يكون له

^١ أبو الشهداء الحسين 46

^٢ السابق 22

^٣ السابق 23

^٤ السابق 24

^٥ عبقرية علي 101

^٦ ذو النورين عثمان 211

^٧ عبقرية علي 48

^٨ السابق 45

^٩ ذو النورين عثمان 80

الدور الخطير في الثورة على الخليفة^١ ، ويصف الثائرين على عمال عثمان في الولايات بأنهم مس طلاب الإصلاح والتبديل^٢ ، كما يصف السبئية أتباع عبد الله بن سبأ في علاقتهم بعلي عليه السلام بأنهم أخلص الناس له وأغبرهم عليه ؛ ولكنهم لفرط غرقهم ولددهم في عداوتهم لم يقتنعوا بما دون القضاء على خصومه^٣ ، وإذا كان ينعته هنا بالصلاح والإخلاص كما سبق فهو يصفهم في موضع آخر بأنهم غوغاء ودغماء ييغون إفساد الأمر على الدولة الإسلامية ؛ ويصف تمردهم بأنه " إنما هو شغب غوغاء لا رأس له ولا قدم ، ووجود التدبير وراء هذا الشغب الأعمى هو الذي يوحى به المؤرخ أن يدا كانت تعمل فيه لحض الشغب ، إلى غير نتيجة إلا أن يفسد الأمر على الدولة الإسلامية وتحوم الشبهات من أجل هذا حول ابن سبأ " ^٤ ..

ويصف العقاد معاوية بالإيمان والغيرة الدينية والاستقامة فيقول : " من سرف القصور : يقال إن معاوية لم يكن يعمل بباعث من الغيرة الدينية ، أو بباعث من أحكام المروءة والعرف المتبع في الأخلاق ؛ فليس في وسعه أن يتجرد من هذه البواعث لو أراد ، وليس في وسع رجل أعظم على يد النبي عليه السلام وصاحبته ، وعمل على أيدي الجلّة من صحابته أن يفصل عن غيرة دينه وأحكام فرائضه وواجبات المروءة في عرف زمانه " ^٥ ، ويصفه بأنه " بعد إسلامه لم تثبت عليه كلمة ولا فعلة تنقض تصديقه بدينه ورعايته لفروضه وشعائره " ^٦ ، ورغم ذلك فإنه يتهمه باستغلال خلافة عثمان لزيادة ثرائه ونفوذه^٧ ، كما يتهمه باستعمال الرشوة لإثناء أبي ذر الغفاري عن معارضه ولايته وحكم عثمان^٨ ، وبالتباطؤ عن نجدة عثمان لما استطاع به في حصاره^٩ ، ويتهمه باستغلال مقتسل عثمان لتضليل الجماهير وإثارتها لمصلحته الخاصة^{١٠} ..

وعند حديثه عن التحكيم ودور أبي موسى الأشعري وعمرو بن العاص فيه قبل روايات الشيعة التي تزعم أن أبا موسى قال لعمرو بن العاص بعد ما خدعه وخلع علياً وثبت معاوية — على ما يزعمون — " إنما مثلك كمثلك الكلب " فرد عمرو عليه بقوله : " إنما مثلك كمثلك الحميل "

^١ السابق 214—216

^٢ عبقرية على 35

^٣ السابق 61

^٤ ذر الثورين عثمان 230 ، 232

^٥ معاوية في الميزان 16

^٦ السابق 114

^٧ عبقرية على 80

^٨ السابق 35

^٩ معاوية في الميزان 99—100

^{١٠} السابق 101

" . يقبل هذه الرواية — ويعقب عليها بقوله واصفا اثنين من حيار الصحابة كلب وحمار فيما حكما به على نفسيهما غاضبين وهما يقضيان على العالم بأسرة ليرضى عما قضياه وانتهب الماساة بهذه المهزلة ، أو انتهت المهزلة بهذه الماساة " كما يحاول تجريد معاوية مما اشتهر به من الحلم والأنانة ^١ ، ويشن حملة شعواء على المغيرة بن شعبه . فيتهمه بالسمنة السياسية ^٢ ، وعلى يزيد بن معاوية الذي كان — فيما يصفه — " فتى عريداً يقضى ليله وهاره بين الخمر والطنابير لا يفرغ من مجالس النساء والندمان إلا ليهرع إلى الصيد " ^٣ ويصف صراع الحسبي ضد يزيد بأنه " صراع الأريحية والنخوة ضد النفعية والظلام والغنيمة " ^٤ أو " هي حرب بين الكرم والظلم . وبين الضمير والمعدة ، وبين النور والظلام " ^٥

وإذا تطرق إلى غير هؤلاء من الخلفاء الأمويين استمرت حملته مثلما فعل في وصف سليمان ابن عبد الملك بأنه " كان هماً لا يشبع " وقد مات بالتخمة مع إصابته بالحمى وهو في الأربعين وأوصى بولاية العهد على كره لعمر بن عبد العزيز ^٦ ، ولم يقل لنا من الذي أكره سليمان على ذلك !! .

— طه حسين في " الفتنة الكبرى " و " حديث الأربعاء "

يحدد الكاتب منهجه في بحث حوادث هذه الفترة على هذا النحو " وأنا أريد أن انظر إلى هذه القضية (صراع على ومعاوية وما سبقه من الثورة على عثمان) نظرة خالصة مجردة . لا تصدر عن عاطفة ولا هوى ، ولا تتأثر بالإيمان ولا بالدين ، وإنما هي نظرة المؤرخ الذي يجرد نفسه تجريداً كاملاً من الرعات والعواطف والأهواء ، مهما تختلف مظاهرها ومصادرها وغاياتها " ^٧ ، ورغم الشكوك القوية حول إمكان حدوث هذا التجرد الكامل كما تحدث عنه الكاتب فإننا سنرى كيف طبقه عملياً في كتابته

^١ عبقرية على 70

^٢ معاوية في الميزان 78 وانظر 30 و 31

^٣ أهر الشهداء الحسين 132

^٤ السابق 12—13

^٥ السابق 4

^٦ السابق 168

^٧ معاوية في الميزان 83

^٨ الفتنة الكبرى 1/5

فهو يعترف في وضوح بأن كثيراً من الروايات التاريخية منحول مختلق ، فيقول: " وأنا أول من يعترف بأن كثيراً من الأخبار مختلق منتحل " ^١ ..

وهو يلنس أحد أسباب هذا الاختلاق للروايات عند بحثه عن أخلاق الوليد بن يزيد فيقول :
" إن أكثر الرواة كانوا يتقربون إلى بني العباس وإلى عامة الناس بالطعن فيه والنعي عليه " ^٢ ، ويؤكد أن قصص الحب التي يزخر بها التاريخ الأموي كان أكثرها مصنوعاً متكلفاً ^٣ ؛ ومن هذا المصنوع المتكلف قصة وضاح اليمن الشاعر وعلاقته بأُم البنين زوج الوليد بن عبد الملك والفتضح هذه العلاقة حتى دفنه الوليد فيما تزعم القصة حياً ^٤ ..

وهو يضع الأساس النقدي لهذه الروايات فيقول " وما ينبغي كذلك أن نصدق كل ما يروى ، أو نكذب كل ما يروى ، وإنما الرواة أنفسهم ناس من الناس ، يجوز عليهم الخطأ والصواب . ويجوز عليهم الصدق والكذب ، والقضاء أنفسهم قد عرفوا ذلك وتهاؤا له ، ووضعوا قواعد التعديل والتجريح والتصديق والتكذيب ... فليس علينا بأس أن نسلط الطريق التي سلكتها ، وأن نضيف إلى القواعد التي عرفوها ما عرفه المحدثون من القواعد الجديدة التي يستعينون بها على تحقيق النصوص وتحليلها وفقها " ^٥ ..

ولكن هذا الجهد النظري الطيب من الكاتب حول ما يُقبل من الروايات وما لا يقبل ؛ وما يعتمد من المصادر وما يترك ، لا يأخذ حظه من التطبيق عند دراسته عن هذه الفترة ... فرغم أنه اعتمد على مصادر تاريخية أصيلة في الجزء الأول من كتابه " الفتنة الكبرى " الذي يتحدث عن عثمان بن عفان ، فإنه في الجزء الثاني منه الذي خصصه للحديث عن علي كرم الله وجهه قد اعتمد على مصادر معظمها شيعي ^٦ .. وكان من الواجب عليه أن يعتمد على كتب التاريخ الأخرى التي

حديث الأربعاء 84/2

لسابق 173/2

بين 240/1

السابق 295/1-296 ، 302

السابق 172/1

^١ تصل مصادر الكتاب إلى تسعة مصادر منها ستة مصادر شيعية وهي : الفصول المهمة في معرفة الأنتمة لابن الصباغ ، ولفرق الشيعة للنجاشي ، وأعيان الشيعة للعالملي ، وتثبيت الإمامة للإمام القاسم بن إبراهيم بن إسماعيل وبحار الأنوار للمجلسي ، ودعائم الإسلام لأبي حنيفة النعمان بن محمد ، والثلاثة الباقية منها هي مقالات الإسلاميين لأبي الحسن الأشعري ، وهو كتاب في علم الكلام والفرق الإسلامية أصلاً ، وتاريخ الإسلام للحافظ الذهبي وهو من رُوي القرن الثامن الهجري (ت 748 هـ) فهو متأخر جداً عن المصادر المبكرة الأولى لعصر الراشدين والأمويين ، كتب - لو حيد المبكر هو الأخبار الطوال لأبي حنيفة الدينوري (ت 282 أو 290 هـ) والكتاب ينصب اهتمامه على - مع الفرس (انظر ثبت مراجعه في الجزء الثاني من كتابه الفتنة الكبرى)

تعطي وجهة نظر مخالفة لكتب الشيعة وخاصة في مثل هذا الموضوع الذي لعبت فيه الأهواء والتعصب المذهبي بأقلام كثير من الرواة والمؤرخين ، وفي كتاب "حديث الأربعاء" كانت مصادره أدبية في مجملها ؛ وهو أمر طبعي ومتوقع ، لأن الكتاب يتناول موضوعات أدبية في المقام الأول ، ولكن المصادر الأدبية في حاجة إلى نظرة نقدية فاحصة قبل اعتمادها في الحصول على حقائق تاريخية كما سبق بيانه ..

ولم يقدم الكاتب ما يدل على اعتماده على قواعد الجرح والتعديل في توثيق الرواة ؛ تلك القواعد التي سبق أن تحدث عنها في بيان منهجه في قبول الروايات أو ردها

والدكتور طه حسين شديد الولاء للفكر فلاسثراقي^١ ، وإن جرأته في الحديث عن أعلام المسلمين ؛ بما فيهم صحابة النبي ﷺ ، لا تقل عن جرأة المستشرقين ، فهو يقول مثلاً : " وإذا دفع أصحاب النبي أنفسهم إلى هذا الخلاف وتراموا بالكبائر وقاتل بعضهم بعضاً في سبيل ذلك ؛ فمد ينبغي أن يكون رأينا فيهم أحسن من رأيهم في أنفسهم ؛ وما ينبغي أن نذهب مذهب الذين يكذبون أكثر الأخبار التي نقلت إلينا ما كان بينهم من فتن واختلاف " ^٢ ..

كما أنه يقبل جل تلك الروايات التي تسقط أقدار الخلفاء الأمويين والعباسيين فيقول : " وأنا أزعم أن كثيراً جداً من هذه الأخبار صادق ؛ وأزعم أن كثيراً جداً من خلفاء بني أمية وبني العباس كانوا — كما يقول الرواة — يعثون ويصطنعون ضروب اللهو ، ويستمتعون بفسون من اللذات كان يكرها الدين " ^٣ ..

وعند حديثه عن عثمان بن عفان ينتقد تصرفاته المالية والسياسية^٤ ؛ ويتهم عماله بالفسوق والاستغلال مثل الوليد بن عقبة الذي يقبل أقامه بالفسوق وشرب الخمر ويقول عنه بأنه " كان رجلاً من قريش أسلم إسلاماً ظاهراً واحتفظ بإهليته كلها " ^٥ ؛ مع أن رواية شرب الوليد الخمر رواية واهية تحوطها الشكوك من كل ناحية وإن اشتهرت وشاعت^٦ ، ويقول عن عبد الله بن سعد

^١ انظر نقداً لكتابه: "الشعر الجاهلي" و " مستقبل الثقافة في مصر" في كتاب الفكر الإسلامي الحديث للدكتور محمد البهي ص 208 ، 218

^٢ الفتنة الكبرى 1/ 172 ، وانظر حديثه عن طلحة والزبير ورميه لهما بالكذب والطمع وحب الرياسة (السابق 1/ 150 ، 22/2)

^٣ حديث الأربعاء 85/2

^٤ الفتنة الكبرى 1/ 191

^٥ السابق 98/1

^٦ الطبري 4/ 271 — 277 حيث تؤكد ملابسات القصة الشك في صحة الحدث ..

عامل عثمان على مصر بأنه كان " شجاعاً جريئاً مقداماً موفقاً في الفتح ولكنه كان صاحب دنيا، ولم يكن صاحب دين " ^١

أما عن موقف معاوية من بيعة علي فإنه — كما يرى الكاتب — " لم يكن يريد أن يسار لعثمان بمقدار ما كان يريد أن يصرف الأمر عن علي " ^٢ وهو يتصور أن رفع المصاحف في صفين كان مؤامرة بين الأشعث بن قيس وعمرو بن العاص ^٣ ، ولما تحدث عن روايات التحكيم واختلاف الحكمين قبل رواية أبي مخنف الشيعي في غدر عمرو بـ أبي موسى ؛ ورفض الرواية الأخرى التي تحكى اتفاقهما على خلع الرجلين المتنافسين على معاوية وترك الأمر شورى وتخلو من سبائهما ، ويصف هذه الرواية بأنها " شاذة لا تستقيم " ويقول: " إذن فقد غدر عمرو غدره منكراً ؛ إن صح ما كاد المؤرخون أن يجمعوا عليه " ^٤ ..

وقد قامت الدولة الأموية — فيما يرى الكاتب — على الأحقاد الموروثة منذ قتل بعض كبرائهم من المشركين يوم بدر ، " وكذا كانت العلاقة بين الجماعات المسلمة المتقاتلة تقوم على الذحول والأوتار والدماء المتوارثة " ^٥ ، والصرف الأمويون فيما يزعم الكاتب — عمن الدين إلى الصراعات السياسية ^٦ ، وكان حكمهم استبداداً — كما يرى طه حسين — فالحكم الدستوري " مناف كل المنافسة لما كانوا يسعون إليه من الحكم المطلق ^٧ .. وصارت حال المسلمين أيام معاوية وابنه يزيد كما يراها الكاتب " إلى شر ما كان يمكن أن تصير إليه " ^٨ ..

وكما فسدت أمور السياسة وأمور الاقتصاد — فيما يرى الكاتب — فسدت الأخلاق ، وفسد المجتمع ، فكان شعر عمر بن أبي ربيعة الإباحي يعبر عن المجتمع الإسلامي في عهد بني أمية ؛ " والمؤرخ الذي يريد أن يدرس الصلة بين الرجال والنساء في هذا العصر يجب أن يلتمس ذلك عند عمر بن أبي ربيعة ، فسيجد في شعر هذا الشاعر كل ما أراد " ^٩ ، حتى لقد تحول موسم

^١ الفتنة الكبرى 125/1

^٢ السابق 34/2

^٣ السابق 100/2

^٤ السابق 110/2 ، وليس في الأمر إجماع أو غيره مما يكاد أن يكون إجماعاً ، إنما الأمر أمر شهرة رواية عن غيرها لمناسبتها أغراض المؤرخين.

^٥ الفتنة الكبرى 226/2

^٦ حديث الأربعاء 96/2

^٧ السابق 305/1

^٨ الفتنة الكبرى 268/2

^٩ السابق 377/1

الحج في عهدهم إلى " موسم شعر وغناء في الحجاز " ^١ ، فلم يكن "عمر بن أبي ربيعة يفهم من موسم الحج إلا أنه معرض إسلامي للجمال" ^٢ ..

وعند دراسة الكاتب للوليد بن يزيد الخليفة الأموي الشاعر يشك فيما ينسب إليه من شناعات وينصح بأنه يجب " أن تختلط كل الاحتياط حين تقرأ ما تجد في الكتب من ذم الوليد والنعي عليه ورميه بالكفر حيناً وبالزندقة حيناً آخر ، وإضافة الشعر المملوء كفراً وفجوراً إليه " ^٣ ... ولكن الكاتب نفسه يعود فينسب إلى الوليد كثيراً من هذه الشناعات بل يتهمه في دينه وعقيدته ^٤ ويقبل روايات تبلغ في اتهمه بالكفر وإنكاره الجنة والنار والبعث ، وتلاعبه بأمور العبادة وفسوقه فيها ^٥ ..

^١ السابق 393/1

^٢ السابق 392/1-393

^٣ حديث الأربعاء 172/2 — 173

^٤ السابق ٢ / ١٠٠ - ١٠١

^٥ السابق ٢ / ١٠١

المبحث الثاني: اتجاه إنصاف التاريخ الأموي

رغم كثرة محاولات التحريف التي تعرض لها التاريخ الأموي في القديم والحديث ، فإن عناصر الخير فيه — وهي كثيرة وواضحة — ظلت تفرض نفسها على أقلام المؤرخين ، فتبدو ظاهرة حيناً ، ومتوارية في أغلب الأحيان ..

وكما شهد العصر الحديث محاولات كثيرة لتحريف التاريخ الأموي على يد جبهة من المستشرقين وجماعة من العرب والمسلمين الذين تتلمذوا عليهم أو تأثروا بهم ، فقد ظهر جماعة من كبار مؤرخينا المعاصرين حملوا على عاتقهم مهمة التاريخ المنصف لصدر الإسلام والدولة الأموية ، وتعدد نتائجهم العلمي فبدأ متأثراً بعض الشيء بهذه الآراء السائدة عن بني أمية ؛ ثم بدأ يتخلص تدريجياً من رقة التقليد وتتحدد معالمة كاتجاه متميز له مكانته التي يصعب تجاهلها ، وله تأثيره الذي يصعب تحجيمة ...

لقد كان بعض أعلام هذا الاتجاه من اتصلوا بجهود المستشرقين في هذا المجال ، ولكنهم هضموها ولم يتوقفوا عندها ، وتجاوزوها دون انهيار بها ، بل وجهوا نحوها سهام النقد والتقويم .. ولعل مما ساعدتهم على تجاوز مرحلة التقليد للمستشرقين وتقديم إياهم ، متانة بنيتهم الثقافية الإسلامي ، فجميع هؤلاء المؤرخين الذين سنتناولهم في هذا الاتجاه من عرفوا بجودة تمثلهم للتراث العربي وبغيرهم عليه ورغبتهم في الدفع عنه ، والنظر إليه كعامل بعث للأمة وإنهاض لها ... على أن بعضهم لم يعرف عنه اتصال بالثقافة الغربية وإسهامات المستشرقين في حقل التاريخ الإسلامي إلا فيما ترجم إلى العربية من هذا النتاج .. فكانت ثقافتهم الإسلامية هي زادهم ودافعهم إلى إنصاف التاريخ الإسلامي والأموي منه بوجه خاص ...

مركبات إنصاف التاريخ الأموي:

1— كان الحذر من روايات المؤرخين القدماء وتزييدات الرواة وأحكام المستشرقين هو السمة الأولى الظاهرة من سمات هذا الاتجاه ...

فالاستاذ محمد كرد على يحمل على افتراءات الشيعة على بني أمية والباسهم خلافاتهم معهم ثوباً دينياً ، وخروجهم في عدائهم لهم عن حد الاعتدال حتى أخرجوا الأمويين عن الملّة¹ ، كما

هاجم كتابات المستشرقين التي تشوه التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية^١، بل إنه قد ألف كتابه "الإسلام والحضارة العربية" أساساً للرد على شبهات المستشرقين في هذا المجال^٢ ..

وتحدث الدكتور أحمد أمين عن ظاهره وضع الأحاديث النبوية الموضوعة ضد الأمويين للحط من شأنهم وإعلاء شأن العباسيين، وتفسير بعض آيات القرآن — من أجل تحقيق ذلك الهدف — على نحو خاص^٣، كما تعرض للروايات التاريخية الظاهرة الوضع والانتحال ضد بني أمية؛ وأظهر أن كثيراً من ذلك كان نتيجة تأثير العباسيين الذين وضع الخلفاء الأولون منهم "البرنامج للمؤرخين في الطعن في بني أمية، فسار المؤرخون على منهاجهم وتوسعوا في تكميل خططهم"^٤، وضرب بعض الأمثلة على ضغوط العباسيين على بعض العلماء وتدخلهم في شئون التشريع والقفاة واللغة والنحو فضلاً عن التاريخ^٥، كما أشار إلى دور الشيعة في وضع الأحاديث لنصرة مذهبهم "بل وضعوا الكتب وحشوها بتعاليمهم، ونسبوا لأئمة أهل السنة"^٦

وتحدث الدكتور عبد العزيز الدوري عن تأثير الأحزاب السياسية والشعبية على التدوين التاريخي^٧، كما تحدث الدكتور ضياء الدين الريس عن أهمية التاريخ الأموي ووجوب درسه أكثر من غيره "لأن تلك الدولة كثيراً ما صورت حقيقتها، أو كتب تاريخها على غير ما يرضي الحقيقة والعدل، وطالما حمل عليها، وأسيء تقدير رجالها"^٨، وتحدث عن أسباب ذلك التحريف للتاريخ الأموي فأشار إلى الرعة الطائفية الشيعية، غير أنه التفّت باهتمام نحو كتابات غير المختصين في التاريخ ودورها في بناء الأحكام التاريخية على معلومات سطحية أو خاطئة أو دراسة ناقصة^٩ ..

أما الشيخ محب الدين الخطيب — فلم يكتب كتاباً مستقلاً عن الدولة الأموية ولكنه اضاف تحقيقات ثرية لكتاب العواصم من القواصم لابن العربي، وكذلك حقق كتاب: "المنتقى من منهاج الاعتدال" وهو مختصر كتاب منهاج السنة النبوية لابن تيمية، وقد اختصره الحافظ الذهبي (ت 748هـ) والكتابان يمثلان ركيزتين من ركائز اتجاه الفقهاء والمحدثين في صياغة التاريخ الإسلامي

^١ الإسلام والحضارة العربية ١/ ٤٠٧

^٢ انظر مقدمة الجزء الأول من كتاب الإسلام والحضارة العربية تحت عنوان: "الداعي إلى هذا التأليف"

حتى ص ١١٥

^٣ ضحى الإسلام ٢/ ٣٠-٣١

^٤ السابق ٢/ ٢٧ وانظر ص ٢٨

^٥ السابق ٢/ ٢٥-٢٦، ٣٢-٣٦، ٤٣-٤٤

^٦ فجر الإسلام ٢٧٥-٢٧٦

^٧ مقدمة في تاريخ صدر الإسلام ص ١١-١٦

^٨ عبد الملك بن مروان والدولة الأموية ص ٨-٩

^٩ السابق ص ٩

٠ وتحريره من عبث الرواة ، فقد أكد أن " تاريخ خلفاء بني أمية وبنى العباس كتبه وأذاع الروايات عن أخباره مؤلفون أكثرهم من الشيعة أو الشيعية ، فافسدوا على هذه الأمة تاريخها ، وشوهوا محاسن ماضيها " ^١ وهو يدعو إلى التفرغ لتصحيح هذا التاريخ وتقديمه بصورة تثير الغبطة والعزة في نفوس شباب الإسلام ^٢ ؛ وقد ترجم في تحقيقه " للمنتقى من منهاج الاعتدال " لبعض الرواة الذين كان لهم دورهم في تحريف التاريخ الأموي كأبي مخنف ^٣ وهشام بن الكلبي ^٤ .. وقال في موضع آخر : " إن التاريخ الإسلامي لم يبدأ تدوينه إلا بعد زوال بني أمية وقيام دولة لا يسرُّ رجالها التحدث بمفاخر ذلك الماضي ومحاسن أهله ، فتولى تدوين تاريخ الإسلام ثلاث طوائف ؛ طائفة كانت تشد العيش والجدة بالتقرب إلى مبغضي بني أمية بما تكتبه وتؤلفه ، وطائفة ظنت أن التدوين لا يتم إلا بالتقرب إلى الله بتشويه سمعة أبي بكر وعمر وعثمان وبني عبد شمس جميعاً (يعنى الرافضة) ، وطائفة ثالثة من أهل الإنصاف والدين كالطبري وابن عساكر وابن الأثير وابن كثير رأوا أن الإنصاف أن تجمع أخبار الأخباريين من كل المذاهب والمشارب .. ولعل بعضهم اضطر إلى ذلك إرضاء لجهات كان يشعر بقوتها ومكانتها " ^٥ ..

أما الدكتور أحمد شلبي فقد صدر كتابه عن الدولة الأموية بمقدمة تحت عنوان " تاريخ يحتاج إلى إنصاف " ناقش فيها أسباب تحريف التاريخ الأموي وكيفية إنصافه ، وقد أشار أيضاً إلى دور الدعاية الشيعية والسلطة العباسية في ذلك التحريف ^٦ ، غير أنه أضاف عاملين جديدين كان لهما تأثير كبير في تشويه التاريخ الأموي ، أولهما تأثير الرأي العام وقوة الجماهير المتأثرة بالدعاية الشيعية ؛ التي مارست ضغوطها على جماعات الرواة والمؤرخين ^٧ ، وثانيهما هو تأثير كثير من المسلمين الذين أوفدوا إلى أوروبا بمناهج المستشرقين فجاءت كتاباتهم تحاكي روح الإسلام في كثير من الأحيان ^٨ ..

ويضع الدكتور شلبي أساساً جديراً بالاعتماد عليه في تقييم التاريخ الأموي فيقول " وجدير بتاريخ الأمويين أن يكتب من جديد ، وأن تُتخذ أسسه من الواقع ، أي من حضارة

^١ هامش المنتقى من منهاج الاعتدال ص ١٨٢

^٢ السابق ٢٨٣-٢٨٤

^٣ السابق ص ٢١

^٤ السابق والصفحة

^٥ هامش العواصم من القواصم ص ١٧٩

^٦ موسوعة التاريخ الإسلامي ١٨ / ٢

^٧ السابق ٦١ / ١

^٨ السابق ٤٩ / ١

الأمويين التي لا تزال تنطق بها دمشق وغيرها من العواصم الإسلامية ومدن الأندلس ، ومن صنوف التفكير التي أنتجها العقل الأموي كالبريد والسكة وتعريب الدواوين وتنظيم الجيوش وغيرها ، ومن انتصارات الأمويين التي سجلت زحفاً للإسلام لا يزال واضح الجانب " ١ ..

ويتحدث الدكتور يوسف العش عن كيفية تمييز الصحيح من الزائف في روايات التاريخ الإسلامي ، وبخاصة تلك الفترة التي مهدت لقيام الدولة الأموية فيرى أنه " ينبغي قبل كل شيء أن نصنف الأخبار تصنيفاً بحسب روايتها لنستطيع أن نقابل بين نزعات هؤلاء الرواة عسانا أن نميز صاحب البصيرة منهم من الذي يحاول الزيف ، وأن نكتشف فيهم من كان أقرب من غيره إلى ضبط الأخبار الصحيحة وهذا هو النقد الخارجي في التاريخ ، يليه بعد ذلك النقد الداخلي للأخبار من حيث هي أخبار تتلاءم وتنسجم في صحتها وضبطها ؛ وتنسق في منطقتها " ٢ ، وقد طبق هذا المنهج على الروايات التي تحكى وقائع الفتنة في عهد عثمان رضي الله عنه حتى آخر موقعه الجمل " ٣ وكذلك في موقعه صفين " ٤ ..

أما الأستاذ محمود شاكر فيقف موقفاً صلباً من الروايات التي تشوه التاريخ الأموي ، فقد وظف صفحات مقدمة الجزء الرابع من كتابه " التاريخ الإسلامي " التي تبلغ نيفاً وخمسين صفحة لبيان تحريف التاريخ الأموي والرد على الشبهات المثارة ضده ، وإبراز محاسن العهد الأموي ، وهو لا يشغل نفسه بإظهار فساد كل الروايات التي تبرز المطاعن ضد الأمويين بطرق النقد التاريخي المعروفة ، أو باتباع المنهج الذي اتبعه الدكتور العش سابقاً ، بل إنه يردّها لتعارضها مع ما صح عنده من روايات هي أولى بالاعتماد والتوثيق ؛ أو لمخالفتها التصور العام عن القرن الأول الهجري وهو خير القرون كما جاء في الحديث الشريف " ٥ ، أو لمخالفتها ما تقتضيه عدالة الصحابة وتميز جيل التابعين " ٦ .. وهو يرى " أن التاريخ قد ظلم بني أمية ظلماً كثيراً إذ طمس كل ما لهم من فضائل وإيجابيات ، ولم يتعرض لها أبداً ولم يذكرها (١) وبالمقابل فإنه ، توسع في ذكر السليبيات ، أو افترى عليهم الكذب ، فنسب لهم ما لم يكن منهم ، وأوجد حوادث لم تكن في أيامهم " ٧ ..

١ السابق ١٩ / ٢

٢ الدولة الأموية ص ٣٣

٣ السابق ٣٢ - ٥٩

٤ السابق ١٠٨ - ١١٢

٥ رواه البخاري : الصحيح ، كاب الشهادات وكتاب المناقب ، ورواه أحمد : المسند حديث رقم ٣٥٩٤

، ومسلم : الصحيح ، كتاب فضائل الصحابة ١٦ / ٨٤ - ٨٥

٦ التاريخ الإسلامي ٥٠ / ٤

٧ السابق والصفحة

وهذا القول فضلاً عن تعارضه مع ما سبق أن قاله من اعتماده على بعض الروايات الصحيحة^١ ، فهو يتعارض مع حقيقة أن كثيراً من منجزات الأمويين قد وصل إلينا ، وإن توارى بين فيض جنحهم من الهجوم عليهم ، وهذه المنجزات هي التي يبنى عليها المنصفون لبني أمية اجتهداتهم وكتاباتهم ..

2 — رد شبهات المتحاملين على الأمويين أو مناقشتها :

ومن أهم ما وجه له هؤلاء المؤرخون المنصفون جهودهم مناقشة الشبهات التي أثارها المؤرخون القدماء ورددها فريق من المتأخرين على مر العصور ، حتى أصبحت لشهرتها وذيوعتها مألوفة في أذهان الناس وفي صفحات الكتب ..

ومن أهم هذه الشبهات تلك التي تثار حول إسلام بني أمية ، وأنهم من الطلقاء الذين حاربوا الرسول ما وسعهم الخاربة ، ثم أسلموا قهراً بعد فتح مكة خوفاً من القتل ..

ويرد بعض المؤرخين المنصفين هذه الشبهة فيذكر أن بعض البارزين من الأمويين قد دخلوا في الإسلام منذ بدايته ، ومن حارب الإسلام منهم وأدركه الفتح فقد أسلم وحسن إسلامه ، واحتل الأمويون مكانة بارزة في إدارة الدولة على عهد الرسول الكريم نفسه بعد الفتح^٢ ، وليس تآخر الإسلام طعناً في صاحبه إذا أسلم وحسن إسلامه ، فقد حدث مثل ذلك مع عمر بن الخطاب الذي كان يرجع بعض السابقين الأولين إلى الإسلام^٣ ، وقد كانت مكانة الدين قوية في الأسرة الأموية وفي سياسة كثير من أفرادها وخلفائها^٤ ..

وقد تصدى بعضهم للحديث عن هذه الشبهة من زاوية أخرى هي طبيعة العلاقة بين بني أمية وبني هاشم التي يصورها بعض المؤرخين القدماء بأنها علاقة عداوة قبل الإسلام وبعده ، والحقيقة أنهم ينتمون إلى عبد مناف الجد الأكبر لهم جميعاً ، وكانت علاقات المودة والتناصر والتعاون واضحة بينهم حتى كأن ذلك هو الأصل وما حدث من خلاف بينهم هو الفرع^٥ ..

ومن هذه الشبهات التي تعرض لتفنيدها المؤرخون المنصفون ما يثار حول استغلال بني أمية خلافة عثمان بن عفان لتحقيق مآربهم الخاصة ، وما يثار حول سلوك عثمان — أحد كبار بني أمية — مع أقاربه ، والطمع الذي وجه إلى كفاية ولاته من بني عبد شمس وتدينهم ، حيث حاول المنصفون

^١ السابق والصفحة

^٢ د . الرئيس : عبد الملك بن مروان 89 وما بعدها .

^٣ د . شامي : موسوعة التاريخ الإسلامي 22/2 — 23

^٤ د . الدوري : مقدمة في تاريخ صدر الإسلام 79

^٥ محب الدين الخطيب هاشم النقي من منهاج الاعتدال ص 186 حاشية 1

نفي هذه الشبهات عن عثمان وبني أمية ، فلم يكن عثمان بهذا الضعف الذي يزعمه المؤرخون ؛ ولم يكن ولاته من بني أمية بهذا الاستغلال أو الفسوق الذي يدعيه الرواة^١ ..

ومن هذه الشبهات التي ناقشها هؤلاء المؤرخون ما يقال عن استغلال معاوية مقتل عثمان لمحاربة علي بن أبي طالب ونيل الخلافة حتى ظفر بها في النهاية بأساليب شتى^٢ ..

وبما عرض لبحثه المنصفون مسألة توريث الخلافة ليزيد وتحويلها من الشورى إلى ملك عضوض ؛ وأثر تطور المجتمع وظروف الدولة على تغير سمت الشورى الذي ظهر في عهد الراشدين عنه في عهد بني أمية^٣ ..

كما عرضوا لتقييم الثورات التي حدثت ضد الدولة الأموية ، وأبرزها ثورة الحسين بن علي التي كانت — كما يرون — ثورة لم تستكمل أسس النجاح ولا شروط الخروج على نظام الدولة — وإن كان جائراً — كما عرفها فقهاء المسلمين^٤ ، وكذلك في تقييمهم ثورة أهل المدينة في موقعة الحرة^٥ ..

كما تعرضوا للرد على مبالغات المؤرخين فيما ينسب إلى بعض الخلفاء الأمويين مثل يزيد ابن معاوية والوليد بن يزيد من فسوق واستخفاف بالدين والقيم العامة^٦ ، وكذلك ما ينسب من مثالب إلى بعض ولاة بني أمية مثل زياد بن أبي سفيان^٧ والحجاج بن يوسف الثقفي^٨ ..

^١ الخطيب : هامش العواصم من القواصم 69 ، 90 ، 101 — 103 ، 375—378 د. شلي : مرجع السابق 604/1

^٢ الخطيب : هامش العواصم من القواصم 171 ، هامش المنتقى 228—229 ، 251 ، د. العش : الدولة الأموية ص 101 وما بعدها

^٣ كرد على : الإسلام والحضارة العربية 396/2 ، خطط الشام 162/1 الحضري : محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية 120/2

^٤ الحضري : السابق 129/2 — 130 ، الخطيب : هامش المنتقى 266—267 ، د. شلي : موسوعة التاريخ الإسلامي 208/2 ، شاعر : التاريخ الإسلامي 13/4

^٥ الحضري : مرجع سابق 132/2 ، د. شلي : مرجع سابق 53/2 ، الخطيب : هامش المنتقى 29 ، 293

^٦ كرد على : الإسلام والحضارة العربية 167/2 ، د. شلي : السابق 18/2—19 ، 101—103 ، الخطيب : هامش المنتقى 281—283 ، هامش العواصم 234

^٧ الحضري : السابق 107/2 ، د. شلي : السابق 43/2 — 44

^٨ الحضري : السابق 145/2 ، شلي : السابق 63/2 — 64

وقد بحث هؤلاء المنصفون النظام المالي للأمويين وما يثار حوله من شبهات^١، كما تعرضوا لبحث مشكلة الموالي في العصر الأموي وأوضحوا أن سياسة الأمويين تجاههم لا تعبر عن عنصرية أو تعصب للعرب^٢، إلى غير ذلك من مباحث مهمة ..

3 — إظهار مآثر الأمويين وحضارتهم :

ومن أبرز هذه المآثر التي تحدث عنها هؤلاء المؤرخون وجود نخبة ممتازة من الخفاء والولاة في العصر الأموي بذلوا جهوداً ضخمة في سبيل الحفاظ على وحدة الدولة وعز الدين ، مثل معاوية ابن أبي سفيان والمغيرة بن شعبة وزيايد بن أبي سفيان وعبد الملك بن مروان وعبد العزيز بن مروان وعمر بن عبد العزيز وغيرهم ، وجماعة من أبرز القواد العسكريين مثل مسلمة بن عبد الملك وحسان ابن النعمان وموسى بن نصير ومحمد بن القاسم الثقفي وقتيبة بن مسلم وغيرهم^٣ ..

ومن أبرز المآثر التي أفاض المؤرخون في وصفها تلك الفتوحات الأموية الواسعة^٤، حتى وصل الإسلام إلى حدود الصين شرقاً وإلى بلاد الأندلس غرباً ، ودقت أبواب الفسطاطية ثلاث مرات كما فتحت عدة جزائر من البحر المتوسط حتى تحول إلى بحيرة إسلامية بما صاحب ذلك من نشر الإسلام واللغة العربية . كما اهتم المؤرخون المنصفون بتوضيح المنجزات الحضارية الكبرى في العصر الأموي مثل تعريب الدواوين وتنظيم شئون البريد والسكة وتنظيم الجيوش وغير ذلك^٥

^١ د. الرئيس : الخراج والنظم المالية 236— 237 ، 239 — 240 ، كرد علي : الإسلام والحضارة العربية 154/2

^٢ كرد علي : السابق 407/2 ، د. الدوري : مقدمة في تاريخ صدر الإسلام 83/0 ، شاك : السابق 36/4

^٣ لم تراجع شق عند هؤلاء الكتاب السابق ذكرهم

^٤ د. شليبي . السابق 111/2 وما بعدها

^٥ د. شليبي مرجع سابق 19/2 ، 40 ، 62 ، كرد علي : الإسلام والحضارة العربية 166/2

الباب الثاني

دراسة الشبهات التي أثارها المؤرخون حول التاريخ الأموي

مقدمة

أشاع كثير من المؤرخين الروايات عن وجود عدااء دفين متأصل بين بني أمية وبني هاشم تمتد جذوره إلى ما قبل ظهور الإسلام ، وإلى هذا العدااء يُرجع المؤرخون ما يزعمونه من موقف قبلي أموي معاند للإسلام ؛ حتى اضطر بنو أمية آخر المطاف — بزعمهم — إلى قبول الإسلام اضطراراً بعد فتح مكة ؛ فدخلوا فيه دخولاً ظاهرياً ليفيدوا منه ؛ فبدأ تسليطهم إلى المناصب العليا في الدولة الإسلامية منذ وقت مبكر حتى واتتهم الفرصة مع استخلاف عثمان بن عفان الأموي النسب فاستغلوا خلافته ؛ ووافقهم في تنفيذ مآربهم فحملهم على أكتاف المسلمين حتى كانت الثورة عليه ؛ ومقتله فسارع معاوية بن أبي سفيان لاستغلال ذلك الحدث الجلل لرفع لواء الثار لابن عمه الشهيد ورفض الانقياد لخلافة علي بن أبي طالب الهاشمي ليصل بعد خطوط إلى خلافة المسلمين ، ثم يجعلها وراثية في عقبه لتقوم بذلك دولة بني أمية ؛ التي أقامها الهوى والعصبية وحفظتها القوة والقبيلة .. إن هذه الشبهات البارزة والمشتهرة جديرة بالنقد والتمحيص ، وذلك ما نحاوله في الفصلين الأولين من هذا الباب الذين يدرسان حقيقة موقف بني أمية من بني هاشم وموقفهم من الإسلام منذ بدايته ؛ ثم طريقة وملابسات وصولهم إلى الخلافة ؛ وحقيقة التزامهم الإسلامي وتدينهم ؛ ودورهم في مسيرة نشر الإسلام وإعزازه في جنبات الأرض ..

ويشيع في كتب التاريخ — قديمها وحديثها — اتهام الأمويين بالاستبداد السياسي ، والتسلط على المسلمين ، ومصادرة الحرية والقسوة في معاملة معارضيههم ؛ بغية تكريس الحكم في السلالة الأموية بعد أن تحولت الخلافة الراشدة إلى ملك عضوض وسوف ندرس في الفصل الثالث من هذا الجزء من الكتاب قضية الشورى ومكانتها عند خلفاء الأمويين وولايتهم ؛ وموضوع ولاية العهد وتوريث الخلافة وما أحاط بهما من ظروف وملابسات ، ثم نعرض في الفصل الرابع لبحث موقف الأمويين من المعارضة السلمية والمسلحة ؛ مع دراسة أبرز الثورات في العصر الأموي ؛ ثورة أهل المدينة ؛ ثم التركيز بشكل خاص على ثورة الحسين بن علي أكثر هذه الثورات إثارة للجدل ، مع دراسة علاقة الأمويين بآل البيت وما شابها من لغط وتشويه .. ثم بحث ثورة عبد الله بن الزبير وما واكبها من أحداث ..

واقم الأمويون في عديد من الكتابات التاريخية بالتعصب للعروبة على حساب الموالي الذين تدعي هذه الكتابات أنهم تعرضوا للاضطهاد والانتقاص في العصر الأموي . مما جعلهم وقود

لكثير من الثورات التي قامت ضد الأمويين . وهو ما يخالف المعروف من قيم الإسلام الذي يسوي بين أتباعه على اختلاف ألوانهم وأجناسهم ؛ فلا يفرق بينهم إلا بالقوى ..

كما اتهم الأمويون ببعث العصبية القبلية بين العرب ، أو النفخ فيها مما أدى إلى شق الرابطة الاجتماعية بينهم ، وتفرقهم إلى قبائل متناحرة متباغضة ، وذلك كيلا يشكل اتحادهم خطراً على الأمويين ؛ وحتى يستطيع بنو أمية ضرب هذه القبائل بعضها ببعض فيخلسو مسرح القوى السياسية لهم بغير منازع قوي ؛ وذلك ما سندرسه في الفصل الخامس من هذه الدراسة .. ويتهم بعض المؤرخين والباحثين الأمويين بالخروج على منهج الخلفاء الراشدين في الاقتصاد وسياسة الملل ، سواء في الحصول على الأموال أو في التصرف فيها ، فخصصنا الفصل السادس لبحث تلك الاتهامات ودراستها ، في حين جاء الفصل السابع ليعطينا نظرة إجمالية عن المنجزات الحضارية للمسلمين زمن بني أمية ؛ في شتى المجالات الإدارية والمعمارية والثقافية والعلمية ..

الفصل الأول

موقف الأمويين من الإسلام والخلافة

منذ البعثة النبوية حتى قيام الخلافة الأموية

تمهيد : علاقات بني أمية وبني هاشم قبل الإسلام :

يرجع بنو أمية وبنو هاشم في النسب إلى جد واحد هو عبد مناف بن قصي بن كلاب ،
فإليه ينتسب أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي ، وهاشم بن عبد مناف بن قصي .. فهاشم
على ذلك عم أمية ، وإنما قورن به أمية فيما بعد لمضارعتة إياه في الشرف والمكانة ^١ ..
ومما تؤكد أحداث ذلك العصر أن التمايز بين هذين الفريقين ؛ هاشم وعبد شمس ، أو
هاشم وأمّية ، لم يكن موجودا آنذاك ، ولم يظهر إلا في وقت متأخر من عصر الراشدين ، وذلك أيضا
ما ينص عليه أحد مؤرخي الشيعة المتحاملين على بني أمية - ابن أبي الحديد - فيقول : " كان الناس
في ذلك الدهر لا يقولون هاشم وعبد شمس ولا هاشم وأمّية ، بل كانوا لا يزيدون في الجمع على عبد
مناف ، حتى كان أيام تميزهم في أمر علي وعثمان في الشورى ، ثم ما كان في أيام تحزبهم مع علي
ومعاوية " ^٢ ..

^١ كان أمية بن عبد شمس سيدا من سادات قريش تاجرا كثير المال ، وكان له عشرة من الأولاد كلهم ساد وشرف ،
فاستكمل هذه العصبية أسباب السيادة في الجاهلية (الحضري : تاريخ الأمم الإسلامية ٩٦/٢) ، وقد اشتهر من أبنائه
العاص بن أمية وله أبناء نجباء ، وحرب بن أمية وهو الذي رث شرف أبيه ؛ فقد حدث الأخباريون أن قريشا تواقصوا
ذات يوم وحرب هذا مسند ظهره إلى الكعبة ؛ فتبادر إليه غلظة منهم يتادون : أيا عم ؛ أدرك قومك ؛ فقام بجور إزاره ،
حتى أشرف عليهم من بعض الربا ، ولوح بطرف ثوبه إليهم أن تعالوا ، فبادرت الطائفتان إليه بعد أن كان حسي
وطيسهم (ابن خلدون : العبر ٢/٣) ، وكان حرب هذا زعيم قريش في حرب الفجار ؛ وكانت بين قريش ومن معها
من كنانة في ناحية ؛ وقيس عيلان من ناحية أخرى (راجع ابن هشام : السيرة النبوية ١٨٩-١٩١ ، السهيلي :
الروض الأنف ٢/٢٣٥) وقد شهدت هذه الحرب نبوغ قرشي آخر هو عتبة بن ربيعة بن عبد شمس ، وكان إذ ذاك
صغيرا يتيم في حجر حرب بن أمية ؛ ففضن به عن مباشرة القتال ؛ ولكنه خرج في إحدى مراحل الحرب بغير إذن له ؛
وقام بمبادرة لوقف القتال بين الجانبين ؛ وتحمل حرب بن أمية الديات من ماله وروهن لسدادها ولده أبا سفيان بن حرب
(السهيلي : السابق ٢/٢٣٥-٢٣٦ ، وراجع : الحضري : السابق ٩٧/٢) ، إن هذه النبذة الموجزة ضرورية للرد
على مفتريات بعض المؤرخين الذين يحاولون الخط من شأن ومكانة بني أمية في الجاهلية فلنا منهم أن ذلك يرفع من شأن
ومكانة بني هاشم رهط النبي ﷺ ؛ كما فعل المقرئ في كتابه " الراع والتخاصم " ص ٢٢ ، ٢٣ ، وغيرها ..

وكان بنو عبد مناف بن قصي وحدة واحدة في محاولتهم اقتسام السلطة في مكة مع بني عمهم عبد الدار بن قصي ، الذي فضله والده على سائر أبنائه ؛ رغم شرفهم عليه ، وجعل له الحجابة واللواء والسقاية والرفادة ، وكان زعيمهم في هذه المحاولة هو عبد شمس ، أبو أمية ، إذ كلن أسس بني عبد مناف ، وتفرقت قريش على ذلك بين الفريقين ، عبد مناف وعبد الدار، ثم تداعوا إلى الصلح على أن يعطوا بني عبد مناف السقاية والرفادة ، وأن تكون الحجابة واللواء والندوة لبني عبد الدار، فولي الرفادة والسقاية هاشم بن عبد مناف ، وذلك لأن عبد شمس " كان رجلا سفارا، قلما يقيم بمكة ، وكان مقلا ذا ولد ؛ وكان هاشم موسرا " ^١ .. وهكذا كانت السلطة في مكة "عبارة عن مراكز نفوذ تقررها الأهلية الاقتصادية ؛ دون أن يكون لأسرة ما أو زعيم ما السيادة الكاملة على غرار ما كان لقصي زعيم قريش الأول " ^٢ .. كذلك اشترك بنو عبد مناف معا في جهودهم لتنظيم التجارة بين مكة وما حوفا ^٣ .. وهكذا كانوا وحدة واحدة ، تتحرك في تفاهم وتآلف ، فلما ماتوا رثاهم الشعراء معا ، دون تفريق بينهم ، تماما كما كانوا يتحدثونهم معا ^٤ .. وهكذا كانت تقتضي طبيعة الحياة العربية في الجاهلية أن يتناصر أبناء الأب الواحد ، وأن تجتمع كلمتهم ما وجدوا إلى ذلك سبيلا..

من أجل ذلك يحق لنا أن نشك في هذه الروايات التي تفترض وجود عداوة مستحكم بين بني هاشم وبني عبد شمس وأمية قبل الإسلام ... فهم يروون أن هاشما وعبد شمس ولدا ملتصقين ففصل بينهما بالسيف ، فكان بين أبنائهما الدماء لأجل ذلك ^٥ ، وتلك رواية لقيطة لا نعرف لها راويا ، تفوح منها رائحة الأسطورة والخيال ، ويكذبها ما رواه ابن إسحاق من أن عبد شمس كان أسن بني عبد مناف ^٦ ... ، وهم يروون أن منازعات حدثت بين هاشم وأمية بن عبد شمس ، وبين عبد المطلب بن هاشم وحرب بن أمية ^٧ ، وكلتا الروايتين ترويان عن هشام الكلبي وهو رواية شيعي كذاب يرويهاما كليهما عن رجال مجهولين لا يعرف أسماءهم .

إذ إن هذه الروايات كما يبدو واضحا من سندها المعتل وممتها المصطنع كانت صدى لما حدث فيما بعد من صراع بين بني أمية وبني هاشم حاول الرواة أن يجعلوا له سنداً تاريخياً ثابتاً ..

^١ ابن هشام : السيرة النبوية ١/ ١٣٧-١٣٨ ، ١٤١

^٢ د. إبراهيم يعضون : لحجاز والدولة الإسلامية ص ٨٧ ، ومعنى ذلك أنه لم ينفرد بالزعامة على قريش بنو هاشم ؛ ولم يكونوا أبرز زعمائها ، ولم يكن ذلك لغيرهم أيضا ..

^٣ الطبري : السابق ٢/ ٢٥٢

^٤ راجع : ابن هشام : السيرة النبوية ١/ ١٤٤-١٤٨ ، الطبري السابق والصفحة

^٥ الطبري السابق ٢/ ٢٥٢ ، المقرئ : الراع والتخاصم ص ١٨١

^٦ ابن هشام : السيرة النبوية ١/ ١٣٧

^٧ الطبري السابق ٢/ ٢٥٢-٢٥٤ ، المقرئ السابق ص ٢٠ - ٢١

ونظـل حقيـقة العـلاقـة الطـيـبة بـين الفـريـقـين لا شـك فـيـها ، ولـذلـك يـقـول ابـن خـلدون : " كان لبـني عبـسـد مناف فـي قـريش جـل مـن العـدة والشـرف لا يـناهـضـهـم فـيـها أحـد مـن سائر بـطـون قـريش ، وـكان فـخـذاهم بنو أمـية وبنو هاشـم حـيا جـمـيعا يـنـتـمـون لـعـبـد مناف ، وـيـنـتـسـبون إـلـيـه ، وقـريش تـعـرف ذلـك وتـسـأل هـم الرـيـاسة عـلـيـهـم ، إلا أن بنـي أمـية كانوا أكـثـر عـددا مـن بنـي هاشـم وأوفر رجـالا ، والعـزة إنـما هـي بالكـثـرة ، قال الشاعـر: "وإنـما العـزة للـكـاثـر" ^١ .. ولعل ما يـشـير إـلـيـه ابـن خـلدون مـن تـفـوق بنـي أمـية قد اتـضح قبـيل مـبعـث الرـسول ﷺ لما مات عبد المـطـلب بن هاشـم الذـي ورث شـرف أبـيـه وبرز لـجـم أبي سفيان بن حرب ؛ فذلـك ما يـبدو مـن هـذا الوـصف الدقيق لطـيـبة العـلاقـة بـين بنـي أمـية وبنـي هاشـم عـلى لسان معاوية بن أبي سفيان لما سئل : أيكم كان أشرف أنتم أو بنو هاشـم ؟ فأجاب : كنا أكـثـر أشـرافا وكانوا هم أشـرف ، وكان فـيـهـم واحـد لم يـكن فـي بنـي عبد مناف مثـله ؛ هاشـم ، فلما هلك كـتـل أكـثـر عـددا وأكـثـر أشـرافا ، وكان فـيـهـم عبد المـطـلب ولم يـكن فـينا مثـله ، فلما مات صرنا أكـثـر عـددا وأكـثـر أشـرافا ، ولم يـكن فـيـهـم واحـد كواحدنا ، فلم يـكن إلا كـقـرار العـين حـتى قالوا : منا نبي ، فـجاء نبي لم يـسمـع الأولون والآخرون بمثـله ، محمد ﷺ ، فـمـن يدرك هـذه الفـضـيلة وهـذا الشـرف " ؟ ^٢ ..

إن كل ذلـك لا يـنـفي احـتمـال وجـود نوع مـن التـنافـس بـين الجـانـين قبل الإسلام ، فـي ضـوء ما نـعـرف مـن طـيـبة الحـياة العـربـية فـي مـكة قبل الإسلام ، ولـكـنـه تـنافـس يـحدـث بـين الإخوة أحيانا ، وبـين أبـناء الأب الواحد ، غير أنه لم يـتـطـور ليـصـبـح تـربـصا وعداء كما يزعم المتزيدون .. وإن هـذا النوع مـن عـلاقـات التـرابـط وصالـة الرحم الواحدة بـين الفـريـقـين سوف يترك آثاره الواضحة عـلى موقـفـهـما مـن الدـعـوة الإـسـلامـية منذ بزوغ فجرها ؛ كما سـرى فـيـما يـلي ..

^١ المعر ٢/٣

^٢ ابن كثير : البداية والنهاية ١٣٨/٨

المبحث الأول

موقف الأمويين من الإسلام في حياة الرسول ﷺ

جاء الإسلام من أول يوم بشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ليمثل ثورة شاملة على أنماط الحياة الراكدة في المجتمع المكي ؛ في نشاط الفرد وتقاليده القبلية وسيادة المأل وتوازنات القوى ؛ وكان ذلك يعني أول ما يعني إفراد الله تعالى بالحكم والتوجيه وطاعة محمد ﷺ فيما يبلغ عن ربه ..

وكان أخطر ما ترتب على الجهر بالدين الجديد - في حياة مكة السياسية والاجتماعية - هو خلخلة البناء السياسي والاجتماعي الذي كان يعتمد أساسا على وحدة القبيلة القرشية وتماسكها وأعرافها ، وقد ظهر أثر ذلك في ردود أفعال هذه القبائل إزاء الدعوة الإسلامية ، فمن المؤكد أن قبيلة ما من قبائل مكة لم تتخذ موقفا موحدا من الرسول ﷺ ودعوته ، تأييدا له وإيمانا ، أو صدا عنه وكفرا به ، فكان في كل منها بعض المؤمنين وبعض الكافرين ؛ سواء كانوا من بني أمية أو بني هاشم أو غيرهم .

وبصورة عامة فقد آمن كثير من المستضعفين وغير ذوي الهوى ، وكفر كثير من الزعماء والأشراف الذين خلطوا خلطا واضحا بين معنى النبوة ومعنى الملك ، فجعلوها شيئا واحدا ، وظنوا أن الإيمان بالإسلام يعني التسليم بزعامة محمد ﷺ وتنصيبه ملكا عليهم ..

وكما كان المستضعفون وغير ذوي الهوى من المؤمنين من مختلف قبائل مكة ؛ كان هؤلاء الزعماء والسادة الكافرون من مختلف القبائل أيضا ؛ فكان أبرز أعداء الدين الجديد ممثلين لمختلف الاتجاهات القبلية في المجتمع المكي ، فمنهم أبو هب عبد العزى بن عبد المطلب من بني هاشم ، وأبو جهل عمرو بن هشام من بني مخزوم ، وعتبة بن ربيعة من بني عبد شمس ، والنضر بن الحارث من بني عبد الدار ، وزمعة بن الأسود من بني أسد ، والعاص بن وائل من بني سهم ، وأمية بن خلف من بني جمح ، وغيرهم من سادات مكة الذين لم يكونوا يمثلون قبيلة بعينها بقدر ما كانوا يمثلون اتجاهها تهددت مصالحه الضيقة وزعامته ، فانبعثت مخاوفه وأحقاده وحسده تحكم تصرفاته إزاء الدعوة الجديدة .. وكذلك فقد كانت كل عصابات قريش ممثلة في ذلك الوفد الذي ذهب لبني أبا طالب

١ راجع ابن هشام : السيرة النبوية ٣٤٧/١ عن أحد أسباب كفر الوليد بن المغيرة ، وانظر ٣١٠-٣١١ عن سبب كفر أبي جهل ، وانظر العامل نفسه في قصة إسلام أبي سفيان وهو يقول للعباس : لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداة عظيما (السابق ١٥٤-١٦) وكذا في قصة إسلام صفوان بن أمية الجمحي (السابق ٢٧/٤ ، الطبري السابق ٦٣/٣) ، وانظر تفسير قوله تعالى ، وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم (الزخرف آية ٣١ في الطبري جامع البیان ٣٩١/٢٥ ٤١ القرطبي جامع لأحكام القرآن ٨٣-٨٢/١٦

عن تأييده للنبي ﷺ^١، كما كانت ممثلة في المؤتمر الذي عقده ليلة الهجرة ليفكروا فيما يواجهون به هجرة الرسول ﷺ^٢، والذي يتأمل الآيات القرآنية التي نزلت ترد على زعماء الكافرين وتهددهم؛ ويبحث في أسباب نزولها؛ سوف يجد بوضوح أنها كانت ترد على أفراد من قبائل مختلفة^٣.. ومعنى ذلك أنه لم يكن بنو أمية كلهم ضد الإسلام، كما لم يكن معارضوه منهم وحدهم، وإنما شارك في ذلك غيرهم من مختلف قبائل مكة؛ بما فيهم بنو هاشم..

١- مقارنة بين موقف بني هاشم وبني أمية من الدعوة الإسلامية:

إن منطق العصبية القبلية السائد في الجاهلية يقتضي أن يتلقف بنو هاشم الدعوة الجديدة التي تحقق لهم العزة والشرف بالإيمان والنصرة، وأن يقفوا خلف النبي الهاشمي بالتأييد والبذل، وقد وقفوا إلى جواره فعلا في بعض المواقف ولعل أشهرها حصار الكافرين لهم في شعب بني هاشم، ولكنهم في النظرة الشاملة انقسموا عليه بين مؤيد ومعارض ومؤمن وكافر؛ شأنهم في ذلك شأن بني أمية وغيرهم من قبائل مكة..

والمثال المشهور لكفار بني هاشم هو أبو هب عم النبي ﷺ الذي كان أول من جهر بعداوة الإسلام لما جهر الرسول بدعوته^٤، ولم يكنف بالمعارضة الصريحة بل عضدها بالعمل والكيد، فقصده مارس بصور شتى تعذيب الرسول ﷺ وصد الناس عنه^٥؛ وجند لذلك زوجته أم جميل بنت حرب الأموية^٦، وابنيه عتبة وعتيبة اللذين طلقا بنتي النبي ﷺ رقية وأم كلثوم ليشغلا محمدا ببيته^٧، وكان ابنه عتبة يشاركه في إيذاء النبي حتى دعا عليه فنهشه أسد في بعض أسفاره^٨، بل إن أباه هب لم يدخل مع قومه شعب بني هاشم لما حاصرهم قريش فيه^٩، ولما لم يستطع الخروج مع قريش لقتال الرسول يوم بدر استأجر بدلا منه العاص بن هشام بن المغيرة بأربعة آلاف درهم^{١٠}..

^١ ابن هشام: السابق ٢٦٦/١-٢٦٧

^٢ السابق ٧٠/٢

^٣ السابق ٣٤٢/١-٣٥٠

^٤ الطبري: تاريخ الرسل والملوك ٣١٩/٢، سعيد حوى: الرسول ص ٢١

^٥ ابن هشام السيرة النبوية 24/2

^٦ السابق 342/1-343، سورة المسد وتفسيرها عند ابن كثير: التفسير ٤/ ٣٣٤، البغوي: معالم التنزيل ١٥٨٨

^٧ تفسير ابن كثير: السابق والصفحة، الشوكاني: فتح القدير ٥/ ٤٩٨-٥٠٠

^٨ ابن هشام السيرة النبوية 219/2

^٩ البلاذري: أنساب الأشراف 130/1-131

^{١٠} الطبري: السابق 336/2، ابن هشام: السابق 339/1

^{١١} الطبري: السابق 430/2، ابن هشام: السابق 183/2

وقد كان أبو هب في كفره وعناده مثلاً مشهوراً . ولكنه لم يكن الهاشمي الوحيد الذي كفر بالنبي ﷺ وجهد في إيدائه وحربه ، فقد كان في أسرى المشركين يوم بدر من بني هاشم العباس بن عبد المطلب وعقيل بن أبي طالب ونوفل بن الحارث وحليفهم عتبة بن عمرو بن جحدم ، وقد قبل النبي ﷺ فداءهم فيمن اقتدي من أسرى قريش^١ ..

وكان أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ممن شهد قتال يوم بدر مع المشركين ولجأ من القتل والأسر^٢ ، وهو ابن عم النبي ﷺ وأخوه في الرضاعة — أرضعتهما حليلة السعدية أياماً — وكان يألف رسول الله ﷺ وكان له ترباً ، فلما بعث رسول الله ﷺ عاداه عداوة لم يعاها أحد قط ، ولم يدخل الشعب مع بني هاشم — مثلما فعل أبو هب — وهجا رسول الله ﷺ وأصحابه^٣ ؛ وكان من الجاهرين بالظلم له ﷺ ولكل من آمن به قبل الهجرة^٤ ..

وكما حدث ذلك من عمومة النبي ﷺ أو أبناء عمومته حدث من بعض قرابته الآخرين؛ فإن ابن عمته — عاتكة بنت عبد المطلب — عبد الله بن أبي أمية بن المغيرة المخزومي كان من المستهزئين بالنبي ﷺ وفيه نزل قوله تعالى : " وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً .. حتى قوله تعالى " قل سبحان ربي هل كنت إلا بشراً رسولاً " ^٥ .. وقد ذهب فيما بعد أبو سفيان ابن الحارث وعبد الله بن أبي أمية ليسلما — والرسول ﷺ في طريقه إلى فتح مكة — فكلمته فيهما زوجه أم سلمة وقالت : ابن عمك وابن صهرك ، فقال : " لا حاجة لي فيهما ، أما ابن عمي فبهتك عرضي ، وأما ابن عمي وصهري فهو الذي قال لي بمكة ما قال .. ثم رقى ﷺ لهما ؛ وأسلما وحسن إسلامهما " ^٦ ..

إن أعظم النصرة والتأييد لقيهما النبي ﷺ بمكة من عمه أبي طالب الذي تحمل في سبيل ذلك ضغوطاً هائلة من قريش ، ولكنه ظل حتى اللحظات الأخيرة من حياته وفيما لذين آباه ، فمات على ملة الأشياخ من قومه^٧ .. وظل العباس بن عبد المطلب عن النبي الآخر في مكة ؛ واشترك مكرهاً ضده في غزوة بدر وأسر فيها ، ولكنه لم يهاجر إلى مكة ويعلن إسلامه إلا والرسول ﷺ في طريقه لفتح مكة^٨ ..

^١ الطبري : السابق 465/2-466

^٢ السابق 462/2

^٣ الواقدي . المغازي 806/2 وقد رد عليه الهجاء حسان بن ثابت الأنصاري ..

^٤ ابن عبد البر : الدرر . في اختصار المغازي والسير 44

^٥ ابن هشام : السابق 296/1 ، 305 والآيات من سورة الإسراء 90-93

ابن هشام : السابق 12/4 ، وانظر 50/4-51 والطبري : السابق 50/3-51

^٦ ابن هشام : السابق 256/1 ، 20/2 ، ابن القيم : زاد المعاد 46/2 ، الطبري السابق 325/2

^٨ هشام السابق 12/4

نعم قد أسلم في مكة نفر من بني هاشم وبذلوا في سبيل الدعوة الكثير مثل علي بن أبي طالب وحزرة بن عبد المطلب ؛ ولكنهما كانا يشاركان غيرهما من غير بني هاشم في ذلك كأبي بكر وعمر وعثمان ، إذ لم يكن بذمهم لأهم هاشميون بل لأهم مسلمون ، ويظل إيمانهم دليلا على صدق القول باختلاف استجابة الأفراد للدعوة الإسلامية بغض النظر عن انتماءاتهم القبلية ..

من كفار بني أمية وعبد شمس :

وبالنسبة لبني أمية وموقفهم من الإسلام فإن مؤرخينا لا يتحدثون عنهم كبطن مستقل من بطون قريش وإنما يتحدثون عنهم مع غيرهم من بني عبد شمس والد أمية ، فيعدونهم وحدة واحدة^١ . وقد كانوا أبناء أب واحد وتربطهم علاقات النصارى والترابط الاجتماعي ، ولذلك فإنهم عند حديثهم عن عداء بني أمية للرسول ﷺ يذكرون اسمي عتبة وشيبة ابني ربيعة بن عبد شمس ، رغم أنهما ليسا من بني أمية.. ويذكرون معهما أيضا أبا سفيان بن حرب وعقبة بن أبي معيط .. فاما عقبة بن أبي معيط هذا فقد كان من مرقة قريش ولكنه غير معدود في سادقنا وأشرافها^٢ ، وقد روي أنه تفل في وجه رسول الله صلوات الله عليه^٣ ، وأنه رمى عليه ﷺ سلى جزور وهو يصلي^٤ ؛ وأنه خنقه ﷺ بتوب في عنقه حتى دلفعه عنه أبو بكر الصديق^٥ ، ولكنهم يذكرون أيضا أن ذلك كان بتحريض بعض جلسائه ؛ وحية مع بعض المشركين - كما يبدو في الحالات السابقة - مما يدل على أنه لم يكن يصدر عن رأى أصيل ، بل عن خفة وسفاهة ، وقد نال جزاءه لما أمر النبي ﷺ بقتله بعد أسره يوم بدر ، والغريب أنه كان عندها يذكرهما بينهما من رحم^٦ ؛ ومثل هذه النماذج الطائشة لم تنفرد بها بنو أمية أو عبد شمس في مكة آنذاك ..

^١ راجع مثلا ابن هشام السيرة النبوية 70/3 - 71 ، وكذلك قوائم الأسرى والقتلى في الغزوات والحروب ، كما يبدو في موقعة بدر مثلا 263/2 وما بعدها ..

^٢ لم يكن عقبة بن أبي معيط من أشراف قريش الذين ذهبوا إلى أبي طالب ليكنموه في أمر محمد ﷺ (ابن هشام : السيرة النبوية 266/1 - 267) ولم يكن ضمن النفر المعدودين الذين جلسوا في دار الندوة ليبحثوا ماذا يصنعون إزاء هجرة الرسول المزمعة (السابق 70/2 - 71 ، الطبري : السابق 370/2 - 371) ولكنه كان من يعادي الرسول فعلا كما سنرى ، ويذكره ابن عبد البر من المجاهرين بالظلم للرسول ﷺ ومن آمن به ، ولكنه يذكر معه حنظلة ابن أبي سفيان والحكم بن أبي العاص ابن أمية ومعاوية بن العاص بن أمية (الدرر في اختصار المغازي والسير 44 - 45) أما معاوية بن العاص وحنظلة بن أبي سفيان فلا نعلم لهما دورا في ذلك الإيذاء ؛ ولا يذكر ابن إسحاق عنهما شيئا من ذلك .. وأما الحكم فلا ذكر له في مكة وإنما نقم عليه النبي ﷺ أشياء بعد أن أسلم بعد الفتح فنفاه إلى الطائف فيما يقولون ..

^٣ ابن هشام : السابق 347/1

^٤ البخاري حديث رقم 3854 ، ابن حجر فتح الباري 202/7 - 203

^٥ البخاري حديث رقم 3856 ، ابن حجر السابق والصفحتان ، ابن عبد البر الدرر 43

^٦ ابن عبد البر السابق 113 ، ابن هشام السابق 212/2

أما معارضة عتبة بن ربيعة وأبي سفيان بن حرب فتستحق منا وقفة متأنية كي نعرف أسبابها وكوامنها.. فقد عرض عتبة بن ربيعة على زعماء قريش أن ينهض إلى لقاء محمد ﷺ ليحدثه ويعرض عليه أمورا لعله يقبل بعضها فيكف عنهم ، فوافقوه ، فذهب يعرض على النبي ﷺ أن يجعلوه أكثرهم مالا أو يسودوه عليهم أو يجعلوه ملكا إن كان يريد شيئا من ذلك ، أو أن يعالجوه إن كان الذي يأتيه رثيا يراه حتى يشفى ، فلما فرغ من حديثه تلا عليه رسول الله ﷺ صدر سورة فصلت ، حتى انتهى إلى السجدة فسجد ، ثم قال : قد سمعت يا أبا الوليد ، فأنت وذاك ، فرجع عتبة إلى قومه متأثرا بما سمع من القرآن حتى قال بعضهم لبعض : " تخلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به " ، فلما جلس إليهم سألوه : ما وراءك يا أبا الوليد ؟ فقال : ورائي أني قد سمعت قوله ، والله ما سمعت مثله قط ، والله ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة ، أي معشر قريش أطيعوني واجعلوها بي ، وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه ، فوالله ليكون لقوله الذي سمعت منه نبأ عظيم ، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم ، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم ، وعزه عزكم ، وكنتم أسعد الناس به ، فقالوا : سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه ، فقال لهم : هذا رأيي فيه ، فاصنعوا ما بدا لكم^١ ..

ولما هاجر الرسول ﷺ إلى الطائف وصده عنها أهلها وتبعه الصبيان والغلمان يرمونه ويصيحون به لجأ إلى حائط ابني ربيعة عتبة وشيبة ، فلما رآياه على هذه الحال "تحركت له رحمهما ، فدعوا غلاما نصرانيا يقال له عداس ، فقالا له : خذ قطفا من هذا العنب فضعه في هذا الطبق ثم اذهب إلى ذلك الرجل فقل له يأكل منه " ^٢ ..

والذي يعلم جو العداوة المحموم للإسلام في مكة آنذاك حتى اضطر النبي ﷺ إلى الذهاب منها إلى الطائف يضع هذا التصرف من ابني ربيعة موضعه ، ويقدر نوع هذه المعارضة التي مارسها ضده ، حيث كانت رابطة الرحم التي تجمع بين بني عبد مناف تعطفهم عليه ، فتخف نيرة المعارضة أحيانا ويحل محلها التعصب للقرابة مع محمد ﷺ وبخاصة في مجال التنافس مع غير بني عبد مناف ممن بطون قريش؛ كما يبدو في هذه الرواية : دخل رسول الله ﷺ المسجد الحرام والمشركون عند الكعبة ، فلما رآه أبو جهل قال: هذا نبيكم يا بني عبد مناف ، فأنبرى عتبة بن ربيعة يقول : " وما تنكر أن يكون منا نبي أو ملك ؟ فاتخير بذلك رسول الله ﷺ أو سمعه ، فاتاهم فقال : أما أنت يا عتبة بن ربيعة فوالله ما حميت لله ولا لرسوله ، ولكن حميت لأنفك ، وأما أنت يا أبا جهل بن هشام ، فوالله لا يأتي

^١- ابن هشام السابق 292/1 - 293-

ر هشام السابق 292/1 - 293-

عليك غير كبير من الدهر حتى تضعك قليلا وتبكي كثيرا ، وأما أنتم يا معشر الملأ من قريش؛ فوالله لا يأتي عليكم غير كبير من الدهر حتى تدخلوا فيما تنكرون وأنتم كارهون^١.

أما أبو سفيان بن حرب فلا يختلف تفكيره عن تفكير صهره وقريبه عتبة بن ربيعة ، ففسد كانت نفسه تنازعه إلى التصديق برسالة محمد ﷺ والإيمان به ، غير أن الارتباط بالملأ من قريش حلل بينه وبين ذلك، ثم ما لبث بعد وفاة كبار زعماء مكة في بدر أن وجد نفسه في موقف الزعامة القرشية التي يصعب التنازل عنها..

وقد روى ابن عساکر عن معاوية بن أبي سفيان قال : خرج أبو سفيان إلي بادية له مردفا هندا ، و خرجت أسير أمامها — وأنا غلام — علي حمارة لي، إذ سمعنا رسول الله ﷺ ؛ فقال أبو سفيان : انزل يا معاوية حتى يركب محمد ، فزلت عن الحمارة وركبها رسول الله ﷺ فسار أمامنا هنيئة ، ثم التفت إلينا فقال : يا أبا سفيان بن حرب ، يا هندا بنت عتبة ، والله لتموتن ، ثم لتبعن ، ثم ليدخلن الحسن والحسين والمسيء النار، وأنا أقول لكم بحق ، وإنكم لأول من أنذرهم^٢ ، ثم قرأ رسول الله ﷺ : "حم . تنزيل الكتاب من الله العزيز الرحيم" حتى بلغ : " قالنا أتينا طائعين" فقال أبو سفيان : أفرغت يا محمد ؟ قال : نعم ، ونزل رسول الله ﷺ عن الحمارة وركبها ، وأقبلت هند على أبي سفيان فقالت : ألهذا الساحر أنزلت ابني ؟ قال : لا والله ؛ ما هو بساحر ولا كذاب^٣ ..

ولا يمكن أن نتصور أن أبا سفيان كان ممن يؤذون النبي ﷺ فعلا، فقد روى الحافظ ابن حجر عن ثابت البناني أن رسول الله ﷺ إنما قال: (عند فتح مكة) من دخل دار أبي سفيان فهو آمن . وشرفه هذه النقبة العظمى ؛ لأنه "كان إذا أودعي بمكة دخل دار أبي سفيان"^٤ ، مما يعني أنها كانت ملجأ له ﷺ من إيذاء قومه ، ولقد ذكر ذلك رسول الله ﷺ حتى رد الجميل بأحسن منه .. وقد "كان أبو سفيان أول من يمت إلى النبي ﷺ بالودة في القرى ، وأحد المخاطبين في آية الشورى : " قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة في القربى"^٥ . وقد كان لهذه المودة مظاهرها حتى بعد أن هاجر الرسول ﷺ إلى المدينة وظل أبو سفيان مقيما على شركه بمكة قبل إسلامه، فقد روى ابن سعد بإسناد صحيح عن عكرمة أن النبي ﷺ أهدى إلى أبي سفيان بن حرب تمر عجوة، وكتب إليه

^١ الطبري : السابق 348/2

^٢ ربما يعني ذلك أنهم أول من أنذرهم ﷺ في ذلك اليوم، فإن الآيات التالية لهذه العبارة نزلت بعد فترة من بدء الرسالة

..

^٣ روي ذلك عن ابن عساکر الطبراني : سعيد حوى : الرسول ص 20-21

^٤ ابن حجر : الإصابة في تمييز الصحابة القسم الثالث ص 413

^٥ محب الدين الخطيب . هامش المتنقى من منهاج الاعتدال لابن تيمية ص 253 ، والآية رقم 23 من سورة الشورى .

يستهديه أدماء مع عمرو بن أمية الضمري فأهداه إليه ^١ ، وربما كان ذلك بعد أن أصهر النبي ﷺ إلى أبي سفيان وتزوج بابنته أم حبيبة سنة ٧ هـ.

إن ما سبق من سيرة عتبة بن ربيعة زعيم بني عبد شمس ثم أبي سفيان بن حرب رأس بني أمية يدفعنا إلى تقرير حقيقة واضحة ، وهي أن عداؤهما للرسول ﷺ لم يكن عداؤا الطيش والتجبر ، وهو بالتأكيد يختلف عن مثل عداؤ أبي جهل وأبي لهب ، ففي معارضتهما للإسلام ملمح التعقل والهدوء ، و الرغبة في الحفاظ على رابطة القرى وصلات الرحم بين بني عبد مناف ، ولذا فإننا لا نجد وقائع معددة معروفة تدل على إيذاء أي منهما النبي ﷺ أو أخذاً من أصحابه قبل الهجرة ، ولكنهما كانا مضطرين بحكم زعامتهما القبلية إلى مجازاة بقية سادة مكة في موقفهم ، وكان يعز عليهم التخلص بسهولة عن مكانتهم ومكتسباتهم التي سيعيد الإسلام صياغتها وفق مبادئه وقيمه ..

أمويون مسلمون منذ بداية الدعوة الإسلامية :

وإذا جارينا نهج المؤرخين في الحديث عن بني أمية وبني عبد شمس معا ، فإننا نرى منهم جماعة كانوا من السابقين إلى الإسلام ، فمنذ المرحلة السرية للدعوة وقبل الجهر بها كان قد أسلم عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية ، وكان إسلامه على يد أبي بكر الصديق في أيام الإسلام الأولى ^٢ ، وكذلك كان إسلام خالد بن سعيد بن العاص بن أمية الذي يروى أنه كان خامس من أسلم بعد خديجة بنت خويلد وعلي وأبي بكر وزيد بن حارثة ^٣ ، وقد أسلم في هذه المرحلة السرية — التي دامت حوالي ثلاث سنين ^٤ — أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس ^٥ ؛ كما أسلم في مرحلة مبكرة حليفان لبني أمية هما عبد الله بن جحش بن رئاب وأخوه أبو أحمد بن جحش وهما ابنا عمه النبي ﷺ فأماههما أميمة بنت عبد المطلب ^٦ ..

وفي الهجرة الأولى إلى الحبشة شارك نفر من مسلمي بني أمية مثل عثمان بن عفان ومعه زوجته رقية بنت رسول الله ﷺ الذي كان يتحسس أخبارهما ويقول: صحبهما الله ، إن كان عثمان

^١ ابن حجر : السابق 413

^٢ ابن هشام : السابق 260/1 ، الطبري 317/2

^٣ الطبري : السابق 317/2 ، ومن الواضح وجود اختلاف في ترتيب أول من أسلم عند المؤرخين ، انظر المصدر السابق والصفحة .

^٤ الطبري : السابق 318/2

^٥ ابن هشام : السابق 263/1

^٦ ابن هشام : السابق 262/1 ، وحليف القوم منهم ، ولم يستكف أبو سفيان أن يزوج ابنته أم حبيبة من حليفه عبيد الله بن جحش ، كما زوج النبي ﷺ ابنة عمته زينب بنت جحش من مولاة زيد بن حارثة (راجع ابن هشام : السابق

ابن عفان لأول من هاجر إلى الله بعد لوط^١ ، كما هاجر أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة وزوجته سهلة بنت سهيل بن عمرو^٢ ..

ثم كانت الهجرة الثانية إلى الحبشة^٣ ؛ وكان فيها من بني أمية عمرو بن سعيد بن العاص وآمراته الكنانية، وأخوه خالد بن سعيد وزوجته ، وأم حبيبة بنت أبي سفيان بن حرب وزوجها عبيد الله بن جحش حليف بني أمية ، وأخوه عبد الله بن جحش ، وحليف آخر من بني أسد اسمه قيس بن عبد الله وآمراته بركة بنت يسار مولاة أبي سفيان بن حرب ، ومعقيب بن أبي فاطمة الدوسي حليفهم ، وأبو موسى الأشعري حليف آل عتبة بن ربيعة^٤ ..

وهذه القائمة الطويلة من المهاجرين من بني أمية وعبد شمس وحلفائهم بعد خمس سنوات من بدء الدعوة تنفي كل شبهة تحاول أن تجعل من بني أمية أعداء الإسلام ورسوله منذ بعثته .. وبخاصة أنه لا يفوقهم في هذه التضحية غيرهم من بطون قريش من المهاجرين^٥ ..

وقد ساهمت نساء من بني أمية وعبد شمس في صنع مسيرة الإسلام وفي إعطاء الأسوة وضرب المثل في نبل التضحية وعزيز العطاء .. فقد أسلمت رملة بنت شيبه بن ربيعة زوجة عثمان بن عفان وهاجرت معه إلى المدينة ، وثبتت معه على دينه رغم مقتل أبيها وعمها وابنه في بدر مما أهاج عليها غضب هند بنت عتبة فقالت تعيها :

لحى الرحمن صابئة بـوج ومكة أو بأطراف الحجون

تدين لمشر قتلوا أباهـا أقتل أهلك جاءك باليقين ؟^٦

وهاجرت أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط إلى المدينة في الهدنة التي كانت بين النبي والمشركين في الحديبية ، وكانوا صالحوا رسول الله ﷺ على أن من جاءه من قريش رده إليهم، ومن جاءهم من أصحابه لم يردوه، فقدم في طلبها أخوها عمارة والوليد ابنا عقبة ، وطلبا ردها عليهم، فقالت: " يا رسول الله أتردني على المشركين فيستحلوا مني ما حرم الله ؛ ويفتنوني عن ديني ؟ " فانزل الله تعالى : (يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن ، الله أعلم بإيمانهن ، فإن علمتموهن مؤمنات

^١ ابن عساکر : ترجمة عثمان بن عفان من تاريخ دمشق ص 25

^٢ ابن هشام : السابق 315/1

^٣ كانت الهجرة الأولى في السنة الخامسة للدعوة ؛ أما الهجرة الثانية فقد حدثت بعدها بأشهر قلائل (ابن هشام السابق 315/1، الطبري : السابق 329/1)

^٤ راجع هذه القوائم عند ابن هشام : السابق 316/1-317

^٥ حيث وصل عدد المهاجرين من بني عبد شمس خمسة عشر رجلا ؛ ولا تساوهم في هذا العدد قبيلة من قبائل قريش (راجع السابق والصفحات)

^٦ مصعب الزبيري : نسب قريش ص 104-105

فلا ترجعوهن إلى الكفار، لا من حل لهن ولا من يحلون لهن^١، فرفض النبي ﷺ إعادتهما إليهم وزوجها من مولاة زيد بن حارثة^٢ ..

على أن الصورة الأزهى والنموذج الأرقى في ذلك المجال هو إسلام أم حبيبة رملة بنت أبي سفيان بن حرب؛ فقد أسلمت مبكراً مع زوجها عبيد الله بن جحش وهاجرا إلى الحبشة ولكنه تنصر هناك وتركها، بل أخذ يغري المسلمين بالكفر، غير أن زوجته الأموية ظلت على وفائها للإسلام، فاستعلت على واقع عصيب، وتركت الزوج الكافر كما تركت أباه الكافر آنذاك بمكة من قبل، وظلت على ذلك حتى أرسل النبي ﷺ يحط بها سنة ٧ هـ^٣، وتنقل إلى المدينة بمجوار الرسول ﷺ حتى إذا جاءها أبو سفيان أبوها ليطلب تجديد الهدنة مع رسول الله ﷺ التي سبق إبرامها في الحديبية؛ دخل على ابنته أم حبيبة، وذهب ليجلس على فراشها فطوته عنه، فقال يا بنية؛ ما أدري أرغبت بي عن هذا الفراش؛ أم رغبت به عني؟ فقالت: بل هو فراش رسول الله ﷺ وأناست رجل مشرك نجس، فقال: والله لقد أصابك يا بنية بعدى شر^٤ ..

٢- الأمويون في موقعة بدر:

لم يكن الأمويون سبياً في وقوع القتال يوم بدر، ولم يكونوا دعاة إليه، بل حاولوا منعه ما استطاعوا، فلما لم يمكنهم ذلك، وفرض عليهم القتال، دفعتهم حيثهم إلى التضحية فيه بأبرز رجالهم عندهم وأعزهم عليهم، فلقد لقي مصرعه يومذاك عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة والوليد بن عتبة من بني عبد شمس، بينما قتل من بني أمية حنظلة بن أبي سفيان وعبيدة بن سعيد بن العاص وأخوه العاص ابن سعيد، ثم أسر وقتل أيضاً عقبة بن أبي معيط ..

وتبدأ وقائع غزوة بدر لما سمع رسول الله ﷺ بأبي سفيان بن حرب مقبلاً من الشام في غير لقريش فيها أموال وتجارة لهم، فندب أصحابه للقائهم، ولما أحس بذلك أبو سفيان أرسل يستنجد بقريش غير أنه نجح في أن ينجو بالتجارة عندما اتخذ طريقاً آخر على ساحل البحر، ولكن قريشا كانت قد خرجت فأرسل إليهم أبو سفيان: إنكم إنما خرجتم لتمنعوا غيركم ورجالكم وأموالكم، فقد نجهاها

^١ سورة الممتحنة آية (١٢) راجع تفسيرها عند الطبري: جامع البيان ٢٨/ ٤١-٤٢، القرطبي: الجامع لأحكام القرآن ١٨/ ٦١-٦٢

^٢ الزيري: السابق ١٤٥، ابن هشام: السابق ٢٢٢/٣-٢٢٣، ابن عبد البر: الدرر ١٩٥-١٩٦

^٣ ابن سعد: الطبقات الكبرى ٧٠/٨، ابن هشام: السابق ٢٣٠/١، ٢٥١/٣، ٢١٩/٤

^٤ ابن سعد: الطبقات الكبرى ٧٠/٨، ابن هشام ٩/٤، وكما صاهر النبي أبا سفيان؛ فقد زوج ابنته زينب من أبي العاص بن الربيع العيشمي فكان لها محبا، وكانت له كذلك ولهما خير طويل راجعه في ابن هشام: السلبق ٢١٩/٢

الله ، فارجعوا ، فأبى ذلك أبو جهل تكبرا واعتداء^١ ، فلما علم بذلك أبو سفيان قال : " واقوماه . هذا عمل عمرو بن هشام (أي أبي جهل) ، كره أن يرجع لأنه قد ترأس على الناس ، وبغى ، والبغى منقصة وشؤم ، إن أصاب محمد النفيّر ذلنا إلى أن يدخل مكة^٢ ..

وكان قد خرج مع قريش عتبة بن ربيعة وأخوه شيبة ولكنهما كانا "متناقلين عن الخروج حتى أنبهما أبو جهل فخرجا"^٣ ، ولما نظر النبي ﷺ إلى القوم وفيهم عتبة على جمل له أحر قال: "إن يكن عند أحد من القوم خير فعند صاحب الجمل الآخر، إن يطيعوه يرشدوا"^٤ ، وقد صدق حدس النبي ﷺ حيث وقف عتبة يحاول إنشاء قومه عن القتال وإرجاعهم إلى مكة ؛ فقال : يا معشر قريش إنكم والله ما تصنعون بأن تلقوا محمدا وأصحابه شيئا ؛ والله لئن أصبتموه لا يزال الرجل ينظّر في وجه رجل يكره النظر إليه؛ قتل ابن عمه أو ابن خاله أو رجلا من عشيرته ؛ فارجعوا واخلوا بين محمد وبين سائر العرب ، فإن أصابوه فذلك الذي أردتم وإن كان غير ذلك ألفاكم ولم تعرضوا منه ما تريدون"^٥ ، غير أن محاولات عتبة ذهبت أدراج الرياح أمام إصرار أبي جهل الذي قال يستفزه: "انتفخ والله سحره"^٦ . فلما سمع عتبة بذلك - وأهاجه أبو جهل - التمس بيضة يدخلها في رأسه ليقاتل ، فما وجد في الجيش بيضة تسعه من عظم هامته ، فلما رأى ذلك اعتجر بيرد له ، ثم خرج بين أخيه شيبة وابنه الوليد بن عتبة يدعو للمبارزة ، فقتلهم المسلمون^٧ ..

وهذا كان دوره في بدر ... فقد خرج متناقلا بغير عدة ، وحاول إنشاء قومه عن القتال مد استطاع ، فلم يقلح ، بل أهاجوه وجنبوه ، حتى خرج يدعو للمبارزة وليس على رأسه ما يحميه غير برد من نسيج.. لقد أذهل ذلك التصرف حكيما قرشيا آخر هو حكيم بن خزام الذي صرخ فيه : يا أبا الوليد ، مهلا مهلا تنهى عن شيء وتكون أوله ؟^٨ !

وقد كان ابنه أبو حذيفة ضمن صفوف المسلمين ، فهو من السابقين إلى الإسلام ، ولما طلب أبوه من ييارزه قام إليه ابنه أبو حذيفة ، فأجلسه النبي ﷺ فلما قام إليه من قتله من بني هاشم

^١ ابن هشام : السابق 191/2 ، الطبري : تاريخ لرسول والملوك 438/2

^٢ الراقيدي:المغازي 43/1

^٣ البلاذري : أنساب الأشراف 152/1

^٤ ابن هشام : السابق 193/2 ، الراقيدي السابق 59/1 ، 60 ، الطبري : السابق 411/2 ، الأصفهاني:الأغاني 189/4

^٥ ابن هشام : السابق 195/2 ، الطبري : السابق 442/2 ، 444

^٦ سحره: رثته ، ويقال ذلك للجان (لسان العرب مادة س ح ر ، القاموس المحيط فصل السين باب الحاء)

^٧ كان قد قام إليه جماعة من الأنصار ، فرفض طالبا أن يبرز إليهم بعض أكفأهم من قومهم فقتلهم حمزة وعلي وعبيدة

ابن الحارث . راجع ابن هشام : السابق 196/2 - 197 ، الطبري : السابق 445/2 ، الراقيدي : المغازي 68/1 - 69

^٨ الراقيدي:المغازي 67/1

اعانهم على ضربه ^١ ، وكان النبي ﷺ — كما مضى — يرجو منه الخير ، ولما انتهت المعركة أمر الرسول ﷺ أن يلقي المشركون في القليب ، ولما جاء دور عتبة بن ربيعة نظر الرسول إلى وجه ابنه أبي حذيفة فإذا هو كتيب قد تغير لونه ، فقال: يا أبا حذيفة ؛ لعلك قد دخلك من شأن أبيك شيء ، فقال: لا والله يا رسول الله ، ما شككت في أبي ولا في مصرعه ولكني كنت أعرف من أبي رأيا وحلمة وفضلا ، فكنت أرجو أن يهديه ذلك إلى الإسلام ، فلما رأيت ما أصابه وذكرت ما مات عليه من الكفر بعد الذي كنت أرجو له أحزني ذلك ، فدعا له النبي بخير ؛ وقال له خيرا ^٢ ..

بنو سعيد بن العاص :

وقد قتل يوم بدر أيضا من مشركي بني أمية عبيدة بن سعيد بن العاص وأخوه العاص بن سعيد ، وقد روى أن سعيد بن العاص بن سعيد — الذي قتل أبوه كافرا ببدر — مر بعمر بن الخطاب — وعمر يومذاك أمير المؤمنين — فقال له عمر : " إني والله ما قتلت أباك يوم بدر ، وما بي أن اعتذر إليك من قتل مشرك ، ولقد رأيته يبحث التراب كأنه ثور ، فصددت عنه فصمد له علي فقتله ، ولكنني قتلت العاص بن هشام — وكان خال عمر — فقال له سعيد — وهو يومئذ حديث السن — لو قتلته لعلمت أنك على حق وهو على باطل ، فجعل عمر يتعجب له ويلوي يده ويقول: أحلام قريش .. أحلام قريش " ^٣ .

ولما قتل هذان الأمويان كان أخوهما الآخران خالد بن سعيد وعمر بن سعيد من السابقين إلى الإسلام والمهاجرين إلى الحبشة ، ثم أسلم من هذه الأسرة الأموية أيضا عبد الله السذي استشهد يوم مؤتة ، وسعيد بن العاص ؛ وقتل يوم الطائف شهيدا ، وأبان بن سعيد واستشهد يوم أجنادين ، ولما عاد خالد وسعيد إلى المدينة بعد خير سنة 7 هـ استشهدا الواحد تلو الآخر ، فقتل خالد يوم مرج الصفر ، وقتل سعيد في أجنادين مع أخيه أبان ^٤ ..

وينبغي أن نذكر في آخر المطاف بأن موقعة بدر لم تكن حربا أموية ضد الإسلام ، رغم مقتل بعض زعمائهم فيها ، فقد شهدها من مسلمي بني أمية في صفوف النبي ﷺ أكثر من شهدها من غيرهم من قبائل مكة ^٥ ، ولم يكن مشركو أمية وعبد شمس أكثر الناس حماسة في القتال ضد النبي ﷺ

^١ السابق 70/1

^٢ ابن هشام : السابق 209/2 ، الطبري : السابق 457/2 ، الواقدي : المغازي 111/1 - 112

^٣ الزبير : لسب قريش 176 الواقدي السابق 92/1

^٤ الزبير : السابق ص 174

^٥ شهد معركة بدر من مسلمي بني أمية وعبد شمس وحلفائهم ستة عشر رجلا (ابن هشام : السابق 241/2 - 242) ، بينما شهدها من بني هاشم وحلفائهم اثنا عشر رجلا (السابق 2/241) وأكبر عدد يلي بني أمية وعبد شمس هو عدد من حضر المعركة من بني عدى رهط عمر بن الخطاب فكانوا أربعة عشر رجلا (السابق 245/٢ - 246)

ولا أكثر الناس تضحية فيه ، فقد قدم بنو مخزوم — رهط أبي جهل — أكثر مما قدم بنو أمية من القتلى والأسرى آنذاك ^١ ..

٣- دور أبي سفيان وبني أمية بعد بدر:

لقد ترتب على غزوة بدر نتائج كبرى لعل أخطرها في المعسكر المكسي كان اختفاء الزعامات التقليدية لمكة أمثال عتبة بن ربيعة وأبي جهل بن هشام وأميرة بن خلف والنضر بن الحلوث. وزمعة بن الأسود وغيرهم ^٢ ، وكان ذهاب هذه الزعامات ضروريا لتهب رياح التغيير على ذلك المجتمع القبلي الجامد ، وظهر جيل جديد من القادة مثل عكرمة بن أبي جهل وصفوان بن أمية وخالد بن الوليد وعمرو بن العاص.. وهم أكثر شبابا وأقدر على التطور والتغيير ^٣ .. على أن الشخصية البارزة والمؤهلة للقيادة من الحرس القديم التي نجت من القتل يوم بدر كانت شخصية أبي سفيان بن حرب الذي سيقود الصراع ضد الإسلام منذ الآن وحتى فتح مكة.

ولم يكن أبو سفيان زعيما من نمط أبي جهل بن هشام الذي كان يقطر حقدا على شخص الرسول الكريم ﷺ إلى درجة يستحيل معها أن يفكر في الدين الجديد ، كما كان يتمتع بقدرة هائلة على تصعيد المعركة ضد الإسلام وتحويل مواقف اللين والموادعة إلى يؤر تفجر بالمرارة والمواجهة ، كان أبو سفيان غطا مختلفا عن ذلك كل الاختلاف ، كان تاجرا مفتحا على الآخرين ، يتصف بالقدرة على الهدوء وضبط النفس ، وكان قبل كل ذلك محتفظا بشيء من العلاقات الطيبة مع الرسول ﷺ حتى بعد أن هاجر النبي إلى مكة كما سبق ..

ورغم أجواء المرارة والحقد والرغبة في الانتقام التي سادت مكة بعد موقعة بدر نلمس موقفا طيبا من أبي سفيان وزوجته هند مع زينب بنت رسول الله ﷺ لما أرادت الهجرة إلى أبيها، فقد عرضا عليها المساعدة وعملا على سفرها في هدوء رغم المشاعر المتأججة بالعداء ^٤ ..

^١ قتل من بني أمية وعبد شمس وحلفائهم يوم بدر اثنا عشر رجلا فيما قال ابن إسحاق (السابق 263/2-264) وزاد ابن هشام اثنين من حلفائهم، فهم عنده أربعة عشر رجلا (السابق 269/2) بينما قتل من بني مخزوم — رهط أبي جهل سبعة عشر رجلا (السابق 266/2-267) فيما يروي ابن إسحاق، وزاد ابن هشام عليهم سبعة فصاروا أربعة وعشرين رجلا (السابق 269/2) وكان عدد الأسرى من بني عبد شمس وأميرة سبعة نفر (السابق 270/2) بينما عدد الأسرى من بني مخزوم تسعة نفر (السابق 270/2-71) وزاد ابن هشام لبني أمية من الأسرى رجلين ولبنى مخزوم رجلا واحدا (السابق 272/2-273) ..

^٢ ابن عبد البر الدرر 110-111

^٣ قال أحد مشركي مكة في ذلك :

ألا قد ساد بعدهم رجال
ولولا يوم بدر لم يسودوا

(ابن هشام: السابق 215/2-216)

^٤ ابن هشام : السابق 220/2-222 ، الطبري : السابق 468/2-470

٤- الأمويون في أحد :

لقد تسببت غزوة أحد في إثارة قدر كبير من الكراهية ضد بني أمية في المصادر والكتابات التاريخية الإسلامية بوجه عام.. وذلك يرجع لما تسببت عنه هذه المعركة من نتائج أبرزها هزيمة المسلمين وإصابة النبي ﷺ وما حدث من تمثيل بأجساد بعض الشهداء وعلى رأسهم حمزة بن عبد المطلب عم النبي ﷺ ، وما يذكر من قيادة أبي سفيان لهذه المعركة ضد المسلمين ، وتحريض زوجته هند بنت عتبة لجيش المشركين وتمثيلها بجسد حمزة ﷺ ..

والحقيقة أن دور هند في هذه المعركة لم يكن أخطر أدوار النساء الموثورات ، بل إن دورها لا يوازي دور امرأة أخرى هي عمرة بنت علقمة الحارثية التي تلقفت لواء المشركين لما سقط على الأرض وما أحد من القوم يجرؤ على أن يدنو منه ، فرفعت حتى لاث به الجند واستحقت مديح حسان ابن ثابت من باب السخرية برجال مكة الجبناء^١ .. وقد قاتلت نساء أخريات بالفعل كما يقاتل الرجال^٢ ، ولم تكن هند في هذه المرة ، ولكن دورها كان بارزا لأنها زوجة القائد الأموي ولأنها حرصت على قتل حمزة^٣ ؛ حتى إذا قتل مثلث به^٤ ، وكانت في ذلك تشارك غيرها من النساء الشكالات^٥ ..

وينسب بعض الرواة إلى أبي سفيان أنه قد ساهم بنصيب في التمثيل بحمزة ﷺ ؛ فقد مر عليه الحليس بن زبآن سيد الأحابيش وهو يضرب في شدة حمزة بزج رمحه ويقول : ذق عقق^٦ ، فقال الحليس : يا بني كنانة هذا سيد قریش يصنع بآبن عمه ما ترون لحما ، فقال أبو سفيان : اكتمها عني فإنما كانت زلة^٧ ...

وهذه الرواية يذكرها ابن إسحاق مرسله بغير راو ، وإن صحت فقد اعتذر الرجل عن فعلته ، وهو كافر؛ والمنكر عليه كان كافرا ، مما يؤكد أن ذلك لم يكن طابع القوم ولا سمة العداوة فيهم ، وأنه كان عارا يستكرونه ؛ ويسألون بعضهم كتمانهم إن حدث منهم ..

^١ ابن هشام : السابق 19/3 - 20

^٢ السابق 12/3

^٣ السابق 5/3 ، الطبري : السابق 502/2

^٤ ابن هشام : السابق 31/3 ، الطبري : السابق 524/2 - 525

^٥ الواقدي : المغازي 274/1

^٦ عقق: معدول عن عاق للمبالغة ، كغدر من غادر ..

^٧ ابن هشام : السابق 33/3 ، الطبري : السابق 227/2

على أن ابن إسحاق قد ذكر أيضا روايتين أخريين عن أبي سفيان يبرأ فيهما من التمثيل بالقتلى .. الأولى في حوار بين أبي سفيان وعمر بن الخطاب بعد نهاية المعركة ، قال فيه أبو سفيان: يوم بيوم بدر، والحرب سجل، أما إنكم ستجدون في القوم مثلاً، لم أمر بها ولم تسؤى^١ ..
والثانية أنه قال في جوابه: إنه قد كان في قتلاكم مثل ، والله ما رضيت ولا سخطت، ولا هُبت ولا أمرت^٢ .. وذلك يرجح أن ذلك العمل الشنيع الذي ينأى الطبيعة السوية كان من عمل نساء ذهبت بهن العاطفة بعيداً ..

٥- الأمويون بعد أحد وحتى الفتح :

وبعيداً عن أجواء المعارك الساخنة التي تخفي عادة مشاعر كثيرة لصالح شعور واحد متسلط في ذلك الوقت هو حب البقاء والرغبة في السلامة والظفر؛ فإن الحوادث في فترات السلم تعطينا مزيداً من الإشارات الموحية بحقيقة معارضة أبي سفيان للإسلام وكفره به ، وتلمح إلى إعجاب خفي يداخله بهذا النمط الجديد من البشر الذي يصوغه الإسلام.

فإنه لما أسرت بعض قبائل العرب نفراً من أصحاب النبي ﷺ وباعوهم لأهل مكة برجل لهم كان أسيراً بها، اجتمع نفر من قريش ليشهدوا قتل أحد هؤلاء الصحابة واسمه زيد بن الدثنة ، فقال له أبو سفيان حين قدم ليقول : أنشدك الله يا زيد أتحب أن محمداً عندنا الآن في مكانك نضوب عنقه وأنت في أهلِكَ ؟ فقال : والله ما أحب أن محمداً الآن في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه ، وأنى جالس في أهلي ، فقال أبو سفيان: ما رأيت في الناس أحداً يحب أحداً كحب أصحاب محمد محمداً^٣ ، كما أنه شهد قتل خبيب بن عدي — رفيق زيد بن الدثنة — وكان أبو سفيان يصطحب معه ابنه معاوية ؛ فلما رفعوا خبيبا على خشبة الصلب قال : اللهم أحصهم عدداً ، واقتلهم بدداً ، ولا تغادر منهم أحداً ، ثم قتلوه .. فكان معاوية يقول : حضرته يومئذ فيمن حضره مع أبي سفيان ، ولقد رأيته يلفيني إلى الأرض فرقا من دعوة خبيب ، وكانوا يقولون: إن الرجل إذا دعي عليه فاضطجع جنبه زالت عنه^٤ ..

وبعض الأعوام كان بعض زعماء مكة ممن حول أبي سفيان يسلمون مثل عمرو بن العاص وخالد بن الوليد وغيرهما .. فكان ذلك مما يهيج النفوس الباقية إلى التفكير في ذلك الدين الجديد ولما خرج أبو سفيان بعد صلح الحديبية في تجارة إلى بلاد الشام استدعاه هرقل — ومن معه من قريش

^١ الطبري : السابق 526/2-527

^٢ الطبري : السابق 527/2

^٣ ابن هشام : السابق 10/3 ، الطبري : السابق 542/2 ، الواقدي: المغازي 362/1

^٤ ابن هشام : السابق 101/3 ، الواقدي 359/1

— ليسأله عن النبي الذي وصلته أخباره ، فأجابه أبو سفيان ، وراعه أن يقول هرقل: " فلئن كنت صدقتني عنه ليغلبن على ما تحت قدمي هاتين ، ولوددت أنى عنده فأغسل قدميه " ، فقام أبو سفيان من عنده وهو يحيط كفا بأخرى ويقول : " أي عباد الله؛ لقد أمر أمر ابن أبي كبشة ؛ أصبح ملوك بنى الأصفر يهابونه في سلطانهم بالشام ^١ ..

وبعد أشهر قليلة سنة ٧ هـ تزوج النبي رملة — أم حبيبة — بنت أبي سفيان "وكان ممن تقاليد العرب الاحترام للمصاهرة ؛ فقد كان الصهر عندهم بابا من أبواب التقريب بين البطون المختلفة ، وكانوا يرون مناواة ومحاربة الأصهار سبة وعارا على أنفسهم .. وكذلك (فإنه) لم يواجه أبو سفيان رسول الله ﷺ بأي محاربة بعد زواجه بابنته أم حبيبة " ^٢ ..

ولكنه لما ذهب إليها يطلب تجديد مدة الهدنة بعد عدوان قريش على حلفاء الرسول من خزاعة طوت أم حبيبة عنه فراشها لأنه امرؤ نجس وهذا فراش رسول الله ﷺ — كما مضى — فنزل كل من الرجل وأصبح أقرب ما يكون إلى الدخول في ذلك الدين..

فلما أعد الرسول جيوشه للفتح وتاهب للمسير نحو مكة لقيه عمه العباس مسلما ، وفي بعض الطريق كان أبو سفيان يتحسس الأخبار فراعه ذلك الجيش العظيم وقيه العباس ^٣ ، فاصطحبه إلى الرسول ليعلن إسلامه.

٦- إسلام أبي سفيان:

أشفق العباس — الذي أسلم منذ قليل — من أن يدخل المسلمون مكة عنوة فيذل أهلها، فما إن وجد أبا سفيان يتحسس الأخبار خارج مكة حتى أردفه خلفه على بغلة رسول الله ﷺ ومضى به إليه يستأمنه، وقد حماه العباس من غضب عمر بن الخطاب الذي رآه فأراد قتله ، وراود عن ذلك رسول الله ﷺ ، فقال العباس يسكته : " مهلا يا عمر ؛ فوالله أن لو كان رجلا من بني عدي بن كعب ما قلت هذا ، ولكنك عرفت أنه من رجال بني عبد مناف " ، فكان تذكيره بهذه الرحمة القريبة من رسول الله ﷺ كافيا لإسكاته.. وقد عرض الرسول ﷺ عليه الإسلام فقال : ويحك يا أبا سفيان ألم يأن لك أن تعلم أنه لا إله إلا الله ؟ فقال أبو سفيان : بأبي أنت وأمي!! ما أحلمك وأكرمك وأوصلك ، والله لقد ظننت أن لو كان مع الله إله غيره لقد أغنى عني شيئا بعد ، قال : ويحك يا أبا سفيان ، ألم يأن لك أن تعلم أنى رسول الله ؟ فقال أبو سفيان: بأبي أنت وأمي ، ما أحلمك وأجملك وأوصلك ، أما هذه والله فإن في النفس منها حتى الآن شيئا ، فقال له العباس: ويحك أسلم واشهد أن

^١ الطبري : السابق 646/2 - 648

^٢ المباركفوري : الرحيق المختوم ص 535 بتصرف

^٣ وكان العباس قد أسلم منذ قليل والرسول متجها في قواته لفتح مكة.

لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله قبل أن تضرب عنقك ، فشهد شهادة الحق ، فأسلم ، فقال العباس : يا رسول الله إن أبا سفيان رجل يحب الفخر ، فاجعل له شيئاً ، قال: نعم، من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن.. ثم أمر الرسول العباس أن يقف بأبي سفيان في مكان يرى منه جنود الله سائرة ، ثم انطلق أبو سفيان ليحذر قومه ويدعوهم للموادة والمسالمة^١ ..

ورغم إسلام أبي سفيان فإن المقاومة المكية للإسلام لم تنته تماماً ، وإن كانت قد ضعفت ضعفاً بليغاً ، فقد وقعت بعض المناوشات لجيوش الفتح ، كما حاول بعض الزعماء البارزين الهرب مثل عكرمة بن أبي جهل وصفوان بن أمية ، ولكنهما أومنا فعاداً ثم أسلما بعد ذلك^٢ ..

شبهات حول حقيقة إيمان أبي سفيان :

كان دخول أبي سفيان الإسلام يعنى أن يتحول من زعيم عربي مرموق قاد الصراع ضد الإسلام سنوات إلى أحد أفراد هذه الأمة الإسلامية التي تدين بالزعامة والولاء لحمد بن عبد الله ﷺ ، وقد رأينا فيما مضى أن ذلك الشعور بالوجهة السياسية والاجتماعية وذلك الخوف من ذهابها والذوبان ضمن جموع المؤمنين كان من أهم الأسباب التي حالت بين أبي سفيان — وزعماء مكين آخرين — وبين الإسلام رغم إيمانهم بصدق النبي ﷺ وسلامة دعوته^٣ ، وقد ظل تأثير ذلك الشعور مسيطراً على أبي سفيان حتى لحظة إسلامه حيث أعلن أنه رغم إيمانه بوحداية الله فإنه لم يزل في نفسه شيء من التصديق بنبو محمد ﷺ ، غير أنه ما لبث أن تخلى عن هذه المكابرة لما ذكره العباس بضعف موقفه وأن حياته ذاتها مهددة ، ناهيك عن رغبته الصادقة — تماماً مثل العباس — في عسدم تعريض مكة وقومهما للذلة الهزيمة ودخولها عنوة.. ولا سبيل إلى الطعن في ذلك الإسلام إذ "إن المطلوب في الدنيا من المشرك أو الكافر ليس هو استقرار الإيمان كاملاً في فؤاده في اللحظة التي يواد منه فيها الدخول في الإسلام، وإنما المطلوب منه أن يستسلم كيانه ولسانه لدين الله تعالى، فيخضع لتوحيد الله تعالى ويدعن لنبوته رسوله وكل ما جاء به من عند الله تبارك وتعالى ، أما الإيمان فيربو بعد ذلك في قلبه مع استمرار تمسكه بالإسلام وخضوعه له ، (قالت الأعراب آمنا، قل لم تؤمنوا ولكن

^١ انظر ابن هشام : السابق 13/4 - 16 ، الطبري : السابق 52/3 - 54 ، ابن عبد البر: الدرر 215 - 217

الوراقدي : المغازي 816/2 - 818 ، 822 - 823

^٢ ابن هشام : السابق 20/4 - 21 ، 27 ، الطبري : السابق 63/3

^٣ راجع قوله تعالى: (فإنهم لا يكذبونك ، ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون) سورة الأنعام آية ٣٣ ، وراجع الشركاني : فتح القدير ١٠٦/٢

قولوا أسلمنا، ولما يدخل الإيمان في قلوبكم^١، ولذلك أمر الرسول ﷺ العباس أن يستعرض الجيش أمام عيني أبي سفيان حتى تكون هذه العبرة أول مثبت لدينه ومؤكد لعقيدته^٢ ..

إن هذا المدخل ضروري لفهم ما ورد لدى المؤرخين من روايات وشبهات — إن صحت — تشكك في صدق إسلام أبي سفيان.. مثل ما رواه ابن سعد من أن أبا سفيان لما رأى الناس يطئون عقب رسول الله ﷺ حسده، وقال في نفسه: لو عاودت الجمع لهذا الرجل، فضرب رسول الله ﷺ في صدره ثم قال: إذن يحزبك الله، فقال أبو سفيان: استغفر الله وأتوب إليه، والله ما تفوهت به، ما هن إلا شيء حدثت به نفسي^٣، وروى عن طريق عبد الله بن أبي بكر بن حزم قال: قال أبو سفيان في نفسه: ما أدرى بما يغلبنا محمد، فضرب (رسول الله) في ظهره وقال: بالله تغلبك، فقال: أشهد أنك رسول الله^٤ ..

ولقد كان ذلك في الفترة التي أعقبت إسلامه — فيما يبدو — والمسلمون يطئون عقب نبيهم ﷺ في طريقهم إلى فتح مكة^٥، وقت أن كانت هذه العوامل النفسية تضطرم في داخله ولا تجد ما يطمئنها، فكان في حاجة إلى مثل هذه الآيات من معرفة الرسول لما يدور في خاطره قبل أن ينطق به لسانه، أو يطلع عليه أحد، لتسكن نفسه، وتحس براحة اليقين^٦ ..

ولقد أثرت هذه المعالجة النبوية سريعا فقد روى ابن هشام أن رسول الله ﷺ دخل الكعبة عام الفتح ومعه بلال، فأمره أن يؤذن، وأبو سفيان بن حرب وعتاب بن أسيد والحارث بن هشام جلوس بفناء الكعبة، فقال عتاب بن أسيد: لقد أكرم الله أسيدا ألا يكون سمع هذا؛ فيسمع منه ما يغيظ، فقال الحارث: أما والله لو أعلم أنه محق لاتبعته، فقال أبو سفيان: لا أقول شيئا، لو تكلمت لأخبرت عنى هذه الحصى، فخرج عليهم النبي ﷺ فقال: قد علمت الذي قلتم، ثم ذكر ذلك لهم، فقال الحارث وعتاب: نشهد أنك رسول الله ﷺ والله ما اطلع على هذا أحد كان معنا فنقول: أخبرك^٧ ..

^١ سورة الحجرات آية (14)

^٢ د. البوطي: فقه السيرة 286—287، وراجع أيضا قصة إسلام ثقيف حيث طلبوا من الرسول — وقد جاءوا ليسلموا — أن يدع لهم اللات لا يهدمها ثلاث سنين؛ كما سألوه أن يعفيهم من الصلاة، ولكن النبي ﷺ رفض هذا وذاك، ورغم هذا فقد حسن إسلامهم فيما بعد، وثبتوا عليه حين ارتدت العرب أيام أبي بكر (السابق 242/3)

^٣ ابن حجر: الإصابة في تمييز الصحابة القسم الثالث 413

^٤ السابق 414/3

^٥ راجع: محب الدين الخطيب: هامش المنتقى ص 255

^٦ السابق والصفحة

^٧ ابن هشام السابق 23/4، الواقدي المغازي 846/2 ولكنه يذكر بدل عتاب أخاه خالد بن أسيد

موقف أبي سفيان يوم حنين :

على أن بعض المؤرخين يستمر في التشكيك في إسلام أبي سفيان فيروون أنه لما هزم الناس عن رسول الله يوم حنين — وكان معه رجال من جفاة أهل مكة — تكلم رجال منهم بما في أنفسهم من الضغن ، فقال أبو سفيان بن حرب : لانتهي هزيمتهم دون البحر ، وإن الأزام لمعه في كنانته ، وصرخ بجيلة — أو كلدة — بن الحنبل ، وهو مع أخيه لأمه صفوان بن أمية فقال: " ألا بطل السحر اليوم ، فقال له صفوان: اسكت ، فض الله فاك ؛ فوالله لأن يربني رجل من قريش أحب إلى من أن يربني رجل من هوازن.. وكان صفوان يومئذ مشركا في المدة التي جعلها له رسول الله ﷺ ^١ ..

وإن دلائل عديدة تدفعنا إلى الشك في هذه الرواية :

فلم يكن يستطيع رجل أعلن إسلامه مثل أبي سفيان أن يستقسم بالأزلام في جيش من المسلمين تفور نفوسهم بالعقيدة والإيمان ، حتى يروه يفعل ذلك ويرووا ذلك عنه ، ورجل في ذكاء أبي سفيان وشرفه في قومه لا يعرض نفسه لموضع من مواضع التهم مثل ذلك الموضع ^٢ ..

ولم يكن أبو سفيان أقل إخلاصا لقبيلته وذوي رحمه من صفوان بن أمية الذي قلل : " لأن يربني رجل من قريش أحب إلي من أن يربني رجل من هوازن " ، ولقد كان أبو سفيان مهتدا حين هزيمة المسلمين — إن لحا من القتل أو الأسر — بأن يعيش ذليلا بعد أن كان سيدا كريما ، يعيش في حماية صهره ﷺ ، أما احتمال أن تراعي ثقيف — في حال نصرها — مكانته فإن تخوف صفوان من الذل تحت سيادة ثقيف يمنع افتراض ذلك ، وكان العربي دائما يأنف من سيطرة قبيلة أخرى غير قبيلته عليه ، ثم إنه لما يدعو إلى رفض هذه الرواية — بعد كل ذلك — أن رسول الله ﷺ قد أرسل أبا سفيان مع المغيرة بن شعبه لهدم اللات — صنم ثقيف — بعد غزوة حنين بفترة وجيزة ^٣ ، وقد كانت اللات معظمة عند قريش كذلك ، وكانوا يحلفون بها ، ومن يمكنه تحطيم الأصنام لا يعز عليه ترك الاستقسام بالأزلام ، ورسول الله ﷺ لا يمكن أن يأتمن رجلا مشركا يستقسم بالأزلام على تحطيم صنم عزيز على قومه..

وأخيرا لعل مما يؤكد كذب هذه الرواية وأمثالها أن أبا سفيان شارك بجد في حصار الطائف

حتى فقد إحدى عينيه ، فأتى رسول الله ﷺ فقال : هذه عيني أصيبت في سبيل الله ، فقال النبي ﷺ إن

^١ ابن هشام : السابق 4/49 ، الطبري : السابق 3/74-75 وهي رواية ابن إسحاق أيضا ، الواقدي : السابق 2/895

910-

^٢ أنف أبو سفيان وهو مشرك من أن يعهد عليه أحد من قومه الكذب في شهادته أمام هرقسل عن رسول الله ﷺ (الطبري : السابق 2/647) .

^٣ كان إسلام ثقيف في رمضان سنة 9 هـ.. راجع ابن هشام : السابق 4/127 ، 130-131 ، الواقدي المصلي 3/968

972-

شئت دعوت فردت عليك ، وإن شئت فالجنة — أي صبرت فلتت بذلك الجنة — فقال : الجنة " ^١ ، وهذه عدة وعدلها بها النبي ﷺ في أكمل العبادات وهي الجهاد " ^٢ .

لقد أسلم أبو سفيان إذن بعد أن ظل حبه للرياسة وممارسته لها حائلا بينه وبين الإسلام ، وقد راعى الرسول ﷺ هذه العوامل النفسية المؤثرة على نفس أبي سفيان ونفوس عليه القوم من قريش بعد الفتح ، فقد جعل من دخل دار أبي سفيان آمنا ، كما أعطاه من غنائم الفتح مع غيره ممن سموا آنذاك بالمؤلفة قلوبهم ، حتى قال أبو سفيان : " والله إنك كريم ، فذاك أبي وأمي ، والله لقد حلربتك ، فنعم المحارب كنت ، ولقد سالتك فجعتم المسالم أنت ، جزاك الله خيرا " ^٣ ..

ولم ينس أبو سفيان ما فعله ضد الإسلام أيام الجاهلية ، فكانت نفسه تنازعه أن يفعل ما يكسبه حمدا يذهب بمذمة ما سبق ، فيروى ابن كثير أنه لما أسلم قال : يا رسول الله مرني حتى أقاتل الكفار كما كنت أقاتل المسلمين ، قال ﷺ : نعم ، قال : ومعافاة تجعله كاتباً بين يديك ، قال : نعم ، ثم سأله أن يتزوج بابنته عزة بنت أبي سفيان ، واستعان على ذلك بأختها أم حبيبة ، فبين له النبي ﷺ أن ذلك لا يحل له ^٤ ، إذ لا يجوز في الإسلام الجمع بين الأختين ..

٧- إسلام هند بنت عتبة :

لما أقبل أبو سفيان منحدرًا إلى أهل مكة يخبرهم بقدوم جيوش الفتح ، ويطلب منهم المسئلة وكف الأيدي ثارت في وجهه امرأته هند بنت عتبة ، وأخذت بشاربه وهي تصرخ فيمن حوله : " اقتلوا الحميت الدسم الأحس ، قبح من طليعة قوم " ^٥ ، وهي ثورة متوقعة من امرأة مثل هند ضحت في الحروب ضد الإسلام بانها حنظلة وأبيها عتبة بن ربيعة وأخيها الوليد بن عتبة وعمها شيبة الذين قتلوا جميعاً يوم بدر ، ثم ارتكبت حماقتها الكبرى يوم أحد لما مثلت بجسد حزة عم النبي ﷺ ، وهى الآن تتوقع الانتقام والخاصة على ما قدمت يداها ..

^١ ابن حجر : الإصابة 414/3

^٢ محب الدين الخطيب : المنتقى هامش ص 254

^٣ ابن عبد البر : الاستيعاب في معرفة الأصحاب 714/2 ، الواقدي : المغازي 945/3

^٤ البداية والنهاية 21/8

^٥ ابن هشام : السابق 15/4 - 16 ، الطبري : السابق 54/3 ، ابن عبد البر الدرر 217 والحميت : الزق ؛ نسبة إلى الضخم والسمن ، والأحس الذي لا خير فيه (لسان العرب مادة ح م ت ، ح م س ، ١ / ٩٨٦ ، ٩٩٤)

وقد كانت هند محقة في مخاوفها ، فقد كانت ممن أهدر رسول الله ﷺ دمهم يوم الفتح لما آمن بنية أهل مكة^١ ؛ حتى لقد جاءت ضمن نساء من قريش لتسلم متكررة منتقبة كي لا يعرفها رسول الله ﷺ قبل أن تسلم ، ورغم ذلك فقد عرفها النبي ﷺ فقال لها في بعض حديثه أثناء البيعة هن : " إنك لهند بنت عتبة ! ، قالت أنا هند بنت عتبة ، فاعف عما سلف ؛ عفا الله عنك " ..^٢

وروى ابن سعد بسنده عن عبد الله بن الزبير انه لما بايعت هند تكلمت فقالت : يا رسول الله ؛ الحمد لله الذي أظهر الدين الذي اختاره لنفسه ، لتنفني رحمك يا محمد ، إني امرأة مؤمنة بالله ، مصدقة برسوله ، ثم كشفت عن نقابها وقالت : أنا هند بنت عتبة ، فقال رسول الله ﷺ : مرحبا بك ، فقالت : والله ما كان على الأرض أهل خباء أحب إلي أن يذلوا من خيالك ، ولقد أصبحت وما على الأرض أهل خباء أحب إلي من أن يعزوا من خيالك ، فقال ﷺ : وزيادة^٣ ؛ أي : وأنا أيضا كذلك وزيادة ، كما يفسر البخاري في روايته حيث ورد على لسان النبي ﷺ قوله : " وأيضا والذي نفسي بيده " ^٤ ، ولما أسلمت هند وبايعت عادت إلى بيتها فجعلت تكسر صنما كان عندها حتى فلذته فلذة فلذة وهي تقول : " كنا منك في غرور " ^٥ .

٨- حول اتهام بني أمية بأنهم من الطلقاء !!

لما فتح رسول الله ﷺ مكة وقف على باب الكعبة فخطب في المسلمين ثم قال : يا معشر قريش ويا أهل مكة ؛ ما ترون أني فاعل بكم ؟ قالوا : خيرا ، أخ كريم وابن أخ كريم ، فقال النبي ﷺ : اذهبوا فأنتم الطلقاء " فأعتقهم رسول الله ﷺ ، وقد كان الله أمكنه من رقابهم عنوة ، وكانوا له فينا ، فبذلك يسمى أهل مكة (الذين أسلموا بعد الفتح) الطلقاء " ^٦ ..

وسوف يصبح هذا الوصف " الطلقاء " سبة يطلقها بعض خصوم بني أمية عليهم^٧ ، ويهمننا هنا أن نشير إلى عدة نقاط :

^١ لم يذكر ابن هشام اسم هند ضمن من ذكرهم ممن أهدر النبي دمهم (السيرة النبوية 20/4 - 21) ، وذكر الطبري اسم هند فيهم (السابق 58/3 - 60) في روايته عن الواقدي ، وانظر الواقدي : المغازي 825/2 ، ابن حجر : فتح الباري 11/8 - 12

^٢ الطبري : السابق 61 - 62 حيث النص الكامل لبيعتها ، المباركفوري : الرحيق المختوم 460

^٣ ابن سعد : الطبقات الكبرى 172/8

^٤ البخاري : الصحيح حديث رقم 3825 ، ابن حجر : فتح الباري 175/7

^٥ ابن سعد 172/8 ، الواقدي : المغازي 871/2 ، المباركفوري : السابق 460

^٦ الطبري : السابق 61/3

^٧ السابق 8/5 ، المسعودي : مروج الذهب ٥٠/٣ ، الإمامة والسياسة ٩٩،٩٣/١

١- إن هذا الاتهام وليد عصر الخصومة الحزبية الحادة ، لما تفجرت الأحقاد ضد بني أمية أواخر عهد عثمان رضي الله عنه وبعد بروز نجم معاوية بن أبي سفيان وصراعه ضد علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، حيث أصبح ذلك الوصف يعني عندهم أنهم قوم ضعاف الإيمان ، دخلوا الإسلام رغبة في غنائمه ، أو رهبة من القتل ، ليكيدوا لأهله ويقتلوا أنفسهم .

٢- أن أبا سفيان بن حرب وابنه معاوية ليسا من الطلقاء بالمعنى الدقيق السابق لهذه الكلمة ، فقد أسلم أبو سفيان قبيل فتح مكة والرسول وجيشه يمر الظهران خارجها ، وقد جاء فور إسلامه يدعو قومه إلى المسالة والفتح .. أما معاوية ابنه فقد أكدت بعض الروايات أنه أسلم قبل الفتح أيضا؛ غير أنه كان يخفى إسلامه — شأن بعض الناس آنذاك — لمكانته من أبيه الذي كان يقود القتال ضد المسلمين ، فقد روى أنه أسلم سرا يوم عمرة القضاء ، أو عام الحديبية^١ ، وإنما وضعهم المؤرخون في زمرة هؤلاء الطلقاء لقرب وقت إسلام أبي سفيان من الفتح ، ولأنه كان زعيم مكة الذي ارتبط إسلامه بإسلامها ، كما أن معاوية كان إسلامه سرا لم يشع ، ولم يعرف إسلامه إلا مع الطلقاء بعد فتح مكة..

٣- إن وصف الطلقاء لا يقتضي الذم ؛ " فإن الطلقاء هم مسلمة الفتح الذين أسلموا عام فتح مكة وأطلقهم النبي ﷺ ، وكانوا نحو من ألفي رجل، ومنهم من صار من خيار المسلمين كالحارث بن هشام وسهيل بن عمرو وصفوان بن أمية وعكرمة بن أبي جهل ويزيد بن أبي سفيان وحكيم بن حزام وأبي سفيان بن الحارث — ابن عم النبي ﷺ الذي كان يهجوهم ثم حسن إسلامه — وعتاب بن أسيد الذي ولاه النبي مكة لما فتحها ، وغير هؤلاء ممن حسن إسلامهم^٢ ..

٤- إن النظرة الإسلامية في هذا الشأن أن الإسلام يجب ما قبله، ويفسح المجال للإفادة من جميع الطاقات والقدرات ، ويدفعها نحو تحقيق غاياته الكبرى ، ويترك الناس منازلهم ، وأن خيار النسل في الإسلام خيارهم في الجاهلية إذا فقهوا ، " ولم يمنع تأخر إسلام خالد وعمرو بن العاص من تبوءهما المكانة العالية عند النبي ﷺ فأرسل عمرأ أميرا على غزوة ذات السلاسل ، وسمى خالدا سيف الله " ^٣ .. هذا مع حفظ المكانة الأسمى والمزلة العظمى للسابقين الصادقين في الإسلام (لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل ؛ أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا ، وكلا وعد الله الحسنى) ^٤ ، ومن هؤلاء السابقين كان جماعة من بني أمية وغيرهم ، كما كان من الطلقاء بعض بني أمية وغيرهم ..

^١ ابن كثير : البداية والنهاية 21/8 ، ابن الجوزي : تلقيح فهوم أهل الاثر 156 ، مصعب الزبيري نسب قرين 124

^٢ ابن تيمية : منهاج السنة النبوية 202/2 ، مجموعة فتاوى ابن تيمية 64/35

^٣ د. الرئيس : عبد الملك بن مروان ص 92

^٤ سورة الجديد من الآية 10

٩- بنو أمية بعد الفتح ولاة الرسول:

بعد فتح مكة التأم شمل بني أمية وعبد شمس تحت راية الإسلام ، ودخلت القبائل العربية فيه ، فانتقل الدين إلى مرحلة جديدة من مصارعة القوى الكبرى المحيطة به ، فظهرت مكانة بني أمية وعبد شمس عند ذاك أكثر مما كانت من قبل ، حتى إن شيخ الإسلام ابن تيمية يقول: "ولا نعرف قبيلة من قبائل قريش فيها عمال لرسول الله ﷺ أكثر من بني عبد شمس ، لأنهم كانوا كثيرين ، وكان فيهم شرف وسؤدد ، فاستعمل النبي ﷺ في عزة الإسلام علي أفضل الأرض — مكة — عتاب بن أسيد بن أبي العاص بن أمية ، واستعمل على نجران أبا سفيان بن حرب بن أمية ، واستعمل أيضا خالد ابن سعيد بن العاص على صدقات بني مذحج ، وعلى صنعاء واليمن ، فلم يزل حتى مات رسول الله ﷺ ، واستعمل عثمان بن سعيد بن العاص على تيماء وخيبر وقرى عرينة ، واستعمل أبان بن سعيد بن العاص على بعض السرايا ، ثم استعمله على البحرين ، فلم يزل عليها بعد العلاء بن الحضرمي حتى توفي النبي ﷺ ، واستعمل الوليد بن عقبة بن أبي معيط حتى أنزل الله فيه (إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا ، أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين)^١ .. وقيل إنه ﷺ إنما استعمل أبان سفيان على صدقات خولان وبجيلة ، واستعمل يزيد بن أبي سفيان على نجران^٢ ، كما أنه عليه السلام ولي بعض الأمويين كتابة الوحي بين يديه ، فكان يكتب له منهم معاوية بن أبي سفيان وخالد ابن سعيد بن العاص وأبان بن سعيد^٣ ...

١٠- مكانة معاوية بن أبي سفيان في حياة الرسول:

عمل معاوية كاتباً للوحي بين يدي النبي ﷺ فأتاح ذلك له لونا من القرب الطبيعي من رسول الله ﷺ في تلك الفترة التي أعقبت فتح مكة حتى وفاته عليه السلام .. مما يستتبع بالضرورة التأثير بشخص الرسول الكريم ، والأخذ المباشر منه ، حتى لقد روى معاوية رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ مائة وثلاثة وستين حديثا ، وتلقف — فيما بعد — عنه عدد من الصحابة رواية الحديث عن رسول الله ﷺ منهم : ابن عباس وابن عمر وابن الزبير وأبو الدرداء وجريير بن عبد الله البجلي والنعمان بن

^١ منهاج السنة النبوية 175/3 - 176 ، والآية الكرعة من سورة الحجرات رقم 6 ويذهب ابن العربي القاضي إلى أن الوليد بن عقبة ليس هو المقصود بالفسوق في هذه الآية (راجع العواصم من القواصم ص 102 - 105) ، وبينما يقول ابن تيمية ذلك عن بني أمية فإنه يقول على سبيل المقارنة مع بني هاشم: "وأما بنو هاشم فلم يستعمل النبي ﷺ منهم إلا على بن أبي طالب علي اليمن ، ولولاها أيضا معاذ وأبا موسى ، وولي جعفر بن أبي طالب قتال مؤتة ، وولي قبله زيد بن حارثة مولاه وقيل ابن أبي رباح ، وقد روي أن العباس سأله ولاية فلم يولها إيها (منهاج السنة ص 176)

^٢ البلاذري : أنساب الأشراف 530/1

^٣ ابن الجوزي : تلقيح فهم أهل الأثر ص 80

بشير وغيرهم، كما أخذ عنه من التابعين سعيد بن المسيب وحيد بن عبد الرحمن وغيرهم^١ ويروى أن رسول الله ﷺ بعثه مع وائل بن حجر اليماني القحطاني إلى قومه ليعلمهم القرآن والإسلام^٢؛ كما يروى أن النبي ﷺ قد أشاد به أو دعا له في بعض الأحاديث، ومن الطبيعي أن تكون بعض هذه الأحاديث ضعيفة وبعضها موضوع في عصور الفتن؛ لما كان كل فريق يمجّد صاحبه بشق الطرق، ولكن الحفاظ ابن عساكر يذكر أن أصبح ما روى في فضل معاوية حديث أبي حمزة عن ابن عباس أنه كان كاتب النبي ﷺ منذ أسلم، أخرجه مسلم في صحيحه^٣، وبعده حديث العرياض بن سارية: اللهم علم معاوية الكتاب، وبعده حديث ابن أبي عميرة: اللهم اجعله هاديا مهديا^٤، روى الإسلام أحمد أن رسول الله ﷺ قال له: يا معاوية إذا وليت أمرا فاتق الله واعدل، قال معاوية: فما زلت أظن أني سأبتلى بعمل لقول النبي ﷺ حتى ابتليت، تفرد به أحمد^٥، ويعدد الشيخ محب الدين الخطيب طرق رواية حديث "اللهم علمه الكتاب والحساب وقه العذاب"، ثم يقول: "ورواة هذا الدعاء النبوي لمعاوية من الصحابة أكثر من أن يحصوا، وفي بعض رواياته: "وأدخله الجنة"^٦ ..

^١ السيوطي: تاريخ الخلفاء ص 194

^٢ ابن خلدون: التصريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا ص 2 وانظر ابن عبد البر: الاستيعاب ترجمة وائل ابن حجر

رقم ٧٣٦ ص ١٥٦٢-١٥٦٣

^٣ مسلم: صحيح مسلم كتاب فضائل الصحابة باب فضائل أبي سفيان بن حرب حديث رقم ٢٥٠١

^٤ ابن عساكر: تاريخ دمشق ٦٩٧/١٦ (مخطوط)

^٥ ابن كثير. البداية والنهاية 122/8-123 وانظر ابن حنبل المسند ١٠١/٤

^٦ العواصم من القواصم 213-214

المبحث الثاني

الأمويون في خلافة أبي بكر وعمر

واجه المسلمون بعد موت نبيهم ﷺ ظروفًا عصيبة ، فمن حولهم كان الفرس والروم يترصدون ، ومن داخل بلادهم كانت حركة الردة الشاملة عن الإسلام ؛ حتى إنه لم يحتفظ بإسلامه إلا أهل الثلث الحجازي مكة والمدينة والطائف ^١ ، وأصبح المسلمون " كالغنم في الليلة المطيرة الشلتية ؛ لفقد نبيهم ﷺ وقتلهم وكثرة عدوهم " ^٢ . ولكن كان من صنع الله للمسلمين أن سارعوا ببيعة أبي بكر الصديق خليفة لرسول الله ﷺ ^٣ ؛ الذي كان عليه مواجهة ذلك الخطر العظيم ، فقام به خير قيام ، فحارب المرتدين حتى ردهم إلى الإسلام والجماعة ، وبدأ حركة الفتوح في بلاد الفرس والروم

١- دور الأمويين في مواجهة المرتدين :

كان أول كتاب كتبه أبو بكر بشأن حروب الردة إلى عامله الأموي على مكة عتاب بن أسيد " حيث كتب إليه بركوب من ارتد من أهل عمله بمن ثبت على الإسلام " ؛ فواجههم عتاب في

^١ الطبري : السابق 242/3

^٢ السابق 225/3

^٣ يتحدث بعض المؤرخين عن وجود معارضة أموية لاستخلاف أبي بكر ﷺ ، ويخصون بالذكر هنا أبا سفيان بن حرب وخالد بن سميد بن العاص حيث ينسبون إليهما تحريضا ضد أبي بكر وتفضيلا لاستخلاف أحد بني عبد مناف سادة قريش ؛ وهما هنا يفضلان علي بن أبي طالب ﷺ مما يدل على عمق الصلات بين بني هاشم وبني أمية (الطبري السابق 209/3-210 ، 387-388) وبعض النظر عما تحويه بعض هذه الروايات من تلميحات تخلش إيمان الرجلين أو تطعن في نياهما مما نتوقه دائما من خصوم الأمويين ، فإن معارضة هذين الرجلين - لو صحت - هذه الروايات المرسل والمعلولة بالتشجيع ، لم تكن بدعا أو أمرا غير متوقع ، فقد عارض استخلاف أبي بكر أول الأمر بعض المهاجرين - فيما يزعمون - مثل علي والزبير (الطبري : السابق 202/3-203) وبعض الأنصار مثل الحباب بن المنذر وسعد بن عباد (السابق 220/3-223) وقد كانت هذه المعارضة و تلك أخطر مما ينسبونه إلى بعض الأمويين ، إلا أن كثافة الخطر المهدق بالإسلام والمسلمين آنذاك سرعان ما جمع الأمة كلها خلف أبي بكر لحماية وجودها وتحقيق سيادتها وعزتها ، وقد كان الأمويون ضمن طلائع المسلمين في ذلك الوقت سواء في حرب الردة أو في الفتوح كما سوف نرى

قائمة حتى ظفر بهم^١ ، ثم جهز من أهل مكة وأعمالها خمسمائة رجل وأمر عليهم أخاه خالد بن أسيد فاشتركوا في قتال المرتدين باليمن^٢ ؛ وإعادة أهل حضرموت وكندة إلى حظيرة الإسلام^٣ .

وفي حروب المسلمين ضد مسيلمة الكذاب كان قائد الجيش خالد بن الوليد الذي جعل على قيادة المهاجرين في جيشه أبا حذيفة بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس ومعه زيد بن الخطاب^٤ ، فقاتل أبو حذيفة قتالا مجيدا ، ولما انكشف المسلمون في أول القتال كان أبو حذيفة يهتف فيهم : " يا أهل القرآن ، زينوا القرآن بالفعال ، وقاتل حتى قتل ﷺ^٥ ، وحمل راية المهاجرين يومذاك مولاه سالم وقاتل بها حتى قتل أيضا^٦ ..

كما استشهد من حلفاء بني أمية عكاشة بن محصن الأسدي في قتال طليحة الأسدي^٧ ، وساهم العلاء بن الحضرمي حليفهم أيضا في إخماد الردة في البحرين ، ففعل وظفر بهم بعد بلاء حسن وآيات عجيبة^٨ .

٢- دور الأمويين في حركة الفتوح الكبرى :

كان من الطبيعي بعد انتهاء حروب الردة وعودة العرب إلى حظيرة الدين النصياحهم للحكومة الراشدة الواحدة أن تطمح الأبصار إلى خارج الجزيرة العربية من جديد لتبدأ ما عرف في التاريخ بحركة الفتوح الكبرى على جبهتي فارس والروم .. وقد كان لبني أمية دور بارز في هذه الحروب مما يؤكد عمق التزامهم الإسلامي وحيوية دورهم التاريخي في هذه الفترة .. غير أننا نشير في البداية إلى وضوح سمتين ظاهرتين صاحبتا حركة الفتوح :

الأولى : هي تعاظم دور مسلمة الفتح وولقاء مكة في الفتوح — ومنهم بعض بني أمية — وقد كلن ذلك متوقعا لبنيين ؛ الأول هو ما قرره أبو بكر من ضرورة عدم الاستعانة بمن ارتد عن الإسلام ثم عاد إليه في الفتح^٩ ، وقد كان هذا يعود إلى حرص الخليفة على نقاء هذه الفتوحات من آثار رقصة

^١ الطبري : السابق 319/3

^٢ السابق 322/3 ، 329 - 330

^٣ راجع السابق 330/3 - 342

^٤ السابق 281/3

^٥ السابق 291/3

^٦ السابق 219/3 - 292 وفيه يقول عمر بن الخطاب لما طلبوا منه أن يستحلف رجلا: " .. لو كان مسلم مسولى أبي حذيفة حيا استخلفته ، فإن سألني ربي قلت سمعت نبيك يقول: إن سألنا لشديد الحب الله" (الطبري : السابق 227/4)

^٧ السابق 254/3 و انظر 261

^٨ السابق 301/3 - 313

^٩ السابق 319/3، 347

الدين أو شهوات هذه النفوس التي لم تخلص بعد للإسلام ؛ أو لم تبرهن على إخلاصها له .. والسبب الثاني يعود إلى حرص هؤلاء السادة والأشراف على تعويض ما فاقم من خدمة قضية الإسلام وأن يلحقوا بإخوانهم الذين سبقوهم إلى الإسلام فسادوا بذلك وعلت أقدارهم ، كما كانوا حريصين على تصحيح نظرة الارتباب التي كان ينظر بها بعض الصحابة إليهم لأنهم أمضوا حياتهم في الصد عن سبيل الله ، ثم دخلوا في الإسلام لما لم يعد أمامهم خيار آخر غير الدخول فيه ^١ ..

والسمة الظاهرة الثانية هي تركيز نشاط الأمويين في الفتوح على جبهة الشام يشاركونهم في ذلك كثير من الفاتحين من أهل مكة عموماً ، ويبدو أن ذلك كان أمراً مقصوداً من الخلافة الحليفة التي أدركت وجود صلات عميقة الجذور بين بني أمية والمكيين والقبائل العربية المقيمة ببلاد الشام تحسب الحكم البيزنطي ، تلك الصلات التي تعمقت من خلال النشاط التجاري المتواصل بين مكة والشام في الجاهلية ، والذي كان بنو أمية أبرز قواده ورواده ^٢ ...

أما عن مشاركة الأمويين في حروب الفتوح ، فقد جاءت مبكرة ، حيث شارك الوليد بن عقبة بن أبي معيط مع خالد بن الوليد في فتوح العراق الأولى ، وشهد معه قتل هرمز ، وأرسله خالد إلى أبي بكر بالغنائم وبشارة الفتح وأخبار عن جمع جديد للفرس ^٣ ، ثم وجهه الخليفة مدداً إلى عيلان ابن غنم الذي كان قد أمره بفتح العراق من جهة الشمال ، وكان يحاصر دومة الجندل فيجد العنت والمشقة في فتحها ، فأشار عليه الوليد باستمداد خالد بن الوليد ، فاستمده ، فأخذه ، وفتحوا معا دومة الجندل ^٤ ، ثم ولاه أبو بكر على النصف من صدقات قضاة مما يلي دومة الجندل ^٥ ، ولكن الخليفة ما لبث أن كتب إليه يعرض عليه الجهاد في سبيل الله ؛ ويخيره بينه وبين أن يظل على عمله الذي ولاه إياه ، فأجابه بإيثار الجهاد ؛ فوجه به إلى الشام ^٦ ، وكان أول لواء عقده أبو بكر في

^١ لما أصيب عكرمة بن أبي جهل وابنه عمرو بن عكرمة في معركة اليرموك أتى بها خالد بن الوليد فوضع رأسيهما على فخذه و ساقه ؛ وجعل يمسح عن وجهيهما و يقطر في حلقيهما الماء وهو يقول: كلا، زعم ابن الحنتمة (يعني : عمر بن الخطاب) أنا لا نستشهد!! (الطبري : السابق 401/3)

^٢ من أشهر هذه الرحلات التجارية لأهل مكة التي كان يقودها بنو أمية تلك القافلة التي كانت سببا في غزوة بدر ، وتلك التي أوقعت بها سرية زيد بن حارثة على القردة - ماء من مياه نجد - فهرب رجالها ومنهم أبو سفيان (ابن هشام : السابق 308/2 - 309) وتلك الرحلة التي واكب هذبة الحديبية والتقى فيها أبو سفيان مع هرقل فسأله الأخير عن رسول الله (ص) (الطبري : السابق 646/2 - 648) وانظر عن دور الأمويين في نشاط مكة التجاري (د. العدوي . الأمويون والبيزنطيون ص 27 - 28)

^٣ الطبري : السابق 351/3

^٤ السابق 377/3 - 378

^٥ السابق 390/3

^٦ السابق 389/3 - 390

حروب الشام لخالد بن سعيد بن العاص الأموي ثم عزله وولى بدله يزيد بن أبي سفيان بن حرب الأموي أيضا ^١ ..

أما جيش يزيد بن أبي سفيان فكان أول جيش كبير يوجهه أبو بكر إلى الشام ويودعه ماشيا ^٢ ، ثم أتبعه بثلاثة جيوش أخرى يقودها عمرو بن العاص وشرحيل بن حسنة وأبو عبيدة بن الجراح ^٣ ، ولما اجتمع بعد ذلك أناس آخرون يرغبون في الجهاد وجه بهم أبو بكر إلى الشام ليلحقوا بجيش يزيد وجعل عليهم أميرا معاوية بن أبي سفيان ^٤ ... وخرج أبو سفيان بن حرب — وهو يومئذ شيخ كبير ^٥ — متطوعا مع ولديه يزيد ومعاوية ، وقد اصطحب معه زوجته هند بنت عتبة ^٦ وابنته جويرية بنت أبي سفيان ^٧ ..

كما اشترك في الجهاد في الشام أيضا خالد بن سعيد — وقد مر ذكره — وأبان بن سعيد وعمرو بن سعيد ، وقتلوا جميعا هناك وقتلوا ، حتى قيل : ما فتحت بالشام كورة من كورها إلا وجد عندها رجل من بني سعيد بن العاص شهيدا ^٨ ..

وقيل معركة اليرموك عقد قادة الجيوش مؤتمرا للحرب في الجولان .. ومر بهم أبو سفيان ابن حرب فقال : "ما كنت أظن أن أبقي حتى أرى أغلمة من قريش يذكرون أمر حرهم ، ويتذكرون ما يكيدون به عدوهم — في منزلي — ولا يحضروني ، فاشترك معهم في مشورتهم" ؛ فأفسحوا له ، فأسهم معهم في رسم خطة القتال ^٩ ..

ولما أزلت ساعة الحرب في اليرموك عمد قادة الفريقين إلى إذكاء حماس الجنود ، فبينما كان الروم "يحضضهم القسيسون والشمامسة والرهبان ، وينعون لهم النصرانية ، حتى استبصروا

^١ الطبري : السابق 387/3 ويروون أن سبب عزل خالد هو رغبة عمر بن الخطاب في ذلك حيث نقم عليه تأخره في مبايعة أبي بكر (السابق 387/3 — 388)

^٢ الواقدي: فروح الشام 3/1 — 4 ، الطبري : السابق 390/3 ، 405

^٣ الطبري : السابق 394/3

^٤ السابق 391/3

^٥ كان أبو سفيان أسن من النبي (ص) بعشر سنين (ابن حجر: الإصابة القسم الثالث ص 412) وقد تولى سنة 31 هـ — وله من العمر ثمان وثمانون سنة (الطبري : السابق 292/4 ، البلاذري فروح البلدان ص 141) ، ومعنى ذلك أنه حضر اليرموك سنة 13 هـ أو سنة 15 هـ وله من العمر أكثر من سبعين سنة ..

^٦ البلاذري : فروح البلدان ص 141

^٧ الطبري : السابق 401/3

^٨ النزاع والتخاصم ص 46 ، وفي العبارة مبالغة دون شك ، ولكنها تدل على عظيم تضحية القوم

^٩ الواقدي: فروح الشام 99/1

فخرجوا للقتال الذي لم يكن بعده قتال مثله^١.. كان المسلمون يتبادرون إلى لقاء الخطيب البليغة والأرجاز المثيرة^٢، بل إنهم قد عينوا أحد كبار شيوخهم والمخضرمين من رجالهم في مهمة "القصاص" وكان ذلك الرجل هو أبا سفيان بن حرب نفسه^٣، ولا شك أن توليه ذلك العمل المهم هو أكبر دليل على صدقه وإخلاصه في دينه ودعوته، إذ إن قادة الجيش لو علموا فيه آنذاك غير هذا الإخلاص ما جعلوه أمينا على تعبئة حماس الجند وإثارة حميتهم الإسلامية، ولو علم الجنود منه غير ذلك الصدق ما كان لعمله فيهم ذلك الأثر العظيم.. وقد كان اختيارا موفقا فعلا يتسق مع طبيعة تكوين ذلك الجيش الذي يضم في معظمه أهل مكة وقبائل العرب الذين تأخر إسلامهم؛ والذين احتفظوا بثقتهم القديمة في أبي سفيان؛ زعيمهم الذي خبروه..

وروى سيف بن عمر أن أبا سفيان كان يسر " فيقف على الكراديس^٤ فيقول : الله الله ، إنكم ذادة العرب وأنصار الإسلام ، وإنهم ذادة الروم وأنصار الشرك ؛ اللهم إن هذا يوم من أيامك ، اللهم أنزل النصر على عبادك^٥ ، وروى سعيد بن المسيب عن أبيه قال : فقدت الأصوات يوم اليرموك إلا صوت رجل يقول: يا نصر الله اقرب ، قال : فنظرت فإذا هو أبو سفيان تحت راية ابنه يزيد^٦ ..

وأصبحت عين أبي سفيان الثانية يومذاك^٧، وكانت عينه الأخرى قد أصيبت في حصار الطائف، ووعده الرسول ﷺ لقاءها الجنة^٨؛ فأصر الرجل تحت رايات الجهاد.. كما قتلت يوم اليرموك نساء من نساء المسلمين: منهم هند بنت عتبة التي كانت ترتجز محرصة على القتال^٩، كما قتلت جويرية بنت أبي سفيان، وأصبحت بعد قتال شديد^{١٠}..

^١ الطبري : السابق 395/3

^٢ السابق 395/3، 397، 398، 401،

^٣ السابق 397/3

^٤ الكراديس: جمع كردوس: القطعة العظيمة من الخيل، أو الكتيبة من الجند (لسان العرب مادة كردس ٣٨٥٠/٥)

^٥ الطبري : السابق 397/3، الواقدي : فتح الشام 126/1

^٦ ابن حجر: الإصابة القسم الثالث 414 ، الواقدي فوح الشام 133/1

^٧ الواقدي السابق 135/1، ابن حجر السابق والصفحة ، الطبري : السابق 401/3

^٨ ابن حجر السابق والصفحة ، البلاذري فوح البلدان 141

^٩ كانت ترتجز رجزها يوم أحد في صفوف المشركين، وكأفها بذلك تريد أن تمحو السيئ بالحسن، فكانت تقول :

نحن بنات طارق نمشي على النمارق .. الخ

(راجع الواقدي فوح الشام 128/1)

^{١٠} الطبري : السابق 401/3

محاولات تشويه أيضا :

ورغم ذلك لم ترق هذه اللوحة الوضیئة من صور الجهاد الأموي دون أن تصیها محمولات التحریف والتشويه ، فقد روى ابن إسحاق عن وهب بن كيسان عن عبد الله بن الزبير قوله : كنت مع أبي — الزبير — عام اليرموك ، فلما تعيى المسلمون للقتال لبس الزبير لأمته ، ثم جلس على فرسه ، ثم قال لمولين له : أحبسا عبد الله بن الزبير معكما في الرحل ؛ فإنه غلام صغير ، ثم توجه لدخل في الناس ، فلما اقتتل الناس والروم نظرت إلى ناس وقوف على تل ، لا يقاتلون مع الناس ، فأخذت فرسا للزبير كان خلفه في الرحل ، فركبته ، ثم ذهبت إلى أولئك الناس فوقفت معهم ، فقلت : أنظر ما يصنع الناس ، فإذا أبو سفيان بن حرب في مشيخة من مهاجرة الفتح وقفا لا يقاتلون ؛ فلما رأوني رأوا غلاما حدثا ؛ فلم يتقوني ، فجعلوا — والله — إذا مال المسلمون وركبتهم الحرب للروم يقولون : إيه إيه بالأصفر ، فإذا مالت الروم وركبهم المسلمون قالوا : يا ويح بالأصفر ، فجعلت أعجب من قولهم ، فلما هزم الله الروم ، ورجع الزبير ، جعلت أحدثه خبرهم ، فجعل يضحك ويقول : قاتلهم الله ، أبوا إلا ضغنا ، وماذا لهم إن يظهر علينا الروم ؟ لنحن خير لهم منهم" ^١.

وهذه الرواية تفوح منها رائحة الوضع والاختلاق ؛ ويبدو أن بعض الكذابين قد استغل الخلاف الذي نشب فيما بعد بين ابن الزبير وبنی أمية في الزج باسمه في هذه الرواية وإدارة القصة عليه ؛ فإن ابن إسحاق — راوي الخبر — يجعل وقعة اليرموك سنة ١٥ هـ في خلافة عمر ، مثله في ذلك مثل الواقدي ، أما المدائني وسيف بن عمر فيجعلانها سنة ١٣ هـ في آخر خلافة أبي بكر ^٢ ، وقد ولد عبد الله بن الزبير عام الهجرة فله إذن من العمر يوم اليرموك خمس عشرة سنة حسب رواية الواقدي وابن إسحاق ، أو ثلاث عشرة حسب رواية الآخرين ، ومن كان في هذه السن في جزيرة العرب كان لا يعد غلاما حدثا ، بل كان يشترك أحيانا في القتال ^٣ ، وفي هذه المعركة التي قلت فيها أعداد المسلمين عن عدوهم حتى شاركت النساء في القتال كان الأولى بالزبير — والمتوقع منه — أن يشترك ابنه في القتال ، لا أن يعطل به رجلين من المسلمين من موالیه ليحرساه .. ومن كان في هذه السن كيف لا يتحرز منه شيوخ قريش — ومنهم أبو سفيان — أن يظهرأ أمامه نفاقا ، وأقل ما هنالك أن يفهم منهم قولهم ، وأن ينقله إلى الآخرين فتسقط أقدارهم في قومهم ؛ ثم كيف يتمنى

^١ الطبري : السابق 571/3 — 572 ، ابن حجر : الإصابة 414/3 وقد ضعف هذه الرواية ، الأصفهاني : الأغاني 333/6 — 334 ، المقرئزي : الزاوع والتخاصم 29 — 30

^٢ الطبري : السابق 570/3 — 572 ، 441

^٣ أجاز رسول الله ﷺ سمرة بن جندب ورافع بن حديج وهما ابنا خمس عشرة سنة يوم أحد ، كما أجاز أسامة بن زيد وعبد الله بن عمر بن الخطاب وزيد بن ثابت والبراء بن عازب وعمرو بن حزم وأسد بن ظهير ، وكان لهم من العمر خمس عشرة سنة ، يوم الخندق (ابن هشام السابق 8/3 ، الواقدي : المازي 216/٤)

أبو سفيان وشيوخ قريش نصر الروم على المسلمين وقادة الجيش المسلم في هذه المعركة من أولادهم ، بل فيهم ابنا أبي سفيان يزيد ومعاوية ، وكيف يصطحب من يتمنى نصر العدو معه زوجته وابنته ، ليكون العار عليه لو انتصر الأعداء فسبوه وسبوه أو قتلوه جميعا ..

وفي عهد عمر بن الخطاب :

استمر عطاء بني أمية في خدمة الإسلام ؛ وكان عمر يتعهد الصالحين منهم^١ ، وقد استعمل منهم عددا ، منهم عتبة بن أبي سفيان على كنانة^٢ ، والوليد بن عقبة على الجزيرة^٣ ، غير أن عهده شهد علو نجم معاوية بن أبي سفيان ؛ وقد كان على عهد أبي بكر أحد قادة جيش أخيه يزيد الذي أصبح عاملا على دمشق بعد فتحها^٤ ، وفي بواكير خلافة عمر كان لمعاوية بلاء حسن وأسر جميل في فتح سواحل الأردن مع أخيه يزيد وعمرو بن العاص^٥ ، وكتب عمر أيضا إلى يزيد يأمره بغزو قيسارية على ساحل بحر الروم ، وقد استعصت من قبل على عمرو بن العاص فسار إليها يزيد — ومعه معاوية — وحاصرها ، ولكنه ما لبث أن مرض وأواخر سنة ١٨ هـ — فمضى إلى دمشق واستخلف عليها أخاه معاوية^٦ ، ولكن المدينة الحصينة استمرت على عنادها ، وظل معاوية يصصر على فتحها ويشدد عليها الحصار نحوًا من سبع سنين^٧ حتى فتحها بعد أن هزم أهلها هزيمة مروعة^٨ ، وكان معاوية أحد الشهود على صلح عمر بن الخطاب لأهل بيت المقدس بعد فتحها سنة ١٥ هـ^٩.

وكان طاعون عمواس بلاء حصد كثيرا من المسلمين بالشام وبعض خيرة قوادهم هنالك ، فأصيب فيه أبو عبيدة بن الجراح أمير حصص والقائد العام لجيوش الشام ويزيد بن أبي سفيان أمير دمشق^{١٠} ، فلما انتهى إلى عمر ذلك أمر معاوية على جند دمشق وخراجها ، وشرحبيل بن حسنة

^١ راجع الطبري : السابق 278/4 ، ابن الأثير الكامل في التاريخ 53/3 عن موقفه مع سعيد بن العاص ، وانظر :

الطبري : السابق 221/4 ، ابن الأثير : السابق 33/3 عن موقفه مع هند وأبي سفيان ومساعدته لهما في التجارة ..

^٢ الطبري : السابق 220/4

^٣ السابق 54/4-56

^٤ السابق 394/3

^٥ البلاذري : فتوح البلدان 124

^٦ السابق 146

^٧ السابق 147

^٨ الطبري : السابق 604/3

^٩ السابق 609/3

^{١٠} السابق 60/4

على جند الأردن وخراجها^١ ، وأرسل عمر إلى أبي سفيان فلما قدم عليه عزاه في ولده يزيد، فسلكه عمن ولى بدله ، فقال : أخوه معاوية ، فقال أبو سفيان : وصلتك يا أمير المؤمنين رحم^٢ ، ثم إنه لما زار عمر الشام بعد طاعون عمواس عزل شرحبيل بن حسنة عن الأردن واستعمل معاوية ، فقال له شرحبيل : أعن سخطه عزلني يا أمير المؤمنين؟ فقال عمر: لا ، وإنك لكما أحب ، ولكنني أريد رجلا هو أقوى من رجل ، قال: نعم، فأعذرني في الناس؛ لاتدركني هجته ، فقام في الناس فقال: أيها الناس، إني والله ما عزلت شرحبيل عن سخطه ، ولكنني أريد رجلا هو أقوى من رجل^٣ ..

وكان عمر بن سعد الأنصاري عاملا لعمر على حصص ، فعزله ، وولاه معاوية ، وكان عمر صالحا خيرا زاهدا ، فتكلم في ذلك الناس ، فقال عمر: لا تذكروا معاوية إلا بخير ، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: اللهم اهد به^٤ ..

ولما ذكر معاوية مرة أخرى عند عمر، وكأنهم يستكثرون أن يلي كل ما أصبح يليه ، وينال ثقة الخليفة الذي عزله أمثال خالد بن الوليد وسعد بن أبي وقاص وغيرهما من كبار الرجال ، لما ذكر عنده معاوية قال: دعوا فتي قريش وابن سيدها ، إنه لمن يضحك في الغضب ، ولا ينال منه إلا على الرضا ، ولا يأخذ من فوق رأسه إلا من تحت قدميه^٥ ، ومهما يكن في هذه الروايات وغيرها من مبالغة ، فإن ثقة عمر في معاوية تظل فوق مستوى الشبهة والشك ..

٣- جهود باسرة لمعاوية على جبهة الشام:

لما تولى معاوية أمر الشام ، وانطلق عمرو بن العاص لفتح مصر ، أصبحت مهمة حماية الحدود الشمالية للدولة الإسلامية والتوسع منها منوطة بهذا الوالي الأموي النشط ؛ وقد كانت له في هذا المجال اليد البيضاء ، وتتلخص أهم إنجازاته العسكرية هنا في أمرين هما : سن نظام الصوائف والنشواتي^٦ ، وتكوين أسطول بحري إسلامي لأول مرة في تاريخ الإسلام ..

^١ السابق 62/4

^٢ البلاذري فتوح البلدان 146

^٣ الطبري : السابق 64/4 - 65

^٤ رواه الترمذي وقال حديث غريب (باب مناقب معاوية حديث رقم 3932)، وقال ابن كثير: له ما يشهد له ، أي ما يشهد بصحته (البداية والنهاية 122/8) وقيل إن عمر بن سعد طعن في عصر عثمان فاستغفى من الولاية فأذن له وضم حصص وقسرين إلى معاوية وكانت ولاية عمر ، كما أنه ضم إلى معاوية فلسطين بعد وفاة عاملها عبد الرحمن بن علقمة الكناني فجعلت بذلك الشام لمعاوية (الطبري : السابق 290/4 - 289/4)

^٥ ابن كثير السابق 124/8

^٦ الصوائف هي: القوات الكبيرة التي تنتظم في جيش واجبة غزو بلاد الروم في الصيف، وكانت الصائفة تقوم بالغلزو إذا دخل الخريف، وطاب الهواء، بعد أن يكون الناس قد أربعوا دوابهم ، وحسنت أحوالهم وأحوال حيولهم ، وقسموا

— سن نظام الصوائف والشواطي :

لقد أصيب الروم على يد جنود الإسلام هزائم مريرة متتالية فقدوا على أثرها الشام ومصر، بكل ما تمثلانه من أهمية اقتصادية وسياسية وعسكرية ، غير أنهم لم يسلموا بهذه الهزائم ، بل استمرت هجماتهم على الشام من خلال الدروب الجبلية التي تفصلهم عن باقي أجزاء إمبراطورية الروم ، مما جعل عمر بن الخطاب يقول في جولته بالشام سنة 17 هـ : " والله لوددت أن الدرب جرة بيننا وبينهم ، لنا ما دونه ، وللروم ما وراءه " ^١ ، وفي رحلته هذه إلى الشام سمى عمر الصوائف والشواطي ، وسد فروج الشام ومسالخها ^٢ .

ومن المحتمل أن يكون هدف الروم من هجماتهم على المدن الإسلامية الحدودية منذ البداية ؛ هو اعتماد ذلك كتدبير وقائي لحماية بلاد الروم وردع المسلمين ، لكن استجابة معاوية كانت فوق التحدي ، فقد نقل المعركة إلى بلاد العدو ، وابتعد بالحرب عن بلاد المسلمين ، وكان لابد لمعاوية — من أجل تحقيق ذلك الهدف — من تطوير وسائل الدفاع ، واعتبار العواصم والثغور مجرد قواعد متقدمة واجبتها تلقى الصدمة والإنذار ، مع استخدام هذه القواعد مركز انطلاق للهجمات المضادة ^٣ . وقد قاد معاوية بنفسه بعض هذه الصوائف منها صائفة سنة 22 هـ حيث دخل بها بلاد الروم في عشرة آلاف ^٤ ، وصائفة سنة 23 هـ حيث أوغل حتى بلغ عمورية ؛ ومعه من أصحاب رسول الله ﷺ عبادة بن الصامت وأبو أيوب الأنصاري وأبو ذر الغفاري وشداد بن أوس ^٥

ومن الظاهر الحامل للناس ، فيجتمع المجاهدون للدخول في الصائفة إلى أرض العدو ، ثم يفتنون لعشر تغلوا من يوليو فيقيمون فيها إلى وقت قتلهم منها ستين يوما أو أكثر ، أما الشواطي ، ومفردتها شاتية : فهي القوات الكبيرة التي تنظم في جيش مهمته غزو بلاد الروم في الشتاء — ما بين أوائل شهر مارس حتى نهايته ، وتكون واجبات الشاتية أقل عمقا ، وأكثر قربا من الحدود الإسلامية ؛ للإفادة من فترة ضعف العدو ، وعدم استعداده ، في توجيه ضربة قاسية ثم الانسحاب (ابن حرداذبة: نبد الخراج ص، 259 ، بسام العسلي: معاوية بن أبي سفيان هامش ص 63 — 64)

^١ اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي 133/2 ، والدروب هي الخاور التي تخترق سلسلة الجبال الفاصلة بين بلاد الشام ودولة الروم "جبال الأمانوس" ، وأظهر هذه الدروب عبور أنطاكية — المصيصة — إقليم آيدن — القسطنطينية ومحور الجزيرة مرعش — طوانة — عمورية — القسطنطينية ، بسام العسلي : معاوية بن أبي سفيان هامش ص ٦٤

^٢ الطبري : السابق 62/4

^٣ بسام العسلي : السابق ص 65 ، والثغور هي المدن والعواصم المجاورة لحدود الإمبراطورية البيزنطية وكانت هذه المدن والعواصم هي مراكز الحشد لجيوش المسلمين قبل انطلاقهم لأعمال الصواطي والشواطي ، ومن هذه الثغور: قنسرين وأنطاكية ، وهارون الرشيد هو أول من أطلق على الثغور اسم العواصم ، وكانت فيها جماعات دائمة تقيم الدفاع عنها ، راجع هامش المرجع السابق 65

^٤ الطبري : السابق 160/4

^٥ السابق 241/4

— تكوين أسطول إسلامي والجهاد في البحر :

ويعود الفضل إلى معاوية في هذه المرحلة المبكرة إلى فتح باب الجهاد في البحر الذي أصبح ضروريا لحماية الشام ومصر، ومواجهة النشاط المتزايد للأسطول البيزنطي، وغاراته المتكررة على سواحل الإقليمين، وإمداداته للثانين هما، "وقد استطاعت عمليات الصوائف والشواتي أن تضع حدا للتهديدات البرية، لكن المدن الساحلية؛ بداية من أنطاكية ونهاية بالإسكندرية، بقيت تحت رحمة البحرية البيزنطية، وأدرك معاوية أيضا أنه من المحال تطوير عمليات الفتح في أفريقيا ما لم يتم انتزاع السيطرة البحرية من البيزنطيين"^١ ..

وروى سيف بن عمر أن معاوية ألح على عمر بن الخطاب عليه السلام في غزو البحر، وقال: يا أمير المؤمنين إن بالشام قرية يسمع أهلها نباح كلاب الروم، وصياح ديوكهم، وهم تلقاء ساحل من سواحل حصص، فاقمه عمر لأنه المشير، فكتب إلى عمرو بن العاص — عامله في مصر — أن صف لي البحر، ثم اكتب إلي بخبره، فكتب إليه: يا أمير المؤمنين إني رأيت خلقا عظيما يركبه خلق صغير، ليس إلا السماء والماء؛ وإنما هم كدود على عود، إن مال غرق وإن نجا برق .. فكتب عمر إلى معاوية: كيف أحمل الجنود على هذا البحر الكافر المستعصب، وتالله لمسلم أحب إلى مما حوت الروم، فإياك أن تعرض لي، وقد تقدمت إليك..."^٢، فأنتهى معاوية عما كان صرح به، ولكن الفكرة ظلت تملأ عقله، ويراها أمرا لا بد منه، حتى إذا مات عمر وولى عثمان استأذنه في غزو البحر فأذن له بعد لأي^٣، فذهب معاوية بفخرها حتى لقبه بعضهم بأبي البحرية الإسلامية^٤ ..

٤- معاوية ومظاهر الملك في عهد عمر بن الخطاب:

كان معاوية الذي تربى في بيت السيادة والشرف في الجاهلية تدفع به عوامل البيئة والترقية إلى استشراف المكانة الأسمى، فمنذ صباه نظر إليه أبوه وقال: إن ابني هذا لعظيم الرأس، وإنه خلقي أن يسود قومه، فقالت أمه على الفور مستنكرة: "قومه فقط؟؟ فكلمته إن لم يسد العرب قاطبة"^٥ ..

^١ بسام العسلي: معاوية بن أبي سفيان ص 40 وربما لا يصدق الحديث عن ضمانات فتح أفريقية هنا عن عهد عمر بل عن عهد عثمان بن عفان (ض) لما انطلق عبد الله بن سعد، لتحقيق شيء من هذا..

^٢ الطبري: السابق 259/4

^٣ البلاذري: فتح البلدان 134 - 135، الطبري: السابق 260/4

^٤ بسام العسلي: معاوية بن أبي سفيان ص 405

^٥ ابن كثير: البداية والنهاية 118/8 وتوجد مبالغات كثيرة وتنبؤات عن سيادة معاوية منذ صغرة، بل قبل ولادته راجع السابق 116/8، 117،

وكان أبواه اللذان خسرا المكانة البارزة بين المسلمين لتأخر إسلامهما يدفعان بانيهما إلى إحراز ما فاتهما ، مدركين جدارته ، ومؤهلته للريادة والصدارة.. فلما أن ولاه عمر بعض أمره قالت له هند ناصحة : والله يا بني قل أن تلد حرة مثلك ، وإن هذا الرجل قد استهضك في هذا الأمر ، فاعمل بطاعته فيما أحببت وكرهت .. وقال له أبوه: يا بني إن هؤلاء الرهط من المهاجرين سبقونا وتأخرنا ، فرفعهم سبقهم وقدمهم عند الله وعند رسوله ، وقصر بنا تأخيرنا ، فصاروا قادة وسادة ، وصرنا أتباعا ، وقد ولوك جسيما من أمورهم ، فلا تخالفهم ، فإنك تجرى إلى أمد فنافس ، فإن بلغته أورثته عقبك " ١ ..

وكانت شخصيته المتميزة تظهر حتى في أيام عمر ، وبين كبار الصحابة الفاتحين في الشام ، ويبدو مسئلكه المتفرد في المظهر والإدارة ، رغم إدراكه إمكان إنكار عمر وتغيره عليه ... فلما خرج عمر إلى الشام تلقاه أمراؤه وفيهم معاوية قد خرج في موكب عظيم ، ثم راح إليه في موكب آخر ، فقال له عمر: يا معاوية ، تروح في موكب وتغدو في منله ، وبلغني أنك تصبح في منزلك وذوو الحاجات ببابك ! فقال: يا أمير المؤمنين؛ إن العدو بما قريب منا، ولهم عيون وجواسيس، فأردت يا أمير المؤمنين أن يروا للإسلام عزا، فقال له عمر: إن هذا لكيد رجل لبيب ، أو خدعة رجل أريب ، فقال معاوية : يا أمير المؤمنين؛ مرني بما شئت أصر إليه ، قال: ويحك! ما ناظرتك في أمر أعيب عليك فيه إلا تركتني ما أدرى أمرك أم أمالك ، فقال رجل: يا أمير المؤمنين ما أحسن ما صدر الفتى عما أوردته فيه ، فقال عمر: لحسن موارده ومصادره جشمناه ما جشمناه " ٢ . فبرهن الخليفة والوالي بذلك على فهم عميق لضرورات السياسة وتغير البيئة والمجتمع ، وأثر ذلك كله على التطوير السياسي لأدوات الحكم ، ومهما يكن من أمر فقد عظمت مكانة معاوية عند عمر رضي الله عنه ؛ فولاة أهم أقاليم دولته ، وزاد في ولايته ، ولم يعزله ، على كثرة من كان يعزل من عماله وأمرائه ، وكان معجبا بذكائه وإدارته ولا يكتف ذلك الإعجاب حتى قال يوما لجلسائه : " تذكروا كسرى وقيصر ودهاءهما وعندكم معاوية " ٣ ! ..

^١ ابن كثير : السابق 118/8 ، اللادري : أنساب الأشراف 9/1 وربما كان الحديث عن توريث السيادة هنا لا يعنى توريث الحكم ؛ فقد كان ذلك يبدو أمرا مستبعدا في ذلك الوقت من خلافة عمر بن الخطاب ، فيجب أن يحمل ذلك على ما يرثه الابن من شرف أبيه وعزه ومكانته ..

^٢ الطبري : السابق 331/5 ، ابن كثير : السابق 124/8 - 125

^٣ الطبري : السابق 330/5

المبحث الثالث

الأمويون في خلافة عثمان رضي الله عنه

لم يكن استخلاف عثمان دسيسة أموية جاءت نتيجة محاباة عبد الرحمن بن عوف — صهر عثمان — له دون بقية أعضاء مجلس الشورى الذي شكله عمر بن الخطاب ليتولى مهمة اختيار الخليفة الجديد .. أو دون علي بن أبي طالب بوجه خاص ، فقد كان القوم أتقى لله وأحرص على الأمة وأكرم على نفوسهم مما يتصور بعض المؤرخين والباحثين^١ ، وقد كان بوسع ابن عوف ألا يخرج نفسه من أصحاب الشورى ليختار لهم بعد مشاوراة الأمة التي ظل يعانيتها ثلاثة أيام لم يكتحل فيها بنوم^٢ ، ولو فعل ذلك لأخفى نفسه من مغبة ذلك الأقدام ، وربما يقع عليه اختيار بقية أصحابه ليكون الخليفة المنتظر ، وما كان ذلك مستبعدا إزاء اختلاف ابني عبد مناف عثمان وعلي .. ولو أراد ابن عوف أن يحايي أحدا لحايي ابن عمه سعد بن أبي وقاص الزهري فهو أقرب إليه من عثمان ، ولكنه شاور الناس فما وجدهم يعدلون أحدا بعثمان ثم علي ، مع تفضيل أكثرهم عثمان لئله وسماحته بعد شدة عمر رضي الله عنه^٣ ، وبعد انقضاء المهلة التي حددها عمر — ثلاثة أيام — دعا عبد الرحمن عليا وعثمان في المسجد أمام الناس ، فعرض على كليهما أن يعطيه عهد الله وميثاقه إن ولي أمر المسلمين أن يعمل فيهم بكتاب الله وسنة رسوله وميرة الخليفين من بعده أبي بكر وعمر ، فقال علي: أرجو أن أعمل وأعمل ببلع علمي وطاقتي ، وقال عثمان : نعم ، ولم يتردد ، فبايع عثمان^٤ ، فكان عرضها على علي أولا قبل عثمان ؛ وما كان في شرطه غبن أو شبهة ..

والحق أنبيعة عثمان كانت غوڈجا للشورى الإسلامية في أروع صورها ، ولم يتحقق ذلك على هذا النحو في استخلاف أبي بكر وعمر ، ولن يتحقق كذلك في استخلاف علي فيما بعد ،

^١ راجع في الشبهات حول موقف بني أمية من استخلاف عثمان وخلافته : العقاد : عقريسة على 101 — 102 ، د. محمد جمال سرور : الحياة السياسية في الدولة العربية الإسلامية 57 ، فلهوزن : تاريخ الدولة العربية 39 ، جرجي زيدان : تاريخ التمدن الإسلامي 63/4 ، د. بيضون : الحجاز والدولة الإسلامية ص 61 ، بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية 132/1 — 133 ، د. الخربوطلي : تاريخ العراق 14

^٢ الطبري : السابق 232/4

^٣ كانت المرأة ترقص ولدها فتقول :

أحبك والرحمن .. - حب قرينش لعثمان

(ابن عبيد ربه العقد الفريد 285/4 ، الذهبي : تاريخ الإسلام 74/2 ، د. مصطفى حليمي : نظام الخلافة 62)

^٤ الطبري : السابق 233/4

ولذلك كان أحمد بن حنبل يقول: "ما كان في القوم أوكد بيعة من عثمان ، كانت بإجماعهم " ؛ وصدق أحمد ، فلو قدر أن عبد الرحمن بايعه ولم يبايعه علي وطلحة والزبير وأهل الشوكة لم يصير إماماً ^١ ، وقد كان أصحاب النبي ﷺ وأعلم الناس بعثمان يشهدون له أنه كان أجدر الناس بالخلافة وأتقاهم الله تعالى ^٢ ..

دعوى محاباة عثمان بني أمية واستغلالهم خلافته :

يكثر المؤرخون من الحديث عن محاباة عثمان أقاربه وسيطرقم على أزمة الحكم في عهده ، حتى أثاروا عليه نقمة كثير من الناس ، فناروا ناقمين عليه ضعفه وإطلاقه يد ذوى قريبه في شئون الدولة ، ويذكرون من أقاربه هؤلاء مروان بن الحكم والحارث بن الحكم وعبد الله بن سعد بن أبي السرح ؛ وهؤلاء الولاة متهمون بالعداء للإسلام قبل الفتح ^٣ ، كما أنه استعمل عبد الله بن عامر على البصرة ، والوليد بن عقبة على الكوفة ؛ ثم عزله لما اقم بشرب الخمر والاستهتار بالدين وولى مكانه سعيد بن العاص الأموي، بينما كان معاوية عاملاً على الشام ^٤ ..

ومن الواضح أن هذه الرؤية المتحاملة على الأمويين متأثرة بالدعاية النشطة ضدهم ، وأن الدراسة الدقيقة جدية بتصحيح الصورة وجلاء الحقيقة .. فبعض هذه الأسماء التي ذكرها الرواة والمؤرخون قد وليت وظائف لا خطر لها ، وهى أسماء لم يعرف لها شأن أو دور بارز في توجيه شئون الدولة أو أحداث العصر ، مثل الحارث بن الحكم الذي يذكرون أنه ولي الإشراف على أسواق المدينة ، وقد ذكر الديار بكري أن عثمان جعل إليه سوق المدينة ليراعى أمر المتأقيل والموازين ؛ فتمسك يومين أو ثلاثة على باعة النوى ، فاشتره لنفسه ، فلما رفع ذلك إلى عثمان أنكره عليه وعزله ، وقال لأهل المدينة : إني لم أمره بذلك ، "ولا عتب على السلطان في جور بعض العمال إذا استدرك ذلك بعد علمه " ^٥ ..

وبعض هذه الأسماء ضخمت الروايات دورها وخطورتها مثل مروان بن الحكم ، الذي يرون أنه أصبح مستشار عثمان " الذي أطلقت يده في إدارة شئون الدولة ؛ حتى ليصح أن يقال إن

^١ ابن تيمية: المنتقى من منهاج الاعتدال 58-59 ابن سعد : الطبقات الكبرى 43/3 ، ابن عساكر : تاريخ دمشق ترجمة عثمان ص 205 ، ابن الجوزي : صفة الصفوة 118/1

^٢ ابن سعد : الطبقات الكبرى 43/3 ، ابن عساكر : تاريخ دمشق ترجمة عثمان ص 205 ، ابن الجوزي : صفة الصفوة

118/1

^٣ د. محمد حلمي : الخلافة والدولة في العصر الأموي 76-77

^٤ محمد مهدي شمس الدين : ثورة الحسين 40

^٥ تاريخ الخميس 268/2

السلطات الفعلية أصبحت كلها في يده " ١ ، ولم يكن مروان بالتأكيد المستشار الأوحد للخليفة ، الذي كان يستشير كبار الصحابة وصغارهم ، ولم يكن بمعزل عن قادة الرأي في مجتمع الإسلام ، وكذلك لم يكن مروان الوزير الذي جمعت تحت يده سلطات الدولة ، إنما كان كاتباً للخليفة ، وهي وظيفة تستمد أهميتها من قرب صاحبها من أذن الخليفة وخاتمه ، ونحسب أن مروان كان أنقى لله من أن يأتي في عمله بما يضر مصلحة المسلمين أو خليفته وابن عمه ، الذي يستمد قوته ومكانته منه ، أما ادعاء توريطه عثمان وإثارة الناس عليه لنتقل الخلافة بعد ذلك إلى بني أمية فافتراض لا دليل عليه ، ولم تنتقل الخلافة إلى بني أمية إلا بعد أهوال جسام لم يكن لمروان فيها دور خطير.. ثم إن عثمان لم يكن ضعيف الشخصية حتى يتمكن منه كاتبه إلى الحد الذي يتصوره الرواة ٢ ، وسوف نرى بعد أن مروان لم يكن ذلك الرجل الشرير الذي يتحدثون عنه ٣ ، ولا ذنب لمروان بن الحكم إن كان الرسول ﷺ قد نفى أباه الحكم بن أبي العاص للذنب آتاه ، " لأنه كان صغيراً لم يجر عليه القلم ، زملن النبي ﷺ ومروان لم يبلغ الحلم باتفاق أهل العلم ، بل غايته أن يكون له عشر سنين أو قريب منها ، وكان مسلماً ظاهراً وباطناً ؛ يقرأ القرآن ويتفقه في الدين ، ولم يكن قبل الفتنة معروفاً بشيء يعاب فيه ، فلا ذنب لعثمان في استكابه ، وأما الفتنة فأصابت من هو أفضل من مروان " ٤ ، بل إن خير طرد النبي ﷺ لأبيه ضعيف سنداً ومتناً ، وقد تعقبه شيخ الإسلام ابن تيمية فأوضح تهافته وضعفه ٥ .

وبعض هذه الأسماء لا تربطها بعثمان وشائج القرابة القريبة ؛ وهناك في بني أمية من كان أقرب إلى عثمان منهم ، مثل عبد الله بن سعد بن أبي سرح الذي لم يكن أحد بني عمومة عثمان ، فهو عامري من بني عامر بن لؤي ، وصلة قرابته لعثمان أقماً أخوان من الرضاعة ٦ ، وإذا كان قد ارتد عن الإسلام في حياة النبي قبل فتح مكة فقد عاد وأسلم واستأمن له عثمان رسول الله فآمنه ، ثم حسن إسلامه ، وولاه عمر بن الخطاب صعيد مصر لما كان عمرو بن العاص والياً عليها ، ثم طلب بعض أهل مصر من عثمان استعمال ابن سعد الذي كان آنذاك عاملاً على الخراج بدل ابن العاص ، فوافقهم عثمان ، وقد كان على حد تعبير الليث بن سعد لقيه مصر: "محموداً في ولايته ، وغزاً ثلاث غزوات كلها لها شأن وذكر ، فغزا أفريقية سنة سبعة وعشرين وقتل ملكهم جرجير.. وغزاً غزوة

١ د. حلمي : السابق 76

٢ راجع العقاد : ذر الثورين عثمان ص 74 - 75

٣ انظر ص من هذا البحث

٤ ابن تيمية : منهاج السنة 197/3

٥ السابق 195/3 - 196

٦ ابن هشام : السيرة النبوية 20/4 ، إحسان أبي ظهير : الشيعة والتشيع 110

الأساود حتى بلغ دملقة (بالنوبة) وذلك سنة إحدى وثلاثين ، فهادهم ثم غزا غزوة ذات الصواري سنة 34 هـ^١ ، وفيها قهر المسلمون الروم في البحر .

أما ولاته على العراق الوليد بن عقبة ثم سعيد بن العاص على الكوفة وعبد الله بن عامر على البصرة ، فقد كانوا أكفاء حلماء كرماء فاتحين ، كما تشهد بذلك تراجمهم وأقوال المؤرخين عنهم ؛ حتى بعض المتحاملين على بني أمية^٢ ، وقد رمي بعضهم باتهامات باطلة روجها جماعة السبئية في بيئة العراق القبلية المضطربة ، ولكنها عند النقد والتمحيص لا تثبت ؛ مثل ما زعموه من شرب الوليد بن عقبة الخمر ، ومن اتهامه بالفسوق وأنه المعنى بقوله تعالى : " إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا " ، وقد أوضحت روايات الطبري أسباب الاتهام الأول وزيفه^٣ ، كما أوضحت بحوث بعض العلماء فساد الاتهام الثاني أو ضعفه^٤ ..

ولم تكن ولاية العراق — في هذه الفترة — هدفا يسعى إليه ، أو مكافأة يرجى نوالها ، ولو كان عثمان يريد مكافأة هؤلاء الرجال لولاهم غير العراق من الولايات المستقرة ، أو لأغدق عليهم الإقطاعات والأموال وهم في مأمن من الشبهات ، وعافية من الابتلاءات ، ثم إنه لم يتدبّر خلافته بتولية هؤلاء ، فقد ولاهم بعد شكوى أهلها من عمالها الصلحاء السابقين كسعد بن أبي وقاص في الكوفة وأبي موسى الأشعري بالعراق وقد اتهم العراقيون هذين الصحابييين الجليلين كما اتهموا من تلاهما من بني أمية .. كما أنه لم يول أيا منهم رغما عن رغبة أهل مصر ، ولم يتوان في عزله لما ظهرت شكائتهم رغم وضوح فرائدها ..

ولنحّن نعلم أن العراق قد أضجر من قبل ذلك عمر بن الخطاب حتى ضج بالشكوى من أهله وأهله أمرهم حتى كان يقول : " وأي نائب أعظم من مائة ألف لا يرضون عن أمير ، ولا يرضى عنهم أمير " ، كما لم يستقم حكمه لعلي بن أبي طالب بعد ذلك حتى قتل بيد أحد أهله ، ودفع العراقيون باضطراب أمورهم الحسن بن علي إلى التنازل عن الخلافة لمعاوية ، كما أنه ظل في خلافة الأمويين موطن الثورات وملاذ الخارجين ...

^١ الكندي : ولاية مصر وقضاها 17-18 وابن حجر : الإصابة 317/2

^٢ راجع طه حسين : الفتنة الكبرى 188/1 - 189 ، العقد : ذو النورين عثمان 201 - 202 ، بندلي جوزي : من تسليخ

الحركات الفكرية في الإسلام ص 60 مع التحفظ على ما ذهبوا إليه

^٣ سورة الحجرات آية 6

^٤ الطبري : السابق 271/4 - 278

^٥ ابن العربي : العواصم من القواصم ص 102 ، 106

^٦ الطبري السابق 165/4

ورغم كثرة ما قيل عن سيطرة الأمويين على مقاليد الأمور في خلافة عثمان فإن حقائق التاريخ تثبت أن كثيرا من المناصب كانت بعيدا عنهم مثل القضاء وبيت المال والشرطة والنيابة عن الحج وباقي الولايات الإسلامية^١ ..

ويحفظ لنا التاريخ مثلا واضح الدلالة على أن عثمان لم يكن يولي من بني أمية إلا الأكفء ، فقد رفض أن يولي محمد بن أبي حذيفة بن عتبة بن ربيعة أية ولاية رغم أنه طلب ذلك منه ، وقال له : " يا بني لو كنت رضا ثم سألتني العمل لاستعملتك ولكن لست هناك " ، رغم أنه نشأ يتيما في حجره ، وكان عثمان والي أيتام أهل بيته ، فقال ابن أبي حذيفة : فأذن لي فلأخرج فلأطلب ما يقوتني ، فقال عثمان: اذهب حيث شئت، وجهزه من عنده وحمله وأعطاه ، فذهب إلى مصر فكان زعيم الثائرين بها على عثمان وقائد الخريجين عليه^٢ ، وما كان أغنى عثمان عن ذلك لو كان كما يزعم الرواة .. ولكنه لم يكن ذلك الرجل الذي يحايي أقاربه على حساب المسلمين، فيوما وقف أبو سفيان ببابه وقد اشتغل ببعض مصالح المسلمين ؛ فحججه ، فقال له رجل أراد أن يغريه : يا أبا سفيان ما كنت أرى أن تقف بباب مضري فيحججك ، فقال شيخ بني أمية : لا عدمت من قومي من أقف ببابه فيحجيني^٣ ..

علي أيضا ولي أقاربه:

ليس من سبيل إلى إنكار بر عثمان بأهله وأقاربه من بني أمية ، بل ليست هناك حاجة إلى إنكار ذلك ، فقد كانت هذه فضيلة كبرى من فضائل عثمان ذكرها له علي بن أبي طالب عليه السلام في قوله عنه : "كان أوصلنا للرحم وأتقانا لله"^٤ ، وقد جمعت هذه الجملة القصيرة أطراف هذه القضية، فعثمان بار بأهله وأصل لهم ، ولكنه تقي لله لم يمل به حبه لأهله إلى غشيان محرم.. وقد كان عمر بن الخطاب يعرف بنظرته الملهمة هذه السجية في عثمان، كما عرفها في علي ، وكان يخشى إن تولى أحدهما خلافة المسلمين أن يصل به بره بأهله إلى تفضلهم عمن سواهم وتقريبهم عمن عداهم، وحملهم على رقاب الناس ، وقد حذرهما ذلك في مرض وفاته وفي وصاته لهم^٥ .. غير أن عثمان بعد مضي فترة من خلافته ، وعلي منذ بداية استخلافه ، قد وليا من أقاربهما بعضهم ، ولعل

^١ خليفة بن خياط: تاريخ خليفة 157/1 ، اليعقوبي : السابق 137/2 ، 176

^٢ الطبري : السابق 399/4 ، ابن الأثير : الكامل 135/3 والعقاد : ذو النورين عثمان 228 ، وانظر في تأليه مصر على عثمان الكندي : ولاية مصر وقضاها 19 و الطبري : السابق 292/4

^٣ ابن عبد ربه : العقد الفريد 83/1

^٤ ابن الجوزي : صفة الصفوة 118/1

^٥ الإمامة والسياسة 25/1

ذلك كان مرتبطا بثقة كل منهم فيمن حوله في هذه الأجواء التي تنبض بالشك والخصومة والشكوى المستمرة ؛ فلم يجد كلاهما أخلص له ولقضيته في بعض الأوقات والمواطن من بعض أهلهم ..

وإذا كان ذلك مشهورا عن عثمان ، للدعاية السبئية والشيعة ضده فإن عليا عليه السلام قد ولى في خلافته ابن عمه قثم بن العباس على مكة وعبيد الله بن العباس على اليمن^١ ، وعبد الله بن عباس أخوهم على البصرة ، وولى ربيبه وابن زوجته محمد بن أبي بكر على مصر^٢ ، وولى صهره وابن أخته جعدة بن هبيرة على خراسان^٣ ، كما كان على عبيد الله بن محمد بن الحنفية ، وكان علي نفسه بالكوفة ، وقد ناب عنه في الحج سنة 36 هـ عبد الله بن عباس ، وسنة 37 هـ قثم بن عباس وسنة 38 هـ عبيد الله بن عباس^٤ ، وهؤلاء أكثر ممن استعملهم عثمان وهو يلي بلاد الإسلام كلها ، وعلى عليه السلام رفض معاوية وأهل الشام بيعته لم يكن يحكم سوى العراق والمشرق والحجاز ، ولم يدم له حكم مصر ولا استقام له حكم الحجاز ..

وقد أحس أحد النافرين على عثمان وكبار معاويني علي بذلك ، وهو الأشتر النخعي فقال متعجبا متضجرا : "علام فلنا الشيخ ؟ ! - يعني عثمان - إذ اليمن لعبيد الله والحجاز لقثم ، والبصرة لعبد الله ، والكوفة لعلي ؟ " ..^٥

اتهامات أخرى للأمويين وعثمان :

ومن أخطر هذه الاتهامات القول بإعطاء عثمان بعض أقرابه الأمويين من مال الله بسخاء ، وقد رد بعض العلماء على ذلك بأن عثمان كان يعطي أقرابه من ماله الخاص ، وكان ممن أغنى أغنياء العرب ، وهو كبير قومه والمنظور إليه في ذلك ، مع ما عرف عنه من كرم وحياء ، وهو يختلف هنا عن أبي بكر وعمر ، فلم يكن لهما مثل ماله ، ولم يكن بنو تيم وبنو عدي مثل بني أمية في كثرة العدد ، وذهب بعض العلماء إلى القول بأنه أعطى بعضهم من مال المسلمين اعتقادا بأن لهم حق في سهم ذوي القربى ، وأن ذوي القربى هم أقرباء الإمام باعتباره خليفة للرسول في حكم المسلمين ، أو أنه أعطى بعضهم لحسن بلائه وعظيم غنائه ، مع أنه قد عاد في بعض هذه الأعطيات لما عاتبه الناقمون عليه^٦ ، أما عثمان نفسه فقد دافع عن نفسه في ذلك فقال : " وقالوا : إني أحب أهل بيتي وأعطيتهم ؛ فأما حيي فإنه لم يمل معهم على جور ، بل أحل الحقوق عليهم ، وأما إعطائهم فإني إنما أعطيتهم من

^١ اليعقوبي : السابق 179/2

^٢ وأمه : أسماء بنت عيسى الخنعمية كانت زوجة لأبي بكر ثم تزوجها علي (ض) فيما بعد ..

^٣ وأمه أم هانئ بنت عبد المطلب

^٤ اليعقوبي : السابق 213/2

^٥ الطبري السابق 492/4

^٦ السابق 345/4

مالي ، ولا أستحل أموال المسلمين لنفسي ، ولا لأحد من الناس ، ولقد كنت أعطي العطية الكبيرة الرغبة من صلب مالي زمان الرسول ﷺ وأبي بكر وعمر رضي الله عنهم — وأنا يومئذ شحيح حريص — أفحين أتت علي أستان أهل بيتي ، وفي عمري ، وودعت الذي لي في أهلي ؛ قال الملحدون ما قالوا ؟^١ ..

وقد اتهم بعض بني أمية بالمشاركة في تأليب الثائرين على عثمان ، وصاحب النصيب الأعظم في ذلك هو مروان بن الحكم الذي يزعمون أنه كتب رسالة إلى عامل عثمان على مصر يأمره فيها باسم الخليفة بقتل بعض الثائرين عليه ، وقد كان عثمان سكنهم لما أتوا إليه وأعتسهم وقضى بذلك على نذر الخطر القريب .. فلما علم الثائرون بذلك في الطريق ، وألقوا القبض على حساميل هذه الرسالة قدموا على عثمان فحسروه حتى قتلوه^٢ ..

ولا مصلحة لمروان في قتل ابن عمه عثمان ، ولقد دافع عنه حتى ارتث من بين القتلى وظن الناس أنه قتل^٣ ، والإسلام ، بل وطبيعة الحياة العربية ، تأبي على مروان أن يكر بسيدته لتحقيق أمل غير مضمون ؛ لو كان كما يزعمون يخطط لحكم بني أمية المطلق^٤ ، وظروف هذه الحادثة تشير الشكوك حول مصدر هذه الرسالة والغرض منها ، فقد كان حامل الرسالة نفسه مثيرا للشك ، فهو يظهر ثم يختفي ؛ يكاد يقول لمن حوله من الثائرين : خذوني فإن معي أمرا بقتلكم ! ، وكيف يرسل مروان رسالة إلى عامل عثمان بمصر — ابن أبي سرح — وهو يعلم أنه قد استأذن الخليفة للقدوم إليه للمشاورة في بعض أموره ، وأنه آنذاك ليس موجودا بمصر^٥ ، وإن نص هذه الرسالة ل يختلف اختلافا كبيرا بين الروايات المختلفة ، فتارة يأمر بقتلهم وتارة بجلدهم وتارة بقطعهم وصلبهم^٦ ، وإنه لما عاد ثوار مصر الذين وجدوا الكتاب المزور هذا لم يعودوا وحدهم ، بل عاد معهم أهل البصرة والكوفة من الثائرين ؛ فباغوا المدينة بالتكبير وسيطروا عليها تماما بعد أن ضمنوا تفريق المدافعين عنها ، فكيف عادوا جميعا في وقت واحد وقد تفرقوا واختلفت طرقهم نحو أمصارهم ؟ وقد اكتشف

^١ الطبري : السابق 347/4 - 348 ، وانظر ابن تيمية : منهاج السنة النبوية 190/3 - 191 ، الديار بكرى : تاريخ الخميس 267/2 - 268

^٢ الطبري : السابق 371/4 - 378 ، ابن عبد ربه العقد الفريد 392/4 - 393

^٣ راجع الطبري : السابق 380/4 - 381

^٤ د. بيضون الحجاز والدولة الإسلامية 162 - 163

^٥ الطبري : السابق 378/4

^٦ راجع د. شعوط : أباطيل يجب أن تمحي من التاريخ ص 259

علي عليه السلام ذلك فقال لهم : "كيف علمتم يا أهل الكوفة يا أهل البصرة بما لقي أهل مصر.. وقد سرت مراحل ، ثم طويتم نحونا ؟ هذا والله أمر أبرم بالمدينة " ^١ .. ولم يكن هذا هو الكتاب المزور الوحيد في هذه الفتنة التي قاد أحداثها تنظيم غاية في الدقة والبراعة والسرية ، فقد سبق أن زورت عدة رسائل على لسان بعض الصحابة يدعون فيها أهل الأمصار للثورة على عثمان ^٢ ، ونحن نعلم أيضا أن بعض زعماء الثوار قد تخلفوا بالمدينة فلم يذهبوا إلى أمصارهم بلًا تفرق الثوار ، ولم يكن ذلك فيما يبدو إلا لتزوير ذلك الكتاب والاحتياط لإعادة التآمير واستئناف المهمة التي جاءوا لأجلها ^٣ ..

الخلاصة :

نصل من ذلك كله إلى نتيجة واضحة مؤداها أن عثمان كان حقا شديد الحب لأقاربه وأنه ولي بعضهم عدة ولايات ، ولكن ذلك لم يمل به إلى غشيان محرم ، أو إساءة السيرة والسياسة ، وقد كان علي عليه السلام أيضا يحب أقاربه ويوليهم الولايات أكثر مما فعل عثمان ، بل كان ولاية عثمان عند التحقيق أكفأ في السياسة وأقدر في الإدارة من ولاية علي ، ولم يكن لسياستهم دور مؤكد في إثارة الناس على عثمان ، بل إن الدور الأكبر في ذلك يعود إلى براعة تنظيم السبئية الذين سمموا الجو بالإشاعات الكاذبة مستغلين لين الخليفة ورغبته في المسالمة والمودعة وشفقته من إراقة الدماء أو العنف مع بعض من يظهرهم الإسلام ، وقد كان من مصلحة بني أمية استمرار هذا النظام ، لأن فيه على أية حال شرف لهم وتفضيل ، ولذا فقد دافعوا عن عثمان ضد الثائرين عليه في المدينة ما استطاعوا ، حتى إذا قتل الخليفة ظلما حل معاوية لواء الثار له كما سيأتي ..

^١ الطبري : السابق 351/4

^٢ ابن العربي : العواصم من القواصم 140 ، 142

^٣ محب الدين الخطيب : هامش المنقح من منهاج الاعتدال لابن تيمية 377

المبحث الرابع

الأمويون في الطريق إلى الخلافة

مقدمة: الدولة الإسلامية بين عهدين ودور التطور الاجتماعي :

إن الأسباب الحقيقية التي أدت إلى الثورة على عثمان لم تنته بقتله، بل ظلت تأثيراتها وظلالها تنسحب على الحياة الإسلامية بشكل ظاهر في الفترة التي تلت ذلك وشهدت استخلاف علي بن أبي طالب ورفض معاوية البيعة له وصراعه ضده، حتى قتل علي ودانت بلاد الإسلام لمعاوية .. إذ إن أسباب الثورة لم تكن — كما ظهرت في شكلها البسيط — ترجع إلى غضب جماعة من الرعية ممن بعض تصرفات الخليفة أو عماله على الولايات .. بل تعود إلى تغيرات اجتماعية عميقة، ظلت تعمل في صمت وقوة لا يلاحظهما كثير من الناس، حتى ظهرت على ذلك الشكل العنيف المتفجر بدءاً من النصف الثاني من خلافة عثمان، وبلغت قمة فورانها في الثورة التي أدت إلى استشهاده رضى الله عنه .

فالدولة الإسلامية التي كانت على عهد الرسول الكريم ﷺ وقبل فتح مكة مترابطة متجانسة، تلتقي فيها رغبات القيادة والأمة، ويلتف أفرادها حول عقيدة واحدة، يحاولون جاهدين التمثيل الكامل لها، لم تعد كذلك، فهي لم تعد تشمل جماعة المهاجرين والأنصار فقط، بل دخل الناس في دين الله أفواجا بعد فتح مكة، ودفعت الفتوحات في عهد أبي بكر وعمر وعثمان بالأعداد الغفيرة من البشر إلى الإسلام، وهم من أجناس شتى وأمم مختلفة، فالتقى هؤلاء وهؤلاء، وتأثروا بهم وبأنماط معيشتهم وألوان حضارتهم .. لقد أصبحت دولة الإسلام دولة عالمية بما تحوى هذه الكلمة من تغيرات ومسئوليات .. والعامل العقدي الذي كان صاحب الكلمة الأولى والدور الأكبر في البناء النفسي للأمة لم يعد في مثل قوته وحيويته إذ تقلص عدد رواده بمضي الزمن، وأصبحوا في الناس كأنهم شامة، وأين أعداد الفئة الممتازة من المهاجرين والأنصار الذين تحملوا التضحيات الأولى الجسيمة من أجل الإسلام؛ في أعداد القبائل الضخمة التي دخلت في الإسلام بعد ذلك، والتي سرعان ما ارتدت بعد وفاة النبي ﷺ وسرعان ما عادت أيضاً إلى الإسلام من جديد، ولم يطل بهم الوقت حتى كانوا هم أبطال الفتوحات الكبرى، وأهل الأمصار الجديدة، وأصحاب الفضل الأول في فيض الغنائم المائل الذي سال على المسلمين والدولة، ومارس دوره في تغيير كثير من النفوس، التي تراوحت بين التشييت بقيم الزهد والتمتع بالرزق الحلال .. فظهرت ضروب من الترف والتعمم لم يكن للمسلمين والعرب فيما مضى علم بها .

ورغم خطورة الدور الذي بدأت تمارسه هذه القبائل في تلك الأمصار فإن التطور الاجتماعي المطرد والمتلاحق لم يواكبه تطور سياسي على ذات المستوى، فلم تبذل جهود موازية وكافية لتربية أفراد هذه القبائل على قيم الإسلام الأصيلة وروح العقيدة المتوهجة، ومعاني النظام والجماعة وضرورة الطاعة وأساليب الحكم في الدولة لا القبيلة .. ولم تبذل جهود موازية لإشراك هذه القوى

الجديدة في إدارة الأمور، حيث ظل أهل الحل والعقد والأمر والنهي — كما كانوا من قبل — ممن تلك الجماعة الممتازة من أصحاب النبي ﷺ الأولين، وظلت قريش تتمتع إلى جانب الإدارة السياسية للدولة بالنصيب الأكبر من الغنائم وغمار الفتح، إذ إن نظام العطاء الذي وضعه عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يقضي بتفضيل السابقين إلى الإسلام والأقربين إلى رسول الله ﷺ، وكلا الصنفين من قريش! وهذا النظام — وإن بدا صالحا في وقته — كان يجب أن يتطور بعد ذلك حتى لا تثور نقمة تلك القبائل على قريش والخلفاء المنتهين إليها!

إن هذه العوامل كما هو واضح غير مرتبطة بشخص عثمان وحده ولكن حدثها صادفت وجوده خليفة، فقد كانت تلك الأسباب وراء تملل عمر بن الخطاب من رعيته أو آخر حياته وتعلمهم منه^١، وكانت وراء قتل عثمان، وكانت وراء بعض سلوك علي لما استخلف، وفشل سياسته في العراق، ووراء امتناع معاوية عن بيعته والصراع بينهما ..

١- ظروف بيعة علي وامتناع معاوية:

كانت بيعة علي رضي الله عنه بالخلافة تختلف اختلافا كبيرا — في الظروف المحيطة بها — عن بيعة الخلفاء الثلاثة السابقين؛ أي بكر وعمر وعثمان، الذين تمت بيعتهم في جو من الشورى والسكينة والرضا .. فقد تمت بيعة علي بعد ثورة عنيفة، مثلت سابقة خطيرة في حياة الأمة الإسلامية؛ حيث عدت جماعات من الأنصار ونزاع القبائل والأعراب الذين لا تعرف لهم سابقة في الإسلام، ولا فضيلة يمتازون بها على غيرهم، على مدينة رسول الله ﷺ ففرضت إرادتها على أهلها، وحاصرت خليفة المسلمين — وهو شيخ كبير — ثم ما لبثوا أن قتلوه، ولم تجد معهم ناصح المخلصين المشفقين، ولا رجاءات الخليفة المظلوم أن لا يفتحوا على المسلمين بابا من أبواب الشر لا يتغلق، وإعلانه أمامهم توبته وبراءته من كل ما أخذوه عليه، فلما لم يثمر كل ذلك، أغلق عليه بابه، ونهى الناس عن القتل وسل السيف بين المسلمين ورفض أن يدفع عن نفسه حتى مضى شهيدا في الشهر الحرام في البلد الحرام .. حتى ما استطاع إلا نفي يسير أن يدفنه ليلا وفي تكتم شديد وعلى نحو لا يليق بصحابي جليل، خوفا من المعتدين وشفقة من إجرامهم^٢ .. فلما قتل عثمان بقيت المدينة خمسة أيام أميرها أحد الجرمين واسمه الغافقي بن حرب، وهم يلتمسون من يبيحهم إلى القيام بأمر المسلمين فلا يجدون، فقد قرب منهم علي، وتبرأ منهم طلحة والزبير، ويكتمهم سعد بن أبي وقاص وعبد الله بن عمر^٣، غير أن ذلك لم يكن حلا، فإن الناس لما أفاقوا من هول المفاجأة أدركوا أنه لا بد للناس من إمام، وأمام إصرار السبئية وإرهابهم غشي الناس عليا رضي الله عنه يرجونه أن يقبل الإمارة، فقبلها بعد امتناع وتردد^٤،

^١ الطبري: السابق 213/4-214 حيث كان عمر يقول: "اللهم ملون وملتهم، وأحسست من نفسي وأحسوا مني .. فاقبضي إليك"، وانظر السابق 397/4 حيث يقول الشعبي: "لم يمت عمر رضي الله عنه حتى ملته قريش" ..

^٢ راجع الطبري: السابق 412/4-415

^٣ السابق 432/4

^٤ السابق 434/4-435

وبايعة الناس، وجاء الثوار بأبرز المرشحين الآخرين للخلافة غير علي — طلحة والزبير — يتلوها تلا عنيقا، فبايعا^١ ..

امتناع جماعة من كبار الصحابة عن بيعه علي عليه السلام :

ولقد أدى بروز قتل عثمان في إتمام البيعة لعلي عليه السلام على عجل بغير استشارة كافية لأهل الشورى والقادرين على الحل والعقد إلى نفرة جماعة من كبار الصحابة من البيعة لعلي عليه السلام، كما تؤكد روايات عديدة، لا غضا من شأنه ولكن تخوفا من الدخول تحت سيطرة هذه العصابة دخولا يتعذر الخروج منه، ومن هؤلاء الصحابة من المهاجرين والأنصار: عبد الله بن عمر وسعد بن أبي وقاص وصهيب بن سنان الرومي وزيد بن ثابت ومحمد بن مسلمة وسلمة بن سلامة بن وقش وأسامة بن زيد وقدامة بن مظعون وعبد الله بن سلام والمغيرة بن شعبة وحسان بن ثابت وكعب بن مالك ومسلمة بن مخلد وأبو سعيد الخدري والنعمان بن بشير ورافع بن خديج وفضالة بن عبيد وكعب بن عجرة، ناهيك عن فر من بني أمية إثر سيطرة الثوار على المدينة ومقتل عثمان؛ مثل مروان بن الحكم والوليد بن عتبة وسعيد بن العاص وآخرون^٢ ..

ولما عظمت الفتنة وكان القتال بين علي وأصحاب الجمل وبينه وبين أهل الشام تخلف عن علي عليه السلام كثير من المهاجرين والأنصار وأعيان الصحابة حتى إنه يروى عن محمد بن سيرين قوله : "هلجت الفتنة وأصحاب رسول الله ﷺ عشرة آلاف فما حضرها منهم مائة؛ بل لم يبلغوا ثلاثين"^٣ ويقول الشعبي : "ما نهض في تلك الفتنة إلا ستة نفر بدريون مالههم سابع"^٤.

٢- حجة معاوية في الامتناع عن البيعة :

ولا ريب أن معاوية في تخليه عن البيعة لعلي عليه السلام ما وسع هؤلاء الذين تخلفوا عنها من الحجة والعذر، وقد كانت حجته في ذلك تركز إلى أساسين : الأول : هو إقامه عليا بالتستر على قتل عثمان — وهم قادة جيشه — والثاني: أنه يرى أن بيعه علي لم تتعقد بشكل يلزمه، لافتراق الصحابة أهل الحل والعقد بالآفاق والأمصار، فلم يحضرها إلا قليل منهم، وقد امتنع عليه بعض كبار الصحابة كما رأينا ..

وقد لخص معاوية وجهة نظره هذه في حوار مع رسل علي عليه السلام لما دعوه إلى الطاعة والجماعة فقال : " .. فأما الجماعة التي دعوت إليها فمعنا هي، وأما الطاعة لصاحبكم فإننا لا نراها، إن صاحبكم قتل خليفتنا، وفرق جماعتنا، وآوى ثأرنا وقتلنا، وصاحبكم يزعم أنه لم يقتله، فنحن لا نرد

^١ السابق 4/435، وذلك ما تحقق عند أهل البصرة فيما بعد لما أرسلوا رسولا منهم إلى المدينة لتقصي الحقيقة (السابق 467/4 - 468)

^٢ راجع الطبري : السابق 4/429 - 431، ابن الأثير : الكامل 3/98، ابن كثير : البداية والنهاية 7/226

^٣ ابن تيمية : منهاج السنة، 3/186 ويعقب شيخ الإسلام على إسناد هذه الرواية بقوله : "وهذا الإسناد أصح إسناد على وجه الأرض، ومحمد بن سيرين أروع الناس في منطقه؛ ومراسيله من أصح المراسيل". ..

^٤ الطبري : السابق 4/447، ابن الأثير : السابق 3/113، ابن كثير : السابق 7/233

ذلك عليه، أرايتم قتلة صاحبنا ؟ ألستم تزعمون أنهم أصحاب صاحبكم؟؟ فليدفعهم إلينا فلنقتلهم به، ثم نحن نجيبكم إلى الطاعة والجماعة " ١ ..

وقال رسول معاوية حبيب بن مسلمة الفهري لعلي موضعاً موقف معاوية : " .. فادفع إلينا قتلة عثمان — إن زعمت أنك لم تقتله — نقتله به، ثم اعتزل أمر الناس؛ فيكون أمرهم شوري بينهم، يولي الناس أمرهم من أجمع عليه رأيهم " ٢ ..

٣- دور قتلة عثمان في تجذير الفتنة:

ومن المؤكد أن علياً عليه السلام كان بريئاً من دم عثمان وأنه أعلن ذلك عدة مرات بعد استخلافه ٣ وعلى منبر الكوفة ٤ وفي بعض مراسلاته مع معاوية ٥، وقد كان معاوية نفسه لا يقطع بالقول باقتحام علي — كما نلاحظ فيما مضى من حديثه مع رسل علي عليه السلام وحديث رسوله معه — ولا يظن ذلك به رضى الله عنه، إلا أن الذي أساء إلى موقف علي هو ذلك الدور الذي لعبه قتلة عثمان في استخلافه، حيث كانوا أبرز المرشحين له، والقائمين على إتمام بيعته، ويبدو أنهم أرادوا أن يعرف الخاصة والعامة من المسلمين أن اختيار علي تم برايتهم، وتحت ضغط وتهديد منهم، فيعمل الجميع حساباً لنفوذهم وقوتهم، ولذا فقد خاطبوا أمير المؤمنين علياً متباهين بما تحقق لهم من ذا النفوذ، مزهوين بنجاح خطتهم كما رسموها وقدروها فقالوا :

خذها إليك واحذرن أبا الحسن إنا نمر الأمر إمرار الرسن ٦

واستمرت جهودهم بعد مقتل عثمان من أجل تجذير الفتنة في المجتمع الإسلامي، وإبقاء الصواع والحروب بين المسلمين، فأنثروا الغبار حول مواقف بعض الصحابة من قتل عثمان، كما أشاعوا أن علياً وبنى هاشم حرضوا على قتل الخليفة الأموي وغنموا سيفه ونفائسه بعد قتله مما دفع الوليد بن عتبة إلى أن يقول ٧ :

بني هاشم ردوا سلاح ابن اختكم ولا تنهبوه ، لا تحلل مناهبه
هم قتلوه كي يَكُونُوا مكانه كما غدرت يوما بكسرى مرازبه

١ الطبري : السابق 6/5

٢ السابق 7/5

٣ السابق 444/4، 5/3، حب الدين الخطيب : هاشم العواصم من القواصم ص 140

٤ ابن عبد ربه : العقد الفريد 302/4

٥ الإمامة والسياسة 102/1

٦ الطبري : السابق 436/4، 437، وراجع د. فهمي عبد الجليل : من تاريخ الحركات الهدامة في الإسلام؛ جماعة السبئية ونشاطها في خلافة عثمان وعلي، ص 117 (مقال بمجلة ندوة التاريخ الإسلامي المجلد السابع سنة 1409 هـ - 1989م)

٧ البلاذري : أنساب الأشراف ٨١/٥، نشر مكتبة المثنى ببغداد

وإن قدم هذه الاتهامات لعلى منذ حصر عثمان^١ تمنعنا من افتراض شيوعها بعد تمتع معاوية عن بيععة على ليتخذ من هذه الاتهامات ستارا لسعيه ..

وساعد على تثبيت هذا الظن أن عليا كان المرشح الطبيعي لخلافة عثمان، وكان بعض الثائرين يطرحون اسمه آنذاك بقوة كخليفة منتظر، ويزعمون أنه أرسل إليهم يستدعيهم إلى المدينة لجهاد عثمان^٢؛ أو يشيرون أنهم يتحركون بأمره حتى روى عن محمد بن الحنفية أن مروان بن الحكم أرسل إلى أبيه على في اليوم الذي قتل فيه عثمان يقول له : " ألا تأتي هذا الرجل فتمنعه، فإياهم لن يبرموا أمرا دونك؛ ولو كنت بمنقطع التراب " ^٣ ..

كما أنه يبدو أن معاوية نفسه قد تأثر بهذه الشائعات التي تهم بعض كبار الصحابة بالظعن على عثمان — وفيهم علي عليه السلام — نفهم هذا من حديثه إليهم لما استدعاه عثمان للمشاركة سنة 35 هـ، حيث وصاهم بخليفتهم الشيخ الكبير، وألا يطمعوا الناس فيهم، وما يؤسف له أنهم لم يذبلوا جهدا لتصحيح هذه الرؤية له أو لتأكيد رعايتهم لعثمان عليه السلام ^٤ ..

السبئية يحاصرون عليا :

وبعد أن لعب قتلة عثمان الدور الأكبر في استخلاف علي أحاطوا به إحاطة السوار بالمعصم، فحجبه عن خيرة أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وأهل الحلم والتقوى منهم، ثم ما لبثوا أن حققوا نجاحا باهرا في ذلك المسمى حين نجحوا في إخراج على من المدينة موطن المهاجرين والأنصار إلى الكوفة بلد السبئية الأصيل وموئل التوار والتمردين ومجتمع الروح القبلية الجامدة، صحيح أن خروجه من المدينة جاء اعترافا منه بانهاء الدور القيادي الذي لعبته في عصر الرسول صلى الله عليه وسلم وخلفائه الثلاثة الماضين، وإقرارا بانتقال مركز الثقل السياسي للأمم الجديدة^٥، وقد كان حصار عثمان وقتله والبيعة لعلى ترجمة عملية لهذه التغيرات الجديدة، ولكن ذلك كان يعني أيضا مزيدا من سيطرة أهل الكوفة من قتلة عثمان على مجريات الأمور في بلدهم، والخليفة عندهم في رحالهم، وخسارة للناصحين من مجري الصحابة بالمدينة. لقد كان الخليفة نفسه يعرف مدى سيطرة هؤلاء الثوار، ويعترف بأنهم "يملكوننا ولا نملكهم"؛ ويطالب القائلين بالتأثر لعثمان بالتريث حتى يتمكن منهم^٦، ولكن ذلك لم يبد مقتعا لهم وهم يرون قتلة عثمان أبرز مساعدي على وأعوانه ورجاله، ويرون حوله

^١ الطبري السابق 364/4-365 حيث إنه لما حصب عثمان وهو على المنبر وحلوه فأدخلوه بيته عادة على فقسال: مالك يا أمير المؤمنين، فأقبلت بنو أمية بمنطق واحد فقالوا : يا علي أهلكنا وصنعت هذا الصنيع بأمر المؤمنين، أما والله لئن بلغت الذي تريد لتمرن عليك الدنيا، فقام علي مغضبا . وانظر البلاذري السابق 99/5 ط. المني بهداد .

^٢ ابن العربي : العواصم من القواصم ص 135

^٣ البلاذري . أنساب الأشراف 94/5

^٤ الطبري : السابق 344/4-345

^٥ وقد ناشد بعض زعماء المدينة عليا ألا يخرج منها مثل عبد الله بن سلام وعقبة بن عامر؛ فكانت إجابة علي . " إن الأموال والرجال بالعراق " وقد لقي لذلك ابن سلام من السبئية شرا (الدينوري الأخبار الطوال 143)

^٦ الطبري السابق 437/4

وفي مجلسه وعلى قيادة جيشه وفي جملة ولاته أمثال الأشتر النخعي ومحمد بن أبي بكر ومحمد بن أبي حذيفة وعمار بن ياسر ويزيد بن قيس وغيرهم .. ويرصدون عن قرب محاولات هؤلاء الرجال تفريق المتعقلين من حول علي ، مثلما فعل الأشتر مع جرير بن عبد الله البجلي لما أرسله على إلى معاوية فعاد يتنصحه بالتريث عن قتاله ويخبره بعذرته واجتماع أهل الشام حوله، فما كان من الأشتر إلا أن سب الصحابي الجليل وأهمه في ولاته؛ وحرص عليا على حبسه وأشابهه ممن الناصحين !! فخرج جرير من الكوفة ماضيا إلى قرقيسيا، فما زال الأشتر بعلي عليه السلام حتى ركب إلى دار جرير فأحرق مجلسا له، و مضى إلى دار ابن عم له قد خرج معه فشعث فيها شيئا وانصرف؛ على ما يزعم رواة العراق^١ ..

عذر معاوية :

فهل كان بوسع معاوية أن يتجاهل ذلك كله وأهل بيته من بني أمية يتهمونه بالتخاذل والضعف^٢ ؛ وأهل الشام قد التقوا حول قميص الخليفة ليكون ويقسمون على الثأر له^٣، وهو نفسه يعلم أنه ولي الخليفة المقتول وأحق الناس بالطلب بدمه لقدرته على ذلك، والقرآن الكريم يعده النصر في قوله تعالى : (ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا، فلا يسرف في القتل، إنه كان منصورا)^٤ ، وهل بوسعه أن يجلس ساكنا في الوقت الذي تمض فيه طلحة والزبير وعائشة، وهم أبعد منه صلة بعثمان، يطالبون بدمه ويخرجون من مكة في جيش من ثلاثة آلاف رجل^٥ متجهين إلى البصرة ليقتلوا قتلة عثمان، وقد قاموا بذلك بالفعل؛ ثم لاقوا عليا فكان بينهم قتال يسوم الجمل حيث قتل طلحة والزبير، وهو يرى قريبا منه بمصر أن جماعة من شيعة عثمان قد أمروا عليهم معاوية بن خديج السكوني وكانوا أول من بايع على الطلب بدم عثمان وهزموا من بعثه إليهم والي علي على مصر محمد بن أبي حذيفة من جند عدة مرات^٦ ..

ومما زاد الأمور تعقيدا ودفع بها إلى القتال وإراقة الدماء أن بعض رسل على إلى معاوية كانوا من المتهمين عنده بقتل عثمان أو التحريض عليه؛ مثل عدى بن حاتم ويزيد بن قيس^٧، وكان بعضهم يفقد الحكمة في الحديث وعرض القضية وتسكين الفتنة، بل عمد بعضهم إلى الإساءة إلى معاوية في مجلسه وشتمه ! مثلما حدث من شبيب بن ربيعي التميمي^٨ ..

^١ السابق 562/4، الدينوري السابق 161، 156 وانظر 164

^٢ الطبري : السابق 564/4

^٣ السابق 444/4، ابن كثير البداية والنهاية 237/7

^٤ سورة الإسراء من الآية 33

^٥ الطبري : السابق 452/4

^٦ الكندي : ولاية مصر وقضاها 22

^٧ الطبري السابق 5/5-6

^٨ السابق 573/4-574، 6/5، وشبيب بن ربيعي رجل متقلب المواقف، فهو خادم لكل سلطان، كان مؤيدا لموقف عائشة في الكوفة ضد أصحاب علي (الطبري السابق 483/4)، ثم كان مع علي ضد معاوية كما نرى، ثم كان ممن دعوا

وكانت ممارسات بعض هؤلاء الثائرين تدفع بالأمور إلى حافة الهاوية، وتؤكد في حس معاوية وأهل الشام مسئولية هؤلاء عن قتل عثمان واستخفافهم به، فقد أرسل معاوية إلى محمد بن أبي حذيفة عامل علي على مصر — وهو ابن عم عثمان ومعاوية أيضا وأحد المؤيدين على عثمان — يطلب منه أن يدفع إليه عبد الرحمن بن عديس وكنانة بن بشر، وكلاهما ممن قتل عثمان، فأرسل إليه ابن أبي حذيفة يقول: لو طلبت منا جديا رطب السرة بعثمان ما دفعناه إليك^١!! وكان أحدهم واسمه عبد الرحمن بن الحنبل يرتجز يوم صفين وهو يقول:

إن تقتلوني فأنا ابن حنبل أنا الذي قد قلت فيكم نعتل^٢

وقد بلغ من سيطرة هؤلاء السفهاء على مجريات الأمور بالكوفة أن الناس "كانوا إذا سمعوا أحدا يذكر عثمان بخير ضربوه، وأن عليا عليه السلام لما علم ذلك قال لهم: لا تفعلوا، ولكن اتوني به"^٣.

ولعل مما زاد في شكوك معاوية تجاه علي وأصحابه أن عليا عليه السلام أول ما تولى الخلافة بإدارة إلى تحقيق أهداف الثوار فعزل عمال عثمان الذين نقموا عليهم، وفي مقدمتهم معاوية، وكان معاوية قد ولاء عمر وزاد في ولايته ثقة به، وازدادت مكانته في عهد عثمان، فظل عشرين سنة واليا على الشام — كله أو بعضه — قائما بأموره، مجاهدا عدوه برا وبحرا، ولم تصل إلى أحد منه شكاية معترة، وكان أهل ولايته راضين عنه لا يريدون به بدلا، وقتلهم الخليفة في صفه أصدق دليل على ذلك، وقد كانت نساء النبي صلى الله عليه وآله تشير على عثمان بالإبقاء عليه واليا على الشام؛ "فإنه مصلح لأرضه راض به جنده"^٤، وكذلك أشار المغيرة بن شعبة وابن عباس على علي ألا يعزله هو وعمل عثمان ليهذبوا له البلاد ويسكنوا الناس، وكيلا يعطيهم المبرر لإثارة الشبهات حول موقفه من قتل عثمان، ولكنه أي، وسارع في عزله^٥، وكان فيمن ولاهم على من كان معاوية خيرا منه كالأشتر ومحمد بن أبي بكر..

ومما لا ريب فيه أن من حق الخليفة اختيار عماله الذين ينفذون سياسته، غير أن ظروف هذه المرحلة التاريخية كانت تقتضي توافر قدر كبير من الحذر في جو ملبس بالغيوم والشائعات والخطر، ومن المؤكد أن هذه الخطوة قد زادت مخاوف معاوية، الذي أيقن أن عزله عن الشام سوف يخسره قوته وإمكاناته في المطالبة بالثأر لعثمان، في الوقت الذي ينبغي أن تتضام جهود المسلمين

الحسين بن علي للقدم إلى الكوفة أيام ابن زياد (السابق 353/5)، ولكنه حارب رسول الحسين مسلم بن عقيل مع ابن زياد، وكان صاحب أحد ألويته (السابق 370/5)، ثم قاتل الحسين لما اغتر بكلامه وأمثاله فقدم إلى العراق، وكان أميرا على الرجال في جيش عمر بن سعد الذي قتل الحسين (السابق 422/5) ١١

^١ الكندي ولاة مصر وقضاها 22

^٢ الطبري: السابق 46/5 ولعل معنى البيت قد حضضتكم عليه أو أن به تحريفا وصحته (... أنا الذي قتلت فيكم نعتل) والمراد بنعتل: عثمان عليه السلام ..

^٣ ابن عساكر: تاريخ دمشق 294/4

^٤ الطبري: السابق 410/4

^٥ السابق 438/4 — 439، ابن الأثير الكامل 101/3، ابن كثير البداية والنهاية 228/7

وولاية الأمصار من أجل تطبيق حدود الله على هؤلاء المعتدين؛ ولذلك قال ابن تيمية : " فليت عليا تألف معاوية وأمره الشام وحقن الدماء " ^١ ،

ومن المثير أننا نجد روايات تدل على أن حجة معاوية كانت تجد أصداء لها حتى في معسكر علي وبين أقرب الناس إليه، فولده الحسن كان يقول : " وأيم الله يا أبت ليظهرن عليك معاوية، لأن الله تعالى قال : (ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا، فلا يسرف في القتل، إنه كان منصورا) ^٢ ، وكان ابن عمه عبد الله بن العباس يحتج بهذه الآية ويقول : " ما زلت موقنا أن معاوية يلي الملك من هذه الآية " ^٣ ، وكان ابن عباس يتحدث فيقول : " لو لم يطلب الناس بدم عثمان لرموا بالحجارة من السماء " ^٤ ١

٤- بحث الشبهات حول موقف معاوية من نصرة عثمان :

يتهم معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه بأنه لم يبذل جهدا حقيقيا في تهدئة الأوضاع المتفجرة حول الخليفة، حتى إذا حوصر واستنجد به تريبص وتقهمل، فلما قتل ثار يطالب بدمه ويلزمه عليا وأصحابه، ليجد بذلك مسوغا لقتاله وطلب الخلافة على الأمة ..

وحين نتعرض لبحث هذه الشبهات نجد أنها لا تعدو أن تكون محاولة ضمن محاولات عديدة لتشويه موقف عميد البيت الأموي، وطعن الأساس الذي قامت عليه خلافة الأمويين؛ وقام بهذا وذاك دعاة السبئية من النافرين على عثمان ومن تلاهم من الرواة والمؤرخين من الشيعة والرافضة.

فدور معاوية واضح التميز منذ بداية التمرد على الخلافة .. فقد حاول استصلاح بعض زعماء التمرد في الكوفة لما سيره إليهم عثمان بعد شكوى عاملهم سعيد بن العاص؛ وقيل إنه نجح في ذلك فصلح حال بعضهم، وقيل إنه لم يجد فيهم إلا جراءة وحقا فكتب إلى الخليفة يستأذنه في تركهم وإعادةهم إلى مصرهم كيلا يفسدوا طاعة أهل الشام، أو يستثيروا غضبهم عليهم، وأن عامله على حص عبد الرحمن بن خالد بن الوليد تلقفهم لعصف بهم، فاستكانوا له، ثم تركوه سرا ورجعوا إلى الكوفة كي يواصلوا تأمرهم وكيدهم، ولم يكن فيما كتبه عثمان إلى معاوية بشأنهم غير محاولة استصلاحهم، أو ردهم إلى الشام إن أعياه ذلك ^٥ ..

وقد شارك معاوية في مجلس الشورى الذي دعا إليه عثمان وشارك فيه عماله على مصر والشام والعراق، وكان يرى فيه أن قمع هذه الفتن مسئولية عمال الأمصار، كل في مصره، ثم إنّه التقى بزعماء الصحابة في المدينة ومنهم علي وطلحة والزبير فأوصاهم بعثمان، وحذرهم من الشهاون

^١ المتفق من منهاج الاعتدال 262

^٢ سورة الإسراء من الآية 33، راجع الإمامة والسياسة 49/1

^٣ ابن كثير: السابق 21/8، ابن عبد ربه: العقد الفريد 299/4، ابن عساکر: تاريخ دمشق 487/4

^٤ ابن عساکر: السابق 459/4

^٥ راجع الطبري: السابق 318/4-329

و أمره. اد سؤدى ذلك إلى حلال وضع جديد تذهب فيه مكائهم. ونك رويه كات حق
ستشرف الغيب آنذاك^١

وقد استغل بعض الوضعين هذه الواقعة فزعم أن معاوية أتى مجلسا فيه على وطلحة
والزبير وسعد بن أبي وقاص وعبد الرحمن بن عوف وعمار بن ياسر فقال لهم . يا معشر الصحابة،
أوصيكم بشيخي هذا خيرا، فوالله لئن قتل بين أظهركم لأملأها عليكم خيلا ورجالا، ثم أقبل على
عمار بن ياسر فقال: يا عمار، إن بالشام مائة ألف فارس، كل يأخذ العطاء مع أمثالمهم من أبنائهم
وعبدانهم، لا يعرفون عليا ولا قرابته ولا عمارا ولا سابقته، ولا الزبير ولا صحابته، ولا طلحه ولا
هجرته، ولا يهابون ابن عوف ولا ماله، ولا يتقون سعدا ولا دعوته، لإياك يا عمار أن تقعد غدا في
فتنة تنجلي فيقال: "هذا قاتل عثمان، وهذا قاتل علي"^٢ ..

وقد يحمل بعض الدارسين تلك الرواية على استخفاف أهل الشام بأقدار الصحابة، وطاعتهم العمياء
لوالهمم الذي يملك مفاتيح الأموال، وقد يحملها آخرون على مجرد التهديد والتحذير، ولكن ينبغي لنا
أن نردها تماما، فنحن نعلم أن عبد الرحمن بن عوف قد مات سنة 32 هـ^٣ ولم ينعقد مجلس
الشورى الذي شارك فيه معاوية إلا سنة 34 هـ أو 35 هـ^٤، فكيف يحضر ذلك المجلس وكيف يتهدده
معاوية وقد مات عليه السلام؟

وقد أحس معاوية أثناء تواجده في المدينة وما سمعه من أعضاء مجلس الشورى الذي عقده
عثمان نذر الخطر تحيط بأمر المؤمنين، فقال له: يا أمير المؤمنين، انطلق معي إلى الشام قبل أن يهجم
عليك من لا قبل لك به، فإن أهل الشام على الأمر لم يزالوا، فقال عثمان: أنا لا أبيع جوار رسول
الله ﷺ بشيء ولو كان فيه قطع خيط عنقي، فقال معاوية: أبعث إليك جندا منهم يقيم بين ظهري
أهل المدينة لئلا تإن نابت المدينة أو إياك، فقال: أنا أقرر على جيران رسول الله ﷺ الأرزاق بمنسند
يساكتمهم؟ وأضيق على أهل دار الهجرة والنصرة؟ فقال معاوية بعد ذلك: والله يا أمير المؤمنين
لتفتالن أو لتغزين، قال: حسبي الله ونعم الوكيل" فخرج معاوية يحذر هذا النفر من كبار الصحابة
من الوهن في أمر خليفهم، ثم مضى إلى الشام^٥ ..

عثمان يرفض الدفاع عن نفسه :

وإذا تخلينا قليلا عما يوحى به ظاهر هذه الرواية، لرأينا في رخص عثمان الذهاب إلى الشام
أو استقدام جيش منه لحمايته، تحوفا من فرض مسحة أموية على خلافته، وهو ما كان يطنطن به
أعداؤه، غير أننا نلاحظ أن عثمان كان منذ بداية هذه الحقبة ينفر من أي محاولة للخروج من ذلك
المأزق على نحو عفيف يتسبب في إراقة دماء المسلمين، أو انتهاك حرمة المدينة، فضلا عن ذلك فقد

^١ السابق 333/4 - 335، 342، الإمامة والسياسة 340/1

^٢ الإمامة والسياسة 28/1، د. محمد حلمي: الخلافة و الدولة في العصر الأموي ص 79

^٣ الطبري . السابق 307/4، ابن كثير البداية و النهاية 163/7 - 164

^٤ الطبري السابق 333/4، 341

^٥ الطبري السابق 345/4، ابن الأثير الكامل 79/3

رفض عرض بعض أنصاره عليه أن يلحق بمكة فإنهم لن يستحلوا دمه وهو ما، ولو فعلوا ذلك جلبوا مزيدا من سخط المسلمين عليهم، ولكنه أي أن يكون سببا في مس حرمة البلد الحرام^١ ..

لقد كان مع عثمان في داره ممن يحمل السلاح للدفاع عنه سبعائة رجل " لو يدعهم لضربوا الثوار حتى أخرجوهم " ^٢، منهم جماعة من وجهاء الصحابة وأهل العصية القوية ممن لن يرضى قومهم أن يسلموهم مثل عبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير والحسن بن علي وزيد بن ثلث وعبد الله بن سلام والمغيرة بن الأخنس^٣، هذا سوى بني أمية، وهم أقوى عصيات قريش ومعهم موالي عثمان وعبيده، ولقد قال له زيد بن ثابت : هذه الأنصار بالباب يقولون إن شئت كنا أنصارا لله مرتين، فقال عثمان : أما القتال فلا^٤، ولقد نادى عثمان على عبد الله بن عباس، وهو واقف ببابه لنصرته، والثوار محاصرون له، فقال : اذهب فأنت على الموسم، أي الحج، فقال ابن عباس : والله يا أمير المؤمنين لجهاد وهؤلاء أحب إلى من الحج، فأقسم عليه لينطلقن، ففعل^٥ .

لقد آثر رضى الله عنه أن يراق دمه بدل أن تراق بسببه دماء المسلمين !

ويفسر لنا أصحاب الحديث سر هذا الموقف من عثمان رضي الله عنه بأن الرسول ﷺ قد بشره في حياته بالجنة على بلوى تصيبه فيصير لها، كما بشره بالشهادة في سبيل الله^٦، ومعنى ذلك أنه ﷺ كان يعلم أنه مقتول؛ فلم يرد أن تراق الدماء من أجل حمايته، ولم يرد أيضا أن يلقي بيده دون أن يحاول إقناع مخالفه بخطورة ما يريدون ومغبة ما يفعلون على وحدة الأمة ومستقبلها، ولذلك فقد ناشدهم مرارا أن لا يقدموا على قتله؛ واستعان في ذلك السبيل بمن أطاعه من وجهاء الناس وذوى الرأي فيهم.. وقد عبر على ﷺ عن موقف عثمان وموقف أصحابه من الصحابة في ذلك الوقت أروع تعبير لما سأله معبد الخزاعي : أخبرني أي مرة وسعتك إذ قتل عثمان ولم تنصره ؟ فقال على : إن عثمان كان إماما، وإنه لم يأت عن القتال؛ وقال : من سل سيفه فليس مني، فلو قاتلنا دونه عصينا^٧، قال معبد : فأي مرة وسعت عثمان إذا استسلم حتى قتل ؟ قال على : المرة التي وسعت ابن آدم إذ قال لأخيه: لئن بسطت إلى يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك، إني أخاف الله رب العالمين^٨ ..

^١ وهو ذلك الدرس الذي لم يستوعبه عبد الله بن الزبير فيما بعد حيث خرج على بني أمية في مكة فاضطروا إلى قتاله بما

^٢ ابن سعد : الطبقات الكبرى 49/3، ابن عساكر : تاريخ دمشق ترجمه عثمان 396

^٣ الديار بكرى : تاريخ الخميس 263/2

^٤ ابن سعد : السابق 48/3

^٥ الطبري : السابق 387/4

^٦ البخاري باب مناقب عثمان حديث رقم 3694، 3697، ابن حجر : فتح الباري 65/7 - 67

^٧ مظلما فعل مروان بن الحكم وآخرون ..

^٨ ابن عبد ربه : العقد الفريد 4/302

هل استنجد عثمان بمعاوية؟؟

ورغم ما سبق من روايات وأحاديث تدل على إثارة عثمان التضحية بنفسه على إراقة دماء المسلمين فيما بينهم؛ فقد ذكر بعض المؤرخين والرواة أن عثمان أرسل إلى معاوية وأهل الشام يستنجد بهم لما حصر، وأن معاوية أرسل إليه أربعة آلاف فارس عليهم يزيد بن أسد حمايته، فلما وصلوا قريبا من المدينة وأحس بهم الثوار عجلوا بالافتحام على عثمان وقتله^١، بينما روى آخرون أن عثمان لما استنجد بمعاوية تربص به الدوائر ولم ينجده، فلما رأى الخليفة ذلك : أرسل مباشرة إلى يزيد بن أسد وجند الشام يستنصرونهم فدخلوا إليه، ولكنهم لم يدركوه^٢، ويروى غيرهم أنه لم يقتصر على استنصار أهل الشام بل كتب بذلك إلى الأمصار وإلى مكة، وأنهم أرسلوا لمجدهم غير أنهم لم تدرك الخليفة الذي عدوا عليه فقتلوه لما علموا بفصول الجند إليهم^٣ ..

والروايات التي تزعم تربص معاوية بعثمان تأتي عن طريق رواة كذابين أو متحاملين على عثمان، مثل محمد بن السائب الكلبي، السبني الرافضي الكذاب^٤، والواقدي الذي يحذر الطبري من تلقي رواياته عن عثمان دون تمحيص، ويذكر أنه كره ذكر بعضها لبشاعته^٥ ..

ولقد نفى عثمان نفسه أن يكون قد أرسل إلى الأنصار يستنجد بأهلها، فقد قال له الثائرون عليه يوما : " .. وإن منعك أصحابك وأهلك قاتلناهم حتى نخلص إليك "، فكان في جوابه عليهم : " .. ولو أردت قتلكم لكنت إلى الأجناد فقدموا علي، أو لحقت ببعض أطرافي " ..

غير أن إجماع كثير من الروايات على وصول لمجدهات من الأنصار إلى الخليفة، وطول فترة الحصار الذي تعرض له^٦، ووجود مؤيدين له في المدينة والأمصار معا، منهم بعض الولاة الأمويين، وكون هؤلاء يستطيعون نصرته، كل ذلك يجعلنا نفترض بالفعل أن بعض هذه الأمصار قد أرسلت إلى الخليفة جنودا لحمايته والدفع عنه، ولكن الثوار لما أحسوا بذلك عاجلوه فقتلوه، غير أنه كسي تتسق هذه الروايات مع ما عرف من تصميم عثمان على المسألة وعدم إراقة الدماء نفترض أيضا أن هذه المجدهات لم تأت إلى المدينة بناء على طلب الخليفة، بل بمبادرة منها أو من ولائها، الذين كانوا على علم كامل بما يتعرض له أمير المؤمنين، أو بطلب من بعض أنصار الخليفة بالمدينة، وأن ذلك تم

^١ السابق 298/4، الإمامة والسياسة 38/1—39، ابن عساكر : ترجمة عثمان 407 408

^٢ الطبري : السابق 368/4—369، ابن الأثير : الكامل 85/3 حيث يجعل تحرك يزيد بن أسد بمبادرة منه لما رأى تقاعس معاوية !!

^٣ الطبري : السابق 368/4، ابن الأثير 80/3—85

^٤ راجع الطبري : السابق 368/4، ابن الأثير السابق 853 حيث يبدو أنها نفس رواية الطبري ..

^٥ الطبري السابق 356/4، وراجع رواياته الثلاث في ابن عساكر : السابق 379، 380

^٦ ابن الأثير السابق 85/3

^٧ كان الحصر أربعين ليلة وفترة نزول الثوار كلها سبعين ليلة (الطبري السابق 385/4)

رغما عن رغبة عثمان، تماما كما قاتل بعض أنصاره مثل مروان بن الحكم وسعيد بن العاص والمغيرة بن الأخنس بن شريق وبعض موالى عثمان وعبيده رغم أوامره بعدم القتال^١ .. وكان لمعاوية في ذلك جهده الواضح ورغبته الأكيدة في حماية خليفته والذود عنه، وقد يكون أوضح ما يعبر عن حقيقة موقف معاوية من نجدة الخليفة ما رواه ابن عساكر بسنده حيث قال : " ولما أتى معاوية الخبر أرسل إلى حبيب بن مسلمة الفهري فقال : إن عثمان قد حصر، فأشر على برجل ينفذ لأمرى ولا يقصر، فقال : ما أعرف ذلك غري ، فقال: أنت لها، فأشر على برجل أبعثه على مقدمتك، لا يتهم رأيه ولا نصيحته، وعجله في سرعان الناس، ... فقال : يزيد بن شجعة الحميري^٢ ، فإنه كما تحب، فإنهم لفي ذلك إذ قدم عليهم الكتاب بالحصر، فدعاهما ثم قال لهما : النجاء فأغثا أمير المؤمنين، وتعجل أنت يا يزيد، فإن قدمت يا حبيب وعثمان حي فهو الخليفة، والأمر أمره، فأنفذ لما أمرك به، وإن وجدته قد قتل فلا تدعن أحدا أشار إليه ولا أعان عليه إلا قتلته، وإن أتاك شيء قبل أن تصل إليه فأقم حتى أرى من رأيي، وبعث يزيد بن شجعة؛ فأمضاه على المقدمة في ألف فارس على البغال يقودون الخيل؛ معهم الإبل عليها الروايا، وأتبعهم حبيب بن مسلمة وهو على الناس، وخرجوا جميعا، وأخذ يزيد السير.. حتى وصل إلى مكان قرب خير، فلقيه الخبر والنعمان بن بشير معه قميص عثمان مخضبا بدمه وأصابع زوجته نائلة، فأمضى حبيب النعمان إلى معاوية، وأقام حتى أتاه رأيہ بأن يرجع إلى دمشق^٣ ..

وهذه الرواية هي الأجدر بالقبول، حيث تفترض تواصل الأخبار بين الشام والمدينة، وذلك أمر متوقع في ظروف المحنة التي يمر بها الخليفة؛ وظروف القلق والترقب التي يقضيها معاوية بعد رفض عثمان السير معه إلى الشام، أو قبول حماية جند الشام له في المدينة، وهي تظهر أن الأخبار — أخبار نزول الثوار المدينة — قد جاءت، ولا تذكر أن عثمان قد أرسل إليه بها، فرمما وصلته من عيون أو رجاله أو أقاربه من بني أمية، فاستدعى قائده حبيب بن مسلمة فشاورة وأمره على الحملة، وفي مرحلة الإعداد هذه وصله الكتاب بالحصر، دون ذكر للاستغاثة به أو الاستنجاد، إن الكتاب إخبار موثق بالحصر لا غير، والمراد هنا الحصار الثاني للخليفة أو منعه من الخروج من بيته؛ ومنع وصول الماء والطعام إليه، وكانت مدته أربعين ليلة؛ وهي مدة لا تكفي بالطبع لوصول الأخبار إلى الشام ووصول نجدات الشام إلى الخليفة بالمدينة، وقد بادر معاوية بتسيير جنوده، وزود قائده بوضاياه، ورسم له خطة العمل .. والرواية مزودة بالتفاصيل المهمة عن كيفية تجهيز الجيش، كما أنها تحل أمر الخلاف الظاهر في الروايات السابقة حول اسم القائد العسكري لهذه الحملة، هل هو يزيد بن أسد أم حبيب بن مسلمة، فقد كان حبيب هو القائد العام للجيش، أما يزيد فهو قائد المقدمة، واختلف الرواة حوله هل هو ابن أسد القسري أم ابن شجعة الحميري ..

^١ راجع الطبري : السابق 388/4 — 389

^٢ لم أطلع على ترجمة له، ولعله يزيد بن شجرة الرهاوي . راجع : ابن الأثير : أسد الغابة ٦٩٢/٤

^٣ ابن عساكر : تاريخ دمشق ترجمه عثمان 380—381

٥- موقف معاوية من قتل عثمان :

ويتهمون معاوية رضي الله عنه بأنه اتخذ من قتل عثمان ستارا لتحقيق أغراضه، فلما تحققت ونال خلافة المسلمين صمت عن المطالبة بدم عثمان، وترك أمر قتله؛ وهو في موقع الحاكم القوي الذي يملك تنفيذ القصاص^١ ..

ويستشهدون على ذلك بأن معاوية لما زار المدينة ومر قريبا من دار عثمان، سمع صياح ابنته عائشة بنت عثمان وندبها أباها؛ فدخل عليها وقال : يا ابنة أخي، إن الناس أعطونا طاعة وأعطيناهاهم أمانا، فأظهروا حلما تحت غضب، وأظهروا لنا طاعة تحتها حقد، ومع كل إنسان سيفه، وهو يرى مكان أنصاره، وإن نكثنا بهم نكثوا بنا، ولا ندري أعلينا تكون أم لنا، ولأن تكوني ابنة عم أمير المؤمنين خير من أن تكوني امرأة من عرض المسلمين^٢ .. وإن جاز لنا أن نصدق هذه الرواية؛ وأن وجود معاوية وهو أمير المؤمنين بالمدينة قد أهاج الذكرى عند ابنه عثمان، رغم مضى سنوات عديدة على وفاته، فإنها لا تصلح للدلالة على أن معاوية لم يقتصر لعثمان بقدر ما تصلح للاستشهاد على وفائه لمهروده، وحرصه على وحدة الأمة، وحقن دماها.

ومن الطبيعي أن تكون رغبات المرأة طليقة في الثأر لأبيها من كل من نظن أن له دورا في قتله، وربما كان على رأس هؤلاء — فيمن تظن — أهل المدينة الذين لم ينصروا أباها، كما صورهم الدعاية السيئة — ولقد كان الحسن بن علي رضي الله عنه يقول لأبيه عندما يذكر براءته من قتل عثمان؛ ويدلل على ذلك، فيقول الحسن : دع عنك هذا، والله إني لأظن، بل لا أشك أن ما بالمدينة عاتق ولا عذراء ولا صبي إلا وعليه ثقل من دمه^٣ ...

وقد كان الثائرون على عثمان يقدرون بالمئات، منهم الذي تزعم الثورة وباشر القتل، ومنهم الذي كان مدفوعا بأجواء الدعاية البغيضة ضد عثمان، وكان هناك من سكت؛ فلم يأمر ولم ينه، وهناك من تجنب الفتنة وترك المدينة؛ وكان يظن أن الأمور لن تصل إلى حد قتل أمير المؤمنين .. ولم يتم حصر دقيق بالثائرين عليه، ولم يعرفوا جميعا بأعيانهم، ولكن كان قادتهم معروفين مشهورين، وهؤلاء هم الذين يجب القصاص منهم ومحاسبتهم، وهم الذين كان يعينهم معاوية في مطالبته عليا بالثأر منهم، وذلك كالأشتر ومحمد بن أبي بكر ومحمد بن أبي حذيفة وكنانة بن بشر وعبد الرحمن بن عديس البلوي وغيرهم .. وكانت شوكتهم — أيام علي — ظاهرة، وسلطانهم قويا، ومن حق ولي القتيل أن يطالب بدمه — وقد وعده الله النصر — ومن حقه أيضا أن يعفو عن القاتلين إذا تمكن منهم، وهو العفو عند المقدرة، قال تعالى: (يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص في القتلى؛ الحر بالحر، والعبد بالعبد، والأنثى بالأنثى، فمن عفي له من أخيه شيء فاتباع بالمعروف وأداء إليه بإحسان، وذلك تخفيف من ربكم ورحمة، فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم)^٤، وعلى ذلك

^١ طه حسين : الفتنة الكبرى 34/2، الحوفي : أدب السياسة في العصر الأموي 21، العقاد : معاوية في الميزان 100

^٢ الجاحظ : البيان والتبيين 182/3 — 183، ابن كثير : البداية والنهاية 183/8

^٣ الإمامة والسياسة 94/1

^٤ سورة البقرة آية 178

فقد طلب معاوية بالقصاص من قتلة عثمان، وحارب من أجل ذلك، حتى فني في حروبه وحروب غيره من المطالبين بدم الخليفة المظلوم كثيرون من هؤلاء النافرين وأولى البأس منهم والشوكة الظاهرة.

فقد قتلت جيوش طلحة والزبير وعائشة في البصرة سبعمائة رجل من قتلة عثمان^١؛ وعلى رأس هؤلاء حكيم بن جبلة وذريح بن عباد العبدي، والذين لم يقتلوا من أهل البصرة في هذه المعركة التي دارت بين قتلة عثمان وجيش طلحة والزبير قبضت عليهم قبائلهم وجاءوا بهم إلى طلحة والزبير كما يجاء بالكلاب فقتلوا، فما أفلت من أهل البصرة جميعاً إلا حرقوص بن زهير السعدي لأن بني سعد منعه^٢، وفي موقعة الجمل قتل أيضاً علباء بن الهيثم السدوسي، أحد الثوار على يد عمرو بن يثري قاضي البصرة^٣ ..

وفي موقعة صفين كان كثير من قتلة عثمان والثافرين عليه في جيش علي رضي الله عنه، فلقي عدد من أبرز زعمائهم مصرعهم في حربهم الشام، مثل جندب بن زهير الغامدي، وأبو زيب ابن عوف بن الحارث الأزدي، وكان أحد المؤيدين على الوليد بن عقبة وأخضرين على عثمان^٤، وفي هذه الموقعة أيضاً قتل عمار بن ياسر^٥، أحد الذين خدعتهم دعايات السيئة وشعاراتهم المكذوبة ..

ثم إنه بعد التحكيم خرج كثير ممن بقي من قتلة عثمان العراقيين على علي يكفرونه، فحاربهم في النهروان فلم ينج منهم إلا الشريد، وكان ممن قتل منهم يومذاك حرقوص بن زهير^٦ الذي نجا من القتل على يد طلحة والزبير، وشريح بن أوفى الذي قطعت رجله في هذه المعركة وظل يقاتل حتى مات وهو يرتجز في ضلاله القديم ويقول :

أضربهم ولو أرى أبا حسن ضربه بالسيف حتى يطمئن^٧

وظل ثلاثة من أكابر الثافرين على عثمان وهم محمد بن أبي بكر وكنانة بن بشر ومحمد ابن أبي حذيفة، وقد قتل الأولان في حملة معاوية على مصر سنة 38هـ بقيادة عمرو بن العاص^٨، وأما محمد بن أبي حذيفة، وهو ابن خال معاوية في نفس الوقت؛ فقد قتل قبل ذلك في حملة عمرو بن العاص على مصر سنة 36هـ، وقيل بل أسره جيش عمرو سنة 38هـ وأرسله إلى الشام، فهرب منه محبسه هناك، فظفر به أحد جنود الشام فقتله^٩، وفي الشام أيضاً قتل عبد الرحمن بن عديس البلسوي

^١ ابن كثير : البداية والنهاية 237/7، الطبري : السابق 488/4 وفيه أن المقترلين ستمائة إلا رجلاً

^٢ الطبري : السابق 472/4

^٣ السابق 530/4

^٤ السابق 27/5

^٥ السابق 38/5—41

^٦ البداية والنهاية 237/7، الطبري : السابق 87/5

^٧ الطبري : السابق 87/5—88

^٨ السابق 103/5—105

^٩ السابق 105/5—106

زعيم ثوار مصر، في جبل الخليل بالقرب من حصص، حيث لقيه أحد الأعراب فلما تعرف عليه وعلم أنه من قلة عثمان قتله^١ ..

ثم قتل كذلك الأشتر النخعي، أبرز رجال هذه الثورة؛ لما أرسله علي واليا على مصر سنة ٣٨هـ؛ وقد قيل إن معاوية أرسل إليه من دس له السم في شربة عسل عند القلزم^٢، فإن كان قد فعل ذلك فله حجة في القصاص منه، غير أنه تروى روايات أخرى تذكر موت الأشتر عند القلزم ولا تنص على دور معاوية في ذلك^٣، إما لأنه دور خفي، أو لأنه لم يحدث أصلا وتكفل بذلك أحد العثمانيين الذين طالما تنموا الخلاص منه ! وربما مات الرجل حثف أنفه فارتاح الناقمون عليه .. وإن كان يحق لمعاوية وأهل الشام أن يسعدوا بقتل الأشتر^٤، فقد فرح بذلك أيضا علي بن أبي طالب، حيث ثقل عليه أمر ذلك الرجل الفاتك الذي لا يستطيع من سطوته خلاصا، فلما سمع بموته قال مسرورا : " لليدين وللهم " !^٥، وفي الحجاز هناك تلقت السيدة عائشة الخبر سعيدة؛ وكانت مسن قبل تدعو عليه وتقول : " اللهم ارمه بسهم من سهامك " ^٦ ..

قتل من بقي من الثائرين في العصر الأموي :

وهكذا لم يتنازل الحسن بن علي عن الخلافة لمعاوية سنة ٤١هـ إلا وكان زعماء الثورة على عثمان قد اختفوا من على مسرح الأحداث واحدا إثر الآخر، وبقي منهم جماعة لم يكونوا قادة ولا زعماء في هذه الفتنة، بل كانوا أتباعا، ذهبت قوتهم بذهاب هؤلاء النفوس البرزين، فلما تولى معاوية الخلافة كان قد وافق على شرط الحسن على أن يضع ما كان بينهم من دماء^٧، إذ إنه بذلك التنازل أصبح من بقي ممن شاركوا في هذه الفتنة تحت سيطرة معاوية وقدرته، وأصبح تحقيق وحدة المسلمين، وحقق الدماء التي طال نزلها حلما قريبا وأملا ممكنا، وأصبح العقو بعد المقدرة أقرب للتقوى، وأوجب لمصلحة الأمة؛ بعد أن انتهى خطر هذه السبئية، وزالت سطوتها، وهلك قادتها وزعمائها . غير أن ذلك الأمان الذي بذله لهم معاوية لم يكن يعني أنه وبني أمية قد نسوا دور هؤلاء في الثورة على عثمان، بل لم يكن ذلك الأمان أكثر من فرصة ارتضى الخليفة إعطاءها لهم ليحقق دماء الأمة، ويختبر صدق نواياهم بعد أن بايعوه، وقدرتهم على المشاركة الهادئة المنتجة في المجتمع الجديد، ولذلك فإنه ما كان يبدو من أحد هؤلاء المتمردين قديما تمرد جديد على السلطة الشرعية الجديدة حتى يلاقي الاتهام القديم يلاحقه بأنه ممن ثاروا على عثمان وأنه بات غير جدير بالثقة والأمان ..

^١ ياقوت معجم البلدان، مادة " الخليل " .

^٢ الطبري : السابق 95/5—96

^٣ الكندي : ولاية مصر وقضائهما 25—26، ابن قتيبة : عيون الأخبار 201/1

^٤ الطبري : السابق 95/5—96

^٥ ابن قتيبة : لسابق 201/1، الكندي : السابق 25

^٦ ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة 104/1—105

^٧ الطبري : السابق 164/5

فقد اشترك عمرو بن الحمق الخزاعي في ثورة حجر بن عدي الكندي؛ ولما قبض عليه من قبل عامل معاوية على الموصل؛ كتب إليه معاوية: " إنه زعم أنه طعن عثمان بن عفان تسع طعنات بمشاقص كانت معه، وأنا لا نريد أن نعتدي عليه، فاطعنه تسع طعنات كما طعن عثمان، فأسخرج فطعن تسع طعنات مات في الأولى منهن أو الثانية، وذلك سنة 51 هـ^١ ..

ولما استحلف مروان بن الحكم بالشام، وأحكم سيطرته عليها بعد مرج راهط سنة ٦٤ هـ وغزا مصر ففتحها من أيدي أتباع ابن الزبير قتل أحد قادتها واسمه الأكدر بن حاتم اللخمي وهو يذكر دوره في الثورة على عثمان^٢ ..

ولما ولي الحجاج بن يوسف العراق سنة 75 هـ، هدد الفارين من جيش المهلب بن أبي صفرة الذي يقاتل الخوارج الأزارقة بالموت أن لم يلحقوا به قبل مضي ثلاثة أيام، فتخلف عمر بن ضابيء التميمي متعللاً بأنه شيخ عليل، وأنه مستعد أن ينيب عنه ولده الشاب، فقال الحجاج: ألست القاتل :

هممت ولم أفعل وكدت وليتني
تركت على عثمان تبكى حالله ؟
إني لأحسب في قتلك صلاح المصيرين (البصرة والكوفة)؛ ثم قتله^٣ ..

ولما انتصر الحجاج على ابن الأشعث في دير الجماجم (82 أو 83 هـ) قتل كميل بن زياد النخعي أحد الخارجين عليه وأحد الثائرين على عثمان من قبل، بعد أن ذكره بعفو الخلفاء الأمويين المتتاليين عنه وصنيعه هو معه، ولكنه كان كما وصفه "مقعد في الجماعة، صحيح في الفتنة"^٤ ..

٦- شبهات حول التحكيم ووسائل معاوية للوصول إلى الخلافة:

— حول تحالف معاوية وعمرو بن العاص :

تتفق الروايات التاريخية على نصاعة سيرة عمرو بن العاص وحسن بلائه وعطائه منذ أسلم وبايع النبي ﷺ فشهد له وقال ﷺ: " أسلم الناس وآمن عمرو بن العاص"^٥، وسأل النبي ﷺ أن يدعو الله ليغفر له ما تقدم من ذنبه فيشره بذلك وقال: إن الإسلام يجب ما قبله وإن الهجرة تجب ما قبلها^٦، وكذلك كانت حسن سيرته وبطولته في حياة الشيخين أبي بكر وعمر، فقد شارك في فتح الشام وكان له فضل فتح مصر، وظل والياً عليها في خلافة عمر وصدرها من خلافة عثمان ..

ثم تضطرب صورة عمرو بن العاص بعد ذلك أشد الاضطراب، فتظهره معظم الروايات نفياً يتكالب على الدنيا، ويعطي نصرته لمعاوية للطلب بدم عثمان، رغم أنه كان — فيما يزعمون —

^١ السابق 265/5، ابن الأثير : الكامل 236/3

^٢ ابن تغري بردي : السابق 166/1

^٣ الطبري . السابق 207/6

^٤ ابن عثم : الفتح 142/7، وراجع الطبري : السابق 404/4 حث أورد خبر آخر في قتله

^٥ رواه الترمذى باب مناقب عمرو بن العاص، الألباني : سلسلة الأحاديث الصحيحة 264/2 وقال: حديث حسن

^٦ ابن هشام السيرة النبوية 3 / ١٨٣

من أعظم المؤلّين عليه ويتفق ذهنه عن خدعه التحكيم من أجل إنقاذ معاوية وقد تحققت هزيمته يوم صفين، كل ذلك من أجل أن يعطيه معاوية مصر طعمة !!.

فأما إعطاؤه مصر طعمة فأمر تنور من حوله الشكوك حتى ليكاد بعد الدرس والتمحيص يغدو مجرد رواية ذاعت بغير حقيقة^١، وأما كونه من أعظم المؤلّين على عثمان فغير ثابت، فهو لم يكن من زعماء الثوار كالأشتر وابن أبي بكر وغيرهم .. وما ينسبونه إليه من قول لعثمان : " إنك ركبت بالأمة تمابير، فتب وليتوبوا معك "، فتختلف الروايات بشأنه كثيرا، فتزعم الروايات المصرية التي روجها السبئية أنه قالها في المسجد ليحرض الناس وأيده في قوله أهل المدينة، وأنه كان قد أرسله عثمان لرد أهل مصر عنه في سيرهم الأول، فذهب إليهم وحرضهم عليه^٢ وهو قول غير مسلم به، فلم يكن أهل المدينة مؤيدين للثوار، وقد خرج زعماءهم لردوهم ونجحوا في ذلك .. وتزعم روايات أخرى أنه قال ذلك في مجلس الشورى الذي عقده عثمان لبحث أسباب الشكوى — وكلن عمرو أحد أعضائه — وقد برر عمرو ذلك بأن بالباب من يتسمع لهم؛ وأن ذلك القول سيصل إلى آذان الثوار فيستطيع بذلك أن يكسب ثقتهم فدفع عن عثمان شرا، أو يجلب له خيرا^٣ .. ويقولون : بل قال هذه المقالة في المسجد تعضيدا لأمر عثمان الذي خرج يسترضي الناس، وأنه لما قال لسه ذلك حول عثمان وجهه إلى القبلة ورفع يديه فقال : اللهم إني استغفرك وأتوب إليك، ورفع الناس أيديهم يتوبون ويبيكون^٤ .. فأى ذلك كان ؟ وعلى أي وجه لحمله ؟ ولماذا لا لحمله إلا على شر الوجوه ١٩ ..

وشبهه بذلك الخطل أن ينسب إلى عمرو أنه ذهب إلى فلسطين يتسقط الأخبار ويتعجل قتل عثمان^٥، ويقول لما بلغه مصرعه : " قد علمت العرب أي إذا حككت فرحة أدميتها " .. ومن المؤكد أن معاوية وأهل الشام لم يكونوا ليقبلوا وجود عمرو بن العاص بينهم، ويعطوه هذه المكانة عندهم، لو كان ممن يتهمونهم بقتل عثمان أو التحريض عليه، وقد رأينا مواقفهم مع هؤلاء حتى من كانوا قريبي الصلة بمعاوية مثل ابن خاله محمد بن أبي حذيفة .. وأكبر ما يمكن أن يوجه من نقد لعمرو في هذه المرحلة أنه لم يكن من المدافعين عن عثمان والذابين عنه؛ وأنه لما رأى الأمور تسير نحو الهاوية خرج من المدينة بعيدا عن أجواء الفتنة، ولكن كثيرا من أهل المدينة فعلوا ذلك كراهة أن يصيبهم أتمام إن قتل عثمان وهم بالمدينة، أو ظنا منهم أن الأمر لن يصل إلى حد قتل الخليفة، أو لرفض الخليفة مبدأ الدفاع عنه، أو لإرهاب الثوار لهم؛ وذلك ما يقرره عمرو بن العاص نفسه حيث

^١ راجع ما سيأتي في الفصل الخاص بالشبهات حول سياسة الأمويين المالية ..

^٢ ابن عساکر : تاريخ دمشق ترجمه عثمان 427/40

^٣ الطبري : السابق 334/4، ورواية سيف تختلف عن ذلك فقد نصح الخليفة أن يتهج فنج عمر فليلين في موضع اللين ويشند في موضع الشدة، بدل أن يلين على طول الطريق (السابق 342/4—343)

^٤ ابن سعد الطبقات الكبرى 48/3

^٥ الإمامة والسياسة 47/1

^٦ ابن عساکر : السابق 431/40

قال لما أحيط بعثمان : " يا أهل المدينة؛ لا يقيم أحد فيدركه قتل هذا الرجل إلا ضربه الله بذل، من لم يستطع نصره فليهرب " ^١ ، وذلك ما يؤكد الحافظ الذهبي في روايته عن جويرية بن أسماء، قال : حدثني عبد الوهاب بن يحيى بن عبد الله بن الزبير؛ حدثنا أشياخنا: أن الفتنة وقعت وما رجل من قريش له نباهة أعمى فيها من عمرو بن العاص، وما زال مقيما بمكة ليس في شيء مما فيه الناس حتى كانت وقعة الجمل ^٢ ، وروى ابن الأثير واصفا حال عمرو لما بلغه قتل عثمان، فقال: ارتحل عمرو واجلا، معه ابنه، يكي كما تبكى المرأة، وهو يقول: واعثماناه ! أنعى الحياء والدين، حتى قدم دمشق ^٣ ، ويقول في رواية أخرى : إنه قد سار عن المدينة قبل أن يقتل عثمان نحو فلسطين ^٤ .. وربما كان ذهابه إلى مكة أولى بالقبول من ذهابه إلى فلسطين؛ فمكة هي البلد الذي ارتحل إليه كثير من الصحابة ذوى الشأن لما بلغهم قتل عثمان، أو بعد ذلك، مثل طلحة والزبير وابن عمرو وغيرهم، وقد توافق حصر عثمان مع موسم الحج سنة 35 هـ ...

حول ظروف بدء القتال بين علي ومعاوية :

تعتمد روايات الطبري — وعنه أخذ كثير من المؤرخين التاليين — في هذه المرحلة على رواية أبي مخنف الشيعي المخرق — وهي تصل إلى الطبري عن طريق هشام الكلبي وهو رافضي كذاب، وذلك يعني مزيدا من الحذر في تناولها ودراستها.

لما انتصر علي على أصحاب الجمل ^٥ بدأ يستعد لقتال معاوية وأهل الشام، ومنذ البداية استأذنه نحو أربعمئة رجل من القراء من أصحاب عبد الله بن مسعود فقالوا : يا أمير المؤمنين، قد شككنا في هذا القتال، مع معرفتنا فضلك، وطلبوا أن يأذن لهم بعد ذلك بقتال المشركين، فوجههم نحو نجر قزوين والرى ^٦ ..

وسار علي بجيوشه نحو الشام فعبّر الفرات حتى وصل إلى صفين ^٧ ؛ ثم أرسل رسله إلى معاوية يدعونه إلى الطاعة والجماعة، وكان بعضهم من المهتمين عنده بقتل عثمان، وبعضهم ممن

^١ ابن الأثير الكامل 140/3

^٢ ابن تغري بردى : النجوم الزاهرة 113/1

^٣ ابن الأثير السابق 140/3

^٤ السابق والصفحة

^٥ رغم وجود بعض الأمويين ضمن جيش طلحة والزبير وعائشة مثل مروان بن الحكم وغيره فإن معاوية لم يساعدهم في القتال، وقد أثار ذلك بعض الشبهات عند بعض المؤرخين (د. حلمي : الخلافة والدولة في العصر الأموي 81) ويبدو أن سبب ذلك هو أن معاوية كان محصورا آنذاك بين قوة الروم المتربصين في الشمال وقوة مصر التي يحكمها عامل على في الغرب، ولم يستطع معاوية حرب علي إلا بعد أن سالم البيزنطيين (د. فتحي عثمان : الحدود الإسلامية البيزنطية ص 37) وجهاز حملة سريعة على مصر سنة 36 هـ أضعف فيها شأن أنصار علي، وأعلى من شأن العنانية حتى أصبحوا قوة تستطيع أن تشغل عامل علي عن محاصرة معاوية إن حارب عليا أو مهاجمته ..

^٦ الدينوري : الأخبار الطوال 164—165

^٧ الطبري السابق 4 / ٥٦٣—٥٦٦

استثار غضبة بسوء حديثه وتعاليه، كما سبق القول، وأرسل إليه معاوية من يدعوه إلى تسليمه قتلة عثمان من جيشه، ولكن عليا كان لا يستطيع ذلك، فلما انتهت هذه المفاوضات بالفشل كان علي هو البادئ بالقتال، وأمر مناديه أن ينادى في معسكر معاوية أنه قد نبذ إليهم على سواء^١، فكان كل فريق من الجيش يخرج ليلالقي لفريقا من الجيش الآخر، قال علي : حتى متى لا نناهض هؤلاء القوم بأجمعنا ؟^٢، فكانت الحرب المدمرة بين الجيش كليهما..

إن بدء علي القتال، وقدمه بجيشه إلى حدود الشام... وإن وافق رأي علي في وجوب قتال من امتنع عن بيعته واحترز دونه بقوته وهو خليفة المسلمين؛ إلا أنه قد أدى إلى تكتسب أهل الشام خلف معاوية، رغم أنه آنذاك لم يكن قد ادعى الخلافة؛ ولم يكن قد تسمى بأمر المؤمنين، فقد قاتلوا معه " لظنهم أن عسكر علي فيهم ظلمة يعتدون عليهم كما اعتدوا على عثمان، وأنهم يقاتلونهم دفعا لصيالحهم عليهم، وقاتل الصائل جائز، لهذا لم يبدؤهم بالقتال حتى بدأهم أولئك، ولهذا قال الأشتر النخعي: إنهم ينصرون علينا لأننا نحن بدأناهم بالقتال " ^٣ ..

تقدم رواية أبي مخنف عن التحكيم ومآثره:

تفترض هذه الرواية أن السبب في التحكيم والباعث إليه كان إشراف جند الشام على الهزيمة، مما دفع عمرو بن العاص إلى تدبير هذه " الخدعة " للخروج من مأزق الحرب والهزيمة^٤ .. والحقيقة أن الحرب كانت سجالا بين الفريقين^٥، فقد وصلت ميمنة جيش العراق إلى قبة معاوية، ثم ما لبثت ميسرة أهل الشام أن أفاقوا، وردت ميمنة العراق وكشفتها، فأمر علي سهل بن حنيف فاستقدم فيمن كان معه من أهل المدينة فاستقبلتهم جموع لأهل الشام عظيمة، فاحتملتهم حتى ألحقتهم بالميمنة المهزومة، فلما كشفوا انتهت الهزيمة إلى علي في القلب، فانصرف يمشي نحو الميسرة، فانكشفت عنه مضر من الميسرة، ولبت ربيعة^٦، ثم استطاع الأشتر أن يعيد الميمنة المهزومة إلى مواقعها وينتهي إلى معاوية — مرة أخرى — وحوله خمسة صفوف من أهل الشام قد بايعوه على الموت، وهم معقلون بالعمائم، واشتد الكرب بمعاوية حتى هم — قيما يقولون — بالفرار، لولا أنه ذكر قول ابن الأظنابة :

أبت لي عفتي، وحياء نفسي
وإقدامي على البطل المشيح
وأخذني الحمد بالثمن الربيع

^١ الطبري : السابق 10/5، الدينوري السابق 17

^٢ الطبري : السابق 13/5

^٣ ابن تيمية : منهاج السنة 202/2 — 203، مجموع فتاوى شيخ الإسلام 72/35، وقد روى الطبري أن أهل الشام بايعوا معاوية بالخلافة بعد التحكيم (تاريخ الرسل والملوك 97/5)

^٤ الطبري : السابق 48/5—57، 67—71

^٥ ولم تكن كما زعم عوانة بن الحكم الذي يصفه بعض المؤرخين بالعثمانية حيث يرى أن وقعات صفين كانت أربعين وقعة كلها لأهل العراق على أهل الشام (ابن العديم بغية الطلب في تاريخ حلب ص 326) ..

^٦ الطبري : السابق 18/5

وقولي كلما جشأت وجاشت مكانك تمحدي أوتستريحي^١
 وإذا كان ذلك قد حدث ليلة الهرير، فقد صمدت جيوش الشام للقتال الذي استمر حتى اليوم
 التالي، وكان عظم الناس من أهل الشام قد بايعوا معاوية على الموت معه^٢ ..
 وسقط من كلا الفريقين قادة أعلام، ففقد أهل العراق عمار بن ياسر وعبد الله بن بديل
 وهاشم بن عتبة المرقال، وفقد أهل الشام عبيد الله بن عمر بن الخطاب وابن ذي الكلاع الحميري
 وغيرهما^٣ ..

فلو كان أهل الشام سرفعون المصاحف تقية من الهلاك أو خوفا من الهزيمة لرفعوها ليلة
 الهرير، لما أوشك معاوية آنذاك على الفرار — فيما يزعمون — لولا تلك الأبيات من الشعر..
 مبادرات عديدة للصالح قبل التحكيم :

كما أن التحكيم لم يكن مبادرة السلام الوحيدة في هذه المعركة؛ فقبل القتال كانت
 الرسل تترى بين الفريقين هادفة إلى تحقيق المصالحة والسلام، فلما فشلت هذه المحاولات وقرر أمير
 المؤمنين بدء المواجهة الشاملة مع أهل الشام نظر كعب بن جيل إلى هذه الحشود وهو يقول مشقفاً:
 أصبحت الأمة في أمر عجب والملك مجموع غدا لمن غلب
 فقلت قولاً صادقاً غير كذب إن غدا تملك أعلام العرب^٤

وفي تنظيم الجيش ندب على عليه السلام كل قبيلة من العراق لأختها من أهل الشام^٥، فجعل
 أزد العراق في مواجهة أزد الشام، فقال مخنف بن سليم الأزدي العراقي بعد حمد الله والثناء عليه "
 إن من الخطأ الجليل والبلاء العظيم أنا صرفنا إلى قومنا وصرفوا إلينا، والله ما هي إلا أيدينا نقطعها
 بأيدينا، وما هي إلا أجنحتنا نجدها بأسيا، فإن نحن لم نؤاس جماعتنا؛ ولم نناصح صاحبنا؛ كفرنا؛ وإن
 نحن فعلنا فعزنا أبغنا، ونارنا أهدنا، ... اللهم أن تعالي أحب إلينا من أن تبغينا"^٦ ..

وإذا كان مثل ذلك قد ظهر في معسكر العراقيين، والمرجح أن الرواية العراقية أخفت
 بعضه، فقد ظهر مثله في معسكر الشام .. فإن يزيد بن أسد القسري وقف يوم صفين يخطب في الناس
 وهو متكئ على قائم سيفه فقال : وقد كان قضاء الله جل وعز أن جمعنا وأهل ديننا في هذه البقعة
 من الأرض، والله يعلم أنني كنت لذلك كارها، ولكنهم لم يبلعونا ريقنا ، ولم يدعونا نرتاد لديننا،
 وننظر لمعادنا، حتى نزلوا في حرمينا وبيضتنا، وقد علمنا أن في القوم حكماً وطغماً، فلسنا نأمن
 طغامهم على ذرائعنا ونساننا، وقد كنا لا نحب أن نقاتل أهل ديننا، فأخرجونا، حتى صارت الأمور

^١ السابق 23/5—24

^٢ السابق 15/5

^٣ السابق 36/5 — 37، 41 — 44

^٤ السابق 14/5

^٥ السابق والصفحة

^٦ السابق 26/5 — 27

إلى أن يصير قتالنا غدا حمية، فإننا لله وإنا إليه راجعون، والحمد لله رب العالمين، والذي بعث في محمدًا ﷺ بالحق نبيا لوددت أني مت قبل هذا " ^١ ..

وقال عمرو بن العاص لابنه عبد الله يومذاك وهو يسترجع: " والله ما هذا بيوم ذات السلاسل، ولا بيوم اليرموك، ولا يوم أجنادين، وددت أن بيني وبين موقفي بعد المشركين " ^٢ .. ونادى حوشب الحميري عليا فقال: " انصرف عنا يا ابن أبي طالب، فإننا ننشدك الله في دماننا ودمك، ونحلى بينك وبين عراقك، ونحلى بيننا وبين شامنا، وتحقن دماء المسلمين " ^٣ ..

وكان هذا الإشفاق هو حال الفريقين قبل نشوب القتال، فقد استمر أثناء المعارك .. فبعد أن انكشفت ميمنة أهل العراق أقبل عدى بن حاتم يطلب عليا عليه السلام في موضعه الذي خلقه فيه، فلم يجده فسأل عنه فدل عليه، فأقبل يقول: " أما إذا كنت حيا فالأمر أعم (أي يسر هين)، وأعلم أني ما مشيت إليك إلا على أشلاء القتلى، وما أبقي هذا اليوم لنا ولا لهم عميدا " ^٤ ..

ولكن القتال استمر حتى تكسرت الرماح وتقطعت السيوف وتكادوا — أي تعاضوا — بالأفواه، وتحاثوا التراب، فكانوا يتنادون من كل جانب يا معشر العرب، من للنساء والأولاد، الله في الحرمة " ^٥ .. وأرسل معاوية إلى علي يقول: " أما بعد فلو علمنا أن الحرب تبلغ بنا وبك ما بلغت لم يجنح بعضها على بعض، وإنا وإن كنا قد غلبنا على عقولنا فقد بقي لنا منها ما نرم به ما مضى، ونصلح به ما بقي، وقد كنت سألتك الشام على أن لا تلزمي لك طاعة، وأنا أدعوك اليوم إلى ما دعوتك إليه أمس، فإنك لا ترجو من البقاء إلا ما أرجو، ولا تخاف من القتال إلا ما أخاف، وقد والله رقت الأجناد، وذهب الرجال، ونحن بنو عبد مناف، وليس لبعضنا على بعض فضل يستدل به عزيز، ويسترق به حر والسلام " ^٦ ..

بل إن الدعوة الواضحة للسلام التي تثبت أن ما وصل إليه حال الجيشين بعد ليلة اليرموك لم يكن يحتمل مزيد قتال؛ وأنه لم يكن هناك إلا المكابرة التي تمنع أحد الطرفين من قبول الهزيمة، هذه الدعوة جاءت من معسكر العراق !! فقد خطب الأشعث بن قيس زعيم كندة أصحابه ليلة اليرموك فقال: " قد رأيتم يا معشر المسلمين ما قد كان في يومكم هذا الماضي، وما قد فني فيه من العرب، فوالله لقد بلغت من السن ما شاء الله أن أبلغ؛ فما رأيتم مثل هذا اليوم قط، ألا فليبلغ الشاهد الغائب، إن نحن توافقنا غدا إنه لفناء العرب، وضبعة الحرمة، أما والله ما أقول هذه المقالة جزعا من الحرب، ولكني رجل مسن، أخاف على النساء والذاري غدا إذا نحن فنينا،... "، وجاء خبر ذلك إلى معاوية فقال: " أصاب ورب الكعبة، لئن نحن التقينا غدا لتميلن الروم على ذراري أهل الشام

^١ الأصفهاني: الأغاني 11/22

^٢ البيهقي: الخاسن والمساوى 54/1

^٣ أبو نعيم: حلية الأولياء 85/1

^٤ الدينوري: الأخبار الطوال 186

^٥ السابق 183

^٦ المسعودي: مروج الذهب 22/3، الدينوري: السابق 187

ونسائهم، ولتملين فارس على ذراري أهل العراق ونسائهم، إنما يبصر هذا ذور الأحلام والنهي"، ثم قال لأصحابه: اربطوا المصاحب على أطراف القنا^١ .. وتلك رواية عراقية في أولها وآخرها تثبت أن المواعدة كانت رغبة كلا الفريقين، ولن يضير معاوية أو عمرو بشيء أن تأتي أحدهما الشجاعة فيبادر بذلك؛ وينفذ ما بقي من قوى الأمة المتصارعة ...

حول موقف علي من التحكيم :

ورواية أبي مخنف تفترض أن علياً رفض تحكيم القرآن لما اقترحه أهل الشام، ثم استجاب بعد ذلك له تحت ضغط القراء الذين عرفوا بالخوارج فيما بعد ... وأنه وصف معاوية وعمرا وقادة أهل الشام بأنهم ليسوا بأصحاب دين وقرآن، وأنه صحبهم فكانوا شر أطفال وشر رجال !!^٢ . ونحن لا نصدق أن معاوية وأصحابه وهم من صحابة النبي ﷺ ليسوا رجال قرآن ودين، وكيف ذلك ومعاوية من كتاب الوحي، الذين استأمنهم عليه رسول الله ﷺ ؟؟ وقد زكى أبو بكر وعمير دينه وأمانته لما اختاراه واليا، وكذلك كان عمرو بن العاص ... وبعض من ترميهم هذه الرواية بتلك الأوهام لم يشهدوا صفين، بل كانوا آثروا اعتزال القتال كالوليد بن عقبة^٣ وعبد الله بن سعد بن أبي سرح^٤، بل إن بعض الرواة يروي أن علياً كان حسن الرأي في معاوية وأنه قال لأصحابه لما سألوه: أتري معاوية يكون علينا أميراً؟ فقال: "لا تكرهوا إمرة معاوية، فإن إمرته سلم وعافية"^٥، وإن رددنا مثل هذه الرواية فتلك أولى بالرد ..

وبعيد أن يرفض علي عليه السلام في تقواه وورعه حكم القرآن لما يدعى إليه وهو يعلم أن الله يقول : (إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا

^١ نصر بن مزاحم: وقعه صفين 547-549، ابن أبي الحديد: شرح فحج البلاغة 214/2 - 215، الديوري: السابق 188-189، ولعل ذلك ما أوحى لبعض المؤرخين بالفراض وجود مؤامرة في جيش علي وجود أفراد مؤيدين لمعاوية به، ويربطون ذلك بتصميم الأشعث على تولية أبي موسى التحكيم ناتياً عن علي بدل الأشتر وابن عباس (طه حسين الفتنة الكبرى 99/2-100)، د. بيضون الحجاز والدولة الإسلامية 207)

^٢ الطبري: السابق 5/ 48-49

^٣ راجع بن سعد: الطبقات الكبرى 24/6، ابن قتيبة: المعارف 320، د. حسين عطوان: المرجعة بخراسان في العصر الأموي ص 61 مقال بمجلة مجمع اللغة العربية الأردني العدد المزدوج 28-29 السنة التاسعة شوال 1405 هـ، ربيع ثان 1406

^٤ روى البغوي بإسناد صحيح قال: خرج بن أبي سرح إلى الرملة فلما كان عند الصبح قال اللهم اجعل آخر عملي الصبح، فتوضأ ثم صلى فسلم عن يمينه، ثم ذهب يسلم عن يساره فقبض الله روحه؛ رحمه الله، وذكر البخساري هذا الخبر من هذا الوجه (محب الدين الخطيب: هامش المنتقى 377)

^٥ الإمامة والسياسة 1/ 152، 164

وأولئك هم المفلحون^١، وقد احتج علي نفسه وابن عباس بذلك على الخوارج لما خرجوا عليه وأنكروا قبوله التحكيم^٢ ..

ورواية أبي مخنف المضعوفة هذه لا تصمد أمام روايات أخرى لا يتهم أصحابها بهوى، مثل ما يرويه الإمام أحمد بن حنبل عن طريق حبيب بن أبي ثابت قال: أتيت أبا وائل (أحد رجال علي ابن أبي طالب) فقال: كنا بصفين، فلما استحر القتل بأهل الشام قال عمرو لمعاوية: أرسل إلى علي المصحف؛ فادعه إلى كتاب الله، فإنه لا يأبى عليك، فجاء به رجل فقال: بيننا وبينكم كتاب الله (ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم، ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون)^٣، فقال علي: نعم، أنا أولى بذلك، فقال القراء الذين صاروا بعد ذلك خوارج: يا أمير المؤمنين ما نتظر هؤلاء القوم؟ ألا نغشى عليهم بسيفنا حتى يحكم الله بيننا؟ فقال سهل بن حنيف: يا أيها الناس اقموا أنفسكم؛ فقد رأينا يوم الحديبية... فذكر قصة الصلح مع المشركين لما وافق الرسول ﷺ عليه وعارضه عمر بن الخطاب حتى لقد رضي النبي ﷺ أن يزيل اسمه من وثيقة الهدنة لمصمم على ذلك المشركون^٤ ...

إن هذه الرواية الصادرة عن أحد أفراد جيش علي أولى بالقبول من رواية أبي مخنف؛ فليس وإن كانت تقدم بعض الرؤى العراقية مثل جعلها التحكيم آت بسبب اشتداد الضرر بالمعسكر الشامي إلا أنها تبدو أكثر إقناعا في تبرير موقف الخوارج من علي، ذلك الموقف الذي يبدو متسقا مع ما عرف عن هذه الطائفة التي لم تنبت فجأة، وإنما تمتد جذورها الفكرية، ورموزها القيادية، إلى جماعة الثائرين على عثمان والحاملين لفكر ابن سبأ^٥، ومع موقفهم الرافض للمصالحة والتفاهم والذي يرى أن عزهم في إنشابه القتال كيلا يفرغ لهم المسلمون^٦، ولسنا ننسى أنهم قتلوا من قبل كعب بن سور قاضي البصرة لما رفع المصاحف يوم الجمل طالبا التحكيم^٧، والأمر يختلف الآن في صفين عنه يوم الجمل، فلم ترفع المصاحف إلا بعد أن عض القوم القتال، وأصبح كلا الفريقين يرجو حلا مشرفا لهذا المأزق الرهيب، وكان جيش علي يحوي كثيرا من أهل البصرة الذين أودوا كثيرا يوم الجمل نتيجة القتال بين المسلمين، ويحوي كثيرا من العناصر القبلية التي لا ترضى عن قتال نظائرها في الجيش الآخر...

^١ سورة النور آية ٥١

^٢ ابن الجوزي: تليس إبليس ص ٩١-٩٢

^٣ سورة آل عمران آية ٢٣

^٤ ابن حجر: فتح الباري 86/13

^٥ راجع د. فهمي عبد الجليل: فرقه السبئية ونشاطها الهدام، مقال سابق ص 131-135

^٦ الطبري: السابق 494/4

^٧ الطبري: السابق 513/4، ابن كثير: البداية والنهاية 241/7-242، ويسميه كعب بن سواد، وقد قيل إن عليا أيضا يوم الجمل أرسل أحد أصحابه بمصحف يدعو إلى تحكيمه فقتل (السابق 511/4)

ورغم كل ذلك فقد كان الأشتر النخعي أحد قادة السبئية يصبر على تفجير الموقف ومواصلة القتال رغم استدعاء علي له مرات بزعم أنه أوشك على النصر، حتى أرغم أخيرا على وقف القتال^١ ..

نهاية التحكيم :

وأخيرا تنتهي رواية أبي مخنف عن أبي جناب الكلبي عن التحكيم بزعم عريض مؤداه أن كلا الحكيمين عمرو بن العاص وأبي موسى الأشعري سب صاحبه على نحو مقدح يجعل منه آحاد الناس الذين لم تؤد بهم صحة للرسول ﷺ؛ ولم تؤثر فيهم أخلاق الدين، بعد أن خدع عمرو بن العاص أبا موسى، وكانا قد اتفقا على خلع الرجلين علي ومعاوية وترك الأمر شورى بين المسلمين فقدم عمرو أبا موسى ليخبر الناس بذلك، فخلع صاحبه عليا، وقام عمرو فخلع عليا أيضا وثبت معاوية، فقال أبو موسى: مالك لا وفكك الله، غدرت وفجرت، إنما مثلك كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث، أو تتركه يلهث، قال عمرو: إنما مثلك كمثل الحمار يحمل أسفارا^٢ ..، وقد شاعت هذه الرواية وتناقلها المؤرخون من بعد^٣؛ رغم أنها ليست الرواية الوحيدة في هذا الشأن، ولا أجدر تلك الروايات بالقبول؛ فقد أورد الطبري رواية مبتورة للشعبي نذكر أن أبا موسى اعترف لعمرو بن العاص بأن عثمان قتل مظلوما، وأن معاوية هو وليه، والطالب بدمه، وأن أبا موسى قد اقترح اسم عبد الله بن عمر للخلافة، ثم تنتهي هذه الرواية إلى هذا الحد^٤ ومن الأرجح أن نهاية تلك الرواية تختلف عن نهاية رواية أبي مخنف^٥، وذكر المسعودي روايات أخرى للتحكيم يتفق بعضها مع أبي مخنف ويختلف بعضها معه^٦، والرؤية الجديدة التي يقدمها المسعودي تتمثل في أن الحكيمين لم يكتفيا بالخطب المتبادلة، لينها بذلك التحكيم الذي أصبح يمثل أمل الأمة في اجتياز هذه الأزمة، فقد اتفق الحكيمان — فيما يروي المسعودي — على كتابة ما يتفقان عليه في وثيقة بينهما، ختماها بخاتميتهما، واتفقا فيها على خلع علي ومعاوية وترك الأمر شورى بين المسلمين، ولم يخطبا^٧، وقد أيسد

^١ الطبري : السابق 49/5 — 51

^٢ السابق 5/ ٦٨-٧١

^٣ ابن الأثير : الكامل 161/3 — 169، 162، نصر بن مزاحم صفين 625-626 ابن خلدون : العبر 177/٢ — 178،

الدينوري : الأخبار الطوال 199-201، الإمامة والسياسة 136/1-137، المسعودي : : مروج الذهب 409/2-410،

ابن طباطبا : الفخري ص 93

^٤ الطبري : السابق 5/67-68

^٥ فلهووزن تاريخ الدولة العربية 85

^٦ مروج الذهب 407/2 — 412

^٧ السابق 407/2-410

بعض الدارسين المحدثين هذه الرواية الأخيرة^١، وما يعزز من قوة ذلك الرأي أننا نعلم أن أبا موسى لم يكن ذلك الشخص الساذج الغافل كما يزعم الرواة، وأن صنيعة في التحكيم عده بعض الناس وقتها عملاً مجيداً، وكان منار فخر لأولاده من بعده مما دفع ذا الرمة الشاعر إلى مدح بلال بن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري بقوله :

أبوك تلافى الدين والناس بعدما تساءوا وبيت الدين منقطع الكسر
فشدد إصار الدين أيام أذرح ورد حروبا قد لقحن إلى عقر^٢

وقد أكد رجال الحديث الثقات أن الحكمين قد خلعا عليا ومعاوية وتركوا أمر الخلافة شورى بين المسلمين، وأن عمرا — بذلك العمل — قد تعرض لسخط معاوية إذ لم يتحقق هدفه، وبقي الأشتر ورفاقه من الثوار على عثمان أحرارا طلقاء في معسكر علي ..

فقد روى ابن العربي عن الدارقطني بسنده عن حصين بن المنذر — أحد كبار أصحاب علي والمخربين معه في صفين — أنه لما عزل عمرو معاوية (مع علي) جاء حصين فضرب فسطاطا قريبا من فسطاط معاوية، فأرسل معاوية إليه فقال: إنه بلغني عن هذا — يعني عمرا — كذا وكذا، فإذهب فانظر ما هذا الذي بلغني عنه، فأتاه حصين فقال: أخبرني عن الأمر الذي وليت أنت وأبو موسى كيف صنعتما فيه؟ قال: قد قال الناس في ذلك ما قالوا، والله ما كان الأمر على ما قالوا، ولكن قلت لأبي موسى: ما ترى في هذا الأمر؟ قال أرى أنه في النقر الذين توفى رسول الله ﷺ وهو عنهم راض، قلت: فإين تجعلني أنا ومعاوية؟ قال: إن يستعن بكما فبيكما معونة، وإن يستغن عنكما فطالما استغنى أمر الله عنكما، قال: فكانت هي التي قتل معاوية بما نفسه، فأتى حصين معاوية فأخبره بالذي قال عمرو، فغضب معاوية غضبا شديدا وأرسل إلى أبي الأعور السلمي، فبعثه في خيله، فخرج يركض فرسه ويقول: أين عدو الله؟ أين هذا الفاسق؟ وهو إنما يريد حواء نفسه، فخرج عمرو إلى فرس تحت فسطاطه فجعل على ظهره عريانا، فخرج يركض نحو فسطاط معاوية وهو يقول: إن الضجور قد تحتلب العلبة، يا معاوية إن الضجور قد تحتلب العلبة^٣، فقال معاوية: أحسبه، (أي قد يحدث ذلك)، وتردد الحالب فشدق أنفه وتكفأ إناؤه^٤ ..

وإن كان معاوية قد غضب على عمرو لأنه لم يحقق غرضه كاملا في تسليمه قتلة عثمان، فقد عاد ورضى عنه، وغلبه حلمه المأثور عنه، ولم يكن مثله يستغني عن كفاية عمرو ورأيه، ولا ينبغي أن

^١ د. حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام السياسي 383/1، فيليب حق: تاريخ العرب 241/1، تاريخ سوريا ولبنان 33/2، صانعو التاريخ العربي ص ٦٦-٦٧، د. إبراهيم شعوط: أباطيل يجب أن تمحي ص 180، د. محمد جمال مسرور: الحياة السياسية في الدولة العربية 82-83، فلهورن تاريخ الدولة العربية 85-87

^٢ ياقوت: معجم البلدان مادة أذرح 162/1

^٣ الضجور: الناقة التي ترغو وتزبد عند الحلب، "وقد تحتلب الضجور العلبة" مثل يراود به أن الناقة الضجور قد تحتلب ما يملأ العلبة ويضربونه للمسي الخلق قد يصاب منه الرفق واللين، وللبخيل قد يستخرج منه المال (الخطيب .

هامش العواصم من القواصم ص 181)

^٤ ابن العربي العواصم من القواصم 180-181

يدفعنا إلى رد ذلك الخبر الأخير استبعاد أن لا يعلم معاوية نتيجة التحكيم إلا من الحصين هذا بعد أن شاع خبره " قال الناس في ذلك ما قالوا "؛ فإن الجملة الأخيرة قد لا تعدو الدلالة على هذه التخمينات التي أطلقها سرعان الناس المترقبين نتيجة التحكيم قبل أن تنتقل إلى علي ومعاوية بصورة موثقة، وينبغي ألا ننسى حساسية موقف عمرو في هذه الأثناء التي لا تجعله عاجلاً إلى إخبار معاوية بمد تم بصورة كاملة ومفصلة ..

معاوية بن الطلب بدم عثمان وطلب الخلافة:

إن روايات التحكيم تثير سؤالاً مهماً إذ إما حين تنص على خلع علي ومعاوية إنما تفترض وجود متنافسين على الخلافة؛ بينما كان معاوية مجرد وال على الشام يظهر الطلب بدم عثمان ولا يدعي الخلافة، فهل تحول معاوية إلى طلب الخلافة؟ ومتى تم ذلك؟؟

الحق أن معاوية في إظهاره الطلب بدم عثمان كان صادقاً ومتسقاً مع المجهود من شريعة الإسلام وقيم العرب، ولو استطاع علي تطبيق شريعة الله على قتلة عثمان لانتهى الأمر — غالباً — عند ذلك، غير أن مجريات الأحداث المتلاحقة قد أفرزت عوامل جديدة، لم يعد ممكناً معها أن تسلم الشام ومعاوية لعلي بالخلافة، بعدما سالت بين الفريقين الدماء، وبعد ما شعر أهل الشام بقومهم السني مكنتهم من الصمود طويلاً في حرب ضد الخلافة المتخذة من العراق مستقراً لها. وبعدما انضاف إلى الصراع بعد جديد هو هذه الرعة الإقليمية القوية التي صورت الزاع على أنه نزاع بين عصيبة الشام وقوة العراق، وقد مر بنا أن معاوية قد اقترح حلاً للصراع أن يستقل هو بالشام؛ ويستقل على بالعراق؛ وقد انتهى الأمر الواقع إلى ذلك فيما بعد كما يبدو، ولكن ذلك كان يعنى في حقيقة الأمر أن يكون للمسلمين خليفتان؛ وهو أمر لم يكن معهوداً آنذاك ..

وهكذا فإن تطور الأحداث كان يدفع بمعاوية إلى الصفوف الأولى؛ تماماً كما خدمته الأقدار بعد طاعون عمواس لما أهله ليصبح أبرز ولاة الشام .

وقد يبدو من قبيل التصنع ادعاء أن معاوية لم يكن طموحاً إلى الخلافة، وقد كان بالفعل جديراً بها؛ ولكن من التجني أن نسقط من التقييم النهائي هذه العوامل التي جعلت حصوله عليها أمراً غير مستنكر ولا مستكثر، ويأتي في موضعه الطبيعي دون تعسف أو ادعاء الخداع والمؤامرة .. وفي هذا السياق يأتي التحكيم وطرح اسم معاوية كمقابل لاسم علي؛ وكند للخليفة، اعترافاً بالواقع الجديد الذي لم يعلنه معاوية حتى هذه اللحظة ..

فبعشية التحكيم كان يبدو كما لو كانت هناك خلافتان تتنازعان السيطرة على العالم الإسلامي، هذا بالرغم من كون معاوية لم يطلب الخلافة جهرة حتى ذلك الوقت، وكان لابد لتحقيق السلام بين أبناء الأمة من إبعاد الزعيمين المتنازعين عن تنازعهما ورد الأمر بين المسلمين، ليولي أهل الحل والعقد من أرادوا ليكون خليفة للأمة كلها ...

والذي يظل غامضاً في هذا الموقف هو تعيين أهل الحل والعقد الذين يمكن أن ينأط بهم اختيار الخليفة الجديد، وهو عمل شديد الصعوبة آنذاك وبخاصة في هذه الظروف العصيبة التي لا تحتل فيها الأمة مزيد خلاف حول طبيعة هؤلاء نفر وشخصياتهم، وهكذا كانت عملية التحكيم

تستلزم عملاً تكميلياً ضرورياً لم يتم، فلم تحدد تلك القوة التي تستطيع فرض نتائجها على الرافضين له ..

وكان فشل التحكيم يعني أن يستمر الحال على ما هو عليه من انقسام المسلمين بين هذين المعسكرين المتنازعين حتى تطرأ عوامل جديدة، ولم يتأخر ذلك طويلاً؛ فقد عجلت طبيعة البناء القبلي بالعراق بحسم الصراع لمصلحة المعسكر الشامي، فقد ظهر تمرد الخوارج بما عرف عنهم من عنف وصلابة، وتللمل العراقيون من مواصلة النضال حتى أضجروا خليفتهم وأياسوه؛ فكان في أواخر أيامه يتمنى الخلاص منهم ومفارقتهم ولو بالموت، وجاء استشهاده بيد أحد هؤلاء الخوارج ليقرر عملياً انتقال الخلافة إلى معاوية؛ إذ لم يكن استخلاف الحسن بن علي في العراق إلا تمهيداً لذلك الانتقال .. وهكذا بويع لمعاوية بالخلافة في بيت المقدس سنة ٤٠ هـ عقب استشهاده علي^١، وأعقب ذلك تسليم الحسن بن علي الخلافة إليه ومبايعته بالكوفة في ربيع الأول أو جمادى الأولى سنة ٤١ هـ^٢ ..

^١ ابن الأثير : الكامل ٣/ ٢٠٢، وراجع الطبري : السابق ٥/ ١٦١ .. وإن قيل إنه كان قد بويع بالخلافة في الشام من قبل بعد التحكيم وخلع الحكمين كلا من علي ومعاوية وتركهما الأمر شورى بين المسلمين (راجع : ابن الأثير :

السابق ٣/ ١٦٨، ابن كثير : السابق ٧/ ٢٨٣) ..

^٢ الطبري : السابق ٥/ ١٦٢-١٦٣

الفصل الثاني

موقف الأمويين من الالتزام بالإسلام

بعد قيام دولتهم

مُتَكَمِّمًا:

قامت دولة الأمويين بعد انقضاء عصر الراشدين ، الذي يمثل غطاءً فريداً من تمثّل الإسلام وتطبيقه في الحكم والإدارة ، وكان المجتمع الإسلامي يزخر بتطور هائل جعل استمرار هذا النمط الفريد يعاني صعوبات جمة ظهرت آثارها في النصف الثاني من خلافة عثمان ، وطوال خلافة علي بن أبي طالب الذي عانى أيما معاناة ليس فقط من خصومه ، بل أيضاً من أنصاره في العراق ..

وكان لابد للحكم الأموي أن يواجه هذه التغيرات الاجتماعية ويتأثر بها ، وهو في هذا وذاك قد أظهر بعداً ما عن ذلك الأفق السامق من الالتزام الإسلامي في عصر الرسول ﷺ وخلفائه الراشدين ، الذي استمد توجّهه وبريقه من الانسجام المتناغم بين القيادة والرعية ، وحرص كليهما على التحقيق بكَمالات الدين ، في معظم مراحل هذه الفترة الزمنية الثرية ..

غير أن التزام الدولة والمجتمع في العصر الأموي بالإسلام لم يتراجع بشكل حاد عنه زمن الراشدين ، فقد كان كثير من مسلمي العهد الأموي من عاش زمن الراشدين ، سواء كانوا من شيوخ الصحابة أو جيل التابعين ... وإن صح أن نقول إن الاندفاع إلى تحقيق مثالية الإسلام قد أفسح الطريق لظهور نوع من الواقعية والترخص ، لا يخرج في مجمله عن حدود الإسلام ، الذي نعرفه ديناً شاملاً كاملاً ، يعترف باختلاف قدرات البشر واستعداداتهم ، ويشرع العزائم والترخص ، ولا يخرج أتباعه في هذه الحال أو تلك عن حدود الإسلام ومقتضى شريعته ..

ولكن خصوم الأمويين لم يرتضوا ذلك ، فاتهموا جل الخلفاء والولاة الأمويين في دينهم ، ورموهم بشرب الخمر والفسوق والاشتهار باللهو ، مما ينبغي تحييصه ودرسه لمعرفة مدى ثبوته ، مع الحذر من انسحاب حكم ما على أحد الخلفاء أو بعضهم ليشمل جميعهم ، ولا يخلو عهد دولة أو تاريخ جماعة من نقص بعض أفرادها أو قادتها ..

واستغل بعض المؤرخين ظهور بعض الشعراء في الدولة الأموية فثّقوا القول في فنون الغزل العفيف أو الصريح ؛ وظهور بعض من اشتهر بالغناء والطرب ، أو عرف باللهو والعبث ، ليصمم بذلك المجتمع الإسلامي كله في ذلك العصر ، وليجعل من هؤلاء المعبر الحقيقي عن أخلاق ذلك المجتمع وأعرافه ، دون رصد لطبيعة هذه الظاهرة ، وعوامل نشأتها ، ومدى انتشارها . وموقف

الحكام الأمويين منها ، ودون التفات إلى الفعاليات الأخرى في المجتمع من العلماء الذين خلد تاريخهم وذكرهم ، والزهاد والجهاديين والفاقيين ...
وتبقى مآثرة الأمويين الخالدة ، وهي الفتوحات الإسلامية الواسعة ، ونشر الإسلام واللغة العربية ودور الأمويين في ذلك — رغم ما أثير حولها من شبهات — عملا مجيدا يستحق الفخر ويعلن بجلاء عن طبيعة ذلك العصر ، ومكانة الإسلام في نفوس أبنائه ..

المبحث الأول: تدين الخلفاء والولاة

— حول التزام معاوية بالإسلام :

تقدم الحديث عن مكانة معاوية بن أبي سفيان عند رسول الله ﷺ وعند خليفته أبي بكر وعمر ؛ ورضاء رعيته في الشام عنه زمن الفتنة الكبرى ، وثقتهم فيه طوال مدة حكمه لهم التي استمرت قرابة أربعين سنة ، لم نسمع فيها عن تمرد بعضهم عليه أو غضبهم منه... حتى صدق فيه قول رسول الله صلى الله عليه وسلم "خيار أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم ، وتصلون عليهم ويصلون عليكم ، وشرار أئمتكم الذين يفضونهم ويبغضونكم وتلعنونهم ويلعنونكم" ^١ ..
ولم يقتصر عدله وحده على رعيته المقربين في الشام ، بل امتد ليشمل سائر أجزاء دولته ، ليقم الحق فيها ويحرس الأخلاق ، روي أن ابن عمه عبد الرحمن بن الحكم — أخا مروان بن الحكم — قد قاجى مع حسان بن ثابت بالمدينة المنورة فأفحشا في الهجاء ؛ فلما بلغ ذلك معاوية أصر على أن يجلد كل مهما مائة جلدة ولم يقل تراخي مروان بن الحكم ، عامله على المدينة ، في إقامة الحد على أخيه ^٢ ..

ورغم أن روايات التاريخ قد حجبت كثيرا من الجوانب المضيئة عند خليفة الأمويين الأول فإن شهادات بعض كبار معاصريه من الصحابة والتابعين تسد خلل هذا النقص ، مثل أقوال سعد بن أبي وقاص وعبد الله بن عباس وابن عمر ، الذين لا يتهمون بمحاباة معاوية ، أو مجاملته ... فقد نقل الخافظ ابن كثير عن سعد بن أبي وقاص قوله : " ما رأيت أحدا بعد عثمان أقضى بحق من صاحب هذا الباب " — يعني معاوية ^٣ — وقال عنه ابن عباس : " ما رأيت رجلا أخلق بالملك من

^١ رواه مسلم في صحيحه ، كتاب الإمارة .

^٢ الأصفهاني : الأغاني ٨٩/١٥ - ٩٠ .

^٣ البداية والنهاية ١٣٣/٨ .

معاوية ^١ ، وقيل لابن عباس هل لك في أمير المؤمنين معاوية فإنه ما أوتر إلا بواحدة ؟ فقال : " إنه فقيه " ^٢ ، وقال عبد الله بن عمر : " ما رأيت بعد رسول الله ﷺ أسود من معاوية " (أي أكثر تحلّقا بأخلاق السيادة منه) ، فقيل له : ولا أبو بكر وعمر ؟ فقال : كان أبو بكر وعمر خيرا منه ، وما رأيت بعد رسول الله ﷺ أسود من معاوية ^٣ ..

وقد روى أن بعض الصالحين قد همره عدل عمر بن عبد العزيز ، فأخذ يتحدث عنه ، حتى فاجأه الأعمش — التابعي الجليل — بقوله : تذكرن عدل عمر بن عبد العزيز ، فكيف لو أدر كنتم معاوية ؟ قالوا : في حلمه ؟ قال : بل في عدله ^٤ .. وروى الأعمش عن مجاهد قوله : لو أدر كنتم معاوية لقلتم هذا المهدي ، وقال أبو إسحاق السبيعي مثل ذلك ^٥ ..

حول استلحاق معاوية زياد بن أبيه :

ورغم ذلك فإن خصوم معاوية يرمونه بعدة اتهامات خطيرة ، منها دعواهم أنه كان يسب عليا على المنابر ، وهي دعوى تحوطها شكوك كثيرة تجعلنا نرجح عدم حدوثها ، وسوف نعرض لبحثها في موضع آخر ^٦ ، ومنها إساءة استخدام أموال المسلمين ، وهو ما سوف يكون موضع حديث وبحث في غير هذا المكان ^٧ ، ولكننا نبحث هنا اتهامه بمخالفة أحكام الإسلام في استلحاقه زياد بن أبيه ، حيث يقضي الحديث الشريف : " الولد للفراش وللعاهر الحجر " بأن ينسب ولد الزنى إلى زوج أمه إذا كان قد ولد على فراشه ^٨ .. وحقيقة الأمر أنه قد وجدت دلائل عديدة تثبت أن أبا سفيان قد باشر سمية — جارية الحارث بن كلدة الثقفي — وكانت من البغايا ذوات الرايات — في الجاهلية ، فعلقت منه زياد ، وقد اعترف أبو سفيان نفسه بذلك أمام علي بن أبي طالب وآخرين بعدما شبب زياد ونبع في عهد عمر بن الخطاب ، وأنه أنشد في ذلك شعرا ولم يمنعه من الجهر بذلك إلا خوفه من سطوة عمر ^٩ ، فلما كانت خلافة معاوية شهد لزياد بذلك النسب أبو مریم السلولي ، وهو

^١ السابق ١٣٥/٨ ، الطبري : تاريخ الرسل والملوك ٣٣٧/٥ .

^٢ البخاري : صحيح البخاري كتاب مناقب الصحابة ٢١٩/٤ .

^٣ ابن تيمية : المنتقى من منهاج الاعتدال ص ٢٨٥ .

^٤ ابن كثير : البداية والنهاية ١٣٢/٨ .

^٥ السابق ١٣٤-١٣٥ ، محب الدين الخطيب : هامش المنتقى من منهاج الاعتدال ص ٢٣٤ .

^٦ راجع الفصل الخاص بالمعارضة في العصر الأموي .

^٧ راجع الفصل الخاص بالشبهات حول السياسة المالية للأمويين .

^٨ ابن حجر : فتح الباري ١٣/١٧٢ ، البخاري : السابق ، حديث رقم ٧١٨٢ ، مسلم : صحيح مسلم كتاب النكاح ، باب الولد للفراش

^٩ السعدي : مروج الذهب ١٤/٣-١٥ .

صحابي كان يعمل في الجاهلية حمارا بالطائف ، وهو الذي جمع بين أبي سفيان وسمية ، وكان ذلك أمرا مالولاً آنذاك^١ ، ويبدو أن هذا النسب قد شاع أمره حتى لقد شهد بذلك أحد رجال البصرة لزبيد ، قبل استلحاق معاوية إياه^٢ ..

فهي دعوى قديمة إذن ، ولم تكن — كما يزعم الرواة — نتيجة مشورة المغيرة بن شعبة على معاوية كجزء من صفقة متبادلة بين معاوية — الذي كان قد استخلف حديثا — وزيد الذي اعتصم بقلعة حصينة عرفت باسمه في بلاد فارس ، حيث كان معاوية — فيما يزعمون — يتخوف من انفساد زيد هناك وتحصنه ، وأنه ربما دعا بعض مخالفين معاوية إلى البيعة فأعاد الحروب بين المسلمين^٣ .. أو أن معاوية كان يريد كسب زيد ليكفيه شرق الدولة الإسلامية^٤ ، ونحن نعلم أن المغيرة أيضا كان من ثقيف ، ومن المؤكد أنه كان يعرف حقيقة نسب زيد ، وربما اقترح على معاوية استلحاقه في هذه الظروف الشائكة ، فاخترع الرواة هذه التفاصيل الزائدة ..

ولم يكن بنو أمية — وهم أقوى قبائل قريش — يقبلون هذا الاستلحاق ، لو لم يكن له أصل يعتد به ؛ لما بدأ شيء من التمتع والمعارضة عند عبد الله بن عامر بن كريز وهو ابن خال الأمويين — غضب معاوية منه غضبا شديدا ، ولم يأذن له بالدخول عليه إلا بعد شقاعة ولده يزيد بن معاوية ، فلما دخل عليه قال معاوية : يا ابن عامر ، أنت القاتل في زيد ما قلت ؟ أما والله لقد علمت العرب أي كنت أعزها في الجاهلية ؛ وأن الإسلام لم يزدني إلا عزا ، وإني لم أكثُر بزياد من قلة ، ولم أتعزز به من ذلة ، ولكن عرفت له حقا ، فوضعت موضعه ، فرجع ابن عامر إلى ما يحب زيد وترضاه^٥ ، وقد اعترفت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها لزيد بهذا النسب في إحدى رسائلها إليه حيث بدأت رسالتها بقولها : " إلى زيد بن أبي سفيان " ^٦ ، ولم تكن عائشة رضي الله عنها في تقواها ودينها لتعترف له بذلك وهي توفق خلفه ، وبعد عدد من السنين نجد الإمام مالك بن أنس — إمام أهل المدينة — يذكر زيادا في كتابه الموطأ بأنه زياد بن أبي سفيان ، ولم يقل زياد بن أبيه ، وذلك في عصر بني العباس ، والدولة لهم والحكم بأيديهم ، فما غيروا عليه ، ولا أنكروا ذلك منه ، لفضل علومهم ومعرفتهم بأن مسألة زياد قد اختلفت الناس فيها ، فمنهم من جوزها ، ومنهم من منعها ، فلم يكن

^١ السابق ١٥/٣ .

^٢ الطبري . السابق ٢١٥/٥ .

^٣ السابق ١٧٧/٥ ، السعدي : السابق ١٥/٣-١٦ ، ابن الأثير : الكامل ٣/ ٢١١ .

^٤ طه حسين . الفتحة الكبرى ٢/ ٢٣٠-٢٣١ .

^٥ الطبري السابق ٥/ ٢١٤-٢١٥ .

^٦ البلاذري فتح البلدان ٣٥٥

لاعترضهم عليها سبيل^١ .. وأما تعارض هذا الاستلحاق مع نص الحديث الشريف ، فقد أوله بعض العلماء^٢ ؛ وأجاز الإمام مالك أن يستلحق الأخ أخا له ويقول : هو ابن أبي ، مادام ليس له منازع في ذلك النسب ، " فالخارث بن كلدة (الذي كانت سمية جارية له) لم ينزع زيادا ولا كان إليه منسوباً ، وإنما كان ابن أمة بغي ولد علي فراشه — أي في داره — فكل من ادعاه فهو له ، إلا أن يعارضه من هو أولى به منه ، فلم يكن علي معاوية في ذلك مغمز ، بل فعل الحق على مذهب مالك ، فإن قيل : فلم أنكر عليه الصحابة ؟ قلنا : لأنها مسألة اجتهد ، فمن رأى أن النسب لا يلحق بالوارث الواحد ، أنكر ذلك وعظمه^٣ ..

وكذلك أقم معاوية بقتل عدد من خصومه ، فيما يزعم المؤرخون — مثل سعد بن أبي وقاص والحسن بن علي والأشتر النخعي ، بل بقتل بعض أنصاره الذين تخوف نفوذهم مثل عبد الرحمن بن خالد بن الوليد^٤ ، والغريب أن كل هذه الاتهامات تزعم أن قتل هؤلاء الرجال كان بالسم ، وبتحريض من معاوية .. وهو اتهام لا دليل عليه ، ولا يمكن أن يثبت إلا بدليل ، ولا سبيل إلى صحته ، فقد كان سعد بن أبي وقاص ممن يمتدح معاوية ، كما مر بنا قريبا ، ولا مصلحة له في قتله ، ولا كان ثمة خطر يخشى من سعد ، ولا كان له مآرب في الخلافة ، وكذلك الشأن مع الحسن بن علي ؛ الذي كان على صلة وثيقة بمعاوية منذ أمد بعيد^٥ ، أما الأشتر النخعي فقد كان من المتهمين بقتل عثمان ، فإن كان معاوية قتله فقد اقتص منه ؛ على أن ذلك نفسه لم يثبت ، إذ توجد بعض الروايات المخالفة التي تذكر موت الأشتر ولا تشير إلى دور لمعاوية في ذلك^٦ ..

وجدير بنا أن ننقل المشهد الأخير من حياة معاوية ، وهو يلقي الموت وينتظر لقاء الله ، فعندها كان يقول : ليتني كنت رجلا من قريش بذي طوى ، ولم آل من هذا الأمر شيئا^٧ ، وكان عنده قميص رسول الله ﷺ وإزاره ورداؤه وشيء من شعره ، فقال : كفوني في قميصه ، وأدروني في رداءه ، وأزروني بإزاره ، واحشوا منخري وشدقي بشعره ، وخلوا بيني وبين أرحم الراحمين^٨ ..

^١ ابن العربي : العواصم من القواصم ٢٥٤ ، ٢٦٣

^٢ ابن الأثير : السابق ٣/ ٢٢١ ، ابن طباطبا : الفخري ١٠٩-١١٠ .

^٣ ابن العربي : السابق ٢٥٣

^٤ راجع مقدمة الكتاب : صورة قائمة عن الأمويين في التاريخ ..

^٥ ابن كثير : البداية والنهاية ١٣٧/٨ .

^٦ الكندي : ولاة مصر وقضاها ٢٥-٢٦ ، ابن قتيبة : عيون الأخبار ١/ ٢٠٧ .

^٧ ابن الجوزي : تلقيح لهوم أهل الأثر ص ١٥٦

^٨ السابق ص ١٥٧

— شبهات حول التزام يزيد بن معاوية بالإسلام :

واستخلف معاوية ابنه يزيد ، في ظروف كثير فيها المتطلعون إلى شغل منصب الخلافة ، وقوي فيها أمر أتباعهم ، وظن أعداء الأمويين أن الفرصة قد حانت لهم بغياب معاوية — القوي الذكي — عن ساحة الأحداث ، فصبوا جام غضبهم والفراتهم على ابنه ، ولم يكن ثمة أقسام يثير حفاظ الناس على خليفتهم مثل رميه بالفسوق والاستخفاف بأمر الدين ، وشرب الخمر والولع باللهو .. وهي دعاوى تجدد من يصدقها بغير تريث وبخاصة في أجواء الخصومة السياسية حيث تكثر الدعايات والشائعات .

ورغم ذلك فإننا نجد أن بعض زعماء المسلمين — آنذاك — المشهود لهم بالتدين والسورع والغيرة على الإسلام ينكرون هذه الاتهامات ويحتفظون ببيعتهم ليزيد ، وينهون عن خلعه ، رغم علو موجة العداء ضده وصعوبة الوقوف لها .. مثل ما نجد عند عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنه الذي كان ينهى أصحابه عن خلع يزيد ، لما ثار الحجاز ضده ^١ ، ومحمد بن علي بن أبي طالب المعروف بابن الحنفية الذي ناقش وفد الثائرين بالمدينة الخالعين يزيد في اتهامهم إياه بالفسوق وشرب الخمر ، نافيا عنه ذلك ، شاهدا له بالعدالة وحسن السيرة ^٢ ، مما سوف نعرضه له بالتفصيل عند الحديث عن الثورات ضد يزيد ، كما أننا نثق في أن معاوية — وهو كما رأينا في نقواه وعلمه — ما كان يمكن أن يستخلف يزيد لو كان حيث يصفه الرواة طيشا وفسوقا ...

وقد نقل بعض المؤرخين — غير المائلين إلى بن أمية — أقوالا ليزيد لا تصدر عن متهم برقة الدين وضعف اليقين ، من ذلك ما يروونه من خطبة له قال فيها : ^٣ "أوصيكم بتقوى الله العظيم ، الذي ابتدأ الأمور بعلمه ، وإليه يصير معادها ، وانقطاع مدتها ، وتصرم دارها ، ثم إني أحذركم الدنيا ، فإنها حلوة خضرة ، حلت بالشهوات ، وراقت بالقليل ، وأينعت بالغالي ، وتحببت بالعجل ، لا يدوم نعيمها ، ولا يؤمن مخيفها ، أكالة غوالة غرارة لا يبقى لها حال ، لا تعدو الدنيا إذا تناهت إلى أمنية أهل الرغبة فيها والرضا بما أن تكون كما قال الله عز وجل (واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كما أنزلناه من السماء .. إلى قوله تعالى : (مقتدرا) ^٤ ، نسأل الله ربنا وإلهنا وخالقنا ومولانا أن يجعلنا من فزع يومئذ آمنين " ^٥ ..

^١ ابن حجر : فتح الباري ١٣/٦٨-٦٩ ، ابن سعد : الطبقات الكبرى ١٤٤/٥ .

^٢ ابن كثير : السابق ٢٣٣/٨ .

^٣ الآية من سورة الكهف رقم ٤٥ .

^٤ ابن عبد ربه : العقد الفريد ٩٠/٤ .

ومن العجيب أنه كما غالى فريق من الناس في عدااء يزيد غالى آخرون في محبته ، حتى ألوهه ، مثل طائفة " اليزيدية " التي ظهرت حوالي القرن السادس الهجري ، ومن المرجح أن ذلك كان رد فعل لما لحق سيرة هذا الرجل من نشويه ^١ ...

— حول تدين مروان بن الحكم :

وعرف عن مروان بن الحكم العلم والفقه والعدل ... فقد كان سيدا من سادات شباب قريش لما علا نجمه أيام عثمان بن عفان ، فلما اشترك ضد علي بن أبي طالب في موقعة الجمل كان علي عليه السلام — فيما يحكيه عنه الشافعي — حين أنقزم الناس : يكثر السؤال عن مروان ؛ ف قيل له في ذلك ، فقال : إنه يعطفني عليه رحم ماسة ، وهو سيد من شباب قريش ^٢ ، وفيما بعد ، لما سئل معاوية ابن أبي سفيان : من تركت لهذا الأمر — أي خلافة المسلمين — من بعدك ؟ ذكر جماعة من كبار بني أمية وكان مما قال : أما القارئ لكتاب الله ، الفقيه في دين الله ، الشديد في حدود الله ، فمروان بن الحكم ^٣ ..

وقد شهد له الإمام مالك بالفقه ، واحتج بقضائه وفتاواه في مواطن عديدة من كتاب الموطأ ، كما وردت في غيره من كتب السنة المتداولة في أيدي أئمة المسلمين يعملون بها ^٤ ، وكان الإمام أحمد يقول : يقال كان عند مروان قضاء ، وكان يتبع قضايا عمر بن الخطاب ^٥ ، وكان مروان من أقرأ الناس للقرآن ^٦ ، كما كانت له رواية للحديث الشريف ، حيث روى عن بعض مشاهير الصحابة ، وروى عنه بعضهم ، كما روى عنه بعض التابعين ^٧ ؛ وكان حريصا على تحري السنة والعمل بها ، روى الليث بن سعد ، فقيه مصر ، بسنده قال : شهد مروان جنازة فلما صلى

^١ كان إمام هذه الفرقة الشيخ عدي بن مسافر (٤٦٧-٥٥٧هـ) رجلا صالحا أعلن أن يزيد بن معاوية إمام من أئمة المسلمين ؛ وأنه لا صحة لما ينسب إليه من الأمور القادحة في الدين والشرف ، ولكن أتباع الشيخ عدي غالوا في يزيد نتيجة تعرضهم لاضطهاد الرافضة الذين قتلوا بعض قادهم ، فاعتقد بعضهم بوبة يزيد ، واعتقد بعضهم ألوهيته (راجع : محب الدين الخطيب : هامش المنتقى ص ٢٧٩-٢٨٠ ، وانظر عن عقائد هذه الفرقة الضالة وبعض تاريخها : إسماعيل بك جول : اليزيدية قديما وحديثا)

^٢ ابن كثير : السابق ٢٥٧/٨ ، الذهبي : تاريخ الإسلام ٧١/٣ .

^٣ ابن كثير : السابق والصفحة ، الذهبي : السابق والصفحة .

^٤ الخطيب : هامش المراسم من القواصم ص ٢٦٣ .

^٥ ابن كثير : السابق ٢٥٨/٨ ، الذهبي : السابق ٧١/٣ ، والنظر الطبري : السابق ٢٣٩-٢٤٠ .

^٦ ابن كثير : السابق ٢٥٨/٨ ، الديار بكري : تاريخ الخميس ٣٩٧/٢ ، د. إبراهيم شعوط : أباطيل يجب أن تمحى من التاريخ ص ٢٦٠ .

^٧ ابن حجر : تهذيب التهذيب ٩١/١٠ - ٩٢ .

عليها انصرف ، فقال أبو هريرة : أصاب قيراطا ، وحرم قيراطا ، (أي من الأجر والثواب ، كما ورد في حديث شريف) ^١ ، فأخبر بذلك مروان ، فأقبل يجرى حتى بدت ركبته ، فقع حتى أذن له ^٢ ، ونظر عبد الرحمن بن الضحاك — عامل الأمويين على المدينة زمن يزيد بن عبد الملك — إلى بعض بني مروان يجر ثيابه ، فقال : أما والله لو رأيت أباك رأيته مشمرا ، فما يمنعك من التشمير ^٣ ..

وقد ولي مروان المدينة لمعاوية بن أبي سفيان ، فكان شديدا على أهل الفسوق بما حرمنا على مظاهر الترف والتخث ^٤ ، عادلا مع رعيته ، حذرا من مجاملة ذوي قرباه ، أو من يحاول منهم استغلال نفوذه ، فقد لطم أخوه عبد الرحمن بن الحكم مولى لأهل المدينة يعمل حنطا — أثناء فترة ولاية مروان على المدينة — فشكا الحنط إلى مروان ، فأتى بأخيه عبد الرحمن ، وأجلسه بين يدي الحنط ، وقال له : الطمه ؛ فقال الحنط : والله ما أردت هذا وإنما أردت أن أعلمه أن فوقه سلطانا ينصري عليه ، وقد وهبتها لك ، فقال : لست أقبلها منك ، فخذ حقل ، فقال : والله لا أطمه ، ولكن أهبها لك ، ولست والله لأطمه ، فقال : مروان : لست والله أقبلها ، فإن وهبتها فهبها لمن لطمك أو لله عز وعلا ، قال : قد وهبتها لله تعالى ؛ فقال عبد الرحمن شعرا يهجو أخاه مروان لذلك ^٥ ، ثم قيات الظروف على غير توقع ليصبح مروان خليفة للمسلمين في الشام ، فجاء أهلها يبايعونه وهو في خيمته يقرأ القرآن الكريم في ضوء مصباح ^٦ ..

إن هذه الصورة المشرفة عن علم مروان وعدله وفقهه وتدينه ، تكاد تختلف تماما عن تلك الصورة الكريهة التي يقدمها عنه معظم المؤرخين والرواة ، الذين اجتهدوا لتشويه حياة الرجل ، فلما حانت وفاته اجتهدوا أيضا لتشويهها... فزعموا أن امرأته — أم خالد بن يزيد بن معاوية — خنقته بوسادها ^٧ ، أو دست له السم ^٨ ، لما سب ابنها — بزعمهم — أمام جماعة من الناس ، " وهذه القصة ومع ما تحتويه من عناصر متناقضة تبدو لأول وهلة وكأنها أسطورة اخترعتها مخيلات عجائز القوم ، ثم رددتها الألسن ، إما حبا في الثثرة ، أو لتال من سمعة هذه الأسرة الرفيعة المكانة ، حسدا لما وصلت إليه من مجد " ^٩ ، فهل كان موته طبيعيا ، أم مات بإصابة الطاعون ، أم خنقته زوجته ؟ إن

^١ مسلم : الصحيح ، كتاب الجنائز ١٣/٧-١٤ ، أحمد : المسند حديث رقم ٤٤٥٣ ، ٤٦٥٠ .

^٢ ابن كثير : السابق ٢٥٨ / ٨ .

^٣ ابن عساکر : تاريخ دمشق ٤٠ / ٤٠٤ .

^٤ راجع : الأصفهاني : الأغاني ٣ / ٢٩-٣٠ .

^٥ السابق ٢٦٨ / ١٣ .

^٦ الإمامة والسياسة ٢ / ١٥-١٦ ، ابن عبد ربه : السابق ٤ / ٣٩٤ .

^٧ الطبري : السابق ٦١١ / ٥ .

^٨ الدينوري : الأخبار الطوال ص ٢٨٥ .

^٩ د . الرئيس عبد الملك بن مروان ص ١٢ .

تناقض الروايات دليل ظاهر على أن الحقيقة غير معروفة، ثم إذا عرضنا هذه الروايات على حكم العقل، فإننا نجد أن الروايات التي تزعم أن زوجته هي التي اغتالته مباشرة أو بالواسطة (عن طريق بعض جواريتها) غير مقبولة أو معقولة، فهذه الزوجة سيدة شريفة عربية من بيت عبد شمس، وزوجها قريبها، وهو خليفة وهي كانت زوجة خليفة وأم خليفة (هو معاوية بن يزيد بن معاوية)، وهو عمل لا تقدم عليه نساء العرب الشريفات، ثم إننا لم نر أي أثر لهذا الاغتيال، فلم يحدث في الأسرة أي خلاف، ولا مطالبة بالنار، وظل خالد على مكانته عند عبد الملك، كما أن الدافع لا يكفي بحال لارتكاب جريمة القتل^١، ويصف بروكلمان قصة قتل زوجة مروان له بأنها "قطعة من الخيال"^٢.

— حول تدين عبد الملك بن مروان :

واشتهر عبد الملك بن مروان بالعلم والفقه والعبادة، فقد كان أحد فقهاء المدينة الأربعة : سعيد بن المسيب وعروة بن الزبير وقبيصة بن ذؤيب وعبد الملك بن مروان، حتى قال نافع مولى عبد الله بن عمر: لقد رأيت المدينة وما فيها أشد تشميراً ولا أفقه ولا أقرأ لكتاب الله من عبد الملك بن مروان^٣، فكان يسمى حامة المسجد لحرصه على المكث فيه ومدامته قراءة القرآن^٤، وقد قال الإمام الشعبي: ما جالست أحداً إلا وجدت لي الفضل عليه، إلا عبد الملك بن مروان فسباني ما ذاكرته حديثاً إلا زادني فيه^٥، وقد استشهد الإمام مالك في الموطأ بفقهه وأحكامه وقضاياه^٦ وكان عبد الملك يحض الناس في خلافته على طلب العلم فيقول: "إن العلم سيقبض قبضاً سريعاً فمن كان عنده علم فليظفره غير غال فيه ولا جاف عنه^٧، وكان يجد في الأذكار الصالحة، ويوصي بذلك أصحابه، فقد روى ابن أبي الدنيا أن عبد الملك كان يقول لمن يسايره في سفره إذا رفعت له شجرة

^١ السابق ٥٠-٥١

^٢ تاريخ الشعوب الإسلامية ١/١٥٨

^٣ ابن كثير: السابق ٩/٦٢، ابن الأثير: الكامل ٤/١٠٣-١٠٤.

^٤ ابن طباطبا: الفخري ١٢٢، الدميري: حياة الحيوان ١/٥٧.

^٥ ابن كثير: السابق ٩/٦٢، ابن حجر: تذهيب التهذيب ٦/٤٢٢.

^٦ الموطأ، كتاب الأقضية باب المستكره من النساء ص ٧٣٤، كتاب المكاتب ص ٧٨٨، كتاب العقول ص ٨٧٢

، كتاب النكاح ص ٥٤٠، وانظر: الخطيب: هامش العراصم من القراصم ص ٢٦٣.

^٧ ابن كثير: السابق ٩/٦٣.

: سبحوا بنا حتى تأتي تلك الشجرة ، كبروا بنا حتى تأتي تلك الشجرة ، ولحو ذلك ^١ .. وكان في حياته الخاصة قد ترك سبل اللهو من الشراب والخمر والموسيقى والغناء ^٢ ... ولم تغيره مظاهر الملك بالركون إلى الدنيا — كما يشيع المؤرخون — الذين يقولون إنه لما جاءته الخلافة كان يقرأ القرآن فأطبق المصحف وقال : "هذا فراق بيني وبينك" ^٣ .. فما أصعب أن يترك الإنسان تاريخه وطبعه بعد هذه الفترة من الزمان .. ففي لحظة انتصاره بعد أن دانت له العراق وقتل مصعب بن الزبير أعد له أهل العراق موائد عظيمة ، فأصاب منها وهو يقول : ما ألد عيشنا لو كان يدوم ، ولكننا كما قال الأول :

وكل جديد يا أميم إلى بلى وكل امرئ يوما يصير إلى كانا
فلما فرغوا من الطعام طاف عبد الملك بأرجاء قصر الخورنق بالكوفة ومعه عمرو بن حريث — أحد أشرافها — وهو يسأله : لمن هذا البيت ؟ ومن بنى هذا البيت ؟ وعمرو يجبره ، وهو يقول :
اعمل على مهل فإنك ميت واكده لنفسك أيها الإنسان
فكان ما قد كان لم يك قد مضى وكان ما هو كائن قد كان ^٤
وخطب عبد الملك يوما خطبة بليغة ، ثم قطعها وبكى بكاء شديدا ، ثم قال : يا رب إن ذنوبي عظيمة ، وإن قليل عفوك أعظم منها ، اللهم فامح بقليل عفوك عظيم ذنوبي ، فبلغ ذلك القول زاهد العراق الحسن البصري فبكى وقال : لو كان كلام يكتب بالذهب لكتب هذا الكلام ^٥ ، وكان الشعبي يقول : حسدت عبد الملك بن مروان على دعاء كان يدعو به على المنير يقول : "اللهم إن ذنوبي كثيرة ، جلت أن توصف ، وهي صغيرة في جنب عفوك فأعف عني" ^٦ .. وكان إذا جلس للقضاء بين الناس يخشى أن يجور في حكمة فيوقف وصيفا ينشد على رأسه :
إنا إذا مالت دواعي الهوى وأنصت السامع للقتال
واضطرع القوم بالباهم نقضي بحكم عادل فاصل
نخاف أن تسفه أحلامنا فتخمل الدهر مع الخامل
ثم يجتهد عبد الملك أن يقضي بالحق بين الخصماء ^٧ ..

^١ السابق والصفحة .

^٢ راجع : عبد الأمير دكسن : الخلافة الأموية ص ٤٢-٤٥ .

^٣ ابن طباطبا : الفخري ص ١٢٢ ، النويري : نهاية الأرب ٩٨/٢١ ، دوزي : تاريخ مسلمي إسبانيا ١/١٠٩ .

^٤ الطبري : السابق ١٦٧/٦ ، ابن الأثير : السابق ٤٦/٤ .

^٥ ابن كثير : السابق ٦٧/٩ .

^٦ ابن أبي الحديد : شرح نهج البلاغة ١٨٩/٦ .

^٧ الأصفهاني : الأغاني ١١٦/٢٢-١١٧ .

ولقد اجتهد كذلك أن يربي أبنائه على ذلك النمط من الأدب الرفيع والخلق الكريم^١ ، فلما دنا منه الموت وثقل به مرضه ، جعل يلوم نفسه ، ويضرب بيده على رأسه ويقول : " وددت أني كنت أكتسب يوما بيوم ما يقوتني ، واشتغل بطاعة الله .. والله لوددت أني عبد رجل من قمامة أرعى غنما في جبالها ، وأنني لم أكن شيئا ...^٢ ، ثم يقول ذاما الدنيا : إن طويلك لقصير ، وإن كثيرك لقليل ، وإن كنا منك لفي غرور ، ثم أقبل على جميع ولده فقال : " أوصيكم بتقوى الله ، فإنها عصمة باقية ، وجنة واقية ، فالتقوى خير زاد ، وأفضل في المعاد ، وهي أحسن كهف ..."^٣ .

— شبهات حول التزام عبد الملك بالإسلام :

لقد حمل عبد الملك على عاتقه مهمة إعادة توحيد الأمة الإسلامية تحت راية خليفة واحد ، بعد فترة طويلة من الحروب والمنازعات الداخلية ، وفي سبيل ذلك كان لابد له من أن يطيح بمعارضيه والثائرين عليه ، وفي أجواء الخصومة أكثر أعداء عبد الملك من الطعن في دينه والتشنيع عليه ، وسوف نعرض فيما يلي أبرز هذه الاتهامات ومحاولين تجلية وجه الحق فيها ..

أولا : دعوى غدره بعمر بن سعيد الأشدق :

ويتهمون عبد الملك بالغدر به بعد أن آمنه ، فكانت أول غدره في الإسلام .. وقد كان عمرو بن سعيد — الذي سبق أن تولى حكم المدينة ليزيد بن معاوية — شخصية بارزة واسعة المطامح ؛ شديد الاعتماد بنفسه وعشيرته من بني العاص بن أمية ومصاهرته قبيلة كلب أقوى قبائل الشام آنذاك^٤ ...

ولما خرج عبد الملك لحرب مصعب بن الزبير انسحب عمرو بن سعيد من جيشه وكسر راجعا إلى دمشق مصطحبا معه عديدا من أنصاره ؛ ثم سارع بإحكام سيطرته على المدينة ؛ مما عد طعنة نجلاء للخليفة الذي وجد نفسه بين عدوين متربصين فأسرع بالعودة إلى دمشق واستطاع بمسد جهود كبيرة أن يعقد الصلح مع عمرو ويدخل العاصمة^٥ ، ولكنه كان صلحا على دخن ؛ إذ لم ينس عبد الملك غدر عمرو به وهو في طريقه للقاء عدوه كما لم ينته عمرو عن ادعاءاته وفخره ؛ وهو القائل للخليفة عقب انعقاد الصلح بينهما — لما أمره أن يعطي الناس أرزاقهم — : إن هذا لك ليس

^١ راجع وصيته لمؤدب ولده : ابن قتيبة : عيون الأخبار ١٦٧/٢ .

^٢ ابن الأثير : السابق ١٠٤/٤ .

^٣ راجع : السعدي : مروج الذهب ١٦٩-١٧٠ ، ١٧٤-١٧٥ .

^٤ الطبري : السابق ١٤٢/٦ .

^٥ السابق ١٤١/٦ .

ببلد فاشخص عنه ^١ .. ولم يكف عن استفزازه ومفاخرته ^٢ ، فأيقن عبد الملك أن الأمور لن تستقر في حاضرة الخلافة ولا في بقية دولته بينما هو يعاني أجواء التريص والحذر من داخل بيته وخطر الأعداء المتحفزين من الزبيريين في الحجاز والعراق ، فعزم — وهو كاره — على قتل منافسه الأموي ، كما يعبر عن ذلك قوله له وهو يهم بقتله : " إني والله لو علمت أن الأمر يستقيم ونحس جميعاً باقيا لا فتديتك بدم النواظر ، ولكني أعلم أنه ما اجتمع فحلان في إبل إلا غلب أحدهما " ^٣ ..

وقد أدى الحذر والخوف من انتقام الخليفة ببعض آل عمرو وأنصاره إلى لجوئهم إلى عدوه مصعب بن الزبير ؛ فلما ظفر الخليفة بمصعب صفح عنهم وقرهم إليه وأحسن جائزتهم ^٤ ، مما يدل على أن دوافع عبد الملك إلى قتل ابن عمه لم تعد رغبته في تأمين دولته وملكه في هذا الظرف العصيب ..

ثانيا : بناء قبة الصخرة :

زعم بعض المؤرخين أنه بنى قبة الصخرة ببيت المقدس لتكون بديلا عن الكعبة ، وأنه أمر أهل الشام بالحج إليها واحتج لهم في جواز ذلك بفتوى من ابن شهاب الزهري الفقيه ^٥ .. وهذه الرواية التي رواها يعقوبي — وهو مؤرخ شيعي مغال مشهور بتحامله على بني أمية — رواية لقيطة لا ندرى لها سنداً صالحاً ، وتستدعي بالضرورة وصف المسلمين كلهم في بلاد الشام بالضلال والمروق من الدين والغفلة عن أحكامه والاستخفاف بمقدساته ، وهو ما لا سبيل إليه ، وهذا لفيف من العلماء والفقهاء والزهاد والعارفين ، وابن شهاب الزهري الذي تزعم الرواية أنه أفتى بجواز ذلك كان وقتها صغير السن وغير معروف لدى عبد الملك نفسه أو أهل الشام ^٦ ، فقد ولد سنة ٥٥هـ أو سنة ٥٨هـ على اختلاف الروايات ^٧ ، ولم يقدم دمشق على عبد الملك إلا بعد انتهاء ثورة ابن الأشعث سنة ٨٣هـ ، بينما يزعم يعقوبي أن عبد الملك استشاره لبناء قبة الصخرة أثناء فتنة ابن الزبير الذي توفي سنة ٧٣هـ ، وهذا طعن صريح في رواية يعقوبي لأن الزهري لم يقد إلى الشام إلا بعد ذلك بكثير ^٨ ..

^١ السابق ٦ / ١٤٢ .

^٢ السابق ٦ / ١٤١-١٤٢ .

^٣ يعقوبي تاريخ يعقوبي ١٣ / ٣ .

^٤ الطبري : السابق ٦ / ١٤٧-١٤٨ .

^٥ يعقوبي : السابق ٧ / ٣ ، سعيد بن الطريق : التاريخ المجموع ٣٩ / ٧ ، كرد علي : خطط الشام ١ / ١٤٩ ،

وراجع ابن كثير : السابق ٨ / ٢٨٠ .

^٦ د عبد الأمير دكسن : السابق ٤٠-٤١ .

^٧ راجع : دائرة المعارف الإسلامية ١٠ / ٤٥٥ وما بعدها ..

^٨ راجع . السابق وتحقيقات الحق الشيخ أحمد محمد شاكر على الموضوع

وقد استمرت قبة الصخرة مكانا مقدسا بعد هزيمة بن الزبير، مما يبين أن عبد الملك إنما شيدها للدوافع الدينية حيث أراد أن يرضي شعور المسلمين بالشام الذين يشاهدون عن قرب الأبنية البيزنطية والمسيحية الضخمة والكثيرة، مثل كنيسة القيامة وغيرها، فبنى لهم بناء يظهر عظمة الإسلام وقدرة أهله على منافسة هذه البنايات العظيمة^١...

ثالثا : ضرب الكعبة بالجنايق أثناء حصار ابن الزبير:

وسوف يأتي مزيد بيان لهذا الأمر، والدوافع التي أدت إليه عند الحديث عن المعارضة في العصر الأموي، ولكن ما نؤكد هنا هو أن الأمويين إنما ضربوا بالجنايق ذلك الجزء الإضافي الذي أضافه ابن الزبير إلى الكعبة لما أعاد بناءها من جديد سنة ٦٥هـ^٢، ولم يكن الأمويون يعتقدون صحة عمل ابن الزبير في هذه الزيادة، وقد كان يطلق على ذلك الجزء الإضافي الذي راده ابن الزبير وقصفه الحجاج قائد عبد الملك "اسم الخطيم" كما يروى المقدسي^٣ وياقوت الحموي^٤، ومعروف أن عبد الملك أمر فيما بعد بهدم ما بناه ابن الزبير وزاده على الكعبة لما أعاد هو الآخر بناءها سنة ٧٤هـ فقال الشاعر جرير يمدحه :

رجعت لبيت الله عهد نبيه وأصلحت ما كان الخبييان أفسدا^٥

— تدين الوليد بن عبد الملك :

وكان الوليد بن عبد الملك قارئا للقرآن مشيدا للمساجد عابدا غيرا على دين الله عز وجل، قال إبراهيم بن عيلة قال لي الوليد بن عبد الملك: في كم تختم القرآن؟ فقلت في كذا وكذا، فقال: إن أمير المؤمنين على شغله يختمه في كل ثلاث، وقيل في كل سبع... وكان الوليد يقرأ القرآن في شهر رمضان سبع عشرة مرة^٦، ودخل عليه فتى من أشرف بني مخزوم يطلب منه أن يزوجه ابنته، فقال له: هل قرأت القرآن؟ قال: لا قال: أدنوه مني، فأدنوه، فضرب عمامته بقضيب كان في يده، وقرع رأسه به قرعات، ثم قال لرجل: ضمه إليك فإذا قرأ زوجته^٧، وكان يعطي أحد

^١ راجع : دكسن : السابق ٤١ .

^٢ الطبري : السابق ٦٢٢/٥ .

^٣ أحسن التقاسيم ص ٧٤-٧٥ .

^٤ معجم البلدان ٢٨٤/٤ .

^٥ دكسن : السابق ٣٨=٣٩، وانظر الطبري : السابق ١٩٥/٦ .

^٦ ابن كثير : السابق ١٦٢/٩، أبو نعيم : حلية الأولياء ٥/٢٤٣-٢٤٤ .

^٧ الجاحظ : البيان والتبيين ١٦٤/٢ .

أصحابه قطع الفضة يقسمها على قراء بيت المقدس^١ ، وكان الوليد أول من أجرى طعام شهر رمضان في المساجد ، وقد صام الاثنين والخميس فأدمنه^٢ ..
وكان غيورا حريصا على أخلاق رعيته .. يروى أنه مر يوما بمعلم صبيان ؛ فرأى جارية ، فقال : ويلك ما هذه الجارية ، قال : أعلمها القرآن ، قال : فليكن الذي يعلمها أصغر منها^٣ ..
وبنى جامع دمشق ، فصار أعجوبة الدنيا في عصره ، وأنفق عليه نفقات هائلة ، كما أعاد بناء المسجد النبوي بالمدينة وتوسعته ؛ وسيأتي مزيد بيان عن ذلك
وكان ذا إحساس مرهف ، فلم يطق رؤية المجذومين والعميان والمقعدين يجولون بعاهاتهم في الطرقات ، فوجه همه إلى بناء العيادات — أي المستشفيات — للمجذومين ، ليعالجوا فيها ، وأعطى كل ضرير قائدا ، وكل مقعد خادما ، وأجرى عليهم الأرزاق ، فكان أول من فعل ذلك^٤ ، وغلب عليه حب عمارة المساجد وتيسير وسائل الحياة للرعية^٥ ، فلا يعادل ذلك عنده إلا ما بذله من جهد هائل في الفتح ونشر كلمة الإسلام ولغة العرب ، مما سيكون محل تفصيل في موضع تلي^٦ ، فكان رحمه الله عند أهل الشام أفضل خلافتهم^٧ ..

— تدين سليمان بن عبد الملك :

وسمى سليمان بن عبد الملك "مفتاح الخير" وذلك لأنه افتتح عهده بخير وختمه بخير ، إذ رد المظالم إلى أهلها ورد المسيرين وأخرج المسجونين الذين كانوا بالبصرة واستخلف عمر بن عبد العزيز ، وأغزى مسلمة أخاه الصائفة حتى بلغ القسطنطينية ، فأقام بها حتى مات سليمان^٨ .
وجمع سليمان حوله الفقهاء والعلماء — وعلى رأسهم حواريه رجاء بن حيوة — فكان يجالسهم ويستمع إلى مواظهم ، وقد ذكروا له مواقف عديدة معهم ، مثل أخباره مع ابن محيريز

^١ ابن كثير : السابق ١٦٣/٩ ، أبو نعيم : السابق ٢٤٥/٥ .

^٢ يعقوبي : السابق ٢٩/٣ ، وقد روى بعد ذلك أباطيل كثيرة عنه مثل وصف أيامه بالخراب وكثرة الزلازل وقللة الخراج ؛ رغم ما اشتهر به من عمارة وإنفاق ؛ كما سيأتي بيانه ، ويقول عنه ابن قتيبة : " كان خبيث الولاية " (المعارف ٣٥٩)

^٣ الجاحظ : البيان والبيان ١٦٤ / ٢

^٤ السابق ٤٣٧ / ٦ ، ٤٩٦ ، يعقوبي : السابق ٢٩/٣ .

^٥ راجع الفصل الخاص بالجواب الحضارية .

^٦ د. ماجد : التاريخ السياسي للدولة العربية ١٩٢ / ٢ - ١٩٣

^٧ الطبري : السابق ٤٩٦/٦ .

^٨ ابن قتيبة : المعارف ص ٣٦٠ .

زاهد أهل الشام^١ وطاوس اليمى^٢ وأبو حازم الأعرج الذي سأله سليمان فقال : يا أبا حازم ، ما لنا نكره الموت ؟ قال : " لأنكم عمرتم دنياكم وأخربتم آخرتكم ، فأنتم تكرهون النقلة من العمران إلى الخراب " ؛ ويستمر الحوار بينهما حتى يقول سليمان: عظمي وأوجز، قال : يا أمير المؤمنين ؛ نزه ربك وعظمه ، بحيث أن يراك تجتنب ما نهي عنه ، ولا يفقدك من حيث أمرك به ، فبكى سليمان بكاء شديدا^٣ ..

وخطب سليمان مرة رعيته فقال : إن الدنيا دار غرور ، ومول باطل ، تضحك باكيا ، وتبكي ضاحكا ، وتخيف آمنا ، وتؤمن خائفا ، وتفقر مشريا ، وتثرى مقترا ، مائلة غرارة لعباءة بأهلها ، عباد الله اتخذوا كتاب الله إماما ، ارتضوا به حكما ، واجعلوه لكم قائدا ، فإنه ناسخ لما كان قبله ، ولم ينسخه كتاب بعده ، اعلّموا عباد الله أن هذا القرآن يجلو كيد الشيطان ، كما يجلو ضوء الصبح إذا تنفس ظلام الليل إذا عسعس^٤ ..

وعزل سليمان عمال الحجاج ، وأنهى سنته في الحكم ، وأصغى إلى مشيره ووزيره عمر بن عبد العزيز الأموي العادل ، واشتهرت غيرته على دين الله ، وحربه فساد الأخلاق في دولته ، حتى لقد هدد الفرزدق الشاعر بإقامة حد الزنى عليه لما قال شعرا يفهم منه ذلك ، فاعتذر إليه بأن الشعراء يقولون ما لا يفعلون^٥ ، وتبع الطبقة الجديدة في الحجاز من المغنين والمختنين فأمر بإخصائهم^٦ ..

شبهات حول تدين سليمان :

وطبعي بعد هذا أن نتمهل في قبول تلك الأخبار التي تطلب سليمان، وأن ننفي عنه جمعه المتناقضات في حياته مثل التقوى والعبث ، أو التدين والحقد على ما يزعم بعض المؤرخين .. وأخطر هذه الشبهات يتعلق بما يزعمونه من تمكن خصلة الحقد من نفسه إلى درجة قادت به إلى العصف ببعض الولاة البارزين والقواد الفاتحين في دولته ممن لا نظير لهم مثل موسى بن نصير وقيية بن مسلم ومحمد بن القاسم الثقفي^٧ ..

^١ أبو نعيم : حلية الأولياء ٥ / ١٤٠ .

^٢ الإمامة والسياسة ٢ / ١٠٥ .

^٣ المسعودي : مروج الذهب ٣ / ١٨٧ .

^٤ ابن قتيبة : عيون الأخبار ٢ / ٢٤٧ ، ابن عبد ربه : السابق ٤ / ٩١ .

^٥ ابن أبي الحديد : شرح نهج البلاغة ٥ / ١٧ .

^٦ الأصفهاني الأغاني ٤ / ٢٧٥-٢٧٦ .

^٧ سيد أمير علي مختصر تاريخ العرب ص ١٠٩ ، د . ماجد . السابق ٢ / ٢٥٦ .

أولا : موقفه من موسى بن نصير :

حيث روي أنه حبسه وعذبه لأنه أسرع في القيد إلى الشام بهداياه النفيسة وغنائمه العظيمة ليلقى الوليد قبل موته ؛ ولم يستمع إلى طلب سليمان له بالترهت حتى يموت الخليفة ويقوم هو مكانه^١ ..

والحق أن موسى كان قائدا فذا ولكنه كان شديد الطموح والثقة بالنفس ؛ وكان في أواخر خلافة الوليد يحكم ولاية تمتد لتشمل جميع شمالي إفريقيا وبلاد الأندلس ، فضلا عن تأهبه لمواصلة الغزو في جنوبي أوروبا ، وكانت هذه الإمكانيات تثير مخاوف الخلافة من احتمالات تفكير ذلك القائد الكبير في الاستقلال والخلع ، حتى في عصر الوليد نفسه^٢ . ولما استدعاه الوليد إلى دمشق وزع موسى إمارته على أبنائه الثلاثة^٣ ؛ مما كان يعزز مخاوف الخليفة الشاب الجديد سليمان ؛ فقد روي أنه لما عزله وسجنه شفع فيه يزيد بن المهلب ؛ فقال له سليمان^٤ : " إنه قد اشتهل رأسه بما تمكن له من الظهور واتقياد الجمهور والتحكم في الأموال والأبشار على ما لا يحويه إلا السيف " ..

كما أنه ربما بلغت وشايات من بعض أصحاب موسى حول ذمته المالية وبخاصة من قائديه طارق بن زياد ومغيث الرومي ، وقد كان ذلك هو السبب فيما فرضه عليه من غرم مالي^٥ ، وثمة حالات مشابهة لذلك فيما فعله عمر بن عبد العزيز مع يزيد بن المهلب ، وما صنعه هشام بن عبد الملك مع خالد القسري ، وغير ذلك من أمثلة^٦ ، مع ما نعلمه من عذر بعض الولاة في إنفاق الأموال أثناء غزوهم ؛ وفي الأمصار المفتوحة حديثا ؛ لتأليف القلوب وتثبيت الفتوح ..

ورغم ذلك يبدو من المبالغ فيه ما يزعمه بعض الرواة من أن المبلغ المطلوب من موسى كان من الضخامة بحيث اضطر أن يتسوله من أقرباء له بوادي القرى^٧ ، فقد كان أبناؤه ولاية على المغرب والأندلس يستطيعون بطريقة ما سداد بعض ذلك المبلغ ، وكان له من الأصدقاء مثل يزيد بن المهلب من لا يخلون عليه بالعون .. كما يبدو من المرجح أن محاولات للصلح قد تمت بين الخليفة وقائده المعزول حتى التدى موسى نفسه بأداء ما طلب منه من المال أو بعضه^٨ ، ثم حسن ما بين

^١ الإمامة والسياسة ٨٣/٢ ، ابن القوطية : تاريخ الفتاح الأندلس ص ٣٦

^٢ الإمامة والسياسة ٧٥/٢

^٣ المقرئ : نفع الطب ٢٨٦/٨ ، الإمامة والسياسة ٩٥ ، ٢

^٤ المقرئ : السابق ٢٨٥/١

^٥ أخبار مجموعة ص ٢٩-٣٠ ، اليعقوبي : السابق ٢٣-٣٣

^٦ راجع ص من هذا البحث

^٧ المقرئ : السابق ٢٨٤/١-٢٨٩

^٨ الإمامة والسياسة ٨٥/٢

الرجلين حتى كان سليمان يبدي ندما على عزل قائده وقسمه ألا يوليه عملا ؛ ويقول : ما مثل موسى استغني عنه ^١ ..

ثانيا : موقفه من قتيبة بن مسلم :

وليس صحيحا أن سليمان أساء إلى قتيبة ، فإنه لما أراد الوليد — فيما مضى — عزل سليمان من ولاية العهد وتولية ولده عبد العزيز كان قتيبة ممن وافقه وأيده ، فلما ولي سليمان أشفق قتيبة من أن يناله منه سوء فسارع إلى خلعه ، وأعلن ذلك في جنده ، رغم أن سليمان لما أحس بما ينوي قتيبة عمله سارع بإرسال عهده له على عمله في خراسان وما وراء النهر ، ولكن خلع قتيبة إياه كان أسبق ، ووصل الخبر إلى رسول سليمان إليه في الطريق فرجع ، غير أن كثيرا من جند قتيبة لم يطاوعه ، وتزعّم بنو تميم الثورة عليه بقيادة وكيع بن أبي سود التميمي فقتلوه ^٢ .

ورغم ذلك فإنه لما أرسل سليمان بعد ذلك يزيد بن الوليد عاملا على خراسان كتب إليه : " إن قيسا تزعم أن قتيبة لم يخلع الطاعة ؛ فإن كان وكيع قد تعرض له وثار عليه ؛ ولم يكن خلع ؛ فقيده وابعد إلى ^٣ " .

ثالثا : موقفه من محمد بن القاسم الثقفي :

وقيل إنه عزله عن بلاد السند لأنه من صنائع الحجاج ؛ وكان سليمان لا يرضى منهجه في الحكم ؛ "وعندما حطت به الأيام ادعت ابنة الملك داهر (ملك السند الذي قتله ابن القاسم) أنه راودها عن نفسها ، أو نالها قسرا ، ولذا فقد سجن في واسط وعذب ، ثم تضاربت الروايات بشكائه ؛ فقيل إنه مات تحت العذاب ، وقيل إنه أطلق سراحه ثم قتل من قبل معاوية بن المهلب ، وقيل بل قتل بدسائس من أتباع داهر فاقم به الخليفة ، ثم اعترفت ابنة داهر فيما بعد بأنها كانت كاذبة في ادعائها ^٤ ..

— تدوين عمر بن عبد العزيز :

والروايات عن زهد عمر بن العزيز وورعه وخوفه من الله أكثر من أن تحصى ، وترجمناه اللتان كتبهما عنه ابن الجوزي وابن عبد الحكم زاخرتان بهذه الروايات التي تقدم صورة مضئنة عن عمر بن عبد العزيز لحبيبة بنى أمية وخامس الخلفاء الراشدين ...

^١ السابق ٩٨ / ٢

^٢ الطبري : السابق ٥٠٦ / ٦ = ٥٠٨

^٣ ابن كثير : السابق ١٧٠ / ٩

^٤ محمود شاكر : التاريخ الإسلامي ٣٦ / ٤ ، ٢٣٥

وقد نشأ عمر في بيت الإمارة والملك ، حيث كان أبوه عبد العزيز بن مروان أميراً على مصر (من سنة 64 هـ حتى سنة 85 هـ) فنشأ عمر مترفاً منعماً ، مبالغاً في الترفه والتنعيم ، غير أنه بعد أن ولي الخلافة شعر بعظيم المسؤولية الملقاة عليه فانقلب زاهداً متعبداً على نحو مثير^١ ، وأحال ما حوله من مظاهر الملك وصوره إلى لون من البساطة يذكرنا بمظاهر الخلافة في عصر الراشدين ، وضم هذه الأموال والزينة كلها إلى بيت مال المسلمين^٢ ولم يبق لنفسه من أموال الخلافة ومواردها إلا ما لا يمكن الاستغناء عنه ، وبدأ بنفسه في باع كل ممتلكاته من مزارع وماشية ومتاع وخيول وملابس وعطور وآلات وغيرها مما بلغ ثمنه ثلاثة وعشرين ألف دينار ، ثم جعلها في بيت المال ، واكتفى بدرهمين نفقة له ، يأخذها يومياً من بيت المال غلت الأسعار أو رخصت^٣ ، وتأكيده لتجرده من أمواله الخاصة قام بتمزيق سجلات مزارعه جميعاً^٤ ...

ثم ألزم بني أمية منهجه ، فرد كثيراً من أموالهم إلى بيت المال ، رأى أنها كانت مما لا يجوز لهم أن يمتلكوها ، ولم يعأ بمعارضتهم وغضبهم^٥ وفرض مثل ذلك التقشف والزهد على عماله وولاته^٦ ، وكما وجد في رد الأمة إلى مظهر البساطة وسمت التقى من عنت ومشقة ، فمضى يضرب القدوة بنفسه وبيته ؛ حتى لقد جاءت يوماً امرأة من نساء المسلمين إلى بيته تعرض لشكواها وحاجتها ، وتطلب ما تستغي به ، ودخلت على امرأته فاطمة بنت عبد الملك بن مروان وهي تغزل قطناً ، ولم تر في بيت الخليفة شيئاً ذا بال فقالت في عجب : إنما جئت لأعمر بيتي من هذا البيت الخرب ؟ فأجابتها فاطمة : إنما خرب هذا البيت عمارة بيوت أمثالك^٧ .

وكان خوفه من الله عظيماً ، تحكي عن ذلك امرأته فاطمة بنت عبد الملك فتقول : "ما رأيت أحداً أشد فرقا من ربه منه ، كان يصلي العشاء ثم يجلس يبكي حتى تغلبه عيناه ، ولقد كان يكون معي في الفراش ؛ فيذكر الشيء من أمر الآخرة ؛ فيتنفض كما يتنفض العصفور في الماء ، ويجلس يبكي ، فأطرح عليه اللحف رحمة له وأنا أقول يا ليت كان بيننا وبين الخلافة بعد المشركين ، فوالله ما رأينا سروراً منذ دخلنا فيها"^٨ ..

^١ راجع . عماد الدين خليل . ملامح الانقلاب الإسلامي في خلافة عمر بن عبد العزيز ص ٢٥-٨١

^٢ السيوطي : تاريخ الخلفاء ص ١٥٣ ، ابن عبد الحكم : سيرة عمر بن عبد العزيز ص ٣٣-٣٤

^٣ ابن عبد الحكم : السابق ص ١٢٤

^٤ السابق ص ٥٠

^٥ السابق ص ٤٩-٥١ ، ٥٤

^٦ السابق ص ٥٥

^٧ السابق ١٤٤-١٤٥

^٨ السابق ص ٤٢ ، ابن الجوزي : سيرة عمر بن عبد العزيز ص ٢٤٨

وكان زهده بعد خلافته مضرب المثل ومثار العجب ، فقد قال بعض أصحابه : ولي عمر خلافة المسلمين بعد صلاة الجمعة ، فأنكرت حاله في العصر^١ ، ولذلك كان مالك بن دينار عليه السلام يقول : " يقولون : مالك زاهد ؛ أي زهد عندي ، إنما الزاهد عمر بن عبد العزيز لأنه الدنيا فافرة فاهها فتركها جملة " ^٢ ..

— شباهات حول تدين يزيد بن عبد الملك :

وجاء يزيد بن عبد الملك بعد عمر بن عبد العزيز ، أو لنقل جاء خليفة عادي متواضع المستوى بعد خليفة فذ استطاع في فترة خلافته القصيرة أن يترك بصمة كبيرة على تاريخ الإسلام وبني أمية .. وشأن الشمس القوية أن تجذب الأنظار نحوها بعيدا عن الأضواء الخافتة ، وتورث تطلعا إلى الأفق الأعلى لا يقنع بالأرض الواطئة ، وقد كان ذلك أول ما جرى على سيرة يزيد بن عبد الملك ؛ إذ جاء بعد مستوى رفيع من العطاء والإنجاز كان من الصعب عليه وعلى كثيرين غيره أن يجاروه ، أو يحافظوا عليه .. ويبدو أن أعداء الأمويين عز عليهم أن يظفر تاريخهم بمثل عمر بن عبد العزيز ، ويبدو أنه كان في خلفته بعض الهنات ، فسلطوا عليها أضواءهم ، وسلطوا عليه غضبهم وتشهيرهم ، حتى جاء تاريخه كريها ، وجاء عصره — على قصره (١٥١ — ١٥٩هـ) — مجموعا^٣.

ومن ذلك ما رواه السيوطي أنه لما ولي يزيد قال: سيروا بسيرة عمر بن عبد العزيز، فأتي بأربعين شيخا ، فشهدوا ما على الخلفاء حساب ولا عذاب^٤ .. ولو كانوا شيئا أو شيخين يشهدان بمثل هذا الهراء لكانا كفيلين يرفض الرواية من أساسها ، فما الظن بأربعين شيئا يتكبرون أسس الإسلام في الحساب واليوم الآخر في ذلك الوقت المبكر من تاريخ الإسلام ولي دار الخلافة حيث كثرة من العلماء والمجاهدين والفقهاء والعارفين ..

وأبرز ما يتهمون به يزيد هو إقباله — فيما يزعمون — على الشراب وتعلقه الشديد بجاريته حبابة وسلامة ، حتى لم تجد معه توسلات أخيه مسلمة بن عبد الملك أن يعود إلى سيرة عمر ابن عبد العزيز ، ويكف عن قصفه وهوه ، وأنه لما كاد يطيعه في ذلك مكرت به جاريته حبابة ، فعاد إلى ما كان فيه أو أشد^٥ ، ولما اختطف الموت حبابة هذه فجأة اشتد عليها حزنه ، فأقام لا يدفنها

^١ ابن سعد : الطبقات الكبرى ٢٥١/٥ .

^٢ ابن كثير : البداية والنهاية ٢٠٢/٩ .

^٣ راجع د . أحمد شلبي : موسوعة التاريخ الإسلامي ٩٤ / ٢ .

^٤ تاريخ الخلفاء ٢٤٦ .

^٥ المسعودي : مروج الذهب ٢٠٧/٣ — ٢٠٨ ، الأصفهاني : الأغاني ٩٩/١٥ — ١٠٠ .

ثلاثا حتى تغيرت ، واضطر أخيرا أن يوارىها التراب تحت ضغط أقاربه ! ولم يلبث أن مات بعدها بقليل ، ودفن إلى جوارها ^١ ..

وربما كان يزيد يحب جاريته فعلا ، وليس في ذلك ما يعاب ، ولكن أن تلعب أهواء الرواة على هذا النحو في هذه العاطفة لتجعل منها قصة مثيرة على ذلك النحو ؛ وكأنه لم يكن في تاريخ يزيد إلا هذا الجانب المكذوب من حياته ، فهذا هو ما نستغربه وننكره ^٢ .

إن الرجل الذي تصوره الروايات السابقة جاهلا بأركان دينه ، خائر القسوة والعزيمة ، تتحكم فيه إحدى جواربه على نحو مخز ، تاركا مصالح رعيته وشئونهم يتظالمون فيما بينهم ، هو نفسه الذي تصوره وقائع التاريخ حازما يقظا حريصا على رعيته .. فما كاد يتولى الخلافة حتى كان عليه أن يواجه خطرين بارزين ؛ أولهما : هروب يزيد بين المهلب من سجن عمر بن عبد العزيز أثناء مرضه الذي توفي فيه ، ثم ما لبث ابن المهلب أن أعلن الثورة على الخلافة واستولى على البصرة ، فلم يمهله يزيد أن واجهه مواجهة دامية ، انتصر فيها قائده وأخوه مسلمة بن عبد الملك وقتل فيها ابن المهلب وانتهت حركته قبل أن يستفحل خطرهما ^٣ ، وثاني هذين الخطرين تحرك خوارج العراق ضده ؛ فبادر عامله عليها عبد الحميد بن عبد الرحمن بقتالهم فهزموه ، فأرسل إليهم يزيد الجيش تلو الجيش حتى أوقع بهم وقتلهم وقتل قائدهم شوذب اليشكري ^٤ .. كما واصل سيرة سابقه في الغزو والجهاد ، فكان في عهده غزو السند والترك ^٥ وغزو الروم بأرمينية ^٦ .

ولم ينقض سيرة عمر بن عبد العزيز ويقبل خلافتها كما أثار بعض المؤرخين ، ولكنه لم يلزم نفسه مسلك عمر في الزهد والتقشف ، وليس كثيرون يطبقون ذلك ، ورغم هذا فإننا نرى هنا وهناك دلائل عديدة على تحريه العدل وستن الدين وحرص عماله على بيت مال المسلمين ^٧ ، وحرصه على إرضاء رعيته — وإن جاوزوا القدر المعهود في التعبير عن رغبتهم — كما حدث لما ثار أهل إريقية على عامله يزيد بن أبي مسلم بعدما نقموا عليه بعض تصرفاته فقتلوه ، فلم يغضب ذلك

^١ الأصفهاني : السابق ١١١/١٥ - ١١٢ ، المسعودي : السابق ٢/٣٠٩ ، سيد أمير علي : السابق ١١٥ .

^٢ د . شليبي : السابق ٢/٩٤-٩٥ .

^٣ راجع الطبري : السابق ٥٧٨/٥٨٩ ، ٥٩٠-٦٠٤ .

^٤ السابق ٩/٥٧٥-٥٧٧ .

^٥ السابق ٦/٦٠٧-٦١٥ ، ٧/١٤-١٥ .

^٦ السابق ٦/٦١٦ .

^٧ السابق ٦/٥٨٠-٥٨١ .

الخليفة ، بل أرسل إليهم يؤيدهم في ثورتهم ويقول " إني لم أرض بما صنع يزيد بن أبي مسلم " ، وأقر عليهم عاملهم الذي اختاروه بدله محمد بن يزيد ^١ ..

ولما بلغه أن عامله على المدينة عبد الرحمن بن الضحاك آذى فاطمة بنت الحسين بعدما رفضت الزواج منه ، عزله وكلف الوالي الجديد أن يسطر العذاب على ابن الضحاك ، وأن يقرمه أربعين ألف دينار ، ولم يقبل شفاعته أخيه مسلمة بن عبد الملك فيه ^٢ ..

ولعل آخر ما يذكر ليزيد هنا أنه استخلف من بعده هشام بن عبد الملك ، ولم يستخلف ولده الوليد بن يزيد ، إذ كان آنذاك صغير السن ، فجعله من بعد هشام ، ثم لم يغير ذلك الاستخلاف الذي ابتغى به مصلحة الأمة بعد أن شب ابنه هذا في حياته ^٣ ..

— حول تدين هشام بن عبد الملك :

ويتهم بعض المؤرخين هشام بن عبد الملك بأنه كان خشنا فظا غليظا ، منعوتا بالبخل والجبن ، حتى لم ير زمان أصعب من زمانه ^٤ ..

غير أن وقائع التاريخ ومعظم الروايات تتجه اتجاها آخر ينفي هذه الاتهامات عنه ، فقد كان زمانه حافلا بالجهاد والغزو على شقي الجبهات ، وإن لم يحدث تقدم ذو بال على مساحة الدولة ^٥ ، ولم يكن أحد من بني مروان يأخذ العطاء إلا وعليه الغزو ، فمنهم من يغزو ومنهم من يخرج بدلا ^٦ ، ولم يكن بخيلا ولا كان زمانه أصعب زمان كما يزعمون ، فقد كانت له جهودته المعمارية ^٧ ، وقد كان يجمع الأموال ويعمر الأرض ويستجد الخيل .. وقد اصطنع الرجال وقوى الثغور واتخذ القنى والبرك بطريق مكة وغير ذلك من الآثار ^٨ .. وهكذا نجد حديث بخل هشام حديثا منقوصا ^٩ ،

^١ السابق ٦ / ١١٧ .

^٢ السابق ١٢ / ١٣ - ١٢ / ١٣ .

^٣ السابق ٧ / ٢٠٩ ، وكان الوليد بن يزيد لما استخلف أبوه هشام ابن إحدى عشرة سنة ، ولم يمض يزيد حتى بلغ ابنه الوليد الخامسة عشرة من عمره .

^٤ المسعودي : السابق ٣ / ٢١٧ ، الطبري ٧ / ٢٠٥ ، ابن أبي الدم : التاريخ المظفر ١ / ٣٢٦ .

^٥ راجع حالة الفتوحات في عهد هشام عند : محمود شاكر : التاريخ الإسلامي ٤ / ٢٧٣ - ٢٧٧ .

^٦ الطبري : السابق ٧ / ٢٠٢ .

^٧ بنى قصرين في الرصافة حيث كان يزل (الطبري : السابق ٧ / ٢٠٧) .

^٨ المسعودي : السابق ٣ / ٢١٧ .

^٩ راجع عن بخله المزعوم الطبري : السابق ٧ / ٢٠١ ، وعن تنعمه وسرفه ابن الأثير : الكامل ٤ / ٢٥٥ .

ويبدو لي أنه كان دقيقا في أموره المالية غير مفرط ، فاعتبرت هذه الصفات بخلا في وقت كان بعض العرب فيه يتباهون بالسرف أحيانا^١ ...

وكان هشام يجلب العلماء والفقهاء في زمانه ، فلما حج سنة ١٠٦هـ وبلغه موت طاووس اليمنى الفقيه وسالم بن عبد الله ، حرص على أن يصلي بنفسه عليهما ، ورأى القاسم بن محمد بن أبي بكر عند قبر سالم بن عبد الله ، فأقبل عليه هشام ، ما عليه إلا دراعة ، يسأله عن حاله ، فقال : بخير ، فقال الخليفة : إني أحب والله أن يجعلكم بخير^٢ .

وتفقد هشام بعض ولده — ولم يحضر الجمعة — فقال له : ما منعك من الصلاة ؟ قال : نفقت دابتي ، فقال هشام : أعجزت عن المشي فتركت الجمعة ؟ ومنعه الدابة سنة^٣

وبلغه أن يحيى بن ميمون الحضرمي — قاضيه على مصر — لم ينصف يتيما احتكم إليه في بعض أمره فكتب إلى عامله على مصر يقول : اصرف يحيى عما يتولاه من القضاء مذموما مدحورا ، وتأخير لقضاء جندك رجلا عفيفا ورعا تقيا سليما من العيوب ، لا تأخذه في الله لومة لائم^٤ ... ونسوق هنا هذا المثال الرائع لتواضع الخليفة مع وزيره ورعيته ، فقد قال هشام يوما لوزيره الأبرش الكلبي : أوضعت أعرك ؟ قال : إي والله ، قال هشام لكن أعري تأخر ولادها ؛ فأخرج بنا إلى أعرك نصيب من ألبانها ، قال : نعم ، أتقدم قوما ؟ قال : لا . قال : أفأقول : خباء ؛ حتى يضرب لنا ؟ قال : نعم ، وغدا الناس ، ففقد هشام والأبرش كل واحد منهما على كرسي ، وقدم إلى كل واحد منهما شاة ، فحلب هشام الشاة بيده ، وقال تعلم يا أبرش أي لم أبس الحليب^٥ ، ثم أمر بحلة فعبجت ، وأوقد النار بيده ، وألقى الحلة ، وجعل يقلبها حتى نضجت . ثم أخرجها ، وجعل يقلبها باخراث ويقول : جينيك جينيك ، والأبرش يقول : ليك ليك — وهو شيء تقولونه الصبيان إذا خبزت لهم الحلة — ثم تغدى وتغدى الناس ، ورجع^٦

— شبهات حول سيرة الوليد بن يزيد :

وتعرض الوليد بن يزيد لحملة عاتية من التشويه ، فلم يكف المؤرخون أن نسبوا إليه اللهو والفسوق ، بل وسموه بالكفر وموجباته ، ونسوا إليه شعرا ينكر فيه الوحي والكتاب^٧ ، وزعموا أنه

^١ د . شلي . السابق ٩٧ / ٢ .

^٢ الطبري السابق ٢٩ / ٧ .

^٣ السابق ٧ / ٢٠٤ .

^٤ الكندي : السابق ٤٢٣ = ٤٢٤ ، نقلا عن د . حسن إبراهيم تاريخ الإسلام السياسي ٥٠٠ / ١ .

^٥ الإبهاس : التلطف في حلب الشاة بأن يقال لها بس بس (لسان العرب : القاموس المحيط ، مادة بسس) .

^٦ الطبري . السابق ٢٠٥ / ٧ - ٢٠٦ .

^٧ المسعودي : السابق ٣ / ٢٢٨ - ٢٢٩ ، ابن أعثم الكوفي السابق ٨ / ١٤٠ .

جعل القرآن غرضاً لسهامه ذات يوم في نوبة طيش ونزق^١، ثم نسبوا إليه بعد ذلك كله سقوطاً خلقياً ذريعاً وتمتكا قبيحاً واستخفافاً بمعاني الشرف والعفة والكرامة^٢..

وخلافة الوليد لم تزد عن سنة وثلاثة أشهر^٣، ورغم ذلك فقد شاع ذكره في التاريخ حتى أصبح من أشهر خلفاء بني أمية، وحاول بعض المؤرخين أن يجعل من نقائصه ومثاليه — الصحيح منها والمخترع — سمة غالبية على العصر الأموي وخلفائه، رغم قصر مدة خلافته؛ وثورة أهله الأمويين عليه فيما بعد، وقتلهم إياه..

ولقد كان في الوليد نقص في الدين على ما يبدو وإن كان لا يصل أبداً إلى تلك الدرجة التي يصفها المؤرخون؛ ولقد كان بعض العلماء البارزين في عصره يعيبه وينقده^٤، غير أن نقص قدراته السياسية كان أوضح بكثير، وهو الذي جنى عليه، وطمس تاريخه بالفسق والفجور، وهما أشنع ما يتهم به خليفة، في ذلك الحين، بعدما قادت ظروف حياته ونتائج سياسته إلى أن يثير من حوله كثيراً من الأعداء والناقمين، من مختلف الاتجاهات، ومن خصوم الدولة التقليديين وأنصارها على السواء..

فقد جعل أبوه يزيد بن عبد الملك — كما رأينا — ولاية عهده إلى هشام بن عبد الملك، وجعل ابنه الصغير آنذاك الوليد بن يزيد ولياً لعهد هشام بعد استخلافه، ولكن الابن الصغير قد شب في حياة أبيه، الذي لم يغير عهده، ولكن ظلت في نفسه حسرة وشفقة على ولده، ينظر إليه ويقول: "الله يبني وبين من جعل هشاماً بيني وبينك"^٥، ويبدو أن يزيد حاول تعويض ولده عن ذلك، فأغدق عليه من ألوان الترف ما جعل الوليد فيما بعد شاعراً مترفاً رقيق المشاعر بعيداً عن حياة الخشونة والجد وتحمل الأعباء..

ولما ولي هشام الخلافة ووجد الوليد على ذلك وقد اتخذ من حوله جماعة ممن الندماء لم يرضهم له، حاول الخليفة استصلاحه قدر طاقته، وأرسله لذلك على موسم الحج سنة ١١٩هـ، وتبع أصحابه ينهاه عنهم ويقصر بهم، حتى ضاق منه الوليد فتركه — مع بعض خاصته ومواليه — ونزل الأزرق بين أرض بلقين وفزارة، على ماء يقال له الأغدف^٦، فلما رأى هشام أن الوليد لا

^١ المسعودي: السابق ٣/ ٢٢٨-٢٢٩، ابن أعمش: السابق ١٣٧/٨-١٣٨

^٢ راجع: الأصفهاني: السابق ١٧١/١٩-١٧٢ ط. دار الكتب، المسعودي: السابق ٢٢٦/٣-٢٢٨، ابن أبي الدم: السابق ١/ ٣٣٢-٣٣٣، القرماني: أخبار الدول ص ١٤٣.

^٣ الطبري: السابق ٧/ ٢٥٢.

^٤ راجع رأي الزهري في الوليد بن يزيد: الطبري: السابق ٧/ ٢٥٣.

^٥ السابق ٧/ ٢٠٩.

^٦ السابق ٧/ ٢٠٩-٢١١.

يستجيب لمحاولات إصلاحه أطمعه ذلك في خلعه والبيعة لابنه مسلمه بن هشام ، غير أن الوليد رفض ذلك^١ ، وساءت علاقته بالخليفة أكثر مما كانت ، ويدو أن بعض المحيطين بهشام قد استغلوا ذلك؛ فبالغوا في وصف هو الوليد وفسقه واستهائته بدينه . كما أن جماعة المحيطين بالوليد والمتنفعين منه كان يرضيهم أن يصبح خليفة، ولم يكونوا يتسمون بالمسنولية . فراح بعضهم يسيء إلى مسلمة ابن هشام ويتهمة هو الآخر بالفسوق وشرب الخمر^٢ ، ويتعجل موت الخليفة وتولي الوليد^٣ ، مما زاد في هوة الفجوة بين الخليفة وولي عهده ، حتى قطع هشام عن الوليد عطاءه وتبع أصحابه بالإساءة^٤ .. فلما مات هشام واستخلف الوليد نفس عن حقه المكبوت على ولد هشام ومن ساعده من بني أمية وأعرافهم ، فتعقب بني عميه هشام والوليد بالإساءة والنكال . فلجا هؤلاء إلى التشنيع عليه ورموه بالكفر وغشيان أمهات أولاد أبيه ، وقالوا : اتخذ مائة جامعة وكتب على كل جامعة اسم رجل من بني أمية ليقبله بها ، ورموه بالزندقة ، وكان أشدهم فيه قولا يزيد بن الوليد بن عبد الملك ، وكان الناس إلى قوله أميل ، لأنه كان يظهر النسك ويتواضع ويقول " ما يسعنا الرضا بالوليد ، حتى حل الناس على الفتك به"^٥.

وتدخل في الدعاية ضد الوليد عامل آخر، هو إصرار الوليد على استمرار اضطهاده القدرية ، ذلك المسلك الذي بدأه هشام بن عبد الملك لما قتل غيلان الهمداني بعد أن اتضح له زيفه^٦ ، وتبع أصحابه فنفى بعضهم إلى دهلك^٧ ، فلما تولى الوليد كلم بشأن رد هؤلاء المنفيين ، فأبى ؛ وقال : والله ما عمل هشام عملا أرجى له عندي أن تناله المغفرة به من قتله القدرية وتسييره إليهم^٨ .. وقد كان يزيد بن الوليد الذي قاد الثورة ضد الوليد يرى رأي هؤلاء القدرية ، ومن المرجح أن موقف الوليد منهم قد زاد حنقهم عليه وقد اتخذت دعايتهم كما هو متوقع شكل الغيرة على الإسلام ، ورمي الخليفة بالفسوق والزندقة ..

^١ السابق ٢٠٩/٧

^٢ السابق ٢١٠/٧ حيث ينسب ذلك القول إلى الوليد نفسه ، وينقل الأصمعي أن عبد الصمد بن عبد الأعلى أحد أصحاب الوليد غير المرضين قد قاله ونحله إلى الوليد ؛ انظر الأغاني ٣/٧

^٣ الطبري : السابق ٢١١/٧ .

^٤ السابق ٢١١/٧-٢١٢ .

^٥ السابق ٢٣١/٧-٢٣٢ .

^٦ السابق ٢٠٣/٧ .

^٧ دهلك : إحدى سواحل البحر الأحمر مما يجاور سواحل اليمن ، الهمداني صفه حريرة العرب ٥٢/١ .

^٨ الطبري : السابق ٢٣٢/٧

وانضم إلى هؤلاء الناقمين على الوليد تلك الطائفة من الشيعة الزيدية الذين وترهم الوليد لما قتل يحيى بن زيد بن علي بن الحسين في عهده بالعراق ، وقيل أن الوليد أمر عامله على العراق بحرق جسده وذره في الفرات ^١ ، فهيج خواطر الشيعة وأنصارهم عليه ..

ثم جاء خطأ الوليد الأكبر الذي دمر تاريخه وحياته ، ألا وهو قتل خالد القسري زعيم اليمانية بعد تعذيبه ، ليستادي منه أموالا ظن أنه أخذها في إمرته على العراق بغير حق ^٢ .. ومعروف أن اليمانية بالشام هم أقوى قبائلها وأقوى أنصار بني أمية منذ بدء خلافتهم ، ولم يكونوا ليسكتوا عن قتل زعيمهم على هذا النحو ، وقد استغل أعداء الأمويين حادثة مقتل القسري أروع استغلال ، فوضعوا الأشعار على لسان الوليد يفخر فيها بقتل خالد وإذلال اليمن وإعزاز قيس وسيروا ذلك ، فأهاجت عليه قبائل اليمن الذين انبرى شعراؤهم يردون على الوليد ويتهددونه ، فقال قائلهم :

سبكي خالدا بمهندات ولا تذهب صنائعه ضللا ^٣

فتحالفوا مع يزيد بن الوليد " الناقص " كما يلقب ، الذي تزعم الثورة على الوليد وقضى عليه .. ولا ريب أن إثارة الشائعات ضد الوليد وتشويه صورته كانت أقوى أسلحتهم ، كما كانت سلاحا بارزا لغيرهم من أعدائه المتكالبين عليه ، والذين نجح هو بسوء سياسته في إثارتهم وتجميعهم ضده.

أدلة تاريخية تنصف الوليد :

لا يخلو التاريخ من أدلة مختلفة على براءة الوليد من قشة الإلحاد والجهر بالفسوق كما يصف الرواة.. فرسانه إلى هشام بن عبد الملك ^٤ ، ونصر بن سيار ^٥ ، تدل على إيمانه بالله ، وثقه بقدرته ، كما أن موقفه من القدرية يعزز هذا المعنى ويؤيده ..

ولما حوضر الوليد دنا من باب قصره يحدث الخاصين له يقول: أما فيكم رجل شريف له حسب وحياء أكلمه !؟ فيادر إليه يزيد بن عنبسة السكسكي ، فقال له الوليد: يا أخا السكاسك ؛ ألم أزد في إعطياتكم ؟ ألم أرفع المؤن عنكم ؟ ألم أعط فقراءكم ؟ ألم أخدم زمناكم ؟ فقال يزيد بن عنبسة : إنا ما ننقم عليك في أنفسنا ، ولكن ننقم عليك في انتهاك ما حرم الله ، وشرب الخمر ، ونكاح أمهات أولاد أبيك ، واستخفافك بأمر الله ، فقال الوليد مذهولا من قائمة الاتهام : حسبك يا

^١ السابق ٧ / ٢٣٠ ، ٢٥٤-٢٦١ .

^٢ السابق ٧ / ٢٣٣-٢٣٤ .

^٣ السابق ٧ / ٢٣٤-٢٣٦ ، الدينوري : الأخبار الطوال ٣٤٨-٣٤٩ .

^٤ الطبري السابق ٧ / ٢١٢-٢١٣ .

^٥ السابق ٧ / ٢١٨-٢٢٤ .

أخا السكاسك، فلمعري لقد أكثرت وأغرقت ، وإن فيما أحل لي لسعة عما ذكرت ، ورجع إلى الدار فجلس وأخذ مصحفا ، وقال : يوم كيوم عثمان ، ونشر المصحف يقرأ ، ورفض الدفاع عن نفسه آنشد حتى قتل ^١ ..

ومن المثير أن خالدا القسري الذي قتل تحت العذاب بأمر الوليد لم تطاوعه نفسه على المشاركة في حملة التشويه للوليد ؛ فلما حدثه بعض أصحابه عن مجون الوليد وفسقه قال : أمر الوليد أمر غالب عني ، ولا أعلمه يقينا ، إنما هي أخبار الناس ^٢ ، وقد كذبت مولاة للوليد ما أذاعه عنه أخوه سليمان من فسق ومجون بعد قتله ^٣ ، كما وقد شهد له ابن علاثة الفقيه في مجلس الخليفة العباسي المهدي ، بعد انقضاء سلطان بني أمية بزمان ، بأنه كان صاحب مروءة في طهارته وصلاته ، وإن لها وعث ^٤ ودخل ابن للعمر بن يزيد — ابن أخي الوليد — على هارون الرشيد العباسي ، فلما عرف الرشيد نسبه قال : " رحم الله عمك الوليد ، ولعن يزيد الناقص فإنه قتل خليفة مجمعا عليه " ^٥ ..

وكان مقتل الوليد بن يزيد بداية النهاية للدولة الأموية ، فقد اختلف أفراد البيت الأموي على أنفسهم ، وثار بعضهم باسم الخليفة المقتول ، وأيد آخرون الخليفة الجديد ، وانشعب أمر العصبة اليمنية بالشام التي طالما بذلت طاعتها للبيت الأموي المتناسك ^٦ ، وتمسكت به ، ولم تطل خلافة يزيد بن الوليد عن بضعة أشهر ^٧ ، ورغم ذلك فقد وجدت بعض الدلائل على تدبئه وعدله ^٨ ، وما لبث أن أقبل مروان بن محمد — آخر خلفاء البيت الأموي — من الجزيرة ليستولي على مقاليد الحكم بالشام وليقضي ما بقي من نسي حكم بني أمية في صراع ونضال في كافة أنحاء الدولة المضطربة ..

حول تدوين ولاية بني أمية :

تعرض بعض ولاية الأمويين البارزين لاتهامات عديدة فيما يخص بالتزامهم بروح الإسلام ونصوصه ، وقد انصبت معظم هذه الاتهامات على بعض ولاية العراق ، موطن المعارضة المتفجرة في

^١ السابق ٧/ ٢٤٦

^٢ السابق ٧/ ٢٥١

^٣ السابق ٧/ ٢٣٢ .

^٤ النويري : نهاية الأرب ٢١/ ٤٨٥-٤٨٦ .

^٥ ابن الأثير : الكامل ٤/ ٢٦٩

^٦ قيل إن خلافته كانت ستة أشهر ؛ وقيل بل أقل من ذلك بأيام أو أكثر من ذلك بليتين (الطبري : السابق ٧/ ٢٩٨

^٧ راجع الطبري : السابق ٧/ ٢٦٩-٢٦٨ ، ابن قتيبة : المعارف ص ٢٦٧ ، د سامي النشار : نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام ٢/ ٣٢٧ .

العصر الأموي ، ومن أبرز هؤلاء الولاة الذين تعرضوا لحمالات التشويه الحجاج بن يوسف الثقفي وخالد القسري وغيرهم ، وسوف نلقى مزيدا من الضوء على تدين هذين العلمين وما أثير حولها من شبهات ..

الحجاج بن يوسف :

أفرد ابن عبد ربه بابا في كتابه "العقد الفريد" تحت عنوان: "باب من زعم أن الحجاج كافر"^١ ، وتعرض ابن حجر لذلك الاقحام في ترجمته للحجاج^٢ ، وقد احتج التهمون له بذلك بما نسب إليه من قبح على بعض الصحابة واستخفاف بهم^٣ ، وتجرؤ على مكانة رسول الله ﷺ وسبه المدينة المنورة وأهلها ، فيما يزعمون^٤ ، ووصفه بعض الأنبياء بما لا يجوز لمسلم ، مثل ما نسب إليه من سباب سليمان عليه السلام وقوله عنه : " كان والله فيما علمت عبدا حقودا "^٥ .

وكثير من هذه الأقوال لا يجوز تصور صدورها عنه ، فإن تصورنا جواز شدته على بعض الصحابة المعارضين له ، أو عنقه بأهل المدينة بعد تكرار ثورائهم ضد الأمويين ، فكيف نتصور استخفافه بمقام رسول الله ﷺ وقبره الشريف ، وهو إنما خرج معتمرا قاصدا ثواب الله تعالى ، معظمد رسوله الكريم ﷺ ، وكيف نقبل ما نسب إليه من سبه سليمان عليه السلام ، وقد ذكر نفس المصدر التاريخي الذي روى ذلك في موضع آخر منه أن الحجاج قد وصف سليمان عليه السلام بأنه " العبد الصالح "^٦ ..

وقد روي عنه أنه رأى كثرة التصحيف واللعن في قراءة القرآن بالعراق في عهده لما كثر دخول الأعاجم في الإسلام ففرغ إلى كتابه وسألمهم أن يضعوا لهذه الحروف المشتبهة علامات تميزها ، فقام نصر بن عاصم بذلك العمل الجليل ، فوضع النقط لأفرادا وأزواجا ، وخالف بين أماكسها^٧ ، وقد اهتم الحجاج كذلك بنسخ عدة مصاحف وتفريقها في الأمصار الإسلامية المختلفة^٨ وكان عمر

^١ العقد الفريد ٥/ ٥١-٥٠

^٢ تهذيب التهذيب ٢/ ٢١٠

^٣ الطبري : السابق ٦/ ١٩٥ .

^٤ ابن الأثير : الكامل ٤/ ٢٧ ، النويري : السابق ٢١/ ١٤٦ .

^٥ المسعودي : مروج الذهب ٣/ ١٥١ .

^٦ السابق ٣/ ١٥٠

^٧ ابن خلكان : وفیات الأعيان ٢/ ٣٢ ، كرد علي : الإسلام والحضارة العربية ٢/ ١٦٦ .

^٨ ومن ذلك أن الحجاج كتب عدة مصاحف وفرقها في الأمصار ؛ فبعث منها مصحفا إلى مصر والوالي عليها آنذاك عبد العزيز بن مروان الذي غضب وقال : أبعث إلى جند أنا فيه بمصحف ؟ وأمر فكتبوا له مصحفا آخر بالغ في ضبطه

ابن عبد العزيز رحمه الله على عداوته للحجاج — يقول : " ما حسدت الحجاج عدو الله على شيء حسدي إياه على حبه القرآن وإعطائه أهله عليه ، وقوله حين حضرته الوفاة : اللهم اغفر لي ، فبأن الناس يزعمون أنك لا تفعل " ^١ ..

ولما كانت معظم هذه الاتهامات تبدو متهافنة ، مع ما عرف عن كثرة أعداء الحجاج واجترانهم على الكذب ؛ فقد أعلن الحافظ ابن كثير حذره تجاهها وقال : " .. ولكن يخشى أنها قد رويت عنه بنوع من الزيادة عليه ، وإن الشيعة كانوا يبغضونه جدا لوجوه ، وربما حرفوا عليه بعض الكلم ، وزادوا فيما يمكنونه عنه بشاعات وشناعات " ^٢ ...

وقد عرف عن الحجاج تركه شرب الخمر ^٣ ، " ولم يشهد عنه شيء من التلطيخ بالفروج " ^٤ ، بل كان حريصا على العفة والخلق القويم ، وذلك — على ما تحكي بعض الروايات — ما دفعه إلى بناء مدينة واسط ، فإنه يروى في سبب بنائها أن رجلا من أهل الشام — أيام فتنة ابن الأشعث — أراد شرا بامرأة من أهل الكوفة ، فقتله زوجها ، وأمرها أن تقص الخبر على الحجاج ، فلما علم بذلك لم يجعل للقتيل قودا ولا عقلا ، بل قال للشاميين : ادفنوا صاحبكم ، فإنه قتل الله إلى النار ، وقال : " لا يزلن أحد على أحد " ، وبني مدينة واسط فجعلها معسكرا لجند الشام ^٥ ..

وكان الحجاج حريصا على الجهاد وفتح البلاد ، حتى دخلت جنود المسلمين في عهده بلاد ما وراء النهر وفتحت بلاد الهند وقتلت ملكها ، ونشرت الإسلام في هذه البلاد المفتوحة ، ومن أشهر قواده المهلب بن أبي صفرة وابنه يزيد بن المهلب وقيية بن مسلم ومحمد بن القاسم الثقفي .. ومن سرف القول الزعم بأن هذه الحروب كانت للتوسع وكسب الغنائم ، فقد مات الحجاج ولم يخلف وراءه إلا ثلاثمائة درهم ومصحفا وسيفا وسرجا ورحلا ومائة درع موقوفة ^٦ ، وكانت وصاياه إلى قادته تنطق بالرغبة في إعزاز الدين وإخلاص النية في ذلك ^٧ .

إن هذا الواقع هو ما أثار بعض المنصفين القدماء مثل عبد الرحمن الثقفي الذي سمع من يذكر الحجاج في مجلسه بالسوء فقال : إنما تذكرون المسائى ، أفلا تذكرون أنه أول من ضرب درهما

وأعلن بعد الفراغ من كتابته أن من وجد فيه خطأ فله جائزة كبرى ، فوجد فيه أحد قراء الكوفة لفظة " نجمة " بدل " نعمة " فنال الجائزة (المقرئ : الماعظ والاعتبار ٢ / ٢٥٤ ، زيدان : تاريخ التمدن الإسلامي ٦٠ / ٣)

^١ ابن كثير : البداية والنهاية ١٣٨ / ٩ .

^٢ السابق ١٣٢ / ٩ .

^٣ وما اختلف فيه منها مثل النبيذ المعروف آنذاك (السابق ١٢٥ / ٩) .

^٤ السابق ١٣٣ / ٩ .

^٥ ابن الأثير : الكامل ٩٣ / ٤ ، الطبري : السابق ٣٨٣ / ٦ - ٣٨٤ .

^٦ ابن كثير : السابق ١٣٢ / ٩ .

^٧ راجع : ابن أعمش : الفتح ٢٤٧ / ٧

عليه لا إله إلا الله محمد رسول الله ، وأنه أول من بنى مدينة الصحابة في الإسلام (يعنى واسطاً) ، وأنه أول من اتخذ الخامل ، وأن امرأة مسلمة سبيت في الهند فنادت: واحجاجاه ، واتصل به ذلك فجعل يقول : لييك ، وانفق سبعة آلاف ألف من الدراهم حتى أنقذ المرأة ، وأنه اتخذ المناظر بينه وبين أهل قزوين ، فكان إذا دخن أهل قزوين دخنت المناظر، إن كان غماراً، وإن كان ليلاً أشعلوا النيران فتجرد الخيل إليه ^١ ..

وكان أمر الحجاج مع العلم والعلماء عجباً ، ينتقدونه ويعنفون معه ، وهو يحلم عليهم ، أو ينكل بهم ، ولكنهم يقرون له بعميق تأثيره وخطير قدره .. فسميد بن جبير — الذي ثار على الحجاج ثم قتل بأمره — كان يقول عن الحجاج: " لقد رأيته يزاحني عند ابن عباس " ^٢ ، أي يتلقى العلم عنه ، ولم تشغله أعباء الولاية — على كثرة أعباء والي بلد كالعراق — عن الإلمام بمجالس العلم أحياناً ، ورواية الحديث الشريف ، فقد روى أنه أم يوماً المسجد الجامع بالبصرة ، فلما دخله رأى فيه حلقات متعددة ، فأم حلقة الحسن البصري ، فلم يقم له، بل وسع له في المجلس ، فجلس إلى جنبه ، فقال الجلوس : اليوم نظر إلى الحسن هل يتغير عن عادته في كلامه وهيئته ، فلم يغير شيئاً من ذلك ، بل أخذ على نسقه وعادته من غير زيادة ولا نقص ، فلما كان في آخر المجلس قال الحجاج : صدق الشيخ ، عليكم هذه المجالس ، فقد قال رسول الله ﷺ : " إذا مررتم برياض الجنة فاسارعوا " ، ولولا ما ابتلينا به من هذا الأمر لم تغلبونا عليها ، أو قال : لم تسبقونا إليها ^٣ ..

ودخل عليه مالك بن دينار يوماً فقال له الحجاج: يا أبا يحيى ؛ ألا أحذثك بمحدث حسن عن رسول الله ﷺ : " من كانت له إلى الله حاجة فليدعها في دبر كل صلاة مفروضة " ^٤ .. وكان الإمام الشعبي يقول : سمعت الحجاج يتكلم بكلام ما سبقه إليه أحد يقول : " فإن الله تعالى كتب على الدنيا الفناء ، وعلى الآخرة البقاء ، فلا فناء لما كتب عليه البقاء ، ولا بقاء لما كتب عليه الفناء ، فلا يغرنكم شاهد الدنيا على غائب الآخرة ، واقهروا طول الأمل بقصر الأجل " ^٥ .. وكان الحسن البصري يقول: " لقد ولدتني كلمة سمعتها من الحجاج ، سمعته يقول على هذه الأعواد: " إن امراء ذهبت ساعة من عمره في غير ما خلق له لحري أن تطول عليها حسرتة إلى يوم القيامة " ^٦ .. وقد

^١ ياقوت : معجم البلدان ٣٨٢/٨ = ٣٨٣ ، ابن خلكان : السابق ٢٣١/١ ، ٢٤٢ ، ابن كثير : السابق ١١٨ / ٩

^٢ ابن سعد : الطبقات الكبرى ٢٦٧/٦ .

^٣ اليافعي : مرآة الجنان ٢٣١/١

^٤ ابن كثير : السابق ١١٩/٩

^٥ السابق ١٢٣/٩

^٦ الجاحظ : البيان والتبيين ١٥٥/٢ - ١٥٦ ، ابن كثير : السابق ١٢٣/٩ .

روى ابن عساكر عن طريق المغيرة بن مسلم قال . سمعت أبي يقول : خطب الحجاج بن يوسف فذكر القبر أنه بيت الوحدة وبيت الغربة ، حتى بكى وأبكى من حوله " ١ ..

وخطب الحجاج الناس يوما فقال: أيها الناس! احفظوا فروجكم، وخذوا الأنفُس بضميرها، فإنها أسوك (أي أضعف) شيء إذا أعطيت، وأعصى شيء إذا سئلت ، وإني رأيت الصبر عن محارم الله أيسر من الصبر على عذاب الله " ٢ ، والأمثلة على ذلك عديدة " ٣ ..

غير أننا ننقل اللحظة الأخيرة من حياة الحجاج ، في مرض موته حيث كان يتمثل بهذين

البيتين

يا رب قد حلف الأعداء واجتهدوا
يأمنهم أنني من ساكني النار
يملفون على عمياء ؟ ويهمهم ..
ما ظنهم بقديم العفو غفار

لقد أثارت عنف مواجهة الحجاج معارضييه من الزبيريين والشيعة والخوارج نفوس الناس ضده — ومنهم زعماء من الأمويين أنفسهم — حتى لقد كتب إليه خليفته عبد الملك يلومه على سرفه في الدماء والأموال ٥ ، وكان عمر بن عبد العزيز وسليمان بن عبد الملك من الناقمين عليه ، ولكن الحقيقة الأخيرة تظل واضحة ، وهي استقرار حال العراق — دائم الاضطراب — في أواخر عهده بعدما عصف بمعارضييه فيها ، وأنه تفرغ بعد ذلك لجهوده الحضارية ولتوطيد دعائم الفتح والغزو والجهاد ..

خالد القسري .

ونسبوا إلى خالد القسري ما يفضي به إلى الكفر أو الزندقة ، مثل تفضيل الخليفة على النبي ﷺ وهدم المساجد ليبنى بدلها البيع والكنائس وتزويجه رجال أهل الذمة من المسلمات ، وتفضيله بتر حفرها بمكة على زمزم إلى غير ذلك من الشناعات والمثالب الخلقية ٦ ..
وقد تعرض خالد في أثناء ولايته لعداء جهات عديدة فقد شاعت العصية القبلية في عهده بالعراق وخراسان ونشط العباسيون نشاطهم المستر في هذين الإقليمين مما كان يجيب عليه

١ ابن كثير السابق ١١٩/٩

٢ ابن قتيبة عيون الأخبار ٢/٢٤٧ .

٣ راجع المسعودي : السابق ١٥٠/٣-١٥١

٤ ابن خلكان السابق ٢/٥٣

٥ الطبري السابق ٤٨١/٦ ، ابن عبد ربه . السابق ٤٩/٥

٦ راجع ابن الأثير ١١٠-١١١ ، ٢٢١ ، ٢٦٣ ، الطبري السابق ٤٤٠/٦ ، النوري : السابق ٢١/٢٣١ ،

١٢ الأصمعي السابق ٢٢/٢٥ ، يعقوبي السابق ٣/٣٢ ، الإمامة والسياسة ٢/٥٢-٥٣

وقد شن خالد الحرب على المذاهب الضالة والمنحرفة عن العقيدة الصحيحة في العراق ، فقتل المغيرة بن سعيد لما ظهر سحره وضلاله ^١ ، كما قتل الجعد بن درهم لرأيه الشاذ في القدر ^٢ ، وبلغه عن واصل بن عطاء كلام في القدر دعاه وسأله ، فقال : أقول يقضى الله بالحق ويحب العدل ، فقال خالد: فما بال الناس يذمونك ؟ قال: يحبون أن يحمّدوا أنفسهم، ويلوموا خالقهم ، فقال خالد : لا، ولا كرامة ، الزم شأنك ^٣ ..

وقد أقموا خالدًا بالعداء الشديد لآل البيت ولعن على بن أبي طالب والإساءة إلى ذكره ^٤ ، على أن آخرين أقموه بمحابة آل البيت حتى تآقت أنفسهم إلى طلب الخلافة وزعموا أنه كان المخرض لزيد بن علي بن الحسين على ثورته ضد هشام ^٥ .. وأولى بنا ألا نصدق هذا الزعم أو ذلك ، فقد كان النهج التقليدي لبني أمية هو الإحسان إلى آل البيت ما وسعهم ذلك ، إلا إذا خرج منهم خارج على الخلافة ، فهناك يستحلون دمه ، كأبي خارج آخر..

وقد زعموا أنه فضل الخليفة على رسول الله ﷺ بينما يروون أنه انتقد هشام بن عبد الملك لأن رجلاً في مجلسه قد فضل الخليفة على رسول الله ^٦ !! والقصة تبدو مختصرة من أساسها ، وهشام وعامله أتقى الله من أن يقبلوا مثل هذا الهراء . ولما تخلت الدنيا عن القسري ، ووقع أسيرا في يد خصمه يوسف بن عمر الذي خلفه على حكم العراق ، ولم يعد بإمكانه أن ينفع أو يضر ، امتدحه أبو الشغب العباسي بقوله :

ألا إن خير الناس حيا وهالكا
فإن تسجنوا القسري لا تسجنوا اسمه
أسير تقيت عندهم في السلاسل
ولا تسجنوا معروفه في القبائل ^٧

^١ الطبري : السابق ١٢٨/٧ - ١٢٩ .

^٢ سيأتي بيان ذلك ص من هذا البحث

^٣ راجع : النشار : السابق ٣٩٤/٢ .

^٤ الطبري : السابق ٢٥٥/٧ .

^٥ السابق والصفحة

^٦ الطبري السابق ٢٥٧/٧ - ٢٥٨ ، الدينوري السابق ٣٤٦

^٧ أبو تمام : ديوان الحماسة ٣٨٤/١ ، الطبري السابق ٢٥٧/٧

المبحث الثاني

التوجه الإسلامي للمجتمع والدولة

أولاً: شبهات حول تدين المجتمع الأموي:

يصف بعض كتابنا القدامى واخذئين المجتمع الإسلامي في العصر الأموي بأنه مجتمع اللهو والغناء والشعر^١، ولا يخلون بني أمية من المسئولية عن ذلك، لأنهم — كما يرون — أغرقوهم بالعطايا و الرواتب ليشغلوهم بذلك عن طلب الملك^٢ ..

و يتهمون خلفاء الأمويين بالاشتراك في ضروب اللهو المختلفة حتى يجرحوا بذلك عن سمات الوقار، فيرقصون و يتجردون من ثيابهم في مجالس الطرب و الأنس، ويتخذ بعضهم ستارة دون ندمائه كيلا يروه على تلك الحال، ولا يعبا الآخرون بالاستار^٣ ..

فضلاً عن ذلك فقد وصم هؤلاء المؤرخون المجتمع في ذلك العصر بالجهل الكبير، وما الظن بمجتمع عربي لا يفرق — في زعمهم — بين الناقة والبعر^٤، و يصلي بهم خليفتهم الأموي "معاوية" الجمعة يوم الأربعاء فيصلون وراءه^٥، و يغيرون لهم أيام الحج فيقبلون منهم^٦ ١١

ولا مجال لإنكار انتشار الغناء و الغزل العذري والصريح في الحجاز وأقاليم أخرى في الدولة الأموية كالعراق والشام، فذلك ما تؤكد كثر من الروايات، وتؤيده دواوين الشعراء وموروثات الأدباء، ولكن السؤال هنا عن مدى ذلك الانتشار، وتعبيره عن حقيقة الحياة في المجتمع الأموي في خطها العام، وموقف أولي الأمر منه ومن آثاره ونتائجه ..

^١ بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية ١/١٩٤، أحمد أمين: فجر الإسلام ص ١٧٦ .

^٢ جرجي زيدان تاريخ آداب اللغة العربية ١/٢٦٧، النشار نشأه الفكر الفلسفي ٢/٢٣١ .

^٣ الجاحظ: التاج في أخلاق الملوك ص ٢٢ وما بعدها، وانظر أحمد أمين: فجر الإسلام ص ١٢٢ .

^٤ المسعودي: مروج الذهب ٣/٤١ .

^٥ السابق والصفحة، ويعقب العقاد على هذه الروايات بقوله: " فإن كان في هذه القصص بعض المبالغة فهي مبالغة الفكاهة الموكلة بتكبير الملامح ليرأها من غفل عنها؛ وليست مبالغة الاختلاق والافتراء " (عقريه علي ٣٤)

^٦ الطبري السابق ٥/١٦٠

لقد ازداد الغناء في المجتمع الإسلامي كأحد نتائج الاتصال بين العرب والفرس^١ ، وبدأ بسيطاً ساذجاً يشبه الحداء الذي ألفه العرب في رحلاتهم وسيرهم^٢ ، ثم اختلط كثير من أفراد طبقة المغنين هؤلاء بالمختئين والسفهاء ، فأصبح الغناء مرتبطاً بهذه الجماعة^٣ ، فتعرض لحرب الفقهاء والعلماء والأمراء على السواء .. كما سيأتي بيانه قريباً ..

إن نشاط الشعراء الغزليين في الحجاز وغيرها لم يكن في الحقيقة معبراً صادقاً عن حقيقة المجتمع الإسلامي آنذاك ، فللشعر طبيعته الخاصة التي تنشأ الخيال وتجسده ، وذأب الشعراء أن يقولوا ما لا يفعلون، ولو صدقنا جميع ما ورد إلينا من قصص الحب في الشعر الأموي كقصص جميل وبنته وقيس وليلى وغيرهم ؛ ومغامرات الشعراء المدعين كعمر بن أبي ربيعة وغيره ؛ ولو حملنا كل ذلك على الحقيقة لا الخيال لكان معناه أن المجتمع الإسلامي في القرن الأول الهجري قد تفرغ للحب والمغامرة وطلب المتعة بأي سبيل ؛ وبدرجة لم تترك مجالاً لممارسة أوجه النشاط الأخرى التي تتطلبها الحياة في دوله لتجاهد أعداءها في الخارج و تمايز قواها ، وتتصارع أحياناً في الداخل ، وفي مجتمع يفيض حيوية ويزخر بقيم التدين وسلطان العلماء ..

و لقد شك بعض الباحثين في الأدب — من المتحاملين على بني أمية — في وقوع هذه القصص العديدة من الحب العذري والصريح في العصر الأموي ، ورجح أنها مصنوعة متكلفـة ، صنعها فريق من الناس لتدور حول أشعار الغزل الموجودة آنذاك ، وتبشرها على نحو فني^٤ .. فلم تكن أخلاق معظم هؤلاء الشعراء الغزليين تسمح بغير الالتزام بالعرف والصلاح ، ولم تكن أخلاق المرأة العربية المسلمة آنذاك ترضى أن يمس شرفها وعفافها.. كما تصور قصص الشعراء في قصائدهم. فقد كان ذو الرمة الشاعر صاحب خشوع وصلاة ، بالرغم مما شاع عنه من قصص الحب وعلاقات الهوى ، ومن ذلك علاقته مع فتاة تدعى " الحرقاء " تروي قصة تلك العلاقة فتقول : " اجتاز بنا (ذو الرمة) في ركب ؛ ونحن عدة جوار على بعض المياه ، فقال: أسفرن ؛ فسفرن غيوي ، فقال : لنن لم تسفري لأفضحك ؛ فسفرت ، فلم يزل يقول حتى أزيد ؛ ثم لم أره بعد ذلك " ^٥.

و كان العرجي عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان من الفرسان المعدودين في جيش مسلمة بن عبد الملك ببلاد الروم ، وكان له معه بلاء حسن ونفقة عظيمة^٦ ، وقد شب رغم ذلك ياحدى موالى ثقيف وكانت عند أحد بني أمية ، استسقاها فأبت أن تسقيه خوفاً من أن يلصق بها منه

^١ الأصفهاني الأغاني 273/3 ، 276 ، 232-233

^٢ السابق 358/1

^٣ السابق 182/2 — 183

^٤ طه حسين : حديث الأرباء 240/1

^٥ الأصفهاني السابق 38/18 ط دار الكتب

^٦ السابق 364/1 — 365

شر، فانصرف فقال قصيدة شبب بها فيها ، فبلغت سيدها ، فأحلفها بين الركن والمقام بمكة سبعين يمينا ؛ أن العرجي كذاب فيما قاله ، فحلفت ^١ ..

وقصص جميل وبثينة — حتى كما أوردها صاحب الأغاني — تنطق بالشرف والطهر ^٢ ، وكذلك ما كان بين نصيب الشاعر ومحبوته زينب ، حتى كان يقول لأصحابه : " لا ورب الكعبة هذه البنية المستورة ، ما جلست منها مجلسا قط هو أقرب من هذا ، وكان يجلس آنذاك مجلسا بعيدا عن محدثه " ^٣ .

ويستحق عمر بن أبي ربيعة وقفة خاصة في هذا الشأن لأكثر من سبب؛ فقد امتاز شعره بجمال أخاذ وسهولة ورقة جعلته لاصقا بالقلوب ، سريع التأثير في النفوس ، موهما بإيهابها بالصدق الكامل ، ولأنه اتخذ مجالا جديدا أفرغ فيه طاقته الفنية ؛ وهو الغزل الصريح والتشبيب بنساء الأشراف من المسلمين ^٤ ، واتخذ موسم الحج أداة فنية يعبر من خلالها عن مغامراته وقصصه ، حتى خدع بذلك بعض الكتاب والمفكرين ؛ فأعطاهم صورة زائفة عن المجتمع الإسلامي في ذلك العصر، فقال أحدهم : "المؤرخ الذي يريد أن يدرس الصلة بين الرجال والنساء في هذا العصر يجب أن يلتمس ذلك عند عمر بن أبي ربيعة ، فسيجد منه في شعر هذا الشاعر كل ما أراد " ^٥ ، ويقول : " فلم يكن عمر بن أبي ربيعة يفهم من موسم الحج إلا أنه معرض إسلامي للجمال .. فكان موسم الحج موسم شعر وغناء في الحجاز " ^٦ !! رغم أن الكاتب نفسه يصف علاقة عمر بن أبي ربيعة بنسلة أشراف المسلمين بأنها " كانت طاهرة كل الطهر، بريئة كل البراءة من الإثم ، كانت لفظية لا غير " ^٧ ؛ فكيف تكون علاقة لفظية لا غير وتعبر في الوقت نفسه عن العلاقة بين الرجال والنساء آنذاك ؟

ورغم ذلك فإن أخبار عمر ومغامراته تعطينا الدلالة الواضحة على أن هذا القصص الذي يدعى حدوثه في شعره كان قصصا فنيا لم يحدث إلا في خيال الشاعر الخصب ، وكان هو نفسه والنسوة اللاتي تغزل بهن والناس من حولهم يعلمون ذلك عنه ، فقد كانت سعدى بنت عبد الرحمن ابن عوف جالسة في المسجد الحرام فرأت عمر يطوف بالبيت ، فأرسلت إليه : إذا فرغت فأتنا ،

^١ السابق 365-368

^٢ السابق 105/8

^٣ السابق 118/6

^٤ لقد شبب بأم محمد بنت مروان بن الحكم (الأغاني 1/166) وفاطمة بنت عبد الملك زوج عمر بن عبد العزيز 11 (السابق 186/1) ومكينة بنت الحسين بن علي (السابق 1/162) وعائشة بنت طلحة بن عبيد الله (السابق 190/1 -

194) وسعدى بنت عبد الرحمن بن عوف (السابق 99/17 - 100)

^٥ طه حسين: حديث الأربعاء 377/1

^٦ السابق 392/1 - 393

^٧ السابق 383/1

فأتاها فقالت : ألا أراك يا ابن أبي ربيعة سادرا في حرم الله ؟ أما تخاف الله ؟ ويحك إلى متى هذا السفه ؟ فقال : أي هذه ؛ دعي عنك هذا القول ، أما سمعت ما قلت فيك ؟ قالت : لا ، فما قلت ؟ فأنشدها قوله :

قالت سعيدة والدموع ذوارف منها على الخدين والجلباب ...
إلى آخر هذه القصيدة التي تصور حديثا بينهما ومغامرة ، فلما سمعت سعدى ذلك قالت : أخزأك الله يا فاسق ، ما علم الله أني قلت مما قلت حرفا ، ولكنك إنسان جهول ١ ..
وقد أوقف مرة ليلى بنت الحارث بن عمر البكرية في طريقها ثم أنشدها قصيدة جريئة قلل آخرها :

وقد حضر الرحيل وحن منا فراقك فانظري ما تأمرينا ١
فقالت : آمرك بتقوى الله ، وإيثار طاعته، وترك ما أنت عليه، ثم صاحبت ببغلتها ومضت ٢ ..
بل إنه شيب بشرقة أخرى قرشية هي زينب بنت موسى الجمحية وهو لم يلقها ولم يرها ، وإنما سمع مدحا لها من صديقه ابن أبي عتيق ، فملأ الدنيا حديثا عنها حتى لامه في ذلك صاحبه نفسه ٣ ..
وربما كان في شبابه يؤهم الناس بصدق حكاياته ومغامراته الشعرية ، غير أنه لما كبرت به السن لم ير أولى من الإقرار بالحقيقة في هذا الأمر ، فقد أقسم لبني أخيه — وهم محرمون — فقال : ورب هذه البنية — يعني الكعبة المشرفة — ما قلت لامرأة قط شيئا لم تقبله لي ، وما كشفت ثوبا عن حرام قط ٤ ، وقد حلف حين أسن ألا يقول شعرا إلا أعتق رقبة ٥ ، ولما مرض مرضه الذي مات فيه جزع عليه أخوه الحارث بن أبي ربيعة جزعا شديدا ، فقال عمر : أحسبك إنما تجزع لما تظنه بي ، والله ما أعلم أني ركبت فاحشة قط ، فقال أخوه : ما كنت أشفق عليك إلا من ذلك ، وقد سليت عني ٦ .
وكان الفقهاء المسلمين وعلمائهم يعلمون حقيقة الأمر في قصص ابن أبي ربيعة وأنفسا لا تعبر عن الحقيقة بحال ، كما تبدو في ظاهرها ، حتى أن عبد الله بن عباس — وقد تغزل عمر ذات مرة بابنته لبابة — كان يعجبه شعر عمر ، ويحفظه عن ظهر قلب إن سمعه للمرة الأولى ، ويطلب من عمر أن يعيده عليه ، وفي مجلسه أمثال نافع بن الأزرق الخارجي في تشدده وعنفه ٧ .. بينما كان علماء آخرون يشفقون من شدة تأثير شعر عمر لما فيه من روعة وعذوبة تجعله سريع الحفظ خطير الأثر ،

١ الأصفهاني: الأغاني 99/17 — 100

٢ السابق 157/1

٣ السابق 101/11 — 102

٤ الأصفهاني الأغاني 85/1

٥ القالي : الأمالي ٩/٢ ، الأصفهاني : الأغاني 148/1

٦ الأصفهاني السابق 85/1

٧ السابق 81/1

فكانوا يحذرون منه أشد التحذير، فكان جريج يقول : ما دخل على العواق في جملهن شيء أضر عليهن من شعر عمر بن أبي ربيعة ^١ ، وكان هشام بن عروة يقول : لا ترووا فتياتكم شعر عمر بن أبي ربيعة لئلا يتورطن في الزنى تورطاً ^٢ ..

وإذا علمنا ذلك قسنا عليه ما نجد من قصص بعض الشعراء مع النساء من بني أمية ، فلم يكن الأمر يعدو تلذذا باختلاق الحكاية ، وتفاخرا بالجرأة على نساء الخلفاء والولاء ، واستغفلاً لحلم هؤلاء الخلفاء والولاء وخشيتهم من البطش هؤلاء الشعراء فيتحقق عند عوام الناس صدق افتراءهم ، ولا يخلو الأمر أيضاً — عند خصوم الأمويين — من استغلال ذلك اللون الفني الشائع للتشنيع على بني أمية والطعن في كرامتهم وعفافهم وغيرهم .. ومن ذلك ما حكره عن مغفلات أبي دهب الشاعر مع عاتكة بنت معاوية ^٣ ؛ وما اختلقوه من سيرة الشاعر الموهوم الذي يدعى وضاح اليمن مع أم البنين امرأة الوليد بن عبد الملك ^٤ ، وغير ذلك ..

ثانياً: دور الخلفاء والولاء في حراسة المجتمع :

١- محاربة عوامل التحلل الأخلاقي :

كان معاوية بن أبي سفيان ينهى عن الاستماع إلى الغناء ، وينكر ذلك على من يعرف به ^٥ ، وكان عامله على المدينة مروان بن الحكم شديداً على أهل الدعارة والفسوق ، وكان معاوية يوالي بينه في ولاية المدينة وبين سعيد بن العاص ، فكانوا يهربون من المدينة أثناء ولاية مروان ، ويعودون أثناء ولاية سعيد للينه وسماحته ^٦ ، وقد أتى مروان بأحد هؤلاء المختشين فقبل له : إنه لا يقرأ من كتاب الله شيئاً ، فبعث إليه يستقرئه أم الكتاب ، فقال والله ما معي بناقما ، أو ما أقرأ البنات فكيف أقرأ أمهن ؟ فقال مروان: أقرأ ؛ لا أم لك ؟ وأمر به فقتل ، وقال : من جاءني بمختش فله عشرة دنانير ، فتسابقوا في الهرب منه ^٧ ...

وروي عن عبد الملك بن مروان أنه لما بلغه أن عامله على مكة الحارث بن خالد المخزومي قد أصر الصلاة في موسم الحج عزله ^٨ ، ولما جاء الوليد بن عبد الملك إلى المدينة وهو خليفة ورأى

^١ السابق 83/1

^٢ السابق والصفحة

^٣ الحوفي : أدب السياسة 225—226 ، الأصفهاني : السابق 407/1—408

^٤ الحوفي 226

^٥ الأصفهاني : السابق 215/4 ، أبو الفدا : المختصر 189/1

^٦ الأصفهاني : السابق 276/17 طبعة دار الكتب .

^٧ السابق 29/3—30

^٨ السابق 314/3 ، 533

هناك جريرا وعمر بن لجأ الشاعرين قال لهما : أتقذفان الحصنات وتغضباهن ؟ ثم أمر أبا بكر بسن محمد بن حزم الأنصاري واليه على المدينة بضربهما ، فضربهما وأقامهما على البلس^١ ..
ولما بلغ سليمان بن عبد الملك أن الأحوص الشاعر يشب بنساء أهل المدينة وأن المغنين ينشدون ذلك كتب إلى عامله على المدينة أن يضربه مائة سوط ويقيمه على البلس للناس ، ثم يسيره إلى جزيرة "دهلك"^٢ ، وكان سليمان شديد الحرب على مجالس الطرب ، وقد سأل عن الغناء أين أصله ؟ فقليل : بالمدينة بالمختنن ، وهم أئمتة والحدائق فيه ، فكتب إلى عامله على المدينة أبي بكر بن محمد بن حزم أن اخص من قبلك من المختنن والمغنين ، فتبعمهم ابن حزم فخصى منهم جماعة^٣ ...
وقد بلغ عمر بن عبد العزيز أن قاضيا من قضاته استخفه الطرب من الغناء فأمر بعزله^٤ ، ولما سمع عن شعر عمر بن أبي ربيعة استدعاه إليه — فيما يروون — وعنفه على قوله ؛ وهم بنفيه ، لولا أن بادر الشاعر بإعلان توبته والإقلاع عما كان فيه^٥ ..

ولما بلغ هشام بن عبد الملك أن شاعرا يدعى ابن رهيمة يشب بزينة بنت عكرمة بسن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام ، وأن يونس المغني يتغنى بذلك الشعر، أمر بضرب ذلك الشاعر خمسمائة سوط وأن يباح دمه إن وجد قد عاد لذكرها ، وأن يفعل ذلك بكل من غنى بشيء من شعره ، فهرب هو ويونس فلم يقدر عليهما ؛ فيما يزعمون^٦ ؛ وشن هشام حربا على مظهر الترف والتخنن في عهده ، وكان يأمر بكسر آلات المغنين أو بيعها وجعل أموالها في بيت المال^٧ ..
واستمر هذا دأب الخلفاء الأمويين حتى في أيام ضعف الدولة وانهارها ، فقد كان يزيد ابن الوليد يقول : " إياكم والغناء فإنه مفتاح الزنى^٨ ، ويقول : يا بني أمية إياكم والغناء فإنه ينقص الحياء ويزيد في الشهوة ويهدم المروءة ، وإنه لينوب عن الخمر ، ويفعل ما يفعله المسكر ، فإن كنتسم فاعليه فجنوبه النساء "^٩ ..

^١ السابق 71/8 ، البلس غائر كبار من مسوح يجعل فيها التبن ، ويشهر عليها من يتكل به ، لسان العرب ملادة : ب ل س .

^٢ جزيرة بالبحر الأحمر غرب اليمن كان ينفي إليها المختنن والدعار ..

^٣ الأصفهاني السابق 275/4 — 276 وقد روى أن الذي أمر بذلك هو الوليد بن عبد الملك وليس سليمان (السابق 275/4)

^٤ المسعودي مروج الذهب 122/2 ، جرجي زيدان تاريخ التمدن الإسلامي 42/5—43

^٥ الأصفهاني الأغاني 63/9 — 64

^٦ السابق 406/4

^٧ الطبري : السابق 206/7

^٨ الجاحظ : البيان والتبيين 83/2

^٩ السيوطي تاريخ خلفاء 253

وظهر في عصر مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين اللهو بالشطرنج ، فكتب وزيره عبد الحميد الكاتب على لسانه الخليفة إلى أحد ولاته يقول : " وقد بلغ أمير المؤمنين أن ناسا ممن قبلك من أهل الإسلام قد ألهمهم الشيطان بما (أي الشطرنج) ؛ وجمعهم عليها ، فالف بينهم فيها ، فهم معتكفون عليها من لدن صبحهم إلى مساءهم ، ملهية لهم عن الصلوات شاغلة لهم عما أمروا به من القيام بسنن دينهم ، والفرض عليهم من شرائع أعمالهم ، مع مداعتهم فيها ، وسوء لفظهم عليها ، وأن ذلك من فعلهم ظاهر في الأندية والجالس ، غير منكر ولا معيب ولا مستفزع عند أهل الفقه وذوى الورع والأديان والأسنان منهم ، فأكبر أمير المؤمنين ذلك وأعظمه ، وتكرهه واستكبره ..^١ ..

ومهما قد يكون في الأخبار السالفة من مبالغة وتضخيم ، فإنها في جملتها وتكاثرها تدل بما لا يدع مجالا للشك على أن بني أمية كانوا حريصين على سلامة البناء الأخلاقي للأمة ، يتعقبون ما يشينه ويضعفه من مظاهر اللين والترف ، وأنهم كانوا في ذلك مدفوعين بحسهم الإسلامي الواعي عارفين بما يحيط بهم من تحديات وأعداء يحتاجون في مواجهتهم إلى أمة قوية ، تركز على دعامة صلبة من الدين والأخلاق ..

٢- رعاية العلم والعلماء :

زخر العصر الأموي بكثير من العلماء على امتداده الزمني والمكاني ؛ يأتي في طليعتهم جيل الصحابة الكثرين الذين عاصروا هذه الدولة وتركوا آثارا واضحة على الحياة السياسية والاجتماعية فيها ، وجيل التابعين الذين أخذوا عنهم ، وورثوا منهم ، ونشروا علومهم وتراثهم .. ونلاحظ أن أبرز الخلفاء الأمويين كانوا من العلماء ، بل من كبارهم وسادتهم مثل معاوية ابن أبي سفيان الصحابي كاتب الوحي ، ومن لا ينكر علمه وحلمه ، ومروان بن الحكم وابنه عبد الملك بن مروان وعمر بن عبد العزيز وغيرهم ، وقد مضى من سيرة هؤلاء الخلفاء ودينهم ما يثبت ذلك ، وكان كثير ممن يحوط هؤلاء الخلفاء من العلماء والفقهاء الذين لم يقتصر دورهم على تعليم العلم وتدريبه ، بل مارسوا السياسة ، وعرفوا طرقها ، فقلل ذلك من شهرتهم في مجال الفقه والدرس ، وإن ظل بعضهم يحتفظ بمكانته في ذلك الميدان ، ومن هؤلاء العلماء بعض الصحابة الذين كانوا قريبين من معاوية أثناء حكمه مثل حبيب بن مسلمة الفهري ، والنعمان بن بشير الأنصاري ، والمغيرة بن شعبة وعمرو بن العاص ومسلمة بن مخلد الأنصاري وفضالة بن عبيد الأنصاري وغيرهم ، كما كان من القريبين من معاوية بعض أبناء الصحابة الأعلام مثل الحسن والحسين ابنا علي بن أبي طالب وعبد الله بن عباس وابن الزبير ، ومن جيل التابعين اشتهر من العلماء في العصر الأموي جماعة

^١ صفوت . جهرة رسائل العرب ٢/ ٤٦٠-٤٦٤ ، الحولي : أدب السياسة ص 528

من الناهين لا يحصون كثرة مثل : خارجة بن زيد بن ثابت والقاسم بن محمد بن أبي بكر وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود وسالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب وأبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث ونافع مولى عبد الله بن عمر وعاصم بن عمر بن قتادة ومحمد بن كعب القرظي وسعيد بن يسار وسعيد بن المسيب وسعيد بن جبير والحسن البصري وابن سيرين والزهري والشعبي ورجاء بن حيوة وعطاء بن رباح وعكرمة مولى ابن عباس وميمون بن مهران وطاووس اليميني وكثير غيرهم ..

وبعض هؤلاء العلماء من التابعين كانوا من القربيين من الحكام ومن المشيرين عليهم والواعظين لهم والناصحين والمنكرين عليهم .. كما تولى بعض هؤلاء العلماء وظائف الحكم والإدارة والقضاء^١، وكان بعضهم بمثابة الوزراء والمشيرين عند بعض الخلفاء، رغم تعدد محاولات بعض هؤلاء العلماء الفرار من قرينهم من الخلفاء^٢، وكانت مكانة الآخرين عظيمة عند بني أمية .. حتى كان عبد الملك بن مروان يقول : إني لأهم بالشئ أفعله بأهل المدينة لسوء أثرهم عندنا فأذكر أبا بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام المخزومي فأستحي منه ، فادع ذلك الأمر^٣، وكان عمر ابن عبد العزيز يريد أن ينقل الخلافة إلى أحد هؤلاء العلماء البارزين ؛ القاسم بن محمد بن أبي بكر أو ميمون بن مهران^٤، وحرص هشام بن عبد الملك على أن يصلي على اثنين من هؤلاء العلماء تصادفت وفاقما أثناء رحلة حججه ؛ طاووس اليميني وسالم بن عبد الله بن عمر^٥ ..

إن هذه المكانة الرفيعة التي نالها العلماء في العصر الأموي لا تنفي أن بعضهم كان ينتقد الحكم الأموي أو يثور عليه ، وأن عددا منهم قد لقي في عصرهم إساءة أو تعذيبا ، ولكن ظلت هذه الإساءات محصورة في نطاق ضيق دائما ، ومعظمها كان من نصيب هؤلاء العلماء الخارجين على سلطان الدولة والمشايعين لأعدائهم مثلما حدث مع سعيد بن جبير وعبد الرحمن بن أبي ليلى اللذين شاركا في ثورة ابن الأشعث فقتلتهما الحجاج ، وقد تكرر الأمر نفسه — فيما بعد في العصر العباسي — على نحو أشد ، فلقي بعض البارزين من عظماء علماء الإسلام عنتا وتعذيبا كأبي حنيفة النعمان ومالك بن أنس وأحمد بن حنبل وغيرهم ..

^١ الطبري : السابق ٢٥٦/٦ ، ٣٢٤ ، ابن عبد ربه : العقد الفريد ٢٢/١-٢٣ ، محمود شاكر : التاريخ الإسلامي ٥٥-٥٢/٤ .

^٢ ابن عبد ربه : السابق والصفحتان ، ابن قتيبة : عيون الأخبار ١٧/١ ، أبو نعيم : حلية الأولياء ١٦٩/٥-١٧٠ ، ٢٣٥-٢٣٤ ، ٢٤٤ .

^٣ ابن سعد الطبقات الكبرى 208/5 — 209

^٤ السابق 254/5 ، اليعقوبي : السابق ٣٠٢/٢

^٥ الطبري : السابق 29/7

ولم تقتصر رعاية الأمويين العلم على رعاية العلماء وإجلالهم ، وإنما امتدت لترك آثارا خالدة على تطور بعض العلوم الإسلامية ذاتها ، حيث كان لبني أمية دور بارز في ازدهارها ونموها كما سوف نرى فيما بعد ..

عمق التأثير الاجتماعي للعلماء في العصر الأموي :

وكما كانت تأثيرات العلماء ومعارضتهم للأمويين أحيانا ، أو قربهم منهم أحيانا أخرى ؛ دليلا على حيوية هذه الجماعة وتأثيرها الكبير في المجتمع الإسلامي ؛ فقد كان التصاقها بالجماهير وتعلق الناس بها وتجاربهم معها دليلا آخر على أن المجتمع الإسلامي في العهد الأموي لم يكن على ما يصوره بعض المؤرخين هوا وعشا ، أو شكوا ومجونا ، فإنه لما توفي طاووس اليمنى بمكة ؛ وصلى عليه هشام بن عبد الملك ، لم يتهيا إخراج جنازته لكثرة الناس ، حتى وجه أمير مكة بالحرس ؛ ولقد كان عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي يضع سرير طاووس على كاهله وقد سقطت قلنسوة كسنت على رأسه ، ومزق رداؤه من خلقه ^١ .

ولما مات الحسن البصري تتبع الناس جنازته ، حتى لم تقم صلاة العصر بالمسجد الجامع بالبصرة في وقتها لانشغال الخلق بدفنه ؛ وما علم أنها تركت منذ كان الإسلام إلا يومئذ ^٢ .. وامتد نشاط الحركة العلمية وتأثير العلماء آنذاك إلى شتى أنحاء الدولة ؛ ففي خراسان "كان الضحاك بن مزاحم الهلالي صاحب التفسير فقيه مكتب عظيم فيه ثلاثة آلاف صبي ، وكان يركب حارا يدور عليهم إذا أعياى " ^٣ ..

٣ - محاربة الأمويين المذاهب الضالة :

بذل الأمويون جهودا كبيرة من أجل الحفاظ على نصاعة العقيدة الإسلامية وبساطتها وصحتها دون تحريف أو مغالاة ، غير أن اختلاط العرب بغيرهم من شعوب البلاد المفتوحة صاحبة العقائد المختلفة والأديان المتعددة والتصورات الدينية المتباينة كان لابد أن يترك أثرا سلبيا على التصور الصحيح للإسلام عند بعض أبنائه ، كما أننا نتوقع منذ البداية أن هذه الحضارات المهزومة والأمم المدحورة ؛ وإن فاتها النصر في ساحات القتال ، لن تعدم وسيلة ما للفساد والكيد والتآمر ومحاولة تخريب عقائد المسلمين والتشويش عليها .. وبالتجاوز عن مواجهة الأمويين حركات الخوارج التي تعتمد على سابقة تاريخية منذ حاربهم علي بن أبي طالب عليه السلام ، وبافتراض أن تفكير

^١ اليافعي : مرآة الجنان 1/227-228 ، والنظر : خليفة بن خياط : تاريخ خليفة ٢/٣٤٧ .

^٢ اليافعي : السابق ١/٢٣٩ .

^٣ السابق 1/213 .

الخوارج كان انحرافا في " فهم الإسلام " وغلوا فيه ، وليس حربا له ، أو مكرابسه ، فقد واجهه الأمويون بعد ذلك عديدا من المذاهب العقدية الضالة والخطيرة على الإسلام وأمته ..

وقد تركز ظهور معظم هذه الحركات الهدامة في الجزء الشرقي من الدولة الإسلامية في العراق وفارس وخراسان ، حيث كان التأثير واضحا بالديانات الفارسية القديمة ، كما ظهرت بعض هذه المذاهب الضالة في الشام حيث نجد بعض المؤثرات النصرانية ، ولكننا نلاحظ كذلك أن هذه المذاهب المنحرفة لم تكن خطيرة التأثير ، إذ لم تتح لها الفرصة للانتشار والذيع ، كما أنها كانت تفتقر بشكل واضح إلى التعاطف الجماهيري الذي ظل ملتصقا بقيم الإسلام وتصوراته الصحيحة ..

ولعل أسبق هذه الضلالات إلى الظهور ما نسب إلى المختار بن أبي عبيد ؛ المنزوي على العراق في فترة ضعف الحكم الأموي التي تلت موت يزيد بن معاوية وتنازل ابنه معاوية عن الخلافة^١ .. وفي سنة ٧٠٥هـ اكتشف عبد الملك بن مروان أمر رجل يدعى النبوة بالشام يدعى الحارث بن سعيد فألقى القبض عليه ، وأمر رجلا من أهل العلم والفقه بمحاورة وإقامة الحججة عليه لعله يتوب ، فلما لم يقبل منهم أمر بقتله^٢ ...

وظهر في العراق في فترة مبكرة معبد الجهني ؛ الذي كان من أوائل القدرية في الإسلام ، وهم منكرو القدر ، وقد جاء هذه الأفكار فيما يبدو من مصادر نصرانية ، ثم ما لبث أن تار على الأمويين مع ابن الأشعث ؛ فلما فشلت هذه الثورة ألقى الحجاج القبض عليه وقتله بعد عام 80 هـ^٣ ..

وقد أخذ الأفكار القدرية لمعبد أحد رجال الشام واسمه غيلان الدمشقي وكان مولى لآل عثمان بن عفان رضي الله عنه ، وقد أدخل على هذه الأفكار مزيدا من التأصيل الجدلي ، وكان فيما يبدو مطعوناً في دينه قبل ذلك ، فقد قال له مكحول الفقيه : ويلك يا غيلان ألم أجذك ترامي النساء بالتفاح في رمضان ؟ ثم صرت حارثيا تخدم امرأة الحارث الكذاب - مدعي النبوة الذي قتله عبد الملك كما سبق بيانه - وتزعم أنها أم المؤمنين ، ثم تحولت بعد ذلك قدريا زنديقا ؟^٤ ، وقد نساظره عمر بن عبد العزيز لما علم ببدعته ، وأبان له ضلاله فأظهر التراجع عن فكره أكثر من مرة ، وأمر عمر بالكتاب إلى سائر الأعمال بخلاف ما يقول هؤلاء القدرية ، وقد أمسك غيلان عن الكلام حتى مات عمر ، " فسأل منه بعد ذلك السيل " ^٥ ، فاستدعاه هشام بن عبد الملك بعد توليه الخلافة ،

^١ الطبري : السابق 83/6 ، ابن الأثير : الكامل 378/3 ، ابن كثير : البداية والنهاية 291/8-292 ، البغدادي : الفرق بين الفرق 47 ، الشهرستاني : الملل والنحل ٧19-200

^٢ ابن كثير : السابق 27/6-29

^٣ أنقاض عبد الجبار : طبقات المعتزلة 344 ، الاسفرايني : التبصير 13

^٤ ابن نباتة : مسرح العيون 166

^٥ السابق 166-167

وقال له : ويحك ، قل ما عندك ، إن كان حقاً اتبعناه ، وإن كان باطلاً رجعت عنه ، فناظره ميمون ابن مهران^١ والأوزاعي^٢ ، فلما استبان خطؤه ومكره وإصراره على ضلالته ، أمر هشام بقتله^٣ ، وأمر أيضاً بتفني أتباعه ، كما مر بنا ، ويبدو أن بعض الناس أرجف بالخليفة بعد صنيعة ذاك حقي أشفق أن يكون أخطأ بقتله غيلان ، فكتب إليه رجاء بن حيوة فقيه أهل الشام يقول : بلغني يا أمير المؤمنين أنه دخلك شيء من قتل غيلان وصالح (أحد أصحاب غيلان) وأقسم لك يا أمير المؤمنين إن قتلها أفضل من قتل ألفين من الروم أو الترك^٤ ..

ثم ظهر في الشام الجعد بن درهم مولى بني الحكم ، وكان معلماً لمرwan بن محمد آخر خلفاء بني أمية ، وهو أول من تكلم بخلق القرآن من أمة محمد ﷺ ، وقد قيل إنه أخذ ذلك من أصول يهودية ، فلما أظهر ذلك القول طُلب بالشام ، فهرب إلى الكوفة ؛ حيث حبسه عاملها خالد القسري ، وأمره هشام بن عبد الملك بقتله ، فأخرجه في وثاقه يوم عيد الأضحى ، وخطب الناس فقال في آخر خطبته : انصرفوا وضحوا تقبل الله منكم ، فإني أريد أن أضحي اليوم بالجعد بن درهم ، فإنه يقول : ما كلم الله موسى ، ولا اتخذ إبراهيم خليلاً ، تعالى الله عما يقول الجعد علواً كبيراً ، ثم نزل وذبحه^٥ ..

ومن العقائد الباطلة التي ظهرت في ذلك الوقت ما كان من المغيرة بن سعيد وبنان بن سميان النهدي ، وكانا من غلاة الشيعة ، فكان المغيرة يقول بألوهية علي بن أبي طالب ، وتكفير الشيخين أبي بكر وعمر وسائر الصحابة إلا من ثبت مع علي عليه السلام^٦ وزعم أن الأنبياء لم يختلفوا في شيء من الشرائع ، وكان ساحراً يقول : لو أردت أن أحيي عاداً وثمود وقروناً بين ذلك كثيراً لفعلت ، ويرى مذهب التجسيم لله عز وجل ..^٧ ، ولقد كان بنان بن سميان يشاركه في هذه المعتقدات ويرى أن علياً حلّ فيه جزء إلهي ، وأنه كان يعلم الغيب ويخبر به ، وأنه سوف يساتي بعد ذلك من جديد ، ثم ادعى أن ذلك الجزء إلهي قد انتقل إليه هو بالتناسخ ، ولذلك فقد استحق أن يكون إماماً وخليفة^٨ ، وزعم أنه المراد بقوله تعالى " هذا بيان للناس " ، إلى غير ذلك من أضاليل

^١ ابن كثير : السابق 352/9 — 353

^٢ ابن نباتة : السابق 167

^٣ السابق والصفحة

^٤ أبو نعيم : حلية الأولياء 172/5

^٥ ابن الأثير : الكامل 255/4 ، ابن كثير : البداية والنهاية 19/10 ، ابن نباتة : السابق ص 168

^٦ ابن الأثير : السابق 230/4 ، النويري : نهاية الأرب 445/21 ، 446 ، البغدادي : الفرق بين الفرق 239—240

^٧ الشهرستاني : الملل والنحل 204/1—205

^٨ النويري : نهاية الأرب 446/21 والآية من سورة آل عمران رقم 138

عجبية ، ثم إنهما خرجا في سبعة نفر على خالد القسري فقتلها حرقا على نحو بشع سنة 111 هـ^١ ، ثم قتل أيضا أحد المنتبين الكذابين بالكوفة^٢ .

وفي ولاية خالد القسري أيضا ظهرت أول دعوة باطنية في الإسلام على يد عمار بن بديل الذي أرسله الداعية العباسي بكير بن ماهان إلى خراسان واليا على شيعتهم هناك سنة 108 هـ — ، فزل مرو وتسمى بخدش ، وتسارع إليه الناس ، فأظهر لهم أباطيل عديدة ورخص لبعضهم في نساء بعض وقال لهم : إنه لا صلاة ولا صوم ولا حج ، وأحل كل ذلك وصرفه عن وجهه المعروف إلى معنى باطني غريب .. فظفر به أسد القسري أخو خالد القسري وعامله على خراسان ، فأمر به ففقطت يده وقلع لسانه وسمت عينه حتى مات سنة 118 هـ^٣ ..

وفي ولاية يوسف بن عمر (120 — 126 هـ) على العراق قتل أبو منصور العجلي أحد الشيعة الغلاة الذي زعم أن عليا والحسن والحسين وعلي بن الحسين ومحمدا الباقر كلهم أنبياء ومرسلون ، وأنه هو أيضا نبي مرسل عرج به إلى السماء ، وأن الله تعالى مسح على رأسه بيده وقال يا بني بلغ عني ، ثم أنزله إلى الأرض ، وكفر أصحابه بالجنة والنار ، وتأولوا الجنة على أنها نعيم الدنيا ، والنار على محق الناس في الدنيا ، واستحلوا خنق مخالفهم .. فلما اكتشف يوسف بن عمر خبر ذلك الدجال أخذه وصلبه^٤ ..

ولم تنته ضلالات هؤلاء الغلاة في العراق وفارس وخراسان ، فقد بعثها هذه المرة أحد الطالبين ، وهو عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب ، الذي ادعى الإمامة وبايعته جماعة سنة 127 هـ ، وجمع إلى طموحه ضلالات مدمرة وتأويلات باطنية ، وقد حاربته الأمويون بفارس فأهزمهم ، ومضى نحو سجستان ثم خراسان ، وشغل عنه الأمويون في تلك الفترة التي سبقت انهيار دولتهم لما عاونه من اضطرابات وقلاقل ، حتى قتله أبو مسلم الخراساني — فيما بعد — لما خشي مفامراته وخطورته^٥ !.

^١ الطبري : السابق 129/7 ، ابن كثير : السابق 19/10 — 20

^٢ ابن كثير : البداية والنهاية 20/10

^٣ الطبري : السابق 109/7 ، ابن الأثير : الكامل 224/4 — 225

^٤ البغدادي : الفرق بين الفرق 244—245 ، الخطيب : هامش المتنق من منهاج الاعتدال ص 96

^٥ البغدادي : السابق ، 246، الشهرستاني : الملل والنحل 1/202—203 . الأصمعي : مقاتل الطالبين 153—157 ،

الطبري السابق 203/7 وما بعدها ، 373 — 374

المبحث الثالث

الفتوحات عند الأمويين

امتدت الفتوحات الإسلامية على يد الأمويين إلى آفاق لم يعرفها عصر الراشدين ، حيث شملت دولة الإسلام ما بين الصين شرقا وبلاد الأندلس وجنوبي فرنسا غربا ... وطرقت أبواب القسطنطينية وضيق عليها الحناق وحاصرتها ثلاث مرات ، وتحول بحر الروم إلى بحيرة إسلامية ، ونشرت أعلام الإسلام في القارات الثلاث المعروفة آنذاك آسيا وإفريقيا وأوروبا ، ودخلت أعداد غفيرة من البشر بذلك في دين الله ، وأصبحت لغة العرب في أوج قوتها وثرانها ، وأضحت لسانا لكثير من سكان هذه البلاد ، وتحققت ألوان فذة من البطولة والتضحية وطلب الشهادة في سبيل الله ، خلفت ذكريات مجيدة ، ظلت غذاء ومددا على امتداد التاريخ وتوالي الأجيال حتى اليوم ، ولا تزال مسامع الدنيا تعي أسماء مثل المهلب بن أبي صفرة ويزيد بن المهلب ، وعتيبة بن مسلم ومحمد بن القاسم الثقفي وموسى بن نصير وطارق بن زياد ومسلمة بن عبد الملك وغيرهم .

ولا ريب أن هذه الصفحات من صفحات الفخار للأمويين قد أثارت إعجاب الكثيرين من المؤرخين المنصفين والمتحاملين على الأمويين على السواء ، فقال الحافظ ابن كثير : " .. فكانت سوق الجهاد قائمة في بني أمية ، ليس لهم شغل إلا ذلك ، قد علت كلمة الإسلام في مشارق الأرض ومغاربها ، وبرها وبحرها وقد أذلوا الكفر وأهله ، وامتألت قلوب المشركين من المسلمين رعبا ، لا يتوجه المسلمون إلى قطر من الأقطار إلا أخذوه ، وكان في عساكرهم وجيوشهم في الغزو الصالحون والأولياء والعلماء من كبار التابعين ؛ في كل جيش منهم شرذمة عظيمة ينصر الله بهم دينه " ^١ .. ويعترف أحد المتحاملين على بني أمية بذلك فيقول : " ولم يبلغ العرب من العز والسؤدد ما بلغوا إليه في أيام هذه الدولة ، وقد تكاثروا في عهدها ، وانتشروا في ممالك الأرض " ^٢ ..

ولم يكن تحقيق هذه الانتصارات الرائعة أمرا سهلا ، أو عملا يسيرا ، فقد استمر الأمويون يحاربون الروم والبربر في شمالي إفريقيا مثالا نيفا وأربعين سنة حتى تمكنوا أخيرا من إخضاعهم وإتمام الفتح ^٣ ، وعلى الجبهة الشمالية كان القتال في اتجاه القسطنطينية مكلفا وباهظا ومتواصلا تقريبا عبر

^١ البداية والنهاية 87/9

^٢ جرجي زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية 236/1

^٣ استمر القتال في شمال إفريقيا منذ خلافة معاوية حيث فتح معاوية بن حديج بمرت سنة 41هـ حتى تمكن حسان ابن نعمان من هزيمة الكاهنة وفتح المغرب لثمانيا سنة 82هـ (راجع محمود شاكر - التاريخ الإسلامي 4/157، 205)

الصوائف والشوائف^١ ، في ظروف جغرافية ومناخية عسيرة ، أما في الجبهة الشرقية في بلاد فارس وخراسان وما وراء النهر وبلاد السند فإن " الحروب في تلك البلاد لم تكن بالأمر اليسير عليهم ؛ فقد كانوا أول الأمر قلة في العدد ، ولم يكن سلاحهم كافيا ، وكان بعد المسافات وصعوبة الأرض وظروف المناخ كلها مصدرا لعقبات كثيرة قامت في سيلهم ، وكان لابد لهم أن يحملوا معهم المؤن والملابس التي تقيهم البرد ولم يكونوا يستطيعون الخروج إلى الغزو إلا في الفصل المناسب لذلك من العام ، ولم يكن أعداؤهم بالذين يستهان بهم ، وكان العرب إذا حاصروا مدينة جاءت لنجدتها في معظم الأحيان جيوش جرارة " ^٢ ..

أمويون مجاهدون بأنفسهم :

وكان الأمويون أنفسهم يصطلون بتيار هذا الجهاد ، ويقدمون بأنفسهم القدوة والمثل في التضحية وقيادة الجيوش ومصادمة الأعداء ، " فقد أرسل معاوية ابنه يزيد على رأس جيش لحصار القسطنطينية ، وأرسل عبد الملك ابنه الوليد مرات للغزو في بلاد الروم ، وكان ابنه الثاني مسلمة قائد جبهة الروم ، وغزواته أكثر من أن تعد ، وحصاره مدينة الروم — القسطنطينية — معروف ومشهور ، وكان أخوه محمد بن مروان أمير الجزيرة يتولى الغزو في أغلب الأحيان ، وأولاد الوليد بن عبد الملك وهم العباس وعبد العزيز وعمر ومروان يقودون الغزو في بلاد الروم^٣ . يساعدون عمهم مسلمة بن عبد الملك في ذلك ، كما أن سليمان بن عبد الملك كان ابنه داود على رأس قواته المجاهدة في بلاد الروم ، أما هشام بن عبد الملك فقد كان يفرض الغزو على بني مروان جميعا ، ومن يتأخر عن الغزو يمنع عنه العطاء ، وكان أولاده في مقدمة الغزاة ، ومنهم معاوية وسليمان ومسلمة وسعيد وغيرهم ، أما مروان بن محمد فكان نفسه يقود الجيوش ويصبر في القتال صبورا شديدا حتى لقب بالحمار " ^٤ ..

١- شبهات حول دوافع الفتوحات الإسلامية :

إن بعض المؤرخين يعلل النشاط الذي دب في ساحات الجهاد مع بداية خلافة معاوية بن أبي سفيان بأن معاوية قد " أدرك أن استئناف حركة الجهاد سيزيل بعض الماراة التي أحست بها الأمة عندما استسلمت لقضاء الله بخلافته ، ومن ثم سيمكن له ولبنى أبيه في الأرض " ^٤ ..

^١ إذا استثنينا فترات المدة القليلة التي عقدت بين الطرفين ، كالي كانت أيام معاوية وعبد الملك حيث اتجهت الدولة الأموية لإخضاع المعارضين بالداخل في ذلك الوقت ..

^٢ فلهوژن : تاريخ الدولة العربية 416-417

^٣ محمود شاكر : التاريخ الإسلامي 56/4

^٤ د. حلمي : الخلافة والدولة في العصر الأموي ص210

ولا ريب أن استخلاف معاوية كان على غير هوى فريق من الأمة يشد مثاليات يصعب تحقيقها ولا يدرك تطور الزمان وتغير الناس ، أو تدفعه أحقاد وأهواء ومنافع شخصية وإقليمية أو قبلية لم يستطع فرضها بالقوة من خلال حمامات الدم التي سالت في صفين وغيرها ، ولكن معظم أهل الحل والعقد وأصحاب الشوكة والقوة قد بايعوا معاوية من غير إكراه ، وربما كان استئناف الجهاد الذي توقف أيام الفتنة الكبرى لأسباب داخلية ولفترة موقوتة يرضى بعض هؤلاء المثاليين ، ولكن لم يمنع المعارضين الآخرين من مواصلة معارضتهم للدولة وجيوش المسلمين منشغلة بالفتوح ؛ كما حدث من الشيعة في ثورة حجر بن عدي الكندي ؛ ومن الخوارج في ثوراتهم المتواصلة ..

كما أن استئناف حركة الجهاد لم يكن بدعة على سياسة معاوية الذي استمد كثيرا من الشهرة العريضة والمكانة الرفيعة من كفايته كوال على بلاد الشام وهي جبهة واسعة من جبهات القتال ، ومن شهرته كمقاتل عنيد في البر والبحر منذ أيام أبي بكر وعمر وعثمان ، وكانت له إنجازاته الكبرى في إخضاع الساحل الشمالي للشام لقوى المسلمين ، كما كان له الفضل في تأسيس البحرية الإسلامية وهزيمة الروم في البحر وانتزاع السيادة منهم لأول مرة في تاريخ المسلمين ، وإذا كان من المستبعد أن نقول جريا على شبهات المؤرخين إن معاوية كان يضمن توريث الحكم في بني أمية منذ بداية استخلافه وأنه واصل الجهاد للتمكين له ولبنى أمية في الأرض ، فإننا نقرر رغم ذلك أنه من الجميل حقا أن يجعل الحاكم المسلم غزو الأعداء وإذلالهم مسوغا لحكمه عند الأمة ؛ بدل أن يلجأ إلى أساليب القهر السياسي أو الادعاء الكاذب ، أو إثارة الفتنة الداخلية ليعلو من فوقها عرشه ..

وشبه بذلك ما يردده بعض المؤرخين من أن الجهاد في العصر الأموي كان لإخلاء التحرك الثوري في شرق الدولة ، وصرف الطاقة الحربية الكامنة لدى الثائرين والمعارضين من شيعة وخوارج وعصبيات قبلية متناحرة في نشاط عسكري يفيد الدولة ، ويحتجون بقول الحجاج لأهل العراق في إحدى خطبه : " إني لم أجد دواء أدوى لدائكم من هذه المغازي والبعوث ، لولا طيب الإياب وفرحة القفل ، فإنها تعقب راحة ، وإني لا أريد أن أرى الراحة عندكم ، ولا الفرح فيكم " ^١ .. فإن هذه الخطة مما يحمى للأمويين ولا يعاب ، ومما يتفق مع التوجه الإسلامي في هذا الصدد الذي يجعل أتباعه (أذلة على المؤمنين ، أعززة على الكافرين) ^٢ ، وهو تحويل بارع لأهم عوامل الضعف في جسد الأمة إلى عامل قوة وإعزاز لها ، ورغم ذلك فينبغي التنبيه إلى أن ذلك العامل كان أكثر ظهورا في القسم الشرقي من الدولة ، وبذلك فهو لا ينطبق على الفترات في الجبهة الغربية أو الشمالية ...

وفضلا عن شبهات المستشرقين وتلامذتهم عن الفتوحات الإسلامية بأنها كانت غزوا من أجل الغنائم والأموال ، وهو أقام قديم متهاو ، فإن بعض الباحثين يتحدث عن احتراف الحرب زمن

^١ السابق 210-212

^٢ سورة المائدة من الآية 54

الأمويين واتخاذها وسيلة للكسب أو الذكر، فيقول : " وقد بدأ هذا الاتجاه يظهر منذ تبين المحاربون في العهد الأموي وفرة ما تغله الحرب من غنائم ، وقد بدأ هذا الكسب على عهد معاوية الأول حين اتجهت جيوش عاملة زياد بالعراق إلى إقليم خراسان ، وعادت بالغنم العظيم ، فكتب معاوية إلى زياد يطلب منه أن يأمر قائد الحملة الحكم بن عمرو الغفاري أن يصطفي له الصفراء والبيضاء والروائع ، وفي حملة واحدة من الحملات التي وجهها الحجاج نحو الهند عادت جيوشه بغنائم بلغت قيمتها مائة وعشرون مليوناً من الدراهم ، وكان الحجاج قد أنفق في تجهيز هذه الحملة ستين مليوناً ، فبقى له بعد ذلك ستون مليوناً نفعا خالصا ، وقد أدى هذا الاتجاه المادي إلى ظهور جماعة من المتكسبين بالحرب ، يكفي أن نذكر منهم المهلب بن أبي صفرة الذي خدم بسيفه مصعب بن الزبير في ثورته باسم أخيه عبد الله ضد الأمويين ، ثم لم يلبث أن باع نفسه لهؤلاء الأمويين الذين رحبوا بهذه الصفقة فسمحوا للبالغ ولأسرته ولقومه أن يكونوا من أبرز جماعة المتفعين بالحرب والمتكسبين بها ^١ ...

وللرد على هذه الشبهات تذكر عدة نقاط :

أولا : إن وفرة الغنائم التي تحققت عن الحروب أمر معروف منذ عصر الراشدين ، ولم يكن ذلك أمرا جديدا يظهر مع بداية العهد الأموي في عصر معاوية ، كما أن الإسلام لا يحرم هذه الغنائم مادامت ناتجة عن الغزو وليست هدفا له ^٢ ..

ثانيا : إن الأدلة الواردة على تحول الحرب في عصر الأمويين إلى وسيلة للكسب لا تنهض للدلالة على ذلك ، فالزعم بأن معاوية كتب إلى زياد أن يأمر قائد جيشه على خراسان أن يصطفي له البيضاء والصفراء والروائع أمر غير ثابت وتحوطه الشكوك ، وإن صح فقد يجب أن نحمل ذلك على جمع هذه الأموال وتحويلها إلى بيت مال المسلمين لمواجهة زيادة نفقات القتال ، على أن يكون ذلك بموافقة الجند كما توحى بعض الروايات ، وسوف يكون ذلك محل بسط وتفصيل في موضع آخر ^٣ .. والاحتجاج بما حققه جيش الحجاج الذي وجهه لفتح الهند من غنائم بلغت ستين مليوناً من الدراهم خالصة بعد طرح ما أنفق عليها من أموال طائلة ، هو خلط بين السبب للغزو والنتيجة المترتبة عليه ؛ فإنهم يروون أن الحجاج إنما أرسل جيشه إلى الهند بعد حادثة الاعتداء على بعض المسلمين هناك وأمر نسايتهم ، حتى صاحبت امرأة مسلمة مستجدة : " واحججاه " ، فسير الجيوش لتجديداً وتأديب حكامها الطغاة ، وهو يردد " يا لبيك يا لبيك " ^٤ ؛ ولا يعني ذلك أن الحجاج لم يكن سيفزو الهند لو لم تحدث هذه الواقعة ، فقد كان الانسحاب الطيعي للجيوش الإسلامية في هذه

^١ د. حلمي : السابق 210—212

^٢ راجع ملاحق رقم (٣) ضمن ملاحق هذا البحث . .

^٣ انظر الفصل الخاص بالشبهات حول السياسة المالية للأمويين .

^٤ البلاذري : فتوح البلدان 426—427 ، محمود شاكر : التاريخ الإسلامي 4/206

المرحلة يتجه نحو فتح الهند لتأمين الحدود وتبليغ الدعوة .. ولما انفق الحجاج هذه المبالغ الطائلة في تجهيز ذلك الجيش الظافر لم يكن يدخل في حساباته ما سوف يغنمه من ذلك القتال في هذه المنطقة ، حيث سبقت هزيمة جيشين له من قبل وجههما لأداء نفس المهمة ^١ ، ثم إن تلك الغنائم لم تصبح ملكا خاصا للحجاج ^٢ ، بل دخلت في خزينة الدولة حسبما يقتضي حكم تقسيم الغنائم في الإسلام ، والقول بأن المهلب بن أبي صفرة كان ممثلا لجماعة ظهرت من المتكسين بالحرب حتى باع سيفه للأمويين والزبيريين من أجل ذلك ، يحتاج إلى إيضاح ومراجعة ، فإن المهلب لم يكن أيام الزبيريين فاتحا أو غازيا ، ولكنه كان محاربا للخوارج الأزارقة الذين أصبحوا يطرقون أبواب البصرة مهتدين إياها ، ويهزمون جيوشها المرة تلو المرة ، حتى استنجد أهلها بالمهلب لينقذهم ممن يقتلون الرجال والنساء والأطفال دون رحمة ، وقد كان المهلب آنذاك متوجها إلى خراسان عاملا لابن الزبير عليها ، فاحتال البصريون عليه حتى وضعوا على لسان ابن الزبير كتابا إليه يأمره فيه أن يتولى قتال الأزارقة بدل خراسان .. فقبل ، ولم يزل يقاتلهم حتى نفاهم عن البصرة والأهواز إلى أصفهان وكرمان ، حيث تفرقوا هناك ، وإذا كان المهلب قد اشترط كي يقبل حرب الخوارج أن يتنازل له أهل البصرة عن خراج ما غلب عليه من الأرض ثلاث سنين ، فقد كان واضحا لهم آنذاك أنه ليس هناك من يقبل أكثر من ذلك ويقبهم شر الأزارقة ؛ وكان لابد للمهلب من مورد ثابت يقوى به على حارب هؤلاء بعيدا عن حسد عمال البصرة ، وأهواء زعماء القبائل فيها ^٣ ، وقد اشترط شروطا أخرى تؤكد ذلك المعنى ^٤ .. ولما انتهى سلطان الزبيريين على العراق بقتل مصعب بن الزبير سنة ٧١هـ — كان لابد للمهلب من مبايعة الأمويين وخليفتهم عبد الملك بن مروان ؛ فقد انتهى بسقوط العراق سلطان ابن الزبير الفعلي ، ولم يكن في مصلحة المهلب أن يقف ممتنعا عن بيعه عبد الملك فيسقط بين عدوين ، الخوارج من ناحية والأمويين من ناحية أخرى ، وقد كان من مصلحة الإسلام كذلك أن يدخل ذلك القائد النجيب في خدمة الجماعة وطاعة الخليفة الذي بات نصره مؤكدا ؛ وقد أبقى الأمويون على ما اشترط سابقا حتى زال خطر الخوارج عن البصرة تماما ^٥ ...

إن ما سبق لا يعني بحال أننا ننفي وجود العنصر المادي ، في إطار الفهم الإسلامي لذلك ، ضمن العوامل التي دفعت نحو الفتوحات الإسلامية ، ولكن يعني أن يوضع ذلك العامل في ترتيبه الطبيعي ضمن منظومة العوامل الأخرى ، فلم تكن الغنائم هي الدافع الأهم للقيادة الإسلامية نحو

^١ راجع محمود شاكر : السابق والصفحة

^٢ كما قد يوحى القول بأنه قد بقي له بعد ذلك متون مليوناً مغنما خالصا ..

^٣ راجع الطبري : السابق 613/5 — 622

^٤ راجع الدينوري : الأخبار الطوال ص 272 قوله " أنتخب منكم أوساطكم ... ولا أخالف فيما أدبر من رأيي في حرمهم وأترك ورأيي الذي أراه والذي أدبره ..) .

^٥ الطبري : السابق 199/6

الفتح والجهاد ، وإن وجد لدى بعض الأفراد أو لدى كثير منهم ؛ " وهؤلاء لا يخلو منهم جيش حتى على عهد الرسول عليه السلام في حنين وتبوك وغيرها ، ولكن هذا بالطبع لا يمثل وجهة نظر المسلمين في فتوحاتهم ، ولا يمثل القيادة الفكرية التي كان يتبناها الخليفة والقادة وينفذها الجند ، كما أنه لا يمثل وجهة نظر الأمة ورأيها العام " ^١ ، وحوادث القتال وجهود الأمويين على جبهات القتال توضح ذلك ، " فجبهة الروم مثلاً وهي التي كانت مثار الشجاعة ومرتع البطولة ، ما كانت تسدر الربح الكثير ، بل كان بيت المال ين من منها ، لأن حملاتها ما كانت تنتهي إلى تقدم " ^٢ ، خاصة إذا ذكرنا الحملات الثلاث الكبرى التي توجهت إلى القسطنطينية وتكلفت نفقات باهظة " ^٣ ، والحملات العقيمة في شمال إفريقيا طوال سنوات عديدة قبل إخضاعها نهائياً سنة ٨٢ هـ ..

٢- قوة الروح الإسلامية في فتوحات الأمويين :

أعطى المجاهدون المسلمون في العهد الأموي صوراً رائعة للتضحية والبطولة والتجرد و إخلاص النية لله في جهادهم ، سواء كانوا من القادة أو الأمراء ، أو من عامة الجند ، أو من جماعات العلماء والزهادين والربانيين ، الذين فهموا الإسلام عبادة وجهادا ، ومارسوا ذلك على نحو مثير للإعجاب ودافع إلى الناس ؛ وقد توزعت صور الإخلاص والتضحية هذه على جميع جبهات القتال ، وفي جميع مراحل الجهاد ، مما يدل دلالة واضحة على عمق التوجه الإسلامي للفتوحات في العصر الأموي ، وينفي الغيبش الذي يثيره المنحرفون عن بني أمية على أنصع منجزاتهم وأحراها بالفخر والإعزاز ، ومهما يكن في هذه الروايات التي تحكي عن تلك البطولة والتجرد من مبالغة — البطولة دائما تغري بالمبالغة — فإنها تترك في مجملها دلالة قوية على إسلامية الفتوح في العصر الأموي ..

في حروب الروم :

^١ يبدو أن حصار القسطنطينية الأول سنة ٥٥ هـ قد أطلق حماسة الجيش وهو يرى نفسه على أبواب عاصمة عدوه اللدود ، التي بانهايارها سوف تسقط إمبراطورية الروم ، كما سقطت قبلها إمبراطورية فارس . وكان معاوية يتابع بشغف أخبار هذه الحملة ، وكان فيها ابنه يزيد وعبد العزيز ابن زرارة الكلبي ، ولم يزل عبد العزيز هذا أثناء القتال يتعرض للشهادة وينشد متحمسا وينغرس في

^١ د. جميل عبد الله المصري : الفتوحات بين دوافعها الإسلامية ودعاوى المستشرقين ص 78 — مقال بمجلة المنهل

السعودية ، مجلد ٥٠ ، سنة ١٩٨٩ م

^٢ د. العش : الدولة الأموية ص 346

^٣ السابق والصفحة

صفوف الروم حتى قتل ، فلما بلغ الخبر معاوية قال معزيا والده : " والله هلك فتى العرب " ، فقال
زرارة : " ابني أو ابنك ؟؟ " قال : ابنك ، فأجرك الله ، فقال الرجل :

فإن يكن الموت أودى به وأصبح مخ الكلابي زيرا
فكل فتى شارب كأسه فإما صغيرا وإما كبيرا^١

وفي سنة 88 هـ هاجم المسلمون حصن طوانة قرب المصيصة^٢ ، وكان على الجيش مسلمة
ابن عبد الملك والعباس بن الوليد ، وقد ركب المسلمون عدوهم حتى دخلوا كنيسة الحصن ، ثم
رجعوا فانهمزوا حتى ظنوا ألا يجبروها أبدا ، وبقي العباس في نفر منهم ابن محيريز الحمصي الزاهد ،
فقال له العباس : أين أهل القرآن الذين يريدون الجنة ؟ فقال له : نادهم يأتوك ، فنادى ، فأقبلوا
جميعا حتى هزم الله العدو ، وفتحوا الحصن^٣ ..

وأنارت بطولات البطال أبي الحسين عبد الله الأنطاكي ، أحد قادة المسلمين وفرسانهم ،
خيالات الرواة وعجبهم حتى وضعوا له سيرة ذاتية ، وقد استشهد في إحدى معاركه مع الروم سنة
122 أو 123 هـ^٤ . وكان عبد الوهاب بن بخت ممن غزا مع البطال أرض الروم سنة 113 هـ ، فانهمز
الناس عن البطال ، فحمل ابن بخت وهو يقول لفرسه : ما رأيت فرسا أجبن منك ، وسفك الله دمي
إن لم أسفك دمك ، ثم ألقى بيضته عن رأسه وصاح : أنا عبد الوهاب ، من الجنة تفرون ؟؟ ثم تقدم
في بحر العدو ، فجاء رجل وهو يقول : واعطشاه !! فقال له : تقدم الري أمامك .. وخالط القوم
حتى قتل ، وقتل فرسه^٥ ..

وفي سنة 123 هـ خرج عشرون ألفا من الروم فزلوا على المسلمين في ملطية^٦ ، فأغلق
أهلها أبوابها ، وظهر النساء على السور عليهن العمام يقاتلن ، وخرج رسولهم إلى هشام بن عبد
الملك بالرسالة مستغيثا ، فندب هشام الناس إليها ، ثم بلغه الخبر بجلاء الروم عنها ، لكنه غزا بنفسه
حتى نزلها وعسكر عليها حتى بنيت وحصنت^٧ ..

وكان عدد من العلماء والزهاد يشارك في غزو الروم على الجبهة الشمالية فخلفوا لنا
عددا من الروايات التي تدل على نفوس شفاقة ، جعلت الله قصدها وغايتها ، فقد مرض حكيم بن

^١ ابن الأثير الكامل 227/3 — 228

^٢ طوانة : بلدة بتفر المصيصة (ياقوت : معجم البلدان ٦ / ٦٥) ، والمصيصة : مدينة من ثغور الشام بين أنطاكية
وبلاد الروم ، قرب طرسوس (السابق ٨ / ٨٠) .

^٣ فتحي عثمان : الحدود الإسلامية البيزنطية ص 81

^٤ ابن الأثير الكامل 4 / 248 — 249

^٥ النويري النهاية الأرب 21 / 437

^٦ ملطية : بلد من بلاد الروم تتاخم الشام (ياقوت : السابق ٨ / ١٥٠) .

^٧ البلاذري : فتوح البلدان 190

حزام بن حكيم ، فعاده مكحول فقيه أهل الشام وسأله : أترك مرابطا هذا العام ؟؟ فقال حكيم : كيف تسألني عن هذا وأنا على تلك الحال ؟؟ فقال مكحول : وما عليك أن تنوي فإذا شفاك الله مضيت لوجهك ، وإن حال بينك وبينه كتب لك نيتك ؟^١ ..

وروى عبد الرحمن بن يزيد بن جابر قال : كنا نغزو مع عطاء الخراساني فكان يحكي الليل من أوله إلى آخره إلا نومة السحر^٢ .

وكان مسلمة بن عبد الملك يحاصر أحد الحصون ، فندب الناس إلى نقب منه ، فما دخله أحد ، فجاء رجل من عرض الجيش فدخله ، ففتح الله عليهم ، فنادى مسلمة : أين صاحب النقب ؟ فما جاء أحد ، فنادى : إني قد أمرت الآن بإدخاله ساعة يأتي ، فعزمت عليه إلا جاء ، فجاء رجل فقال : استأذن لي على الأمير ، فقال له : أنت صاحب النقب ؟؟ قال : أنا أخبركم عنه ، فأتى مسلمة فأخبره عنه فأذن له ، فقال له : إن صاحب النقب يأخذ عليكم ثلاثا : ألا تسودوا اسمه في صحيفة إلى الخليفة ، ولا تأذنوا له بشيء ، ولا تسألوه من هو ، فقال مسلمة : فذاك له ، فقال : أنا هو ، فكان مسلمة لا يصلي بعدها صلاة إلا قال : اللهم اجعلني مع صاحب النقب^٣ ..

وفي الجبهة الغربية في شمالي إفريقية والأندلس كانت الروح ذاقا تسري ..
فقد زووا أن عقبة بن نافع كان مستجاب الدعوة ، فلما هم أن يبنوا مدينة القيروان تخشى مكانها فوجدته غيضة لا ترام من السباع والحيات وغير ذلك من الدواب ؛ فدعا الله ثم قال : يا أهل الوادي اظعنوا ، فإننا نازلون ، وكرر نداءه ثلاثا ، فجعلت الحياة تنساب والعقارب وغيرها حاملمة أولادها ، فرآه قبيل من البربر فأسلموا ؛ وقطع الأشجار وأمر ببناء المدينة^٤ .. وواصل عقبة اندفاعه في شمالي إفريقية حتى بلغ الخيط الأطلسي ، فأقحم فرسه فيه وهو يقول : يا رب لولا أن البحر منعني لمضيت في البلاد مدافعا عن دينك ، مقاتلا من كفر بك ، اللهم إنك تعلم أنني لم اطلب إلا ما طلب عبدك ووليك ذو القرنين ؛ ألا يعبد في الأرض غيرك^٥ ... ولكن عقبة ما لبث أن استشهد في طريق عودته في هودة سنة ٦٦٥هـ ، لما أحاط به أعداؤه ، ومعه نفر قليل من أصحابه فيهم أبو المهاجر دينار القائد السابق الذي أسره عقبة لخلاف معه ، فلما أحس عقبة بالأعداء يحاصرونه أطلق سراح أسيره

^١ أبو نعيم : حلية الأولياء 278/5

^٢ السابق 193/5

^٣ ابن قتيبة : عيون الأخبار 172/1

^٤ الطبري : السابق 240/5 ، ابن الأثير : الكامل 230/3 ، ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب 265 ، خليفة : تاريخ

خليفة بن خياط 210 ، ابن كثير : البداية والنهاية 45/8 ، ابن حجر : الإصابة 64/5

^٥ ابن عذاري : البيان المغرب 37/1

، وأمره بالمضي نحو القريوان لحاجة المسلمين إليه ، ولكن أبا المهاجر أبي وآثر أن يستشهد مع قائده ، وغريمه ومن معهما من المسلمين ، فقتلا في نفس الموضع شهيدين ^١ ..

ورغم مشاغل عبد الملك بن مروان أثناء صراعه ضد ابن الزبير فقد أرسل زهير بن قيس البلوي ليثأر لعقبة ومن قتل معه ، وقد تمكن زهير من ذلك سنة ٦٥٩هـ ، ولكن لنجده أودت به هو الآخر؛ إذ إنه لما رأى بعض المسلمين ، وقد هاجمهم الروم في برقة وأسروهم يستجدون به ، نزل في نفر قليل من أصحابه ونزلوا معه ، وكانوا أشرف العابدين ورؤساء العرب المجاهدين ، أكثرهم من التابعين ؛ فقاتلوا الروم حتى قتلوا ، ومضوا شهداء سنة ٧١١هـ ^٢ ..

وبعد جهد جهيد استطاع موسى بن نصير أن يسيطر تماما على إفريقية والمغرب ، وقد أكثر الرواة من ذكر كراماته ، فلما عزله سليمان سأل : ما الذي كنت تفرع إليه عند حروبك ومباشرة عدوك ؟ قال : كنت أفزع إلى التضرع والدعاء ، والصبر عند اللقاء ^٣ ..

وفي الجبهة الشرقية كان قتيبة بن مسلم يخطب في جنده بعدما ولاه الحجاج أمر خراسان فيقول لهم : إن الله أحلکم هذا الخلع ليعز دينه ، ويذب بكم عن الحرمان ، ويزيد بكم المال استفاضة ، والعدو وقما ، ووعد نبيه ﷺ النصر بمحدث صادق وكتاب ناطق ... ووعد المجاهدين في سبيله أحسن الثواب ، وأعظم الذخر عنده ... ثم أخبر عمن قتل في سبيله إنه حي مرزوق ، فتجزوا موعود ربكم ، ووطنوا أنفسكم على أقصى أثر وأمضى ألم ، وإياي والهيبي ^٤ ..

وما زال الخليفة الوليد وعامله الحجاج يشدان أزره ^٥ ، ويحضانه على التقوى وإخلاص النية لله ، وانتظار ثوابه ، حتى فتح الله على يديه الفتوحات العظيمة ^٦ ..

ولما سار قتيبة لفتح بيكند ^٧ سنة ٨٧هـ استنصر أهلها السغد ، واستمدوا من حولهم ، فأتوهم في جمع كبير ، وأخذوا بالطريق على قتيبة فلم ينفذ له رسول ، ولم يصل إليه رسول من

^١ السابق ١ / ٣٩

^٢ ابن عذارى : السابق ١ / ٣٣

^٣ ابن عذارى : السابق ٢ / ٣١ ، وراجع : الإمامة والسياسة ٢ / ٧٩-٨١ .

^٤ الطبري : السابق : السابق ٦ / ٤٢٤

^٥ راجع ابن أعثم (الشيعي) الكوفي : الفتوح ٧ / ٢٤٧-٢٥٠

^٦ يقول أحد المؤرخين العسكريين واصفا فتوح قتيبة : يكفي أن نذكر أن مساحة فتوحه تبلغ أربعين بالمائة من مساحة الاتحاد السوفيتي الحالية ، وثلاثة وثلاثين بالمائة من مساحة الصين الشعبية في الوقت الحاضر ، وإن سكان المناطق التي فتحها في بلاد ما وراء النهر وتركستان الشرقية ضمن الاتحاد السوفيتي والصين لا يزالون مسلمين حتى اليوم يتبعون بتلاوة القرآن الكريم ، ويعتزون بالعربية لغة والإسلام ديناً ، بالرغم مما يلاقونه من عنت شديد وعن وعناء (محمود شيت خطاب : فتح كاشغر ، مقال بمجلة الأمة القطرية ص ١١ عدد ٥٠ السنة الخامسة نوفمبر ١٩٨٤)

^٧ بيكند : قال عنها ياقوت : من قرى طبرستان على طرف باول ؛ وهو نهر كبير (معجم البلدان ٢ / ٣٤٠) .

الحجاج القائد الأعلى للجهة الشرقية ، ولم يجز له خبر شهرين ، فأشفق الحجاج على الجند ، فأمر الناس بالدعاء لهم في المساجد ، وكتب بذلك إلى الأمصار ، وهم يقتلون في كل يوم حتى كتب لهم النصر^١ ، فأبى إحساس مقع بالله وقوته وقدرته .

ولما فتح قتيبة بيكند هذه ظفر بذلك الخائن الذي استجاش الترك على المسلمين ، فرفض أن يقبل منه فداء نفسه بألف ألف ، وقتله وهو يقول : والله لا تروغ بك مسلمة أبدا^٢ ..

وفي إحدى غزواته صاف قتيبة الترك فهاله أمرهم — كثرة وعتادا — فسأل عن محمد بن واسع الأزدي ، وهو أحد الزهاد المعروفين ، ماذا يصنع ؟ فقالوا : هو في أقصى الميمنة جانح على سية قوسه^٣ ، ينطنض بأصبعه نحو السماء ، فقال قتيبة : تلك الأصبع الفاردة احب إلي من مائة ألف سيف شهر وستان طير ، فلما فتح الله عليهم ، قال غمد : ما كنت تصنع ؟ قال : كنت آخذ لك بمجامع الطرق^٤ ..

وفي خلافة هشام بن عبد الملك أحاط الترك في منطقة طخارستان^٥ بالمسلمين ، وقائدهم آنذاك أسد بن عبد الله القسري سنة ١١٩هـ ، فمضى أسد يحرض جنده ويقول : إنه بلغني أن العبد أقرب ما يكون إلى الله إذا وضع جبهته لله ، وإني نازل وواضع جبهتي ، فادعوا الله واسجدوا لربكم ، وأخلصوا له الدعاء ، ففعلوا ثم رفعوا رؤوسهم وهم لا يشكون في الفتح ، واستشار أسد الناس في خروجه لقتال ملكهم ؛ فخوفه بعضهم المخاطرة بذلك فقال : " والله لأخرجن ؛ فإما ظفر وإما شهادة "؛ وقد كتب للمسلمين آنذاك الظفر الهنيء^٦ ..

رغبة القادة والجند في الشهادة :

وفي عهد هشام استشهد جماعة من أبرز قواد المسلمين مثل الجراح بن عبد الله الحكمي عامله على أرمنييا سنة ١١٢هـ ، واستشهد سورة بن الحر التميمي في خراسان في نفس السنة ، وعقبة بن سحيم الكلبي في جنوب فرنسا سنة ١٠٧هـ ، ثم عبد الرحمن الغافقي في الجهة نفسها في تور بواتيه سنة ١١٤هـ ، مما يدل على امتداد ساحات القتال والفداء التي يغشاها القادة بأنفسهم مع أجنادهم ، وكلما قتل واحد منهم قام آخر ليواصل الطريق .. وكان هشام في كل ذلك يشفق على جنده ويتلقى أنباء استشهاد قادته فينخلع قلبه خشية أن يكون أحدهم قد انحاز عن العدو فخرس

^١ الطبري : السابق : السابق ٤٣٠/٦ ، ابن الأثير الكامل ١٠٧/٤

^٢ الطبري : السابق : السابق ٤٣١/٦ ، ابن الأثير : السابق ١٠٧/٤

^٣ سية القوس : ما انعطف من طرفها (انظر لسان العرب مادة : س ي ا)

^٤ ابن قتيبة : عيون الأخبار ١٢٤/١

^٥ مملكة طخارستان إحدى ممالك بلاد ما وراء النهر ، وتقع على جانبي نهر جيحون ، وعاصمتها مدينة بلخ

^٦ الطبري : السابق ١١٩/٧ ، ابن الأثير : السابق ٢٢٨/٤

الجنة ؛ فلما استشهد الجراح بن عبد الله دعا هشام سعيد بن عمرو الحرشي أحد كبار قاداته فقال له : بلغني أن الجراح قد انحاز عن المشركين ، فقال سعيد وثقا : كلا يا أمير المؤمنين ، الجراح أعرف بالله من أن ينحاز عن العدو ولكنه قتل^١ ..

وكما أعطى القادة هذه الأمثلة كان الجند لا يقلون عنهم حماسة وحمية ورغبة في الشهادة ، فقد دخل أحدهم ويدعى أبو ضمرة النضر بن راشد العبدي على امرأته ، والناس يقتلون في إحدى هذه المعارك ، فقال لها : كيف أنت إذا أتيت بأبي ضمرة مضرجا بالدماء ؟؟ فشقت جبينها ودعت بالويل ، فقال : حسبك ، لو أعولت علي كل أنثى لعصيتها شوقا إلى الحور العين ، ورجع فقاتل حتى استشهد ؛ يرحمه الله^٢ ..

٣- عناية الأمويين بالجيش الإسلامي :

يحرص الإسلام أتباعه على إعداد القوة اللازمة للجهاد ، والتي ترهب أعداء الله ، وتحقق هيئة الدولة الإسلامية ، قال تعالى : (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم)^٣ ، ومن المؤكد أن الأمويين قد أولوا عناية فائقة بجيوشهم ، حتى تمكنت تلك الجيوش من تحقيق تلك الإنجازات الرائعة والفتوحات الضخمة في التاريخ الإسلامي ، ورغم المعلومات القليلة نسبيا عن الجيش الأموي ، مقارنة بما نعرفه عن جيوش إسلامية أخرى لم تحقق مثل إنجازاته^٤ ، فإنه يمكننا أن نلمس بعض جهود الأمويين في إعدادهم وتجهيزه ؛ ولا ريب أن الأمويين كانوا يستعينون بالقوة الروحية العالية عند الجنود والقادة عن الوفرة العددية وكفاية التسليح في جيوش الأعداء ، فقد كانت جيوش الأمويين كثيرا ما تواجه عدوا كثير العدد عظيم الجلد ، متمرسا على القتال ، خيرا ببلاده وطرقها وشعابها ، ونظرة واحدة إلى مساحات البلاد المفتوحة والشعوب المختلفة التي كانت تقطنها كفيلة ببيان ذلك ، فإين أعداد العرب آنذاك وهم قوام الجيش الإسلامي من أعداد أهل فارس وخراسان وما وراء النهر وأرمينيا وإفريقيا والمغرب والأندلس ؟؟ وأين أعداد جيش قتيبة مثلا بجيوش خراسان وما وراء النهر ، وأين قوة محمد بن القاسم الثقفي بقوة أهل الهند ، وكيف نقارن أعداد جيش طارق بن زياد بأعداد جيوش الإسبان وهم يحاربونهم في بلادهم ؟؟ ولا ريب إذن أن سعيدا الحرشي القائد الأموي في خراسان لم يكن هو القائد الوحيد الذي يحظ في جنوده فيقول

^١ الطبري : السابق 70/7

^٢ السابق 74/7

^٣ سورة الأنفال آية ٦٠ .

^٤ شيت خطاب : جيش المسلمين في عهد بني أمية مقال بمجلة النجم العلمي العراقي ص ٦٣٨ ، مجلد ٤٠ سنة

: " إنكم لا تقتلون بكثرة ولا بعدة ، ولكن بنصر الله وعز الإسلام ، فقولوا لا حول ولا قوة إلا بالله " ^١ ..

ونظرا لقلّة ذلك العدد الذي يكون الجيوش الإسلامية آنذاك ، ونظرا لتعاليم الإسلام نفسه ، وتدين الخلفاء والقادة ، فقد كان واضحا أثناء الحروب مدى حرص الأمويين على سلامة جند الإسلام ، ففي عهد الوليد بن عبد الملك مثلا — وهو العهد الذي شمل أعظم الفتوحات الإسلامية — كان الخليفة الأموي يبدو مترددا وهو يجيب على رسالة قائد موسى بن نصير — أمير إفريقية والمغرب — التي يذكر فيها عرض يوليان صاحب سبتة مساعدة المسلمين على فتح الأندلس ، فكتب الوليد إلى ابن نصير يقول : خضها بالسرايا حتى تخبره ، ولا تغرر بالمسلمين في بحر شديد الأهوال ، فكتب إليه موسى : إنه ليس ببحر ، وإنما هو خليج يصف صفة ما خلفه للناظر ، فكتب إليه الوليد : " وإن يكن ، فاختبره بالسرايا " ^٢ ..

وكان المهلب بن أبي صفرة يغزو فيتنصر ثم يمكث عن المضي في التوغل إذا أحس بالخطر على جنده ، ولا يستجيب للإغراء الداعي إلى مزيد من النصر ، ويقول : ليت حظي من هذه الغزوة سلامة هذه الجند حتى يرجعوا سالمين ^٣ ..

وقد امتد هذا الحرص على جند المسلمين ليشملهم في حال أسره عند العدو ، فقد اشترط مسلمة بن عبد الملك على ملك الروم عند غزو بلاده أن يبنى للمسلمين دارا بإزاء قصره يربها الوجوه والأشراف إذا أسروا ليكونوا تحت كتفه وتعاوده ، فأجاب إلى ذلك وبنى دار البلاط ، وقد كان يسمح لأسارى المسلمين هناك أن يتجروا ولا يكرهون على أكبل لحم الحرير ، ولا يتعرضون للون من ألوان النكال التي كان يتعرض لها الأسارى آنذاك ، وكانت لهم أوقات يتجمعون للعب والترويح فيها ^٤ ..

وفي تلك المرات التي قيات للجيش الأموي أسباب الإعداد المادي الكامل كانت قيادته تضرب في ذلك المثل الرفيع ، حيث تمتد نظرها لتشمل نواحي الحياة الخاصة بأفراد الجند ، فقد حشد الحجاج أربعين ألف رجل من أهل الكوفة والبصرة وأعطاهم أعطيائهم كاملة ، وأمدهم بالخيول الروائع والسلاح الكامل ، فكان ذلك الجيش يسمى جيش الطواويس ، وجعل وجهته سجستان لقتال رتييل ملك الترك ^٥ ، غير أن تجهيزه جيش محمد بن القاسم الثقفي الذي توجه لفتح السند كان أكثر إثارة ، حيث جهزه بكل ما يحتاج إليه ، حتى الخيوط والمسال ، وعمد الحجاج إلى

^١ النويري نهاية الأرب 394/21

^٢ أخبار مجموعة في فتح الأندلس ص 7-5

^٣ الطبري : السابق 326/6

^٤ المقدسي : أحدث التقاسيم 147-148 ، د. العدوي الدولة الإسلامية وإمبراطورية الروم ص 215

^٥ الطبري . السابق 327/6

القطن المخلوج فنقع في الخل ، ثم جفف في الظل ، وقال: إذا صرتم إلى السند — فإن الخل بها ضيق — فانقعوا هذا القطن في الماء ، ثم اطيخوا به واصطبغوا ^١ ، وكانت المراسلات بين الحجاج ومحمد بن القاسم مستمرة بحيث يصف له محمد كل ما يلاقيه ، ويستطلع رأيه فيه كل ثلاثة أيام ^٢ ..

الأمويون يطورون البحرية الإسلامية :

سبق أن أشرنا إلى دور معاوية في نشأة البحرية الإسلامية ؛ التي استطاعت أن تنتزع في عهد عثمان السيادة الإسلامية على بحر الروم في موقعة ذات الصواري سنة ٤٥هـ ، وكان لابد من مزيد من تطوير السفن الإسلامية كي يستطيع معاوية تحقيق حلمه في الاستيلاء على القسطنطينية وإنهاء وجود إمبراطورية الروم ، ولذا فقد عمل على الإفادة من خبرة قبط مصر في صناعة السفن ، فأنشأ داراً لصناعتها في جزيرة الروضة حتى سميت آنذاك جزيرة الصناعة ^٣ ، وقد ساهم ذلك الأسطول الحربي في حصار القسطنطينية مرتين في عهد معاوية سنة ٥٥هـ ، ٥٣هـ — ٦٥هـ .

وقد أدى هذا الغزو البحري المتتابع إلى تكوين حس حربي بحري كبير عند المسلمين ، حتى نجد إصراراً عند أبي المهاجر دينار على فتح قرطاجنة على الساحل الإفريقي لما يعلم من خطرها ، ولكنه لم يفلح في ذلك ^٤ ، فلما استكمل حسان بن النعمان فتح إفريقية كان يضع نصب عينيه الاستيلاء على هذه القاعدة البحرية ، وقد نجح في ذلك فهدم حصونها وأسوارها كيلا يفكر الروم في العودة إليها مرة أخرى ^٥ ، وأثمرت هذه الخبرات المتتالية تفكيراً جدياً في إنشاء قواعد بحرية إسلامية لأسطول في الشمال الإفريقي يقوم بمثل العبء الذي كان يقوم به الأسطول الإسلامي في قواعده بالشام ومصر ، وانتهى هذا التفكير بمجهود حسان بن النعمان أيضاً في إنشاء ميناء تونس ، جنوبي قرطاجنة ، بعيداً عن متناول السفن البيزنطية ^٦ ..

ثم أمر عبد الملك بن مروان حسان بن النعمان باتخاذ دار لصناعة السفن في تونس لإنشاء الآلات البحرية ^٧ ، وكتب عبد الملك إلى أخيه عبد العزيز والي مصر أن يوجه إلى تونس ألف قبضي بأهله وولده لإنشاء دار صناعة فيها ، أما مهمة البربر هناك فكانت أن يجبروا ويحملوا إلى دار

^١ البلاذري : فوح البلدان ص 324

^٢ السابق 424—425

^٣ البلاذري : السابق 177

^٤ د. محمد حلمي : الخلافة والدولة في العصر الأموي 322

^٥ السابق الصفحة

^٦ السابق 223

^٧ ابن خلدون : المقدمة 690/2

الصناعة ما تحتاجه من خشب لصنع المراكب^١ ، وفي الحملة الثالثة على القسطنطينية أيام سليمان بن عبد الملك سنة ٩٥٨هـ كانت عدد قطع الأسطول الإسلامي هناك 1800 سفينة^٢ ، وقد أمر عمر ابن عبد العزيز بعد ذلك بسحب ذلك الجيش سنة ٩٥٨هـ ، ولكن ظلت تلك الجهود الأموية في بناء البحرية الإسلامية نقطة تحول في التاريخ الإسلامي حيث أصبح المسلمون في عهدهم أمة بحرية ، بل سادة البحار لعدة عقود من الزمان .

٤- جهود الأمويين في نشر الإسلام واللغة العربية :

لم يكن الفتح الإسلامي في عهد بني أمية مجرد توسع في الرقعة الجغرافية للدولة ، أو بسطاً للسيادة على هذه الأجناس من البشر على اختلاف ألوانها وألسنتها وأديانها وحضاراتها ، ولكنه كان فتحاً عقائدياً يستهدف نشر العقيدة الإسلامية وإعلاء كلمة الله ، بالدعوة والترغيب لا بالقهر والترهيب .

ومن المؤكد أن الفتح الإسلامي لهذه البلاد كان قدراً سعيداً رفعها من هوة سحيقة من القهر السياسي والحرمان الاقتصادي والطبقية الاجتماعية المتخلفة ، والاختلافات الدينية والمذهبية اللداجة والجامحة^٣ ..

ولم يكن الطريق رغم ذلك معبداً أمام المسلمين ، فقد دافعت تقاليد هذه البلاد وقومياتها وأديانها بشراسة عن نفسها ، وبعضها لفظ أنفاسه في هذا الصراع ضد الإسلام الفتى ، وبعضها الآخر كتب له البقاء بصورة من الصور ، وليس القصد هنا أن نرصد هذه الصراع ، ولا أن نسجل جميع الجهود المبذولة للتمكين للإسلام في البقاع المفتوحة ، فلذلك أبحاثه ومواطنه ومظانه ، ولكن يكفي هنا أن نربح شيئاً من هذه الجهود في بعض هذه البلاد الشاسعة !!

1- نشر الإسلام في شرق الدولة الإسلامية (فارس وخراسان وما وراء النهر) :

ساعدت عدة عوامل على انتشار الإسلام المبكر في هذه المناطق منها اختلاط المسلمين الفاتحين بأهل البلاد الأصليين إذ سكن المسلمون مدتهم ولم ينو مدناً جديدة كما كان الحال في العراق ومصر حيث بنوا الكوفة والبصرة والفسطاط ، ومنها كثرة السبي والموالي الوافدين على

^١ د. سيدة كاشف : مصر في فجر الإسلام ص 91

^٢ فتحي عثمان : الحدود الإسلامية البيزنطية ص 91

^٣ د. الرئيس : الخراج والنظم المالية ص ٣٨ وما بعدها ، سعيد حوى : الرسول 400-402 ، د. ماجد : التاريخ

السياسي 230/231 - د. العلوى : تاريخ العالم الإسلامي 183/1 ، د. حسين مؤنس : فتح العرب للغرب 16-18

د. سيد عبد العزيز سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس 57

العراق والحجاز من فارس واختلاطهم بالمسلمين ؛ وإسلام بعض قاداتهم منذ وقت مبكر مثل الهرمزان زمن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، كما كان لمصاهرة الفرس لآل البيت دور كبير في تقريب الفرس إلى الإسلام حيث ساعد على اختلاط الدين بالقومية الفارسية القوية ، فكان زواج الحسين بن علي من ابنة يزيدجر آخر ملوك فارس طريقاً مفتوحاً لهم نحو الإسلام ثم التشيع فيما بعد ^١ ، لكن "مقاومة الإيرانيين العنيفة للفتوح الإسلامية وسلسلة الانتفاضات التي تعثرت فيها كانت كفيلة أن تلفت أنظار الولاة أو القادة إلى أن الأمر لا يستقر للمسلمين في هذا الجانب من الأرض إن لم يرافق هذا الغلب الحربي أنواع من الاتصال بالأرض ، والاختلاط بالسكان ، ومن ثم توثيق العلاقات بهم ، وطبي هذه الفجوات التي تفصل بينهم " ^٢ ، ولذا فقد عمد الأمويون إلى نوع من التهجير الجماعي لبعض العرب إلى هذه المناطق الشرقية ، فاستقروا هناك واختلطوا بالناس ، وزادت معرفتهم بالإسلام ومعاشتهم له ؛ فلما ولي زياد بن أبي سفيان البصرة سنة ٤٥هـ أرسل أمير بن أحرر الشكري أميراً على مرو الروذ والطارقان والقارياب ، وكان هذا الوالي أول من أسكن العرب في مرو حيث صار معه عديد منهم ^٣ ، ولما ترك بعض الفرس منازلهم في كرمان نزحوا العرب وعمرروا الأرض واحتفروا القنى في مواضع منها ^٤ ، لكن سنة ٥٥هـ شهدت أكبر هذه الهجرات الجماعية حيث ولي زياد الربيع بن زياد الحارثي خراسان ، وحول معه من أهل المصيرين من الكوفة والبصرة زهاء خمسين ألفاً بعيالهم ، وأسكنهم دون النهر ^٥ ، وقد أسهمت هذه الآلاف في تعريف السكان بالإسلام عن قرب ونشر بذور التعريب هناك ، وبمرور الوقت واستمرار العمليات الحربية في ما وراء النهر كانت خراسان تستقبل مزيداً من الجند المسلمين الذين يقيمون هناك ، وبذلك فقد ازداد توطن العرب خراسان ، حتى كان هناك يوم استخلف سليمان بن عبد الملك (٩٦-٩٩هـ) أربعون ألفاً من مقاتلة أهل البصرة ، وسبعة آلاف من مقاتلة أهل الكوفة ، ومن الموالي المسلمين سبعة آلاف أخرى ، مما يصل بعدد الجند إلى نحو خمسين ألفاً من المسلمين ^٦ ، وكان انتشار الإسلام هناك يتم بطريقة سلمية وهادئة ولكنها متواصلة وناجحة ، حتى لقد كتب أحد بطارقة الكنيسة النسطورية في خراسان يشكو لرئيس أساقفة فارس دخول جماعات عظيمة من النصارى في الإسلام حيث قال : "واحسرتاه !! واحسرتاه على هذه الآلاف المؤلفة التي تحمل المسيحية ، والتي لم يتقدم حتى واحد فيها ليهب نفسه ضحية للعرب ، ... أين كذلك معابد كرمان وبلاد فارس جمعاء ؟؟ إن الذي أنزل بهم الخسران

^١ أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ص 185

^٢ د. شكري فيصل : المجتمعات الإسلامية في القرن الأول ص 205

^٣ البلاذري : فتوح البلدان 409

^٤ السابق 392

^٥ السابق 410 ، الطبري : السابق 286/5 حيث يجمع ذلك سنة 51 هـ

^٦ الطبري : السابق 512/6

والدمار لم يكن وسواس إبليس ولا إرادة ملوك الأرض ، ولا أوامر حكام البلاد ، إن العرب الذين منحهم الله سلطان الدنيا يشاهدون ما أنتم عليه ومع ذلك فهم لا يحاربون العقيدة المسيحية ، بل على العكس من ذلك ، يعطفون على ديننا ، ويكرمون قسيسنا وقديس الرب ، ويجودون بالفضل على الكنائس والأديار ، إن شعبك من أهل مرو قد قبلوا عن رغبة أن يغيروا دينهم من أجل جزء من تجارتهم بل من أجل ما هو أقل من ذلك " ١ ..

وتعود محاولات نشر الإسلام في بلاد ما وراء النهر إلى فترة مبكرة من العصر الأموي ، حيث غزا عبيد الله بن زياد هذه البلاد ، وفتح بعض أجزاء بخارى سنة ٦٥٥هـ ، وعاد من هناك إلى البصرة وفي صحبته ألفان من البخارية قد أسلموا وفرض لهم العطاء ٢ .. لكن قتيبة بن مسلم صاحب الفضل في فتح هذه البلاد فتحا منظما ، قد أضاف إلى مكانته العالية كمحارب بارع مكانة أخرى كداعية إسلامي ناجح ، وقد انتهج في سبيل ذلك وسائل متعددة ، منها عنايته ببناء المساجد فيما يفتحه من بلاد ؛ فقد بنى مسجدا عظيما في بخارى بعد فتحها سمي جامع قتيبة ٣ ، كما أتم مسجدا آخر في سمرقند بعد أن فتحها ٤ ، وكان يغري أهل البلاد بالدخول في الإسلام وارتداد هذه المساجد ، فكان يمنح كل مصل جديد في جامع بخارى يوم الجمعة مبلغا من المال ٥ ، ويرسل الدعاء إلى الأسر التي دخلت حديثا في الإسلام ليعلموهم أمر دينهم ٦ ، بل إنه أجاز ترجمة القرآن الكريم إلى اللغة الفارسية ليسهل تعريف الناس بالدين الجديد ٧ ، وكان يصطحب معه العديد منهم في حروبه وغزواته ، يحاربون معه ، ومنهم بعض قادهم ٨ ، مما كان يفتح الطريق أمامهم للأنس بالعرب ودينهم ، لم يكن قتيبة يعمل في ظروف مواتية ، إذ " اتسمت مقاومة الأهليين للإسلام بكثير من ضروب العنف والعناد ، حتى إنه لم يسمح بحمل السلاح إلا للذين دانوا بهذا الدين ، ولم يجزؤ المسلمون أعواما طوالا على أن يظهروا في المساجد أو غيرها من الأماكن العامة من غير أن يكونوا متقلدي السلاح " ٩ ..

١ النص الكامل لهذه الوثيقة المهمة في : أرنولد : الدعوة إلى الإسلام 75-76

٢ الطبري : السابق 297/5-298

٣ بدر الدين حي الصفي : العلاقات بين العرب والصين ص 26 ، عبد الباري محمد الطاهر : الأثر والخلافة ص 87 رسالة ماجستير بدار العلوم سنة 1990

٤ الطبري : السابق ٤٧٥/٦ .

٥ حي الصفي : السابق والمصنفة

٦ حي الصفي : السابق 25-26

٧ السابق ص 26 ، عبد الباري محمد الطاهر : السابق ص 87 .

٨ الطبري : السابق 430/6 ، 455 ، 459 ، 473-474

٩ أرنولد : الدعوة إلى الإسلام 185

ورغم ذلك لم يكن قتيبة يدع فرصة تمر دون أن يحاول زعزعة الوثنية في قلوب أصحاب البلاد فإنه لما فتح سمرقند "جعل فيما صالحهم عليه بيوت النيران وحلية الأصنام ، وأتى بالأصنام فسلبت ثم وضعت بين يديه فكانت كالقصر العظيم حين جمعت ، فأمر بحرقها ، فقالت الأعاجم : إن فيها أصناما من حرقها هلك ، فقال قتيبة : أنا أحرقها بيدي ، فجاء غوزك — قائد المدينة التركي — فجثا بين يدي قتيبة وقال : أيها الأمير إن شكرك علي واجب ، لا تعرض هذه الأصنام ، فدعا قتيبة بالنار ، وأخذ شعلة بيده ، وخرج فكبر ، ثم أشعلها ، وأشعل الناس ، فاضطربت ، فوجدوا من بقايا ما كان فيها من مسامير الذهب والفضة خمسين ألف مثقال^١ ، ولا يخفى ما لهذا العمل من أثر على نفوس عباد هذه الأصنام ..

ولم تقتصر هذه الدعوة إلى الإسلام على عوام الناس وأشرافهم ، بل امتدت إلى ملوكهم أيضا ، فقد أرسل عبد الملك بن مروان إلى بعض ملوك الترك يدعوهم إلى الإسلام^٢ ، كما أرسل قتيبة وفدا إلى ملك الصين يعرضون عليه الدين الجديد^٣ ، وإذا كان قتيبة ينهج هذا النهج في ما وراء النهر ، فإن محمد بن القاسم الثقفي كان يسلك سبيلا مشابها في بلاد السند حيث كان يبني المسجدا بالمدن التي يفتحها^٤ ..

ومن المؤكد أن انتشار الإسلام في هذه البقاع الشرقية قد بلغ شأوا عظيما ، حتى اضطرب الحجاج بن يوسف الثقفي إلى التفكير في وقف سيل الدخول في الإسلام الذي أصبح يهدد بشكل خطير خزانة الدولة وبيت المال ، إذ إن الداخلين الإسلام لن يدفعوا الجزية والحراج ، فأنبار هذا الدخول الجماعي في الإسلام شكه وهو يرى هؤلاء الموالي يشكلون الرصيد الأعظم لكل الثورات التي نشبت ضده ، فقرر استمرار فرض الجزية على من يسلم منهم حتى يضمن أن يكون إسلامهم قناعة بالدين وإيمانا به وليس فرارا من دفع الجزية ورغبة في نيل العطاء^٥ ..

ورغم ذلك فقد استمرت حركة نشر الإسلام ، واكتسبت زحفا جديدا مع خلافة عمر بن عبد العزيز ، الذي أرسل إلى ولاته كتابا عاما فيه " إن الله بعث محمدا ﷺ إلى الناس كافة فقال : "وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا " ، وقال : " يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا " ، فادع إلى الإسلام وأمر به ، فإن الله تعالى قال : " ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحا وقال إنني من المسلمين " ^٦ ، وألغى قرار الحجاج باستمرار فرض الجزية على من أسلم ، فأقبل الناس

^١ الطبري : السابق 475/6 — 476 ، ياقوت : معجم البلدان 173/5

^٢ ياقوت السابق 23/2 — 24 ، عبدا لبارى الطاهر : الأتراك والخلافة 77

^٣ الطبري : السابق 501/6 — 503

^٤ البلاذري : فتوح البلدان 425 — 426

^٥ راجع ص من هذا الكتاب .

^٦ ابن عبد الحكم : سيرة عمر بن عبد العزيز 94 ، د . عماد الدين خليل : ملامح الانقلاب الإسلامي ص 86

على الإسلام إقبالا هائلا حتى دخل على يدي الجراح بن عبد الله عامل عمر على خراسان نحو أربعة آلاف^١ ..

وأرسل عمر إلى ملوك ما وراء النهر يدعوهم إلى الإسلام ، فاستجاب له بعضهم ، كما استجاب له كثير من أهالي تلك البقاع^٢ ، وكتب إلى ملوك الهند يدعوهم إلى الإسلام والطاعة على أن تبقى أملاكهم وإماراتهم بأيديهم ، ولهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم ، وكانت سيرة عمر ومنهجه في الحكم والحياة قد بلغت هؤلاء ، فأسلموا وتسموا بأسماء العرب^٣ ، وقدمت عليه وفود منطقة التبت يسألونه أن يبعث عليهم من يعرض عليهم الإسلام ، فأرسل لهم السليط بن عبد الله الحنفي^٤ ..

واستمرت الدعوة إلى الإسلام بعد عمر بن عبد العزيز ، فقد كتب هشام بن عبد الملك يدعو بعض ملوك الترك إلى الدخول في الإسلام^٥ ، كما نشط عماله في الدعوة هناك ، مثل أسد القسري^٦ والجنيد بن عبد الرحمن الذي كان يناظر خاقان الترك في الإسلام أثناء حروبهما ، ويجيب على أسئلته عنه^٧ ، كما كان لأشروس بن عبد الله جهود كبيرة في نشر الإسلام هناك حتى سارع الناس إليه ؛ فبرزت من جديد مشكلة نقص الجزية نتيجة كثرة الداخلين في الإسلام ، حيث " صار الناس كلهم عربا " ، أي مسلمين كما يصف عامل سمرقند ، فاستسهل أشروس فرض الجزية على من أسلم من جديد ، فاعتزل هؤلاء وجدوا من حارب معهم من المسلمين^٨ ، ولكن كان الإسلام قد غزا مناطق واسعة من هذه البلاد ، فلم تكن هذه الاضطرابات بالتي تمثل خطرا عليه ، وأصبحت مناطق خراسان وما وراء النهر جزءا مؤثرا في دولة الإسلام ، حتى كان الخراسانيون عماد الثورة العباسية على الأمويين ، ثم صار الترك في العصر العباسي الثاني سادة الدولة والممسكين بأزمة الخلافة المتهاوية ، كما أصبحت بخارى وسمرقند وغيرها مراكز إشعاع إسلامي حضاري ضخم تمثل عظمة هذا الدين وقدرته على التفاعل الحضاري الخلاق ..

^١ ابن سعد : الطبقات الكبرى 386/5

^٢ البلاذري : فتوح البلدان 524 ، د. خليل السابق 85

^٣ البلاذري : السابق 540

^٤ اليعقوبي : السابق 302/2

^٥ ياقوت : معجم البلدان 378/2-397

^٦ أرنولد : الدعوة إلى الإسلام 182

^٧ الجاحظ : مناقب الترك وعامة جند الخلافة ص 47

^٨ الطبري : السابق 54/7-55

نشر الإسلام في مصر :

إن السهولة التي تم بها الفتح الإسلامي لمصر قوية الدلالة على مدى ضجر المصريين بحكامهم من الرومان ، الذين قاسوا تحت حكمهم من الاضطهاد المذهبي والعسف الاقتصادي والتسلط السياسي ما أفردت له كتب التاريخ صفحات

ومن الطبيعي أن نفترض أن انتشار الإسلام في مصر تم على مراحل طويلة من الزمان تناسب مع ما عرف عن المصريين من التصاقهم بمذهبهم الديني ، وارتقائهم الحضاري الذي أتاح لهم قدرا من العزة القومية ، وتماسكهم الاجتماعي الذي شكل مع قدرتهم العددية عائقا أمام العرب الفاتحين الذين ظلت أعدادهم قليلة نسبيا ، حيث يذكرون إن عددهم في الديوان زمن معاوية كان أربعين ألفا^١ ..

ورغم ذلك فإن التناقص الكبير المتوالي في خراج مصر زمن الأمويين مقارنا بخراجها بعهد الفتح لما يدل على كثرة الداخلين في الإسلام من أهلها^٢ ، على أن ذلك التحول إلى الإسلام يبدو أنه ظل متركزا في المدن التي نزها المسلمون وخالطوا سكانها ، في حين ظلت القرى المترعة بالسكان بعيدة عن ذلك التحول الكبير ، حتى قال المقرئزي : " ولم ينتشر الإسلام في قرى مصر إلا بعد المائة الثانية من تاريخ الهجرة ، عندما أنزل عبيد الله بن الحجاج مولى سلول عامل الأمويين على مصر قيسا بالحواف الشرقي^٣ ، وكان ذلك العامل الأموي قد رغب في استقدام جماعات من قيس إلى مصر لإحداث نوع من التوازن السكاني بين قبائل العرب بها ، وأرسل إلى الخليفة هشام بذلك فوافقهم ، وأتاه أولا مائة أهل بيت من بني نصر ثم مائة أهل بيت من بني سليم ، فأنزهم بلييس وأمرهم بالزراع والتجارة فأصابوا رخاء عظيما ، فلما سمع بذلك عامة قومهم تحملوا إليهم ، فمات مروان الجعدي آخر خلفاء الأمويين حتى كان بمصر ثلاثة آلاف بيت من قيس^٤ ، يختلطون بالناس ويتعاملون معهم ، فيتباحون لهم فرصة التعرف على الإسلام ولغته ... ثم ساهم التعريب الذي تم في مصر في عهد عبد الملك بن مروان وعامله عليها ابنه عبد الله في نشر اللغة العربية حيث اضطر إلى تعلمها جيل من الناس يشمل موظفي هذه الدواوين ومن يرتبطون بها ارتباطا يضطرهم إلى ذلك ، مما أضعف تدريجيا من سيطرة لغة القبط على أهل مصر وأتاح أمامهم السبيل إلى مزيد من الاحتكاك الحضاري بالعرب ، لغة ودينا^٥ ..

^١ ابن عبد الحكم : فتح مصر والمغرب 102

^٢ راجع انولد : السابق 93

^٣ المقرئزي : الخطط 2/261

^٤ السابق 128/1-129

^٥ راجع د. شكري فيصل : المجتمعات الإسلامية ص 160

وإذا كنا نسمع بين الحين والآخر عن انتفاض للقبط في مصر فإن ذلك لا يعنى أنهم كانوا يتعرضون لضغط أو قهر من أجل ترك دينهم والدخول في الإسلام^١ ، حيث يمكن إرجاع هذه الثورات إلى عوامل أخرى منها تجاوزات بعض الولاة ، أو خطأ بعض القيادات مما لا يدخل تحت باب الإكراه في الدين .. وليس أدل على ذلك مما كتبه المؤرخون المستشرقون أنفسهم حيث يقول أحدهم : " وليس هناك شاهد من الشواهد يدل على أن ارتدادهم (أي نصارى مصر) عن دينهم القديم ، ودخولهم في الإسلام على نطاق واسع كان راجعا إلى اضطهاد أو ضغط يقوم على عدم التسامح من جانب حكامهم الحديثين " ^٢ ؛ ويقول آخر : " وليس من العدل أن يقول قائل إن كل من أسلم منهم إنما كان يقصد الدنيا وزينتها ، فإنه مما لا شك فيه أن كثيرا منهم أسلم لما كان يطمع فيه من مساواة بالمسلمين الفاتحين حتى يكون له ما لهم ، وينجو من دفع الجزية ، ولكن هذه المطامع ما كانت لتدفع إلا من كانت عقائدهم غير راسية " ^٣ ..

نشر الإسلام في إفريقية والمغرب :

استغرقت مسيرة الفتح الإسلامي لإفريقية والمغرب حوالي أربعين سنة ، شهدت فيها هذه البلاد عدیدا من الجيوش والقادة ، وانتصر الإسلام فيها انتصارات هائلة ، كما لاقى هزائم مروعة ، وظل بين مد وجزر حتى سلس له قيادها ، وتبدأ مسيرة الإسلام هناك مع عقبة بن نافع الفهري ، الذي تميز جهاده بالحس الحضاري والحماس الديني ، فقد أراد أن يضع حدا لحركات المد والجزر المتتابعة في حركة الفتح هناك ، ففكر في بناء القيروان وشرح دوافعه. لذلك فقال : " إن إفريقية إذا دخلها إمام أجابوه بالإسلام ، فإذا خرج منها رجع من كان أجاب منهم لدين الله إلى الكفر ، فأرى لكم يا معشر المسلمين أن تتخذوا بها مدينة تكون عزا للإسلام إلى آخر الدهر " ^٤ ، وفي أثناء بناء هذه المدينة الذي استغرق نحو أربع سنوات (50-54هـ) كان عقبة يغزو ويرسل السرايا ، فدخل كثير من البربر في الإسلام ، واتسعت خطة المسلمين^٥ ، ومن الجدير بالملاحظة هنا أن عقبة بن نافع كان حريصا على دعوة من يجارهم إلى الإسلام أولا^٦ ..

^١ راجع المقرئزي : الخطط 261/1 ، سيدة كاشف : مصر في فجر الإسلام 198

^٢ ارتوند : الدعوة إلى الإسلام 92

^٣ بتر : فتح العرب لمصر 325 وانظر ص 327

^٤ ابن عذارى : البيان المغرب 13/1

^٥ ابن الأثير : الكامل 230/3

^٦ ابن عذارى : السابق 38/1

ثم ولي إفريقية بعده أبو المهاجر دينار الذي استطاع بسياسته أن يكسب ولاء زعيم البربر كسيلة بن لزم الذي دخل في الإسلام ، ولابد أنه تبعه في ذلك كثير من قومه ^١ ، ويقال إن عقبة لما تولى بعد أبي المهاجر أساء معاملة كسيلة هذا حتى كفر وخرج عليه ، ولكنه واصل سياسته في الفتح السريع وبذر المساجد في طريقه حتى ساحل الأطلسي ، حيث ذكروا أنه بنى مسجدا بدرعة ، وآخر بالسوس الأقصى ، وثالثا بوادي نفيس ^٢ ، وفي أثناء حركته السريعة كان عقبة يترك في البربر بعض أصحابه يعلمونهم القرآن والإسلام ، وقد قيل إن أكثر قبيلة المصامدة أسلموا طوعا على يديه ^٣ ، وأسلمت مغراوة ، وكانت زبانة خالصة للمسلمين منذ إسلام مغراوة ^٤ ، مما يكون لدينا صورة واضحة بعض الوضوح عن نشوء جماعات بربرية إسلامية أو تميل إلى المسلمين على الأقل في ذلك الحين ، وإن هذه الجماعات لم تكن قليلة ، وإنما كانت كثيرة نوعا ، فيها بعض زناتة وبعض نفوسة وبعض مصمودة ^٥ ..

ولما جاء زهير بن قيس البلوي ليثأر لعقبة الشهيد كان جيشه يضم ألفين من البربر بجانب أربعة آلاف من المسلمين ^٦ ، ولما جاء بعده حسان بن النعمان ليواصل الفتح كان على مقدمة جيشه محمد بن بكر وهلال بن ثروان اللواتي ^٧ ، مما يدل على أن كثيرا من البربر قد دخل الإسلام ، وتمكن في نفوسهم ، حتى صار منهم بعض قواد الفتح الذين يفتحون بلادهم للإسلام .. وقد قام حسان بن النعمان بمخطوتين جريئتين مكنتا للإسلام في هذه البلاد ، رغم ما لاقاه في حروبه هناك من عنف ومشقة ، أولاها بناء مدينة تونس التي قامت في المغرب بمثل الدور الذي قامت به القيروان في إفريقية فقد أصبحت ركيزة للمسلمين هناك ، ودار قرار لهم ، ومنطلق معايشة واختلاط بسكان البلاد ، والخطوة الثانية هي احتياله في إشراك البربر بأعداد كبيرة في الجيش الإسلامي ، فبعد هزيمة البربر بقيادة الكاهنة زعيمتهم سنة ٨٢ هـ اشترط عليهم في عقد الصلح أن يقدموا له اثني عشر ألف محارب من قبائلهم يجاهدون مع العرب ، فكون منهم جيشين قوام كل منهما ستة آلاف فارس ، وعقد لولدي الكاهنة على هذين الجيشين ، وإذا كان هؤلاء البربر أجابوه وأسلموا على يديه كما يقول ابن عذارى ^٨ ، أو دخل بعضهم وتربيت آخرون ، فإن مآلهم الطبيعي كان إلى الإسلام ،

^١ المالكي : رياض النفوس 25 ، د. شكري فيصل : المجتمعات الإسلامية 77

^٢ ابن عذارى : البيان المغرب 37/1 .

^٣ السابق والصفحة

^٤ السلاوي : الاستقصا 3/1

^٥ د. مؤنس : فتح العرب للمغرب 200

^٦ المالكي : رياض النفوس ص 9

^٧ ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب ص 200

^٨ البيان المغرب 38/1

ومضى موسى بن نصير على ذات الطريق ، وقد تميزت فتوحاته بكثرة السبي إلى درجة هائلة حتى قيل : " لم يسمع في الإسلام بمثل سبايا موسى بن نصير " ^١ ، ولا ريب أن هذه الآلاف الكثيرة من الأسرى ومن السبايا كانت تعيش وسط مجتمع إسلامي تتأثر به وتتجاوب معه ، وأن كثيرا منهم كانوا يندمجون في الجيش الإسلامي ويدخلون في الإسلام ، حتى إذا جهز ابن نصير جيشه لفتح طنجة كان معه أحد رجال البربر وهو طارق بن زياد ، الذي ولاه موسى هذه المدينة وتركه عنده تسعة عشر ألفا من البربر بالأسلحة والعدة الكاملة ، كانوا قد أسلموا وحسن إسلامهم ، وترك موسى بن نصير عنده خلقا يسيرا من العرب ليعلموا البربر القرآن وفرائض الإسلام ^٢ ، وسوف يشترك هؤلاء البربر فيما بعد في فتح الأندلس ، وسيكون قاتلهم واحد منهم هو طارق بن زياد أيضا ليقود جيشا قوامه اثنا عشر ألف رجل جلهم من البربر ، يشتركون في صنع مجد جديد للإسلام في بلاد لم يطأها من قبل ...

ولما تولى عمر بن عبد العزيز الخلافة استعمل على المغرب إسماعيل بن عبد الله بن أبي المهاجر مولى بني غزوم ، " فكان خير أمير وخير وال ؛ وما زال حريصا على دعاء البربر إلى الإسلام حتى أسلم البربر الإفريقية على يديه في دولة عمر ، وهو الذي علم أهل إفريقية الحلال والحرام ، وبعث معه عمر عليه السلام عشرة من التابعين ، أهل علم وفضل ليعلموا الناس ^٣ ..

وإذا كان انتشار العربية قد تأخر في قطر كمصر ، لأن أهله كانت لهم لغتهم الواحدة التي يتكلمون بها جميعا ، ويكتبها بعضهم ، فإن أهل المغرب كانوا في حاجة إلى لغة يفاهمون بها كلهم ، وطريقة يكتبون بها ما يريدون كتابته ، ولما كانت العربية هي لغة الإسلام والقرآن ، فقد بدعوا يقبلون عليها ويتعلمونها ، ويبدو أن إقبالهم كان عظيما واسع المدى ، لأن كثيرين منهم لم يلبثوا أن انجسها إلى المشرق للاستزادة من العلم والتثبت من اللغة ، فلم تلبث العربية أن انتشرت فيهم ، ولم يلبث أن ظهر فيهم — خلال القرن الثاني — فئات تكتب العربية وتؤلف بها ، وقد أعان على ذلك دعاء العرب الذين مر ذكرهم ، والكتاتيب التي أنشأها المسلمون ، بل لم تلبث القسريون أن أصبحت مركزا من مراكز العلم والثقافة في العالم الإسلامي ^٤ ...

^١ المقرئ : نفع الطيب 239/1

^٢ السابق 239/1

^٣ ابن عذارى : البيان المغرب 48/1 ، المقرئ : السابق 287/1

^٤ راجع د. حسين مؤنس : فتح العرب للمغرب 298/1

الفصل الثالث

نظام الحكم الأموي بين الشورى وولاية العهد

مقدمة :

إن معظم الشبهات التي يثيرها المؤرخون حول النظام السياسي الأموي ومكانة الشورى فيه وعنف الأمويين بالمعارضة إنما يأتي من ظهور فارقين كبيرين بين عصر الراشدين وعصر الأمويين في الممارسة السياسية هما : ظهور مبدأ توريث الحكم في الخلافة الأموية ، مما يعنى مصادرة حق الأمة في اختيار خليفة المسلمين ، وثانيهما : عنف الأمويين في مواجهة حركات المعارضة الثورية التي استهدفت القضاء على الخلافة الأموية ، وبخاصة لما واكب ذلك العنف تلك الصدمة لمشاعر المسلمين وعواطفهم حين قتل الحسين وابن الزبير ، وهوجت مدينة النهي [١]، وضربت الكعبة بأجنانيق .

غير أن النظرة الشاملة لأسلوب الحكم الأموي يجب ألا تتوقف عند ملاحظة هذه الفوارق بين نظام الحكم الراشدي والأموي ، مبتورة عن ظروف التطور الاجتماعي الذي أصاب الأمة الإسلامية آنذاك ، وعن الدراسة الشاملة لهذه الثورات المعارضة للأمويين ؛ مع ملاحظة الحقيقة الماثلة في حدوث تحريف كبير للتاريخ الأموي ..

إن رصد فكرة الشورى والحرص على حقوق الأمة في فكر وممارسة خلفاء الأمويين وولاةهم ، ودراسة دور جماهير الأمة في رسم خريطة الأحداث ، وتفاعل الحكم مع هذه الجماهير قريباً منها أو انفصلاً عنها ، مع توسيع نطاق الرؤية المحدودة لتشمل كل فعاليات المجتمع السياسية بـدّل قصرها على حركات التمرد والثورة ، وإهمال شرائح المعارضة السلمية وموقف الحكام منها ؛ مع وجوب الحذر من انسحاب حكم تاريخي لفترة محدودة من عمر الدولة على تاريخها كله .. إن كسل ذلك ينبغي أن يدخل في تقسيم النظام السياسي في الدولة الأموية .. وذلك هو ما سنحاوله في هذا الفصل ..

المبحث الأول : مكانة الشورى عند الأمويين

أولاً : الشورى عند خلفاء الأمويين :

تحتل الشورى مكانة مهمة في فكر الخلفاء والولاة الأمويين على خلاف ما يشيع في كثير من الكتابات التاريخية ، ويأتي ذلك امتداداً للرؤية الإسلامية التي تجعل الشورى ركيزة أساسية في نظام الحكم .. ويعتد هذا الإحساس بضرورة اعتماد الشورى كأساس من أسس النظام الأموي من لدن معاوية بن أبي سفيان حتى يشمل جل خلفاء هذه الدولة وولاتها ..

١ - مكانة الشورى عند معاوية :

ففي نصائح معاوية لابنه وولي عهده يزيد ، ولعماله على الولايات عند تعيينهم وحين عزلهم ، نجد الاهتمام برعاية رغبة الأمة واحترام إرادة أهل الحل والعقد فيها .. فهو ينصح ولده يزيد عند موته فيقول : " .. فإذا أردت أمراً فادع السنين (أي ذوي الأسنان) وأهل التجربة من أهل الخير والمشايخ وأهل التقوى ، فشاورهم ولا تخالفهم ، وإياك والاستعداد برأيك ، فإن الرأي ليس في صدر واحد " ^١ ..

ولا تقتصر المشاورة على هذه الصفوة من أهل التجربة والتقوى ؛ بل إنها تستلهم رأى جماهير الناس وتعتمد على الاختلاط بهم ، كي لا يقع الحاكم تحت سيطرة طبقة مهما ارتفع شأنها في التقوى ، ورصيدها في التجربة ، ولذلك فإن معاوية ينصح عبيد الله بن زياد لما ولاه خراسان فيقول : " وافتح بابك للناس ، تكن في العلم بهم أنت وهم على سواء " ^٢ .

حتى إذا استكمل جوانب الشورى وأحاط بمختلف الآراء في المسألة واستقر رأيه على أمر بعينه أمضاه ، ولا يحفل بعد ذلك بمعارضة — ستظل موجودة على أية حال — فيقول معاوية بعهد نصيحته السابقة لابن زياد : " وإذا عزم على أمر فأخرجه إلى الناس ، ولا يكن لأحد فيه مطمع ، ولا يرجع عليك وأنت تستطيع " ^٣ ...

فإن في ذلك حفظاً لهية الحاكم واستقراراً لوسيلة الحكم ووقاية عن مغبة التردد وفق الأهواء المتضاربة ..

ورغبة سكان الأمصار المختلفة يجب أن تراعى في اختيار عاملهم فإن كرهوه وجب عزله ؛ وإن تمادوا في استغلال ذلك الحق ، فإن عزل عامل أهون ضرراً من تحويل هذه المعارضة السلمية إلى

^١ ابن طولون : قيد الشريد من أخبار يزيد ص 35

^٢ الطبري : السابق 296/5

^٣ السابق والصفحة

عمل مسلح يؤدي إلى عنف مضاد تراق فيه دماء المسلمين ، وذلك ما يقرره معاوية في وصيته لابنه يزيد حيث يقول : " وانظر إلى أهل العراق ؛ فإن سألك عزل عامل لهم في كل يوم فاعزله عنهم ، فإن عزل عامل أهون عليك من سل مائة ألف سيف ، ثم لا تدري على ما أنت عليه منهم " ^١ ، وليس ذلك خاصا بالعراق فحسب كمركز معارضة تقليدي للمؤمنين ؛ فإن النظر في مصالح بقية الأمصار وترتيب ما يناسبها من وسائل الحكم بغير عسف كان أمرا مقروا ^٢ ..

والضمان الحقيقي لرعاية مصالح الأمة ، وحفظ حقوق الدولة هو تقوى الله تعالى مع التمسك بحسن السياسة ونجاح الإدارة وإعطاء كل ذي حق حقه ، وإعطاء القدوة الصالحة في كل موطن للعطاء ؛ كما يبدو لنا من وصية معاوية لابن زياد لما ولاه العراق ^٣ ..

وإذا كان الاحتجاج بمثل وصايا معاوية لولي عهده وعماله قد يجد إنكارا ممن يخشى إمكان وضع الرواة لهذه الوصايا أو بعضها ، فإن ممارسة معاوية هذه الجوانب من الشورى ممارسة حقيقية يظل أساس تقييمنا لمكانة الشورى عنده ، فقد اشتهر معاوية بحلمة وأناة إزاء جرأة معارضيه عليه ، مما مكن له أن يجمع شمل الأمة كلها بعد طول لفرقة وقتال ؛ كما اشتهر عنه تقريب ذوي الرأي والمشورة من المسلمين ومشاورتهم في أكثر من موضع ؛ ولم يعرف عنه تعجل في إنفاذ قراراته قبل التفكير والمشاورة ، وكان هو نفسه يعتز بذلك ويرى أنه أمرؤ "بورك له في النؤدة " ^٤ ، ولقد اعتاد استقدام الوفود من أهل الأمصار لمشاورتهم ؛ واستقصاء أخبار بلادهم ، ومعرفة رأيهم في عمالهم ، فإذا وجد شكاية لهم من أحد عمالهم أو كراهية له عزله عنهم ؛ من ذلك عزله عبد الله بن عامر عن البصرة سنة ٤٤ هـ ^٥ ، وعزله عبد الله بن عمرو بن غيلان عنها أيضا سنة ٥٥ هـ نزولا على رغبة بعض أهلها ، ثم سألهم معاوية أن يختاروا من يحبون أن يولي عليهم فقالوا : " يتخير لنا أمير المؤمنين " ، وكان يعلم رأي أهل البصرة في ابن عامر إذ كانوا يحبونه للينه وورقته ، فقال : هل لكم في ابن عامر ؟ فهو من قد عرفتم في شرفه وعفافه وطهارته ، قالوا : أمير المؤمنين أعلم ، فجعل يردد ذلك عليهم ليختبرهم ، فلما وجدهم لا يزيدون على ذلك القول قال لهم : قد وليت عليكم ابن أخي عبيد الله بن زياد ^٦ ..

^١ الجاحظ : البيان والتبيين 108/2

^٢ السابق ، انظر نص الوصية كاملة 108/2 — 109

^٣ راجع : الطبري : السابق 296/5 — 297 ، ابن الأثر الكامل 252/3

^٤ الطبري : السابق 99/5

^٥ رغم أن من شكاه كان من أهل الكوفة لا البصرة وهو ابن الكواء الشكري في حضرة وقد أهل البصرة ، ولكن لما تأكد لمعاوية ضعف ابن عامر عن مواجهة مشاكل مصر الكبيرة عزله ، راجع الطبري : السابق 213/5

^٦ الطبري : السابق 299/5 — 300

وفي سنة 59 هـ قدم والي البصرة ابن زياد في وفد منهم إلى معاوية ؛ فقال له معاوية : ائذن لوفدك على منازلهم وشرفهم ، فأذن لهم ، ودخل الأحنف بن قيس — سيد بني ثميم — في آخرهم ، وكان سبي المرأة عند عبيد الله ، فلما نظر إليه معاوية رحب به ، وأجلسه معه على سريره ثم تكلم القوم فأحسنوا الشاء على عبيد الله ، والأحنف ساكت ، فقال : مالك يا أبا بحر لا تتكلم ؟ قلل إن تكلمت خالفت القوم ، فقال معاوية : انهضوا فقد عزلته عنكم ، واطلبوا واليا ترضونه ، فلم يسق في القوم أحد إلا أتى رجلا من بني أمية أو من أشراف أهل الشام كلهم يطلب ، وقعد الأحنف في منزله فلم يأت أحدا ؛ فلبثوا أياما ثم بعث إليهم معاوية فجتمعهم ، فلما دخلوا عليه قال : من اخترتم ؟ فاختلفت كلمتهم ؛ وسمى كل فريق منهم رجلا ، والأحنف ساكت فقال له معاوية مالك يا أبا بحر لا تتكلم ؟ قال : إن وليت علينا أحدا من أهل بيتك لم نعدل بعبد الله أحدا ، وإن وليت من غيرهم فانظر في ذلك ، قال معاوية : فإني قد أعدته عليكم ، ثم أوصاه بالأحنف ؛ وقبح رأيه في مبادئه ..

وإذا كانت هذه الأمثلة كلها من البصرة فإن هناك أمثلة أخرى من الكوفة ومصر ، منها هذا المثال الرائع في ممارسة المجتمع الإسلامي أقصى درجات الحرية السياسية والذي رواه الطبري : ففي سنة 38 هـ ولي معاوية الكوفة عبد الرحمن بن أم الحكم^٢ خلفا للضحاح بن قيس القهري . إلا أن عبد الرحمن هذا قد أساء السيرة في أهل الكوفة — فيما يروي الرواة — وإن كانوا لا يذكرود شيئا عن كيفية هذه الإساءة ، فطرده أهل الكوفة ، فلحق بمعاوية — وهو خاله — الذي يبدو أنه لم يقتنع بأسباب طرد الكوفيين له ، وعلم أن في أهل العراق قمرًا لا يقاس عليه ، فقال له : أوليك خيرًا منها ؛ مصر ، فولاه ، فلما توجه إليها بلغ معاوية بن حديج السكوني — أحد زعماء أهل مصر — خبره ، فخرج لاستقباله على مرحلتين من مصر ، فقال له : ارجع إلى خالك ، فلعمري لا تسير فينا سيرتك في إخواننا من أهل الكوفة ، فارجع إلى معاوية ، وأقبل — فيما بعد — معاوية بن حديج وافدا على معاوية ؛ وكان ذا مكانة عالية عند معاوية وأهل الشام لدوره المرموق في نصرة عثمان بن عفان والطلب بدمه في مصر ، فكان إذا جاء الشام قلست له الطريق — أي ضربت له قباب الريحان — فدخل على معاوية وعنده أم الحكم أخته ، وهي أم عبد الرحمن العامل المطرود — وهي يومئذ امرأة كبيرة السن ، فقالت : من هذا يا أمير المؤمنين ؟ قال : يخ ، هذا معاوية بن حديج ، قالت : لا مرحبا به ، تسمع بالمعيدي خير من أن تراه^٣ ، فقال ابن حديج ، على رسلك يا أم الحكم ، أما والله لقد تزوجت فما أكرمت ، وولدت فما ألحجت ؛ أردت أن يلي ابنك الفاسق علينا فينسأ

^١ السابق 316/5-317

^٢ وهو ابن أخت معاوية — أم الحكم — أما أبوه فهو عبد الله بن عبد الله بن عثمان بن ربيعة الثقفي (الطبري 309/5)

^٣ مثل معناه : أنك قد تسمع بإنسان فصعب به ؛ فإذا رأيته صدمتك حقيقته (الميداني : الأمثال ١٣٦/١-١٣٨)

كما سار في إخواننا من أهل الكوفة ، وما كان الله ليريه ذلك ، ولو فعل ذلك لضربناه ضرباً يطلطي منه ، وإن كره ذلك الجالس ، يعني معاوية ، الذي التفت إلى أخته ، فقال : كفي^١ .. والأمثلة على ذلك عديدة^٢

وقد تركت هذه الممارسة الحرة للشورى ظلها على فترة حكم معاوية التي نعمت بـامن وسلام وعافية شملت العالم الإسلامي في إجماله ؛ وفي ضوء هذه الممارسة الشورية لمعاوية ينبغي أن نفهم دوافعه إلى توريث الخلافة لابنه يزيد ، الذي لم تتركه فعاليات المجتمع الإسلامي الحية بهذا بفترة حكمه القصير ، بل اجتمعت ضده في ممارسات تتسم بالعنف والانفعالات ؛ استجلبت مثلها من الخليفة الشاب ، وتركت آثارها على الصورة العامة للحكم الأموي ، وهذا ما سوف نعرض له في الفصل القادم ...

وعلى أية حال فإن الرجل الذي خلف يزيد بن معاوية — وهو ابنه معاوية الثاني — قصد بادر إلى خلع نفسه ، وإعادة حق اختيار الخليفة إلى الأمة كلها ، فكانت فتنة لم ترقأ فيها الدماء حتى أعاد عبد الملك بن مروان توحيد الأمة بعد قتل ابن الزبير سنة ٦٧٣هـ ..

٢- الشورى عند مروان بن الحكم :

ولا يصح أن نمضي في الحديث دون وقفة مناسبة لذكر مروان بن الحكم الذي نادى فريق من أهل الشام بالبيعة له ، وتمكن من توحيد الشام تحت سلطته سنة ٦٤هـ ؛ واستعادة مصر إلى حكم الأمويين سنة ٦٥هـ ضمن جهوده لإعادة توحيد الأمة تحت راية الخلافة الأموية ..

فقد عرفت عن مروان ممارسته للشورى إبان ولايته لمعاوية على المدينة ، إذ كان يجمع أصحاب رسول الله ﷺ يستشيروهم ويعمل بما يجمعون عليه^٣ ، وفي وصيته لابنه عبد العزيز لمسا ولاه مصر سنة ٦٥هـ ؛ يأمره بعد تقوى الله في سره وعلايته بقوله : " وأوصيك ألا تعد الناس موعداً إلا أنفذته ؛ وإن حُملت على الأسنة ، وأوصيك ألا تعجل في شيء من الحكم حتى تستشير ، فإن الله عزل وجل لو أغنى أحداً عن ذلك لأغنى نبيه محمداً^٤ عن ذلك بالوحي الذي يأتيه ؛ فقال الله عزل وجل : (وشاروهم في الأمر)^٥ ، ولم يكتف مروان بهذه الوصية التي تدل على فهم أصيل لضرورة الشورى في الإسلام ؛ بل إنه اتخذ لذلك خطوة عملية ، فجعل موسى بن نصير — أحد أمراء الجند الشامي الذي تركه في مصر وزيراً — مشيراً على ولده عبد العزيز^٦ .

^١ الطبري : السابق 312/5

^٢ راجع مثلاً : الكندي : ولاية مصر وقضاها ص 35

^٣ ابن سعد : الطبقات الكبرى 43/5

^٤ الكندي : السابق 43 والآية من سورة آل عمران (59)

^٥ الكندي : السابق والصفحة

٣- مكانة الشورى عند عبد الملك بن مروان :

وينسب الرواة إلى عبد الملك بن مروان أقوالاً وخطباً ظاهرها معنى التجبر على الرعية ومصادرة حقها في النقد والتعبير ، ورغم أنه من الواضح أن هذه الخطب — إن صحت نسبتها إليه — إنما تدرك مراميها في ضوء ظروف إلقائها ، وأحوال قائلها ومتلقيها ، وقد لا تعبر بالضرورة عن قناعة فكرية أصيلة عند صاحبها ، رغم ذلك فإن بعض الكتاب قد اعتبرها المنهج السياسي لحكم عبد الملك بن مروان فقال عنه أحدهم إنه " أول خليفة من بني أمية منع الناس من الكلام عند الخلفاء وتقدم فيه وتوعد عليه " ^١ ، دون أن يوضح أي كلام هذا الذي منع عبد الملك الناس منه ؛ وكسب التاريخ تحوي الكثير من الحوار بينه وبين رعيته ، ولكن ربما قلت جرأة الرعية على الخليفة ، وخفت حدة مواجهتهم الكلامية له ، كما كنا نرى عند معاوية ، وقد كانت الظروف السياسية التي جاء فيها عبد الملك إلى الخلافة بعد فترة طويلة ودماء غزيرة واختلاف وشقاق تتطلب أن يشتد الخليفة بعض الشيء في حديثه أول خلافته ، وأن يبدو منه أثر الحزم الذي جبل عليه ، وبخاصة مع هؤلاء الذين اعتادوا الثورة والتمرد طوال سنوات الفتنة (٦٤ — ٧٣ هـ) .

غير أن هذه الروايات المنسوبة إلى عبد الملك لا تخلو من مطاعن بارزة ، في سندها ومتنها . ففي إحدى هذه الروايات يزعمون أن عبد الملك قال في خطبته لأهل المدينة سنه ٧٣ هـ — في أول زيارة لها بعد قتل ابن الزبير : " أما بعد فلست بالخليفة المستضعف — يعني عثمان بن عفان — ولا بالخليفة المداخن — يعني معاوية — ولا بالخليفة المأفون — يعني يزيد بن معاوية — ألا وإن من كان قبلي من الخلفاء كانوا يأكلون ويطعمون من هذه الأموال ، ألا وإني لا أداوي أدواء هذه الأمة إلا بالسيف حتى تستقيم لي قناتكم ، تكلفونا بأعمال المهاجرين ولا تعملون مثل أعمالهم ، فلن تزدادوا إلا عقوبة حتى يحكم السيف بيننا وبينكم والله لا يأمرني أحد بتقوى الله بعد مقامي هذا إلا ضربت عنقه " ^٢ ..

وفي إسناد هذه الرواية أحد الكذابين ويدعى الكديمي ^٣ ، مما يؤكد وضعها ، فليس يعقل أن يقف عبد الملك أمام الناس ليسب خلفاء الأولين من بني عمومه ، عثمان ومعاوية ويزيد ، والذين بنى مجده على مجدهم ، وفي هذا من الخروج على تقاليد العروبة والإسلام ما فيه .. وإن وصايا عبد الملك لولائه لتؤكد إيمانه بأهمية الشورى وضرورتها ؛ كما تؤكد إشارته اللين والرفق بالرعية ؛ لا القسوة والضرب بالسيف لمن ذكره بالله كما تزعم الرواية السابقة .. فهو يوصي أخاه

^١ الجاحظ : البيان والتبيين 192/2

^٢ السيوطي : تاريخ الخلفاء 218-219 ، الجاحظ : البيان والتبيين 192/2 ، ابن الأثير : الكامل 41/4 ، النويري : نهاية

أرب 233/21 ، العسكري : الأوائل ص 250

^٣ السيوطي : السابق 218

عبد العزيز بن مروان عامله على مصر فيقول : " أبسط بشرك ، وألن كفك ، وآثر الرق في الأمور فإنه أبلغ بك ، وانظر حاجبك فليكن خير أهلك ، فإنه وجهك ولسانك ؛ ولا يقفن أحد بيبابك إلا أعلمك مكانه ؛ لتكون أنت الذي تأذن له أو ترده ، وإذا خرجت إلى مجلسك فابدأ بالسلام يأنسوا بك ، وتثبت في قلوبهم محبتك ، وإذا انتهى إليك مشكل فاستظهر عليه بالمشاورة ، فإنها تفتح مغاليق الأمور ، وإذا سخطت على أحد فأخر عقوبته ، فإنك على العقوبة بعد التوقف أقدر منك على ردها بعد إمضاءها ^١ ..

وصاحب هذه الرواية — ابن طباطبا — لا يتهم بمحاباة عبد الملك أو بني أمية ، فهو أحد مؤرخي الشيعة المتحاملين ..

ورؤية عبد الملك إلى ابنه محمد بن عبد الملك لما ولاه مصر تؤكد حسه الواعي بحقوق الرعية وواجبات الراعي ، فيعد أن يأمره بالعجلة في أداء الحقوق إلى أصحابها والالتزام الصدق في القول يقول له : " واستشر جلساءك وأهل العلم ، فإن لم يستن لك فاكذب إلي يأتك رأيي فيه إن شاء الله " ، ويقول : ثم انظر إلى أهل الحسب والدين والمروءة ، فيكونون أصحابك وجلساءك ، ثم ارفع منازلهم منك عن غيرهم ، على غير استرسال أو انقباض ، أقول قولي هذا واستخلف الله عليك ^٢ .. ومواقف عبد الملك في مشاورة أصحابه عديدة ، لعل أبرزها مشاورته لهم في حربه مصعب ابن الزبير حيث فضل الرأي القاتل بالخروج بنفسه إليه ^٣ ..

إن الذي صبغ خلافة عبد الملك — بعض الشيء — بمسحة القسوة والعنف كانت ولاية الحجاج على العراق وما واجهه هناك من ثورات متعددة كان يواجهها بمنتهى الصرامة ، حتى لانت له قناة ذلك البلد المتقلب الأهواء الدائم الثورة .. ولكن حتى مع الحجاج كان عبد الملك يفضض من سرفه في الدماء والأموال ^٤ ، وإساءته لبعض الرعية اللذين لا يبادرون إلى الشر ^٥ ، وقد ذكر الرواة أن عبد الملك قد عزل الحجاج عن ولاية الحجاز بسبب شكوى أحد أشرف الرعية وهو عيسى بن طلحة بن عبيد الله منه ؛ فعزله عن الحجاز وولاه العراق حيث كان يواجه مصاعب ما بعد سنوات الفتنة ؛ وخطر الخوارج الذين أوشكوا على الاستيلاء على البصرة من أهلها المتخاذلين ^٦ ، وقد استطاع الحجاج بالفعل مواجهه هذه المخاطر وإضعاف شأن الأزارقة تماماً واستئناف الفتوح

^١ ابن طباطبا العلوي : الفخري 126

^٢ محمد كرد علي : الإسلام والحضارة العربية 166/2

^٣ الأصفهاني : الأغاني 53/19 — 54 ، الطبري : السابق 156/6 — 157

^٤ المسعودي : مروح الذهب 141/3 ، ابن عبد ربه : العقد الفريد 45/5 — 46 وانظر رد الحجاج على ذلك النقد من عبد الملك (المسعودي السابق 142/3)

^٥ الجاحظ : البيان والبيان 295/1 — 196 ، ابن الأثير : الكامل 39/4 ، النويري : السابق 219/2 — 220

^٦ الطبري : السابق 615/5 ، 204/6 — 219، 211 وما بعدها

الإسلامية في الشرق بعد توقف وفشل ، ولكن لما تجمعت جميع قوى أعداء الأمويين خلف ابن الأشعث في ثورته على الحجاج عرض عبد الملك على قائد الثورة عزل الحجاج عنهم وإرضاءهم في مطالبهم ولكنهم أبوا إلا خلع الحجاج والخليفة وبني أمية جميعا ، فلم يكن بد أمام عبد الملك من الإبقاء على الحجاج حتى انتصر عليهم، وتمتعت البلاد فيما بعد باستقرار لم تشهده منذ زمن طويل^١.

٤- مكانة الشورى عند الوليد بن عبد الملك :

ولما تولى الوليد بن عبد الملك الخلافة يزعم الواقدي أنه خطب الناس فقال : " أيها الناس عليكم بالطاعة ولزوم الجماعة ، فإن الشيطان مع الفرد ، أيها الناس من أبدى لنا ذات نفسه ضربنا الذي فيه عيناه ، ومن سكنت مات بدائه ، ثم نزل فنظر إلى ما كان من دواب الخلافة فحازه ، وكلنا جبارا عنيدا " ^٢.

ولو كان الوليد يخطب بذلك في الكوفة أو غيرها من مواطن المعارضة الساخنة لجساز أن نصدق زعم الواقدي ، ولكن ما باله في الشام يهدد ويتوعد ؟ ومن يهدد والناس في الشام هم أهل طاعته الخالصاء ؟ .. والذي ثبت في التاريخ من سياسة الوليد واجتهاداته يدفع بشكل واضح اتهامه بأنه كان جبارا عنيدا ، فقد ورث الرجل دولة مستقرة هادئة بعد جهود عبد الملك والحجاج ، فوجه طاقاته إلى الفتح والعمران والتحضر ، وكان ذا حس إنساني راق ؛ كما مر بنا.

على أن الجاحظ يحفظ لنا خطبة أخرى جاءته من رواة شاميين ، حيث روى عن بكر بن عبد العزيز الدمشقي قال : سمعت الوليد بن عبد الملك على المنبر حين ولي الخلافة وهو يقول : " إذا حدثتكم فكذبكم فلا طاعة لي عليكم ، وإذا وعدتكم فأخلفتكم فلا طاعة لي عليكم ، وإذا أغرقتكم فجمرتكم فلا طاعة لي عليكم " ^٣ .. والجاحظ لا يتهم بمولاة بني أمية ، وقد تقدم بيان موقفه المتحامل عليهم ، والذي يصل أحيانا إلى حد تكفيرهم ..

وولي الوليد عمر بن عبد العزيز على المدينة سنة 87 هـ وأمره أن يوقف هشام بن إسماعيل والي المدينة السابق للناس ليقصوا منه ، وكان قد تحامل على بعض آل البيت ، فمنهم من اقتصص ومنهم من عفا^٤.

ولم يكن القصاص من بعض العمال لظلم أصابوه قاصرا على خلافة الوليد ، ففي خلافة سليمان بن عبد الملك عزل بعض عماله ، وأوقفهم للقصاص ، وضربوا بالسياط ، لتعديهم على بعض رعيتهم كما حدث مع خالد بن عبد الله القسري^١ وعثمان بن حيان المري^٢ ...

^١ د. عبد الأمير دكسن : الخلافة الأموية ص 260

^٢ الطبري : السابق 423/6 ، ابن الأثير : الكامل 105/4

^٣ البيان والتبيين 165/2

^٤ طبري : السابق 428/6 ، اليعقوبي : السابق 24/3 ، ابن الأثير : السابق 106/4

٥ - الشورى عند عمر بن عبد العزيز :

ولما تولى عمر بن عبد العزيز ، نجية بني أمية ، الخلافة صعد المنبر فقال : " أيها الناس إني قد ابتليت بهذا الأمر عن غير رأي كان مني فيه ، ولا طلبه له ، ولا مشورة من المسلمين ، وإني قد خلعت ما في أعناقكم من بيعتي ، فاختاروا لأنفسكم ، فصاح الناس صيحة واحدة : قد اخترناك يا أمير المؤمنين ورضينا بك " ^١ .. ثم خطبهم خطبته الأولى فأعلن منهجه في الحكم فقال : " ألا وإني لست بقاض وإنما أنا منفذ ، ولست بمبتدع ولكني متبع ، إلا أنه ليس لأحد أن يطاع في معصية الله عز وجل ، لست بخيركم وإنما أنا رجل منكم ؛ ألا وإني أثقلكم حملا " ، ثم قال : " ألا وإنكم تعدون الهارب من ظلم إمامه عاصيا ؛ ألا وإن أولاهما بالمعصية الإمام الظالم " ^٢ ..

وقد وصل عمر بذلك إلى أفق رحيب من التوازن الدقيق بين الراعي والرعية ، وإعطاء الأمة حقوقها كاملة ، حتى كفّل لها حق النقد والرفض والمواجهة للظلم ، أو الهرب منه إن لم يستطع المراءى مواجهته ، مع تعزيز معاني الرقابة على السلطة الحاكمة ، حيث قال لقائد حرسه عمو بن مهاجر الأنصاري : يا عمرو إن رأيتني قد ملت عن الحق فضع يدك في تلابي ثم هزني ، ثم قل لي ماذا تصنع ^٣ ..

ولما خلفه يزيد بن عبد الملك لم يكن كما تصوره الروايات لاهيا عابثا ، بل كان يقظا عارفا بحقوق رعيته ، وقد عزل عامله عن المدينة عبد الرحمن بن الضحاك بن قيس لما أساء معاملته فاطمة بنت الحسين بن علي وحاول إكراهها على الزواج منه ، فلما شكته إلى الخليفة عزله بعبد الواحد بن عبد الله النصري وكلف الوالي الجديد بتغريم الوالي المخلوع أربعين ألف دينار ، وتعليقه تعزيرا له ^٤ ، رغم ما كان عبد الرحمن بن الضحاك يتمتع به من كفاية ومحبة من رعيته ^٥ .

٦ - الشورى عند هشام بن عبد الملك :

واشتهر هشام بن عبد الملك بحسن السيرة والمقدرة السياسية ^٦ ، ولكن أقمه بعض المؤرخين بالاحتجاج عن الرعية وأن ذلك كان سببا في ثورة البربر الكبرى في إفريقية لما اشتكوا إليه

^١ المسعودي : مروج الذهب 189/3 ، يعقوبي : السابق 32/3 ، ابن عبد ربه : العقد الفريد 4284 — 429

^٢ يعقوبي : السابق 32/3

^٣ ابن الجوزي : سيرة عمر بن عبد العزيز 84 — 85

^٤ ابن عبد الحكم : سيرة عمر بن عبد العزيز 36 — 37

^٥ ابن الجوزي : عمر بن عبد العزيز ص ٢٢٥ ، وانظر السيوطي : تاريخ الخلفاء ص 240

^٦ الطبري : السابق 12/7 — 14

^٧ ابن عساكر : تاريخ دمشق 403/40

^٨ المسعودي : مروج الذهب 223/3

عاملهم فلم يعزله ؛ إذ لم تصله شكايتهم بسبب حجابهم^١ ، ذلك على حين تسجل لنا كتب التاريخ أمثلة عديدة على احترام هشام بن عبد الملك رغبات رعيته في أمصار أخرى ، والاهتمام بمعرفة رأيهم في ولايتهم ، فقد عزل عبد الرحمن بن خالد بن مسافر الفهمي عن مصر لما شكاه منه أهلها ، " وكانت شكواهم من لينته لا لسوء سيرته " ^٢ . وكان واليه على إفريقية بشر بن صفوان يولي ولاية الأندلس " بغير أمر الخليفة ؛ وإذا كره أهل الأندلس واليا كتبوا إليه فعزله عنهم ، وولاهم من يرضون " ^٣ ؛ ولما توفي بشر بن صفوان سنة ١٥٩ هـ ولي هشام على إفريقية عبيدة بن عبد الرحمن السلمي فأساء معاملته عمال بشر بن صفوان الذين شكوه إلى الخليفة فعزله^٤ ، بل إنه لبي رغبة بعض أهالي حمص وعزل عامله عليها — وهو ابنه — سعيد بن هشام ، وعززه بالضرب^٥ ..

ولما تولى بعد هشام الوليد بن يزيد بن عبد الملك وأثرت حول حياته الشبهات ، وثب عليه بعض بني أمية ومن معهم من أهل الشام فقتلوه ممارسين بذلك أقصى درجات الحرية السياسية في التولية والعزل ، وتولى مكانه يزيد بن الوليد الذي وقف يخطب في رعيته ويحدثهم عن منهج العدل الذي ينوي السير به ، ثم قال : " فإن وفيت لكم بما قلت فعليكم السمع والطاعة وحسن المؤازرة ، وإن أنا لم أف فلکم أن تخلعوني إلا أن تستيبوني ، فإن تبت قبلتم مني ، فإن علمتم أحدا ممن يعرف بالصالح يعطيكم من نفسه مثل ما أعطيتكم ؛ فأردتم أن تبايعوه ؛ فأنا أول من يبايعه ويدخل في طاعته ، أيها الناس إنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق ، ولا وفاء له بنقض عهد ، إنما الطاعة طاعة الله ، فاطيعوه بطاعة الله ما أطاع ، فإن عصي الله ، ودعا إلى المعصية فهو أهل أن يعصى ويقتل^٦ .

ثانياً: الشورى عند ولاه الأمويين :

حفظت لنا كتب التاريخ أمثلة مضيئة لتمسك كثير من ولاه الأمويين بالشورى واحترام إرادة الأمة ، وإدراك حقوقها السياسية

^١ الطبري : السابق 254/4—255

^٢ ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة 280/1—281

^٣ أخبار مجموعة في فتح الأندلس 25

^٤ ابن عذاري : البيان المغرب 50/1—51

^٥ ابن عبد ربه : العقد الفريد 448/4 ، وقد زاد راوي الخبر الشعبي الكذاب الهيثم بن عدي فيه ، فزعم أن سعيد ابن هشام كان يرمي بالنساء والشراب ، وأن أباه لما عزله ضربه وقال له . أعجزت أن تفجر فجور قريش... قتل هذا! وأخذ مال هذا .

^٦ الطبري : السابق 269/7 ، الجاحظ : البيان والتبيين 115/2 ، 116 ، ابن الأثير : الكامس 269/4

من ذلك أنه لما مات يزيد بن معاوية وبلغ الخبر عبيد الله بن زياد والي العراق قام في أهل البصرة فخطبهم وقال : " .. وإن أمير المؤمنين يزيد بن معاوية قد توفي ، وقد اختلف أهل الشام ، وأنتم اليوم أكثر الناس عدداً ، وأعرضه فناء ، وأغناه عن الناس ، وأوسع بلاداً ، فاختاروا لأنفسكم رجلاً ترتضونه لدينكم وجماعتكم فأنا أول راض من رضىتموه وتابع ، فإن اجتمع أهل الشام على رجل ترتضونه دخلتم فيما دخل فيه المسلمون ، وإن كرهتم ذلك كنتم على جديلتكم حتى تعطوا حاجتكم ، فما بكم إلى أحد من أهل البلدان حاجة ، وما يستغني الناس عنكم " ، فقام خطباء أهل البصرة يقولون : قد سمعنا مقاتلتك أيها الأمير ، وإنا والله ما نعلم أحداً أقوى عليها منك ، فهلم فلنبايعك ، فقال : لا حاجة لي في ذلك ، فاختاروا لأنفسكم ، فأبوا عليه ، وأبى عليهم ، حتى كوروا ذلك عليه ثلاث مرات ، فلما أبوا بسط يده فبايعوه ، ثم انصرفوا بعد البيعة وهم يقولون : " لا يظن ابن مرجانه أنا نستقاد له في الجماعة والفرقة ، كذب والله " ، ثم وثبوا عليه فخرج إلى الشام بعد خطوب^١ ..

ولما ولي عمر بن عبد العزيز إمارة المدينة للوليد بن عبد الملك سنة ٨٧ هـ دعا عشرة من فقهاء أهل المدينة وأعلامها البارزين مثل عروة بن الزبير وسليمان بن يسار والقاسم بن محمد بن أبي بكر وسالم بن عبد الله بن عمر ، ... فقال لهم " إني إنما دعوتكم لأمر تؤجرون عليه وتكونون فيه أعواناً على الحق ، ما أريد أن أقطع أمراً إلا برأيكم ، أو برأي من حضر منكم ، فإن رأيتم أحداً يتعدى ، أو بلغكم عن عامل لي ظلامة ، فأخرج الله على من بلغه ذلك إلا بلغني " ^٢ ..

ولما تولى موسى بن نصير إمارة إفريقية خطب الناس فقال : " .. وإنما أنا رجل كأحدكم ، فمن رأى مني حسنة فليحمد الله ، وليحض على مثلها ، ومن رأى مني سيئة فليذكرها ، فإني أخطئ كما تخطئون ، وأصيب كما تصيبون ... ومن كانت له حاجة فليرفعها إلينا ، وله عندنا قضاؤها على ما عز وهان ، مع المواساة إن شاء الله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله " ^٣ .

وأدرك بعض ولادة الأمويين خطر سيطرة أصحاب النفوذ من حاشية السلطان وأقارب الوالي وتدخلهم في سياسة الأمور ، فإنه لما همّ الحجاج أن يستعمل عبد الرحمن بن عبيد السعدي على شرطته قال عبد الرحمن : أصلح الله الأمير قد قبلت ما وليتي ، فأكفني حاشيتك وأهلك وولدك في الشفاعات ، فقال الحجاج : قد كفيك ذلك ، يا غلام مر المنادى فليناد : ألا من طلب شفاعته من حاشية الأمير وأهله وولده فقد برئت منه الذمة " ^٤ ..

^١ الطبري : السابق 504/5-505

^٢ السابق 427/6-428

^٣ الإمامة والسياسة 61/2-62

^٤ ابن أئتم : الفتح 110/7-111

وقال عمر بن هبيرة عامل هشام بن عبد الملك على العراق يوصي مسلم بن سعيد لمدولاه خراسان : " ليكن حاجبك من صالح مواليك ، فإنه لسانك والمعبر عنك ، وحث صاحب شرطتك على الأمانة ، وعليك بعمال العذر، قال : وما عمال العذر ؟ قال : مر أهل كل بلد أن يختاروا لأنفسهم، فإن اختاروا رجلا فوله ، فإن كان خيرا كان خيرا لك ، وإن كان شرا كان لهم دونك، وكنت معذورا " ^١ ، وكان عمر بن هبيرة نفسه يستشير الحسن البصري والإمام الشعبي ويعرف لهما قدرهما ^٢ .

والأمثلة على ذلك كثيرة وفيما مضى بيان ..

ثالثا : الأمويون بين مظاهر الملك وحقيقة الشورى والاتصال بالرعية :

امتاز عصر الخلفاء الراشدين بالبساطة والزهد ، كان ذلك شأن الرعية والخلفاء معا ، فلمد جاء عصر الأمويين كانت مظاهر الترف والملك تأخذ طريقها شيئا فشيئا إلى حياة الخلفاء ، كما كانت مظاهر الترف والتنعيم قد أصبحت سمة لبعض أفراد المجتمع الإسلامي آنذاك ، كواحدة من معالم التطور الاجتماعي في ذلك العصر ...

ولكننا عند البحث سوف نرى أن روح الشورى والخلطة بالرعية كانت قوية عند الأمويين وعملهم رغم علامات الأبهة والملك التي التزموا بها .. كما سوف نرى أن اتخاذ هذه المظاهر الملكية كان له ما يبرره في هذه الحقبة من تاريخنا ..

وأول مظهر من هذه المظاهر هو احتجاب الخلفاء عن الناس ؛ وذلك ما يعبر عنه ابن خلدون على النحو التالي : " كان أول شيء بدئ به في الدولة شأن الباب وستره دون الجمهور، لما كانوا يخشون على أنفسهم من اغتيال الخوارج وغيرهم كما وقع بعمر وعلي ومعاوية وعمرو بن العاص وغيرهم ، مع ما في فتحه من ازدحام الناس عليهم وشغلهم بهم عن المهمات ، فاتخذوا من يقوم لهم بذلك وسموه الحاجب " ^٣ .

ومما يعزز آراء ابن خلدون عن وجود " العامل الأمني " وراء اتخاذ معاوية حاجبا ما رواه الطبري من أنه بعد نجاة معاوية من محاولة اغتياله التي دبرها الخوارج " أمر عند ذلك بالمقصورات وحرس الليل ، وقيام الشرطة على رأسه إذا سجد " ^٤ ، ولقد كان معاوية وبنو أمية يعيشون في السلم قريبا من أعدائهم الموتورين من الروم ، فضلا عن أعدائهم الموتورين من الشيعة والخوارج المتفرقين

^١ الطبري : السابق 34/7-35

^٢ أبو نعيم : حلية الأولياء 149/2-150

^٣ المقدمة 667/2-668

^٤ الطبري : السابق 149/5

في البلاد ، وكان لا بد لهم ولا استقرار الدولة الإسلامية التي قتل ثلاثة من حلفائها من اتخاذ ثمن من أنماط الحراسة والاحتراز ، وذلك لا يختلف مع منهج الإسلام الحقيقي الذي يبيح للحاكم اتخاذ من يجرسه من عدوه ؛ وقد كان رسول الله ﷺ يتخذ حرسا حتى نزل قوله تعالى : (والله يعصمك من الناس) فصرفه ^١ . ولم يستطع خلفاء بني أمية — حتى الزاهدين منهم المشهورين بذلك — المغامرة بالتخلص من الحراسة ، والاتحام المطلق بالجماهير ، فهذا عمر بن عبد العزيز يحتفظ بجرسه ، ولكنه يغير قيادته بما يناسب توجهه التقى الزاهد ، فجعل على قيادته رجلا مشهورا بذلك هو عمرو بن مهاجر الأنصاري فقد قال له : " يا عمرو والله لتعلمن أنه ما بيني وبينك من قرابة إلا قرابة الإسلام ، ولكني سمعتك تكثر تلاوة القرآن ، ورأيتك تصلي في موضع تظن ألا يراك فيه أحد ، فرأيتك تحسن الصلاة ، وأنت رجل من الأنصار ، خذ هذا السيف فقد وليتك حرسى " ^٢ ..

وإذا كان ذلك حال الشام فقد كان كذلك العراق بما فيه من فتن مستمرة لا تهدأ حتى تبعث ، فلما وليها زياد بن أبي سفيان وأراد توطيد سلطة الخلافة بما اتخذ حرسا له ، وتشدد في مظاهر القوة ، فكان أول من سير بين يديه بالخراب ، ومشى بين يديه بالعد ، واتخذ الحرس رابططة خمسمائة .. فكانوا لا يرحلون المسجد ^٣ ، وكان الخليفة في عصر الراشدين يجالس أصحابه على الأرض وكذلك كان معاوية يفعل صدرا من خلافته ، حتى بدن جسمه ، وثقل عليه النهوض أمام جلسائه كما كان يفعل ؛ فاستأذن الناس في اتخاذ كرسي له ؛ وقال لهم : " إني قد بدنت ، فأذنوا له ، فاتخذ ، واتبه الملوك الإسلاميين فيه ، وصار من منازع الأئمة " ^٤ ، وورث الخلفاء عنه هذه المظاهر وقد ترسخت ، فاستمسكوا بها وزادوا فيها ...

إن ما سبق لا يعني أن معاوية وبعض بني أمية لم يكن عندهم ذلك الاستعداد النفسي للأخذ من متاع الدنيا بما حل ولم يحرم ، فقد كان عمر بن الخطاب يتفرس في معاوية ذلك ، ويقول إذا رآه : " هذا كسرى العرب " ^٥ ، ولما رآه عمر يسير في موكب ويلبس ما لم يعتده البسطاء والزهاد من المسلمين كان ينكر ذلك عليه ، ولكنه كان يرضى ويصمت إذا احتج أمامه معاوية بضرورات السياسة ومقتضى الإمارة في بلاد الشام حيث العدو قريب وجواسيسه منتشرون ^٦ .. ومظاهر الزهد والبساطة أيضا :

^١ ابن كثير : تفسير ابن كثير ١٩٦/٣ ، والآية من سورة المائدة رقم ٦٧ .

^٢ السيوطي : تاريخ الخلفاء 240 ، وانظر ص 237

^٣ الطبري : السابق 224/5

^٤ ابن خلدون : المقدمة 700/2

^٥ ابن كثير : البداية والنهاية 125/8 ، القرطبي : أخبار الدول ص 129

^٦ ابن كثير : السابق 124—125 ، الطبري : السابق 331/5

وكان بعض الخلفاء وعمالهم يدرك أن ما يحوطه من مظاهر الملك التي تستجيب لها النفس قد يقلل من درجات إيمانه وسيء إلى نظرة الزاهدين من المسلمين إليه ، ولذلك فقد رويت عن بعضهم أخبار في الزهد ، كما عرف عنهم لون من البساطة يظهرون به أحيانا ؛ تربية للنفس وترضية للمسلمين ؛ فقد روى الإمام أحمد بسنده عن علي بن أبي حملة عن أبيه قال : " رأيت معاوية على المنبر بدمشق يخطب الناس وعليه ثوب مرقوع " ^١ ، وروى ابن كثير بسنده عن يونس بن ميسرة الحميري الزاهد من شيوخ الإمام الأوزاعي قال : " رأيت معاوية في سق دمشق ، وهو مردف وراءه وصيفا وعليه قميص مرقوع الجيب يسير في أسواق دمشق " ^٢ ، وذلك كان شأن زياد بن أبي سفيان ، فقد روى الطبري عن جرير بن يزيد قال : رأيت زيادا وعليه قميص مرقوع وهو على بغلة عليها لجامها قد أرسلها ^٣ .

مظاهر الملك لا تعني الانفصال عن الرعية :

إن اتخاذ الأمويين بعض مظاهر الملك لا يعني بحال انفصالهم عن الاتصال الحي بالجماهير ، والإحساس برغبات الأمة ، والاختلاط بالناس ، مما يحقق بلا شك مطالب الإسلام من نظامه السياسي الذي لا تنفصل فيه القيادة عن الأمة ولا الراعي عن الرعية .

فقد كان عمرو بن العاص يفضل الجلوس مع إخوانه كما يجلسون ويرفض اتخاذ كرسي يجلس عليه ^٤ ، كما أننا نجد بعض ولاة الأمويين يرفض اتخاذ حاجب لبابه ؛ مثلما فعل بشر بن مروان في ولايته على العراق ^٥ ، وكان خالد بن عبد الله القسري يقول لحاجبه : " لا تحجب عني أحدا إذا أخذت مجلسي ، فإن الوالي لا يحجب إلا عن ثلاث : عن ما يكره أن يطلع عليه منه ، أو ريبة ، أو بخل فيكره أن يدخل عليه من يسأله " ^٦ .

وكان معاوية يستقبل وفود الأنصار ويجالسهم ويستشيرهم ، بل يشاركونهم طعامهم ويأكل معهم من رديء الطعام ^٧ ، ويجالس وافدات النساء عليه ، ويحلم عليهن في جرائقهن وقسوقن ، وهن يهاجنه وينتقدنه ^٨ ، وكان يرفض أن يحتل الناس له قياما إذا خرج ويقول : سمعت رسول الله ﷺ

^١ أحمد بن حنبل : الزهد 172 ، الخطب : هامش العواصم من القواصم لابن العربي ص 217

^٢ البداية والنهاية 134/8 ، ابن عساكر : تاريخ دمشق 6/7

^٣ الطبري : السابق 290/5

^٤ ابن خلدون : المقدمة 700/2

^٥ محمد كرد علي : الإسلام والحضارة العربية 162/2—163

^٦ ابن قتيبة : عيون الأخبار 84/1 ، والأصفهاني الأغاني 276/2—277

^٧ ابن عساكر : تهذيب تاريخ دمشق 217/4—218

^٨ ابن عبد ربه : العقد الفريد نقل تحت عنوان : " الوافدات على معاوية " 1022—121 ، حتى قال أبو هلال العسكري عنه أن معاوية هو أول ملك عبث به رعيته ، واجترأ عليه أشد الاجراء (الأوائل ص 241)

يقول : من أحب أن يتمثل له الرجال قياماً فليتبوأ مقعده من النار " ^١ ، ورغم ذلك فهو يشفق أن يكون احتجابه أحياناً عن المسلمين ذنباً يحاسب عليه ، فلما سمع حديث النبي ﷺ : " من ولاه الله شيئاً من أمر المسلمين فاحتجب دون حاجتهم وخلتهم وفقرهم احتجب الله دون حاجته وخلته وفقره " ، جعل معاوية على حوائج الناس رجلاً يبلغه بها ، كي لا يغيب عنه شيء منها ^٢ ، وكان عامله على المدينة إذا أراد أن يرد بريداً إلى معاوية أمر مناديه فنادى : من له حاجة يكتب إلى أمير المؤمنين ^٣ ، وكذلك كان يفعل زياد بن أبي سفيان الذي كان يباشر شئون الرعية بنفسه ، ولا يكتفي في ذلك بمعاونيه ؛ وكان يجلس أحياناً في مجلس القضاء ليفتي بين الناس ، ويجواره القاضي يسدده إذا أخطأ ، وقلماً كان يحدث وتختلف وجهات نظرهما ^٤ ، بل كان يجلس أحياناً ليفصل في الخصومات بين الأزواج ^٥ ، حتى أنه كان يعرف أخبار رعيته معرفة عجيبة ، فيروى أن رجلاً كلمه في حاجة له ، فتعرف إليه وهو يظن أنه لا يعرفه ، فقال : أصلح الله الأمير أنا فلان بن فلان ، فتبسم زياد وقال : أتتعرف إلي وأنا أعرف منك بنفسك ؟ والله إني لأعرفك وأعرف أباك وأمك وجدك وجدتك ، وأعرف هذا البرد الذي عليك وهو لفلان ، فهت الرجل وأرعد ، حتى كاد يغشي عليه ، وعلى هذا المستوى من الخبرة بالرعية كان عبد الملك بن مروان والحجاج بن يوسف ^٦ ، وكان زياد يقول لأصحابه : ليس كل يصل إلي ؛ ولا كل من وصل إلي أمكنه الكلام ، فاستشفعوا لمن وراءكم ^٧ ..

وكان الوليد بن عبد الملك يجوب الأسواق يطمئن بنفسه على أحوال البائعين ^٨ ، بينما كان هشام يضع الرقباء والعيون من خيار الناس على ولاته وعماله ليتأكد من سيرهم بالعدل ، وقضائهم حوائج الخلق ^٩ ، ولا يكتفي بذلك بل يتعرض للناس بنفسه يسأل عن أحوالهم ويعرضهم على المطالبة بحقوقهم ^{١٠} ، وكان له موضع بالرصافة أليح من الأرض يبرز فيه ، فتضرب له به السرايا ، فيكون فيه ستين ليلة بارزاً للناس ، مباحاً للخلق ، لا يفني أيامه تلك إلا برد المظالم والأخذ على يد الظالم ، من جميع الناس وأطراف البلاد ، ويصل إلى مخاطبته في ذلك الموضع راعي

^١ ابن كثير : البداية والنهاية 126/8 ، والحديث رواه الترمذي : كتاب الأدب ، رقم ٧٥٥ .

^٢ ابن كثير : السابق 125/8—126

^٣ الطبري : السابق 335/5

^٤ ابن عبد ربه : العقد الفريد 10/5

^٥ الجاحظ : الخصال والأضداد 147، 153

^٦ البيهقي : الخصال من المساويء 144 / 1 ، اليعقوبي : السابق 170/2—171

^٧ اليعقوبي : السابق 171/2

^٨ الطبري : السابق 496/6 ، ابن الأثير الكامل 137/4

^٩ الإمامة والسياسة 129/2—130

^{١٠} السابق 129/2

السوام والأمة السوداء فمن دونهما ، وقد وكل رجالاً أدياء عقلاء يادنا الضعفاء والنساء واليتامى منه ^١ ، ويستقبل وفود الأمصار ، فيلي حاجاتهم ^٢ ويخرج مع مستشاريه يصنع معهم الطعام بنفسه ، فيأكل منه ، ويأكل معه الناس ^٣ ، وإن نشبت بينه وبين أحد من أشراف رعيته خصومة لم يجد سبيلاً لقضائها إلا أن يمثل بنفسه أمام القضاء مع خصمه ، ويلزم أهل بيته ذلك ، حتى لو كان خصم أحدهم نصرانياً ^٤ ، ولما استطال مرة على أحد رعيته لم يجد مفراً من إرضائه بكل سبيل ، فقد شتم هشام مرة رجلاً من الأشراف ، فوبخه ذلك الرجل وقال : أما تستحي أن تشتمني وأنت خليفة الله في الأرض ؟ فاستحي منه ، وقال : اقتص مني ، فقال : إذن أنا سفيه مثلك ، قال : فخذ مني عوضاً من المال ، قال : ما كنت لأفعل ، قال : فهبها لله ، قال : هي لله ، ثم لك ؛ فنكس هشام رأسه واستحي وقال : والله لا أعود إلى مثلها أبداً ..

إن ما مضى مجرد أمثلة — لا يخلو بعضها من المبالغة ، ولكن على كل حال يبقى كثير منها صالحاً للدلالة على قرب الأمويين من رعيته ، وإحساسهم بهم ، وخطتهم معهم ، رغم مظاهر الملك المستحدثة ...

وسن ولاة بنى أمية سنة جميلة ، يتقربون بها من عامة الناس ، ويعرفون أحوالهم عن قرب ، حيث جرت عادتهم على مد الموائد العامة ، يجمعون عليها الناس ، ويشرفون عليها بأنفسهم أحياناً ، وكان أول من فعل ذلك زياد في العراق بأمر من معاوية ^٥ ، ثم تبعه في ذلك الحجاج بن يوسف الذي قيل أنه كان ينصب ألف خوان يومياً في رمضان ، وخمسائة في سائر الشهور ^٦ ، وعبد العزيز ابن مروان الذي كانت تنصب حول داره ألف جفنة ، وكانت له مائة جفنة يطاف بها على القبائل في أنحاء مصر ^٧ ، وكذلك مد تلك الموائد جماعة منهم يزيد بن المهلب ^٨ وعمر بن هبيرة ^٩ ، ولم يفت بعض خلفاء الأمويين أن يفعل ذات الصنيع مع أهل الشام ^{١٠} .

^١ السابق 129/2

^٢ أبو علي القالي : الأمالي 147/1

^٣ الطبري : السابق 205/7 — 206

^٤ ابن عبد ربه : العقد الفريد 447/4 — 448 ، الطبري : السابق 202/7 ، ابن الأثير : السابق 255/4

^٥ ابن الأثير : الكامل 256/4

^٦ الجاحظ : الناج في أخلاق الملوك 15

^٧ ابن عبد ربه : العقد الفريد 14/5 — 15 ، المبرد : الكامل 179/1

^٨ الكندي : ولاة مصر وقضاها 46—47

^٩ الخربوطي : تاريخ العراق 308—309

^{١٠} المعارف ص 409

^{١١} ابن خلكان : وفيات الأعيان 424/2

رابعاً: معنى الملك لا يقتضي انعدام الشورى:

وهكذا فإن تحول الخلافة الراشدة إلى ملك وراثي لم يكن يعني تحولا كاملا عن شورى الراشدين أو ارتدادا عن أوامر الإسلام ومنهجه في الحكم ، وقد كان لذلك ما يبرره من تطور اجتماعي وسياسي سيتضح لنا بعد قليل ، ولقد بقيت في العصر الأموي — كما يقرر ابن خلدون — " معاني الخلافة من تحري الدين ومذاهبه ، والجري على مذاهب الحق ، ولم يظهر التغير إلا في الوازع الذي كان ديناً ثم انقلب عصية وسيماً ، وهكذا كان الأمر لعهد معاوية ومروان وابنه عبد الملك والصدر الأول من خلفاء بني العباس إلى الرشيد وبعض ولده ، ثم ذهبت معاني الخلافة ولم يبق إلا اسمها " ^١ ..

ولم يذم الشرع العصية أو الملك لما كان القصد منهما إقامة الدين وإظهار الحق ، وقد سأل سليمان عليه السلام ربه فقال : (رب اغفر لي وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي) ^٢ ، لما علم من نفسه أنه معزول عن الباطل في النبوة والملك ^٣ ، وعلى ذلك فإن " الملك الذي يخالف بل ينافي الخلافة هو الجبروتية " ^٤ ، التي يقصد بها قهر الناس بغير حق ، ولم يكن ذلك هو شأن الأمويين في خلافتهم ؛ وقد استرعى انتباه بعض فقهاءنا ومؤرخينا ذلك القرب الشديد بين مقاصد خلافة الأمويين وبخاصة معاوية ، ومقاصد خلافة الراشدين ، لذلك فقد رأى بعضهم فترة حكم معاوية في حقيقتها خلافة راشدة " أو أقرب ما تكون إلى الخلافة " ^٥ ، ويرى أن دولة معاوية كان ينبغي أن تلحق بدولة الراشدين ، فهو تاليهم في الفضل والعدالة والتضحية ^٦ ..

وكذلك كان الأمر عند نظرهم إلى خلافة مروان بن الحكم وابنه عبد الملك " فلم يكن مذهبهم في الملك مذهب أهل البطالة والبغي ، إنما كانوا متحريين لمقاصد الحق جهدهم ، إلا في ضرورة تحملهم على بعضها ، مثل خشية افتراق الكلمة الذي هو أهم لديهم من كل مقصد " ^٧ ..

^١ ابن خلدون : المقدمة 608/2 ، وذلك ما يؤكد حديث الإمام محمد عبده رغم أنه يتهم الأمويين بهدم قاعدة الشورى ولكنه يجنح إلى الإنصاف فيقول: " على هذا الاستبداد منهم قد كان في معظمه مصروفاً إلى المحافظة على سلطتهم ، وبقاء الملك في أسرهم ، قلما يتسرب منه شيء إلى الإدارة والقضاء ، وكانت حرية انتقاد الحكام ، والإنكار عليهم على كمالها " راجع تفسير القرآن الحكيم 204/4

^٢ سورة ص آية (35)

^٣ ابن خلدون : المقدمة 600/2

^٤ ابن خلدون : الصبر 188/2

^٥ ابن تيمية : مجموعة فتاوى شيخ الإسلام 25/35-27

^٦ ابن خلدون : العبر 188/2 ، وأشار إلى أن حديث " الخلافة بعدى ثلاثون سنة " لا يصح

^٧ ابن خلدون : المقدمة 605/2

خامساً : بعض الأمويين يمتحنون لوساس سيرة الراشدين :

لم تبعد خلافة الأمويين إذن كثيراً عن معاني خلافة الراشدين ، وما أصاب النظام الأموي من تغير كان راجعاً إلى تغيرات عديدة هبت رياحها على الدولة الإسلامية الفتية كما سوف نرى فيما يلي ... ولن نبعد عن الحقيقة إذا قلنا إن بعض خلفاء بني أمية كان يود لو سار سيرة الراشدين كاملة ، ولكنهم كانوا غير قادرين على ذلك ، في تفاعلهم مع أحوال رعيته وظروف عصرهم ، وإن ذلك الأفق العالي والمثل الرفيع الذي قدمه الخلفاء الراشدون للسياسة الإسلامية والإنسانية كان يعمل تأثيره الجذاب عند بعض الخلفاء والرعية على السواء ؛ ولكنه كان أيضاً يستعلي على قدراتهم ، فيجهدون أنفسهم لتحقيقه ، ثم يعودون إلى جذبة الواقع مقرين بصعوبة المحاولة والتجربة ...

لقد سأل معاوية يوماً ولده وولي عهده يزيد كيف سيعمل بعد استخلافه ؟ فقال : أعمل فيهم عمل عمر بن الخطاب ، فتبسم معاوية وقال : والله لقد جهدت أن أعمل فيهم عمل عثمان فلم أقدر ، أتعلم أنت فيهم بعمل عمر بن الخطاب ؟^١ .. وجلس الفقيه ثعلبة بن أبي مالك القرظي يوماً مع عبد الملك بن مروان ومضى يتحدث عن سيرة عمر بن الخطاب وسنته ، فقال عبد الملك : وأين الناس الذين كان يسير فيهم عمر بن الخطاب والناس اليوم ؟ يا ثعلبة إني رأيت سيرة السلطان تدور مع الناس ، إن ذهب اليوم رجل يسير بتلك السيرة أغير على الناس في يوقهم ، وقطعت السبل ، وتظالم الناس ، وكانت الفتن ، فلا بد للوالي أن يسير في كل زمان بما يصلحه^٢ ، وكان عبد الملك يقول في بعض خطبه : " أنصفونا يا معشر الرعية ، تريدون منا سيرة أبي بكر وعمر ، ولا تسيريون فينا ولا في أنفسكم بسيرة رعية أبي بكر وعمر^٣ ١٩ .

حتى عمر بن العزيز الذي كان ألصق الخلفاء بسيرة الراشدين وهجهم لم يستطيع أن يحقق كل ما تمناه في العودة بالرعية إلى سالف عهدها ، فكان يقول : إني لأجمع أن أخرج للناس أمراً من العدل ، فأخاف ألا تحمله قلوبهم فأخرج معه طمعاً من طمع الدنيا ، فإن نفرت القلوب من هذا سكنت إلى هذا^٤ ، وقال له يوماً ابنه عبد الملك : يا أمير المؤمنين انقد لأمر الله وإن جاشت بي وبك القدور ، فقال : يا بني ، إن بادته الناس بما تقول أحوجوني إلى السيف ولا خير في خير لا يحيا إلا

^١ ابن كثير : البداية والنهاية / ٢٢٩ .

^٢ ابن سعد : الطبقات الكبرى 232/5-233

^٣ ابن قتيبة : عيون الأخبار 9/1

^٤ السابق والصفحة ، وانظر السيوطي : تاريخ الخلفاء 235

بالسيف^١ ، وقد كان ابن تيمية يعبر عن هذه الحقيقة حين يرى أنه إن ساء حال الحكم في مجتمع ما كان ذلك لنقص في الراعي والرعية معاً^٢ ..

ولا يعني ذلك أن العودة إلى صفاء الحياة في عصر الخلفاء الراشدين أمر مستحيل ، ولكن لا يأتي به الحاكم وحده وإن صلحت نيته ، وعظمت عزيمته ، بل لابد من تحقيق ذلك القدر من التوافق والانسجام بين الراعي والرعية حيث يتعاون الجميع على تحقيق ذلك المجتمع الطيب ، وطريق ذلك طويل وشاق ، ويحتاج إلى أجيال من الدعاة والحكام الذين يبذلون جهودهم لتربية الرعية على كمال الإيمان ، ويعطون القدوة في ذلك والمثل ، ويستفرغون في ذلك وذاك وقتهم وجهدهم ، وهو ما كان يصعب تحقيقه زمن الأمويين وفي خضم التحديات التي واجهوها ..

^١ ابن الأثير : الكامل 165/4

^٢ ابن تيمية : مجموع الفتاوى 20/35

المبحث الثاني: ولاية العهد وتوريث الخلافة

توطئة: كلمة عن تطور نظام الخلافة حتى العصر الأموي:

للإسلام نظامه السياسي الخاص به ، وهذا النظام قد حددته آيات القرآن وأحاديث الرسول ﷺ بشكل إجمالي عام ، يتحاشى التفاصيل التي تتغير بتغير الزمان والمكان ، ليظل ذلك النظام صالحا لكل زمان ومكان ، ومن أهم الخطوط العريضة التي تحدد الإطار العام للنظام السياسي الإسلامي وجوب الشورى في اختيار الخليفة ، وفي ممارسته الحكم ، وتنظيم طرق هذه الممارسة لتحقيق أهداف الإسلام الأساسية في العدل والمساواة بين الرعية ، وتحريم الامتيازات الخاصة لحاكم ، أو طبقة بعينها من طبقات البشر، إذ إن التفاضل بين الناس في الإسلام يكون بالتقوى والعمل الصالح ، مع إقرار حق المعارضة للحاكم إن أخطأ من خلال فرض الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتواصي بالحق والصبر ، بل إقرار حق الرعية في خلع الحاكم إن جار أو ظلم ، مع قدرتها على تغييره بغير ضرر فادح ، وبعد تعذر إصلاحه ، وتأکید واجبها في خلعه إن كفر أو خرج عن تعاليم الإسلام وأصر على ذلك^١ ..

وقد جاءت سياسة النبي ﷺ وخلفائه الراشدين تطبيقا أميناً لهذه المبادئ ، وقدمت لنا اجتهادات وافية في فهم هذه المبادئ العامة وتطبيقها ..

ويلاحظ أنه لم تكن هناك طريقة واحدة لاختبار الخليفة في عصر الراشدين ، بحيث يعهد تجاوزها خروجاً عن الإسلام أو ضرباً لنظامه السياسي غير أن تعدد طرق اختيار الخليفة جاء دائماً محكوماً برضا أهل الحل والعقد من قادة المسلمين ، وذوى الرأي والتأثير فيهم ، وهذا الرضا كان يعني بطبيعة الحال استيفاء المرشح للخلافة لشروطها ، وتميزه عن سواه في هذا الصدد ، كما يعني ضمان رضا الأمة تبعاً لرضا قادتها من أهل الحل والعقد ، وتعبيراً عن ذلك فقد كان الخليفة يجلس لتلقي البيعة العامة في المسجد الجامع كدليل على احترام إرادة الأمة وشعور الخليفة بمسئوليته أمامها ، لذا فقد كان الخليفة يشرح أمام الناس برنامجه السياسي وخطته في العمل والإدارة ..

^١ راجع مقدمة الفصل الخاص بالمعارضة في العصر الأموي ..

ورغم المكانة العالية التي تمتع بها الخلفاء الراشدون الأربعة ، فقد ظهرت بين بعض قيادات الأمة معارضة لاستخلافهم أو بيعتهم^١ ، ولكنها لم تكن معارضة خطيرة^٢ ، أو طعنا في كفاية هؤلاء المرشحين للخلافة ، ولم تستمر طويلا ..

تغيرات اجتماعية ضخمة أواخر عصر الراشدين :

وكان المجتمع الإسلامي في عصر الراشدين يتطور تطورا سريعا وخطيرا بشكل يهدد المحافظة على السمات الأساسية لحكمهم والتي كانت تظهر في شكل ذلك الحب والانسجام والحرص المتبادل بين الخليفة والرعية ، وقد تمثل ذلك التطور في تقلص دور أهل الحل والعقد المقيمين في المدينة بوفاة معظمهم أو بتفرقهم في الأمصار ، وبإكتساب تلك الأمصار مكانة ضخمة تفوق مكانة الحجاز موئل الخلافة ؛ نتيجة نمو دور القبائل العربية التي أسلمت متأخرا ولكنها حملت على أكتافها عبء الفتوحات الإسلامية الكبرى ؛ التي أدت إلى ثراء المجتمع الإسلامي بصورة لم يعرفها من قبل ، تغيرت معها بعض النفوس والأخلاق ، وقد ظهر أثر ذلك التغير في تملل عمر بن الخطّاب من رعيته أواخر خلافته ؛ وضيق بعضهم به ومنهجه في الحكم ، ثم في ثورة بعض هذه القبائل على عثمان بن عفان ، ثم في البيعة لعلي وانتقاله معهم إلى العراق مما أنهى عمليا صدارة الحجاز السياسية ، ثم في بروز دور الشام كمناف للبلاد للعراق ومنافسته على الخلافة بقيادة معاوية الذي ثار طلبا بدم عثمان ابن عفان^٣ ، وقد عانى علي^٤ في العراق مما عانى منه عمر وعثمان في الحجاز ، حتى كان يتعجل الموت في آخريات حياته ، وقد بلور علي^٥ إحساسه بهذا التطور في مثل قوله لأهل العراق المتمردين عليه غالبا : " حملت إليكم درة عمر لأضربكم بها لتنتهوا فأبيتم ، حتى اتخذت الخيزرانة فلم تنتهوا ، وقد أرى الذين يريدون السيف ، ولا آتي بصلحكم بفسادي " ^٦ ، كما عبر ببراعة عن إحساسه القوي بمدى التغير الاجتماعي حين سأله رجل يوما : " ما بال المسلمين اختلفوا عليك ولم يختلفوا على أبي بكر وعمر ؟ فقال علي : لأن أبا بكر وعمر كانا واليين على مثلي وأنا وال على مثلك " ^٧ ..

^١ عارض استخلاف أبي بكر بعض الخزرج من الأنصار على رأسهم سعد بن عباد ، وبعض بني أمية ، كما أبسدى بعض الصحابة تبرمه من استخلاف أبي بكر عمر وهو على فراش الموت (الطبري : السابق ٤٢٩/٣ - ٤٣٠) وفي خلافة عثمان كان علي وبعض أصحابه يرون أحقيته هو بما بدل عثمان ، وتختلف عدد من الصحابة عن بيعة علي في المدينة والشام وغيرها ...

^٢ باستثناء خلافة علي فلها ظروف خاصة سبق بيانها ..

^٣ الجاحظ : البيان والبيان 183/3

^٤ ابن خلدون : المقدمة 614/2

وعلى الجانب الآخر كان معاوية يوضح أثر تغير مفهوم أهل الحل والعقد ، ووجوب اعتبار ذلك ، ويستغل ذلك التطور لتعزيز موقفه ونصر قضيته إذ كان يقول لرسول علي الذين يدعونهم إلى الطاعة والجماعة : " فاما الجماعة التي دعوتهم إليها فمعناها هي .. " ^١ ..

لقد تغير إذن مفهوم أهل الحل والعقد ، فلم يعودوا هم أهل بدر ، أو جماعة السابقين إلى الإسلام في المدينة ، التي تقلصت أعدادها بمضي الزمن وبرزت إلى ساحة التأثير والفاعلية زعماء الأمصار ، بل زعماء الشام من بينهم ، فحين نلجأ إلى أحداث التاريخ نجد أنها تؤكد قدرة أهل الأمصار على الحسم السياسي ، وعجز أهل المدينة عن ذلك ، ثم تؤكد بعد ذلك تميز أهل الشام بقدر هائل من الطاعة والتوحد الاجتماعي والعودة على الخضوع لنظم الدولة وأساليب الإدارة وأنماط الحضارة ^٢ ، وقد مكنتها هذه المؤهلات من فرض اختيارها على العراق وسائر الأمصار الإسلامية حتى بايعت لمعاوية ، ثم استطاعت الاحتفاظ بهذه القدرات أكثر من تسعين عاما هي عمر الدولة الأموية .. مما يؤكد أن قادتها أصبحوا هم يحكم الواقع السياسي أهل الحل والعقد في المجتمع الإسلامي والقادرين على اختيار الخليفة ، وإقناع بقية الأمصار بذلك الاختيار — إن سلما أو عنفا — في ذلك المجتمع الذي أصبحت تحكمه عصبية مختلفة الرغبات والأهواء والمطامح ..

أولا : رأي الفقهاء في معنى أهل الحل والعقد :

وحين نلجأ إلى أقوال علمائنا في معنى أهل الحل والعقد نجدهم يختلفون إلى عدة أقوال ^٣ ، يرجح منها أنهم أصحاب الشوكة والعصبية والقوة القادرين على الاختيار وتحقيق إرادتهم ، وإمضاء رغبتهم على مخالفيهم ، وهذا ما تحقق في ذلك الظرف التاريخي في أهل الشام . وإذا أردنا أن نكون أكثر إنصافا وأن ننظر إلى الأمور بمقاييس عصرنا الحاضر ، قلنا إنه كان يجب أن تتسع دائرة أهل الحل والعقد هذه لتشمل بجانب زعماء الشام بقية زعماء الأمصار الإسلامية في العراق والحجاز ومصر وغيرهم ، وأن تضم بجوار أصحاب العصبية القوية أصحاب الرأي من علماء الأمة وأهل الديانة فيهم ، وأن يؤول إلى هذه الطائفة مهمة اختيار الخليفة أو عزله ؛ علاوة على الفصل في المسائل المهمة في حياة الأمة .. ولو حدث ذلك في كل مرة لتجنبنا الأمة كثيرا من الاختلاف وإراقة الدماء .. ولكن الذي حدث فعلا هو انفراد أهل الشام باختيار الخلفاء في العصر

^١ الطبري : السابق 6/5

^٢ فلهووزن تاريخ الدولة العربية 126 ، 127 ، د. شعبان صدر الإسلام والدولة الأموية ص 51-54 ، د. عبد العزيز صالح الهلاي : عبد الله بن سبأ ص 22 مقال بمجلة حوليات كلية الآداب جامعة الكويت الحولية الثانية الرسالة 45

سنة 1408 هـ / 1987 م .

^٣ راجع ملحق رقم (٣) من ملحق هذا الكتاب

الأموي من الأسرة الأموية ذاتها ، وكانت بداية ذلك هي البيعة ليزيد بن معاوية بولاية العهد لأبيه ، وبعد خطوط شتى أصبح تسلسل الخلفاء في البيت الأموي أمرا واقعا ، رضيت بذلك بقية الأمصار أم عارضت ، وذلك هو موضع الدراسة في الصفحات القادمة :

ثانياً : ظروف بيعة يزيد بولاية العهد :

بعد استقرار الأمر لمعاوية وإحساسه بدنو أجله بدأ يفكر في أمر الخلافة من بعده ، ومن المؤكد أن عدم وجود طريقة معينة لاختيار خليفة المسلمين ، وتغير وسائل ذلك الاختيار مع كل خليفة جديد ، بدءا من استخلاف أبي بكر الصديق وانتهاء باستخلاف معاوية نفسه كان دافعا إلى إمعان التفكير في هذا الأمر ، مع الأخذ في الاعتبار ذلك الاضطراب الذي كان يحدث مع تولي كل خليفة جديد وقيام من يشغب عليه ، أو يعترض على بيعته ، أو يمتنع عن هذه البيعة ، وقد كان ذلك الاعتراض يبدو هادئا في اختيار أبي بكر وعمر وعثمان ، ولكن منذ النصف الثاني من خلافة عثمان أصبح تولي منصب الخلافة سببا في جريان الدماء بين المسلمين ، وإعطاء فرصة كبيرة لذوى الأهواء والأغراض للتنفيس عن رغباتهم أو تحقيقها ، وكانت ذكريات الثورة على عثمان ، ثم حروب المسلمين بعضهم بعضا في موقعة الجمل وصفين وما نتج عنهما من ضحايا ودماء — مع تعرض مكانة الدولة نفسها للانتقاص ومطامع الأعداء والمتربصين بها — ماثلة في الأذهان تثير القلق والتربص والخوف لقد كان واضحا في ذهن معاوية ومعاصريه أنه يمكن للخليفة أن يعهد بالخلافة إلى من يراه أهلا لها من بعده ، بشرط موافقة أهل الحل والعقد على ذلك الاختيار ، فقد عهد أبو بكر إلى عمر ابن الخطاب بعد استشارة كبار الصحابة الذين أيدوا ذلك العمل ، وكذلك عهد عمر بن الخطاب إلى ستة نفر ليختاروا واحدا ، فاختاروا عثمان بن عفان ، غير أن ذلك الجيل الفذ من الصحابة الذين كانوا موضع إكبار الأمة وإجلالها كان قد مضى جل رموزه ، في ذلك الوقت من خلافة معاوية ، فلم يبق أحد من أصحاب الشورى الذين اختارهم عمر والذين تولي رسول الله ﷺ وهو عنهم راض^١ ، وإن كان قد بقي بعض أعيان الصحابة الذين لا يطمحون إلى منصب الخلافة في ظل التغيرات الكبيرة التي طرأت على المجتمع الإسلامي^٢ ، كما كان مفهوم أهل الحل والعقد قد تغير عمليا نتيجة تلك المتغيرات ..

^١ وذلك بعد مقتل عثمان بن عفان ثم مقتل طلحة والزبير في موقعة الجمل وبعدها بيسر ، ثم اغتيال علي بن أبي طالب ومات سعد بن أبي وقاص في خلافة معاوية ، وكان عبد الرحمن بن عوف قد مات من قبل زمن عثمان ، أما عبد الله ابن عمر فقد كان رأيته استشاريا في ذلك المجلس أو ترجيحيا ، وليس له من الخلافة شيء فيما قضى عمر آنذاك ..

^٢ مثل ابن عمر الذي كان زاهدا في الخلافة ، ولم يحدث أن تولي من قبل عملا إداريا يتيح له الخبرة المناسبة للتطلع إلى خلافة المسلمين ، وإن كان من أهل الورع والزهد ، وابن عباس الذي تفرغ عمليا للعلم والفقه ، وكانت شخصية

ولا ريب في أن غياب هذا العدد من قيادات الأمة من الصحابة قد ترك فراغا كبيرا في دائرة الاختيار لمنصب الخليفة ؛ إذ إنه جعل ذلك الاختيار محصورا بين مجموعة من النظراء ، لا يسلم أحدهم للآخر بالامتياز المطلق ، أو التفوق الكامل ، ولا يسلمون في مجموعهم لأحدهم بذلك ، بل لا تجتمع في أغلب الظن — كلمة معظمهم على واحد منهم ، وإن اجتمعت كان من الصعب أن يظفر ذلك الاختيار بموافقة الفعاليات السياسية المؤثرة الأخرى ، التي أصبحت تمثل بصورة عملية العصبية والشوكة الظاهرة ؛ تلك الصورة الجديدة الواقعية لأهل الحل والعقد آنذاك.

إن غياب الأفضل مطلقا بين مجموعة النظراء هذه جعل كلا منهم مفضولا في جانب بالنسبة للآخرين ، وإمامة المفصول حتى مع وجود الأفضل منه جائزة عند جماهير الفقهاء في الإسلام إذا كان أطوع في الناس وأقرب إلى القلوب ^١ ..

لقد كان أبرز المرشحين من غير البيت الأموي لولاية عهد معاوية أو للخلافة من بعده عبد الله بن عمر والحسين وابن الزبير . وقد أثبتت حوادث التاريخ زهد ابن عمر في الخلافة إلا أن تأتية طوعا ، ولم يكن له من الخبرة الإدارية أو العصبية القرشية — حيث كان واحدا من بني عدي — أو من الطموح الشخصي إلى هذه المكانة ما يجعله يصمد لنافسة المرشحين الآخرين ، كما أثبتت حوادث التاريخ فيما بعد أن الحسين بن علي لما خرج ثائرا على يزيد بن معاوية لم يتابعه من أهل الحجاز إلا قليل من أهل بيته ، وقد اعترض عليه آنذاك أخوه محمد بن الحنفية وابن عمه عبد الله بن عباس ^٢ ، ولم يجد في أهل العراق الذين وثق بهم ما يعينه في مواجهة عصبية أهل الشام ، وكان ابن الزبير فيما يرى كثير من المؤرخين منافسا له ، وقد أثر في ذلك الحين البقاء في الحجاز عن الخروج مع الحسين إلى العراق .. ولما ثار ابن الزبير فيما بعد على الأمويين كانت علاقته ببني هاشم علاقة تربع وعداء ، حيث كان كل من الفريقين يرى نفسه أجدر بالخلافة ويسعى إليها ، ولم تستطع عصبية أهل الحجاز التي اعتمد عليها ابن الزبير أن تقف في وجه أهل الشام أيضا ، وكان ابن الزبير في حاجة ملحة لنصرة عصبية العراق ، ولما نصرته ظهرت خطورة ثورته ، فلما انفضت عنه حوصر بمكة حتى قتل ..

إذا كانت طبيعة الأحداث ترشح هؤلاء الرجال الثلاثة للمنافسة على الخلافة فقد كان هناك كثيرون آخرون غيرهم يرون في أنفسهم صلاحية لطلب الملك وتمني خلافة المسلمين ، مثل

الحسين بن علي أكثر تطلعا للخلافة منه لمكانة علي ^٣ ، ويلاحظ أن عمرو بن العاص مات زمن معاوية ، وأن الاختيار كان محصورا آنذاك في دائرة قریش وليس غيرهم ..

^١ راجع الماوردي : الأحكام السلطانية ص ٨٩-٩٠ ، الرئيس : النظريات السياسية 206 ، الجويني : غياث الأمم 122-123 ، والأفضل عنده هو الأصلح للقيام على الخلق بما يصلحهم لا الأنفي ، " قرب ولي من أولياء الله هو قطب الأرض وعماد العالم لو أقسم على الله لأبره ، وفي العصر من هو أصلح للقيام بأمر المسلمين منه " (السابق 122)

^٢ راجع البحث الخاص بثورة الحسين بن علي في الفصل التالي ..

مغامر أهل العراق المختار بن أبي عبيد ، بل إن سعيد بن عثمان بن عفان كان — فيما يزعم الرواة — يرى نفسه أحق بخلافة المسلمين من يزيد عن معاوية ، مستندا في ذلك إلى شرف نسبه وكريم محبته^١ ..

لقد كان من الواضح إذن أن تولية أي من هؤلاء المرشحين للخلافة لن يحسم الخلاف بين قوى الأمة المتوثبة ، ولن يظفر في غالب الظن بمباركة المرشحين الآخرين له ، مما يفتح الباب لمزيد من الصراع تضيق معه مصالح الأمة التي خرجت منذ أمد ليس بالطويل من معارك الفتنة الكبرى ، وتضيق معه أيضا الحكمة من ولاية العهد أو الاستخلاف .

كما كان مرجحا أن أهل الشام لن يسمحوا بخروج الخلافة منهم بعد أن أحسوا بالمكانة العالية التي اكتسبوها بما طيلة نحو عشرين عاما من خلافة معاوية ، وبال ثقة الكبيرة في بني أمية الذين عاشوهم منذ ولاية يزيد بن أبي سفيان في عهد عمر بن الخطاب ، وأن بني أمية لن يرضوا بخروج الخلافة منهم ، ومنهم من يرى نفسه أهلا لها ، تساندهم في ذلك قوة أهل الشام التي لا تماثلها قوة أخرى في الأمصار الإسلامية^٢ ..

لقد كان معاوية يدرك هذه الحقائق كلها كما يبدو من قوله لخميد بن عمرو حزم وهو يحذره عن بيعه يزيد : " لم يبق إلا ابني وأبناؤهم ، وابني أحب إلي من أبنائهم " ^٣ .

وإدراك معاوية حرص أهل الشام على بقاء الخلافة فيهم يبدو واضحا في أثناء المشاورات العديدة التي أجراها مع وفود الأمصار لكسب تأييدهم استخلاف يزيد ، حيث كان يبدو أن أهل الشام قد حسموا هذا الاختيار بالنسبة لهم ، ووجدوا في يزيد ضالتهم لاستمرار صدارتهم في الدولة الإسلامية ، فعند تنع بعض قادة المدينة عن مبايعة يزيد بولاية العهد ثم موافقتهم عليه ، خرج معاوية إلى بعض من معه من الشاميين فأخبرهم بمبايعتهم ؛ فقال أهل الشام : والله لا نرضى حتى يبايعوا له على رعوس الأشهاد ، وإلا ضربنا أعناقهم ، فقال معاوية : سبحان الله ؛ ما أسرع الناس إلى قريش بالشر ، لا أسمع هذه المقالة من أحد منكم بعد اليوم^٤ ، وقبل ذلك — وفي أثناء هذه المشاورات — لما أغلظ عبد الرحمن بن أبي بكر القول لمعاوية وخرج مفضيا رافضا البيعة ليزيد ، أمسك معاوية بطرف رداءه ثم قال : لا تظهرن لأهل الشام ، فإني أخشى عليكم منهم^٥ ..

^١ الطبري : السابق 305/5 ، ابن الأثير : السابق 253/2 ، ابن كثير : البداية والنهاية 79/8

^٢ راجع ابن خلدون : المقدمة 604/2 ، 613

^٣ انظر ابن أئثم : الفتح 229/4

^٤ السيوطي تاريخ : الخلفاء 197 ، ابن العربي : العواصم من القواصم ص 224

^٥ الإمامة والسياسة 188/1 ، ابن العربي : السابق والصفحة

ويبدو أن أهل الشام لم يكونوا يستغربون فكرة توريث الخلافة كما كان يستغربها أهل الحجاز ، فقد عهدوها من قبل إبان حكم البيزنطيين لهم ^١ ، بل إن أهل العراق أيضا كانوا فيما يبدو مهئين لتقبل فكرة توريث الخلافة ، ولكن من منظور خاص ، حيث يرون أحقية أهل البيت بها واستمرارها فيهم ، وقد تأثروا في ذلك أيضا بنظام الحكم الساساني للفرس قبل الفتح الإسلامي لهذه البلاد ، بل لقد مارس العراقيون عمليا هذه الفكرة حين بايعوا للحسن بن علي بعد اغتيال أبيه ، دون وصية حقيقية منه بذلك ، حيث تركهم لا يأمرهم ولا ينهاهم ^٢ ، ومات ولم يستخلف عليهم أحدا ^٣ ، فبايعوا الحسن ، ثم سلسلوا الإمامة في اثني عشر إماما من أهل البيت ، مما دفع بعض المؤرخين إلى القول بأن الشيعة هم أول من أدخلوا فكرة توريث الخلافة في الفكر الإسلامي ^٤ ، وحجة هؤلاء المؤرخين في ذلك واضحة .. وسوف تمتد هذه الفكرة لتشمل طوائف أخرى من المسلمين ، لستزداد رسوخا بتأثير هذه العصية حتى يصبح الفكك منها عملا عسيرا محفوقا بالمخاطر ؛ كما سيأتي بيانه .

هل كان يمكن استخلاف غير يزيد من بني أمية ؟

فلذا تقرر أنه لم يكن أمام معاوية بد من أن يعهد إلى أحد أفراد البيت الأموي بخلافته إن أراد أن يحقق أكبر قدر من الاستقرار للدولة بعد وفاته ، فهل كان اختياره ليزيد خلفا له هو الاختيار الأصوب في ضوء المعطيات التاريخية لذلك العصر؟؟

لقد ثارت شبهات كثيرة حول أخلاق يزيد بن معاوية وقدراته السياسية ، مما قد يرجع — في حال صدقها — كفة غيره من الأمويين البارزين المشهود بكفائتهم وبل أخلاقهم مثل مروان بن الحكم وابنه عبد الملك وسعيد بن العاص ^٥ ..

أما الشبهات التي ثارت حول يزيد بن معاوية فلا يصمد معظمها أمام النقد العلمي البريء — كما سنرى — ولقد ثار عديد من الشبهات أيضا حول المرشحين الآخرين من بني أمية ، ضمن ما تعرضوا له خلال فترة الصراع الممتد مع معارضيتهم وخصومهم ؛ فأمر التفاضل بينهم في هذا المجال

^١ أشار إلى تلك الفكرة د.حسن إبراهيم : التاريخ السياسي 447-448 ، النظم الإسلامية 51-52 ، أرنولد : الخلافة 24-25

^٢ الطبري : السابق 146/5-147 ، ولقد اخترعوا لمعلمهم هذا سندا من أقوال علي حيث حصر اختياره في أهل بيته (الإمامة والسياسة) 153/1 ، العيني : عقد الجمان 10/112

^٣ أحمد بن حنبل : المستد 130/1 حيث رقم 1078 ، 156/1 حديث رقم 1339 ، ابن كثير : البداية والنهاية 250/5-251 ، 323/7 ، البيهقي : السنن الكبرى 149/8 ، شعوط : أباطيل يجب أن تمحي 234-235

^٤ د. شلبي : موسوعة التاريخ الإسلامي 49/2

^٥ وتزعم بعض الروايات معارضة مروان وسعيد بن العاص وعبد الله بن عامر ببيعة يزيد بولاية العهد (الأصفهاني : الأغاني 212-213 ، ابن أعثم : الفتح 4/224-225)

نسبي إلى حد كبير ، على أنه — فيما يبدو — لم يكن من الممكن أن ترضى عصبية أهل الشام بديلاً عن يزيد بن معاوية من البيت الأموي ، أو من غيره ، في ذلك الوقت ، فقد كان اسم يزيد يرتبط في أذهان أهل الشام باسم أبيه معاوية ، صاحب الرصيد الكبير من الحب والإعجاب لديهم ؛ كما كان يزيد يحظى بصورة خاصة بتأييد قبيلة كلب اليمانية القوية بالشام حيث كانت أمة ميسون بنت بحدل تنتمي إلى أحد أبرز بيوت هذه القبيلة ، وقد أمضى يزيد في بادية كلب سنوات حياته الأولى ، وأمضى بين أهل الشام بقية عمره ، وهذا ما لم يحدث بالنسبة للمرشحين الآخرين من بني أمية مثل مروان وابنه الذين ارتبطا دائماً بالحجاز والمدينة المنورة ، حيث مقامهما ، ولم تعرفهما الشام إلا زائرين^١ ، وبعد وفاة يزيد بن معاوية تكتلت قبيلة كلب وأحلافها حول ابنه الصغير خالد بن يزيد يريدون بيعته بالخلافة ، ويمتنعون عن بيعه مروان بن الحكم الذين رشحه بعض الأمويين أنفسهم ، وبعض الفعاليات السياسية الأخرى بالشام ، ولم ينتقل ولاء الكلبيين عن الفرع السفيفي إلى مسروان وبنيه إلا بعد جهد جهيد ، ولم يستقر أمر البيعة لمروان بالشام إلا بعد أن أيده الكلبيون^٢ ..

هذه هي العوامل التي دفعت معاوية — فيما يبدو — إلى التفكير في ولاية العهد لابنه يزيد ، وإذا كان يحلو لبعض المؤرخين أن يتحدث عن أثر حجة الوالد لولده على ذلك التفكير^٣ ، فإنه ليس من الإنصاف بحال إهمال تلك العوامل المتشعبة التي حكمت الممارسة السياسية والفكر السياسي الإسلامي في هذه الفترة ، وظلت تحكمه حتى بعد رحيل معاوية ويزيد ووجود فراغ سياسي هائل في منصب الخلافة ، وفرص متكررة للعودة إلى مبدأ الشورى الكاملة في اختيار الخليفة ، ولكن ذلك واقعياً لم يكن ممكناً ، ولذلك فقد انتهت جماعة من مفكرينا ومؤرخينا إلى تلك الفكرة القائلة بوجود دوافع حقيقية كان لابد أن تقود في النهاية إلى ذلك التطور الكبير في التفكير السياسي آنذاك^٤ ..

ثالثاً : حول أهلية يزيد للخلافة :

^١ د. شعبان : صدر الإسلام والدولة الأموية 102

^٢ الطبري : السابق 535/5 — 537

^٣ بينما تقول بعض الروايات عن معاوية أنه قال في إحدى خطبة : "اللهم إن كنت تعلم أي وليته لأنه فيما أراه أهل لذلك فأتم له ما وليته ، وإن كنت وليته لآني أحبه فلا تتم له ما وليته " (ابن كثير : البداية والنهاية 8/80) بينما تقول روايات أخرى إن معاوية في آخر حياته كان يقول " لولا هواي في يزيد لأبصرت رشدي " (السابق 118/8)

^٤ ابن خلدون : المقدمة 613/2 — 614 ، د. شلي : موسوعة التاريخ الإسلامي 48/2 — 149 ، محب الدين الخطيب :

هامش العواصم من القواصم ص 222—223 ، هامش المنتقى من منهاج الاعتدال 282، 283 ، د. شعبان : صدر الإسلام

102 ، د. ماجد : التاريخ السياسي للدولة العربية 61/2 — 62 ، د. شعوط : أباطيل يجب أن تحصى 224 ، 225 ، 232 ،

233 ، كرد علي : الإسلام والحضارة العربية 396/2

ما كاد يزيد بن معاوية يتولى الخلافة بعد وفاة أبيه حتى ثارت ضده معارضة عنيفة قادها الحسين بن علي الذي وثق بإغراءات أهل العراق ، فانتهج إليهم ثائرا على الخليفة الجديد ، حيث أسلموه هناك لحنقه ، ثم ثار بعده أهل المدينة حتى نكبهم يزيد وأهل الشام في موقعة الحرة ، ثم كانت أخطر هذه الثورات وأطولها ، ثورة ابن الزبير بمكة حيث مات يزيد وجيوشه تحاصر ابن الزبير هناك وتضيق عليه الحناق ...

وكانت هذه الثورات وما تمخض عنها من نتائج وخيمة فرصة هائلة لتشويه صورة يزيد والظمن فيه ، وقد وجدت هذه المطاعن والشبهات من يروجها من أعداء بني أمية طوال تاريخهم وبعده حتى حملتها لنا صفحات التاريخ ..

أما قبل هذه الثورات فلا تعلم اقماما خطيرا يعتد به ليزيد طوال خلافة أبيه — حتى بعد أن دخل دائرة الضوء ورشحه معاوية لولاية عهده؛ وليث ولما للعهد بضع سنين ، بل نجد أن معاوية كان يتعهد ولده ويدربه على مسائل الحكم ، فكان " إذا أتته الأمور المشككة المعضلة يبعث إلى يزيد يستعين به على استيضاح شبهاتها ، واستسهال معضلاتها " ^١ ، وقد أحسن أبوه تربيته وأسكنه معه في سقيفته ^٢ ، وأعدده منذ زمن طويل ليكون " من فتيان قريش الذين يتتفع بهم " ^٣ ، ولما أرسله أبوه لغزو القسطنطينية كان تحت لوائه أبو أيوب الأنصاري وابن عباس وابن عمر وابن الزبير ^٤ ، وهؤلاء لا يرضون أن يسيروا تحت لواء من يشرب الخمر ويعشق اللهو ، كما اهتم فيما بعد ، فكان قائد أول جيش يغزو القسطنطينية فصدقت فيهم نبوة الرسول ﷺ حيث قال : " أول جيش من أمتي يغزون مدينة قيصر مغفور لهم " ^٥ ، وكانت له هناك ضروب من الشجاعة والبأس ^٦

ولما وفد عبد الله بن عباس على أمير المؤمنين معاوية بعد وفاة الحسن بن علي دخل عليه يزيد وجلس يعزبه في وفاة الحسن ، فلما فُض من عنده قال ابن عباس : إذا ذهب بنو حرب ذهب علماء الناس ^٧ ..

إن الاتهام الظاهر ليزيد الذي نعرفه قبل استخلافه هو أنه صاحب رسالة وتهاون وولع بالصيد على حد تعبير زياد بن أبي سفيان لمعاوية لما أرسل إليه يسأله رأيه في العهد ليزيد ^١ ، أما رميده

^١ الإمامة والسياسة 1/194

^٢ الأصفهاني : الأغاني 7/104

^٣ السابق والصفحة

^٤ الطبري : السابق 5/232 وانظر الجهشاري : الوزراء والكتاب ص 27-28

^٥ ابن حجر : فتح الباري 6/120 ابن طولون : قيد الشريد 53 ، البخاري : صحيح البخاري ، كتاب الجهاد حديث

رقم ٢٧٦٦

^٦ راجع الأصفهاني : الأغاني 17/141

^٧ ابن كثير : البداية والنهاية 8/228

بشرب الخمر وإتيان الفواحش فلم يعرف إلا أثناء الثورة عليه وما تلاها من أحداث^٢ ، ومن المؤكد أن معاوية لم يكن يسمح لابنه بانتهاك حرمة الإسلام ، ناهيك عن تركه حتى يذبح ذلك عنه ويتشتر ، أو أن يستخلفه على المسلمين وهو يعلم فسوقه وجرمه كما أنه من المستبعد أن يرضى بنسو أمية باستخلافه وهو على ذلك ، فقد ثاروا بعد زمن يزيد بأكثر من ستين سنة على الوليد بن يزيد لما بدا منه مالا يليق بمكان الخليفة أو شاع ذلك عنه سنة ١٢٦هـ^٣ كما أنه لن يرضى أهل الشام وفيهم جماعة من بقية الصحابة والفاضل التابعين على قبول الدنية في دينهم حتى يستخلفوا رجلا سكريا خيرا على ما يصف الرواة ، وسوف نرى فيما بعد أن ابن عمر وابن الحنفية لم يرضيا أن يثورا على يزيد أو يخلعا بيعته ، وكذب ابن الحنفية أن يكون يزيد كما يصف أعداؤه من اللهو والفسوق ، وجلداهم في ذلك^٤ .

إن معظم ما أساء إلى يزيد هو عتفه في التصدي لخصومه الخارجين عليه مع ما كان لهم من مكانة عالية اجتذبت عواطف كثير من المسلمين ، ولكن يزيد لم يكن أكثر من خليفة بايعه معظم المسلمين بما فيهم ذوو العصية القوية التأثير ؛ يدافع عن حقه في الخلافة والطاعة ، ولو كان غيره من الثائرين عليه مكانه لما تورع عن محاربة الخارجين عليه حتى يظفر أحد الفريقين ، كما حدث بالفعل في مواجهة مصعب بن الزبير — الذي أرسله أخوه عبد الله ليضمد إليه العراق سنة ٦٧هـ — للمختار بن أبي عبيد الذي سيطر من قبل عليها ، إذ قتل منهم عدة آلاف في يوم واحد^٥ ، وسوف يأتي مزيد بيان عن هذه الثورات ضد يزيد وكيف واجهها ؛ والتقييم الموضوعي لها ..

مراجعا : كيف تمت البيعة ليزيد بولاية العهد ؟

تحاول بعض الروايات التاريخية أن تجعل فكرة ولاية العهد ليزيد طارئة على ذهن معاوية من خارجه ، حيث تنسب هذه الفكرة إلى المغيرة بن شعبة عامل معاوية على الكوفة (المتوفى سنة ٤٩ أو ٥٠ أو ٥١ هـ)^٦ ، وأنه أوحى بها إلى معاوية ليضمن رضاه عنه واستمرار ولايته على الكوفة ،

^١ الطبري : السابق 302/5 ، وانظر تحريف يعقوبي هذه الرواية بشكل واضح تاريخ يعقوبي 160/2

^٢ حيث زعموا أنه شرب مرة الخمر أمام الحسين بن علي (ابن الأثير : الكامل 317/3-318) ، كما اقم بأنه كان ينكح أمهات الأولاد والبنات والأخوات ويدع الصلاة (السيوطي تاريخ الخلفاء 209 ، ابن سعد : الطبقات الكبرى 66/5) ويضروب اللهو الغربية مع القروذ (المسعودي : مروج الذهب 77/3) بل اقم بالكفر (الجاحظ : النابتة

12/2-13 ، دوزي : تاريخ مسلمي إسبانيا 54/1-55)

^٣ كرد على : غطط الشام 167/1

^٤ سيأتي ذكر ذلك عند الحديث عن ثورة أهل المدينة ضد يزيد ..

^٥ أوصلتهم الروايات إلى سبعة آلاف (الطبري : السابق 113/6)

^٦ راجع الطبري : السابق 234/5 ، 255 لتحديد تاريخ وفاته ..

وهناك بعض المؤرخين الذين يؤكدون تولد فكرة البيعة ليزيد بولاية العهد في ذهن معاوية كتنجيسة طبيعية للتطور السياسي والاجتماعي للدولة ولتنصيب الخلافة ، ولذلك يرفضون تعليق أهمية كبيرة على تلك الروايات التي تنسب إلى المغيرة دورا بارزا في هذا الصدد^١ ، وبخاصة أن هذه الروايات يشوبها كثير من الخلط والاضطراب والتناقض ، ولا يبقى بعدها إلا ذلك الانطباع الذي يبدو أنه القصد من روايتها ؛ ألا وهو الغرض من شأن المغيرة ومعاوية وإظهارهما على أنهما متآمران على حربة الأمة ، أو ساعيان إلى تحقيق مآربهما الخاصة ، مستندة في ذلك إلى الخلفية الخاصة التي تصور دهاء الرجلين وسعة حيلتهما ، وذلك ما يؤكد ضرورة الحذر من قبول مثل هذه الروايات التي تحصل وجهات نظر طائفية واضحة^٢ ، بل إنها لجديرة بالرفض والاستبعاد لما تحوي من اتهام صريح لديسن هذين الرجلين عن الصحابة ، ولما قصتها لرواية أخرى تعود ببداية تفكير معاوية في استخلاف ابنه إلى زمن ولاية زياد ابن أبيه على العراق التي جمعت له بعد وفاة المغيرة بن شعبة ، حيث تقول الرواية " إنه لما أراد معاوية أن يبايع ليزيد كتب إلى زياد يستشيره ... " ، مما يوحي باستبعاد وجود جهود سابقة من أجل البيعة ليزيد قام بها المغيرة من قبل ، غير أن زيادا نصح معاوية بالتريث في ذلك الأمر ، ونصح يزيد الذي كان يراه " صاحب رسالة وقانون مع ما قد أولع به من الصيد " بالكف عن ذلك ، فاطاع يزيد وترك كثيرا مما كان يصنع^٣ .. ويصرح الطبري بأن معاوية إنما دعا إلى بيعة يزيد سنة 56

^١ د. عبد المنعم مازد : التاريخ السياسي للدولة العربية 62/2 ، وانظر د. محمد جمال الدين سرور : الحياة السياسية في الدولة العربية 98-99

^٢ تنص رواية الطبري على أن المغيرة قد قدم على معاوية وشكا إليه ضعفه وطلب إعفاءه من ولايته فأعفاه وأراد أن يولى سعيد بن العاص بدله ، فلذهب كاتب المغيرة لما علم بذلك إلى سعيد ليهنئه ويخبره ، فأثار ذلك حفيظة المغيرة الذي غير رأيه في طلب الاستثناء من عمله ، وذهب إلى يزيد يوحى إليه بفكرة ولاية العهد ، ولما علم معاوية بذلك رافقه الفكرة وسر بالمغيرة وأعاده إلى الكوفة من جديد (الطبري 301/5 - 302) وعلامات الاختلاق والوضع واضحة في الرواية بلا ريب ، ولكن اليعقوبي وابن الأثير وصاحب الإمامة والسياسة يزعمون أن معاوية هو الذي قرر الاستثناء عن المغيرة بعامل آخر ، وهنا تختلف الروايات الثلاث في اسم العامل الجديد حيث يجعله بعضهم سعيد بن العاص ويجعله الآخر عبد الله بن عامر ، فلجأ المغيرة إلى اختراع فكرة ولاية العهد كما سبق (تاريخ اليعقوبي 159/2 ، 160 الإمامة والسياسة 165/1 ، الكامل في التاريخ 249/3) ويصور اليعقوبي وابن الأثير مكر المغيرة بمعاوية حيث يزعمان أنه خرج من عنده فرحا بعد أن دس إليه فكرته في استخلاف يزيد وهو يقول : " لقد وضعت رجل معاوية في غرز بعيد المدى على أمة محمد وفقت عليهم ففقا لا يرتق أبدا " (انظر : العسكري : الأرائل 233) ، ولكن أين ذهب دهاء الرجل حتى يعلن نيته فيهوي بمكائنه على ذلك النحو ؟؟ وبينما تنص رواية الطبري على أن المغيرة بعد عودته إلى الكوفة بدأ يسعى للتمكين لفكرته باستخلاف يزيد " وأوفد في ذلك وفدا إلى معاوية (الطبري 302/5) يقدم ابن الأثير في روايتين تفاصيل ذلك الوفد بشكل مضطرب أيضا ، حيث يختلف عدده في كلتا الروايتين ويختلف مقدار جوائزهم واسم أميرهم ثم يجعل هذه الجائزة ثمنا لشراء المغيرة دين أعضاء الوفد منهم " (الكامل 249/3) ..

^٣ الطبري : السابق 302/5 - 303

هـ^١ فلماذا تأخر كل هذه السنين إذا كان المغيرة قد شرع في التمهيد لهذه الفكرة قبل موته ؛ مع كون معاوية نفسه قد كبرت سنه حيث مات سنه 60 هـ عن عمر يزيد عن خمس وسبعين سنة^٢ ، ومن الطبيعي أن يتلهف لضمان مستقبل الخلافة والأمة وولده ؟؟ ..

التمهيد لاستخلاف يزيد :

لقد مات زياد سنة 53 هـ^٣ ، وأعلن معاوية الدعوة إلى البيعة ليزيد بولاية عهده سنة 56 هـ ، ولا ريب أن معاوية أنفق ذلك الوقت في التجهيز لهذه الخطوة الخطيرة ، ليضمن موافقة الأمة عليها عن رضا وقناعة بدل أن يسلك سبيل القهر والبطش مرتكبا إلى قوة أهل الشام ، فقد رأينا يزيد على رأس الحملة المتجهة لحصار القسطنطينية سنة 58 هـ ليقدمه إلى المسلمين على الصورة التي يفضلونها ، مجاهدا في سبيل الله وغازيا ، كما مهد الرأي العام في الأمصار الإسلامية لذلك الاستخلاف حين استقبل منها بعض الوفود فأخبرهم بما نوى ، فلم يجد منهم معارضة جديده ، وإن بدا شيء من التحفظ لدى وفدي العراق والحجاز^٤ ، وكان معاوية ولا ريب يدرك مكانة الحجاز وأن العراق يرنو ببصره إلى البيت العلوي ، وأنهم إن بايعوا يزيد لم يبق من يتطلع إلى ذلك المكسب في بقية الأمصار ؛ ولذلك فقد رحل إلى الحجاز معتمرا سنة 56 هـ حيث التقى هناك بأبناء الصحابة البارزين وحاول إقناعهم بالبيعة ليزيد ..

بحث دعوى إجبار أبناء الصحابة على البيعة ليزيد :

ويبدو أن معاوية قد أصاب في محاولة إقناعهم بعض التوفيق ، وإن لم يقتنع بعضهم بما أراد ، وقد تعرض ذلك الموقف إلى تحريف كبير لدى بعض المؤرخين الذين اخترعوا قصة عبوكة مؤداها أن معاوية أجبر أبناء الصحابة المعارضين ، وهم الحسين وابن الزبير وابن عمر وعبد الرحمن بن أبي بكر ، على البيعة لولده تحت التهديد بالسلاح^١ ، فهم يزعمون أنه سار إلى الحجاز في ألف فارس فقدم المدينة حيث قابلوه خارجها ، فعنف بهم وهاجمهم هجوما مرا ، وسبهم ، فأقبلوا خلفه فلم يلتفت إليهم ، فلما أيسوا منه ساروا إلى مكة ، وأنه لقي أم المؤمنين عائشة في المدينة فأوصته بالرفق بهم ، فلما سار إلى مكة وقابلوه رحب بهم وتلطف إليهم ، فتركهم يعجبون من موقفه ، وتحدث باسمهم

^١ السابق 301/5

^٢ السابق 325/5

^٣ السابق 288/5 — 290

^٤ المسعودي : مروج الذهب 36/3—37 ، ابن أئتم : الفتح 288/4—232 ، ابن كثير : البداية والنهاية 80/8 ، الإمامة والسياسة 171/1 ، المبرد : الكامل 30/1 ، الجاحظ : البيان والتبيين 241/1—242 ، الياقبي : مرآة الجنان

ابن الزبير لعرض على معاوية أن يختار بين عدة خصال ، إما أن يترك الأمة بغير اختيار كما فعل النبي ^١ ، أو أنه يعهد إلى رجل غير ذي قرابة كما فعل أبو بكر ، أو يجعلها شورى في بضع رجال كما فعل عمر ، فأبى معاوية ذلك ، ثم قال لهم " إنه قد أعذر من أنذر ، إني كنت أخطب فيقوم إلي القائم منكم فيكذبني على رؤوس الناس؛ فأجمل ذلك وأصفح عنه ، ألا وإني قائم بمقالة ، فأقسم بالله لنن رد علي أحد كلمة في مقامي هذا ألا ترجع إليه كلمة غيرها حتى يسبقها السيف إلى رأسه ، فلا يبقين رجل إلا على نفسه ، ثم دعا قائد حرسه ، وأمره أن يقيم على كل رجل منهم حارسين في المسجد الحرام ، ليأدروا إلى من يعارضه بقطع رأسه ، كما بث بقية حراسه في أرجاء المسجد ، ثم دخل ودخلوا فقال : " أيها الناس إن هؤلاء الرهط سادة المسلمين وخيارهم ، ولا يقضى أمر إلا عن مشورتهم ، وإنهم قد رضوا وباعوا ليزيد ، فبايعوا على اسم الله " ، وهم جلوس لا يجروا أحدهم على الحديث خوفا من القتل ، وظن الناس الصدق في حديث معاوية فبايعوا يزيد ^١ ..

وهذه ليست الرواية الوحيدة في هذا الباب ... فقد روى ابن العربي والسيوطي أن معاوية قد استدعى هؤلاء النفر ، كلا منهم على حدة ، وحدثهم بشأن البيعة ليزيد فاختلفت ردودهم ، حيث وافق ابن عمر ، وامتنع ابن أبي بكر ، وتحفظ ابن الزبير الذي قال : " إن كنت قد ملدت الإملوة فاعتزلها ؛ وهلم ابنك فلنبايعه ، أرايت إذا بايعت ابنك معك لأيكما تسمع ولأيكما تطيع ، ولا تجتمع البيعة لكما أبدا ، فخرج معاوية فصعد المنبر وأعلن مبايعة هؤلاء النفر ليزيد ، فصمم أهل الشام أن يبايعوا علنا ، فعنفهم معاوية على ذلك ^٢ ، وتبدو حجة ابن الزبير هنا متهافة ، فهو يعلم تماما أن بيعة يزيد إنما هي بولاية العهد ؛ وأنه لن يكون خليفة يطاع إلا بعد موت أبيه .

وعلى حين يروي صاحب الإمامة والسياسة عدة روايات متنافرة في هذا الصدد ^٣ ، يروي الطبري بسند فيه أحد المجتهدين أن معاوية تحدث إلى كل منهم على حدة ؛ وأن كلا منهم منفردا وافق على البيعة ليزيد إن بايع الآخرون عدا ما كان من عنفه بآبى بكر الذي لا تبرره تلك الرواية المزعومة ^٤ ..

ونلاحظ على جميع هذه الروايات ما يلي :

— أنها متضاربة بشكل يعكس غموض موقف هؤلاء النفر وسرية المفاوضات التي حدثت بينهم وبين معاوية ، فإنها لا تتفق على نتيجة واحدة وصل إليها معاوية ..

^١ ابن الأثير: الكامل 251/3 — 253

^٢ العواصم من القواصم 223—224 ، تاريخ الخلفاء 196—197

^٣ الإمامة والسياسة 183/1 — 190

^٤ الطبري : السابق 303/5 — 304

— أنه من الأولى بنا أن نستبعد تلك الرواية التي تزعم أن معاوية حصل على بيعة هؤلاء النفر بخدعة محكمة وتحت تهديد الحراس بسيفهم المشرعة ، وهم واقفون في المسجد الحرام يحيطون بهم أمام جمهور المسلمين الذين ترميهم هذه الرواية بالغفلة والعمى ؛ حتى لم يروا ولم يشعروا بما يدور حولهم ، أو ترميهم بالخور والجبن مثلما ترمي به هؤلاء الرجال الكرام ؛ حتى تُستزج موافقتهم ويُكذب عليهم فلا ينطقون خوفاً من الموت .. وهي بعد ذلك تبدو ولا هدف لها إلا إظهار بيعة الحجاز ليزيد وكأنها عمل غير شرعي ؛ جاء نتيجة تسلط الإرهاب والخوف ، ولذا فقد وصفها فلهوزن بأنها رواية " مصنوعة صنعاً ماهراً وأنها شيء مجهول تماماً في الروايات القديمة فلا توجد عند الطبري أو المسعودي ^١ ، كما " لا يبدو أنه مما يتفق مع شيمة معاوية وهو السيد الحليم ذو السن ، أن يذهب إلى الحجاز في فترة يسود فيها السلام على رأس ألف فارس لكي يعامل القرشيين الأربعة تلك المعاملة القظة ، ثم يدلّهم ويتودد إليهم ثم يأخذهم بالعنف آخر الأمر ، ولا يصل بعد ذلك كله إلى شيء في الحقيقة " — إذ ظل المعارضون على معارضتهم يترقبون موت معاوية واستخلاف يزيد ليظهروا حقيقة موقفهم — " والكلمات والمناظر المسرحية التي قد زُينت بها القصة لا تجعلها أقرب إلى التصديق " ^٢ ، ويعضد من كل ذلك أن يعقوبي نفسه وهو شيعي متحامل على بني أمية قد روى رواية جديدة تختلف عما سبق يزعم فيها أن ابن عمر لما دُعي إلى البيعة ليزيد قال : نبايع لمن يلعب بالقرود والكلاب ، ويشرب الخمر ويظهر الفسوق فما حجتنا عند الله ؟ ثم قال يعقوبي " وحج معاوية تلك السنة فتألف القوم ولم يكرههم على البيعة " ^٣ ، ولو وجد يعقوبي — وهو مؤرخ مبكر — وجهاً لأقام معاوية يكره أبناء الصحابة لسارع بإثباته في تاريخه ..

— أما بشأن موقف عبد الله بن عمر الذي تضاربت الروايات بشأنه حتى زعم يعقوبي عنه ما زعم في روايته الآتية وزعم الآخرون أنه كان من المقهورين على البيعة ، فقد روى البخاري — وهو عمدة المحدثين الصادقين — أن ابن عمر بايع يزيد ، وأنه استمسك بهذه البيعة حتى بعد وفاة معاوية واستخلاف يزيد وثورة أهل المدينة عليه في موقعة الحرة ، وأنه رفض المشاركة في هذه الثورة ، ونهى أهله وأتباعه عن خلع يزيد ^٤ .

وقد زعم الرواة والمؤرخون بعد ذلك — لبعضدوا ما ذهبوا إليه من استكراه زعماء الحجاز على البيعة ليزيد — أن معاوية قال في فراش الموت لابنه يزيد يوصيه : " وإني لا أخوف أن ينزعك هذا الأمر الذي استتب لك إلا أربعة نفر من قريش ، الحسين بن علي وعبد الله بن عمر وعبد الله

^١ فلهوزن : تاريخ الدولة العربية 93

^٢ السابق 140

^٣ يعقوبي : تاريخ يعقوبي 159/2

^٤ البخاري : صحيح البخاري ، كتاب الفتن ، ابن حجر : فتح الباري ٦٨/١٣-٦٩

ابن الزبير وعبد الرحمن بن أبي بكر^١ ، وهي رواية يتضح كذبها حين نسترجع ما فات من أن بيعة ابن عمر بيعة صحيحة أصراً عليها رغم كل الظروف ، وحين نعلم أن عبد الرحمن بن أبي بكر كان قد مات قبل موت معاوية^٢ ، وما جعل هذه الرواية تشيع إلا رغبة بعض المؤرخين في التدليل على بعد نظر معاوية ودهائه ، فأحيوا من أجل ذلك الموتى ، وشككوا في بيعة رجل كابن عمر !

خامساً : استقرار فكرة توريث الخلافة فيما بعد :

رغم ما تقدم من سرد لظروف الدولة والمجتمع التي دفعت بمعاوية إلى التفكير في توريث الخلافة والبيعة لابنه يزيد بولاية العهد ؛ فإننا سوف نظل نجد شبهات هنا وهناك تثار حول استيلاء معاوية على الخلافة وتوريثها لابنه رغم معارضة الأمة التي نجح في ترويضها بالحيلة والدهاء أو باستعمال الأموال إلى آخر ذلك الغبار الكثيف من الشبهات .. ولكن لأحداث التاريخ رأي آخر .

١ - معاوية بن يزيد يرد الأمر شورى بين المسلمين :

فقد مات معاوية سنة ٥٥ هـ ، ومات بعده ابنه يزيد سنة ٥٦ هـ ، فتولى الخلافة بعده ابنه معاوية بن يزيد ، وكان فيما يقال ابن ثنتين وعشرين سنة^٣ ، فبايع له الناس ، وأنته بيعة الآفاق إلا ما كان من ابن الزبير وأهل مكة ، فتولى ثلاثة أشهر ؛ وقيل أربعين ليلة^٤ ، وكان مريضاً لا يستطيع الصلاة بالناس ؛ فكان يأمر الضحاك بن قيس الفهري أن يصلي بهم^٥ ، وما لبث أن مات ولم يستخلف أحداً فترك الأمر مرة أخرى شورى بين المسلمين ..

وكان موته السريع فرصة مواتية لأعداء الأمويين من رواة ومؤرخين فادعوا أنه مات مسموماً^٦ ، وكأنه حتم على الخلفاء أن يعمروا ، وقد مات أبوه من قبل ولم يكمل أربعين سنة^٧ ، وادعوا أنه ألقى خطبة في الناس يذم فيها آباءه وأجداده وينتصر للشيعة وآل البيت ، فزعموا أنه قال : " أيها الناس إنا بلينا بكم وبليتكم بنا ؛ فما نجعل كراهيتكم لنا وطعنكم علينا ، ألا وإن جدي معاوية بن أبي سفيان نازع الأمر من كان أولى به منه في القرابة برسول الله وأحق في الإسلام ، سلبق المسلمين وأول المؤمنين ، وابن عم رسول رب العالمين ، وأبا بقية خاتم المرسلين ، فركب منه ما

^١ الطبري : السابق 322/5-323 ، ابن الأثير : الكامل 259/3-260

^٢ ابن الأثير : الكامل 260/3 ، الإمامة والسياسة 191/1

^٣ المسعودي : مروج الذهب 82/2

^٤ ابن سعد : الطبقات الكبرى 39/5 ، الطبري : السابق 503/5

^٥ ابن سعد - السابق 39/5

^٦ الطبري : السابق 531/5 ، المسعودي : مروج الذهب 82/3

^٧ راجع الطبري السابق 499/5

تعلمون ، وركبتم منه ما لا تنكرون ، حتى أته منيته وصار رهناً بعمله ، ثم قلد أبي وكان غير خليق للخير ، فركب هواه واستحسن خطاه ، وعظم رجاؤه فأخلفه الأمل ، وقصر عنه الأجل ، فقلت منعه ؛ وانقطعت مدته ، وصار في حفرة رهيناً بذنبه ، وأسيراً بجرمه ، ثم بكى وقال : إن أعظم الأمور علينا علمنا بسوء مصرعه وقبح منقلبه ، وقد قتل عترة الرسول ﷺ وأباح الحرمه وحرق الكعبة ، وما أنا بالتقلد أمورك ولا المستحل تبعاتكم فشانكم وأمركم^١

وإن هذه الخطبة لتفوح منها رائحة التشيع والوضع ، ولا يعقل أن يقف شاب في مستقبل العمر ، تربى عمره كله في الشام وتولى الخلافة فعلاً وقبل ولاية العهد ليطعن في دين جده وأبيه ومكانتهما ، ويحمل على أهل الشام في بلدهم ، وينعى عليهم تأييدهم للسالفين من أهل بيته ، مقبل أن يعلي من شأن أهل البيت ؛ ويدعي لهم وحدهم حق الخلافة على المسلمين ، ويقرر رأى الشيعة وفكرهم ؛ على هذا الشكل الواضح الذي يدل على هوية واضعي هذه الروايات وأمثالها واتجاههم ، وكان الأولى ألا تجد هذه الخطبة الموضوعه مكاناً في كتب بعض مؤرخينا البارزين كما حدث^٢ ، وليس غريباً أن نجد الطبري والمسعودي وغيرهما من المؤرخين الميكرين قد أهملوا ذكر هذه الخطبة ، ويقتصرون على القول بأنه لما ثقل وحضرته الوفاة قيل له : لو عهدت إلى رجل عهداً واستخلفت خليفة ، فقال : " والله ما نفعني حياً ، فأتقلدها ميتاً ؛ وإن كان خيراً فقد استكثر معه آل أبي سفيان ، لا تذهب بنو أمية بحلاوتها وأتقلدها مراراً ، والله لا يسألني الله عن ذلك أبداً " ^٣ ، أو القول بأنه بعد ولايته خطب فقال : " أما بعد ؛ إني قد نظرت في أمركم فضعفت عنه ؛ فابتغيت لكم رجلاً مثل عمر بن الخطاب رحمة الله عليه ، حين فرغ إليه أبو بكر ، فلم أجده ، فابتغيت لكم سفة في الشورى مثل ستة عمر فلم أجدها ، فأنتم أولى بأمركم ، فاختاروا له من أحببتم " ، ثم دخل مرله ، ولم يخرج للناس ؛ وتغيب حتى مات^٤ .

وإذا كان معاوية أول الخلفاء الأمويين قد حول الخلافة من الشورى إلى الملك ، فإن حفيده معاوية الثاني ، ثالث خلفاء الأمويين أيضاً ، قد أعاد الخلافة من الملك العضوض إلى الشورى الكاملة .. وإنه لما يستوجب الإنصاف أن تصاغ القضية على هذا النحو بدلاً من التركيز على الشق الأول الخاص بتوريث الخلافة فقط ..

٢- كيف تلقت الأمة الفرصة الجديدة ؟

^١ اليعقوبي : السابق 183/2 ، الكندي : ولاية مصر وقضاها 45-49 ، ابن العري : مختصر تاريخ الدول 190-191 ، الدمري : حياة الخيران 54/1

^٢ د. حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام السياسي 293/1 ، د. حلمي : الخلافة والدولة في العصر الأموي 103-104

^٣ ابن سعد : الطبقات الكبرى 39/5 ، وانظر المسعودي : مروج الذهب 82/3

^٤ الطبري السابق 530/5-531

فهل استطاعت الأمة التي أعطيت حقها في اختيار خليفتها أن تعود إلى شكل من أشكال الاختيار السابق في عصر الراشدين ؟؟ لقد دخلت كل الفعاليات المؤثرة في المجتمع الإسلامي في اختبار للقوة بهدف فرض سيطرتها كاملة وحقها في اختيار الخليفة بما يحفظ مصالحها ومكانتها وامتيازاتها ..

فقد برز دور عبد الله بن الزبير الذي كان محصوراً بمكة ، تحوطه جيوش الأمويين ، فلما بلغهم موت يزيد وتنازل معاوية ابنه انسحبوا إلى الشام ، وانفرد ابن الزبير بسلطان الحجاز ، وكان عبد الله بن زياد بالعراق عاملاً عليها ليزيد بن معاوية فلما بلغته التطورات الأخيرة بالشام عرض على أهل البصرة أن يولوا عليهم من أحبوا حتى تستقيم أمور الشام في منهج شورى رافع فأصروا على البيعة له دون غيره ، فقبلها بعد تنعم ، وأرسل إلى أهل الكوفة بمثل ذلك فأبوا بيعته ، وانتفض عليه أهل البصرة الذين بايعوه منذ قليل ، وكانت فتنة بالعراق انسحب معها ابن زياد إلى الشام ، وانضمت العراق إلى سلطان ابن الزبير ^١ ..

أما الشام موطن الخلفاء الأمويين فقد انقسمت على نفسها فبايعت ثلاثة أجناد من أجنادها الأربعة لابن الزبير وهي قنسرين وحمص وفلسطين ، وظلت دمشق حاضرة الخلافة مترددة في ولائها تبعاً لتردد زعيمها الضحاك بن قيس الفهري ، حتى استقر أمرها على مبايعة ابن الزبير أيضاً ، بينما شذت ولاية الأردن موطن الكلبيين عن ذلك الإجماع ، وظلت على ولائها للأسرة الأموية ، تبحث عن بديل صالح للخلافة ^٢ ، وانضمت مصر أيضاً بعد معركة محدودة إلى طاعة ابن الزبير ^٣ ، واصطبغت الدولة كلها بالصيغة الزبيرية ، ولم يبق للأمويين معقل إلا في الأردن ، ولا أنصار إلا قبيلة كلب ^٤ ..

وهنا نلاحظ بوضوح بروز دور العصبية الإقليمية والقبلية التي استطاعت أن تحسم في النهاية الصراع الدائر حول منصب الخلافة لمصلحة البيت الأموي .. فقد كان الحصين بن غنم قائد جيش الأمويين المحاصر لابن الزبير بمكة ، فلما علم بموت يزيد والفراغ الذي أصاب القيادة في الشام دعا إليه ابن الزبير ، فلما التقيا كان هدف الحصين ينصب على الاحتفاظ بالخلافة في الشام دون غيرها ، فقال لابن الزبير : " إنك أحق الناس بهذا الأمر اليوم ؟ فهلهم فلنبايعك ثم أخرج معنا إلى الشام ، فإني من أهله بمكان قد عرفته ، والجند الذي معي أشرف أهل الشام ووجوههم وفرسلفهم ؛

^١ راجع الطبري : السابق 504/5-530

^٢ الطبري : السابق 531/5-532 ، وقد قيل أيضاً إن الضحاك كان يدعو إلى نفسه لا إلى ابن الزبير (السابق

535/5) ..

^٣ د. حلمي : الخلافة والدولة في العصر الأموي ص 105

^٤ السابق ص 107

فليس يختلف عليك منهم اثنان ، والشام معدن الخلافة اليوم ، إذ نقلها الله إليه " ، غير أن ابن الزبير رفض هذا العرض ، وأصر على البقاء في مكة ، والقصاص لقتلى أهل المدينة بموقعة الحرة ، فتركه الحصين وخرج إلى المدينة ، فأرسل إليه ابن الزبير يقول : " أما أن أسير إلى الشام فلست فاعلاً ، وأكره الخروج من مكة ، ولكن بايعوا لي هناك ، فإني مؤمنكم وعادل فيكم " ، فقال له الحصين : أرأيت إن لم تقدم بنفسك ، ووجدت هناك أناساً كثيراً من أهل هذا البيت (يعني بني أمية) يطلبونها ويجيبهم الناس ، فما أنا صانع ؟^١ .

وروى المحدث أن الحصين دعا عبد الله بن عمر إلى مثل ما دعا إليه ابن الزبير فأبى وقال .
لست من هذا الأمر في شيء^٢ .

إن هذا التمسك باستمرار الشام مركزاً للخلافة لم يكن أمراً عاطفياً غير مبرر ، بل كان يستند إلى قناعة أكيدة ، أثبتت الأيام صدقها ، بمقدرة الشام على تحقيق الجسم التاريخي ، وبعمق الالتحام بين بنائها القبلي اليماني والوجود الأموي بها ، رغم ما تعرضت له الوحدة القبلية لأنباء الشام من هزات عنيفة ، وتشقق مريع ، حيث أفرزت الأحداث السياسية السريعة آنذاك صراعاً عنيفاً بين القبائل القيسية واليمانية ظل يرسل انعكاساته على الحياة السياسية العربية بعد ذلك .

فقد بايع القيسيون في شمال الشام ابن الزبير المرشح الوحيد المظاهر القوة والقبول في هذه المرحلة ، وازدادت قوة القيسيين بانضمام الضحاک بن قيس الفهري إليهم ، وهو الرجل الذي أمضى تاريخه كله في الشام وفي خدمة معاوية وابنه يزيد ، والذي كان يُشرف آنذاك على شئون دمشق منذ وفاة معاوية الثاني .. بينما تشبث الكلبيون — رغم الضعف الظاهري لموقفهم في ظل هذه البيعة الجماعية لابن الزبير حتى من إخوانهم الشماليين بالشام — بولائهم لبني أمية تحدوهم في ذلك روابط القرى والمصاهرة بينهم وبين الأمويين منذ تزوج معاوية منهم^٣ ، وتربى فيهم يزيد .. ولكن الكلبين فيما عدا ذلك يختلفون ، فبينما يهوى بعضهم البيعة لخالد بن يزيد بن معاوية ، وهو غلام صغير السن ، يستكف بعضهم من البيعة لغلام — في الوقت الذي بدعوا فيه الآخرون إلى شيخ قريش عبد الله بن الزبير — ويفضل هذا الفريق البيعة لمروان بن الحكم ، وبعد محاولات لأب الصدع بين القيسية واليمانية اتفق الطرفان على الالتقاء في الجابية^٤ ، للتشاور والاتفاق ، فسار الكلبيون

^١ راجع البلاذري : أنساب الأشراف 52/4 ، 25 ، الطبري : السابق 502/5

^٢ البلاذري : السابق 52/4

^٣ الطبري : السابق 329/5 ، حيث تزوج معاوية ميسون بنت بحدل الكلبية أم ولده يزيد ، كما تزوج نائلة بنت عمارة الكلبية ولكن طلقها قبل أن يدخلها

^٤ الجابية بلدة من أعمال دمشق من ناحية الجولان قرب مرج الصفر شمالي حوران (ياقوت معجم البلدان ٣/٣٣)

والأمويون إلى هناك ، على حين غلب بعض أنصار ابن الزبير الضحاك بن قيس على رأيه فأطاعهم ومال نحو مرج راهط ^١.

٣- الممارسة الشورية في مؤتمر الجابية :

وفي الجابية عقد الكليون مؤتمرهم وتشاوروا في أمر البيعة والخلافة ، "وكان مؤتمر الجابية مؤتمراً تاريخياً يمكن أن يوصف ببلغه السياسة الحديثة بأنه كان مؤتمراً دستورياً ، وقد حضره ممثلو الرأي العام في الأمة ليتشاوروا ؛ لعلهم يصلون إلى قرار ينهون به الأزمة القائمة ، ويحسمون الخلاف ، ويحفظون كيان الأمة ويصونون مستقبلها ، وتمت الدعوة إليه بالرضا من عناصر الأمة لا من قبل الحكومة ، ولا بإكراه من سلطه رسمية ، فهو مؤتمر ديمقراطي شعبي " ^٢ ..

ونستطيع أن نلمح صورة لهذه التجربة الشورية الفريدة حين نتصور أن أسماء المرشحين الآخرين للخلافة غير بني أمية قد عرضت للبحث ، ولكن رجحت كفة مروان لعوامل عديدة ، كما يصور ذلك روح بن زباج الجذامي أحد زعماء الشام حيث قال : "أيها الناس إنكم تذكرون عبد الله بن عمر بن الخطاب وصحبه من رسول الله ﷺ ، وقدمه في الإسلام ، وهو كما تذكرون ، ولكن ابن عمر رجل ضعيف ، وليس بصاحب أمة محمد الضعيف ، وأما ما يذكر الناس من عبد الله ابن الزبير ، ويدعون إليه من أمره ، فهو والله كما يذكرون ؛ إنه لابن الزبير ، حوارى رسول الله ﷺ ، وابن أسماء ابنة أبي بكر الصديق ، ذات النطاقين ، وهو بعد كما تذكرون في قدمه وفضله ، ولكن ابن الزبير منافق (!!) قد خلع خليفتين ، يزيد وابنه معاوية بن يزيد ، وسفك الدماء وشق عصا المسلمين ، وليس بصاحب أمر أمة محمد ﷺ المنافق ، وأما مروان بن الحكم ، فوالله ما كان في الإسلام صدع قط إلا كان مروان ممن يشعب ذلك الصدع ؛ وهو الذي قاتل عن أمير المؤمنين عثمان بن عفان يوم الدار ، والذي قاتل علي بن أبي طالب يوم الجمل ، وأنا نرى للناس أن يبايعوا الكبير ، ويستشبهوا الصغير " ، يعني بالكبير مروان بن الحكم وبالصغير خالد بن يزيد بن معاوية ، فاجتمع رأى الناس على البيعة لمروان ومن بعده لخالد بن يزيد ، ثم لعمر بن سعيد بن العاص بعد خالد ^٣ .. فكانت تلك المعادلة هي التي جمعت بين مختلف الآراء وأرضت جميع الاتجاهات ..

ولكننا نلمح أيضاً العامل القبلي يبرز في أثناء هذا التشاور بالشام كما رأيناه في مفاوضات الحصين وابن الزبير بالحجاز حيث قال مالك بن هيرة السكوني للحصين بن ثمر : هلم فلنباع هذا

^١ الطبري : السابق 531/5-534

^٢ د. الرئيس : عبد الملك بن مروان ص 39-40 ، والمراد بالأمة هنا قيادات الشام من أهل الشوكة والعصية أو أهل الحل والعقد ، لا كل الأمة ولا جميع قياداتها ..

^٣ الطبري 536/5 — 537

الغلام الذي نحن ولدنا أباه ، وهو ابن اختنا (يعنى خالد بن يزيد بن معاوية) ، فقد عرفت مرئيتنا — كانت — من أبيه ، فإنه يحملنا على رقاب الناس غدا ، فقال الحصين : لا لعمر الله لا يأتينا العرب بشيخ ونأتيهم بصبي : فقال له مالك : والله لئن استخلفت مروان وآل مروان ليحسدنك على سوطك وشراك نعلك ؛ وظل شجرة تستظل بها ، وإن مروان أبو عشيرة ، وأخو عشيرة ، وعم عشيرة ، فإن بايعتموه كنتم عبيدا لهم ، ولكن عليكم بابن أختكم خالد بن يزيد " ^١ ..

إن هذه الرواية — إن صدقت — لتوضح لنا مدى تغلغل العصبية القبلية والتفعية السياسية عند بعض قيادات الشام القادرة على الفعل والتأثير ^٢ ، ومن حسن الحظ ، ومن دلائل تمكن قيم الإيمان في الأمة ، أن انتصرت إرادة الخير ومصلحة الجماعة في نهاية الأمر .

وبعد أن استقر رأى المشاورين على البيعة لمروان بالخلافة اتجهوا لقتال الضحاك بن قيس وأنصاره من القيسية المؤيدين لابن الزبير في مرج راهط ، ورغم القلة العددية الظاهرة لمعسكر الكلبيين والأمويين ^٣ ، فقد انتصروا انتصارا حاسما ، وبضربة واحدة عادت الشام من جديد تحت الحكم الأموي ، وبدأ مروان حركة نشيطة استعاد بعدها مصر ^٤ ، وأوفد جيوشه يقودها ابن زياد نحو العراق ^٥ ..

وهكذا كان من أبرز نتائج مرج راهط أن " نجح مبدأ التوارث في فرض أهميته ، وأصبح من مصلحة الأمة في واقع الأمر أن يتولى أمرها شخصيات قوية تستطيع بقوتها وحزمها أن تجمع شتات هذه الأمة في إطار واحد طابعه العمل لتحقيق أكبر قدر ممكن من الخير المشترك " ^٦ .. ومن هذه الشخصيات القوية التي أخرجها لنا ذلك النظام بعد مروان ابنه عبد الملك ، وأنباء عبد الملك الوليد وسليمان وهشام ، وعمر بن عبد العزيز ، الذين طالت مدة ولايتهم حتى شملت أكثر عمر الدولة الباقي لها بحيث لم يحكم الخليفان الموسمان عند المؤرخين بالضعف — يزيد بن عبد الملك والوليد بن يزيد — إلا حوالي خمس سنوات وقد عرفنا من قبل سر انقراض المؤرخين لهما ومدى نصيب ذلك الانقراض من الصحة ..

^١ السابق 536/5 ، ابن سعد : الطبقات الكبرى 41/5 حيث ينسب هذا القول لحسان بن مالك الكلبي بدل مالك بن هبيرة ..

^٢ وانظر ما اشترط الحصين بن نمير من مزايا خاصة على مروان كي يعطيه تأييده ولكنها مزايا لم تكن مضمونة على أية حال (الطبري 544/5)

^٣ قيل إن عدد جيش مروان كان ثلاثة عشر ألفا أكثرهم رجالة ، بينما كان القيسيون في ثلاثين ألفا مجهزين (ابن سعد : السابق 41/5—42)

^٤ الطبري : السابق 540/5

^٥ الطبري : السابق 562/5

^٦ د. حلمي : الخلافة من الدولة في العصر الأموي 113

٤- اتجاهات لتغليب مصلحة الأمة ضمن نظام توريث الخلافة :

وكان من نتائج مرج راهط أن أثبتت تفوق العصبة الشامية على ماعداها ، وإصرارها على الاحتفاظ بالخلافة الإسلامية في الشام ، حتى أن عمر بن عبد العزيز الذي كان يود لو استخلف القاسم بن محمد أو ميمون بن مهران ^١ ، لم يستطع تنفيذ ذلك ، لما كان يعلمه من رفض ذلك الاقتراح من بني أمية وأنصارهم من أهل الشام وقياداته ، فأشفق أن يمضي برغبته فتردد الأمة إلى فتنة عمياء تسيل فيها الدماء .

وفي داخل ذلك الإطار الذي يشترط كون الخليفة أمويا وكون مقره الشام كان يمكن أن نرى تلك اللمسات التغييرية التي تفضل مصلحة الأمة وتختار أنسب الرجال للخلافة ، فقد أبي سليمان بن عبد الملك أن يستخلف ولده وفضل عليه عمر بن عبد العزيز ، وكان في ذلك مصغيا لمشورة عالم أهل الشام ومستشاره رجاء بن حيوة ^٢ ، كما استخلف يزيد بن عبد الملك أخاه هشاما ، ورفض أن يعهد إلى ولده الصغير الوليد بن يزيد ، ولما شب الوليد في حياة أبيه لم يرجع عن استخلافه الأول ، ثم إنه لما شاع عند بني أمية وأهل الشام ما نسب إلى الوليد بن يزيد من هـو واستهتار خرجوا عليه وقتلوه ، مستخلفين ليهم قائد الثورة وابن عم الخليفة : يزيد بن الوليد بن عبد الملك ، وقد ظل سلطان بني أمية راسخا ما ظلت عصبة الشام قوية ، فلما تفسخت هذه العصبة في أواخر عهد الدولة وحارب بعض الشاميين بعضا — منذ ثار بعضهم على الوليد بن يزيد — اهتز سلطان بني أمية ؛ وظهر الخلل في دولتهم ، وتكهن أعداؤهم من بعض أجزائها ، حتى إذا جاء مروان بن محمد فنقل هذه الخلافة الأموية عن الشام إلى حران في الجزيرة — التي كانت إمارته من قبل وموطن عصبته القيسية ^٣ — صار بقاء الخلافة الأموية ذاتها في خطر ، وأصبحت نهايتها وسقوطها مسألة وقت ؛ أو اختلاجات ميت يجود بمحاشاة روحه .

٥- مبدأ توريث الخلافة عند أعداء الأمويين :

وإذا كانت معركة مرج راهط ، قد أثبتت ترسخ فكرة ولاية العهد وانتصارها في النهاية ، فمن الضروري أن نشير هنا إلى أن هذه الفكرة لم ترسخ فقط في بلاد الشام وعند بني أمية ، فقد كانت ظاهرة كذلك عند الفرق الإسلامية الأخرى .. فقد كانت إحدى ركائز المذهب الشيعي الذي يرى توارث الخلافة في آل البيت ، كما نجد الاعتماد على سلالة الخليفة وأهل بيته عند ابن الزبير الذي يراه بعض المؤرخين راغبا في إعادة سمع الراشدين في الخلافة وإحياء فكره الشورى

^١ ابن سعد : الطبقات الكبرى 344/5 ، يعقوبي : السابق 302/2

^٢ الطبري : السابق 550/6

^٣ راجع السابق 312/7 ، د. المش : الخلافة الأموية ص 308—309

الكاملة في اختيار الخليفة^١، فقد ولى ابن الزبير أخاه عبيدة على المدينة ثم عزله لما استبان ضعفه وعدم اقتناع أهل المدينة به حتى سموه — استهزاءً — "مقوم الناقة"، وولى بدله أخاه مصعب بن الزبير سنة 65 هـ^٢، ثم عزل مصعباً عن المدينة وولاه البصرة سنة 67 هـ، ثم عزله في نفس السنة، رغم كفايته — وولى ابنه حمزة بن عبد الله بن الزبير، وكان ضعيفاً مغلطاً، فاشتكاها أهل البصرة وطلبوا عزله، وإعادة مصعب لفعل، وكان حمزة هذا قد تصرف في المال تصرفاً غير حميد، فلمّا علم أبوه بذلك قال: "أبعده الله أردت أن أباهي به بني مروان فنكص"^٣، ثم جمع لمصعب العواقر كله، ولم تطل خلافة ابن الزبير أو تتسع رقعتها — كما كانت في حالة بني أمية — حتى يمكن التأكيد من تأثيرات فكرة توريث الخلافة عليه ..

ويشير بعض المؤرخين إلى "ديمقراطية الحوار" وأنهم يرون كل مسلم أهلاً للخلافة؛ قرشياً أو غير قرشي ما دام مستكملاً لشروطها^٤، غير أن هذه "الديمقراطية" في التقييم العملي لم تكن سوى نظرية جوفاء تناقضت في الصميم مع التطرف الذي التصق بهم، وانعكس على سلوكهم بشكل عام، ففي الوقت الذي انتقدوا فيه احتكار قرش للخلافة كانت زعامتهم لفترة ما شبه متوارثة في بني تميم، ورواد التمرد على التحكيم، ومن ناحية ثانية فإنّ ما يعارض وهذا الشكل السطحي للديمقراطية الحوارية أن تكون جميع الأحزاب مرفوضة لديهم أو موضع طعن في الإيمان بعد أن بالغوا في التعصب لآرائهم وأقفلوا باب الحوار في وجه الآخرين .. وقد عاش الحوار طوال العصر الأموي وهم يعانون ذلك التناقض بين النظرية الديمقراطية المتطورة وبين الممارسة المتخلفة المصطبغة بالعنف والإرهاب"^٥، وانعكس اعتزازهم بالرأي وقصرهم الشورى على الفهم النظري على تكوينهم الداخلي وعلاقاتهم ببعضهم، فأدى ذلك إلى انقسامهم فرقا عديدة يكفر بعضها بعضاً، ويقاثل بعضهم بعضاً^٦ ..

ولما انقضى عهد بني أمية وجاء العباسيون لم يجدوا عن فكرة ولاية العهد، ولما انشق عليهم غيرهم في العصر العباسي الثاني أقاموا دويلات مستقلة تقوم على المبدأ نفسه، واستمر الحلل على ذلك حتى في عصرنا الحديث، فما زلنا نجد من يؤثرون النظام الملكي مع تعديلات فيه تحتفظ بروح الشورى ..

^١ د. حلمي: السابق ص 158، 166

^٢ الطبري: السابق 622/5، ابن الأثير: السابق 354/2

^٣ الطبري: السابق 118/6، ابن الأثير: السابق 388/3

^٤ الشهرستاني: الملل والنحل 107—108

^٥ د. بيضون: الدولة الأموية والمعارضة ص 41—42

^٦ د. شلي: موسوعة التاريخ الإسلامي 270/2—271، وانظر ابن الأثير الكامل 352/3—354

٦- تأصيل فكرة ولاية العهد عند الفقهاء :

ومن ناحية أخرى نجد جماعة من أكابر فقهاء المسلمين يؤصلون كرامة ولاية العهد فيعتبرونها كانت أمراً ضرورياً ، ثم يفضلونها لاستقرار حال الدولة الفائرة بقواها المتعددة ، يقول ابن خلدون : " والذي دعا معاوية لإيثار ابنه يزيد بالعهد دون من سواه إنما هو مراعاة المصلحة في اجتماع الناس واتفاق أهوائهم باتفاق أهل الحل والعقد حينئذ من بنى أمية ؛ إذ بنو أمية يومئذ لا يرضون بسواهم ، وهم عصابة قريش وأهل الملة أجمع ؛ وأهل القلب منهم ، فآثره بذلك دون غيره ممن يُظن أنه أولى بها ، وعدل عن الفاضل إلى المفضول حرصاً على الاتفاق واجتماع الأهواء الذي شأنه أهم عند الشارع "

ويقارن ابن خلدون أيضاً بين نظام الراشدين والنظام الأموي فيرى أنه في عصر الراشدين " كان الوازع دينياً فعند كل أحد وازع من نفسه ، فعهدوا إلى من يرتضيه الدين فقط ، وآثروه على غيره ، ووكّلوا كل من يسمو إلى ذلك إلى وازعه ، وأما من بعدهم من لدن معاوية فكانت العصية قد أشرفت على غاياتها من الملك ، والوازع الديني قد ضعف ؛ واحتجج إلى الوازع السلطاني والعصلي ، فلو عهد إلى غير من ترتضيه العصية لردت ذلك العهد ؛ وانتقض أمره سريعاً ؛ وصارت الجماعة إلى الفرقة والاختلاف " ٢ ..

ويقول ابن حزم : " فوجدنا عقد الإمامة يصح بوجوه ؛ أولها وأفضلها وأصحها أن يعهد الإمام إلى إنسان يختاره إماماً بعد موته ، كما فعل رسول الله ﷺ بأبي بكر ، وكما فعل سليمان بن عبد الملك بعمر بن عبد العزيز ؛ وهذا هو الذي تختاره ونكره غيره ، لما في هذا الوجه من اتصال الإمامة ، وانتظام أمر الإسلام وأهله ورفع ما يتخوف من الاختلاف والشغب ، وما يتوقع غيره من بقاء الأمة فوضى ، ومن انتشار الأمر وارتفاع النفوس ، وحدوث الأطماع " ٣ ...

^١ ابن خلدون : المقدمة ٢/ ٦١٣

^٢ السابق ٢/ ٦١٣-٦١٤

^٣ الفصل في الملل والأهواء والنحل ٤/ ١٦٩

الفصل الرابع

موقف الأمويين من المعارضة

مقدمة : بين المعارضة السلمية والثورة المسلحة :

يبحث هذا الفصل في موقف الأمويين من الثورات التي قامت ضدهم وما أثاره المؤرخون من شبهات في هذا الشأن ، مع التركيز بصورة خاصة على مواجهتهم ثورة الحسين بن علي ؛ وموقفهم من آل البيت ...

ويحسن في بداية هذا الفصل أن نذكر الفرق بين نوعين من المعارضة ، أولهما : هو المعارضة السلمية التي تعبر عن مخالفتها نظام الحكم في الرأي أو المبدأ ، مع عدم استعمال القوة المسلحة في التعبير عن ذلك الموقف المعارض ؛ أما النوع الآخر فهو المعارضة المسلحة أو العمل الثوري الذي يتخذ من القوة المسلحة وسيلة للتعبير عن نفسه والإعلان عن مواقفه ..

ومن الخير أن نفرق بين هذين النوعين من المعارضة لأن الإسلام يفرق بينهما ، ولأن السلطة الأموية كانت تفرق أيضاً بينهما كما سوف نرى ...

فالإسلام يميز المعارضة بمعناها السلمي ، بل ويشجع على ممارستها ، ويحض على إعلانها من خلال تشريعه الخالد بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وقول الحق ولو كان مرأ ، وقد حفظ لنا التاريخ أمثلة عديدة عارض فيها المسلمون نبيهم ﷺ ؛ في غير أمور التشريع بالطبع^١ ، كما عارضوا خلفاء الراشدين^٢ ، وكانت القيادة المسلمة آنذاك تتلقى هذه المعارضة على أنها أمر طبيعي يدخل في نطاق الحرية التي أقرها الإسلام ..

أما حين تتحول هذه المعارضة السلمية إلى ثورة مسلحة تبغي تحقيق أهدافها بالقوة فإن الإسلام لا يقر هذه الثورات التي سينتج عنها تقاتل المسلمين بعضهم بعضاً ، وإراقة دمائهم فيما بينهم ، إلا في حدود ضوابط صارمة تكون فيها هذه الثورة هي طريقة التعبير المتاحة وحدها ، ويكون التغيير أمراً لا مفر منه ؛ حرصاً على قيم الإسلام نفسه وتشريعاته ؛ ولذا فقد عارض المسلمون جميعهم الثورة على الإمام العادل ، كما عارض جمهورهم من علماء أهل السنة والجماعة

^١ كما حدث في المشورة التي سبقت خروج المسلمين للقاء عدوهم يوم أحد ، وفي صلح الحديبية (راجع د. أحمد شلبي . السياسة في الفكر الإسلامي ص ٩٠-٩٤ ، وراجع عن المعارضة في الفكر الإسلامي وموقف الفرق المختلفة منها د. نيفين عبد الخالق : المعارضة في الفكر السياسي الإسلامي) .

^٢ راجع د. شلبي : السابق ٩٤-٩٨ ، وكان أبو بكر وعمر يحضّان في خطبتهما المسلمين على تقويم أخطائهما إذا أعرجا . وقدم عثمان غوثاً فداً في تحمل معارضة حتى قتلوه في ثورة كانت سلمية ثم أصبحت مسلحة .

الثورة على الحاكم الجائر إلا في حدود خاصة وإن أقرها الخوارج وبعض المعتزلة وبعض الشيعة من الزيدية ، وهذه المعارضة الفقهية لا تعني الإقرار بجور الحاكم بل الشفقة من ثورات لا طائل من ورائها إلا إراقة الدماء وتفریق الأمة ، لذلك فهم يضعون لمشروعية هذه الثورة ضوابط عديدة أهمها : أن تكون الثورة تحت قيادة عادلة ، وأن تكون قد استكملت سبل الإعداد ، واستوفت من أسباب القوة ، بحيث تكون قادرة على إحداث التغيير المطلوب بأقل خسائر ممكنة ، وأن لا تتسبب في نشوء منكر أكبر مما حاولت إزالته ؛ يتمثل في قتل مزيد من المسلمين وتعريض آخرين لظلم ألدح مما كان واقعاً عليهم من قبل ..

ولذلك فإننا نجد كثيراً من الآيات والأحاديث التي تحض على طاعة أولي الأمر في الدولة الإسلامية ؛ وتمنع من التعجل في الثورة والخروج على الجماعة ؛ من ذلك قوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم)^١ ، وقول الرسول ﷺ : " من أطاعني فقد أطاع الله ومن عصاني فقد عصى الله ، ومن يطع الأمير فقد أطاعني ، ومن عصى الأمير فقد عصي الله " وقوله ﷺ فيما روي عن ابن عباس : " من رأى من أميره شيئاً يكرهه فليصبر ، ومن فارق الجماعة شراً فمات فميتته جاهلية " وفي رواية أخرى : " فقد خلع ريقه الإسلام من عنقه " .^٢

وفي ذلك يقول ابن تيمية " ولا يزال المنكر بما هو أنكر منه ، بحيث يخرج عليهم (أي على الحكام) بالسلاح ويقام الفتن ، كما هو معروف من أصول أهل السنة والجماعة ، وكما دلت عليه النصوص النبوية ، لما في ذلك من الفساد الذي يربى على فساد ما يكون من ظلمهم ، بل يطاع الله فيهم وفي غيرهم ، ويفعل ما أمر به ، ويترك ما نهى عنه " ،^٣ ويقول الحافظ ابن حجر : " الذي عليه العلماء في أمراء الجور أنه إن قدر على أمر خلعه بغير فتن ولا ظلم وجب ؛ وإلا فالواجب الصبر ، وعن بعضهم : لا يجوز عقد الولاية لفاسق ابتداء ، فإن أحدث جوراً بعد أن كان عدلاً فاختلّفوا في جواز الخروج عليه ؛ والصحيح المنع إلا أن يكفر فيجب الخروج عليه " .^٤

^١ سورة النساء ، آية 59

^٢ البخاري : الصحيح ، كتاب الجهاد والسير ، أحمد : المسند ، باقي مسند المكثرين ..

^٣ البخاري : الصحيح ، كتاب الفتن ، مسلم : الصحيح ، كتاب الإمامة ، البيهقي : السنن الكبرى 157/8 ، ابن حجر : فتح الباري 121/13 ، ابن أبي العز الحنفى : شرح الطحاوية في العقيدة السلفية ص 314-316 ،

^٤ ابن تيمية : مجموع الفتاوى 21/35 .

^٥ ابن حجر : فتح الباري 8/13 وانظر أيضاً 7/13 ، وراجع الجويني : غياث الأمم 56-57 ، الفسزاني : الاقتصاد في الاعتقاد 105-107 ، وانظر في رأي الفرق الإسلامية في هذه المسألة : د. مصطفى حلمي : نظام الخلافة في الفكر الإسلامي 144 ، د . الرئيس : النظريات السياسية الإسلامية 305 وما بعدها .

المبحث الأول

موقف الأمويين من المعارضة السلمية

وكذلك كان الأمويون يفرقون بين المعارضة السلمية والمسلحة ؛ فهم يطلقون حرية الكلام والتعبير عن الرأي مادام ذلك في حدود تعاليم الإسلام ومصلحة الأمة ^١ ، أما إذا انقلب الأمر إلى حمل السلاح وسلّ السيوف في وجه السلطة فإن الأمويين لا يجدون مفرّاً من مواجهة هذه الثورات والقضاء عليها ، وقد تمكنوا بذلك من المحافظة على وحدة الدولة الإسلامية تحت نظام حكم واحد ، وهو مطلب إسلامي أساسي لم يمكن الحفاظ عليه بعدهم على نحو كامل .

إن بني أمية يحددون موقفهم من المعارضة والثورة على نحو واضح لا لبس فيه ، فقد كان معاوية يقول : " إني لا أحول بين الناس وألستهم ما لم يحولوا بيننا وبين ملكنا " ^٢ ، وقال عامله على العراق زياد بن أبي سفيان في خطبته لأهل البصرة " إني لو علمت أن أحدكم قد قتل السلّ من بغضي لم أكشف له قناعاً ولم أهلك له سترأ ، حتى يبدي لي صفحته ، فإذا فعل لم أناظره " ^٣ ، ويقول عمن أحد معارضيه : " لو علمت أن مخ ساقه قد سال من بغضي ما هجته حتى يخرج عليّ " ^٤ ..

وإن الأخبار عن حلم خلفاء بني أمية وولائهم على معارضيتهم لتعدد وتترى ، حتى تعطي الدليل القاطع على أن الأمويين لم يكونوا يرون العنف بمعارضيتهم ، ما دامت معارضتهم لم تتحول إلى ثورة تهدد سلامة المجتمع وقيادته ، وقد مرت بنا أدلة كثيرة على إيمان الأمويين بالشورى وأهميتها وممارستهم العملية لها .. ولقد كان الواحد من الرعية يجهر أمام الخليفة الأموي في غلظة بما يسوءه ؛ ويعنف معه في النصيحة أو النقد ، فما ينقله ذلك عن سمّ الحلم ، وتفضيل الرفق على ما سواه .. وذلك الحلم لا يقابلنا فقط إن كان المعارض زعيم قبيلة أو شيخ طائفة ، يُخشى بأسه ويرجى رضاه ، لكنه يقابلنا أيضاً فيما لو كان النقد صادراً من امرأة من نساء العرب ^٥ ؛ أو واحد من عرض الرعية ؛ أو أحد خصوم الأمويين التقليديين ومنافسيهم ؛ أو شاعر من الشعراء العديدين ؛ حادّ اللسان ، خصب الخيال ، قوى الشكيمة ...

^١ ولا تعارض بين الأمرين ؛ فحيثما كانت المصلحة فلمّ شرع الله ؛ وليس من هذا ولا ذاك تلك الآراء الشاذة التي عبر عنها أمثال غيلان القندري ومعد الجهنني وبنان بن سعيد وغيرهم من المخالفين لتعاليم الإسلام ومذهب السلف في فهم الذات والصفات .

^٢ الطبري : السابق 336/5

^٣ السابق 220/5

^٤ السابق 236/5

^٥ راجع ابن عبد ربه . العقد الفريد فصل تحت عنوان " الوافدات على معاوية " 102/2 — 121

٣٠٤

لقد وقف الأحنف بن قيس — فيما يروي الرواة — يوما ليقول لمعاوية مجاهرا : والله يا معاوية إن القلوب التي أبغضناك بها لفي صدورنا ، وإن السيوف التي قاتلناك بها لفي أعمادها ، وإن تدن من الحرب فترا نذن منها شبرا ، وإن تمشي إليها فمرول إليها ... ثم قام فخرج ، وكانت أخت معاوية من وراء حجاب تسمع كلام الأحنف فقالت في دهشة : " يا أمير المؤمنين من هذا الذي يتهدد ويتوعد ؟ فقال : " هذا الذي إذا غضب غضب لغضبه مائة ألف من بني تميم ؛ لا يدرون فيم غضب " ^١

ودخل أبو بردة بن أبي موسى الأشعري يوما على معاوية فقال يا أمير المؤمنين إن عتبة الأسدي قال فيك

معاوي إننا بشر فأسجح	فلسنا بالجبال ولا الحديد
أكلتم أرضنا وجردتونا	فهل من قائم أو من حصيد
فهبنا أمة هلكت ضياعا	يزيد أميرها وأبو يزيد

إلى حم هذه الأبيات التي تحوى نقدا مرا وهجوما عنيفا على معاوية والأمويين ، فقال أبو بردة . ما يمنعك يا أمير المؤمنين أن تبعث إليه من يضرب عنقه ؟ فقال معاوية : أفلا خير من ذلك ؟ قال وما هو يا أمير المؤمنين ؟ قال : نجتمع أنا وأنت ؛ ونرفع أيدينا إلى السماء وندعو عليه ^٢

وهجا الفرزدق معاوية ، بل افتخر عليه بنسبه وآبائه وذلك لغرض شخصي . حيث أعطى معاوية عم الفرزدق الخنات بن يزيد الجاشعي — وكان ضمن وفد أتى معاوية — جائزة أقل من الآخرين . ولما مات الخنات في الطريق أخذ معاوية تلك الجائزة وردها إلى بيت المال ، فقال الفرزدق يخاطب معاوية

فلو كان هذا الأمر في جاهليته	علمت من المرء القليل جلاله
ولو كان هذا الأمر في غير ملككم	لأبديته أو غص بالماء شارب
وكم من أب لي يا معاوي لم يكن	أبوك الذي من عبد شمس يقاربه

فما راد معاوية على أن بعث إلى أهل الخنات بجائزته ^٣

وقد ظفر معاوية بتقدير زعماء المسلمين من أبناء الصحابة رغم نقد بعضهم المرير له .. ولما مات نعوه وأشادوا به ^٤ ، وكان كثيرا ما يقول " إني لأرفع نفسي من أن يكون ذنب أعظم من

^١ ابن خلكان : وفیات الأعيان 186/2 — 187

^٢ د. الحوي . أدب السياسة في العصر الأموي 249—250

^٣ ديوان الفرزدق ٤٥ ، الطبري . السابق 5/ ٢٤١—٢٤٤ الحوي السابق 250

^٤ وقد مر بت أمثلة لذلك ، وراجع الأصفهاني الأغاني ١٧/ ٢١٢—٢١٣ ط د. الكتب

٣٠٥

عفوي ، وجهل أكثر من حلمي أو عورة لا أواربها بستري ، أو إساءة أكثر من إحساني ^١ ، وكان ينشد أحيانا قول النعمان بن المنذر :

تعفو الملوك عن الجليل من الأمور بفضلها
ولقد تعاقب في اليسر وليس ذاك لجهلها
إلا ليعرف فضلها ، ويتخاف شدة نكلها ^٢

ولقد هجا يزيد بن مفرغ الحميري بني زياد بن أبي سفيان هجاء مقذعا وسب أمهم ، وثلب معاوية ، ورمى أباه بالزنا ، فطلبه بنو زياد ليطؤوا عليه ؛ ففر إلى معاوية فعاتبه ، ثم عفا عنه ، ولم يزد على ذلك ^٣ ..

وقد نأسى خلفاء معاوية بسيرته في الرفق بالمعارضين والعفو عنهم طالما كانت معارضتهم سلمية بلا ثورة أو عنف .

وقد تركزت المعارضة للأمويين في العراق على نحو خاص ، فكان لابد أن تحتل مكانة خاصة في تفكير الخلفاء الأمويين وتحديد موقفهم منها ، ولا تعدو خطب زياد والحجاج العنيفة بالعراق إلا تحذيرا وإرهابا للمرجفين والمنحرفين عن الطاعة والجماعة ، ولا تصادف مثل هذا العنف في بقية الأمصار ، ولذلك فقد قال عبد الملك بن مروان للحجاج لما أرسله واليا على العراق ، وكان قبلها عاملا على الحجاز : " فإذا قدمت الكوفة فطأها وطأة يتضاءل منها أهل البصرة ، وإياك وهويي الحجاز ، فإن القاتل هناك يقول ألفا ، ولا يقطع من حرفا " ^٤ ..

^١ الطبري : السابق 335/5

^٢ المسعودي : مروج الذهب 57/3 — 58

^٣ راجع القصة كلها في الطبري : السابق 317/5 — 321 ، ابن قتيبة : الشعر والشعراء 322 ، ابن الأثير : الكامل

257/3

^٤ العفوي : السابق 16/3

المبحث الثاني

موقف الأمويين من الثورات ضدهم

تعددت الثورات التي قام بها المعارضون لبني أمية ، منها ما قام به الشيعة مثل ثورة حجر بن عدي الكندي سنة ٥١هـ وثورة الحسين بن علي عليه السلام سنة ٦١هـ وحفيده زيد بن علي بن الحسين سنة ١٢١هـ ، وابنه يحيى بن يزيد سنة ١٢٥هـ ، ومنها ما قام به الخوارج طوال تاريخ الدولة الأموية ، حيث لم تعرف ثوراتهم الهدوء أو المودة^١ ، ومنها ثورة أهل المدينة في موقعة الحرة في عهد يزيد بن معاوية ، وثورة عبد الله بن الزبير التي استمرت طوال عهد يزيد مروان حتى قضى عليها عبد الملك بن مروان وقائدة الحجاج ، ومنها ثورة العباسيين الذين اتخذوا من شرق الدولة في خراسان مركزا لدعائهم وتنظيم صفوفهم حتى تمكنوا من النصر في النهاية على الأمويين وإزالة دولتهم ؛ وغير ذلك .

ولقد واجه الأمويون هذه الثورات المختلفة بقوة وحزم ونجحوا طوال تاريخهم في الحفاظ على الوحدة السياسية للدولة الإسلامية الشاسعة المساحة والمختلفة الأجناس والألسنة والألوان ... ولما كان من الصعب تناول كل هذه الثورات في صفحات هذا البحث ؛ وبينان موقف الأمويين منها وبمحت شبهات المؤرخين حول استخدام الأمويين العنف في مواجهة خصومهم المظلومين والمقهورين — على حد وصفهم — ورميهم بني أمية بالظلم والاستبداد السياسي ، لما كان من الصعب تناول كل ذلك فإنه من الأجدر بنا أن نتناول أخطر تلك الثورات التي تركت ظلالها السيئة على تاريخ الأمويين ، والتي كانت معالجة الأمويين لها موضع تشنيع ضدهم ، وأقام لهم ، مثل ثورة أهل المدينة ، وثورة عبد الله بن الزبير ، أما ثورة الحسين — أسبق هذه الثورات — فهي جديرة بتحليل خاص يتناول ظروفها ومسارها وموقف الأمويين منها ونتائجها ، وذلك نظرا لما لها من أهمية خاصة في تكوين النظرة المعادية لبني أمية ؛ ويتصل بما حديث عن حقيقة موقف الأمويين من آل البيت ..

^١ اللهم إلا في فترة يسيرة خلال حكم عمر بن عبد العزيز

أولا : ثورة الحسين بن علي عليه السلام :

ولد الحسين بن علي في السنة الثانية للهجرة^١ ، فهو من صغار الصحابة ، وقد رويت آثار عديدة تدل على فضله وتعلق الرسول الكريم ﷺ به ، وبأخيه الحسن بن علي^٢ ، ولا نسمع شيئا عن مؤهلاته الإدارية أو السياسية طوال عصر الراشدين ، إلا أنه كان أحد المخاربين في صف أبيه في حروب الفتنة الكبرى ، ولما آثر أخوه الحسن عليه السلام تسليم الخلافة إلى معاوية كان الحسين من المعارضين لذلك ، فإنه لما أخبره الحسن أنه كتب إلى معاوية في الصلح وطلب الأمان قال له الحسين : نشدتك الله أن تصدق أحداثه معاوية وتكذب أحداثه علي^٣ ؛ فقال له الحسن : اسكت ؛ فأنا أعلم بالأمر منك^٤ ..

ولقد كان معاوية دائم الصلة له والبر به^٥ ، فلما أراد الخليفة أن يعهد لابنه يزيد بالخلافة من بعده كان الحسين علي رأس المعارضين لذلك ، وربما كانت له آنذاك صلات ببعض شيعة أبيه بالعراق ، مما دفع معاوية إلى الوصية به لابنه يزيد عند موته حين قال : وأما الحسين بن علي فإن أهل العراق لن يدعوه حتى يخرجوه ؛ فإن خرج عليك فظفرت به فاصفح عنه ، فإن له رحمة ماسة وحققا عظيما^٥ ..

ويبدو أن عدة عوامل قد تجمعت لتشكيل موقف الحسين الصلب من رفضه بيعه يزيد بعد وفاة معاوية ؛ منها هذه الدعاية المعادية للأمويين والتي نشطت لتشويه صورة يزيد بن معاوية ولتصق به صفات الفسق والاستهتار وعدم الكفاية ، وربما أيقن أعداء الأمويين أن الدعاية ضد معاوية غملي عسير لا يأتي بالثمار المرجوة فركزوا على شخصية ولده وولي عهده ، ومن هذه العوامل اعتزاز الحسين بمكانته الأدبية ونسبه الرفيع ، مع تدينه وفضله إضافة إلى ما كان يحسه من تأييد طائفة من أبناء المهاجرين والأنصار بالحجاز له إذا ما امتنع عن مبايعة يزيد ، كما أنه كان واثقا من قوة أشياعه بالعراق — الذين حافظوا على صلاتهم به — ومناصرهم له ...

^١ ابن حجر : الإصابة ٢/٧٦

^٢ الذهبي : سير أعلام النبلاء ٣ / ٢٨١-٢٨٤

^٣ الطبري : السابق ١٦٥/٥

^٤ راجع مثلا ابن كثير : البداية والنهاية ١٣٧/٨

^٥ لطبري : السابق ٣٢٢/٥ ، ورغم ما سبق من شك في تفاصيل هذه الرواية فإن الوصية بالحسين يبدو غير مبالغ فيها من معاوية وهي تتسجم مع شيعة المعروفة ..

١- بداية وقائع الثورة :

بعيد وفاة معاوية كتب يريد إلى عامله على المدينة الوليد بن عتبة بن أبي سفيان يخبره بموت الخليفة ويطلب منه أن يأخذ له بيعة النفر الذين أبوا على معاوية استخلاف ولده ، وعلى رأسهم الحسين بن علي^١ ؛ ويزعم الرواة أن الوليد بن عتبة استشار مروان بن الحكم فيما يفعل ، وأنه أشر عليه أن يرسل إليهم ويطلب منهم مبايعة يزيد ؛ ومن أبي ذلك ضرب عنقه قبل أن يعلموا موت معاوية ويظهروا الخلاف والمنازدة ، وأنه لما أرسل إلى الحسين أعلمه بموت الخليفة وطلب منه بيعة يزيد فمأطله الحسين ، واستنظره حتى يجمع الناس للبيعة فإنه سيبيع وقتها علانية ، وكان الوليد يحب العافية فوافقه على ذلك ، ولكن مروان كان يرى أن يحبس حتى يبيع أو يضرب عنقه ، أما الوليد فقد أصر على رأيه وقال : والله ما أحب أن لي ما طلعت عليه الشمس وغربت عنه من مال الدنيا وملكها وأنى قتلت حسينا ، سبحانه الله أقتل حسينا أن قال لا أبيع ؟ والله إنني لأظن امرأ يحاسب بدم الحسين خفيف الميزان عند الله يوم القيامة ، فقال له مروان : فإذا كان هذا رأيك فقد أصبحت فيما صنعت^٢ ..

ولا تفسر لنا هذه الرواية التي يرويها هشام بن محمد الكلبي عن أبي مخنف ؛ وكلاهما ذهبي كذاب ؛ على نحو مقنع — سبب تغير مروان رأيه ، كما لا تعطى مبررا كافيا لنصحه الوليد بقتل الحسين ، ولا ريب أن عداوة الرواة من الشيعة لبني أمية — ومروان جد المروانيين منهم — قد قادهم إلى تشويه موقفه من هذه الأحداث ، وسوف يتهمونه بعد ذلك بالشتم في مقتل الحسين هذا على حين تثبت روايات أخرى أن مروان كان من المخدرين ابن زياد من إساءة التصرف حيال الحسين بعد خروجه نحو العراق^٣ ، كما أنه كان من الأسفين على قتله^٤ والباكين عليه^٥ ..

وخرج الحسين تحت جناح الظلام متجها إلى مكة ؛ واستصحب معه بنيه وإخوته وجل أهل بيته ، ولم يشأ أن يتكبد الطريق الأعظم المعتادة ، حتى وصل مكة من غير تتبع ولا منعه من بني أمية

^١ الطبري : السابق 338/5 وقد تزيد بعض الروايات فادعت أن يزيد أضاف في رسالة إلى الوليد بن عتبة " .. فمن أبي عليها منهم فاضرب عنقه وابعث إلى برأسه " (ابن أعثم الفتح 10/5-11) ولا ندرى لماذا لم ينفذ السوائي أمر الخليفة ، ولا تسوق الرواية مبررات ذلك ، ولا ريب أنها إحدى أكاذيب ابن أعثم الكوفي ، ففي الرواية ذكر لامتناع عبد الرحمن بن أبي بكر عن البيعة ، وقد مات عبد الرحمن في خلافة معاوية ولم يدرك يزيد ..

^٢ الطبري : السابق 339/5-340

^٣ ابن كثير : البداية والنهاية 165/8

^٤ الطبري : السابق 465/5

^٥ الأصفهاني مقاتل الطالبين ص 90

أو واليهام على المدينة^١، وروى الواقدي أن ابن عمر وابن عباس لقيا الحسين وابن الزبير في طريقهما إلى مكة، وكانا هما قادمين منها إلى المدينة فسألاهما عما وراءهما، فقالا: قد مات معاوية؛ والبيعة ليزيد، فقال لهما ابن عمر: "اتقيا الله ولا تفرقا جماعة المسلمين"، ولما قدما المدينة وجاءت البيعة ليزيد من البلدان، بايع ابن عمر وابن عباس وهو شيخ بني هاشم آنذاك^٢، ولم تكذ أخبار وفاة معاوية ولجوء الحسين وابن الزبير إلى مكة تمتنعين عن البيعة ليزيد؛ تصل إلى أسماع أهل الكوفة حتى حنوا إلى انتقاضهم وتقردهم القديم، واستعادوا ذكريات مكانتهم النالدة أيام خلافة علي عليه السلام فجاءت رسلهم تترى إلى الحسين يحملون رسائل أهلها يدعونه إليهم، ويعلدونه النصرة^٣ ..

٢- مهمة مسلم بن عقيل :

ولكن الحسين تحرز، وأرسل ابن عمه مسلم بن عقيل إلى الكوفة ليختبر حقيقة الأوضاع هناك، وكانت مهمة مسلم تبدو بسيرة للعيان، فقد تابعت عليه وفود الشيعة تباهه سرا، مستغلين في ذلك ورع عامل يزيد على الكوفة النعمان بن بشير الأنصاري، الذي لم تجد نصائحه لهم بالطاعة ولزوم الجماعة، حتى كتب بعض أهل الكوفة — من الموالين لبني أمية — إلى يزيد بما يحدث، فأرسل إلى ابن زياد عامله على البصرة يضم إليه الكوفة أيضا^٤، وكان ابن زياد قد استطاع بحزم القضاء على بواذر تمرد الشيعة بالبصرة؛ وكانت قد وصلت إليهم أخبار الحسين ورسالة منه يطلب منهم فيها النصرة والبيعة^٥ ..

وسارع ابن زياد إلى الكوفة في بضعة عشر رجلا متلثما، يحسبه الناس الحسين، فيتلقونه بالخفاوة؛ كلما مر على جمع منهم؛ قائلين: مرحبا بك يا بن رسول الله ﷺ، قدمت خير مقدم^٦؛ بل إن والي الكوفة نفسه النعمان بن بشير لما طرق عليه ابن زياد بأبه كان يظنه الحسين؛ وناشده في رجاء الانصراف عنه^٧ !! ..

وما كاد يستقر بابن زياد المقام حتى أخذ أهل الكوفة بالحزم، ولكن ذلك لم يمنعه من تأليف قلوب أشرفها، ولو كانوا من غلاة الشيعة، فقد عاد هاني بن عروة المرادي لما علم بمعرضه —

^١ الطبري: السابق 341/5، 351. على حين تذكر الروايات أن الأمويين تصعوا ابن الزبير لما خرج إلى مكة معارضا يطلبونه فلم يعثروا عليه إذ كان قد تنكب الطريق الأعظم (السابق 341/5) ..

^٢ الطبري: السابق 343/5

^٣ الطبري: السابق 352/5 — 353

^٤ السابق 355/5 — 356

^٥ السابق 357/5

^٦ السابق 358/5

^٧ السابق 359/5 — 360

وكان مسلم بن عقيل يرول عنده — ورغم ذلك فقد راود بعض الشيعة هائنا على قتله وهو يعودده ، فرفض ذلك قائلاً: " ما أحب أن يقتل في داري " ، فخرج فما مكث إلا جمعة حتى مرض شريك بن الأعور " وكان كرمياً على ابن زياد وغيره من الأمراء ، وكان شديد التشيع " فأرسل ابن زياد إليه أنه سيعوده الليلة ، فخطط شريك لقتله ، وحرص على ذلك مسلم بن عقيل ، ولم يتخذ ابن زياد من ذلك المصير إلا رفض مسلم بن عقيل ذلك الغدر، وكراهية هاتى بن عروة له ^١ ، ولبس شريك بعدها ثلاثة أيام ثم مات ، فخرج ابن زياد لدفنه والصلاة عليه، وبلغه فيما بعد أن شريكاً كان يخطط لقتله ، فقال : والله لا أصلي على جنازة رجل من أهل العراق أبداً ^٢ ..

ولقد استطاع ابن زياد أن يكتشف أمر مسلم بن عقيل ومقره وأعوانه عن طريق دسياسة له ^٣ ، ثم تمكن من الظفر بماني بن عروة وحبيه ، فاستثار ذلك مسلم بن عقيل الذي كان قد بايعه للحسين ثمانية عشر ألفاً من أهل الكوفة ^٤ ، فخرج ثائراً ومعه أربعة آلاف رجل منهم ، ثم تاب إليه خلق كثير ممن كانوا بايعوه ، وحصروا ابن زياد في القصر وليس معه إلا ثلاثون رجلاً من الشرط وعشرون من أشرف الناس وأهل بيته ومواليه ^٥ ، وقد استطاع هؤلاء الأشراف تخذيل الناس من حول مسلم حتى تفرقوا عنه على نحو مزر ، فاختبأ في دار امرأة كوفية ، ثم التضح خبره فقبض عليه؛ ثم قتل ومعه هاتى بن عروة ^٦ ..

٣- الحسين يرفض جميع النصائح والتحذيرات :

كان مسلم بن عقيل قد كتب إلى الحسين بعد أن بايعه أهل الكوفة : " أما بعد ، فإن الرائد لا يكذب أهله ، وقد بايعني من أهل الكوفة ثمانية عشر ألفاً ، فعجل الإقدام حين يأتيك كتابي ، فيلن الناس كلهم معك ليس لهم في آل معاوية رأي ولا هوى ، والسلام " ^٧ .. وأحس أهل الحجاز بما ينوي الحسين عمله ، فخفوا إليه يحذرونه العجاسة من أمره ، ويخوفونه ما عرف عن أهل العراق من الغدر والخور ، ويناشدونه ألا يخرج إليهم فيريق دمه ومن معه ، ومن حذره ذلك عبد الله بن مطيع العدوي ^٨ وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام وعبد الله بن عباس

^١ السابق 363/5 — 364

^٢ الطبري : السابق 364/5

^٣ الطبري : السابق 362/5

^٤ الطبري : السابق 368/5 حسب رواية أبي مخنف ، وفي رواية عمار الدهني كان عددهم اثني عشر ألفاً (الطبري : السابق 348/5)

^٥ الطبري : السابق 368/5 — 369

^٦ السابق 369/5 — 379

^٧ الطبري : السابق 375/5

^٨ السابق 351/5 ، ابن عبد ربه : العقد الفريد 376/4

شيخ بني هاشم ، ومحمد بن الحنفية أخو الحسين لأبيه^١ وابن عمه عبد الله بن جعفر بن أبي طالب^٢ ، فكان مما قاله عبد الرحمن بن الحارث : " إنه قد بلغني أنك تريد المسير إلى العراق ، وإني مشفق عليك من مسيرك ، إنك تأتي بلدا فيه عماله وأمرأؤه ، ومعهم بيوت الأموال ، وإنما الناس عبيد لهذا الدرهم والدينار ، ولا آمن عليك أن يقاتلك من وعدك نصره ، ومن أنت أحب إليه ممن يقاتلك معه ، فقال الحسين : جزاك الله خيرا يا ابن عم : فقد والله علمت أنك مشيت بنصح وتكلمت بعقل ، ومهما يقض من أمر يكن ، أخذت برأيك أو تركته .. " ^٣ ..

وقال له ابن عباس .. " أخبرني رحك الله ! أتسير إلى قوم قد قتلوا أميرهم وضبطوا بلادهم ونفوا عدوهم ؟ فإن كانوا قد فعلوا ذلك فسر إليهم ، وإن كانوا إنما دعوك إليهم وأميرهم عليهم قاهر لهم وعماله تجبي بلادهم ، فإنهم إنما دعوك إلى الحرب والقتال ، ولا آمن عليك أن يغروك ويكذبوك ، ويخالفوك ويخذلوك ، وأن يستنفروا إليك فيكونوا أشد الناس عليك .. " ^٤ ، فلما كان من العشي أو من الغد أتاه مرة أخرى فقال : " يا ابن عم إني أتصير ولا أصير ؛ إني أخوف عليك في هذا الوجه المهلك والاستتصال ، إن أهل العراق قوم غدر ، فلا تقرنهم ، وأقم بهذا البلد فبأنك سيد أهل الحجاز ؛ فإن كان أهل العراق يريدونك كما زعموا ؛ فاكتب إليهم فلينفوا عدوهم ، ثم اقدم عليهم ، فإن أبيت إلا أن تخرج فسر إلى اليمن ، فإن بها حصونا وشعابا ، وهي أرض عريضة طويلة ، ولأبيك بها شعبة ، وأنت عن الناس في عزلة ، فتكتب إلى الناس وترسل ، وتبث دعائك ، فإني أرجو أن يأتيك عند ذلك الذي تحب في عافية ، فقال له الحسين ، يا ابن عم إني والله لأعلم أنك ناصح مشفق ؛ ولكنني قد أزمعت وأجمعت على السير ، فقال له ابن عباس : فإن كنت سائرا فلا تسر بنسائك وصيبتك ، فوالله إني لخائف أن تقتل كما قتل عثمان ونساؤه وولده ينظرون إليه .. ثم قال : والله الذي لا إله إلا هو لو أعلم أنك إذا أخذت بشعرك وناصيتك حتى يجتمع عليّ عليك الناس أظعنني لفعلت ذلك " ^٥ ..

بل إن أخاه محمد بن الحنفية نصحه نصيحة شبيهة بقوله ابن عباس ، فلما لم يستجب لسه منع أبناءه أن يسيروا مع الحسين إلى العراق ، فلم يعث أحدا منهم ، حتى وجد الحسين في نفسه على محمد ، وقال : ترغب بولدك عن موضع أصاب فيه ؟ فقال محمد : وما حاجتي إلى أن تصاب ويصابوا معك ؟ وإن كانت مصيبتك أعظم عندنا منهم^٦ ، وفي طريقه إلى الكوفة لقى الحسين

^١ الطبري : السابق 341/5 — 342 ، ابن الأثير : الكامل 65/3

^٢ الطبري : السابق 387/5 — 388 ، ابن الأثير : السابق 276/3 — 277

^٣ الطبري : السابق 382/5

^٤ الطبري : السابق 383/5

^٥ الطبري : السابق 383/5 — 384

^٦ ابن كثير : البداية والنهاية 165/8

الشاعر الفرزدق قادما منها ، فسأله عن أنباء الناس هناك فقال : " قلوب الناس معك وسيفهم مع بني أمية " ، فلم يحل ذلك كله بين الحسين والمسير إلى القدر المحتوم ^١ ..

٤ - هل كانت للأمويين يد في إخراج الحسين إلى العراق :

تشيع في بعض كتب التاريخ روايات أو تلميحات حول مسئولية الأمويين عن دفع الحسين إلى ثورة ميثوس منها للتخلص منه ، فقد زعم أبو مخنف في روايته عن بعض الجاهليين أن ابن الزبير قد نصح الحسين بالبقاء في مكة فقال له الحسين : والله لأن أقتل خارجا منها بشير أحب إلى من أن أقتل داخلا منها بشير ، وإم الله لو كنت في جحر هامة من هذه الهوام لاستخرجوني حتى يقضوا في حاجتهم ، والله ليعتدن على كما اعتدت اليهود في السبت ^٢ ..

وزعم عوانة بن الحكم أن الحسين لما لقي الفرزدق في طريقه إلى الكوفة سأله الفرزدق : ما أعجلك عن الحج ؟ قال : لو لم أعجل لأخذت ^٣ ، كما أورد اليعقوبي - المؤرخ الشيعي - رسالة مزعومة من ابن عباس إلى يزيد بن معاوية بعد قتل الحسين يقول له فيها " وما أنس من الأشياء فلست بناس اطرادك الحسين بن علي من حرم رسول الله ﷺ إلى حرم الله ، ودسك إليه الرجال تغتاله - فأشخصته من حرم الله إلى الكوفة ، فخرج منها خائفا يترقب وقد كان أعز أهل البطحاء بالبطحاء ... ولكن كره أن يكون هو الذي يستحل حرمة البيت وحرمة رسول الله ﷺ ، فأكبر من ذلك ما لم تكبر ، حيث دسست له الرجال ليقاتل في الحرم " ^٤ .. وهذه الرسالة طويلة بما يدفع إلى الشك فيها ، حيث لم يعرف ذلك العهد التطويل في الرسائل ^٥ ، وهي تحوي سبابا وإقاما لمعاوية وابنه بما يخالف حقيقة بيعه ابن عباس لكليهما ، وثناؤه في أكثر من مرة على معاوية واحترامه له ، ولا يسوق اليعقوبي دليلا على هذه الدعاوى الطويلة إلا محض القول بأنه حدث ، وقد كرر ابن أعثم هذه الأكاذيب فادعى أن بني أمية أخرجوا الحسين وطردوه وأخذوا ماله وشتموه وطلبوا دمه ، فلم يجد سبيلا إلا الخروج إلى الكوفة ^٦ ، وابن أعثم هذا مغال في تشيعه ومشهور برواية الأكاذيب ..

^١ الطبري : السابق/386/5

^٢ السابق/385/5

^٣ السابق/386/5 ، وهذه الرواية على لسان لبعة بن الفرزدق وهي تحوي سبابا لأحد الصحابة الورعين وهو عبد الله بن عمرو بن العاص ولعنا له ولعوايته ، فهي ظاهرة الرضع .

^٤ اليعقوبي : السابق/2/179 - 180

^٥ راجع الطبري : السابق/380/5

^٦ ابن أعثم : الفتح/124/5

وقد وجدت هذه الادعاءات صدى عند بعض المؤرخين المحدثين حيث يقول أحدهم .
ويبدو أن عامل يزيد على الحجاز لم ييذل محاولة جديده لمنع الحسين من الخروج إلى الكوفة ؛ بسبب وجود كثير من الشيعة في عمله ، بل لعله قدر سهولة القضاء عليه في الصحراء بعيدا عن أنصاره ^١ ..
ومن المؤكد أن هذه المزاعم قد وضعها رواة الشيعة بعد مقتل الحسين ليردوا بذلك انتقاد بعض الناس له ، وليضيفوا مجدا جديدا للحسين إذ ضحى بنفسه ولم يستحل القتال في الحجاز كما فعل ابن الزبير فيما بعد ، وقد جاءت هذه المزاعم من رواة العراق ليدفعوا عن أهلها وصمة تخاذلهم ، وليوحوا بأن الحسين لم يجد غيرهم ناصرا له ، بعد أن خذله أهل الحجاز ؛ وضيق عليه بنو أمية الخناق ، وأنهم — أي أهل العراق — لم يكونوا يستطيعون تحقيق النصر له ، إزاء قهر بني أمية لهم .. فلهم بذلك يدفعون عن أنفسهم ، وعن إمامهم الشهيد ..

غير أن هذه الروايات لا تصمد أمام النقد البريء ، ولا تقف أمام سيل الروايات الأخرى التي يخالف بها رواة الشيعة الآخرون وغيرهم هذه المزاعم ، والتي تؤكد أيضا على محاولات الأمويين منع الحسين من ثورته وإسداء النصيحة إليه بعدم الخروج إلى العراق ...
فإنه لما وصلت أخبار خروج الحسين من المدينة إلى مكة ، واتصالاته بأهل الكوفة إلى يزيد بن معاوية أرسل من فورهِ إلى عبد الله بن عباس يخبره بذلك ويسأله المساعدة في تجنب الكارثة ؛ فقد قال " .. وأحسبه قد جاءه رجال من أهل المشرق ؛ فمنوه بالخلافة ، وعندك منهم خير وتجربة ، فإن كان قد فعل فقد قطع راسخ القرابة ، وأنت كبير أهلك والمنظور إليه ، فاكفقه عن السعي في الفرقة .. " وكتب إليه في ذلك أبياتا من الشعر إلى من بمكة والمدينة من قريش ، فرد عليه ابن عباس يقول " .. إني لأرجو أن لا يكون خروج الحسين لأمر تكرهه ، ولست أدع النصيحة له في كل ما تجتمع به الألفة ؛ وتطفأ به النائرة ^٢ ..

ولما أجمع الحسين على الخروج إلى العراق — رغم جميع هذه التحذيرات له — اعترضه رسل عمرو بن سعيد بن العاص عامل الأمويين على مكة ؛ والذي ضمت إليه المدينة حديثا — يقودهم أخوه يحيى بن سعيد ، فقالوا له : انصرف ، أين تذهب ؟ فأبى عليهم ومضى ، وتدافع الفريقان حتى اضطربوا بالسياف ، ثم إن الحسين وأصحابه امتنعوا امتناعا قويا ومضى الحسين على وجهه ، فنادوه : يا حسين ألا تتقي الله ؟ تخرج من الجماعة ، وتفرق هذه الأمة ، فتأول الحسين قوله تعالى : (لي عملي ولكم عملكم ، أنتم بريئون مما أعمل وأنا بريء مما تعملون) ^٣ .

^١ د. ماجد : التاريخ السياسي للدولة العربية 72/2—73

^٢ ابن كثير : البداية والنهاية 164/8 ، وانظر ابن أعم : الفتح 188/5—119 ، وقد أورد تحذير يزيد للحسين رغم أنه من الشيعة الغلاة المشهورين بالكذب ، ورغم أنه هو نفسه الذي روى أن يزيد قد أمر عامله على المدينة بقتل الحسين إن لم يبايع (السابق 10/5—11، 26) ..

^٣ الطبري : السابق 385/5 والآية من سورة يونس (41)

وصاحب هذه الرواية هو أبو مخنف الراوية الشيعي المشهور ، رواها عن عقبة بن سمان أحد موالى الحسين الذين صحبوه فلم يفارقوه ..

وروى أبو مخنف أيضا عن علي بن الحسين قال : لما خرجنا من مكة كتب عبد الله بن جعفر ابن أبي طالب إلى الحسين بن علي مع ابنه عون ومحمد : " أما بعد ، فإني أسألك بالله لما انصرفت حين تنظر في كتابي ، فإني مشفق عليك من الوجه الذي توجه له . فلا تعجل بالسير ، فإني في أثر الكتاب والسلام " ؛ ثم قام ابن جعفر إلى عمرو بن سعيد بن العاص ، فكلمه وقال : اكتب إلى الحسين كتابا تجعل له فيه الأمان وتمنيه فيه البر والصلة ، وتوثق له في كتابك وتسأله الرجوع ، لعله يطمئن إلى ذلك فيرجع فقال عمرو بن سعيد : اكتب ما شئت ، والثني به حتى أختمه ، فكتب ابن جعفر الكتاب ثم أتى عمرو بن سعيد فقال له اختمه وابعث به مع أخيك يحيى بن سعيد ، فإنه أحسن أن تطمئن نفسه إليه ، ويعلم أنه الجند منك ، ففعل ، ولحقه يحيى بن سعيد وابن جعفر ، فأقرأه يحيى الكتاب ، وقال بعد ذلك : أقرأناه الكتاب وجهدنا به ، وكان مما اعتذر به إلينا أن قال: إني رأيت رؤيا فيها رسول الله ﷺ وأمرت فيها بأمر أنا ماض له ؛ علي كان أو لي ، ورفض أن يحدثهما بمضمون تلك الرؤيا ، وكان نص ذلك الكتاب الذي وجهه عمرو إلى الحسين " أما بعد فإني أسأل الله أن يصرفك عما يوبقك ، وأن يهديك لما يرشدك ، وبلغني أنك قد توجهت إلى العراق ، وإني أعيدك بالله من الشقاق ، فإني أخاف عليك فيه الهلاك ، وقد بعثت إليك عبد الله بن جعفر ويحيى بن سعيد ، فأقبل إلي معهما ، فإن لك عندي الأمان والصلة والبر وحسن الجوار لك ، الله علي بذلك شهيد وكفيل ومراع ووكيل ، والسلام عليك " ، ولكن الحسين لم يستجب له أيضا ^١ ..

ولعل في هذه الرؤيا التي يزعمون أن الحسين رآها تبريرا ساقه بعض المؤرخين ليرروا خروج الحسين وذلك بإسناده إلى سبب غيبي إيماني ، لا يملك إلا طاعته ، وقد ترددت قصة هذه الرؤيا في كتابات بعض المؤرخين المحدثين حيث يؤكدون دورها في تحريك الحسين وثورته ^٢ ، وقد عد بعض الناقدين ذلك احتيالا للتخلص من قمة وخزي تخاذل أهل الكوفة عن نصرة الحسين ، وتبرير خروجه بأنه كتاب من الله محتوم بذهب ^٣ ..

ولما صمم الحسين على الخروج إلى الكوفة لم تتوقف مساعي بني أمية لتجنب الموقف العصيب ؛ فقد كتب مروان بن الحكم إلى ابن زياد يحذره من قتل الحسين ، فقال : أما بعد فإن الحسين بن علي قد توجه إليك ، وهو الحسين بن فاطمة ، وفاطمة بنت رسول الله ﷺ ، وتالله ما

^١ الطبري : السابق 387/5-388

^٢ د. شعوط : أباطيل يجب أن تحمي من التاريخ ص 244-245

^٣ موسى جار الله : الشيعة في نقد عقائد الشيعة :ص (ك ، ل) ، د. مصطفى حلمي نظام الخلافة ص 203

أحد يسلمه الله أحب إلينا من الحسين ، فأياك أن تهيج على نفسك مالا يسده شيء ، ولا تنساه العامة ، ولا تدع ذكره آخر الدهر .. والسلام^١

وكتب عمرو بن سعيد رسالة تحذير مماثلة إلى ابن زياد جاء فيها : " أما بعد ، فقد توجه إليك الحسين ، وفي مثلها تعتق أو تكون عبدا ؛ تسترق كما يسترق العبيد^٢ ، ورغم غموض محتوى هذه الرسالة فإننا نرجح أنها تحذير لعبيد الله ، وذلك بناء على علمنا بموقف عمرو بن سعيد السابق ذكره ، ومحاولة منع الحسين من الثورة .

رسالة يزيد إلى ابن زياد قبل قتال الحسين :

إن رسالة عمرو بن سعيد السابقة والغامضة هذه ينسبها بعض الرواة إلى يزيد بن معاوية ، مع بعض التحوير ؛ حيث يزعمون أنه كتب إلى ابن زياد : إنه بلغني أن حسينا سار إلى الكوفة ، وقد ابتلي به زمانك بين الأزمان وبلدك بين البلدان ، وابتليت به من بين العمال وعنده تعتق أو تعود عبدا^٣ ..

ثم تعرضت ذات الرواية إلى تحريف أشد على يد مؤرخي الشيعة ، فيجعلها يعقوبي على النحو التالي : "... وقد بلي بلدك من بين البلدان ، وأيامك من بين الأيام فإن قتلته ؛ وإلا رجعت إلى نسبك وإلى أبيك عبيد ، فاحذر أن يفوتك^٤ " .. وواضح أن الأمر يقتل الحسين مرسوم إلى هذه الرواية ، والتهديد بإعادة ابن زياد إلى نسبه وإلى أبيه عبيد طعن شديد في بني أمية ، وفي معاوية بن أبي سفيان بالذات ، فهو الذي استلحق زيادا ، ولنا نصدق أن يقول يزيد ذلك أو يهدد به فيشع على أبيه وأهله ، وقد وجد الرواة أن نص الرسالة في أصله غامض ، ولا يحوى أمرا محمدا ، فأضافوا الأمر بقتل الحسين لينتفي الغموض .. وليحققوا مرادهم في التشهير بموقف يزيد والأمويين ، وإذا كنا نرجح تزيد الرواة في هذه الرواية ، فإننا كذلك نستبعد صدورها ؛ بهذا الغموض ؛ عن الخليفة في هذا الموقف الحرج ، حيث كان يتوقع منه في هذه الحال أن يحمد لعامله على العراق ما يجب أن يفعله بدقة ، وهذا ما حدث فعلا ، كما يروي أبو مخنف الذي لا يتهم لتشيعه بمحاباة بني أمية ؛ حيث روى أن يزيد في رده على ابن زياد ، لما أخبره بمصرع مسلم بن عقيل ؛ صوب صنعه في شأن مسلم ، وأضاف يحذره آثار هذه الثورة ، ويرسم له طريقة المواجهة إن حدث وخرج الحسين إلى الكوفة ،

^١ ابن كثير : البداية والنهاية 165/8 ، وينسب ابن أعمش هذه الرسالة إلى الوليد بن عتبة باعتباره أمير المدينة آنذاك (الفتح 121/5-122) ، ولم يكن الوليد أميراً لما خرج الحسين إلى الكوفة ، فقد كان يزيد استبدله بعمرو بن سعيد وابن أعمش معروف بعدم دقته ...

^٢ ابن كثير : السابق 165/8

^٣ ابن عبد ربه العقد الفريد 381/4-382

^٤ يعقوبي : السابق 175/2 وانظر الزبيري : نسب قريش ص 127-128

فقد كتب يزيد إليه يقول : " .. وإنه قد بلغني أن الحسين بن علي قد توجه نحو العراق ، فضع المناظر والمسالخ ، واحترس على الظن ، وخذ على التهمة ، غير أن لا تقتل إلا من قاتلك ، واكتب إلي في كل ما يحدث من الخير.. " ^١ ..

ولم تكن نية ابن زياد مبيتة لقتل الحسين ، فليس هناك ما يدل على عداوة مسبقة له عنده ؛ بل إن الأدلة تتجه إلى تأكيد حسن معاملة ابن زياد للشيعة ؛ ماداموا لا يجاريون نظام الدولة ، ولا يثرون عليها ، وقد مر بنا صنيعه مع هاني بن عروة وشريك بن الأعور .. ولقد قال ابن زياد لمسلم بن عقيل قبل مقتله فيما قال له : " وأما الحسين فإن لم يردنا لم نرده ، وإذا أرادنا لم نكف عنه " ^٢

الحسين يلاقي طلائع جيش ابن زياد :

وفي الطريق إلى الكوفة علم الحسين نبأ مصرع مسلم بن عقيل وصاحبه هاني بن عروة ، فأراد أن يرجع من حيث أتى ، غير أن بني عقيل الذين كانوا معه وثبوا عند ذلك قائلين : " لا والله لا نبرح حتى ندرك ثأرنا أو نذوق ما ذاق أخونا " ، فقال الحسين " لا خير في العيش بعد هؤلاء " ^٣ ، ويبدو رغم ذلك أن الأمل كان لا يزال يراود الحسين وبعض من معه في أن ينصره أهل الكوفة ، وأن أنصاره الذين معه كانوا يراهنون على مكانة الحسين الدينية ، فقد قالوا : " إنك والله ما أنت مثل مسلم بن عقيل ، ولو قدمت الكوفة لكان الناس إليك أسرع " ^٤ .. ولكن الحسين لم يكن يستطيع أن يصل إلى الكوفة ، فقد تحرز واليها اليقظ ابن زياد ، والذي يبدو أنه كان ينفذ أوامير الخليفة السابق ذكرها ، فوضع حراسة على الطريق المؤدى إلى الكوفة فكانوا لا يدعون أحدا يلبح ولا أحدا يخرج ^٥ ، بل إن مقدمة جيش ابن زياد قد أدركت الحسين عند ذي حسم ، وهم حوالي ألف فارس عليهم الحر بن يزيد التميمي الذي كلف في الطريق أن يجمع بالحسين ويرله على غير حصن ولا ماء ^٦ ، وكان رغم ذلك مؤثرا للعافية — هو وجنوده — يجلبون الحسين ، فكانوا إذا جاء وقت الصلاة اصطفوا خلفه ، جاعلين إياه إماما لهم ^٧ .. ثم لم يمض كبير وقت حتى جاء جيش العراق يقوده

^١ الطبري : السابق 381/5 ، ابن كثير : البداية والنهاية 165/8

^٢ الطبري : السابق 377/5 ، ابن أعمش : الفتوح 101/5

^٣ الطبري : السابق 397/5 — 398 ، الدينوري : الأخبار الطوال 248

^٤ الطبري : السابق 398/5

^٥ الطبري : السابق 392/5 ، 394 ، 401

^٦ السابق 408/5

^٧ السابق 401/5 — 402

عمر بن سعد بن أبي وقاص الذي كان هو الآخر كارها للتوجه إلى الحسين^١ ، وكان موقف الحسين واضحا مع الحر بن يزيد وعمر بن سعد ، حيث كان يقول : " كتب إلي أهل مصركم هذا أن أقدم ، فاما إذا كرهتموني فإني أنصرف عنكم " ^٢ ، فأرسل ابن سعد إلى ابن زياد يستشير في الأمر ...

٥- هل عرض الحسين الذهاب إلى يزيد :

تختلف رؤية الرواة والمؤرخين لموقف ابن زياد والحسين في هذه المرحلة من مراحل الثورة ؛ ف يرى فريق منهم أن الحسين قد عرض على ابن سعد - وبالتالي على ابن زياد حيث كان الأول يرأسه بما يتم - أن يختار واحدة من ثلاث : " إما أن تدعوني فأنصرف من حيث جئت ، وإما تدعوني فأذهب إلى يزيد ، وإما تدعوني فالحق بالثغور " ^٣ ، ويروي ذلك الفريق من المؤرخين أن ابن زياد لما علم بذلك العرض سر به وقبلة ؛ لولا شمر بن ذي الجوشن ، أحد رجال القبائل الكوفية ، الذي لم يزل به ، ينفخ في غروره ، حتى رفض ذلك ، وبعث بشمر هذا إلى ابن عمر لعرض على الحسين وأصحابه الرسول على حكم ابن زياد ، فإن قبلوا أرسل بهم إليه ، وإن أبوا قاتلهم ؛ وأوصى ابن زياد أنه إن رفض ابن سعد تنفيذ ذلك عزله شمر وقتله وأصبح هو أمير الجند^٤ ، وهكذا يصور هؤلاء المؤرخون والرواة الحسين مسلما باذلا ما في وسعه لتجنب القتال ، ويصورون ابن زياد متعتا متصلا متربعا بالحسين ، يسعى إلى إذلاله وقتله ، ولا تخلو هذه الروايات من التلميح إلى ضعف شخصية عامل العراق ؛ حتى يحوله أحد رجال القبائل المغامرين عن رأيه بتلك السهولة .

في حين ينفي بعض كتاب الشيعة المحدثين هذه الروايات ويضعونها من وضع الأمويين وأعدائهم ، وأن واضعها إنما أرادوا بذلك تشويه موقف الحسين ، وإيهام الناس بأنه قد خضع وخضع وأحنى رأسه للسلطان^٥ ، فإننا أيضا نستبعد لأسباب ليس منها أنها موضوعة بفعل الأمويين أو أعدائهم ، إذ إنها روايات شيعية الأصل ، رواها من الشيعة ، وكتب بيد أعداء الأمويين ، وإنها أساءت إلى عاملهم على العراق ومجدة موقف الحسين المسالم ، وجعلته شهيدا مظلوما ... كما أنه قد لا يكون في هذه الروايات معنى الخضوع من الحسين لبني أمية ، لو فهمنا عرض الحسين أن يذهب إلى يزيد أو أن يضع يده في يد يزيد " ليرى فيه رأيه " - حسب تفصيل أبي مخنف لرواية عمار الدهني السابقة - على أنه لا يعنى بالضرورة استعداده لمبايعة يزيد ، وإنما استعداده للتفويض

^١ الطبري : السابق 409/5 - 410

^٢ الطبري : السابق 411/5 - 412 ، الدينوري : السابق 224

^٣ الطبري : السابق 389/5

^٤ الطبري : السابق 414/5 ، ابن الأثير : الكامل 284/3

^٥ محمد مهدي شمس الدين : ثورة الحسين 215

مع يزيد " وليرى فيه رأيه " ؛ إذ لو كان الحسين يعني بقوله البيعة للخليفة الأموي لأعلنها صراحة ، ولم يكن عند ذلك مضطرا إلى عرض خيارات أخرى ، إذ أن البيعة ليزيد هي كل ما يريده الأمويون .
وما يزيد ضعف هذه الرواية ؛ ويدفعنا إلى الشك فيها ؛ أن بعض المؤرخين والرواة ينفي حدوث خضوع من الحسين نفيا تاما ، وينفي صدور ذلك القول منه ؛ إذ يروي أبو مخنف عن عقبة ابن سمعان — مولى الرباب زوج الحسين ^١ — قوله : صحبت حسينا فخرجت معه من المدينة إلى مكة ، ومن مكة إلى العراق ، ولم أفرقه حتى قتل ، وليس من مخاطبته الناس كلمة — بالمدينة ولا بمكة ولا في الطريق ولا بالعراق ولا في عسكر إلى يوم مقتله — إلا وقد سمعتها ، ألا والله ما أعطاهم ما يتذاكر الناس وما يزعمون من أن يضع يده في يد يزيد بن معاوية ، ولا أن يسير إلى ثغر من ثغور المسلمين ، ولكنه قال : فلأذهب في هذه الأرض العريضة حتى ننظر ما يصير أمر الناس ^٢ ..

وهذه الرواية أولى بالقبول من غيرها ، فهي صادرة عن شاهد عيان ؛ حضر معظم هذه الأحداث ، وكان قريبا منها ، كما أنها تتفق مع رواية شامية لما حدث ؛ تروي عن أحد أبناء روح بن زبياع الجذامي بسنده عن زحر بن قيس ^٣ الذي جاء بشيرا من العراق إلى يزيد فقال : ورد علينا الحسين بن علي في ثمانية عشر من أهل بيته وستين من شيعته ، فسرنا إليهم ، فسلناهم أن يستلموا ويزلوا على حكم الأمير عبيد الله بن زياد أو القتال ؛ فاختاروا القتال على الاستسلام .. ^٤ ..

وهذه الرواية أيضا تتفق مع طبيعة الحسين وإبائه وشحمه الذي يأبى عليه في هذا المقام أن يذهب إلى يزيد " ليرى فيه رأيه " ؛ وهو الذي عارض بيعته من أول وهلة ، بل عارض توليته عهد معاوية في أثناء حياة أبيه ، ويبدو أنه كان ينتقص قدره بشكل واضح ، وقد اشتهر ذلك عنه في الحجاز والعراق بحيث يعد إعلانه الآن عن استعداده الذهاب إليه هزيمة سياسية كاملة تقضي معها على المستقبل السياسي للحسين ؛ وهو ما لم يكن الحسين ليرضى به ، وهذه الرواية كذلك تتفق في العرض الذي عرضه الحسين قبل ذلك على الحر بن يزيد ، إذ عرض عليه بعد نزوله به أن يرجع إلى الحجاز من حيث جاء ، ولكن ابن زياد رفض ذلك العرض ^٥ ، وهي أكثر منطقية كذلك في تفسير موقف ابن زياد ؛ الذي يصعب تبريره في الروايات الأخرى إلا بالرغبة في التشفي والانتقام ، وهي رغبة لم نلاحظها في معاملته للشيعية في العراق حيث كان يحرص على صداقتهم ومحاملتهم كما سبق ... وهي تتفق مع المعروف من ذكاء ابن زياد السياسي ، الذي استطاع به تحويل موقف الكوفة تماما ، وجمعها خلفه في حرب من استدعاه أهلها ليبياعوه ، ولم يكن مما يتفق مع ذلك الذكاء أن يرفض ابن

^١ النظر الطبري : السابق 351/5

^٢ الطبري : السابق 413/5-414 ، ابن كثير : البداية والنهاية 175/8

^٣ الطبري : السابق 459/5

^٤ الطبري : السابق 401-402

زياد الخيارات السياسية التي تطرحها الروايات الأخرى على لسان الحسين ، مع أن فيها على الأقل تقليصاً له من ذلك المأزق ، وتحميلاً إياه على عاتق يزيد ؛ حيث ينبغي عليه أن يرى رأييه فيما عرضه الحسين ، كما أنه مما لا يتفق مع قدرات ابن زياد أن تصوره هذه الروايات وقد تلعب به شمر ابن ذي الجوشن فأحاله عن رأييه في موادة الحسين إلى تصميم كامل على قتاله بغير حجة ناصعة أو سبب قوى يعلل ذلك التحول .

مبررات موقف ابن زياد :

إن رواية عقبة بن سمان توحى إلينا بمبررات موقف ابن زياد في رفض عرض الحسين بن علي ، فذلك العرض يحقق أقصى ما يمكن من مكاسب للحسين ، على حين لا يقدم شيئاً للسلطة الحاكمة التي ثار عليها وجاء ليقضى على وجودها ، وقد تمكنت منه وحاصرتة ... فإن وافق ابن زياد على ذلك العرض فهو لن يصنع أكثر من أن يعطسي عدوه فرصة جديدة لاستجماع قواه وإصلاح خطئه في الاعتماد على أهل الكوفة والثقة فيهم ، وربما بث الدعوة ضد الأمويين وأرسل الرسل للدعوة إليه في هذه "الأرض العريضة" التي يريد أن يذهب إليها ، ويظل حتى يدبر أموره وعندها ينظر إلى "ما يصير إليه أمر الناس" ، وهل سيصير أمرهم عندها إلا إلى معركة جديدة قد لا يكسب فيها بنو أمية شيئاً ؟!

وينبغي أن نشير هنا إلى تلك العلاقة التي كانت سيطرة بين يزيد وابن زياد قبل تولي الأخير الكوفة وأن يزيد لم يوله إياها إلا مضطراً إزاء مخاطر ثورة مسلم بن عقيل^١ ، ومن الطبيعي بعد نجاح ابن زياد في قمع هذه الثورة وقتل قائدها ، وبعد أن أطرى الخليفة صنيعة ، أن يقدم دليلاً آخر واضحاً على ولائه ليزيد وإخلاصه للنظام ، ولن يتحقق ذلك ، فيما يرى ، إن ترك الحسين يعصي من حيث أتى ليشير معركة محتملة من جديد ..

الحسين يقاتل قتالاً مجيداً :

كانت المعركة بين الفريقين غير متكافئة ، ولم يكن يرجح للحسين نصر ، بل لم يكن هو في الأرجح يتوقع لنفسه النصر ، ولكنه حين خير بين الاستسلام المهين أو القتال والقتل اختار الميمنة الشريفة على ماعداها ، ولا نستطيع أن نساير بعض المؤرخين الذين يهونون من شأن ما بذله الحسين في أرض المعركة ، ولا أن نقبل قول أحدهم بأنه اكتفى بأن راح ينظر إلى أنصاره وهم يموتون في القتال من أجله ، وأبقى على نفسه حتى اللحظة الأخيرة^٢ ..

^١ الطبري : السابق 356/5

^٢ فلهوزن الخوارج والشيعية 187

٣٢٠

لقد قاتل الحسين قتالا مجيدا كما يتوقع من عربي شريف مسلم يرجو الجنة ويحتقر الموت ، ولقد مكث طويلا من النهار يحاربهم ، "ولو شاء الناس أن يقتلوه لقتلوه ، ولكنهم كان يتقي بعضهم بعض ، ويجب هؤلاء أن يكفهم هؤلاء" ^١ ؛ وكان كلما انتهى إليه رجل من الناس انصرف عنه وكره أن يتولى قتله ، ويؤء بعظيم إثمه عليه ^٢ ...

٦- أباطيل منسوبة إلى جيش ابن زياد :

كثيرة هي الروايات التاريخية التي تنسب إلى جيش ابن زياد شناعات مؤسفة ارتكبتها في حق الحسين وآله بعد قتله ، ولكنها رغم ذلك تعز على التصديق ، وتعجز عن الإقناع .
فلسنا نصدق أن الحسين سلب بعد قتله على هذا النحو الذي يدعونه ، ولسنا نصدق أن الناس مالوا على نساء الحسين وقتله ومتاعه حتى " إن المرأة لتنازع ثوبها عن ظهرها ، حتى تغلب عليه ، فيذهب به منها " ^٣ ، ولسنا كذلك نصدق أن يأمر عمر بن سعد أن يوطأ الحسين بإسحليل ، وقد استبعد ذلك قديما بعض المؤرخين المحققين ^٤ ..
لسنا نصدق ذلك كله ؛ لأن هؤلاء الرجال المقاتلين كانوا مسلمين اجتهدوا فاختلفوا فتقاتلوا ، ولم يكونوا ليخرجوا عن دائرة الإسلام وقيمه إلى هذا الحد الذي يهون عليهم المثلة بجسد ابن بنت نبيهم أو سلبه بعد موته ، أو ارتكاب هذه الخسة مع نساء عربيات ، ناهيك عن نساء بيت النبوة . ولقد كان بعض هؤلاء الرجال منذ قليل يصلون خلف الحسين اعترافا بقدره ، وكان عمر بن سعد قائد الجيش كارها ذلك القتال ، مؤثرا العافية ، لولا أن اضطر إليه اضطرارا ، وهو الذي حمى علي زين العابدين بن الحسين من عدوان بعض الجند الهائجين ، كما أمر بحماية بيت الحسين ، وألا يدخل أحد بيت نساءه وأن من أخذ من متاعهم شيئا فليرد عليهم ^٥ ، كما أمر بحمل نساء الحسين وأخواته وبناته وجواربه وحشمه في الحامل المستورة على الإبل ^٦ .. بل كان من النادمين أشد الندم على ما ارتكب بقتل الحسين على ما يروى الرواة ^٧ ، وفي عودته من ساحة القتال قال لمن سأله عن حاله : "

^١ الطبري : السابق 452/5 وانظر ص 453

^٢ السابق 448/5

^٣ السابق 453/5 ، ابن الأثير : الكامل 295/3

^٤ ابن كثير . البداية والنهاية 189/8

^٥ الطبري . السابق 453/5 — 454

^٦ الدينوري . الأخبار الطوال 259

^٧ الطبري السابق 467/5

لا تسأل عن حالي ، فإنه ما رجعت غائب إلى منزله بشر مما رجعت به ، قطعست القرابة القريبة ، وارتكبت الإثم العظيم " ^١ ..

وأخيرا لا ننسى الإشارة إلى أن شمر بن ذي الجوشن الذي تصوره الروايات جلغا أعرابيا غليظ القلب قد نفذ رغبة الحسين عليه السلام في أن يمنع رحله وأهله من جهال الناس وطغاهم ^٢ ..

حول العبث برأس الحسين بعد قتله :

تعرض كذلك موقف ابن زياد من أهل الحسين بعد استشهادهم إلى تشويه شديد ، فقد زعموا أن رأس الحسين لما حمل إلى ابن زياد ، ووضع بين يديه : أخذ ينكت بقضيب بين ثنيتيه ساعة ، فلما رآه زيد بن أرقم لا ينجم عن نكته بالقضيب قال له : اعل بهذا القضيب عن هاتين الثنيتين ، فولدني لا إله غيره ، لقد رأيت شفقي رسول الله ﷺ على هاتين الشفتين يقيلهما ، ثم انفضح الشحح بيكي ، فقال له ابن زياد : أبكى الله عينيك فوالله لولا أنك شيخ قد خرفت وذهب عقلك لضربت عنقك ^٣ ..

وثمة رواية شبيهة بتلك تزعم أن يزيد بن معاوية هو الذي نكت بالقضيب على فم الحسين ، ولكن الرواة هنا يجعلون الصحابي الذي أنكر عليه فعله أبا برزة الأسلمي وليس زيد بن أرقم ^٤ .. وأصل هذه الرواية الذي زيد عليه ، والصحيح منها ، ما رواه البخاري في صحيحه بسنده عن أنس ابن مالك قال : أتني عبيد الله بن زياد برأس الحسين ، فجعل في طست ، فجعل ينكت . وقال في حسنه شيئا ، فقال أنس : "كان أشبههم رسول الله ﷺ ، وكان مخضوبا بالوسمة " ^٥ ؛ فالتقط الرواة هذا القدر ليسجروا منه هذه القصة ؛ وليمزجوها بالخيال الخصب والعاطفة الحزني..

وليس معقولا أن يتكرر هذا الحدث في العراق والشام معا أو أن يحدث في مجلس ابن زياد ثم يتكرر مثله تماما في مجلس يزيد ، ولكن الرواة استغلوا ذلك ليشوهوا صورة الرجلين معا ولسيردوا السخط على بني أمية ، وقد نفى ابن تيمية حدوث ذلك في مجلس يزيد ، فقال . " وقد روي بإسناد مجهول أن هذا كان قدام يزيد وأن الرأس حمل إليه ، وأنه هو الذي نكت على ثناياه . وهذا مع أنه لم يثبت ففي الحديث ما يدل على أنه كذب ، فإن الذين حضروا نكته بالقضيب من الصحابة لم يكونوا بالشام (وقتها) ، وإنما كانوا بالعراق " ^٦ .

^١ الدينوري : السابق 260

^٢ الطبري : السابق 450/5 ، فلهو زن : الخوارج والشيعة 185

^٣ الطبري : السابق 456/5

^٤ السابق 390/5 ، 463

^٥ البخاري : كتاب فضائل الصحابة ، الترمذي : حديث رقم ٧٧٨ ، ابن تيمية : منهاج السنة النبوية 248/2

^٦ منهاج السنة النبوية 249/2

٧- موقف ابن زياد من آل الحسين بعد قتله :

وزعموا أن عبيد الله بن زياد لما رأى زين العابدين علي بن الحسين وكان فيما روى غلاماً صغيراً نجاً من المعركة لأنه كان مريضاً لم يشترك فيها ، خاطبه فرأى منه عقلاً وحجة ؛ فهم بقتله وقال : انظروا هل أدرك ما يدرك الرجال ؟ فكشط إزاره عنه ، فقالوا : نعم قد أدرك ، فقال : انطلقوا به فاضربوا عنقه ، لولا أن استعطفته عليه عمته زينب بنت علي بن أبي طالب عليها السلام وألصقت فيه رابطة الرحم وآثار النخوة ، فتركه ^١ ، وروى بعضهم أن الذي فعل ذلك بزين العابدين هو يزيد ابن معاوية ^٢ ..

وهذه القصة تبدو مختلفة من أساسها ، وقد أكد الواقدي ذلك الاختلاق حين نص على أن زين العابدين توفي سنة أربع وتسعين للهجرة ؛ على الرأي الراجح ؛ عن ستة وخمسين عاماً ، ثم قال : " وهذا يدل على أن علي بن الحسين كان مع أبيه وهو ابن ثلاث وعشرين سنة ، وليس قول من قال إنه كان صغيراً ؛ ولم يكن أنبت بشيء ، ولكنه كان يومئذ مريضاً فلم يقاتل ، وكيف يكون يومئذ لم ينبت وقد ولد له أبو جعفر محمد بن علي ؟ ولقي أبو جعفر جابر بن عبد الله ورووا عنه ، وإنما مات جابر سنة ثمانية وسبعين " ^٣ ..

وليس صحيحاً كذلك أن ابن زياد قد أساء معاملة نساء الحسين بعد قتله ، أو في ترحيله هن إلى الشام ، فالروايات التاريخية تخبرنا أن أحسن شيء صنعته ابن زياد أنه أمر هن بمزل في مكان معتزل ، وأجرى عليهن رزقا ، وأمر هن بنفقة وكسوة ^٤ ، ويقول ابن تيمية في رده على بعض كذابي الرافضة : " وأما ما ذكر من سبي نسائه ، والدوران بهن على البلدان وحملهن على الجمال بغير أقتاب ، فهذا كذب ، وباطل ، ما سبي المسلمون — والله الحمد — هاشمية قط ، ولا استحلحت أمة محمد عليه السلام سبي هاشمية قط ، ولكن أهل الأهوى والجهل يكذبون كثيرا " ^٥ ..

بل إن المرجح أن ابن زياد بعد أن ذهب عنه نشوة النصر ، أحس فداحة خطئه ، وكان ذلك الشعور هو المسيطر على بعض أفراد أسرته القريبين منه ؛ فقد كانت أمه تقول له : " ويا لك ماذا صنعت ، أو ماذا ركبت " ^٦ وكان أخوه عثمان بن زياد يقول : " لوددت والله أنه ليس من بني

^١ الطبري : السابق 457/5 — 458 ، 390 ابن الأثير : الكامل 297/3 ، ابن سعد : الطبقات الكبرى 212/5

^٢ الأصفهاني : مقاتل الطالبين 119—120

^٣ ابن سعد السابق 221/5

^٤ الطبري : السابق 393/5

^٥ منهاج السنة النبوية 249/2

^٦ الطبري : السابق 484/5

زياد رجل إلا وفي أنفه خزامة إلى يوم القيامة ، وأن حسينا لم يقتل ؛ فلا ينكر عليه عبيد الله قوله ^١ ؛ كما يبدو أنه كان يحاول أن يكبح جراح بعض الجند الهائج ، بعد انتهاء المعركة ، فقد حدث أن لجأ غلامان لعبد الله بن جعفر — أو لابنه — ممن لجؤا من القتل ، إلى رجل من طيء ، فضرب الطائي عنقيهما ، وجاء برأسيهما حتى وضعها بين يدي ابن زياد ، فهم عبيد الله أن يضرب عنق الرجل ، وأمر بداره فهدمت ^٢ ...

٨- مدى مسئولية يزيد بن معاوية عن قتل الحسين :

وفي حين يلقي بعض المؤرخين بالقسط الأكبر من المسئولية عن قتل الحسين على ابن زياد ، فإن آخرين منهم يلقون بها على عاتق الخليفة يزيد بن معاوية ، وحجتهم في ذلك أنه ولي الأمر ، ولا يمكن أن يقوم عامله بمثل ذلك العمل الخطير دون إذنه ، أو بغير علمه وإرادته ^٣ ..

لقد مر بنا أن يزيد كان قد كتب إلى ابن زياد بعد مصرع مسلم بن عقيل ، يطري عمله ، ويحذره من قدوم الحسين ، وبأمره ببث الحراسة على الحدود ، وألا يقاتل إلا من قاتله ، مما يعني أن خروج الحسين نحو العراق قد بلغه ، وربما كان ذلك من أحد عيونه ، أو من أحد عماله ، أو أنصاره في الحجاز ، ولقد كان خروج مسلم بن عقيل — أي إعلانه ثورته — في الثامن من ذي الحجة سنة ستين للهجرة ، على ما يذكر الطبري في تاريخه ^٤ ، ولا ريب أن إرسال ابن زياد إلى الخليفة يحكي له ما حدث مع ابن عقيل ؛ ثم رد الخليفة عليه في رسالته السابق ذكرها ، قد استغرق وقتا طويلا طول المسافة بين الكوفة ودمشق في ذلك الزمان ، وعندما وصلت تعليمات الخليفة كان الحسين على ما يبدو على مشارف العراق ، إذ إنه خرج من مكة يوم خروج مسلم على ابن زياد في الثامن من ذي الحجة ^٥ ، ثم نشبت المعركة بين الفريقين بسرعة وانتهت بسرعة في العاشر من محرم سنة ٦١ هـ ؛ وعلى ذلك لم تتح لابن زياد الفرصة لاستشارة الخليفة فيما جد من أحداث ، ولا لأخذ رأيه في المفاوضات التي دارت مع الحسين . ولو كان عند ابن زياد رأي قاطع من الخليفة بشأن ترك الحسين أو قتله لما كان هناك داع إلى التفاوض والمراجعة التي حدثت وتحدث عنها الرواة كما سبق ... فيزيد لم يعلم إذن بعرض الحسين على عامله أن يعود إلى الحجاز أو أن يذهب إلى غيرها من الأرض الواسعة حتى ينظروا إلى ما يصير أمر الناس ، والمعروف عن النظام الأموي اعتماده اللامركزية في

^١ السابق 461/5 ، ابن الأثير : الكامل 303/3

^٢ الطبري : السابق 393/5

^٣ فلهرون : الخوارج والشيعة ص 186 ، وانظر د.ريس : عبد الملك بن مروان ص 107

^٤ الطبري : السابق 381/5

^٥ السابق والصفحة

الإدارة^١ ، وهو ما يعطي للعامل على الولاية فرصة كبيرة في اتخاذ القرار وتحمل مسئوليته ، فليس غريبا إذن أن يستعمل ابن زياد هذه الحرية المسموح بها ، والمتعارف عليها ، ليكتسب فيما يبدو مكانة أسمى عند الخليفة ؛ لينهي أسباب الجفاء بينهما عندما يخلصه من أخطر منافسيه ...
ولما سير ابن زياد آل الحسين ونساءه إلى دمشق أظهر الخليفة حزنه وأسفه لما حدث ، ودمعت عيناه وهو يتحدث إلى رسول ابن زياد فيقول : " لعن الله ابن سمية ، أما والله لو أني صاحبه لعفوت عنه فرحم الله الحسين " ، ولم يصل ذلك الرسول بشيء كما كان يتوقع^٢ ، ولما وضعت رأس الحسين أمامه قال يزيد :

يقلقن هاما من رجال أعزة علينا ، وهم كانوا أعق وأظلما

أما والله لو أنا صاحبك لعفوت عنك " ^٣ ، ورق يزيد لآل الحسين فقال للنعمان بن بشير : " جهزهم بما يصلحهم ، وابعث معهم رجلا من أهل الشام أميننا صالحا ، وابعث معه خيلا وأعوانا ، فيسير بهم إلى المدينة " ، ثم أمر بالنسوة أن يتزلن في دار على حدة ، معهن ما يصلحهن ، ومعهن أخوهن علي ابن الحسين ، " فخرجن حتى دخلن دار يزيد ، فلم تبق من آل معاوية امرأة إلا استقبلتهن تبكي وتنوح على الحسين ، فأقاموا عليه المناحة ثلاثا ، وكان يزيد لا يتغدى ولا يتعشى إلا دعا علي بن الحسين .. ولما أرادوا أن يخرجوا دعا يزيد عليا زين العابدين ليودعه فقال له : " لعن الله ابن مرجانة ، أما والله لو أني صاحبه ما سألتني خصلة أبدا إلا أعطيتها إياه ؛ ولدفعت الحتف عنه بكل ما استطعت ؛ ولو بهلاك بعض ولدي ، ولكن الله قضى ما رأيت ، كاتني وأنه كل حاجة تكون لك " ، وكسلمهم ، وأوصى بهم رسوله فخرج بهم وأحسن الصنع معهم ، ولم يزل يلاطفهم ويسأل عن حوائجهم حتى دخلوا المدينة^٤ ..

فأين ذلك مما يزعمون أنه أخذ ينكت بقضيب في ثايا الحسين ، أو أنه أخذ ينشد شامتا شعر ابن الزبيرى يوم أحد يشمت بقتلى المسلمين :
ليت أشياخي يبدر شهدوا جزع الخزرج من وقع الأسل^٥

^١ د. حلمي : الخلافة والدولة في العصر الأموي 123

^٢ الطبري : السابق 460/5

^٣ السابق والصفحة

^٤ راجع الطبري : السابق 462/5 ، ابن أعمش : الفتح 237/5-238 ، ابن عبد ربه : العقد القديم 382/4 - 383 ، الإمامة والسياسة 8/2 ، ابن تيمية : منهاج السنة 249/2

^٥ راجع ابن أعمش . السابق 240/5 - 241 وإذا قارنا ذلك بالحاوية أعلاه وجدنا تناقضه المكشوف في صفتين أو ثلاث 11 وراجع الأصفهاني (مقاتل الطالبين 119)

ولقد ظل موقف يزيد من بني هاشم غير متسم بالعداء ، فقد بايعه محمد بن الحنفية ، وكنل يتردد عليه ويזורه : وينال صلاحته^١ ، ولما خلع أهل المدينة فيما بعد يزيد لم يشاركهم في ثورتهم ابن الحنفية ولا علي بن الحسين عليه السلام ..

٩- لماذا لم يعزل يزيد ابن زياد ؟

ولكن إذا كان الأمر كذلك فلم لم يعزل يزيد عامله على العراق — ابن زياد — أو يحاسبه على ما جره عليه من غضب كثير من الناس ومقتهم وسوء ظنهم ؟؟ ..

يبدو أن سبب الإبقاء على ابن زياد أميراً على العراق بعد ذلك يعود إلى معرفة يزيد بطباع أهل ذلك المصر ، التي اشتهرت عنهم في التاريخ ، فهم إذا حكمهم وال قوي انكسروا واستكانوا ، وإذا خلع وجاءهم وال لين يؤثر العافية قردوا عليه ، ومكروا به ، ودبت فيهم الفسقة ، ومسرت روح الثورة والمؤامرة ، وقد عرف عنهم ذلك منذ أواخر عهد عمر بن الخطاب وفي أثناء الثورة على عثمان ، وفي أثناء حكم علي بن أبي طالب ومعاوية بعده ، فرما عن يزيد أنه لو عزل عنهم ابن زياد في هذه الظروف التي تضطرم فيها النفوس تعاطفا مع آل البيت ، فسوف يفتق أهل الكوفة من هذه الصدمة ؛ ويتحول التعاطف إلى عمل جدي ، ويتقلب الهمس إلى ثورة عارمة ..

وإن وقائع التاريخ لتدل على صدق ذلك الحدس ، ففي أعقاب مقتل الحسين عليه السلام ظهرت بوادر حركة التوايين الذين تحركوا للطلب بدم الحسين ولكن حركتهم هذه سرية خالفة حتى زال عنهم ابن زياد بعد موت يزيد بن معاوية واضطراب الأمر بالشام ، ويقول أبو مخنف عنهم : " كان أول ما ابتدعوا به من أمرهم سنة إحدى وستين وهي السنة التي قتل فيها الحسين عليه السلام فلم يزل القوم في جمع آلة الحرب ؛ والاستعداد للقتال ، ودعاء الناس في السر — من الشيعة وغيرها — إلى الطلب بدم الحسين ، فكان يجههم القوم بعد القوم والنفر بعد النفر ، فلم يزالوا كذلك ، وفي ذلك ، حتى مات يزيد بن معاوية ... فقالوا قد مات هذا الطاغية ، والأمر الآن ضعيف ..^٢ ! ! ولم يمت يزيد وينخلع عنهم ابن زياد إلا سنة ٤٤ هـ أي بعد ثلاث سنوات من قتل الحسين ..

فإذا كان الأمر على ذلك ، فماذا كان يمكن أن يحدث لو عزل عنهم ابن زياد وجاءهم حاكم ضعيف — أو قوي لم يجربوا بطشه — والنفوس ثائرة ، ومدعو التشيع متربصون لرفع راية الطلب بدم الحسين ، وهم أول من قتله وخذله ؟؟

كما أنه لم يكذب يمضي وقت طويل حتى ظهرت بوادر التمرد في الحجاز حيث كان ابن الزبير يدعو إلى نفسه سرا ويؤلب الرأي العام على بني أمية مستغلا قتل الحسين أروع استغلال ؛ رغم

^١ ابن أعثم : السابق 258/5 — 260

^٢ الطبري . السابق 558/5

أنه لم يشاركه ثورته حين ثار ولم يبايعه ؛ كما ثار أهل المدينة وخلعوا خلافة يزيد من أعناقهم، فاضطر يزيد بن معاوية إلى مواجهة هذا وذاك ، وآثر أن يواجه الأوضاع في الجباز وهو مطمئن إلى استقرارها في العراق تحت قبضة واليها القوي ، من غير أن يدخل في تجربة وال جديد ...

من مبالغات الشيعة بعد مقتل الحسين :

كان مقتل الحسين فرصة سانحة لأعداء الأمويين للتشنيع عليهم ، وقد استغله الشيعة على نحو مثير ليكتشفوا من العداء لبني أمية إبان دولتهم، وبعد زوالها .. ولقد جاء تصويرهم مقتل الحسين محققا ذلك الهدف كما سبق بيانه ، غير أن حديثهم عن مظاهر الحزن الكوني التي صاحبت مقتل الحسين ، والانتقام الإلهي من الذين شاركوا في قتله ؛ تجاوز حدود المبالغة المعقولة إلى درجات من الغلو المموج ، ولم يقتصر الكذب في ذلك على اختلاق الروايات التاريخية أو المبالغة فيها ، بل تعداه إلى الدس في الحديث الشريف ووضعه ، ولن نحاول أن نستقصي ما اختلقوه من ذلك ؛ وهو كثير^١ ؛ ولكن يكفي هنا ذكر هذه النقول من رد بعض العلماء المحققين على هذه الأكاذيب ..

يقول ابن كثير: " ولقد بالغ الشيعة في يوم عاشوراء^٢ ، فوضعوا أحاديث كثيرة وكذبا فاحشا ، من كون الشمس كسفت يومئذ حتى بدت النجوم ؛ وما رفع يومئذ حجر إلا وجد تحته دم ، وأن أرجاء السماء احمرت ؛ وأن الشمس كانت تطلع وشعاعها كأنه الدم ، وصارت السماء كأنها علفة ، وأن الكواكب ضرب بعضها بعضا ، وأمطرت السماء دما أحمر ، وأن الحمرة لم تكن في السماء قبل يومئذ .." ، ويسترسل ابن كثير في نقل بعض هذه الخرافات ثم يقول : " إلى غير ذلك من الأكاذيب والأحاديث الموضوعة التي لا يصح منها شيء " .. وللشيعة الرافضة في مصرع الحسين كذب كثير ، وأخبار باطلة^٣ ..

ويقول ابن تيمية في رده على أكاذيب أحد الرافضة في هذا الشأن : " وأما ما ذكره من الأحاديث والعقوبات الحاصلة بقتل الحسين ؛ فلا ريب أن قتل الحسين من أعظم الذنوب ، وأن فاعل ذلك والراضي به والمعين عليه مستحق لعقاب الله الذي يستحقه أمثاله ، لكن قتله ليس بأعظم من قتل من هو أفضل منه من النبيين والسابقين الأولين ، ومن قتل في حرب مسلمة (الكذاب) وكشهداء أحد ، والذين قتلوا في بئر معونة ، وكقتل عثمان وقتل علي ... ، وهذا وغيره يتبين أن كثيرا مما روي في ذلك كذب مثل ..." ، ثم ذكر شيئا بما نقله المؤرخون^٤ ..

^١ راجع العقوي : السابق 176/2 ، ابن أعمم الفتوح 212/4 — 214 ، 216 ، 220 ، 221 ، 223 ، 224 ، السيوطي

تاريخ الخلفاء 207—208 ، ابن الأثير : السابق 303/3

^٢ هو يوم العاشر من محرم وفيه قتل الحسين (ض) ..

^٣ البداية والنهاية 201/8 — 202

^٤ منهاج السنة النبوية 249/2 — 250

وقال ابن كثير: " وإنا يريدون بهذا وأشباهه أن يشنعوا على بني أمية ، لأنه قتل في دولتهم " ^١

١٠ - نظرة عامة على ثورة الحسين وتقييمها :

لا نستطيع أن نحزم بأن الحسين عليه السلام قد ثار لأجل طلب الخلافة في البيت العلوي ، باعتبارها حقاً طبيعياً له ، كما يذهب الشيعة من منظورهم الخاص بترتيب الأئمة وتوريث الخلافة فيهم ؛ وإن لم ينالوها .. وإنا ثار الحسين لأنه ظن الفسوق بالخليفة الجديد — يزيد بن معاوية — رغم أنه كان قد تولى الخلافة لقوره ، ولم يظهر منه ما يؤكد ذلك ^٢ ، ويدور أن الدعاية المعادية لمعاوية وبني أمية قد أصابت بعض النجاح في تشويه صورة يزيد منذ هم أبوه باستخلافه ... وقد كان الحسين يرى في نفسه الأهلية لخلافة المسلمين في فضله وعلمه — وهما مالا شك فيه — وكفايته وهي ما لم يتأكد بصورة قاطعة لبعده عن الأعمال الإدارية والسياسية منذ عهد بعيد. كما قدر الحسين أن في قوة أنصاره وشيعته ما يكفي لتحقيق ذلك الغرض .. فأهل الكوفة أرسلوا كتبهم بدعوتهم إليه ، وهو لم يقنع بذلك فقط — وإنا أرسل ابن عمه مسلم بن عقيل إليهم ليتأكد من صدقهم ، فأرسل ابن عقيل إليه يستدعيه ويشيره بعد مبايعة ثمانية عشر ألف رجل لسه ، كما كان الحسين يظن — فيما يبدو — ولاء الحجاز له عند طلبه الخلافة ، وهو ما كان يبدو أمراً محتملاً على أية حال ^٣ ...

وعلى ذلك فلا يصح القول بأن الحسين لم يبذل جهداً يذكر لتحقيق هدفه ، أو أنه " مد يده كالطفل ليأخذ القمر وادعى عرض الدعاوى ولكنه لم يبذل شيئاً في سبيل تحقيق أدناها " ؛ على حد تعبير بعض المستشرقين ^٤ ، ومن ثم فإن خروج الحسين لا يعد خروجاً على تعاليم الإسلام التي تشترط الإعداد الجيد للثورة على الحاكم الجائر حتى يغلب على الظن القدرة على ذلك ^٥ ، فهو قد أعد القوة كما تصورها ، حتى ظنها كافية لتحقيق غرضه ، ولكن حساباته — بلا شك — كانت خاطئة ...

ولم يستطع مسلم بن عقيل أن يحتفظ بولاء أهل الكوفة الذين بايعوه للحسين في ظل ولاية النعمان بن بشير عليها ، فقد عزل النعمان العامل اللين الورع ، وتولى بدله ابن زياد الحازم اليقظ ، ولم يبادر مسلم بالسيطرة على الكوفة قبله — وربما لم تكن عنده حرية التصرف من الحسين إلى هذا

^١ البداية والنهاية 202/8

^٢ الخطب: محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية 130/2

^٣ يزعم بعض المؤرخين أن عامة المسلمين عرضوا على الحسين الخلافة وبايعوه (راجع عمر أبو النصر: الحسين بن علي ص 14) !! وذلك ما لم يحدث طبعاً ..

^٤ فلهوزن: الخوارج والشيعة 187

^٥ راجع ابن تيمية: منهاج السنة 243/5

الحد — ولم يستطع مواجهته لما هدد لنجاح مهمته ، فاستسلمت الكوفة لابن زياد ، ونال مسلم مصرعه بعد أن أرسل رسالة تحذير للحسين الذي لم يعرف ذلك إلا بعد أن تحرك وأصبح على مشارف العراق ، وهنا ثار أقارب مسلم بن عقيل وزحزحوا الحسين عن موقفه الجديد الذي آثر فيه الانسحاب بعد علمه بالتطورات الطارئة ، فواصل المسير نحو الكوفة ، معتمدا على اختلاف نظرية العراقيين له عن نظرهم لابن عقيل ..

إن كثيرا من المؤرخين يلومون الحسين على ثقته في أهل الكوفة رغم خذلانهم أباه عليا ، واعتدائهم على أخيه الحسن ، وهما أفضل منه ، وكانا خليفين شرعيين يعترف بهما معظم المسلمين .. ومن ثم فإن أهل العراق يتحملون القسط الأكبر من المسئولية عن مقتل الحسين ^١ ، فهم قتلته الحقيقيون ؛ حيث لم يشترك في الجيش الذي قاتل الحسين إلا العراقيون ... ورغم ذلك فقد حاول بعض المؤرخين التماس العاذر لأهل العراق ؛ " إذ لم يكونوا يستطيعون شيئا أمام الحكم الأموي القوي " ^٢ ، وتساءل : إذا كانوا كذلك فلماذا أرسلوا إلى الحسين يستدعونه ويعدونه النصر ليخوضوا حربا شرسة ضد نظام حكم قوي تسانده عصابات شتى ؟؟ ..

ولم يكن يتوقع أن يعطى بنو أمية السلطة طائعين للحسين ، فقد كان من الطبيعي أن يدافعوا عن سلطانهم ؛ لقد كان ذلك أيضا يعني الدفاع — عند كثير من الناس — عن النظام والأمن والخلافة الشرعية المعترف بها ^٣ ، ولم يكن يعجزهم أن يجدوا حجة شرعية لقتال الحسين ، " فقد تأول عليه من قتله أنه جاء ليفرق كلمة المسلمين بعد اجتماعها ، وليخلع من بايعه الناس واجتمعوا عليه ، وقد ورد في صحيح مسلم الحديث بالزجر عن ذلك والتحذير منه ، والتوعد عليه ، مثل قوله ﷺ : " إنه ستكون هنات وهنات ؛ فمن أراد أن يفرق أمر هذه الأمة وهي جميع فاضربوه بالسيف كأننا من كان " ^٤ ..

غير أن ذلك الحديث لا ينطبق تماما على ثورة الحسين ، فإنه لما بلغه ما حدث لابن عمه مسلم بن عقيل وتخلي أهل الكوفة عنه عرض الرجوع من حيث جاء ^٥ ، ولكن ابن زياد لم يوافق

^١ الخضرى : محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية 129/2 — 130 ، ابن العربي : العواصم من القواصم 245 ، ابن كثير : البداية والنهاية 202/8 ، محمود شاكر : التاريخ الإسلامي 13/4 ، د. مصطفى حلمي : نظام الخلافة ص 203 — 204 ، د. الخربوطلي : تاريخ العراق 117 — 118

^٢ د. عبد المنعم ماجد : التاريخ السياسي للدولة العربية 79/2

^٣ راجع دوزي : تاريخ سلمى إسبانيا 58/1

^٤ مسلم : صحيح مسلم ، كتاب الإمامة ، ابن كثير : البداية والنهاية 202/8 ، ابن العربي : العواصم ص 245

^٥ ابن تيمية منهاج السنة 247/2 — 248 ، ويذهب ابن خلدون إلى أن الحديث لا ينطبق على الحسين ، وإن قتاله ليس قتال بغاة لأن يزيد فيما يرى ليس إماما عادلا ، بل هو فاسق ظهر فسقه عند الكافة " (راجع المقدمة 621/2 — 623) ، وليس هناك ما يؤكد رأى ابن خلدون في ظهور فسق يزيد عند الكافة على نحو ما يذهب إليه ..

على ذلك ، لأن ما عرضه الحسين من الذهاب إلى الأرض العريضة والانتظار حتى يرى ما يصير إليه أمر الناس ، لا يحقق سلاما دائما ؛ وإنما يبقى احتمالات الشقاق والثورة قائمة قدام سلطان بني أمية ، ووحدة الدولة الإسلامية ، غير أن جنوح الحسين للسلام والانسحاب من المعركة كان ينبغي أن يجد ردا إيجابيا من ابن زياد يراعي فيه مشاعر المسلمين ومكانة الحسين وقربته من رسول الله ﷺ ، كما أنه لا يجوز ارتكاب جرم محقق خوفا من شقاق محتمل ؛ وذلك ما كان يفضل فيما يبدو يزيد بن معاوية الذي راعه ما حدث ، وأكد لآل الحسين لما ذهبوا إلى دمشق أنه لو كان صاحب الحسين مسا قتله ولقبل منه أية خصلة يعرضها .. وعلى ذلك فقد قضى الحسين شهيدا مظلوما مثابا ^١ ..

ولكن خروج الحسين وثورته استغلت براعة من أعداء الأمويين وظل هتاف " يا لشارت الحسين " شعارا لعدة ثورات انتهت بالفشل ؛ ولكن بعد إراقة الدماء الغزيرة بين المسلمين ، ولذلك " فإنه لم يكن في الخروج مصلحة لا في دين ولا في دينا ، بل تمكن أولئك الظلمة الطغاة من سبب رسول الله حتى قتلوه مظلوما شهيدا وكان في خروجه وقلته من الفساد ما لم يكن يحصل لو قعد في بلده ، فإن ما قصده من تحصيل الخير ودفع الشر لم يحدث منه شيء بل زاد الشر بخروجه وقتله ، ونقص الخير بذلك ، وصار سببا لشر عظيم ، وكان فعل الحسين مما أوجب الفتن ، كما كان قتل عثمان مما أوجب الفتن " ^٢ ...

إن خيال بعض المؤرخين يصل بهم إلى تصور أن دافع الحسين إلى ثورته رغم معرفته بخيانة أهل الكوفة له هو توير المجتمع الإسلامي آنذاك — أي دفعه للثورة — والتضحية بنفسه وآله في سبيل تحريك الأمة الهامدة للمطالبة بحقها في اختيار قيادتها ، وهم يصفون ذلك المجتمع الإسلامي آنذاك بالسلبية واللامبالاة ، أو بالتلون والضعف ، أو بأنه مجتمع " مريض يشتري ويبيع بقليل من المال ، وكثير من العذاب والإرهاب " ^٣ .. ويصفون إقدام الحسين على ثورته بأنه إقدام القذافي الذي لا يطعم في الحياة ، أو أنه عمل انتحاري فاجع يلهب الروح النضالية في هذا المجتمع " ^٤ ..

إن ذلك الرأي يخلط بين أهداف الثورة في حينها وبعض نتائجها التي آلت إليها ^٥ ، كما أنه يهمل الحقيقة التاريخية القائلة بأن الحسين أراد الانسحاب من المعركة لما علم بتخلي جنده عنه ، لأنه كان مسلما يلتزم قواعد الإسلام في ثورته ، ويعلم أنه لا بد لتحقيق مشروعية هذه الثورة من الإعداد

^١ ابن تيمية : منهاج السنة 243/2 ، 256 ، عمر أبو النصر : الحسين بن علي ص 15 .

^٢ ابن تيمية : منهاج السنة النبوية 241/2 — 242

^٣ محمد مهدي شمس الدين : ثورة الحسين 204

^٤ السابق 201 ، د. حلمي الخلافة والدولة في العصر الأموي 161، 163 ، د. بيضون : الحجاز والدولة الإسلامية 257

د. الخربوطي : تاريخ العراق ص 124 .

^٥ يلاحظ أن كثيرا من النافرين باسم النار للحسين بعد ذلك كانوا ممن يؤمن بتوارث السلطة في البيت العلوي بدلا من ثورتها في البيت الأموي

٣٣٠

الجيد لها وتحقيق فرص كاملة لنجاحها... كما أننا لا نستطيع أن نتصور كيف يكون المجتمع الإسلامي في الستين عاما الأولى للهجرة مجتمعا سلبيا مريضا ، وهو المجتمع المتحرك القوار ، الذي حقق كئسرا من معاني الإسلام ، ورفع راياته على كثير من بقاع الأرض آنذاك ...

تعقيب موقف الأمويين من آل البيت

لقد تعرض موقف الأمويين من آل البيت لتزييف شديد ، حيث استغل أعداء الأمويين محاربة معاوية علياً عليه السلام بعد تحرك أمير المؤمنين إليه بجيشه في صفين وقتل الأمويين الحسين بعد ثورته عليهم أسوأ استغلال ، إذ صوروا الأمويين وكأنهم في حرب وعداء لبني هاشم ، وتنادى بعضهم في ذلك حيث ادعى تأصل ذلك العداء منذ الجاهلية ، كما مر بنا .. وسوف نعرض في هذا المبحث لأهم الشبهات التي يثيرها المؤرخون في هذا الشأن ..

قضية لعن علي بن أبي طالب على منابر الأمويين :

عند بحث هذه القضية نجد من تضارب الروايات وتناقض المواقف التي تروىها ما يجعلنا مضطرين إلى التفرقة بين أمرين :

أولهما : قناعة بني أمية الشخصية وآرائهم الحقيقية في علي كرم الله وجهه . وثانيهما : ضرورات السياسة الأموية وطبيعة الخصومات ومواقف العوام ..

وينبغي في كلتا الحالتين أن نحذر من تزيد المؤرخين وأكاذيب الرواة ؛ فبعضهم يخلق روايات على لسان بني أمية في فضائل علي وآله ، ويبالغ في ذلك ، وهو يقصد أن يعلي من مكانة بني هاشم ، لأن الفضل ما شهدت به الأعداء ، ويغض من مكانة بني أمية لأنهم إذ ذاك منافقون يفعلون غير ما يؤمنون ، ويقولون غير ما يفعلون ^١ ..

أولاً : حقيقة موقف بني أمية من علي عليه السلام :

إننا إذا اقتصرنا على ما ترجع صحته من روايات لتحقق لدينا أن معاوية وبني أمية كانوا حسني الرأي في علي وبني هاشم ، تعطفهم عليهم أرحامهم القريبة ودينهم القويم ، فيعرفون لهم فضلهم ، ويقولون به ويصرحون .. فقد رووا أن معاوية طلب يوماً من ضرار الصدائسي — أحد أصحاب علي — أن يصفه له ، فوصفه وصفاً بليغاً مؤثراً فقال : " كان والله بعيد المدى ، شديد القوى ، يقول فضلاً ، ويحكم عدلاً ، يتفجر بالعلم من جوانبه ؛ وتنطق الحكمة من نواحيه ، يستوحش

^١ راجع مثلاً : الإمامة والسياسة 114/115 ، ابن عبد ربه : العقد الفريد 87/5

من الدنيا وزهرتها ، ويستأنس بالليل ووحشته" إلخ ، حتى بكى معاوية رحمه الله ، وقال : رحم الله أبا الحسن فلقد كان كذلك ^١ ..

وذكر المدائني أنه قيل يوماً لمعاوية : " أيكم كان أشرف ؛ أنتم أو بنو هاشم ؟ قال : " كنا أكثر أشرافاً ، وكانوا هم أشرف ، وكان فيهم واحد لم يكن في بني عبد مناف مثله ، هاشم ، فلم يهلك كنا أكثر عدداً ، وأكثر أشرافاً ، وكان فيهم عبد المطلب ، ولم يكن فينا مثله ، فلما مات صرنا أكثر عدداً وأكثر أشرافاً ، ولم يكن فيهم واحد كواحدنا ، فلم يكن إلا كقزار العين حتى قالوا : منّا نبي ، فجاء نبي لم يسمع الأولون والآخرين بمثله ، بحمد ﷺ ، فمن يدرك هذه الفضيلة وهذا الشرف ؟ " ^٢ ..

وروى ابن كثير عن يحيى بن معين بسنده قال : " تذكروا الزهاد عند عمر بن عبد العزيز فقال قائلون : فلان ، وقال قائلون : فلان ، فقال عمر بن عبد العزيز : أزهّد الناس في الدنيا علي بن أبي طالب " ^٣ ..

ولما لام أحد أصحاب عبيد الله بن زياد إياه على قتله الخوارج على الظنة قال : وأما قتل من قتل من الخوارج فقد قتلهم من هو خير مني ، علي بن أبي طالب عليه السلام ^٤ ..

وروى ابن أعثم — وهو شيعي قح — أن الحجاج سأل ثلاثة نفر من الخوارج أصحاب شبيب الخارجي بعد هزيمتهم عن دينهم ، ثم سألهم : " ما تقولون في الخنثيين علي وعثمان ، والحواريين طلحة والزبير ، والحكمين عمرو بن العاص وأبي موسى الأشعري ؟ فقالوا : إنهم كفار ، وليس الحكم إلا لله رب العالمين ، فقدموا فضربت أعناقهم صيراً " ^٥ ، فهذا هو ذا قد ساوى بين علي وعثمان في سؤاله ، ومعلوم تفضيل الأمويين عثمان ، كما هو معلوم مدى خصومه الحجاج لأعداء بني أمية ، ومنهم شيعة علي المدّعون ..

هذا عن حقيقة رأى بني أمية في علي وقومه ، وسوف نعرف مزيداً من ذلك عند الحديث عن معاملة الأمويين لآل البيت رغم الحروب بينهم ..

^١ القالي : الأمالي 147/2 ، البيهقي الحاشي والمساوي 45/46 وتجمل بعض الروايات صاحب علي هو عدي ابن حاتم بدل ضرار الصدائي (البيهقي السابق 46-47)

^٢ ابن كثير : البداية والنهاية 138/8

^٣ السابق 5/8

^٤ الدينوري : الأخبار الطوال 285

^٥ الفتح 93/7

ثانياً : حقيقة لعن علي على لسان بني أمية :

معلوم أن سباب المسلم حرام^١ ؛ ويعظم ذلك إذا كان من أصحاب النبي ﷺ، المشهود لهم، ففي الصحيحين عن النبي ﷺ قال : " لا تسبوا أصحابي ، فوالذي نفسي بيده لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهباً ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه " ^٢ ..

فإذا كان الأمر كذلك ، وقد مر بنا حديث عن التزام معظم الخلفاء والولاة الأمويين بأحكام الإسلام ، كما مر بنا حقيقة تقديرهم علياً ﷺ واعترافيهم بفضله ، ولم يكن موقفهم من آل البيت في الحقيقة موقف عداوة أو تصفية حسابات كما يردد الجاهلون ، فلماذا وقع الأمويون في ذلك التناقض بين ما يعتقدون وما يقولون ويروجون حين سبوا علياً علي منابرهم ؟؟

إن دعوى سباب علي هذه قديمة تمتد بداياتها إلى أيام الفتنة الكبرى التي أعقبت مقتل عثمان ﷺ حيث اتهم الأمويون علياً ﷺ بالتحريض عليه ، أو التستر على قتله ؛ لما استخلف على الأمة ، فثارت نفوس بني أمية وأهل الشام على قتلة الخليفة المظلوم ، وأصبح الجو مهيأ لسبابهم والدعاء عليهم .. ومنهم كما يظنون علي وقادة جيشه .. وفي هذه الأجواء المفعمة بالكرهية كان السبئية قتلة عثمان يروجون دعاياتهم المسمومة ضد عثمان وبني أمية ، ويشرون الأقاويل عن ظلمهم وأثرتهم ؛ فأثاروا النفوس أيضاً لسبابهم والدعاء عليهم .. وقد مرت بنا حجج الفريقين في قتالهم ، وهي نفسها حجج الفريقين في تلاعنهم ..

وعلى ذلك فقد زعم الرواة أن علياً كان " إذا صلى الغداة يقيت فيقول : اللهم العن معاوية وعمر (أي ابن العاص) وأبا الأعور (السلمي) وحبيباً (بن مسلمة الفهري) وعبد الرحمن ابن خالد (بن الوليد) والضحاك بن قيس ، والوليد (بن عقبة) ، فبلغ ذلك معاوية فكان إذا قنت سب علياً وابن عباس والحسن والحسين والأشتر (النخعي) " ^٣ ، ولذلك يقول ابن تيمية : " وأما ما ذكره (أحد الرافضة) من لعن علي ؛ فإن التلاعن وقع من الطائفتين ، كما وقعت الخاربة ، وكان هؤلاء يلعنون رعوس هؤلاء في دعائهم ، وهؤلاء يلعنون رعوس هؤلاء في دعائهم ، وقيل إن كل طائفة كانت تقنت على الأخرى ، والقتال باليد أعظم من التلاعن باللسان ، وهذا كله سواء كان ذليلاً أو اجتهداً معظماً أو مصيباً ؛ فإن مغفرة الله ورحمته تتناول ذلك بالتوبة والحسنات المأخوذة

^١ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : سباب المسلم فسوق وقتاله كفر (رواة بسن ماجه 2/1299—1300 ورقم الحديث 3939 — 3941 ، أحمد : المسند حديث رقم ٣٩٠٣

^٢ البخاري : كتاب فضائل الصحابة ، مسلم : باب تحريم سب الصحابة ، الترمذي 358/5 ورقم الحديث 3952 وقال : حديث حسن صحيح ، أبو داود : السنن ، حديث رقم ٤٦٥٨

^٣ ابن الأثير : الكامل 3/168 ، ابن كثير : السابق 7/283 وقال : ولا يصح هذا والله أعلم

للدنوب) والمصائب المكفرة ، وغير ذلك ، ثم من العجب أن الرافضة تنكر سب على وهم يسبون أبا بكر وعمر وعثمان ويكفرونهم ومن والاهم ، ومعاوية وأصحابه ما كانوا يكفرون عليا ^١ ... هذا عن سب علي ، وأما أهل البيت فيقول ابن تيمية : " وأما أهل البيت فلم يسبوا قط ، والله الحمد " ^٢ ..

ولم ينته ذلك الصراع بقيام الدولة الأموية ، بل استمر طوال عهدها ، فقد قامت هذه الدولة على أساس الطلب بدم عثمان من قاتليه الظالمين ، الذين استباحوا دمه ، فوجبت استباحة أقدارهم ودمائهم ، وكذلك كان أعداء هذه الدولة من الرافضة خاصة يرون أن من تمام إسلامهم سب عثمان وانتقاصه ، ومعاوية وبني أمية ، وإعلاء شأن علي وآله ، ليتخذوا من ذلك ذريعة لإعلاء شأن أسلافهم من السبئية قتلة أمير المؤمنين عثمان ..

وإذا كانت هناك أدلة كثيرة — احتفي بها المؤرخون — على لعن علي وسبه ، فإن هناك أدلة كثيرة أخرى على استمرار سب عثمان وخلفاء الأمويين في دولتهم ، من ذلك أنه قد شاع فيما يبدو في أواخر عهد علي سب عثمان حتى تحول جرير بن عبد الله البجلي وحظلة بن الربيع الكلبي وعدي بن حاتم من الكوفة إلى قرقيسيا ، وقالوا : لا نقيم ببلد يشتم فيه عثمان ^٣ .. وروى ابن عساکر أن أبا رجاء العطاردي كان يوصي أصحابه في مرض وفاته فيقول : اتقوا الله تعالى ، ولا تسبوا عليا ، وأبغضوا من يسبه ؛ واتقوا الله ولا تسبوا عثمان ، وأبغضوا من يسبه " ^٤ ..

وقد شاع سب عثمان في العراق حتى اغتر بذلك بعض عوام الناس ، فربطوا بين حب علي وسب عثمان ! فقد جاء رجل إلى الحسن البصري فقال : إني أحب الله ورسوله ، وأحب عليا ، وأقوم عندنا يقولون : إن لم تسب عثمان لم يغن عنك حب علي ! فقال الحسن : يا بني إن السذي يأمرك بهذا لعثمان خير منه ومني ومنك ، ثم أخذ يعدد له من فضائله ^٥ ، ولقد كان حجر بن عدي وأصحابه الذين ثاروا ببني أمية فقتلوا في عهد معاوية سنة 51 هـ — يسبون عثمان ومعاوية وينتقصونهما ^٦ ، وزعم الرواة أن ذلك كان لسب الأمويين عليا في عهدهم ، ولكن حتى بعد أن أبطل

^١ منهاج السنة النبوية 2/225

^٢ مجموع الفتاوى 79/35

^٣ ابن عساکر تاريخ دمشق ترجمة عثمان ص 518

^٤ السابق ص 253

^٥ السابق 523

^٦ راجع في أحداث هذه الثورة الطبري : السابق 5/253 — 278 ، وابن كثير : السابق 8/50 — 51 الدينوري :

الأخبار الطوال 223—224 وراجع عن تقييها : العواصم من القواصم هامش ص 219 لحب الدين الخطيب ..

^٧ الطبري : السابق 5/254 ، وابن كثير : السابق 8/50

عمر بن عبد العزيز تلك البدع ونهى عن سب علي على المنابر ؛ ظل بعض المتهوسين يشتم معاوية ويسبه ؛ فاضطر عمر بن عبد العزيز أن يضربه أسواط ليزجره عن عمله^١.

ومن ناحية أخرى فقد كان خصوم الأمويين من الرافضة يبالغون في أمر علي ، فيؤلفونه حيناً ، ويقدمونه آخر ، ويزعمون أن له الوصية والرجعة .. إلى آخر هذه المخترعات ، وفي بيئات مثل العراق وفارس كانت هذه المزاعم تجد سوقاً رائجة ، فقد كانت تتفق مع تراث فارس وأهلها ؛ الذين يرون أن ملوكهم يجري في عروقهم دم مقدس ، ويشهدهم إلى تمجيد آل البيت مصاهرة طارئة حين تزوج الحسين بن علي ابنة أحد ملوكهم المالكين^٢ .. وأقل ما في مبالغتهم عن علي تفضيله على جميع الصحابة مع الفض من شأنهم ! فكان الأمويون يرون أنه لا بد لهم من هذه المعتقدات الفاسدة ، وضرب أحلام الموالي في استغلال عاطفة السذج والبسطاء ، والدفع بهم إلى الثورة على بني أمية حبا في علي وآله ، من انتقاص قدر علي ؛ معتمدين في ذلك على ما يتصورونه من دور له في قتل عثمان ، أو حماية قاتليه ، أو هجومه عليهم ومحاربتهم في صفين.

ولذلك يروون أن المغيرة بن شعبة عامل معاوية على العراق لما بلغه أن صعصعة بن صوحان — أحد الشيعة المقرين — يعيب عثمان ويكثر من ذكر علي وفضله ، قال له : " إياك أن يبلغني عنك أنك تعيب عثمان عند أحد من الناس ، وإياك أن يبلغني عنك أنك تظهر شيئا من فضل علي علانية ، فإنك لست بذاكر من فضل علي شيئا أجهله ، بل أنا أعلم بذلك ، ولكن هذا السلطان قد ظهر ، وقد أخذنا يظهرون عيبة للناس ، فنحن ندع كثيرا مما أمرنا به ، ونذكر الشيء الذي لا نجد منه بدا ، ندفع به هؤلاء القوم عن أنفسنا تقية ؛ فإن كنت ذاكرة فضله فاذكره بينك وبين أصحابك ، وفي منازلكم سرا ، وأما علانية في المسجد فإن هذا لا يحتمله الخليفة لنا ، ولا يعدلنا به " ^٣ ..

ورغم التحفظ على بعض ما في هذه الرواية من عبارات ؛ فإن الدلالة تظل واضحة على التفريق بين السر والعلن ، والاعتقاد والإعلان له ، مع التخوف من استمالة قلوب البسطاء بتهاويل الشيعة ومبالغاتهم ..

ويروون أن مروان بن الحكم كان يلي المدينة بالتناوب مع سعيد بن العاص ؛ فكلن إذا ولي مروان بالغ في سب علي ، وإذا عزل عنها وولى سعيد كف عن ذلك ، فسنل محمد الباقر بن عسي ابن الحسين عن ذلك فقال : كان مروان خيرا لنا في السر ، وسعيد خيرا لنا في العلانية^٤

^١ ابن كثير: السابق 139/8

^٢ د. العدوى : تاريخ العالم الإسلامي 191/1 ، إحسان إلهي ظهر السنة والشيعة 57 ، نقله عن براون تاريخ أدبيات

إيران 215/1

^٣ الطبري : السابق 189/5 وابن الأثير : الكامل 214/3

^٤ ابن الأثير : السابق 248/3

فكلاهما خير لهم ، ولكن كل منهما يجتهد فيما يحقق مصلحة الدولة والرعية ؛ ولم يكن أحدهما يرى في سب علي دستوراً ينبغي الحفاظ عليه وإلزام الناس جميعاً به ^١ ؛ أو اعتقاداً لا يتنازل عن تبعاته ، ولذا فقد كان آل البيت يعلمون الفرق بين حقيقة رأي الأمويين فيهم ، وما تضطربهم إليه دعاوى السياسة ؛ فكان الحسن والحسين يصليان خلف مروان ولا يعيدان الصلاة ، رغم أنه يسب أباهما — فيما يزعم الرواة — ^٢ ، كما ذكروا أن الحسن والحسين لم يريا طوال حياة معاوية منه سوءاً في نفسيهما ولا مكروهاً ، ولا قطع عنهما شيئاً مما كان شرط لهما ، ولا تغير لهما عن بر ^٣ ؛ وهذا يدل على أن سباب علي لم يكن أمراً مطرداً ، أو بسبب تعليمات صريحة من الخلافة كما يروى الكذابون من الرواة ...

وروى ابن طباطبا العلوي أن عمر بن عبد العزيز منع التهجم على علي عليه السلام من فوق المنابر ، ويروي سبب ذلك فيقول : " قال عمر بن عبد العزيز : كان أبي عبد العزيز بن مروان يمر في الخطبة يهزها هزاً ، حتى إذا وصل إلى ذكر أمير المؤمنين علي عليه السلام تنصت ، فقلت له ذلك ، فقال : يا بني أدركت هذا مني ؟ قلت : نعم ، قال : يا بني ؛ اعلم أن العوام لو عرفوا من علي بن أبي طالب ما نعرفه نحن لفرقوا عنا إلى ولده ، فلما ولي عمر بن عبد العزيز الخلافة قطع السب ، وجعل مكانه قوله تعالى : (إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى) ^٤ .

ورغم كل ذلك فإن الرواة لا يخبروننا بماذا سب الأمويون علياً ؟ إنهم لا يذكرون من ذلك إلا اتهامه في أمر عثمان ، وبعض الناس كان يرى أن في تسمية بعضهم لعلي بأبي تراب مثلاً سباً له ، ونحن نعلم أن النبي ﷺ هو الذي سماه بذلك لما أغضب علي زوجته فاطمة بنت محمد ﷺ فذهب النبي مصالحاً له ، فوجده قد نام على التراب حتى علاه ، فسماه بذلك "وما كان له اسم أحب إليه منه" ^٥ .

٢. موقف الأمويين من آل البيت :

سبق أن ذكرنا أن الحسن والحسين لم يريا طوال حياة معاوية منه سوءاً في نفسيهما ولا مكروهاً ، وأنه لم يقطع عنهما شيئاً مما كان شرط لهما في صلحه مع الحسن ؛ ولا تغير لهما عن بر ، وذلك مما يتفق مع سياسة معاوية الذي كان يهدف إلى تجميع صفوف الأمة كلها تحت خلافته بعد

^١ ابن حجر : فتح الباري 29/7 ، ياقوت : معجم البلدان 458/3

^٢ ابن الأثير : السابق 248/3

^٣ الدينوري : الأخبار الطوال 225

^٤ الفخري 129 ، توجد روايات أخرى عن السب . ذلك عند ابن الأثير : السابق 154/4 ، والديار بكري : تاريخ

الخميس 317/2

^٥ ابن حجر : فتح الباري 87/7 — 88

صراع طويل دام ، ويتفق مع حلمه وصلته ، حتى ليذكر ابن كثير ما يعد عجيبا في ذلك المجال حين يروي بسنده عن ابن أبي الدنيا أن الحسن وعبد الله بن جعفر قد أرسلوا إلى معاوية في أثناء صراعه مع علي بن أبي طالب عليه السلام يسألانه مالا ، فبعث إليهما ، أو إلى كل منهما بمائة ألف ، فبلغ ذلك عليا فقال لهما : ألا تستحيان ؟ رجل نطعن في عينيه غدوة وعشية تسألانه المال ؟ فقالا : بل حرمتنا أنت وجاد هو لنا ^١ ..

وكان معاوية يحل الحسن ويعترف بفضله وبأنه أكرم الناس نسبا ^٢ وكان كذلك يحل ابن عباس ، حتى إذا وفد عليه أكرمه وقربه وعظمه ، وألقى عليه المسائل المعضلة ، فكان يجيب عنها سريعا ؛ فيقول معاوية : ما رأيت أحدا أحضر جوابا منه ^٣ ، وقد مر بنا أن ابن عباس كان يشهد لمعاوية بالقصة ، ولما مات الحسن بن علي اتفق كون ابن عباس عند معاوية ، فعزاه فيه بأحسن تعزية ، ورد عليه ابن عباس ردا حسنا ، ثم بعث معاوية ابنه يزيد فجلس بين يدي ابن عباس فعزاه بعبرة فصيحة وجيزة ، فقال ابن عباس : إذا ذهب بنو حرب ذهب علماء الناس ، ثم أنشد يقول :

بعاد عن العورات لا ينطقوها وأهل وراثات الحلوم الأوائل ^٤

وإذا كان هذا موقف معاوية ويزيد إزاء وفاة الحسن ؛ فقد أصر مروان بن الحكم أن يحمل سريره في جنازته ^٥ ..

وكان عبد الله بن جعفر بن أبي طالب وثيق الصلة بمعاوية ، حتى لقد سمى ابنا له باسم معاوية ^٦ ، كما سمى ذلك الابن معاوية بن عبد الله بن جعفر ابنه يزيد ؛ تيمنا باسم يزيد بن معاوية الذي كان صديقا له وقرينا منه ^٧ ؛ ولما مات عبد الله بن جعفر رثاه عمرو بن سعيد الأشدق ^٨ ، وقلم عمرو بن عثمان بن عفان فوقف على شفير قبره وقال : رحمك الله يا ابن جعفر ، إن كنت لرحمك واصلا ، ولأهل الشر لمبغضا ، ولأهل الرية لقاليا ^٩ ..

^١ البداية والنهاية 137/8

^٢ ابن عبد ربه : العقد الفريد 87/5

^٣ ابن كثير : السابق 304/8

^٤ ابن طولون : قيد الشريد 33 ، ابن كثير : البداية والنهاية 304/8

^٥ الأصفهاني : مقاتل الطالبين 82

^٦ الأصفهاني : الأغاني 222/12

^٧ السابق 223/12

^٨ السابق 220/12

^٩ السابق 219/12

ويحكى ابن سعد بسنده عن الزهري أن زين العابدين علي بن الحسين كان أقصد أهل بيته، وأحسنهم طاعة، وأحبهم إلى مروان بن الحكم وابنه عبد الملك^١، وروى عن عبد الله بن علي ابن الحسين أنه قال: لما قتل الحسين بن علي قال مروان لأبي: أن أباك كان يسألني أربعة آلاف دينار، فلم تكن حاضرة عندي، وهى اليوم عندي متيسرة، فإن أردتها فخذها، فأخذها أبي، فلم يكلمه أحد من بني مروان فيها حتى قام هشام بن عبد الملك فقال لأبي: ما فعل حقنا قبلكم؟ قال: موقر مشكور، قال: هو لك^٢..

ولما قتل ابن الزبير بايع ابن الحنفية عبد الملك بن مروان بالخلافة وأرسل إليه بذلك، فكتب إليه عبد الملك يقول: "إنك عندنا محمود، أنت أحب وأقرب بنا رحما من ابن الزبير، فللك العهد والميثاق وذمة الله وذمة رسوله أن لا تهاج ولا أحد من أصحابك بشيء تكرهه، أرجع إلى بلدك — وكان ابن الزبير أخرجه إلى الطائف لما رفض بيعته واختلف معه — واذهب حيث شئت، ولست أدع صلتك وعونك ما حييت"، وكتب إلى الحجاج — واليه آنذاك على الحجاز — يأمره بحسن جواره وإكرامه، فرجع ابن الحنفية إلى المدينة^٣، وزار ابن الحنفية عبد الملك برفقه الحجاج فقال له: "يا أمير المؤمنين إن هذا — يعنى الحجاج — قد آذاني واستخف بحقي، ولو كانت حمسة دراهم أرسل إلي فيها، فقال عبد الملك للحجاج: لا إمرة لك عليه، فلما ولي محمد بن الحنفية قال عبد الملك للحجاج: أدركه، فسل سخيمته، فأدركه فقال: إن أمير المؤمنين أرسلني إليك لأسأل سخيمتك؟ ولا مرحبا بشيء ساءك^٤.. كما فرض عبد الملك لولد ابن الحنفية ولغيرهم من خاصته ومواليه، وقضى عنه دينه وحوائجه^٥...

وكان عبد الله بن عباس — لما طرده ابن الزبير مع ابن الحنفية من مكة فذهب إلى الطائف — أرسل ولده علي بن عبد الله بن عباس إلى عبد الملك بالشام، وقال: لأن يربني بنو عمي أحسب إلى من أن يربني رجل من بني أسد، يعنى ابن الزبير^٦، فلما أتى علي بن عبد الله بن عباس عبد الملك بالشام ذم إليه ابن الزبير، وأعلمه ما كان أبوه وأهل بيته لقوا منه لامتناعهم عن بيعته، وأن أباه أوصاه ليلحق به، فأحسن عبد الملك إجابته وحمله وحمل عياله إلى الشام، وأنزله دارا بدمشق، ولم يزل يجري عليه الهدايا والعطاء أيامه كلها^٧، وكان مكروما له؛ فلما أهديت إليه من خراسان جارية

^١ الطبقات الكبرى 215/5

^٢ السابق 214/5 — 215

^٣ ابن سعد الطبقات الكبرى 111/5

^٤ السابق 113/5

^٥ السابق 112/5 وابن الأثير: الكامل 376/3

^٦ أنظر ابن أعم: الفتح 286/6 — 288

^٧ اليعقوبي: السابق 17/3

وفص خاتم وسيف ؛ وكان علي معه في مجلسه قال عبد الملك : يا أبا محمد إن حاضر الهدية شريك فيها ، فاختار من الثلاثة واحدا ، فاختار الجارية ، فأولدها سليمان بن علي وصالح بن علي^١ ، وكم كان هذين الرجلين من دور في الانتقام من بني أمية بعد قيام ثورة العباسيين !

وأصهر عبد الملك بن مروان لآل البيت ، فقليل إنه تزوج ابنة لعلي بن أبي طالب^٢ ، كما تزوج أم أبيها بنت عبد الله بن جعفر بن أبي طالب^٣ ، وكذلك تزوج عامله الحجاج إحدى بنات عبد الله بن جعفر ؛ فلم يرض بذلك بنو هاشم ولا بنو أمية حتى فرقوا بينها وبينها ، حيث لم يسروه كفنا لها^٤ ، وكانت علاقات المصاهرة تتشعب بين الفريقين من بني عبد مناف ، فقد تزوج الوليد بن عتبة بن أبي سفيان عامل الأمويين على المدينة ومكة لبابة بنت عبيد الله بن العباس ، فولدت له ابنة القاسم^٥ ، كما تزوج الوليد بن عبد الملك — وهو خليفة — نفيسة بنت زيد بن الحسن بن علي ، ثم فارقتها^٦ .. وهكذا لجذ الرغبة الصادقة عند بني أمية في كسب ود بني هاشم ، وأن هذه الرغبة كانت موجودة أيضا عند بني هاشم في معظم الأحوال ، حتى إذا فكر أحدهم في الثورة على الخلافة التي بايعها المسلمون ؛ حاول الأمويون معالجة الأمر برفق ، ومنع أسباب الثورة ، والحيلولة دون اندلاعها ، حتى إذا لم يبق سبيل إلى ذلك لم يجدوا بدا من قتال الثالين ؛ نجد هذا واضحا كما مر بنا في ثورة الحسين ، ونجد أيضا في ثورات غيره من العلويين مثل زيد بن علي بن الحسين^٧ ويحيى بن زيد^٨ ، كما نجد في معالجة الأمويين لدعاية العباسيين بخراسان أثناء التمهيد لثورتهم أواخر دولة بني أمية^٩ .

حتى إذا نجح بنو العباس في الإطاحة بالخلافة الأموية انقسم البيت الهاشمي على نفسه ولقي بنو طالب من بني عمومته أضعاف ما لقيه من الأمويين أثناء حكمهم ، من تضيق ومصادرة وقتل ذريع ، حتى لقد سمع محمد بن عبد الله بن الحسن العلوي — الذي ثار على أبي جعفر المنصور فيما بعد — رثاء أحد الشعراء من بني عبد شمس لهم فبكى ، " فقال له عمه الحسن بن الحسن بن علي : أبكي على بني أمية وأنت تريد بني العباس ما تريد ؟ فقال : والله ياعم لقد كنا نقمنا على بني أمية ما

^١ ابن عبد ربه العقد الفريد 104/5

^٢ الطبري : السابق 420/6 وقد قال ابن الأثير عن ذلك انه لا يصح (الكامل/4/103)

^٣ الطبري : السابق 420/6 وابن الأثير 103/4

^٤ ابن تيمية : مجموع الفتاوى 79/35

^٥ الزبير : نسب قريش 32

^٦ السابق والصفحة

^٧ راجع الطبري : السابق ١٦٠-١٧١

^٨ راجع السابق ٧/٢٢٨-٢٣٠

^٩ الطبري : السابق 50/7 — 51 ، الديوري : الأخبار الطوال 335

نقمنا ، فما بنو العباس إلا أقل خوفاً لله منهم ، وإن الحجة على بني العباس لأوجب منها عليهم ، ولقد كان للقوم (أي بني أمية) أخلاق ومكارم وفواضل ليست لأبي جعفر^١ ..

ثانياً : ثورة أهل المدينة

ذهب من أهل المدينة وفد للقاء يزيد بن معاوية بالشام سنة ٦٢ هـ ثم عاد أفرادهم من هناك ليخلعوه بعد أن نالوا جوائزهم ، بحجة أنهم رأوه فاسقاً لا تحل له خلافة المسلمين ، وتجراً بخلعهم له بعض أهل المدينة الذين وثقوا بكلام زعمائهم هؤلاء ، غير أنه ليس من الصحيح أن جميع أهل المدينة خلعوا يزيد ؛ أو أن جميع زعمائهم رضوا ذلك ، فقد رفض جماعة من أفاضل الصحابة والتابعين خلع الخليفة الذي بايعوه ؛ مثل عبد الله بن عمر ومحمد بن الحنفية وعلي بن الحسين بن علي وسعيد بن المسيب وغيرهم ، وبعض هؤلاء تصدى لمحاورة زعماء الثورة ومحاولة إقناعهم بالحفاظ على بيعتهم ، وبينوا لهم بطلان ادعائهم فسوق يزيد مثلاً حدث من ابن عمر وابن الحنفية .

فقد روى البخاري ومسلم وغيرهما أنه " لما خلع أهل المدينة يزيد بن معاوية جمع ابن عمر حشمة وولده فقال : إني سمعت النبي ﷺ يقول : يُنصب لكل غادر لواء يوم القيامة ، وإننا قد بايعنا هذا الرجل على بيع الله ورسوله ، وإني لا أعلم غدرًا أعظم من أن يُبايع رجل على بيع الله ورسوله ثم يُنصب له القتال ، وإني لا أعلم أحداً منكم خلعه ولا بايع في هذا الأمر إلا كانت الفیصل بيني وبينه " ^٢ ..

وقد تصدى محمد بن الحنفية لمناقشة دعاوى الثوار عن فسوق يزيد وتفنيدها لما سار إليه عبد الله بن مطيع العدوي وأصحابه من زعماء الثورة فأرادوه على خلع يزيد فأبي ، فقال ابن مطيع : إن يزيد يشرب الخمر ، ويترك الصلاة ، ويتعدى حكم الكتاب ، فقال لهم ابن الحنفية : ما رأيت منه ما تذكرون ؛ وقد حضرته وأقمت عنده ؛ فرأيت موظباً على الصلاة متحريراً للخير ، يسأل عن الفقه ، ملازماً للسنة ، قالوا : ذلك كان منه تصنعاً لك ، فقال : وما الذي خاف مني أو رجا حتى يظهر إليّ الخشوع ؟ أفأطلعكم على ما تذكرون من شرب الخمر ؟ فلئن كان أطلعكم على ذلك إنكم لشركاؤه ، وإن لم يكن أطلعكم فما يحل لكم أن تشهدوا بما لم تعلموا ، قالوا : إنه عندنا الحق وإن لم نكن رأياه ، فقال : أبي الله ذلك على أهل الشهادة فقال : (إلا من شهد بالحق وبه يعلمون) ، ولست من أمركم في شيء ، قالوا : فلعلك تكره أن يتولى الأمر غيرك ؛ فنحن نوليكم أمراً ، فقال :

^١ الأصفهاني : الأغاني 279/11 — 281

^٢ البخاري : الصحيح : كتاب الفتن ، حديث رقم ٧١١١ ، مسلم : الصحيح ، كتاب الجهاد والسير ، ابن طولون : قيد الشريد 39 ، ابن حجر : فتح الباري 68/13-69 ، وقد ظل ذلك هو موقف ابن عمر تجاه ثورة ابن الزبير ؛ فلم يبايعه رغم الضغوط العديدة (راجع السياسي : الإعلام بالحروب ورقة ٣٢ مخطوط) ..

ما أستحل القتال على ما تريدونني عليه تابعا ولا متبوعا ، فقالوا : قد قاتلت مع أبيك ، قال : جيئوني بمثل أبي أقاتل على مثل ما قاتل عليه ، قالوا : فمر ابنك أبا القاسم والقاسم بالقتال معنا ، قال : سبحان الله ، أمر الناس بما لا أفعله ولا أرضاه ؟ إذن ما نصحت الله في عبادته ، قالوا : إذن نكرهك ، قال : إذن أمر الناس بتقوى الله ؛ وألا يرضوا المخلوق بسخط الخالق ، ثم خرج إلى مكة^١. كما أن جماعات كاملة من أهل المدينة من أبناء المهاجرين والأنصار على السواء قد احتفظوا ببيعتهم ليزيد ؛ ولم يشاركوا في الموقعة التي نشبت إثر ذلك ، فعلى حد قول الإمام محمد الباقر : " لم يخرج أحد من آل أبي طالب ولا من بني عبد المطلب في وقعة الحرة " ^٢ ؛ وكان بنو أمية ومواليهم يشكلون عددا ضخما من أهل المدينة بلغوا ألف رجل أو ثلاثة آلاف رجل على خلاف في الروايات ^٣ ، وكذلك ظل بنو حارثة من أهل المدينة من الأنصار على ولائهم للخليفة ومساعدوا جيش الأمويين على دخولها فيما بعد ^٤.

وعلى ذلك فلا يصح القول بأن أهل المدينة — بهذا الإطلاق — قد خلعوا الخليفة الأموي أو ثاروا عليه ..

ولم يجعل يزيد بمواجهة تمرد ثوار المدينة وخلعهم البيعة ، فقد بعث النعمان بن بشير الأنصاري إليهم " ليفشأهم عما يريدون " ، فذهب إليهم وأمرهم بالطاعة ولزوم الجماعة ، وخوفهم الفتنة ، وأنه لا طاقة لهم بأهل الشام ، فلم تجد محاولته شيئا ^٥ ؛ وكذلك لم تجد وساطة عبد الله بن جعفر بن أبي طالب الذي وعده يزيد أن يعطي أهل المدينة ما أرادوا ويرضيهم إن رجعوا عن ثورتهم ^٦ ... وأمر يزيد قائده مسلم بن عقبة المري أن يدعو أهل المدينة لثلاثا قبل أن يحاربهم ، فلم ينتهم ذلك عما أرادوا ^٧ ؛ وكان أهل المدينة من الثائرين قد حصروا بني أمية في دار مروان بن الحكم ، فأرسلوا يستغيثون بالخليفة ^٨ الذي أخذ يعد العدة لتأديب الثائرين ، فلما علم الثائرون بذلك أخرجوهم ، ولم تجد معهم مناشدة واليهم الأموي لهم بالألا يخرجوهم ، حتى لقد تحرر مروان بن الحكم أين يدع عياله ، وهو يخرج من المدينة ، فقد خشي ابن عمر أن يضمهم إلى نساته فيصيبه بذلك أذى ، ثم قبل علي

^١ راجع ابن كثير : البداية والنهاية 233/8 ، د. شعوط : أباطيل يجب أن تمحى من التاريخ ص 227—228

^٢ ابن طولون : السابق 40 ، ابن سعد : الطبقات الكبرى 215/5 ، ويذكر المسعودي خروج ثلاثة من بني عبد المطلب (مروج الذهب 79/3) ، وانظر الطبري : السابق 488/5 — 489

^٣ الطبري : السابق 483/5 ، الأصفهاني : الأغاني 37/1

^٤ الطبري : السابق 495/5 ، الإمامة والسياسة 213/1 ، ابن عبد ربه : السابق 388/4 — 489

^٥ الطبري : السابق 481/5

^٦ ابن سعد : السابق 145/5 ، الإمامة والسياسة 207/1

^٧ الطبري : السابق 484/5

^٨ السابق 482/5—483

بن الحسين أن يقوم بذلك العمل في هذه الظروف الحرجة^١ وكان إخراجهم على وجه قبيح حتى لقد تبهم الصبيان وسفهاء الناس يرموهم بالحجارة^٢ ..

حول دعوى استباحة الأمويين للمدينة:

ولم يستغرق مسلم بن عقبة كبير وقت في قمع الثورة والقضاء عليها في ذي الحجة سنة ٦٣هـ في الموقعة التي عرفت بموقعة الحرة ، غير أن بعض المؤرخين زعموا أن جيش الأمويين قد استباح المدينة ثلاثة أيام بعد انتصاره ؛ مما يبدو محض افتراء وزعم ، فلا يعقل أن يرتكب جند الشام هذه الشناعات المنسوبة إليهم من قتل الآلاف وهتك الأعراض^٣ إلى غير ذلك وهم من المسلمين المجاهدين والفاقيين ، وربما وقعت بعض أحداث النهب من بعض الجنود المغتاضين ، ولكنها كانت أحداثا محدودة الوقوع والأثر ، وربما ظنوا أن في ذلك عقوبة ونكالا للثائرين ؛ ولكن لا يمكن أن نصدق أن يقوم المسلمون من جند الشام بهتك أعراض نساء إخوانهم في الدين في ذلك الوقت المبكر من عمر الإسلام ، كذلك يبدو الإسراف واضحا في تقدير أعداد القتلى الذين قتلهم جيش مسلم ابن عقبة من أهل المدينة ؛ حتى أوصلتهم بعض الروايات إلى عشرة آلاف رجل^٤ ؛ فإن جيش الشلم لم يكن يعدو اثني عشر ألف رجل ، ويبدو أن أعداد جيش أهل المدينة كانت أقل من ذلك العدد ، أو قريبا منه ، إزاء ما نعرف عن التفرغ السكاني الذي تعرض له الحجاز كله مع هجرة كثير من سكانه إلى الأمصار والبلاد المفتوحة والثغور للسكنى والجهاد ، ومن جماع هذه الروايات تبدو رواية خليفة بن خياط عن بقي بن مخلد أجدرها بالقبول ، فهي تقدر أعداد القتلى بثلاثمائة رجل ، وهي لا تكفي بذلك ، بل " ضمت بيانا بأسماء هؤلاء وانتماءاتهم ؛ حيث كانت الغالبية منهم من الأنصار " ^٥ وذلك ما يؤكد ابن تيمية حيث قال "... لكن لم يقتل جميع الأشراف ، ولا بلغ عدد القتلى عشرة آلاف ، ولا وصلت الدماء إلى قبر النبي ﷺ ، ولا إلى الروضة (الشريفة) ولا كان القتل في المسجد " كما يدعي الرافضة^٦ ، وذلك أيضا ما يقرره فلهوزن بقوله : " فلم تخرب المدينة ، ولم يلبس أن رجع إليها أهلها الأمويون الذين كانوا قد أخرجوا منها ، .. وظلت المدينة كما كانت من قبل مدينة

^١ الأصفهاني السابق 35/1 ، الإمامة والسياسة 208/1

^٢ الإمامة والسياسة 208/1 ، والأصفهاني : السابق 35/1-36

^٣ ابن طباطبا : الفخري 116 ، وابن كثير : البداية والنهاية 221/8

^٤ الإمامة والسياسة 215/1 وانظر ابن عبد ربه : العقد الفريد 389/4-390 ، وزاد أبو الفدا على ذلك انظر المختصر

192/1

^٥ د. بوضون : الحجاز والدولة الإسلامية 279 ، وانظر خليفة بن خياط : تاريخ خليفة 313/1

^٦ منهاج السنة النبوية 353/2

مرحة ؛ ومقرا لا للتراث الديني وحده ؛ بل لأرق طوائف المجتمع العربي وأرقاها ^١ ، ويلاحظ فلهوون أنه قد روي عن عوانة بن الحكم أن مسلم بن عقبة دعا الناس إلى البيعة ليزيد في اليوم التالي للمعركة ، وقتل عددا من قادة الثورة الناجين رغم معارضة مروان بن الحكم لذلك ، وإذا كان ذلك قد حدث فقد عادت الأمور سريعا إلى الهدوء لما تحققت هذه البيعة ، إذ لا معنى عندها لاستمرار النهب والقتل بعد ذلك الأمان ، كما أن رواية وهب بن جرير لا تذكر شيئا عن إسلام المدينة للنهب ، فيما يرويه عنه الطبري ؛ ويختتم فلهوون هاتين الملحوظتين بقوله : " بل إنه من المشكوك فيه أن يكون (مسلم بن عقبة) بعد انتصاره قد أغب المدينة للجنود ثلاثة أيام ، ولقد أرغم أهل المدينة على البيعة ليزيد ، لكن ذلك لم يكن على صورة كراهة غير مألوفة ^٢ ؛ حيث يزعم الرواة أنه اشترط عليهم أن يبايعوه على أنهم خول ليزيد ، ومن رفض ذلك ضرب عنقه ^٣ ..

وأكد المؤرخون إكرام جيش يزيد من رفضوا الاشتراك في الثورة عليهم ؛ وكفهم عنهم ؛ مثل علي بن الحسين ^٤ وجابر بن عبد الله الذي حاه مروان بن الحكم وأغلق عليه بابه وهو يجاهر بالإنكار على بني أمية ^٥ وأبي سعيد الخدري ^٦ وعلى بن عبد الله بن العباس ^٧ وبني حارثة الذين لم يشتركوا في الثورة فلم يقتل منهم أحد ^٨ ..

وكذلك يبدو من قبيل التحامل الممجوج اتمام الأمويين بأنهم غزوا المدينة للنار لقتلهم من المشركين يوم بدر ^٩ ، فمن المؤكد أن يزيد بذل جهدا واضحا في استصلاح أهل المدينة وكفهم عن الثورة ، فلما فشل ووقعت الواقعة حزن حزنا بليغا على ما حاق بهم ، ثم بعث بالضحاك بن قيس ليجيرهم ، ومعه الطعام والأعطيات ^{١٠} ؛ كما كان مروان بن الحكم — رغم ما لاقاه من عنس في

^١ تاريخ الدولة العربية 159

^٢ السابق 157 وانظر الطبري: السابق 491/5 — 492 ، 495

^٣ الطبري : السابق 493/5 — 495

^٤ الطبري : السابق 484/5 — 485 ، 493 — 494 ، وانظر ابن سعد : السابق 215/5

^٥ الإمامة والسياسة 214/1

^٦ الطبري : السابق 491/5 ووضح تحامل الرواة على بني أمية في هذه الرواية رغم ذلك

^٧ المسعودي : مروج الذهب 80/3

^٨ الإمامة والسياسة 213/1

^٩ ابن عبد ربه : السابق 390/4 ، د. يعضون : الحجاز والدولة الإسلامية 281—282 ، دوزي 73/1 ، سيد أمير علي :

مختصر تاريخ العرب ص70

^{١٠} الإمامة والسياسة 218/1 ، وابن كثير : السابق 234/8 ، ابن طولون : السابق ص 40—41

٣٤٤

هذه الثورة — شديد التعاطف مع زعماء الثائرين لما قتلوا ، وقد سجلت كتب التاريخ رثاءه زعيمهم عبد الله بن حنظلة الغسيل^١ ومحمد بن عمرو بن حزم^٢ وشهادته لهما بالخير والصلاح .. وهكذا انتهت أحداث ثورة المدينة نهايتها المتوقعة من قوم خلعوا أميرهم بغير عدة ، ولما استعدوا لقتاله كانوا متفرقي الأهواء ، فكان لهم أميران أحدهما أنصاري والآخر قرشي^٣ ، وخالفهم بعض أهلهم وقادة الرأي فيهم ، ولم يكن يمكن للمدينة بطروفها الاقتصادية والسكانية أن تصمد للشام أو أن تقاوم قدراته البشرية والمادية ..

^١ ابن سعد : السابق 67/5 — 68 ، الإمامة والسياسة 212/1

^٢ الطبري : السابق 490/5 — 491 وانظر الإمامة والسياسة 213/1

^٣ ابن عبد ربه : السابق 381/4 ، ابن خياط : السابق 260/1 ؛ والأنصاري هو عبد الله بن حنظلة الغسيل أما القرشي فهو عبد الله بن مطيع العدوي

ثالثاً : ثورة عبد الله بن الزبير رضي الله عنه

ويتمتع قائدها بنسب رفيع وشرف نفس وديانة وتاريخ جهادي طويل ، وتعد ثورته مسن أخضر الثورات التي واجهها الأمويون ، وكان ابن الزبير قد رفض بيعة يزيد بالخلافة ومضى إلى مكة البلد الحرام يلوذ بها ، فلما بلغه خبر استشهاد الحسين في كربلاء أعلن ابن الزبير خلع يزيد والثورة على بني أمية .. وشد من أزره مبادرة أهل المدينة أيضا إلى إعلان ثورتهم على الأمويين ؛ فأصبح الحجاز في قبضة ابن الزبير الذي تلقب بأمر المؤمنين .. غير أن الخليفة الأموي الشاب سارع بإرسال جيوشه لقمع الثائرين عليه ، فاستطاع قائده مسلم بن عقبة المري أن يقمع ثورة أهل المدينة وينسهي خطرهم ؛ ثم سار بجيشه غاربة ابن الزبير بمكة إلا أن المنية عاجلته في طريقه إليها فخلقه على قيادة الجيش الحصين بن نمير السكوني الذي ألقى الحصار على مكة سنة ٦٤هـ ، ومضى يضيق الخناق على ابن الزبير ، غير أن خبر موت يزيد بن معاوية على نحو مفاجئ وتنازل ولده معاوية بن يزيد عن الخلافة ثم وفاته هو الآخر في أعقاب ذلك قلب خطط القائد الأموي الذي وجد نفسه بغير أمير ؛ فعرض على ابن الزبير أن يدخل - ومن معه من جيش الشام - في بيعته على أن ينتقل معه إلى الشام لتكون الخلافة هناك ؛ فرفض ابن الزبير ، ولم يجد الحصين بدا من الاستسحاب .. وبذلك لم يعد للمسلمين علم منصوب ولا خليفة يدعو إلى نفسه إلا ابن الزبير الذي واتته الأقدار فاستولى على العراق^١ ، وبادرت مصر إلى الدخول في بيعته ، كما أعلنت قبائل القيسية في الشام ولائها له ، فعدا يحكم من مكة دولة المسلمين آنذاك عدا بعض نواحي الشام التي تقيمن عليها قبيلة كلب أقوى قبائل الشام التي ظلت على إخلاصها لبني أمية ..

وانتهى الأمر في الشام إلى مبايعة مروان بن الحكم الذي سرعان ما هزم أنصار ابن الزبير من القيسية في مرج راهط سنة ٦٤هـ ، فدانت له بذلك الشام ، واستعاد مصر إثر ذلك ، ثم مات سريعا بعدها تاركا الخلافة لابنه عبد الملك سنة ٦٥هـ ، الذي ورث واقعا سياسيا مرهقا عمل بمهارة فائقة وجهد دعوب على تعديله ، فقد سار بنفسه على رأس جيوشه إلى العراق واستطاع أن يقضي على وجود الزبيريين بها وقتل أمرهم مصعب بن الزبير سنة ٧٢هـ ، ثم سير جيوشه نحو مكة إثر ذلك يقودها الحجاج بن يوسف الثقفي لتضرب الحصار على آخر معاقل ابن الزبير ، وقد دافع ابن

^١ وقد استطاع أحد الزعماء المغامرين ويدعى المختار بن أبي عبيد بن مسعود الثقفي أن ينتزع العراق من عامل ابن الزبير سنة ٦٦هـ ورفع شعار الثار للحسين بن علي من قاتليه مستغلا عراطف أهله من الشيعة النادمين على تقصيرهم في نصرة الحسين ، وتمكن من هزيمة جيش الأمويين الذي حاول استرداد العراق سنة ٦٧هـ ، وقتل قائده عبيد الله بن زياد الذي كان أميرا على العراق لما قتل الحسين ؛ مما عد نصرا هائلا للمطالين بثار الحسين .. وقد أرسل ابن الزبير أخاه مصعبا إلى العراق في السنة نفسها ؛ فحارب المختار وقضى عليه وأخذ بيعة أهلها لأخيه ..

الزبير عن نفسه وملكه دفاعا مجيدا طوال سبعة أشهر؛ لكنه خر صريعا آخر الأمر في جمادى الأولى سنة ٧٣هـ ..

نظرة عامة على ثورة ابن الزبير:

ويحسن منذ البداية أن نذكر بأن مكانة عبد الله بن الزبير عند الأمويين كانت عالية ، وأن مواجهتهم له وصلبهم إياه بعد قتله لم تكن تعني انتقاصه ، فقد كانوا يعرفون قدره ومكانته وشجاعته تماما كما كانوا يعرفون بذلك لأخيه مصعب بن الزبير^١ ، وكانت بين الفريقين أواصر القرى والمصاهرة وعلاقات الصداقة والود ؛ حتى لقد والى بعض الزبيريين أثناء ثورة ابن الزبير بني أمية^٢ ، فقد ترك حمزة وحيب ابنا عبد الله بن الزبير أباهما ، وأخذوا الأمان من الحجاج لنفسيهما^٣ ؛ ولكن عمرو بن الزبير قائد للأمويين في حربهم لأخيه عبد الله في خلافة يزيد^٤ ؛ بينما كان أخوه عروة بن الزبير وثيق الصلة بعبد الملك بن مروان ، حتى إنه راود أخاه مرارا أن يترك شقيقه وينضم إلى الأمويين^٥ ، وكان عروة "على رأى عمه عبد الملك" كما يقول السعدي ، وكانت كسب عبد الملك إلى الحجاج متصلة تأمره بتعاهد عروة ، وأن لا يسوءه في نفسه وماله^٦ ، وعبارة السعدي الآتفة شديدة الدلالة على ما كان بين الجانبين من قرابة وصلة ، وبالفعل فإنه ما إن قتل ابن الزبير وصلبه الحجاج حتى خف عروة إلى عبد الملك فسأله أن يهب جثة عبد الله لأمه ، فأجاب عبد الملك طلبه^٧ ؛ ولقد كان عروة صهرا للأمويين فقد تزوج أم يحيى بنت الحكم بن أبي العاص بن أمية^٨ كما تزوج خالد بن يزيد بن معاوية فيما بعد رملة بنت الزبير^٩ ..

حول دعوى حرق الأمويين للكعبة وضربها بالجانيق:

إن أهم ما يوجه إلى الأمويين من نقد في مواجهتهم ثورة ابن الزبير هو انتهاكهم حرمة البلد الحرام مكة ، والبيت الحرام ، الذي تعرض أثناء القتال للرمي بالجانيق وللحريق ، مما يعد صدمة كبيرة للشعور الإسلامي ..

^١ ابن الأثير: الكامل 15/4

^٢ السابق 23/4 ، الطبري 188/6

^٣ الطبري: السابق 344/5 — 347 وكان عمرو على شرطة عمرو بن سعيد والى الأمويين على المدينة ..

^٤ الإمامة والسياسة 29/2 — 30

^٥ السعدي مروج الذهب 120/3 — 121

^٦ ابن الأثير: الكامل 26/4 ويوجد في رواياته بعض التحامل على الأمويين ، ولكن تحامل النويرى أشد .. راجع نهاية

الأرب 141/21 — 143

^٧ ابن سعد: السابق 178/5

^٨ الأصفهاني: الأغاني 343/17

وبداية فإن أي مساس بالكعبة لابد أن يتحمل ابن الزبير نصيبا من تبعته فهو الذي عرض مكة والبلد الحرام لتبعات الحرب وآثار القتال ، وكان بوسعه أن ينتقل منها إلى أي بقعة يريد في العالم الإسلامي ؛ عندما دانت له هذه البقاع بعد موت يزيد واختلال الأمر بالشام .. بل إنه قبل موت يزيد كان بوسع ابن الزبير أن ينتقل بمجنوده إلى المدينة لما أعلنت الأخيرة القتال على بني أمية ، وأخرجتهم منها . ولم يكن بنو أمية كما يصورهم بعض الرواة غلاظ الأكباد لا يقيمون وزنا للمقدسات الإسلامية بل كانوا مسلمين يفهمون قدسية هذه الأماكن ويجعلونها ، كما كانوا غير مستعدين للإنارة عواطف الجماهير ضدهم ببساطة بل اضطرقهم ممارسات السياسة إلى ذلك الموقف البغيض .. وهناك أدلة كثيرة على ذلك منها :

— ما روي في الصحيحين من أن أبا شريح الخزاعي قال لعمر بن سعيد — عامل يزيد على المدينة — وهو يبعث البعوث إلى مكة : ائذن لي أيها الأمير أن أحلفك حديثا قام به رسول الله ﷺ الغد من يوم الفتح ، سمعته أذناي ووعاه قلبي حين تكلم به ، إنه حمد الله وأثنى عليه وقال : " إن مكة حرمها الله ولم يحرمها الناس ، وإنه لم يحل القتال فيها لأحد كان قبلي ، ولم تحل لأحد بعدي ، ولم تحل إلا لي ساعة من نهار ، ثم صارت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس ، فليبلغ الشاهد الغائب " ، قال له عمرو بن سعيد : نحن أعلم بذلك منك يا أبا شريح ؛ إن الحرم لا يعيد عاصيا ولا فارا بدم ، ولا فارا بخربة ^١ . — وذلك الحوار الذي رواه الطبري بين الحصين بن ثمر قائد الجيش الأموي — الذي يرمونه بمروق الكعبة — وابن الزبير ، لما وصلت إليه أخبار موت يزيد : " فقال ابن الزبير للحصين : اذن مني أحدثك ، فدنا منه فحدثه ، فجعل فرس أحدهما يجفل — والجفل: الروث — فجاء حمام الحرم يلتقط من الجفل ، فكف الحصين فرسه عنهن ، فقال له ابن الزبير: مالك ؟ فقال : أخاف أن يقتل فرسي حمام الحرم ، فقال له ابن الزبير : اتخرج من هذا وتريد أن تقتل المسلمين ؟ فقال له الحصين لا أقاتلك ، فأذن لنا نطف بالبيت ونصرف عنك ، ففعل وانصرف " ^٢ .

فالرجل يتخرج من قتل حمام الحرم ، ثم هو يطلب أن يطوف بالبيت ويكف عن القتال بعد موت قائده ؛ إذ إنه قد أصبح في حل من ذلك الواجب الآن، والحصين ليس أعرايا جلفا لا يفهم الفرق بين حرمة حمام الكعبة وحرمة الكعبة نفسها ، فهو سيد من سادات أهل الشام المعدودين .

وكان مروان بن الحكم يعارض غزو الكعبة أثناء خلافة يزيد ، فإنه لما علم أن عمرو بن سعيد أعد جيشا بقيادة عمرو بن الزبير لقتال أخيه عبد الله ، جاء إلى ابن سعيد وقال : لا تغز مكة

^١ البخاري : الصحيح ، كتاب العلم ؛ وكتاب المغازي ، مسلم : الصحيح ، كتاب الحج ، ابن كثير : السليق 148/8 ، عبد الباقي : اللؤلؤ والمرجان ١/٢ ، والخربة : الجنابة ، فمن ارتكب جنابة ثم فر إلى الحرم — يحتسب به — يقام عليه الحد ..

^٢ الطبري : السابق 501/5

واتق الله ، ولا تحل حرمة البيت ، واخلوا ابن الزبير فقد كبر ، هذا له بضع وستون سنة ، وهو رجل لجوج ، والله لئن لم تقتلوه ليموتن ، فقال عمرو بن الزبير : والله لنقتله ، ولنغزوه في جوف الكعبة على رغم أنف من رغم ، فقال مروان : والله إن ذلك ليسوءني ^١ .. وكذلك كان شأن عبد الملك بن مروان في معارضته غزو الكعبة زمن يزيد ^٢ .. والأمر لا ينبغي تفسيره بأنه محض رغبة في إظهار الذات ، أو بسبب الخلاف بين فرعي العاص وأبي سفيان في البيت الأموي ، فإن تقدير ولي الأمر للحدث كان يخالف تقدير بعض رعيته ، ولما ابتلي عبد الملك بالحكم رأى ما كان يراه يزيد وإن شذ عنه في الوسائل التي اتبعها ..

لقد كان تقديس البيت الحرام جزءا من صميم العقيدة الدينية للعربي في الجاهلية ، وما زادها الإسلام إلا قداسة ، وفي أثناء توهج الصراع بين علي ومعاوية ، بعث معاوية يزيد بن شجرة الرهاوي على رأس جيش ليقم للناس الحج سنة 39 هـ وكانت مكة تحت سيطرة عامل علي ، وشدد معاوية على قائده في النصح بمراعاة حرمة الكعبة والموسم ، وقد التزم يزيد بن شجرة كل أسباب الحيطة ليتجنب الإلحاد في الحرم حتى نجح في أداء مهمته بغير قتال ^٣ ..

حول روايات حرق الكعبة :

وأول هذه الروايات رواية عوانة بن الحكم التي تفيد أن أهل الشام زمن يزيد قذفوا البيت بالمجانيق ، وحرقوه بالنار ، ويروي في ذلك بعض أبيات الشعر ^٤ ، ورواية عوانة هذه غير صحيحة كما يجزم بذلك فلهوون ^٥ ، والأبيات التي يستند إليها ليس فيها ذكر الحريق ، بل هي — كما وردت في ديوان الحماسة ^٦ — تتعلق بمسألة أخرى هي حصار مكة زمن عبد الملك والحجاج ، وفي هذا الحصار الثاني ضرب أهل الشام الجزء الذي زاده ابن الزبير على بناء الكعبة بالحجارة ، ولكن لم يحرقوها ، فخلطت رواية عوانة بين الحادثين .. ويروي يعقوب أن الحصين بن نمر — قائد يزيد — ناوش ابن الزبير الحرب في الحرم ، ورماه بالنيران حتى أحرق الكعبة ^٧ ، ويعقوبي واضح التحامل

^١ السابق 344/5 ، البلاذري : أنساب الأشراف 25/4

^٢ ابن الأثير : السابق 350/4

^٣ السابق 190/3 ، ابن أعمم الفتوح 39/4—40

^٤ ومن ذلك الشعر :

نرمي بها أعواد هذا المسجد

خطارة مثل الفتيق المزبد

(الطبري : السابق 498/5)

^٥ تاريخ الدولة العرية 162 — 163

^٦ أبو تمام : الحماسة 319

^٧ يعقوبي : السابق 181/2

على بني أمية ، وكذلك ابن أعثم الكوفي الذي يزعم أن الحجاج أيضا حرق الكعبة ووقف يتفجرج عليها وينشد الأشعار سعيدا^١ ..

أما الواقدي فقد روى أنهم كانوا يوقدون حول الكعبة فأقبلت شررة هبت بمسا الريح ، فاحترقت ثياب الكعبة ، واحترق خشب البيت يوم السبت لثلاث ليال خلون من ربيع الأول (سنة ٦٤ هـ وقيل أيام من موت يزيد بن معاوية لأربع عشر ليلة خلت من الشهر نفسه)^٢ ، وذلك مما يرويه أيضا البلاذري^٣ والأزرقي^٤ ، ويلاحظ أن توقيت الحادثة يوافق منتصف الحريف عام ٦٨٣ م؛^٥ مما يجعل احتمال هبوب الريح واردا حسب ما أجمعت عليه الروايات السابقة^٦ ويضيف الواقدي رواية أخرى عن شاهد عيان هو عروة بن أذينة قال : " قدمت مكة مع أمي يوم احترقت الكعبة وقد خلصت إليها النار ، ورأيتها مجردة من الحزير ، ورأيت الركن قد اسود وانصدع في ثلاثة أمكنة ، فقلت : ما أصاب الكعبة ؟ فأشاروا إلى رجل من أصحاب عبد الله بن الزبير ، قالوا : هذا احترقت بسببه ، أخذ قيسا في رأس رمح له فطيرت الريح به ، فضربت أستار الكعبة ما بين الركن اليماني والأسود^٧ " ؛^٨ وذلك ما تؤكدته رواية أخرى لابن عبد ربه^٩ وصاحب كتاب الإمامة والسياسة^{١٠} تكاد تفسر رواية الواقدي الأخيرة حيث تقول : إن ابن الزبير كان قد أسند ألواحا من الساج إلى البيت ، وألقى عليها الفرش والقطنانف ، فكان إذا وقع عليها الحجر نبت عن البيت ، فكانوا يطوفون تحت تلك الألواح فإذا سمعوا صوت الحجر حين يقع على الفرش والقطنانف كبروا ، وكان ابن الزبير قد ضرب فسطاطا في ناحية المسجد ، فكلما جرح أحد من أصحابه أدخله ذلك الفسطاط ، فجاء رجل في طرف سنان رمحه بنار فأشعلها في الفسطاط ، فوقعت النار على الكعبة فاحترق الخشب وانصدع الركن ، واحترقت الأستار ، وتساقطت إلى الأرض ..

ورواية ابن عبد ربه تنص على أن ذلك الرجل ينتمي إلى أهل الشام ، بينما تخلسو رواية الإمامة والسياسة من ذلك القول ، وهي الأقرب إلى الصواب ، فإنه ليصعب في هذه الظروف تعيين هوية رجل ما على نحو دقيق بل إنه من الأرجح أن لا يستطيع رجل من أهل الشام اختراق دفاعات ابن الزبير ليصل إلى فسطاط جرحاه ، ثم يحرقه ، ثم يعود دون ذكر عن التعرض له ، وبخاصة إذا

^١ الفتوح 276/6

^٢ الطبري : السابق 498/5

^٣ أنساب الأشراف 345/1 ، فتوح البلدان 59

^٤ أخبار مكة 1 / ١٣٩ - ١٤٠

^٥ يعضون : الحجاز والدولة الإسلامية 302

^٦ الطبري : السابق 498/5 - 499

^٧ العقد الفريد 392/4

^٨ الإمامة والسياسة 14/2

٣٥٠

أخذنا في الحسبان ما رواه مصعب الزبيري من أن ابن الزبير كان يقيم على أبواب المسجد الحرام^١ ؛ وهو أمر متوقع على أية حال .. وإذا كان الأمر كذلك ؛ وتكاثفت هذه الروايات التي تبرئ بني أمية من قمة حرق الكعبة ، فقد آن لنا أن نلقي جانباً تلك الأقوال التي تحاول قدر جهدها التشنيع على الأمويين ، وبخاصة ونحن نعلم احتمال كون ابن الزبير قد استغل هذه الواقعة لإخراج خصومه من الأمويين ، وإقامتهم بها ، ذلك الإقام الذي نراه على لسان شاعر الزبيريين ابن قيس الرقيات ، وغيره من لهم مصلحة أكيدة في تشويه صورة الأمويين^٢.

— حول ضرب الكعبة بالجنائيق زمن عبد الملك :

أما في حصار الكعبة زمن عبد الملك فيمكن أن نؤكد أن خطة عبد الملك بن مروان في محاربة ابن الزبير كانت توحى برغبة صادقة في تجنب نزول جيشه مكة والمدينة ، ولذلك فقد أمر الحجاج بنرول الطائف وأن يبعث الخيل لقتال ابن الزبير من هناك دون الهجوم بالجيش كله^٣ ، ولم يهجم الحجاج بكامل قواه إلا بعد أن استبان له أن ابن الزبير يحاول أن يستغل حرمة المدينتين المقدستين لأغراض سياسية معتمداً في ذلك على دقة موقف خصمه ، فلم يجد عبد الملك بداً من مهاجمته كي لا تتهدد وحدة العالم الإسلامي الذي يجب أن يظل تحت قيادة واحدة ، ولم يكن مستساغاً آنذاك وجود خليفين في آن واحد^٤ ، كما أن ضرب الحجاج الكعبة بالجنائيق آنذاك — وإن كان هناك من يشك في حدوثه^٥ — قد توقف في أثناء فريضة الحج^٦ ، واقتصر على الجزء الذي زاده ابن الزبير لما أعاد بناء الكعبة ، إذ كان بنو أمية يعتقدون أنها زيادة غير شرعية ، وأن ذلك الجزء ليس من الكعبة^٧ ..

^١ الطبري : السابق 190/6

^٢ يعضون : السابق 303

^٣ الطبري : السابق 174/6 — 175

^٤ دكسن : الخلافة ال 38

^٥ يعضون : السابق 340—341

^٦ ابن الأثير : السابق 23/4

^٧ راجع ص من هذا البحث

الفصل الخامس

موقف الأمويين من العصية العربية والقبلية

مقدمة

تعرض الأمويون لحملة عنيفة من كثير من المؤرخين بسبب موقفهم حيال الموالي^١ في عهدهم ، فوصفوا معاملة الأمويين لهم بأنها معاملة إذلال وهوان ، تنم عن استعلاء واحتقار وتعصب شديد وإهمال لأحكام الإسلام وشريعته وفكره ، وحقوق هذه الشعوب التي دانت لهم .. فقد تعصبوا للعرب دون غيرهم ، وأهمهم جمع الأموال ، واكتناز الثروات ، ففرضوا الجزية على هؤلاء الموالي ، وهم مسلمون ، لا جزية عليهم ، وشقوا عليهم في ذلك ، وأشركوهم معهم قسراً في القتال ، مشقة لا يركبون ، ثم حرموهم رغم هذه المشاركة من العطاء والغنائم ، وأبعدوهم عن مراكز الصدارة وأجهزة الحكم والإدارة وجعلوهم طائفة منبوذة في المجتمع ، فلا يتزوجون منهم ، ولا يعيشون معهم ، بل لا يصلون عليهم إذا ماتوا إلا ليظهروا بذلك تواضعهم المكذوب^٢.

^١ لكلمة "موالي" معان عدة في اللغة والشريعة والاصطلاح التاريخي : ففي اللغة : يطلق لفظ المولى على عدة معان تدور حول المحبة والنصرة فيطلق على الرب والمالك ، ومنه قوله تعالى (ثم ردا إلى الله مولاهم الحق) الأنعام آية 262 ، ويطلق على أبناء العم والعصية ، ومنه قوله تعالى : (وإني خفت الموالي من ورائي) مريم آية 5 ، ويطلق على الناصر والمعين ومنه قوله تعالى : (ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا ، وأن الكافرين لا مولى لهم) محمد 11 ، ويطلق أيضا على السيد والحليف والجار والصاحب والقريب والعبد . وفي الشرع : تطلق كلمة " مولى " على معنيين : مولى العاقلة : وهو الرقيق الذي أعققه سيده ، فزال عنه الرق وبقي الولاء ، ومولى المرواة : وهو الذي ينتمي إلى شخص أو قبيلة فينسب إليها ، ويصير فيها بالولاء ، وقد أقر الإسلام هذا ، فقال رسول الله ﷺ " مولى القوم منهم ، وحليفهم منهم " ، ويكون هذا النوع من الولاء بأن يأتي رجل إلى آخر : فيقول له : أنت مولاي ، ترثني إذا مت ، وتعقل عني إذا جئت ؛ أي تدفع الدية عني ؛ فيقول له قبلت (السرخسي : المبسوط 38/30 ، 54) وقد كثر ذلك النوع من الولاء بعد الإسلام ، إذ علا شأن العرب وعز مجدهم ، وفتحوا البلاد ، فكان أهل البلاد المقترحة يحمونهم ، ويتحالفون معهم ، فيتم ذلك الولاء .. وفي الاصطلاح التاريخي : يطلق لفظ موالي ويراد به المسلمون غير العرب وذلك لأن هؤلاء كانوا في الأصل أسرى حرب لأهم من الشعوب المغلوبة ؛ فكان للعرب حق استرقاقهم ، فلما تركوهم أحراراً فكأنما أعققوهم ، وكان من هؤلاء من يسلمون وينضمون للعرب ، ويدخلون في خدمتهم ، ويتحالفون معهم ، ليحتزوا بشوكتهم وقوتهم ؛ وبذلك يصبحون موالي أيضاً بالخلف والمرواة .. (راجع د. الطيب النجار : الموالي في العصر الأموي ص 13 ، 14 ، د. الخربوطلي : تاريخ العراق 253 ، 254 ، 157 ، د. محمد بيه حجاب : مظاهر الشعبية في الأدب العربي ص 120 ، ابن عبد ربه : العقد الفريد 443/4 ، ابن خلدون : المقدمة 494/2)

^٢ راجع في ذلك : جرجي زيدان : تاريخ التمدن الإسلامي 99/4 - 101 ، د. الخربوطلي : تاريخ العراق في ظل الحكم الأموي 157 - 159 ، 254 - 255 ، فلهوزن تاريخ الدولة العربية 67 ، د. حسن إبراهيم حسن : تساريخ

و كثيرا ما يتهم الأمويين بإثارة العصبية القبلية عند العرب وتشجيعها على حساب وحدة الكيان الاجتماعي للأمة ، وذلك بدعم وتأيد هذا الجانب القبلي أو ذاك ضد الآخر ، واستعداد بعض القبائل على بعض مما يفرض على هذه القبائل حالة من التوتر والفرق ، تعجز معها عن معارضة الأمويين ، فيظل السلطان فيهم .. وبينما يرجع بعضهم من هذه السياسة إلى معاوية يرجعها آخرون إلى الأسرة المروانية أيام موقعة مرج راهط ، مما يحتاج إلى مزيد دراسة ليستبين وجه الحق في هذه الشبهات .

الإسلام السياسي 542/1 ، د. عبد المنعم ماجد : التاريخ السياسي للدولة العربية 239/2 ، فان فلوتن : السيطرة العربية 94-95 ، 148 ، سيد أمير علي : مختصر تاريخ العرب ص 150 ، د. محمد نبيه حجاب : مظاهر الشعبوية في الأدب العرب ص 129 - 139 ، د. عبد الحليم عويس : دراسة لسقوط ثلاثين دولة إسلامية ص 66، 62 ؛ وانظر في الاضطهاد الاجتماعي خاصة : الميرد : الكامل 312/2 - 313 ، ابن عبد ربه العقد الفريد 63/2 .. وقد اعتمد كثير من المراجع سائفة الذكر على ما ورد في هذين المصدرين وسواءهما وبني عليها ..

Browne , A Literary History of Persia , vol. , I , PP 232-240

المبحث الأول

دعوى تعصب الأمويين للعرب ضد الموالي

نستطيع أن نصنف جميع أنواع الاضطهاد التي يزعم المؤرخون أن الموالي عانوا منها زمن بني أمية إلى نوعين هما الاضطهاد الاجتماعي والاضطهاد السياسي ؛ وسوف نتناول كلا النوعين بالدرس ؛ مع عرض أحوال الموالي ومكانتهم في العصر الأموي على امتداد ساحته المكانية والزمانية ..

أولا : الاضطهاد الاجتماعي للموالي :

والمراد به هو اضطهاد جماعة من المتعصبين للعربية هؤلاء الموالي ، فقد تحدثت بعض كتب الأدب العربي قديما عن ذلك ، فعقد ابن عبد ربه : بابا في كتابه " العقد الفريد " تحت عنوان " . باب المتعصبين للعرب " ؛ كما تحدث عن ذلك المبرد في كتابه " الكامل في اللغة والأدب " والأصفهاني في كتابه " الأغاني " حيث قدموا نماذج عديدة لهذه النظرة المتعالية التي أصابت بعض العرب في تعاملهم ونظرتهم للموالي ، فمن ذلك أنهم كانوا يقولون لا يقطع الصلاة إلا ثلاثة . حمار أو كلب أو مولى ، وكانوا لا يكتفونهم بالكفى ولا يدعونهم إلا بالأسماء والألقاب (حيث كان النداء بالكنية أو اللقب دلالة على الاحترام والتوقير) ، ولا يرضون أن يمسي الموالي معهم في صفوفهم ، ولا أن يتقدموهم في الموكب ، وإن حضروا طعاما أقاموهم على رؤوسهم لخدمتهم .. وكان الخاطب لا يختطب المرأة منهم إلى أبيها أو أخيها ، بل إلى مواليتها ، فإن رضي زوج وإلا رد ، فإن زوج الأب أو الأخ يغير رأي مواليه فسخ النكاح — وإن كان قد دخل بها — وكان سفاحا غير نكاح ؛ ومن ذلك أن أحد أشراف العرب وهو نافع بن جبير بن مطعم كان يقدم الرجل من الموالي يصلي به فإذا قيل له في ذلك قال : إنما أردت أن أتواضع لله بالصلاة خلفه ، وكان إذا مرت به جنازة قال مس هذا ؟ فإذا قالوا : قرشي ، قال : واقوماه ، وإذا قالوا : عربي قال : وابلوتاه ، وإذا قالوا : موى قال : هو ما لله يأخذ ما شاء ؛ ويدع ما شاء ^١ ، كما يرددون أن بعض الشعراء كالفرزدق كان متعصبا للعرب ، فكان إذا هجا أحد مشاهيرهم وصفه بأنه من الموالي لا العرب ، كما فعل في هجائه

^١ ابن عبد ربه العقد الفريد ٦٣/٢

^٢ السابق والصفحة ، المبرد : الكامل ٣١٢ / ٢

المهلب بن أبي صفرة حين وصفه بأنه نبطي^١، وهم يبالغون في ذلك ليروون أخباراً تدخل في باب الطرائف والدعابة لا التحقيق والتاريخ^٢ ..

وهذه النماذج التي ساقها المؤرخون على طولها ، والتي احتج بها بعض الكتاب المحدثين كأدلة على اضطهاد الأمويين للموالي ، لا تنهض للدلالة على ذلك ، فهؤلاء الأفراد المتعصبين للعرب اللذين ذكروهم لم يكونوا أمويين ، ولم يكونوا يشغلون منصباً في الإدارة الأموية ، وإنما هم في ذلك التعصب ضد الموالي يعبرون عن اتجاه اجتماعي وجد في تلك الفترة الزمنية بين بعض العرب الذين اعتزوا بعروبتهم إلى درجة أنسبهم بعض قيم الإسلام التي تجعل الناس سواسية كأسنان المشط ، وتجعل معيار التفاضل بينهم التقوى لا الجنس ولا اللغة .

ومن الحق أن نقرر أنه كان هناك أيضاً في صفوف الموالي من غلبت عليه عصبية ، وبخاصة من الفرس الذين كانوا يعتزون ويفخرون بقوميتهم وحضارتهم قبل الإسلام ، في ذلك الوقت الذي كان فيه العرب في الجاهلية يعانون التخلف والفوضى ، وقد زخرت كتب الأدب والتاريخ بكثير من هذه النماذج التي تدل على أن العصبية القومية أو الجنسية لم تكن قصراً على بعض العرب فقط ، وإنما شاركهم فيها بعض الموالي ، بل غالوا في ذلك إلى درجة مثيرة ، وبخاصة بعد مضي فترة من عمر الدولة الأموية ..

فقد كان يزيد بن ضبة مولى ثقيف يفاخر بالفرس ويعلي شأنهم ، حتى في تلك الرسالة التي وجهها إلى الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك يقول فيها :

ولينا الناس أزماناً طوالاً وسُئناهم ودسناهم وقدننا^٣

وكان إسماعيل بن يسار مولى بني تميم فارسي الأصل يخلط في فخره بقومه هجاء للعرب فيقول :

واسألي إن جهلت عنا وعنكم كيف كنا في سالف الأحقاب

إذ نري بناتنا وتدسسون سفاهاً بناتكم في التراب^٤

بل إنه ليفخر بقومه في مجلس الخليفة هشام بن عبد الملك وقد استشدّه شعره فأنشده قوله يفخر بنفسه وقومه :

من مثل كسرى وسابور الجنود معاً والمهرمان لفخر أو لتعظيم ..

^١ ديوان الفرزدق ١/ ٢٥٤ ، د . الحوي : أدب السياسة في العصر الأموي ص ٤٤٥

^٢ راجع : المرد : الكامل ٢/ ٣١٢-٣١٣

^٣ الأصفهاني : الأغاني ٩٥/ ٧ أو ١٤٦/ ٦ ، الحوي : أدب السياسة ٤٤٩ ، بييه حجاب : مظاهر الشعرية ~

162-163

^٤ الأصفهاني : السابق ٤/ ٤١٢-٤١٣

لقد أثارَت هذه الجرأة من ذلك الشاعر — الذي يفخر بنفسه وقومه في مجلس الخليفة الذي ينتظر مدحا له أو فخرا به — الخليفة نفسه ، الذي سب ذلك الشاعر وأمر به فألقي في بركة حتى كادت نفسه تخرج ، ثم نفاه إلى الحجاز^١ ..

ورغم حالات التعصب من الجانبين — السابق ذكر بعضها — فقد نال كثير من الموالى الذين أخلصوا للإسلام مكانة عالية عند المسلمين من عرب وموال ، وأصبحوا من أبرز علمائهم ومفكرهم ، كما وحد كثير من الموالى الذين يعترفون بفضل العرب عليهم ، إذ أخرجوهم من ظلمات الكفر والوثنية إلى نور الهداية والإسلام ؛ ورفعوا عنهم ظلم الساسة والطبقة الاجتماعية . ومن خلال ذلك الحوار الطريف بين أحد المتعصبين للموالى أو الفخوريين بهم وأحد المتعصبين للعرب تنضح المكانة العالية التي حققها علماء الموالى في العصر الأموي : " قال ابن أبي ليلى : قال لي عيسى ابن موسى ، وكان ديانا شديد العصبية ؛ من كان فقيه البصرة ؟ فقلت : الحسن بن أبي الحسن (وهو الحسن البصري) قال : ثم من ؟ قال : محمد بن سيرين قال فما هما ؟ قلت : موليان ، قال فمن كان فقيه مكة ؟ قلت : عطاء بن أبي رباح ومجاهد وسعيد بن جبير وسليمان بن يسار ، قال : فما هؤلاء ؟ قلت : موالى ، فبغير لونه ؛ ثم قال : فمن أفقه أهل قباء ؟ قلت ربيعة الرأي وابن أبي الزناد قال : فما كانا ؟ قلت : من الموالى ، فابرد وجهه ، ثم قال : فمن كان فقيه اليمن ؟ قلت : طاووس وابنه وابن منبه ، قال فما هؤلاء ؟ قلت : من الموالى ، فانتفضت أوداجه فانتصب لقاعدا ، قال فمن كان فقيه خراسان ، قلت عطاء بن عبد الله الخراساني ، قال : فمن كان عطاء هذا ؟ قلت : مولى ، فازداد وجهه تربدا ، واسود اسودادا حتى خفته ، ثم قال : فمن كان فقيه الشام ؟ قلت : مكحول ، قال : فمن كان مكحول هذا ؟ قلت : مولى ، فتنفس الصعداء ، ثم قال : فمن كان فقيه الكوفة ؟ قال : (أي ابن أبي ليلى) فوالله لولا خفته لقلت الحكم بن عتيبة وعمار بن أبي سليمان ، ولكني رأيت فيه الشر ، فقلت : إبراهيم والشعمي ، قال : فمن كانا ؟ قلت : عرييان ، فقال : الله أكبر ، وسكن جأشه " ^٢ ..

ومهما يكن في هذه الرواية من التصنع والمبالغة ، وإهمال لفيف من العلماء العرب في هذه الأمصار كلها ، إلا أنها تظل ثروة الدلالة على ما حققه هؤلاء الأعلام المخلصون لدينهم من مكانة في العلم والدين في المجتمع الإسلامي في العهد الأموي ، بل إننا يمكن أن نضيف أسماء عدد آخر من العلماء الموالى المبرزين مثل يزيد بن أبي حبيب بمصر ، وميمون بن مهران بالجزيرة ، والضحاك بن

^١ السابق 423/4

^٢ ابن عبد ربه : العقد الفريد 64/2

مزاحم بخراسان وغيرهم^١ ؛ وقد ظفر هؤلاء العلماء من الموالي بحب العرب وإجلالهم حكاما ومحكومين ..

ومن أمثلة هذه المكانة الرفيعة التي نالها علماء الموالي عند العرب في العصر الأموي ، وعند خلفائهم وولاهم : أن الحجاج بن يوسف الذي اشتهر عند المؤرخين بالقسوة والخشونة كان يثنى وسادته طاووس اليماني ، ويجلسه عليها ، وذلك لما التقى به في موسم الحج بمكة^٢ ؛ ولما مات طاووس هذا لم يتهيا إخراج جنازته لكثرة الناس حتى وجه إليهم أمير مكة بالخرس ، وقصد حرص هشام بن عبد الملك على تشييع جنازته بنفسه ، وكان عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي يضع سرير طاووس على كاهله حتى سقطت قلنسوته من على رأسه ، ومزق رداؤه من خلفه^٣ ..

وكان الحسن البصري رفيع المزية عند الناس جميعا وكان صريح المعارضة لبني أمية بجاهر بذلك ؛ ويعارض في الوقت نفسه تلك الثورات التي لا طائل من ورائها ، إلا إراقة دماء المسلمين ، وقد وقف في وجه يزيد بن المهلب لما ثار على الأمويين ، وأخذ يعبئ أهل البصرة ضده ، مما أثار غضب ابن المهلب وبعض أنصاره حتى هم أحدهم بقتل الحسن ، فقال له يزيد : " اغمد سيفك فوالله لو فعلت لانقلب من معنا علينا " ،^٤ وسبق أن أشرنا إلى أنه لما مات الحسن البصري احتشد الناس لجنازته فلم تقم صلاة العصر بالمسجد الجامع بالبصرة آنذاك ، " وما علم أنما تركت منذ كلن الإسلام إلا يومئذ ؛ لأنهم تبعوا الجنازة فلم يبق من يصلي بالمسجد " .^٥

ولقد ظل شريح القاضي — وهو أحد الموالي — قاضيا على الكوفة منذ عهد عمر بن الخطاب إلى عهد الحجاج بن يوسف — خمسا وسبعين سنة — وكان فارسي الأصل^٦ ..

وكان سعيد بن جبير عظيم المكانة في الكوفة رفيع القدر عند عاملها الحجاج البجلي ولاه إمامة الصلاة بالكوفة — معقل العصبية العربية — ولم يكن يؤم بها إلا عربي ، ولكنه خرج عليه ضمن من خرج في ثورة ابن الأشعث ، فقتله الحجاج صبورا ، فأثار على نفسه بذلك العمل نقمة كثير من المسلمين — عربا وموالي — على مدار الزمن ، " ولم يستنكر الناس عمل الحجاج في قتله الكثير من العرب والموالي كما استنكروا قتل سعيد بن جبير لعلمه ودينه وهو مولى " .^٧

^١ عمر أبو النصر: الحضارة العربية 306

^٢ ابن عبد ربه : السابق 67/2

^٣ اليافعي : مرآة الجنان 227/1 — 228

^٤ ابن خلكان : وفيات الأعيان 408/2

^٥ اليافعي : مرآة الجنان 231/1

^٦ الدميري : حياة الحيوان 19/1

^٧ أحمد أمين : ضحى الإسلام ج 1 ص 28

وكان عطاء بن أبي رباح شيخ الحرم المكي ، وإليه المرجع في الفتوى ، وهو أحد الموالى أيضا ، قال ابن خلكان : قال إبراهيم بن عمرو بن كيسان : أذكروهم في زمان بني أمية يأمرون في الحج صائحا يصيح : " لا يفتي الناس إلا عطاء بن أبي رباح " ^١ وهل يمكن أن ينادى بمثل ذلك في الحج بتفضيل أحد الموالى على غيره من جميع الناس وولاية الأمر كارهون ؟ ^٢ ..

وعلى الجانب الآخر وجد عدد من الموالى ذوى المكانة الرفيعة يعرفون للعرب قدرهم . وفضلهم ، من ذلك ما يروى من أن نصيبا الشاعر قد رفض أن يتزوج ابنة إحدى بنات سيده . رغم موافقة أهلها على ذلك ، بل ضرب ابنه لأنه تجرأ هذه الجرأة ضربه مبرحا ، وطلب من أهل الفتاة أن يزوجوها أحد أشرف الحي من الشباب ^٣ ..

وكان عبيد الله بن الحبحاب مولى لبني سلول ، وتناهت به الحال إلى أن أصبح واليا على مصر والريفة والمغرب والأندلس يبعث عماله إلى هذه البلاد ومنهم عقبة بن الحجاج السلولي ، الذي جعله عامله على الأندلس ، وكان والد عقبة قد اعتق والد عبيد الله ، وكان لعبيد الله بن الحبحاب أولاد قد أعجبهم أنفسهم ، ورأوا إكرام أبيهم لعقبة بن الحجاج ، ، فكان إذا دخل عليه قام ابن الحبحاب إليه وأعظمه وأقعدته على سريره ، فأنكر أولاد ابن الحبحاب ذلك عليه ، فقال لهم أبوهم : ما رأيكم ؟ قالوا : أن تعطيه شيئا وتصرفه عنا فلا يكسر شرفنا ، فقال لهم : نعم ، فلما كان في غد أمر الناس فدخلوا عليه ، ودخل عقبة في جملتهم ، فقام إليه وأجلسه على سريره ووقف قائم فقال : أيها الناس إن بني هؤلاء غرقهم غرة الشيطان لعزة السلطان ، وأرادوا أمرا أخرج به عن الحق ، وأنكروا ما رأوا من بري هذا الرجل ، وإنما أخبركم أنه مولاي ، وأن أباه اعتق أبي ، وأنا أكره كتمان أمر الله سبحانه شهيد به علي ، ثم خير عقبة في ولاية ما شاء من سلطانه فاختر الأندلس ، فولاه عليها ، وذلك في سنة 116 هـ وكان سبب اختيار عقبة لها أنه قال : إني أحب الجهاد وهى موضع جهاد ^٤ ..

وهكذا نرى أنه ليس صحيحا أن الموالى قد عانوا من الاضطهاد الاجتماعي من العرب في العصر الأموي ، بل الحق أن فريقا من العرب قل تمثله قيم الإسلام ، وتعصب لعروبتهم ، فاحتقر الموالى ، وفي المقابل لهم وجد فريق آخر من الموالى قد تعصب لقوميته وجنسه ، وبخاصة من الفرس ، فاحتقر العرب ، وبأدهم المهجاء .. وبعيدا عن هذين الفريقين كان جل العرب وكثير من الموالى يلتزمون بقيم

^١ ابن خلكان : وفیات الأعيان ٢٦١/١

^٢ عمر أبو النصر: الحضارة العربية 306

^٣ الأصفهاني : الأغاني 320/1

^٤ ابن عذاري : البيان المغرب 51/1 - 53 ، أخبار مجموعة 25-28

الإسلام الصحيح في المساواة بين البشر ، وتفضيل أصحاب القوى وأهل العلم من الفريقين ، فلجل العرب علماء الموالي ، واعترف الموالي من هذا الفريق بفضل العرب ومكانتهم ... وهذا التماوج في الحركة بين التعصب والسماحة إنما هو ضرب من الحركة الاجتماعية تحكمها قوانين المجتمع وخصائصه ، ولا دخل للدولة الأموية به إلا في قدر يسير ، كان دائما مرتبطا بالتوجه الإسلامي للدولة ، والحفاظ على نظامها ..

ثانيا : الاضطهاد السياسي للموالي :

يروى بعض المؤرخين أن معاوية دعا الأحنف بن قيس وسمرة بن جندب " فقال : إني رأيت هذه الحمراء (يعني الموالي) قد كثرت ، وكأني أنظر إلى وثبة منهم على العرب والسلطان ، فقد رأيت أن أقتل شطرا ، وأدع شطرا لإقامة السوق وعمارة الطريق ، فما ترون ؟ فقال الأحنف : أرى أن نفسي لا تطيب ، أخي لأمي وخالي ومولاي ، وقد شاركناهم وشاركونا في النسب ، وظننت أني قد قتلت عنهم ، وأطرق ، فقال سمرة بن جندب : اجعلها إلي أيها الأمير ، فأنا أتولى ذلك منهم ، وأبلغ منه ، فقال : قوموا حتى أنظر في هذا الأمر ، قال الأحنف : فقمنا عنه ، وأنا خائف ، وأتيست أهلي حزينا ، فلما كان بالغددة أرسل إلي فعلمت أنه أخذ برأيي وترك رأي سمرة " ^١ ..

وهذه الرواية ، ولا ريب ، تحمل قدرا عظيما من المبالغة والافتراء ، فمعاوية لم يكن ليفكر في قتل آلاف من المسلمين الموالي بغير جريمة أو ذنب ، سوى تخوفه من وثبة منهم محتملة على العرب ، وذلك لما ينافي بالتأكيد طبيعة الحلم الأصلية عنده ؛ فضلا عن منافاتها أحكام الدين وشريعة الإسلام ، ولم يكن ذلك ممكنا على أية حال بعد كثرة عدد الموالي وتغلغلهم في الكيان الاجتماعي المسلم ، وتأثيرهم على ميزان القوى لدى القبائل العربية ، مما يهدد بانشقاق اجتماعي وسياسي جديد لا يعلم مداه ، كما يشتم من الحديث المنسوب للأحنف بن قيس .

وبعيد أن يكون الأحنف أكثر حرصا على السلامة من معاوية ، غير أن هذه الرواية مغزاها السياسي الذي استرعى انتباه واضعيها ، فقد كان التحول العددي لصالح الموالي قد أصبح أمرا ملموسا أو متوقعا ، وأصبح التخوف على مكانة العرب السياسية والاجتماعية إزاء ذلك أمرا له ما يبرره ..

ولم يكن التحول العددي لصالح الموالي هو كل ما يخيف في واقع الأمر ؛ بل لقد كانت هناك تلك الرعة القومية ، وهذه العصبية التي لا تحطئها عين ؛ والتي تتبدى في كثير من مواقف التفاعل الاجتماعي بين العرب والموالي وبخاصة الذين ينتمون إلى أصول فارسية ، والتي فجرت كثيرا من الشكوك حول ولاء كثير من هؤلاء الموالي للدولة الإسلامية .

^١ ابن عبد ربه : العقد الفريد 3/2

والحق أن هذه الشكوك قديمة تعود إلى عصر الراشدين . حيث كانت حركة الفتوح الكبرى تقذف هذه الأعداد المتزايدة من غير العرب في المجتمع العربي الإسلامي ، وكثير منهم كانوا يسارعون باعتناق الإسلام ، يتخلصون بذلك من الحرج الاجتماعي والديني الذي كانوا يعانونه ، ويتمتعون بالمساواة الكاملة مع العرب الفاتحين .. غير أن بعض هؤلاء المسلمين من غير العرب ، وبخاصة الفرس ، كانوا يحثون إلى مجدهم القديم ، وعزهم الزائل ، ويمتلئون حقداً تجاه هذا الدين الذي أباد ملكهم ، وأذهب مجدهم ، حتى نجح بعضهم في التآمر لقتل عمر بن الخطاب رضي الله عنه الذي ذهب ضحية مؤامرة ثلاثية حاكها الهرمزان — القائد الفارسي الذي أسره المسلمون فأعلن في المدينة إسلامه — وجفينة النصراني وأبو لؤلؤة الجوسي^١ ؛ وقد أثار هذا الحدث خوف بعض المسلمين وشكوكهم ، كما يتضح من الحوار الذي دار بين عمر بن الخطاب بعد طعنه وابن عباس حيث قال له عمر : كنت أنت وأبوك تحبان أن يكثر العلوج بالمدينة ، فقال ابن عباس وقد هزه طعن أمير المؤمنين : أنقتلهم ؟ فقال عمر : كذبت ! أبعد أن تكلموا بلسانكم ، وصلوا إلى قبلتكم ؟^٢ ..

ولما استخلف علي بن أبي طالب رضي الله عنه سوى بين العرب والموالي في العطاء ، وكان جيشه يضم الآلاف من هؤلاء الموالي^٣ ؛ فأغضب تصرفه ذلك بعض أشراف العرب الذين قالوا : يا أمير المؤمنين اعط هؤلاء هذه الأموال ، وفضل العرب وقريشاً على الموالي ، ممن يُتخوف خلافه على الناس وفراقه ، فرفض علي ذلك قائلاً : " أتأمروني أن أطلب النصر بالجور فيمن وليت عليه " ؟^٤ ، ولكن هؤلاء العرب لم يرضخوا لذلك فكان أحد زعمائهم وهو الأشعث بن قيس يقول له : يا أمير المؤمنين غلبتنا هذه الحمراء على قربك^٥ ..

ورغم ذلك فقد ثار عليه كثير من الموالي الذين عضدوا الخوارج وكانوا مدداً لهم ، فشاركوا في ثورة الخريت بن راشد من بني ناجية سنة 38 هـ^٦ ؛ وفي ثورة أبي مريم السعدي التميمي الخارجي ، الذي كان أكثر من معه من الموالي ، ولم يكن معه من العرب إلا ستة نفر هو أحدهم^٧ ..

وفي حياة علي وبعد موته أثرت دعوة السبئية أفكاراً غريبة عن التصور الإسلامي الصحيح ، مثل الوصية والرجعة وغيرها ، وكانت هذه الأفكار أكثر رواجاً في العراق وفارس حيث

^١ الطبري : السابق 240/4

^٢ ابن تيمية : منهاج الاعتدال 298

^٣ الإمامة والسياسة 145/1

^٤ السابق 153/1 ، ابن أبي الحديد : شرح فحج البلاغة 180/1 — 181

^٥ المبرد : الكامل 54/2

^٦ الطبري : السابق 122/5 — 123

^٧ د الريس : الخراج والنظم المالية 194 — 196

ناسبت معتقدات أهل هذه البلاد قبل الإسلام ، غير أن هذه الأفكار أصبحت أكثر خطورة لما ظهرت القوة السياسية التي اكتسبها الموالي في الكوفة إبان سيطرة المختار بن أبي عبيد الثقفي عليها بعد وفاة يزيد بن معاوية ، واختلال الأمر بالشام .. فقد كان الموالي بالكوفة يؤلفون آنذاك أكثر من نصف سكانها ، وفي أيديهم الحرف اليدوية والمهن والتجارة ، وترك لهم العرب المشغولون بسالحرب والقتال مرافق الحياة المدنية ^١ ؛ فقرهم المختار واختار منهم حرسه الخاص ، وأشركهم مع العرب في العطاء ، وقدمهم معه في القتال ، فأثار عليه ذلك أشرف العرب الذين عبر عنهم شبت بن ربيعي التميمي في قوله للمختار : " عمدت إلى موالي ، وهم فيء أفاء الله علينا ، وهذه البلاد جميعا ، فأعتقنا رقابهم ، نأمل الأجر في ذلك والثواب والشكر ، فلم ترض لهم بذلك حتى جعلتهم شركاءنا في فيئنا " ^٢ ، غير أن غضب هؤلاء الأشراف على المختار مكن للموالي عنده ، حتى لم تكن تسمع كلمة عربية في معسكره ^٣ ، وازداد عداؤهم هؤلاء العرب وحقدهم عليهم ^٤ ؛ ولقد أتاحت لهم هذه المكانة السياسية الفرصة لمزيد من التخريب العقدي للأمة ، ففشا الغلو في التشيع ، وظهرت الأفكار الدخيلة والتفسير الباطني لأركان الإسلام وعباداته ، وتطورت السبئية وتشكلت الكيسانية ، وغيرها من الحركات الهدامة ^٥ ؛ ثمها رواقد قديمة من العقائد الفارسية والرعاع الدينية المانوية والزرادشتية التي شعرت بخطر المبادئ الإسلامية على كيانها ^٦ ..

وبعيدا عن المغالاة في التشيع ودور الموالي فيها ، فقد كان لهم أيضا دورهم في دعم حركات الخوارج ؛ فقد كانت الأسس النظرية لحركة الخوارج تقتضي المساواة الكاملة بين العرب والموالي ، بل إنما تجيز أن يكون أمير المؤمنين عربيا أو مولى ، حيث لا تشترط فيه القرشبية ، ولقد اشترك الموالي بشكل فعال في حركة نجدة بن عامر الحنفي في البحرين واليمامة وشرقي الجزيرة العربية ، حتى نجد هؤلاء الخوارج بعد أن ينقموا على أميرهم نجدة بعض أعماله يعزلونه ويولون عليهم أحد الموالي واسمه ثابت التمار ، مما يدل على قوة تمثيل الموالي بينهم ، وإن عزلوه بعد ذلك وولوا بدله أبا فديك عبد الله بن ثور ^٧ ..

^١ فلهوزن : الخوارج والشيعة 211-212

^٢ الطبري : السابق 44/6

^٣ الدينوري : الأخبار الطوال 302

^٤ راجع الطبري : السابق 45/6

^٥ راجع فلهوزن : الخوارج والشيعة 248-250

^٦ د. الدوري : مقدمة في تاريخ صدر الإسلام 83 ، فلوتن : السيطرة العربية 141-142 ، د. شلي : موسوعة

التاريخ الإسلامي 148/2 ، د. العدوي : تاريخ العالم الإسلامي 189/1

^٧ راجع د. عبد الأمير دكسن : الخلافة الأموية 281 ، البلاذري : أنساب الأشراف 143/11 ، اليعقوبي : السابق

على أن اشتراكهم في ثورات الأزارقة في العراق وفارس كان أقوى وأظهر ، فقد كانت أصبهان وكرمان والأهواز وفارس مستراحا لهم وملجأ يلتجئون إليه كلما ضاقت عليهم السبل ، وهناك كانت حركتهم تترعرع وتكتسب أنصارا جددا ، ولم تستطع جيوش المهلب بن أبي صفرة أن تغلب عليهم فيما بعد إلا عندما وقع الاختلاف بين أفرادها العرب والموالي ، فقد انفصل ثمانية آلاف من الموالي وبايعوا واحدا منهم واسمه عبد ربه الصغير ، واتبعهم قليل من العرب مع عمرو القنا ، بينما ظل معظم العرب مع قائدهم السابق قطري بن الفجاءة ، ووقع الاقتتال بينهم ، فمكن ذلك المهلب من هزيمتهم فريقتا إثر فريقتي^١ ..

إن هذه الروح الثورية من بعض الموالي ضد الدولة الإسلامية في عصر الراشدين أو الأمويين ، والتي تمسست بالقتال واجترأت على الخروج على الدولة في جميع هذه الحالات السابقة ، قد اصطدمت بقوة برغبة الحجاج بن يوسف في إعادة سلطان الدولة الأموية على العراق والمشرق بعد سنوات طويلة من القوضى والحروب الأهلية (٦٤٤-٧٣ هـ) كما اصطدمت بسياسة الدولة الأموية في التعريب ، وصيغ الدولة الإسلامية في دواوينها واقتصادها بالصيغة العربية ، وقد أدى هذا وذاك إلى نشوب عدة ثورات ضد الحجاج كان أخطرها ثورة ابن الأشعث التي هددت وجود الأمويين في العراق والمشرق بصورة خطيرة ، حيث خلع قائدها الخليفة وعامله على العراق ، وثمت له السيطرة على شرقي العراق ، وأخرج الحجاج في العراق نفسه وكان الموالي يشكلون عنصرا مهما من عنصر هذه الثورة ، ففي بعض معاركها كان عدد المقاتلة في صفوف ابن الأشعث مائة ألف عربي ومعهم من الموالي مثلهم^٢ ..

ولما انتصر الحجاج على ابن الأشعث كان من المتوقع أن ينكل بأعدائه عربا كانوا أو موالي ، وقد اتخذ تكييله بالموالي مسحة خاصة حيث اقترن بالشك في إيمانهم بالإسلام ، ولشد ما كان يحتل عند الحجاج الولاء للدولة والإيمان بالدين ، ولذا فقد فرض عليهم الجزية ، وردهم إلى قراهم التي جاءوا منها من قبل ، وكان لتدبيره ذاك أصداء واسعة وأسباب وتأويلات سنعرض لها بالتفصيل فيما بعد^٣ ؛ غير أن استمرار فرض الجزية على من أسلم من الموالي لم يستمر طويلا ، إذ صحح عمرو ابن عبد العزيز ذلك المسار ، وعاد إلى الأصل الإسلامي في رفع الجزية عن مسلم ، ومساواة العرب وغيرهم من المسلمين في الحقوق المدنية ..

ولكن لأسباب اقتصادية أيضا وجد عامل خراسان وما وراء النهر أشرس بن عبد الله السلمي نفسه مضطرا إلى استسهال نفس الحل الذي ابتدعه الحجاج ؛ لما فوجئ أشرس بنجاح

^١ فلهوزن : الخوارج والشيعه 105-106

^٢ الطبري : السابق 347/6

^٣ راجع الفصل الخاص بالشبهات حول السياسة المالية للأمويين ..

سياسته في الدعوة إلى الإسلام في بلاد ما وراء النهر إلى درجة غير متوقعة ، إذ عظم عدد الداخلين في الإسلام وارتفعت شكوى الدهاقين المتولين جمع الجزية والخراج من مخاطر قلة الداخـل إلى خـزينة الدولة بعد امتناع هذه الأعداد الغفيرة عن دفع الجزية ؛ فأمر أشروس بإعادة أخذ الجزية عمن رُفعت عنه لإسلامه ، فآثار ذلك نائرة هؤلاء الموالي ومن تعاطف معهم من المسلمين ، كما سيأتي.

غير أن ذلك الخروج عن الأصل الإسلامي أيضاً لم يطل ، إذ إن هذه المشكلة التي ظهرت في سنة ١١٥ هـ قد انتهت بتنظيم نصر بن سيار للخراج والجزية في هذه البلاد سنة ١٢١ هـ^١ ؛ وعلى ذلك فلا يصح اعتبار هاتين الحالتين سياسة عامة للأمويين ، أو قصداً إلى اضطهاد الموالي ، أو موقفاً مبدئياً ضدهم ، إذ لا تخرج في الحقيقة عن كونها اجتهادات سياسية محكومة بمعطيات ذلك العصر وظروفه المشابهة ، وجدت الفرصة لتصحيحها على يد الأمويين أنفسهم ، وفي عهدهم ، وقد وجد الموالي في هاتين الحالتين من يتعاطف معهم ويذل لهم النصرة من العرب أنفسهم .. كما وجدوا من ينصفهم من الأمويين .. ولكن الروح القومية المتمردة في موالي القسم الشرقي من الدولة الأموية لم تفتقر ، بل وجدت في مثل هذه التجاوزات أو الاجتهادات زاداً لها ، كما وجدت في دعوة الشيعة إطاراً فكرياً لحركتها ، وفي قيادة العباسيين الوعاء التنظيمي الثوري لهم ، حتى تم لهم ما أرادوا وقضوا على سلطان بني أمية وأقاموا دولة العباسيين التي كانوا أكبر عون لها ، والتي أتاحت لهم منذ وقت مبكر الفرصة الكافية لإظهار النفوذ الفارسي ، ثم تكوين إلدويلات المستقلة التي تتحكم فيها تلك القوميات المختلفة ..

ثالثاً : أوضاع المسلمين غير العرب في غرب الدولة الأموية :

يلاحظ أن لفظ الموالي الذي يطلقه المؤرخون على المسلمين من غير العرب لا يطلقونه على البربر في شمال إفريقيا أو الأندلس ؛ وإنما يسميهم المؤرخون باسمهم الأصلي " البربر " بينما يقتصر استعمال لفظ " الموالي " على المسلمين من غير العرب في العراق وشرقه .. مما يؤكد أن مشكلة الموالي في الدولة الأموية قد ارتبطت هؤلاء المسلمين الجدد من بلاد فارس وخراسان وما وراء النهر^٢ ..

ولقد دخل البربر في نسج المجتمع الإسلامي عضواً مشاركاً وناشطاً منذ استقرار الفتح الإسلامي هناك على يد حسان بن النعمان ثم موسى بن نصير اللذين أشركا البربر في بعض الأعمال العسكرية والإدارية المهمة ؛ حتى صار منهم قادة مرموقون مثل طارق بن زياد وجنوده الفاتحين

^١ الطبري : السابق ١٧٣/٧

^٢ د. شلي . موسوعة التاريخ الإسلامي ١٩/٢-٢٠

للأندلس ؛ وقد عومل هؤلاء البربر المسلمون منذ البداية علي قدم المساواة مع العرب ؛ فاعتبرت بلادهم كالمفتوحة صلحا وأصبحوا أحرارا في حياتهم كالعرب تماما ^١ ..

وأول ما يزعم المؤرخون أنه عكس صفو هذه العلاقة الحميمة هو ما يرويه الطبري بغير إسناد من أن عامل الأمويين علي إفريقية يزيد بن أبي مسلم عزم أن يسير في أهلها مسيرة الحجاج بن يوسف في أهل العراق من رد من أسلم من أهل القرى وهاجر إلى المدن إلى قراهم ؛ ووضع الجزية علي رقابهم ؛ " فلما عزم علي ذلك تأمروا في قتله فأجمع رأيهم — فيما ذكر — علي قتله فقتلوه ؛ وولوا علي أنفسهم الوالي الذي كان عليهم قبل يزيد بن أبي مسلم — وهو محمد بن يزيد مولي الأنصار — وكان في جيش يزيد بن أبي مسلم ؛ وكتبوا إلى الخليفة يزيد بن عبد الملك : إنا لم نخلع أيدينا من الطاعة ؛ ولكن يزيد بن أبي مسلم سامنا ما لا يرضي الله والمسلمون ؛ فقتلناه وأعدنا عاملك ؛ فكتب إليهم يزيد بن عبد الملك : إني لم أرض بما صنع يزيد بن أبي مسلم ، وأقر محمد بن يزيد علي إفريقية ؛ وذلك سنة 102هـ ^٢ ..

ويضيف ابن عذاري وجها جديدا في أسباب قتل يزيد بن أبي مسلم وتحديد قتله ؛ فيروي أن حرس يزيد كانوا من البربر وأنه قام خطيبا فقال : " إني رأيت أن أرسم اسم حربي في أيديهم كما تصنع ملوك الروم بحرسها ؛ فأرسم في يمين الرجل اسمه وفي يساره "حربي" ؛ ليعرفوا بذلك من بين سائر الناس ؛ فإذا وقفوا علي أحد أسرع بما أمرت به " ، فلما سمعوا ذلك منه — أعني حرسه — اتفقوا علي قتله وقالوا : جعلنا بجرة النصارى ؛ فلما خرج من داره إلى المسجد لصلاة المغرب قتلوه في مصلاه ^٣ ..

والروايتان تتفقان علي أن ما عزم عليه يزيد بن أبي مسلم كان رأيا خاصا به ؛ لم تشاركه فيه الخلافة ولم تعلم به ؛ بل إنها قابلت نأ قتل الوالي وتعيين غيره بالرضا والقبول .

كما تتفق الروايتان علي أن يزيد بن أبي مسلم لم يتجاوز مرحلة التفكير والعزم والإعلان إلى مرحلة التنفيذ والعمل لما أرادته وعزم عليه ؛ فلم يقع بعد ظلم منه علي رعيته أو حرسه ؛ وعلي ذلك فقد انتهت الأحداث إلى هذا الحد ، فلم يقع ظلم معروف حقيقي علي الرعية ؛ ولم تحدث ثورة حقيقية من البربر علي الخلافة ؛ بل إن ما أراد الوالي المقتول عمله لا يعدو في الواقع أن يكون عملا تنظيميا أراد به سرعة تنفيذ أوامره ومنع وسائل التمتع الممكنة من الرعية في تنفيذ هذه الأوامر ، كما

^١ راجع د. حسين مؤنس : فتح العرب للمغرب ص 277 ، د. شعبان : صدر الإسلام والدولة الأموية 137-138

^٢ الطبري : السابق 617/6

^٣ البيان المغرب 48/1 — 49 ، وتعمل الرواية ذلك سنة 103 هـ وتعمل خليفة يزيد بعد قتله محمد بن أوس

الأنصاري بدل محمد بن يزيد

يبدو من رواية ابن عذاري ؛ وهي الأجدد بالقبول لما نعلمه من منهج الطبري في تاريخه ألا يولي اهتماماً موازياً بأخبار إفريقية والمغرب لما يولييه من اهتمام بأخبار المشرق والحجاز .

علي أنه يجدر بنا ألا ننسى ما رواه ابن عبد الحكم المؤرخ المصري من أن قتل يزيد بن أبي مسلم إنما كان نتيجة خلاف بينه وبين عبد الله بن موسى بن نصير والي إفريقية الأسبق ؛ وأن عبد الله كان له دور في قتل يزيد مما أدي إلى أن أمر الخليفة الأموي بقتله قصاصاً بسبب دوره في قتل ابن أبي مسلم^١ ..

وإذا كان سلوك ذلك الوالي وقتله حدثاً محدوداً فإن المغرب قد شهد ثورته الكبرى سنة 122 هـ في ولاية عبيد الله بن الحبحاب ؛ ثم انتقلت هذه الثورة إلى بلاد الأندلس واستمرت آثارها حتى سقوط الدولة الأموية .. ويروي الطبري مقدمات هذه الثورة وأسبابها علي النحو التالي :

" ورجع عبد الله بن سعد بن أبي السرح إلى مصر وقد فتح إفريقية ؛ في عهد (عثمان بن عفان) وقتل الأجل (أي ملكها) ؛ فمأزوا من أسمع أهل البلدان وأطوعهم إلى زمان هشام بن عبد الملك ؛ أحسن أمة إسلاماً وطاعة ؛ حتى دب إليهم أهل العراق ؛ فلما دب إليهم دعاة أهل العراق واستناروهم شقوا عصاهم وفرقوا بينهم إلى اليوم ؛ وكان من سبب تفرقهم أنهم ردوا علي أهل الأهواء فقالوا : إنا لا نخالف الأئمة بما تنجي العمال ولا نحمل ذلك عليهم ؛ فقالوا لهم : إنما يعمل هؤلاء بأمر أولئك ؛ فقالوا لهم : لا نقبل ذلك حتى نبورهم (أي نختبرهم) فخرج ميسرة في بضعة عشر إنساناً حتى يقدم علي هشام ؛ فطلبوا الإذن فصعب عليهم ؛ فأتوا الأبرش (الكلي) وزير هشام (فقالوا : أبلغ أمير المؤمنين أن أميرنا يغزو بنا ويجنده فإذا أصاب نفلهم دوننا وقال : هم أحق به ؛ فقلنا : هو أخلص لجهادنا لأننا لا نأخذ منه شيئاً إن كان لنا فهم منه في حل ، وإن لم يكن لنا لم نرده ؛ وقالوا : إذا حاصرنا مدينة قال : تقدموا وآخر جنده ؛ فقلنا : تقدموا فإنه ازدياد في الجهاد ؛ ومثلكم كفى إخوانه ؛ فوقيناهم بأنفسنا وكفيناهم ؛ ثم إنهم عمدوا إلي ماشيتنا ؛ فجعلوا يقرؤونها علي السخال ؛ يطلبون الفراء الأبيض لأمر المؤمنين فيقتلون ألف شاة في جلد ؛ فقلنا : ما أيسر هذا لأمر المؤمنين ؛ فاحتلنا ذلك وخليناهم وذلك ؛ ثم إنهم سامونا على أن يأخذوا كل جميلة من بناتنا ؛ فقلنا : لا نجد هذا في كتاب ولا سنة ؛ ونحن مسلمون ؛ فأجبنا أن نعلم عن رأي أمير المؤمنين ذلك أو لا ؟ قال (أي الأبرش) : نفعل ؛ فلما طال عليهم ونفدت نفقاتهم كتبوا أسماءهم في رقايع ؛ ورفعوها إلى الوزراء ؛ وقالوا هذه أمماؤنا وأنسابنا ؛ فان سألكم أمير المؤمنين عنا فأخبروه ؛ ثم كانت وجهتهم إلى إفريقية فخرجوا إلى عامل هشام فقتلوه ؛ واستولوا علي إفريقية ؛ وبلغ هشام الخبر وسأل عن النفر ؛ فرفعت إليه أسماءهم فإذا هم الذين جاء الخبر أنهم صنعوا ما صنعوا^٢ .

^١ ابن عبد الحكم : فترج مصر والمغرب ص 213-215

^٢ الطبري : السابق 254/4-255

وهذه الرواية من أقسى ما يروى عن هذه الثورة ؛ وأشدّها تحاملاً عليّ الأمويين والمغرب في إفريقية ؛ فهي لا تكفي بوصفهم بالظلم والطمع الذي لا يخلو منه زمان ، بل تصفهم أيضاً بالجن والخور ؛ حتى إنهم ليقدمون البربر في القتال ويتأخرون ، وهم الذين فتحوا المشارق والمغرب ؛ ودانت لهم بلاد البربر نفسها ، وترميمهم بالفاحشة مع المسلمين الغافلات ..

ومن المؤكد أن سبق الطبري جعل روايته أساساً لما جاء بعده ؛ وأما ترددت في كتب المؤرخين التاليين بشكل أو بآخر ؛ غير أن فيها بعض الفجوات والأخطاء التاريخية ترجح ردها ؛ ومن ذلك عدم إشارتها إلى انتفاض إفريقية المستمر ؛ وثورات البربر المتعددة ، ونكبات جيوش المسلمين وقادهم فيها منذ دخلها عبد الله بن سعد لأول مرة في عهد عثمان بن عفان ، حتى تم فتحها علي يد حسان بن النعمان وموسى بن نصير في عهد عبد الملك بن مروان .. ومن الأخطاء التاريخية أن هذه الرواية نفسها تحوي الزعم بأن الأندلس قد فتحت في عهد عثمان بن عفان ؛ وأنه أرسل جيشين لفتحها سنة 27 هـ ؛ وذلك ما لم يذكره مصدر تاريخي آخر ، فالمعروف أن الأندلس لم تفتح إلا بعد استقرار الفتح في إفريقية ثم الالتفات إلى ما وراءها في عهد الوليد بن عبد الملك سنة 92 هـ ؛ أي بعد ذلك التاريخ المزعم بحوالي خمسة وستين عاماً .. وهذه الرواية تروى عن سيف بن عمر ورجاله ؛ وهم متخصصون في رواية أخبار العراق والحجاز ، ولم يعيش أحدهم في إفريقية أو المغرب .

ويكاد الطبري يتفرد بذكر وفد إفريقية إلى هشام بن عبد الملك وسوف يظهر لنا أن هؤلاء الثائرين كانوا من الخوارج ، وأن ميسرة كان من زعمائهم ، وكان خارجياً ، وليس المعهود هؤلاء مشاورة الخلفاء قبل ثورتهم ، فإنهم يعدّونهم كفاراً تحلّ دماؤهم ، كما أنه لم يعرف عن هشام ابن عبد الملك شدة احتجابه عن رعيته ، ناهيك عن وفد جاء في مثل هذا الأمر الخطير ، ولم تسجل لنا كتب التاريخ حادثاً شبيهاً بذلك ، بل المعروف عنه أنه كان سهل الحجاب كثير المخالطة للناس ؛ ومن الخير أن يعجز هذا الوفد عن مقابلة الخليفة وهو يصلي بالناس في المسجد الجامع أوقاتاً عديدة ، ويخطب فيهم ، ويقرب منهم في أثناء ذلك ؛ ثم يستمر عجزهم هذا أياماً عدة حتى ينفد زادهم ؛ ويضطروا للعودة إلى بلادهم آيسين ..

إن الروايات المغربية تصفي مزيداً من الضوء علي أسباب هذه الثورة ؛ فتروي أن عمر بن عبد الله المرادي عامل ابن الحبحاب علي طنجة " أساء السيرة وتعدّي في الصدقات والعشر ؛ وأراد تخميس البربر وزعم أنهم فيء للمسلمين ؛ وذلك ما لم يرتكبه عامل قبله " .. " وكان الخلفاء في المشرق يستحبون طوائف المغرب ؛ ويعثون فيها إلي عامل إفريقية ؛ فيعثون لهم البربريات السنيات ، فلما

أفضى الأمر إلى ابن الحبحاب مناهم بالكثير ؛ وتكلف لهم ؛ أو كلفوه أكثر مما كان ، فاضطر إلى التعسف وسوء السيرة " ^١ ..

فمدار الأمر كله علي التعدي في الصدقات والعشر وتخمس البربر بزعم أنهم من الفسيء ؛ ويدخل في ذلك سبايا البربر من النساء السنيات اللاتي يبعثن إلى الشام ؛ إن ذلك يفهم في ضوء العلم بأن بعض قبائل البربر كانت لا تزال علي كفرها وبخاصة في السوس الأقصى ؛ وكان علي جيوش المسلمين أن تقاتلها حتى تعلن إسلامها ؛ أو تدفع جزيتها ؛ فذلك ما يؤكد ابن خلدون بقوله : " ثم انتقض البربر بعد ذلك سنة اثنتين وعشرين ومائة ؛ في ولاية عبيد الله بن الحبحاب أيام هشام بن عبد الملك لما أوطأ عساكره بلاد السوس ؛ وأنخن في البربر وسي وغنم ؛ وداخل البربر منه رعب ؛ وبلغه أن البربر أحسوا بأنهم فيء للمسلمين فانتقضوا عليه " ^٢ ..

ويقول ابن عذاري أن ابن الحبحاب "بعث حبيب بن أبي عبدة بن عقبة بن نافع الفهري غازيا إلى السوس الأقصى ؛ فبلغ أرض السودان ولم يقابله أحد إلا ظهر عليه ؛ ولم يدع للمغرب قبيلة إلا دخلها ؛ وأصاب من السبي أمرا عظيما " ^٣ ..

ومدينة طنجة التي ظهرت فيها بوادر هذه الثورة هي عاصمة إقليم السوس الذي شهد هذه الحروب ^٤ وإذا علمنا أن العرب لما فتحوا إفريقية اعتبروا فتحها صلحا وساوا بينهم وبين البربر ؛ علي حين اعتبروا الأراضي التي كانت للروم مفتوحة عنوة ^٥ ، فمن المحتمل أن يكون عامل طنجة قد اعتبر ما يفتح من بلاد عنوة ؛ وحاول أن يطبق عليها أحكام ذلك الفتح ؛ فأراد تخميس أهلها ؛ وزعم أنهم فيء للمسلمين ؛ وجاء الرواة بعد ذلك فجعلوا تلك الجاذبة موقفا عاما لذلك الولائي يستحق معه أن يثور عليه أهل البلاد ..

ويروي الطبري أن أهل إفريقية كانوا من أحسن أهل البلدان وأطوعهم حتى دب إليهم أهل العراق ^٦ ، وأهل العراق قد تمسوا بالتمرد والثورة ، وشاعت فيهم الآراء والنحل ؛ وكان جماعة منهم ممن يرون رأي الخوارج قد أتوا إفريقية ومازالوا ببعض أهلها حتى " نبضت فيهم عروق الخارجية ، فدانوا بها ولقنوها من العرب الناقلة ممن سمعها بالعراق ؛ وتعددت طوائفهم وتشعبت

^١ ابن خلدون العبر 110/6

^٢ السابق 110/6

^٣ البيان المغرب 51/1 ، ابن خلدون : العبر 189/4

^٤ ياقوت . معجم البلدان 172/5

^٥ د مؤسس فتح العرب للمغرب 277 د شعباي صدر الإسلام والدولة الأموية 168

^٦ الطبري السابق 254/4

طرقها من الإباضية والصفورية .. وفشت هذه البدعة وعقدها رءوس النفاق من العرب ، وجرت إليهم جذور الفتنة من البربر ذريعة الانتزاع علي أولي الأمر" ^١ ..

وقد كان الثائرون علي عامل طنجة من هؤلاء الخوارج الصفورية ، يستحلون سبي النساء ؛ وسبي أهل الذمة ^٢ وقتل الصبيان ^٣ وقد كان علي رأسهم ميسرة المدغري وعبد الأعلى بن جريج الإفريقي ؛ وكان أصله روميا وهو مولي لموسى بن نصير ^٤ ؛ وتنص الروايات علي أن هذه الثورة إنما بدأت لما كانت جيوش ابن الحبحاب يقودها حبيب بن أبي عبدة تغزو صقلية ، وربما كانت هناك صلة بين هذا الزعيم الرومي الأصل وبين الروم ؛ وقد أفلحت هذه الثورة بالفعل في تخفيف الضغط علي صقلية وجزر البحر المتوسط ؛ فقد أرسل ابن الحبحاب يستدعي حبيب بن أبي عبدة وجيشه من صقلية لمواجهة خطر الخوارج بالمغرب ^٥ ..

وهكذا تعدد أسباب ثورة البربر في إفريقية وتحتاج إلى دراسة فاحصة لا يكتفي معها بإلقاء اللوم معها علي عامل إحدى المدن ؛ وتحمل بني أمية كل مسؤولياتها ..

ومنذ قديم لم يقنع بعض المؤرخين بما يسوقونه من أسباب لهذه الثورة تعود إلى ظلم الولاة فقال : " وقد يقول من يطعن علي الأئمة أنهم إنما خرجوا ضيقا من سر عمامهم ، وأن الخليفة وولده كانوا يكتبون إلي عمال طنجة في جلود الخرفان العسلية فتذبح مائة شاة ؛ فربما لم يوجد منها جلد واحد ؛ وهو قول أهل البغض للأئمة ، فإن كانوا صدقوا فما بال التحكيم فشا فيهم ورفع المصلحف وحلق الرءوس ؛ اقتداء بالأزارقة وأهل النهروان وأصحاب الراسي عبد الله بن وهب وزيد بن حصين" ^٦ ..

ومن الغريب أن يؤكد دوزي بعد ذلك أن الولاة كانوا يطلبون من عمامهم جلود الخرفان العسلية ^٧ . وقد تمكن هؤلاء الخوارج من الاستيلاء علي إفريقية وهزيمة الأمويين بها ^٨ ؛ وقد ارتكبوا في أثناء ذلك جرائم قاسية بالعرب ؛ كما سبق ذكره ؛ مما أدى إلى استئثار حساسة المسلمين والخلافة الأموية ضدهم ؛ فإنه لما هزم جيش كلثوم بن عياض وقتل قائده وهو يحارب هؤلاء الخوارج وبلغ

^١ ابن خلدون المعبر 110/6

^٢ ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب 223 ، ابن خياط : تاريخ خليفة ٣٧٠/٢ .

^٣ أخبار مجموعة 28-29 ، الذهبي : تاريخ الإسلام 30/5

^٤ ابن عبد الحكم : فتوح مصر 219 ، ابن خياط : السابق ٣٦٨ / ٢

^٥ ابن عذاري : البيان المغرب 52/1

^٦ أخبار مجموعة ص 31-32

^٧ دوزي : تاريخ مسلمي إسبانيا 144/1

^٨ أخبار مجموعة 32 ، 36 ، الذهبي : تاريخ الإسلام 30/5 ، وترجع سبب هذه الهزيمة إلى الكثرة العددية الهائلة للبربر مقارنة بأعداد المسلمين .

ذلك هشام بن عبد الملك حلف بالله لن يبق ليخرجن إليهم مائة ألف كلهم يأخذ العطاء ؛ ثم ليخرجن مائة ألف ... حتى إذا لم يبق غير نفسه وغير بنيته وبنيهم أقرع بينه وبينهم ثم أخرج نفسه إن وقعت عليه القرعة^١ ..

ولما أخرج إليهم حنظلة بن صفوان خرج معه " القراء والوعاظ ، وكثر الدعاء والاستغاث بالله ؛ وضح النساء والأطفال ؛ وكانت ساعة مشهودة ؛ وسار حنظلة بين الصفوف يحرض علي الجهاد واستسلمت النساء للموت لما يعلمون من رأي هذه الصفرية " ^٢ ؛ ثم انتصر المسلمون عليهم بعد جهد وعناء في معركة الأصنام سنة ١٢٤هـ ، فكان الليث بن سعد فقيه مصر يقول : " ما غزوة كلن أحب إلي أن أشهدها بعد غزوة بدر من غزوة الأصنام بالمغرب " ^٣ ..

يبقي بعد ذلك كله أن نقول إن عبيد الله بن الحبحاب عامل الأمويين بالمغرب الذي أقمه الرواة والمؤرخون بالتعصب ضد الموالي والتسبب في إحداث ثورهم كان هو نفسه أحد الموالي ! فقد مر بنا قريبا أنه كان مولي لبني سلول ؛ وأنه كان يعلن ذلك ولا يستحي منه ، ولا يستخفي به ، ويجل مواليه ويقدرهم ؛ وقد عين مولاة عقبة بن الحجاج السلولي واليا علي الأندلس ..

مربعا : دور كبير للموالي في النظام الأموي :

على خلاف ما يري هؤلاء المؤرخون الذين يتحدثون عن اضطهاد الموالي في العصر الأموي وتعصب الأمويين ضدهم لحساب العرب ؛ فإن حقائق التاريخ تثبت بغير شك أن كثيرا من الموالي قد احتل مكانة كبيرة في العصر الأموي ، سواء كان ذلك في الحياة السياسية أو الإدارية أو العسكرية ؛ وأن الأمويين قد ألسحوا لهم مكانا ظل يتسع تدريجيا للمشاركة في الحكم والإدارة ... ومن الطبعي أن يكون هؤلاء الموالي المبرزون ممن ثبت ولاؤهم للدولة وإخلاصهم للإسلام ؛ أو عرفت عنهم الكفاية والعلم بأحوال بلادهم وأهلها ، ولم تجرب عليهم خيانة أو ضعف .. كما ينبغي أن نلاحظ جهود الأمويين في تحقيق الانصهار الاجتماعي بين العرب والموالي مما يعد ضرورة للوحدة الاجتماعية ، وعاملا لتقوية الألفة والمودة والتفاهم بين عناصر السكان ..

لقد مر بنا تضعيف الرواية التي تزعم أن معاوية قد هم أن يقتل شطر الموالي في دولته ، ومحمد يعزز الآن ردها أن نعرف هذه المكانة المتميزة للموالي في عهد خليفة الأمويين الأول .. وقد استعمل عددا منهم في الوظائف الحساسة في الشام ، حيث كان صاحب حرسه رجالا من الموالي^٤ ، وكان

^١ أخبار مجموعة 36

^٢ الذهبي : تاريخ الإسلام 30/5

^٣ السابق 30/5 وانظر ابن عذاري : البيان والمغرب 56/1

^٤ الطبري : السابق 330/5

على حجابيه سعد مولاة^١ وكان يكتب له مولاة عبد الرحمن بن دراج^٢، وكان وردان مولي عمرو ابن العاص عظيم المزية عند عمرو^٣، كما ولي خراج مصر معاوية^٤ ..

وكان عامل معاوية على العراق زياد بن أبي سفيان عظيم الاهتمام بالموالي، فقد تزوج منهم وأنجب ولده عبيد الله بن زياد الذي حكم العراق فيما بعد؛ وكان زياد يقول: ينبغي أن يكون كتاب الخراج من رؤساء الأعاجم العالمين بأمور الخراج^٥، وقد اتخذ منهم كاتبه علي الخراج في العراق زادن فروخ^٦ ..

وإذا كان عامل معاوية على العراق مهتما بالموالي واستغلال كفايتهم فقد كان عامله على إفريقية هو أحد الموالي أنفسهم، وهو أبو المهاجر دينار الذي قام بجهد مشكور في دعوة السريبر إلى الإسلام كما مر بنا ..

ولم يكف معاوية بذلك لتحقيق التقارب بين العرب ومواليهم، بل لجأ إلى وسيلة أعظم لتحقيق الانصهار السكاني بين عناصر الأمة، فقد نقل معاوية عددا كبيرا من الموالي إلى سواحل الشام وأنطاكية ليعمروها^٧، كما نقل عامله زياد خمسين ألف أسرة عراقية إلى خراسان ليستقروا هناك وسط المسلمين الجدد من أهلها، وإذا كانت هذه التدابير تبدو أمنية بالدرجة الأولى فإنها واضحة الدلالة على اهتمام الأمويين بمشاركة الموالي في تأمين الدولة وتحقيق الاختلاط السكاني في الأماكن التي تكاد تخلو من أحد العناصر وتحوطها مخاطر الأعداء، ومن خلال هذا الاختلاط كان يتوقع مزيد من تعرف الموالي على الإسلام وتعميق إيمانهم به ..

وفاق عبيد الله بن زياد أباه في تقرب الموالي والاعتماد عليهم، وقد كان يمت إليهم بالقرابة، فامه واحدة منهم، وقد نشأ فيهم حتى كان في لسانه لكنة تنبئ عن آثار معاشرته في صغره لهم^٨ ..

وقد ازداد تقربه لهم حتى قال فيه بعض المؤرخين إنه أول من جفأ العرب^٩؛ وولى الدهاقين جباية الخراج بدل العرب؛ لأنهم أبصر بالجباية وأوفى بالأمانة وأهون في المطالبة من

^١ السابق والصفحة

^٢ السابق 180/6

^٣ السابق 48/5

^٤ ابن عبد الحكم: فتوح مصر والمغرب 86

^٥ العنقري: السابق 209/2

^٦ الجهشيري: الوزراء والكتاب 26

^٧ البلاذري: فتوح البلدان 283، كرد على: الحضارة العربية 159/2

^٨ الجاحظ البيان والتبيين 109/2

^٩ الإمامة والسياسة 21/2

العرب^١، وقد اتخذ منهم جيشا عدته اثنا عشر ألفا سماه " الخارية " ^٢ .. ولما فاجأ موت يزيد بن معاوية عبيد الله بن زياد تحير ماذا يصنع ، " فدعا بمولى له يسمى مهران ، وكان يعدل في الدهاء والأدب والعقل بوردان غلام عمرو بن العاص ، وهو الذي تنسب إليه البراذين المهرانية ، فقال : يا مهران إن أمير المؤمنين يزيد قد هلك ، فما الرأي عندك ؟ فأشار عليه باللجوء إلى الأزدي مستجيرا ففعل " ^٣ ..

وبعد موت يزيد دخل العراق في مرحلة من عدم الاستقرار تحت سيطرة القبائل المتنافسة والزبيريين والمختار بن أبي عبيد ، حتى عاد إلى حظيرة الحكم الأموي بعد قتل مصعب بن الزبير سنة 71 هـ ؛ غير أن السيطرة الأموية الفعلية على العراق لم تتم إلا بولاية الحجاج بن يوسف عليه سنة 75 هـ ، حيث عصفت بالزعامات القبلية المناوئة ، وأزال خطر الأزارقة ، وواصل الفتوح الراكدة في المشرق ..

وفي ولاية الحجاج علا شأن بعض الموالي ، رغم ما أقمه به المؤرخون من التحامل عليهم ، والحق أنه لم يكن يطبق معاني التمرد والثورة سواء جاءت من عرب أو موال .. ومن المأثور عنهم أنه ولي سعيد بن جبير أحد العلماء الموالي إمامة الصلاة بالكوفة ، ولم يكن يؤم الناس بها إلا عري^٤، وكان شريح قاضيه — وهو مولى — على الكوفة حتى سنة 79 هـ ثم استعفى الحجاج فأعفاه^٥، وكان قد ظل قاضيا بها منذ عهد عمر بن الخطاب إلى عهد الحجاج^٦.

وكان انسياح الفتوحات في شرق الدولة خلال عهد الحجاج فرصة لظهور دور أكبر للموالي في البلاد المفتوحة وفي ساحات القتال ، وذلك ما حدث بالفعل مع القواد الأمويين البارزين الذين علا عندهم شأن بعض هؤلاء الموالي ، مثل المهلب بن أبي صفرة ، وابنه يزيد بن المهلب وقيية ابن مسلم الباهلي .. فقد كان موالى المهلب ممن يشاركون معه في المعارك ، ويعتمد عليهم في المهمات^٧ ؛ ومن أشهرهم جبلة غلام حبيب بن المهلب^٨ ، ومنهم حريث بن قطبة مولى خزاعة الذي كان المهلب يستخلفه على بعض البلاد وراء النهر في أثناء غزوه وقتاله^٩ ، وكذلك كان أخوه نلبت

^١ الطبري : السابق 523/5

^٢ الإمامة والسياسة 23/2

^٣ الدينوري الأخبار الطوال ص

^٤ ابن خلكان : السابق ٣٧٣/٢ ، وولاه القضاء فضج أهل الكوفة فعزله (السابق والصفحة) .

^٥ الطبري : السابق 324/6

^٦ الدميري : حياة الحيوان 19/1 ، الخربوطي : تاريخ العراق 260

^٧ الطبري : السابق 326/6 ، 351—353

^٨ الطبري : السابق 326/6

^٩ الطبري : السابق 352/6

ابن قطبة عالي الصيت ، فلما تناول المهلب حريثا هذا ببعض التأديب غضب . ولم يرض بمحاولة المهلب استرضاءه بل دبر لقتل المهلب ، فلما فشل تدبيره لجأ مع أخيه ثابت إلى موسى بن عبد الله ابن خازم — أحد زعماء العرب المتغلبين على الترمذ (قتل سنة 85 هـ) — مع ثلاثمائة من شذكريتهم والمنقطعين إليهما من العرب^١ فلما صاروا إلى موسى أصبح تدبير أمره إليهما^٢ ، ومنهم موالى يزيد بن المهلب الذين أسدوا إليه أعظم المساعدة في أثناء هروبه من سجن عمر بن عبد العزيز^٣ وشاركوا معه في ثورته على الأمويين^٤ .

وقد اشتهر بين هؤلاء الموالى في خراسان وما وراء النهر جماعة عرفوا بالنصحاء ، واشتهروا برجاحة العقل وحسن السياسة والقدرة على اكتساب ثقة الآخرين ، فاستطاعوا أن يلعبوا دورا مهما في التوسط بين القوميتين العربية والفارسية^٥ ؛ وكان منهم سليم الناصح الذين كان ذا مكانة عالية عند قتيبة بن مسلم^٦ وحيان النبطي الذي كان يقال إنه من الديلم أو خراسان ، وإنما قيل إنه نبطي للكثرة^٧ ؛ وكان يقود فرقة من الموالى في الجيش الأموي يصل عددها إلى سبعة آلاف مقاتل^٨ ، ولما تمرد قتيبة بن مسلم في أواخر حياته على الخلافة ، وخلع سليمان بن عبد الملك ؛ خالفه حيان ونحاز إلى أنصار الخليفة وكان له الدور البارز في قتل قتيبة وإنهاء خطره^٩ ..

وبلغت أهمية الدور الذي لعبه الموالى في حروب قتيبة وصنع مجده العسكري أن قال له أحد قادة الترك " إنما تقاتلني ياخوتني وأهل بيتي من العجم " ^{١٠} ، ولقد كان قتيبة يهدف من ذلك إلى إحداث الانسجام بين العرب والموالى في ولايته ، وقد مرت بنا الإشارة إلى دوره في نشر الإسلام هناك ، حيث كان يشترط على أعدائه أحيانا في عقود الصلح أن يعدوه بقوة من أهالي بلادهم ليكونوا معه في جيشه ؛ كما فعل مع خوارزم شاه لما صالحه على عشرة آلاف رأس وعين ومتاع ،

^١ الطبري : السابق 353/6 ، والشاكرية (لفظ كان يطلق على بعض فرق الجيش من الموالى ، فلهوون تاريخ الدولة العربية 470)

^٢ الطبري : السابق 404/6

^٣ الطبري . السابق 564/6

^٤ الطبري : السابق 581/6 بينما ينفي ابن الأثير هذه المشاركة ويقول إن قوات يزيد بلغت مائة وعشرين ألفا ليس منهم أحد من الموالى ؛ الكامل في التاريخ 172/4

^٥ راجع فلهوون : تاريخ الدولة العربية ص 470

^٦ الطبري : السابق 429/6 ، 431 ، 455—458

^٧ السابق 512/6

^٨ السابق والصفحة

^٩ السابق 512/6 — 515

^{١٠} الطبري السابق 474/6

وأن يعينه على بعض الملوك^١ .. وبالطبع فقد كان من يسلم من هؤلاء يدخل في عداد الموالي المسلمين ..

ولم تقتصر جهود قتيبة على الاستعانة بهم في حربه ، بل بلغت ثقته ببعضهم إلى حد أن كان يستخلفهم على بعض ما يفتح من بلاد أو يوليه بعض وظائف الإدارة .. مثلما استخلف ثابتا الأعور على مرو لما سار هو إلى خوارزم^٢ ، كما جعل عبيد الله بن أبي عبد الله مولى بني مسلم على خسراج خوارزم بعد فتحها^٣ ..

وإذا كان هذا بعض ما أصاب الموالي من حظ في شرق الدولة الإسلامية وفي ظل ولاية الحجاج بن يوسف المنهم عند جمهور المؤرخين بمحاربة الموالي واضطهادهم .. فقد نال الموالي مكانة عالية أيضا في الشام وشمال إفريقيا في تلك الفترة من عهد الخلفيتين عبد الملك والوليد ابنه. فقد كان أبو الزعيرة مولى عبد الملك بن مروان على ديوان رسائله وكان عظيم المكانة عنده^٤ ؛ وكتب الحجاج إلى عبد الملك يشير عليه أن يستكتب محمد بن يزيد مولى الأنصار ، وكتب إليه أن أردت رجلا مأمونا فاضلا وديعا مسلما كتوما تتخذه لنفسك ، وتضع عنده سر ، ومالا تحب أن ينظر ، فاتخذ محمد بن يزيد^٥ ؛ فجعله عبد الملك كاتباً له ، واستشاره في بعض المسائل المهمة مثل استخلاف ولديه الوليد وسليمان من بعده^٦ ؛ ومحمد بن يزيد هذا هو الذي ولي إفريقيا بعد ذلك ليزيد بن عبد الملك كما رأينا ، وكذلك فقد اتخذ الوليد بن عبد الملك عدداً من الموالي على ديوان الخاتم والرسائل والمستغلات^٧ .. وفي عصر الوليد نال الموالي في غرب الدولة المرحلة الرفيعة دون تعصب أو تمييز ، فكان القائد الذي مكن للإسلام والنظام بصورة نهائية في شمال إفريقيا هو موسى بن نصير أحد الموالي ؛ حيث كان أبوه من سبايا عين التمر الذين أسرههم خالد بن الوليد سنة ١٢ هـ^٨ ، ومن هناك أرسل موسى أحد الموالي من البربر ؛ وهو طارق بن زياد ؛ لفتح الأندلس ، ومعه بربري آخر يسمى طريف بن مالك ، وأحد موالى الشام الناهين واسمه مغيث مولى عبد الملك بن مروان^٩ ..

^١ السابق 470/6

^٢ السابق والصفحة

^٣ السابق 480/6

^٤ الطبري : السابق 180/6 وانظر ص 145

^٥ الطبري : السابق 414/6 — 415

^٦ السابق 181/6

^٧ السابق 377/3 ، ابن كثير : البداية والنهاية 118/9

^٨ ابن عدي : البيان المغرب 9/2 — 10

لقد كان لا بد من شيء من الإطناب في بيان مكانة الموالي في خلافة عبد الملك والوليد بعدما كثر الحديث عن اضطهادهم في عصرهما ، والاستشهاد على ذلك بمسلك واليهما الحجاج بن يوسف في إحدى فترات ولايته على العراق والمشرق ..

خامساً : مكانة الموالي أواخر الدولة الأموية :

ومن الطبيعي القول بأن مكانة الموالي كانت تملو يوماً بعد يوم ، ويزداد دورهم في الحياة السياسية والاقتصادية للدولة مع تكاثر أعدادهم وقلة أعداد العرب الذين انساحوا في بلادهم .. ففي خلافة عمر بن عبد العزيز كان عدد من عماله البارزين من الموالي ؛ منهم سليمان بن أبي السري عامله على سمرقند^١ وإسماعيل بن عبيد الله بن أبي المهاجر عامله على إفريقية^٢ ، وفي خلافة يزيد بن عبد الملك تولى إفريقية يزيد بن أبي مسلم مولى الحجاج ، فلما قتله أهلها ولوا بدلته محمد بن يزيد مولى الأنصار فأقره الخليفة عليها ، وفي المشرق كان سليمان بن أبي السري على كس ونسف من مدن ما وراء النهر حربها وخارجها سنة ١٥٤ هـ^٣ ؛ كما ولي جبلة بن عبد الرحمن مولى باهلة كرمات ، وكان يستقلها ويطمع أن يلي خراسان كلها^٤ ..

وفي خلافة هشام بن عبد الملك الذي يتهمه بعض المؤرخين بأنه كان متعصباً للعرب ولا يحسب حساباً للموال^٥ كان كاتبه أحد الموالي عظيمي المزية عنده واسمه سالم بن جبلة^٦ .. وكان كثير الإدلال عليه حتى " لكانه هو أمر هشاماً " ^٧ ؛ وفي العراق وشرقي الدولة كان عمر بن هبيرة واليه عليها شديد الاهتمام بأمر الموالي والإفادة من كفايتهم ، فقد أوصى عامله على خراسان مسلم ابن سعيد بقوله : " ليكن حاجبك من صالح مواليك وعليك بعمال العذر ، قال وما عمال العذر ؟ قال : مر أهل كل بلد أن يختاروا لأنفسهم ، فإذا اختاروا رجلاً فوله ، فإن كان خيراً كان لك ، وإن كان شراً كان لهم دونك ، وكنت معذوراً " ^٨ ؛ واشتهر في عهده من الموالي توبة بن أسيد — مولى بني العنبر — وكان ابن هبيرة يمتدحه ويقول : مثل هذا فليول " أما مسلم بن سعيد عامل ابن هبيرة على خراسان فقد دفع إليه خاتمه وقال : هذا خاتمي فاعمل برأيك ، فلم يزل معه حتى

^١ الطبري : السابق 567/6

^٢ ابن عذاري : البيان المغرب ٤٨/١ ، الزركلي : الأعلام ٣١٦ /١

^٣ الطبري : السابق 11/7

^٤ السابق 18/7

^٥ د. العش : الدولة الأموية 284

^٦ الطبري : السابق 148/7 ، د. النوري مقدمة في تاريخ صدر الإسلام 87

^٧ الطبري : السابق 200/7—202

^٨ السابق 35/7

قدم أسد بن عبد الله القسري واليا على خراسان ، فأراد توبة أن يشخص مع مسلم بن سعيد فقال له أسد : أقم معي فأنا أخرج إليك من مسلم ، فأقام معه ^١ ..

ولمعت أسماء عدد آخر من الموالى في عهد هشام في خراسان وما وراء النهر غير توبة — بن أسيد ، مثل ثابت قطنة ^٢ وأبي الصياد صالح بن طريف مولى بني ضبة ^٣ وعبد الله بن أبي عبد الله مولى بني سليم ، ذلك الرجل العليم بالحرب والحداد ، والذي أنقذ الله به المسلمين في مواطن خطيرة في ساحة القتال ^٤ ، واشتهر أيضا من الموالى بالعلم بالحرب وحاجة الأمراء إلى رأيه ومشورته جماعة مثل الفضل بن بسام مولى بني ليث ، والبختري بن مجاهد مولى بني شيان ^٥ ومقاتل بن حيان النبطي الذي ورث فضل أبيه ومكانته ^٦ ..

وفي العراق نفسها اعتمد الخليفة هشام على بعض الموالى المبرزين في أعمال استصلاح الأراضي هناك مثل أبي المثني فروخ وحسان النبطي ^٧ ..

وقد شهدت نهاية العصر الأموي تألقا جديدا في وضع الموالى حيث ولي الخلافة ثلاثة من بني أمية كانوا من أمهات أولاد ، أولهم يزيد بن الوليد بن عبد الملك الذي كانت أمه إحدى بنات فيروز بن يزدجرد بن كسرى ، وكان يفخر بذلك ويقول :

أنا ابن كسرى وأبي مروان
وقيصر جدي ، وجد خاقان ^٨

ووليها بعده أخوه إبراهيم بن الوليد وكانت أمه أم ولد ^٩ ، ولكن الخلافة لم تستقم له ، فقد تغلب عليه مروان بن محمد آخر خلفاء الأمويين وكانت أمه أيضا أم ولد ^{١٠} ..

ومن الجدير بالذكر هنا أيضا الإشارة إلى دور الموالى في نقل السلطة الأموية بعد انهيارها في الشام إلى الأندلس ، وما بذلوه من جهد للتمكين لمعاوية الداخل حتى أقام هذه الخلافة هناك ^{١١} ..

^١ الطبري : السابق 357

^٢ السابق 38/7 ، 58

^٣ السابق 54/7

^٤ السابق 81/7 — 84

^٥ الطبري : السابق 79/7 ، 155

^٦ السابق 94/7

^٧ ابن الأثير : الكامل 235/4 ، النويري : نهاية الأرب 451/21

^٨ الطبري : السابق 298/7 ، ابن حزم : موجز تاريخ الإسلام ص 31

^٩ الطبري : السابق 299/7 ، ابن حزم : السابق ص 31

^{١٠} الطبري : السابق 242/7 ، ابن حزم : السابق ص 32

^{١١} ابن خلدون : المعبر ١٢١/٤

ولقد بقي نفر من الموالي ولما لبني أمية بعد انقضاء دولتهم ، يذب عنهم وينافح عن ذكراهم .. فقد كان سديف الشاعر مولى بني هاشم ، وشبيب مولى بني أمية يخرجان إلى بعض شعاب مكة يتفاخران ، فكان هذا يخرج في موالي بني هاشم ، وهذا في موالي بني أمية ، فيفتخرون ويتشاعون، ثم يتجالدون بالسيوف ، وكان يقال لهم السديفية والشبيبة ، وكان أهل مكة متقسمين بينهم في العصبية ^١ ..

المبحث الثاني

موقف الأمويين من العصية القبلية

أولاً : العصية القبلية قبل قيام الدولة الأموية :

نمى الإسلام عن هذه العصية القبلية ، التي كانت عماد الحياة في المجتمع الجاهلي ، وأن الرسول ﷺ قد حذر من ابتعائها بين المؤمنين فقال : "من قاتل تحت راية عمية ، يدعو إلى عصية ، أو يقضب لعصية ، فقتله جاهلية" ^١ ، وبذل جهوداً مضنية في سبيل تحقيق الوحدة والمواخاة بين المسلمين ، غير أن هذه الروح القبلية ظلت موجودة عند بعض المسلمين ، محتفية تحت ضغط مشاعر الإيمان المتأجج ، لا تكاد تنبث حتى تجد الإنكار لها والحرب عليها ^٢ ؛ إلا أنه بعد فتح مكة ودخول قبائل العرب المختلفة في الإسلام — ولم تكن حية الإيمان عندهم موازية لما كان عند السابقين الأولين — وجدت العصية القبلية متنفساً لها ، وكانت حروب الردة دلالة بارزة على ذلك ^٣ ، وتعاظم إحساس القبائل بأهيتها في أثناء حروب الفتوحات الكبرى في عصر الراشدين ، ثم كانت هجمة القبائل ونقمتها على قريش محرّكا بارزا للثورة على عثمان بن عفان ..

وكانت هذه العصية القبلية تستمد جزءا كبيرا من زاداها ومشروعيتها من اعتماد القبيلة كوحدة تنظيمية في الإدارة العربية الإسلامية آنذاك ، إذ لم يكن هناك بديل تنظيمي للإدارة المدنية أيسر من هذا الإطار القبلي الذي اعتاده العرب ، فكان سيّلتهم في تنظيم الجيوش ^٤ وتقسيم المدن الجديدة ^٥ وتنظيم العطاء ، حيث وضع عمر بن الخطاب أساسه على القسرب من الرسول ﷺ

^١ حديث شريف رواه ابن ماجة : السنن ، كتاب الفتن ، وانظر أبو داود : السنن ، كتاب الأدب ، مسلم :

الصحيح ، كتاب الإمارة ، البيهقي : السنن الكبرى 156/8

^٢ مغلما حدث من تنادى أحد المهاجرين : يا للمهاجرين لما تشاجر بعض المهاجرين والأنصار بتحريض من زعيم منافقي المدينة عبد الله بن أبي وتنادى أحد الأنصار يا للأنصار ، لولا أن تدخل الرسول لإنهاء الأزمة (ابن هشام السيرة النبوية ١٩٣/٣)

^٣ كان أحد رجال ربيعة قبيلة مسيلمة الكذاب يوقن بكذب مسيلمة وصدق النبي (ص) ، ولكنه كان يقول : كذاب ربيعة أحب إلى من صادق مضر (الطبري : السابق ٢٨٦/٣)

^٤ حتى منذ عهد النبي (ص) نجد في فتح مكة بعض قبائل العرب تسير كوحدات مستقلة في الجيش (ابن هشام : السابق ١٥/٤)

^٥ قسمت البصرة إلى خمسة أقسام قبلية ؛ كذلك الكوفة التي قسمت إلى سبعة أقسام جعلها ابن زياد أربعة فيما بعد (راجع د. الخربوطلي : تاريخ العراق في ظل الحكم الأموي 242 — 244 ، 295 — 297) .

والسابقة إلى الإسلام ، فبرزت بذلك مكانة قريش ؛ فهم الأقرب إلى الرسول ﷺ وكان السابقون إلى الإسلام في تناقص مستمر بالموت والرحيل عن عالم الناس ..

ثم جاءت الحروب الأهلية بين المسلمين بعد مقتل عثمان بن عفان في الجمل وصفين فرصة لتكريس الإحساس العربي بالقبيلة ، حيث كانت كل قبيلة تواجه أختها ، فأينا غادج من التماطف الحرج بين المتحاربين^١ ؛ والأسى على قتال أبناء القبيلة الواحدة بعضهم بعضا^٢ ؛ ذلك فضلا عن محاولات بعض القيادات المتحمسة تفجير الحماس بين المتقاتلين بذكيرهم بأجدادهم القبلية الثالثة^٣ .. وعلى هذا فقد كانت الظروف التي أسفرت عن قيام الدولة الأموية ثرية الدلالة على انتعاش العصية القبلية وبروزها كواحدة من أهم القوى السياسية المؤثرة في المجتمع والدولة ، على خلاف ما يشيع بعض الباحثين من أن الدولة الأموية هي المستولة أولا عن بعث العصية القبلية في الحياة العربية .. غير أنه من المؤكد أن العصر الأموي شهد نشاطا بارزا للفعاليات القبلية فيه ، كما شهد عدديدا من صور الصراع القبلي على نحو غير مسبوق ، وقد جاء ذلك استمرارا في التطور والصعود للخط البياني الممثل لتفشى هذه الروح القبلية وقوتها في الحياة العربية والإسلامية ..

ثانيا : العصية القبلية في العصر الأموي ؛ نظرة عامة :

لا نكاد نسمع عن صراع قبلي طيلة خلافة معاوية بن أبي سفيان التي استمرت حوالي عشرين عاما من عمر الدولة الأموية .. وذلك يعود بالدرجة الأولى إلى تلك السياسة الحصيفة التي انتهجها معاوية وولائه في تأليف القلوب وسل سخائم النفوس واسترضاء المعارضين وتقريب زعماء القبائل والموازنة الدقيقة بين المصالح القبلية المتعارضة .. وقد استمر ذلك الحال في أثناء خلافة يزيد بن معاوية حيث انحصر الصراع آنذاك بين الخليفة وعصيته الشامية وبين الثائرين عليه الذين لم يكونوا يعتمدون على عصيات موازية في القوة لعصية أهل الشام ، وقد استوعب ذلك الصراع الفعاليات القبلية فيه بحيث لم تتح أمامها فرصة الظهور كقوة مستقلة في التأثير ..

وقد تفجر أول صراع قبلي خطير في العصر الأموي عقب وفاة معاوية بن يزيد بن معاوية حيث خلا بموته منصب الخلافة بالشام ، وغابت سيطرة الدولة المركزية مما أتاح لهذه القوى الاجتماعية فرصة الظهور القوي ، فدخلت في مرحلة صراع يحاول فيها كل طرف أن يثبت قوته وسيطرته ، ويحقق أهدافه ومصالحه ، ويرهن على أنه الأجدر بالسيادة والنصر ..

^١ الطبري : السابق 528/4 ، 26/5

^٢ الطبري : السابق 26/6-27

^٣ السابق 516/4

ففي الشام نشب الصراع بين القيسيين الذين بايعوا ابن الزبير ، والكليبيين الذين ظلوا على ولائهم للبيت الأموي^١ ، وفي العراق حاول ابن زياد الحفاظ على وحدة ولايته السياسية والاجتماعية فعرض عليهم مبايعة أحدهم حتى يستقر رأي أهل الشام على من يبايعونه ، فأصروا على بيعته هو ثم ما لبثوا أن نكثوا ببيعتهم ، فلجأ إلى الأزدي بالبصرة الذين حاولوا بدورهم الإفادة من الموقف الجديد في بسط هيمنتهم على البصرة ، فتصدت لهم تميم ونشب صراع قبلي حاد ؛ فرفيه ابن زياد إلى الشام ، وبايعت العراق لابن الزبير ، وظلت أمورها في اضطراب فترة طويلة^٢ ..

وفي خراسان — في الفترة نفسها — انسحب واليها سلم بن زياد عنها ؛ وكتب لعبد الله ابن خازم عهدا على خراسان^٣ فبايع لابن الزبير وأيدته تميم وخالفته ربيعة^٤ ، لكنه نجح في فرض سيطرته على خراسان بالقوة ، فنشب الصراع هذه المرة بينه وبين تميم التي انقلبت عليه لتكرهها^٥ ، وقد لقي ابن خازم حتفه في ذلك الصراع ، ولكن استمر القتال بين التميميين أنفسهم بعضهم بعضا^٦ حتى استتب أمر الأمويين بالشام ، فأرسل زعماء العرب بخراسان يسألون عبد الملك بن مروان أن يرسل عليهم واليا من قریش ؛ يستعني على خلافات القبائل المتناحرة هناك^٧ ...

وفي منطقة الجزيرة قامت الحروب بين قيس — التي جاءت إلى هذه المنطقة زمن الفتوحات — وتغلب التي كانت تعيش هناك منذ مدة طويلة ، وبينما أيد القيسيون ابن الزبير أيّدت تغلب الأمويين ، وصارت معهم في مرج راهط^٨ .. وبعد مرج راهط استمرت الحروب بين الجانبين وكانت لهم أيام مشهودة ، في هذه الفترة التي انشغل فيها عبد الملك بن مروان بالقتال ضد ابن الزبير^٩ ..

وبعد عودة الخلافة إلى البيت الأموي توحدت الدولة الإسلامية تحت رايتهم إثر جهود كبيرة ، ثم استطاعت هذه السلطة المركزية أن تعيد هبة الدولة واحترامها ، فاستمرت العصبيات القبلية ؛ لا تستطيع ظهورا إلا على استحياء ، وفي مظاهر أقل عنفا وخطورة .. وسوف نعود بعد قليل لبيان جهود الأمويين في السيطرة على مظاهر هذه العصبية ..

^١ سيأتي قريبا تفصيل لذلك الاختلاف

^٢ راجع الطبري : السابق 504/5 وما بعدها

^٣ الطبري : السابق 546/5

^٤ الطبري : السابق 550/5—551

^٥ السابق 623/5 وما بعدها

^٦ السابق 276/5—178 ، 199

^٧ السابق 199/6—200

^٨ البلاذري : أنساب الأشراف 188/5

^٩ فحجي عثمان : الحدود الإسلامية البيزنطية ص 57—58

ويستمر الحال على ذلك حتى يدب الضعف من جديد في مركز الخلافة الأموية بعد مصرع الوليد بن يزيد الخليفة الأموي على يد ابن عمه يزيد بن الوليد بن عبد الملك ، فانفتح الباب واسعا أمام أصحاب الطموح من البيت الأموي فحاولوا استلاب الحكم بالقوة ، فانقسم البيت الأموي على نفسه ، وانقسمت حوله العصيات القبلية تؤيد هذا الطالب الخلافة أو ذاك .. فثار مروان بن محمد على يزيد بن الوليد مظهرا الثأر للوليد بن يزيد ، واستطاع بأنصاره من الجزيرة — حيث مقر ولايته — وهم قبيلة قيس ، أن يحوز الخلافة لنفسه ، وينقل مقرها إلى حران بالجزيرة ، فخسر ولاء أهل الشام وعصيتها اليمينية ^١ ، وانتقل ذلك الصراع القبلي إلى المغرب والأندلس بين العرب هناك ^٢ ، وإلى خراسان حيث أذكى أواره ، واستغل ثماره ، طلاب السلطة من دعاة بني العباس ^٣ ، واستمر الحال على ذلك حتى انفارت الدولة الأموية ..

إن ذلك العرض الموجز للخلافات القبلية في العهد الأموي ينتهي بنا إلى نتيجة واضحة هي أن الصراع القبلي في العصر الأموي لم يحدث إلا في أثناء ضعف الخلافة الأموية ، أو غياب سلطتها المركزية ، وأن ذلك لم يستغرق شطرا كبيرا من عمر الدولة الأموية ؛ كما توهم بذلك بعض أقوال المؤرخين ، إن ذلك يؤدي بنا إلى القول بأن خلفاء بني أمية وولاةم كانوا يبذلون جهودا — لابد أنهم كانت كبيرة — للسيطرة على هذه العصية القبلية القوية ، في معظم فترات حكمهم وأيام قوة خلافتهم .. مما سوف نبسط فيه القول فيما يلي ...

ثالثا: جهود الخلفاء والولاة في السيطرة على العصية القبلية:

١ — عصر معاوية وابنه يزيد :

إن الخط العام الذي تتبناه كتابات كثير من المؤرخين هو تصور أن هناك صراعا دائما بين فرعي العرب الشماليين والجنوبيين ، أو القيسيين والكلبيين ، أو المضرية واليمينية ^٤ .. وأن بني أمية كانوا دائمي التحريش بين هذين الفريقين ليضمنوا من خلال تفريقي العرب بقاءهم وسيادتهم. ويزعم بعضهم أن أول من فجج ذلك النهج منهم هو معاوية بن أبي سفيان ، حيث يروي صاحب "الأغاني" أن معاوية في خلافته كان لا يفرض عطاء إلا لليمن ، وأنه رفض أن يفرض للشاعر مسكين الدارمي ، لأنه ليس عابيا ، وأن معاوية لم يزل يفعل ذلك حتى عزت اليمن وكثرت ، وضعفت عدنان ، فبلغ معاوية أن رجلا من أهل اليمن قال : هممت ألا أدع بالشام أحدا من مضر ،

^١ راجع ص من هذا المبحث

^٢ محمود شاكر التاريخ الإسلامي 307/4 — 308

^٣ الطبري : السابق 285/7 وما بعدها ، 353 وما بعدها

^٤ للمؤرخين اجتهادات شتى في تصور أسباب ذلك العداء (راجع ملحق رقم ٦) من ملاحق هذا الكتاب

بل هممت ألا أحل حيويتي حتى أخرج كل نزارى بالشام ، فلما بلغ ذلك معاوية فرض من وقته لأربعة آلاف رجل من قيس .. وتمضى الرواية فتزعم أن معاوية كان يغزي اليمن في البحر ، ويغزي قيسا في البر ، حتى قال أحد شعراء اليمن أبياتا يتضجر فيها من ذلك الصنيع ، فلما بلغت معاوية بعثت إلى اليمن فاعتذر إليهم وقال : " ما أغزيكم في البحر إلا لأني أتيمن بكم ؛ وإن في قيس نكدا وخلافا لا يحتملها الثغر ... فاما إذا ظننتم غير ذلك فانا أجمع فيه بينكم وبين قيس ، فتكونون فيه جميعا ، وأجعل الغزو فيه عقبا بينكم " ^١ ..

ويعزز مؤرخون آخرون تلك الدعوى فيزعمون أن معاوية وبني أمية كانوا في أثناء خلافته يجابون كلبا على حساب قيس ، ولذا فقد تزوج منهم معاوية امرأته ميسون بنت بحدل أم ولده يزيد السدي ولي الخلافة بعده ..

إن دعوى محاباة معاوية بمن الشام على قيسها لا تثبت أمام البحث السريء .. فرواية تفضيله اليمن في العطاء وحرمانه قيسا تفوح منها رائحة الوضع ، فغير معقول أن يحرم معاوية قيسا كلها من العطاء ، دون جريرة ، وهو حقهم المتوارث منذ سن عمر بن الخطاب ديوان العطاء ، وغير معقول أن ترضى الأمة عن ذلك الضيم ، أو أن ترضى قيس بذلك ، وقد حاربت إلى جواره في صفين وغيرها ، وظلوا على ولائهم وطاعتهم له طوال خلافته ، وكان منهم قادة الجيوش ، وولاة الأقاليم ، فكيف رضي هؤلاء وأولئك خطة الخسف هذه حتى فجرها لهم مسكين الدارمي ؟ كما أنه ليس معقولا التراض أن معاوية كان يغزي اليمن وحدها في البحر دون قيس ، حتى ضجروا من ذلك فراجع ، وعاقب بين الجانبين في البر والبحر ، إذ أننا نطالع أسماء بعض أبطال البحرية الأموية من العرب الشماليين منذ وقت مبكر ، وعلى رأس هؤلاء بسر بن أرطاة العامري وعبد الله بن قيس الجاسي ، حليف بني فزارة ^٢ وهل لم يجد معاوية وسيلة أخرى لحفظ التوازن القبلي بدلا من منع العطاء عن قبيلة والتفيل في الغزو على أخرى ؟؟

إنه من المعروف أن معاوية كان يحاول الإفادة من كل ذي كفاية يمكن الإفادة منها في دولته ، قيسيا كان أو يمانيا ، بل إنه حاول تأليف قلوب من كانوا في صفوف أعدائه ، فاستماهم ودفع بهم إلى الصف الأول من رجالات دولته ، ولعل غوذج زياد بن أبيه واضح الدلالة في ذلك المجال .. كما أن المطالع لأسماء ولاته وعماله يتبين بوضوح هذه الحقيقة ^٣ ؛ ومن أهم هذه الشخصيات القيسية البارزة في عهد معاوية في دمشق نفسها ؛ الضحاك بن قيس الفهري زعيم القيسية بالشام ، وأحد أبرز رجال البلاط الأموي ، وهو الذي نعى معاوية إلى الناس لما مات ، وابنه

^١ الأصفهاني :: الأغاني ٢٠ / 171-173

^٢ الطبري : السابق 4 / 260-261

^٣ راجع الجندول بأسماء ولاته وعماله عند محمود شاكر . التاريخ الإسلامي 99/4-99

يزيد غائب ، وصلى عليه ^١ ، وظل الضحاك عظيم المكانة عند يزيد بن معاوية وابنه معاوية بن يزيد ، فلما تنازل الأخير عن الخلافة بايع أهل دمشق الضحاك على أن يصلي بهم ، ويقم لهم أمرهم ، حتى تجتمع أمر أمة محمد ﷺ ^٢ .. وهكذا يبدو وضع رواية صاحب الأغاني الذي " يكاد يتفرد بروايتها حيث لا يوجد مصدر آخر يؤكد كدها ، وربما تعرضت هذه الرواية إلى تحريف شديد ، أو مبالغة واضحة " ^٣ ..

أما مصاهرة معاوية لقبيلة كلب ، أقوى القبائل اليمنية بالشام ، فقد كان ذلك منذ وقت مبكر يعود إلى ما قبل استخلافه في أيام إمارته على الشام ^٤ وهو يحاول أن يكسب ود أهل هذه البلاد التي أصبح أميرها ، وهو غريب عنها ، وقد تزوج من غير كلب ومن قريش أيضا ^٥ ؛ وكذلك فعل ابنه يزيد فكانت نساؤه قرشيات ^٦ ، وهذه المصاهرة الأموية لكلب لم تمل بهم إلى محابة أو ظلم .. ولا ينبغي أن ننسى أن بني أمية عرب شماليون ، وفي مصاهرتهم لليمانية ما يحفظ التوازن القبلي في هذه البيئة المتوترة ..

٢- العصبية القبلية بعد موت يزيد بن معاوية :

وجاء موت يزيد بن معاوية وتنازل ابنه معاوية عن الخلافة نقطة تحول في تاريخ الحياة السياسية في الدولة الأموية مع ما صاحب ذلك من تداعيات اجتماعية .. إذ تفجرت العصبية القبلية على نحو غير مفهوم منذ مجيء الإسلام .

فبعد تنازل معاوية بن يزيد لم يبق من الفرع السفلي الذي احتفظ بإجماع أهل الشام عليه ، ونجح في تحقيق التوازن بينهم ، والسيادة والعزة لهم ، شخصية يمكن أن تفرض نفسها ، أو تمسأ الفراغ السياسي الهائل ، فلم يكن هناك مرشح سفياني للخلافة سوى خالد بن يزيد بن معاوية ، وهو بعد غلام صغير لا تظاهرة خبرة أو كفاية معروفة ، ولا يعضد من اختياره سوى تأييد أخوال أبيه من قبيلة كلب ، وعلى رأسهم حسان بن مالك بن بحدل الكلبي ..

^١ الطبري : السابق 227/5 — 238

^٢ السابق 530/5

^٣ د. عبد الأمير دكسن الخلافة الأموية ص 143-144 ، وقد رواها أيضا البغدادي : خزنة الأدب 466/1 ، ابن عساكر : قذيب تاريخ دمشق 300/5 ، وهما مصدران متأخران ..

^٤ حيث أولدها ولده يزيد بن معاوية سنة 22 هـ (الطبري : السابق 160/4)

^٥ راجع الطبري : السابق 329/5 حيث تزوج من قريش زوجته فاختة بنت قرظة ثم أختها كثر بنت قرظة بن عمرو بن نوفل بن عبد مناف

^٦ راجع الطبري : السابق 500/5 ، محمود شاكر التاريخ الإسلامي 127/4 حيث تزوج أم هاشم بنت أبي هاشم ابن عتبة بن ربيعة ، وأم كلثوم بنت عبد الله بن عامر .

ومن ناحية أخرى كان نجم عبد الله بن الزبير يغزو أجواء الشام بعد غياب السلطة فيها، وهو شخصية قرشية تحظى باحترام جماعة من قادة الرأي حتى في بلاد الشام^١، وإن كانت رؤيته للخلافة تقتضي إعادتها إلى الحجاز؛ كما كانت في عهد الرسول ﷺ وخلفائه الراشدين، مما يعنى حرمان الشام من مكانتها الرفيعة التي اكتسبتها كحاضرة للعالم الإسلامي في عصر بني أمية حتى ذلك الوقت ..

وقد كانت أفكار الكلبيين تتجه إلى استخلاف خالد بن يزيد، حيث ستتيح لهم ظروف اختياره وصغر سنه وقلة خبراته وقرباتهم القريبة منهم نفوذا كبيرا عندهم، وسيجعل ذلك لهم الكلمة الأولى في بلاط الخليفة؛ إن لم تكن السيطرة عليه، والحكم من خلاله ..

ولما كان ذلك الاختيار يبدو غير منطقي إزاء شخصية منافسة مثل ابن الزبير فإن بعض القادة اليمانيين الآخرين كانوا يبحثون عن زعيم أموي آخر يصلح لمنافسة ابن الزبير، وتظل معه الخلافة في بلاد الشام، وقد وقع اختيارهم على شيخ بني أمية مروان بن الحكم .. ولكن ذلك الفريق كان لا يستطيع أن يحسم الخلاف لصالحه دون موافقة اليمانية الآخرين الذين يرشحون خالد بن يزيد؛ ويشفقون من قوة شخصية مروان بن الحكم وعصبية مما سيقلل من نفوذ اليمانية عنده، غير أنهم اضطروا في نهاية المطاف أن يقبلوا ترشيح مروان للخلافة، بعد أن اشترطوا لأنفسهم بعض الامتيازات المادية والمعنوية المحدودة^٢ ..

وإذا كان الكلبيون في الشام قد حسبوا حساباتهم على ذلك النحو، وسعوا في تحقيقها، فإن الزعيم القيسي الضحّاك بن قيس كان ينظر إلى الأمور على نحو مخالف .. فإن مكانته الرفيعة التي نالها في خلافة معاوية وابنه يزيد قد أصبحت الآن مهددة إذا تمت البيعة لخالد بن يزيد وهو بعد غلام صغير، مما يعنى سيطرة كبيرة لأقاربه الكلبيين، يتأرجح معها التوازن القبلي في الشام، وتضيع مصالح القيسية هناك؛ ذلك في حين كانت مبايعته لابن الزبير حلا لمشكلات عديدة لديه، فسوف تجنيه سيطرة الكلبيين إن بايعوا لخالد، كما أنها سوف تضمن له استمرار سيطرته على الشام، فسوف يكون أميرها، ونائب ابن الزبير فيها، لأن الأخير يفضل البقاء في الحجاز وإدارة الدولة من هناك ..

^١ عرض عليه الحصين بن نمير أن يبایعه بالخلافة إن ترك الحجاز ولجأ إلى الشام، ولكنه رفض مغادرة الحجاز (الطبري : السابق 502/5)، وامتدح روح بن زئبج الجذامي تدينه وفضله وحسبه (السابق 536/5) وكان عبد الملك بن مروان يعرف له عبادته وقدره وإن عابه لبخله (الطبري : السابق 422/6) وقد أبده الضحّاك بن قيس كما نرى .

^٢ الطبري : السابق 335/5 - 536، المسعودي : مروج الذهب 95/3 وتبدو في رواية المسعودي المبالة ..

ولما ظهرت الشكوك حول موقف الضحاك أرسل الكلبيون إليه يدعونه لبيعة بسى أمية ويبدو أن هذه الجهود كادت تثمر لولا تحريض بعض زعماء قيس للضحاك الذي مال بأنصاره إلى مرج راهط حيث واجهته كلب التي اجتمعت كلمتها على مروان^١ ..

إن استعراض أحداث هذه الفترة يقدم لنا بعض الملاحظات : أولا : أن الاستقطاب القبلي الذي حدث في هذه الفترة كان نتيجة تفاعلات اجتماعية وقلبية خاصة ، ولم يكن نتيجة تدخلات الأمويين ، ثانيا : أن مروان بن الحكم الذي اختاره اليمانيون للخلافة لم يكن يطلبها لنفسه ابتداء بل وجد نفسه محطاً لرغبات هذا الجانب القوى من أهل الشام ، وهو لم يعط بعض اليمانية امتيازات خاصة إلا بعد أن تابع القيسية الضحاك وبايعوا ابن الزبير وأصبح الوجود الأموي مهدداً في الشام على وجه لم يحدث من قبل ، ولا تصح المبالغة في مغزى هذا العطاء ، إذ كانت مصالح الأمويين ومصالح اليمانية في الشام تبدو متشابكة إلى حد بعيد في ذلك الوقت ، ثالثاً : لم يكن مروان بن الحكم سعيداً بهذه المواجهة المسلحة بين طائفتين من المسلمين اختلفت مشاربهما ، ولم يكن إلا متحسراً على ذلك القتال القبلي والتفسخ الاجتماعي ؛ ففي أوج انتصاره في مرج راهط لما قتل غريمه الضحاك بن قيس وجيء له برأسه ، نظر إليه في أسى ، ثم قال : الآن حين كبرت سني ودق عظمي ، وصرت في مثل ظمء الحمار أقبلت بالكتائب أضرب بعضها ببعض^٢ .. رابعاً : لم يكن القتال في مرج راهط — كما يذهب كثير من المؤرخين — قتالاً بين قيس وكتب كتجمعين قبليين متقابلين ، فقد كان بعض اليمانية يؤيدون ابن الزبير ويقاثلون في صف أنصاره من قيس ، كما حدث مع شرحبيل بن ذي الكلاع الحميري الذي كان في صفوف الضحاك^٣ ، غير أن هذه كانت استثناءات على أية حال ، حيث كان معظم قيس أنصاراً لابن الزبير ؛ كما كان معظم كلب واليمن مع مروان بن الحكم .. وهكذا أصبح الانقسام القبلي أمراً واقعاً لا مفر منه ، بعد هزيمة القيسيين المروعة في مرج راهط ، والتي ظلت تثير الشجون وذكريات الثأر من حين إلى آخر ..

^١ الطبري : السابق 531/5 — 534

^٢ الطبري : السابق 538/5

^٣ الطبري : السابق 535/5 ، وكان مع الضحاك أيضاً أناس من قضاة عليهم وائل بن عمرو (السعدي : مروج الذهب ٩٥/٣) كما كان الأكدر بن حمام النخعي أحد قادة جيش ابن جندب الفهري أمير ابن الزبير على مصر (الكندي : ولاية مصر وقضاها ص ٤٢) ؛ وذلك ما يؤكد البلاذري بقوله : " التقى الضحاك ومروان يوم مرج راهط ، وكان مع الضحاك خلق من أهل اليمن ؛ إلا أن قيساً كانوا رعوس الناس معه وعددهم " (انساب الأشراف 301/5)

٣ — دور عبد الملك بن مروان في إضعاف العصبية القبلية :

ورث عبد الملك الخلافة من أبيه ، وورث معها هذه الثارات القبلية العصبية ، ولكنه واجهها دون هوادة ..

فقد ظل القيسيون المتورون على ولائهم لابن الزبير ، وكان أحد كبار زعمائهم — زفر ابن الحارث الكلبي — قد فر إلى قرقيسيا ، وتحصن بها وثابت إليه قيس ، وأصبح تجمعهم هناك مركزا لشن الغارات على كلب في المناطق المجاورة له ، مما كان يسبب إحراجا بالغاً لعبد الملك الذي كان يطمح إلى استعادة بقية بلدان العالم الإسلامي إلى الوحدة تحت راية الخلافة الأموية ، وكان يوجه كل جهوده في هذه الفترة لاستعادة العراق من سيطرة مصعب بن الزبير ..

غير أن هذا الموقف القيسي المتوقع لم يجعل عبد الملك ينساق في تيار العداوة المتأججة ضدهم ، أو يغريه بتلبية رغبات الكليبيين المنتصرين في مزيد من حرمهم ، وعلى ذلك فقد جعل عبد الملك أحد كبار زعماء القيسية على يمينه جيشه المتجه لقتال مصعب بن الزبير سنة 67 هـ ، ورغم ذلك فقد خانه ذلك القائد المتور — عمير بن الحباب السلمي — وانسحب من ميدان المعركة بعد اتفاقه مع قائد جيش مصعب ، فحلت الهزيمة المروعة بالأمويين ، وقتل قائدهم عبيد الله ابن زياد وبعض زعمائهم من اليمانية مثل الحصين بن غير^١ ، والتجأ ابن الحباب إلى زفر بن الحارث في قرقيسيا لينساقا جهودهما معا في الإغارة على اليمانية هناك ... ورغم ذلك فإنه لما ساءت علاقته مع زفر منحه عبد الملك الأمان ، إلا أن إشاعات كاذبة أدت بعبد الملك إلى سجنه ، ولكنه استطاع الفرار من سجنه وعاد إلى منطقة الجزيرة ليستأنف شن الغارات على الكليبيين واليمنيين الآخرين في المنطقة ، كما ساءت علاقته بجيرانه من تغلب فنشب نزاع قبلي جديد بين قيس وتغلب الذين كانوا يعيشون في منطقة الجزيرة منذ مدة طويلة^٢ ، وقد ذهب عمير ضحية له ، فأرسل التغلبون رأسه إلى عبد الملك دلالة على ولائهم له^٣ ..

وكان لابد لعبد الملك إذا أراد أن يضم إليه العراق ، وينهي سيطرة الزبيريين عليها ، من أن ينهي اعتصام زفر بن الحارث في قرقيسيا ، فسار إليه في جيشه الذي كان جهزه لحرب مصعب ابن الزبير وبدأ يزفر أولا فحاصره ولكن رجال زفر أبدوا بطولة عجيبة وانتزعوا إعجاب عبد الملك الذي قال : " لا يبعد الله رجال مضر ، والله إن قتلهم لذل ، وإن تركهم لحسرة "^٤ ؛ ولجأ عبد الملك إلى المسألة ، وكتب إلى زفر يدعوهُ إلى طاعته ويرغبه فيها ويهدده إن لم يقبل ذلك ، وبعد جهود

^١ الطبري : السابق ج 6 ص 86 وقد كانت هذه المعركة على ضفاف نهر الخازر قريبا من الموصل .

^٢ البلاذري : أنساب الأشراف 313/5-314

^٣ السابق 323/5-325 ، ابن الأثير الكامل 258/4 — 260

^٤ النويري : نهاية الأرب 130/21 ، ابن الأثير : الكامل 18/4

ومفاوضة أرسل إليه زفر يجيبه إلى طلبه ، ويشترط عليه أن يقي له الخيار في أن يظل مخلصا لابن الزبير ، أو ينضم إلى عبد الملك ، ورغم ذلك فقد وافق الخليفة على شرطه ، وأعطاه الأمان وابنه وقائده الهذيل بن زفر ، وجميع أتباعهما ، ولم يأخذها بمال أو دم أهدراه ، بل أعطى عبد الملك الزعيم القيسي مبلغا من المال يوزعه بين أتباعه ، ثم اختتم ذلك العمل المجيد بأن زوج ابنه مسلمة بن عبد الملك بالرباب بنت زفر بن الحارث ، كما أمر زفر ابنه الهذيل أن ينضم إلى جيش عبد الملك المتجه إلى حرب مصعب بن الزبير ، إذ لم يكن على ولده ما عليه هو من بيعة لابن الزبير^١ ؛ ورغم أن الهذيل هذا قد خان فيما بعد ، وحن إلى درب الفتنة ، فانضم إلى جيش مصعب وترك جيش بني أمية فقد تغاضى عبد الملك عن ذلك ، وشمله بعفو^٢ .. ولا ريب أن كون عبد الملك نفسه قيسيا ، وكونه قد صاهر قيسا^٣ كان يخفف من غلواء معارضتهم له ..

ولقد ظل تحقيق التوازن بين الفعاليات القبلية ومحاولة إنهاء الصراع بينها دأب عبد الملك ابن مروان فيما تبقى من خلافته ؛ فإنه لما أغار حميد بن حريث بن بحدل الكلبي على بني فزارة ، وقتل عددا منهم ، اشتد غضب عبد الملك الذي هدأ من روع زعماء فزارة الحائقين المطالبين بالقود ، وعرضهم عن قتلهم أموالا حتى رضوا ، ورفض القصاص لقتلهم ، كما لم يقتص لقتلى كلب من زفر بن الحارث سابقا ، وقال : " كنتم في فتنة ، والفتنة كالجاهلية لا قود فيها "^٤ ، ولكن ذلك الصلح الذي تم بين الفريقين كان صلحا على دخن إذ إن بني فزارة لم يقبلوا التعويض المالي فيما يبدو إلا ليتقروا به على الثأر ، فلما أمكنهم ذلك أغاروا على بني كلب في مكان يسمى " بنات قين " فلو قوا بهم هزيمة كبيرة مما أثار غضب الخليفة فأمر واليه على الحجاز الحجاج بن يوسف بمعاينة بني فزارة بشدة غير أن الزعيمين الفزاريين المستولين عن هذه الواقعة سلما نفسيهما طوعا للحجاج ليدفعا الضر عن قومهما ، فأرسلهما بدوره إلى الخليفة الذي دفعهما إلى بني كلب ليقتصا منهما^٥ ، غير أن الكلبيين لم يقنعوا بذلك وأخذوا يعدون العدة لمزيد من الانتقام ، وعندما غا إلى عبد الملك علم بذلك هدد بني كلب ، حالفا بالله لئن قتلوا من فزارة رجلا ليقيدنهم به ، فانتهوا عما كانوا يتوهم^٦ .. وانتهى بفضل حكمته ذلك الصراع الدامي بين قيس وكنب في الشام والجزيرة ، فلم نعد نسمع به أمدا طويلا ؛ حتى عاد لما ضعف أمر بني أمية بالشام بعد مقتل الوليد بن يزيد ..

^١ النويري : السابق 131/21 ، ابن الأثير : السابق 18/4

^٢ النويري 131/21 ، ابن الأثير 18/4

^٣ تزوج عبد الملك من ولادة بنت العباس بن جزء من بني عيس بن بغيض التي أنجب لها ولديه الوليد ومليمان ..

الطبري : السابق 419/6 - 420 ، ابن حزم موجز تاريخ الإسلام ص 27

^٤ البلاذري : أنساب الأشراف 310/5

^٥ البلاذري : أنساب الأشراف 311/5 ، ابن عساكر : قتيب تاريخ دمشق 118/4

^٦ البلاذري السابق والصفحة ، دكسن الخلافة الأموية 156

ولا ريب أن هذه السياسة التي انتهجها عبد الملك بن مروان في الاستعلاء على الخصومات القبلية ومحاولة تحقيق التوازن بين مصالح هذه القبائل المتنافرة ، قد أغضبت بعض الزعماء الكليين الذين كانوا يتوقعون أن يرد لهم عبد الملك الجميل ، بعد أن أعادوا الحكم لبني أمية بسيوفهم في مرج راهط ، ويفضل كلبا على ماعداها ، ويحقق لها السيادة على بلاد الشام ، وقد عبروا عن صدمتهم في سياسته المتوازنة هذه في أشعار كثيرة عددوا فيها فضائل الكليين على بني أمية ، فقال أحدهم مخاطبا الأمويين :

فلا تكفروا حسنى مضت من بلادنا ولا تمنحونا بعد لين تجبرا^١

وقال آخر :

أعبد المليك ما شكرت بلائنا
بجائية الجولان لولا ابن بحدل
فكل في رخاء الأمن ما أنت آكل
هلكت ولم ينطق لقومك قائل^٢

وقال ثالث :

صبغت أمية بالدماء رماحننا
وطوت أمية دوننا دنياهنا^٣

ولكن عبد الملك لم يستسلم لهذه الضغوط ، بل ظل على نهجه الذي اختطه لنفسه ، فكنا نجد في أصحابه زفر بن الحارث الكلبي وابنيه الهذيل وكوثرا وعبد الله بن مسعدة الفزاري وغيرهم من زعماء قيس ، كما نجد حسان بن مالك الكلبي وروح بن زنباع الجذامي ورجاء بن حيوة الكندي وغيرهم من زعماء اليمانية ، وكما عدل بين الفريقين في وجهه عدل بينهم في وظائفه ، فكان يختار ولاته على الأمصار من القيسية غالبا بينما يختار موظفي بلاطه من اليمانية ، فمن بين ستة وخمسين موظفا استخدمهم ولاة خلال فترة خلافته كان خمسة فقط من القبائل الجنوبية ، بينما نجسد خمسة عشر من مجموع عشرين موظفا من موظفي بلاطه كانوا من القبائل الجنوبية^٤ ..

ولقد استطاع عبد الملك بطرق مشاهمة إغواء الراعي بين قيس وتغلب في منطقة الجزيرة^٥ . كذلك انتهى نزاع القبائل في خراسان ، فلما شبت هذه القبائل تطاحنا أرسل رجالها في نهاية المطاف إلى عبد الملك يطلبون منه أن يبعث إليهم واليا قرشيا يستعلي بقرشيته على تنافس القبائل هناك ، فأرسل إليهم أمية بن عبد الله بن خالد بن أسيد سنة 74 هـ^٦ ؛ وقد حاول أمية أن يشغلهم بالجهاد

^١ أبو تمام :ديوان الحماسة 1/212 — 213

^٢ السابق 1/214—215

^٣ السابق 1/216

^٤ د. صالح العلي : موظفو بلاد الشام في العصر الأموي ص 53، 61 مجلة الأبحاث عدد 19 سنة 1962 م ، د.

دكسن :الحلقة الأموية 178

^٥ راجع دكسن . السابق 161—162 ، البلاذري : السابق 5/328—330

^٦ الطبري : السابق 6/199 — 200

عن الاقتتال الداخلي بينهم ، فلما لم ينجح في ذلك بصورة كاملة عزله عبد الملك وعين بدله المهلب بن أبي صفرة^١ ..

٤- حول دعوى تعصب بعض أبناء عبد الملك وولاته :

تذكر بعض مصادرنا التاريخية أن أمراء البيت الأموي كانوا منقسمين تجاه ذلك الصراع الدموي بين قيس و كلب ، فكان بعضهم يؤيد قيسا مثل بشر بن مروان ، الذي كانت أمه قيسية ، وكان بعضهم الآخر يؤيد كلبا ، مثل عبد العزيز بن مروان ، الذي كانت أمه كلبية ، وأن كلا من هذين الأميرين كان لا يرضى لأقاربه الهزيمة ، مما أدى بهما إلى إثارة ذلك النزاع كلما هدا ، والنفسخ في ناره كلما خبت^٢ ...

والحق أن هذه الدعوى تحوطها شكوك كثيرة ، فلم يكن عبد الملك بن مروان ذلك الرجل الغافل عما يدور حوله حتى يستطيع بعض أفراد بيته العمل بخلاف سياسته ومصالح بيتهم نفسه ، ومصالح المسلمين ، وهو لا يعلم أو لا يوقف ذلك العبث الخطير ، كما أنه لم يعرف من تاريخ هذين الرجلين بشر بن مروان وعبد العزيز أنهما كانا ممن يوصف بعصبية قبلية ، ففي ولاية بشر على العراق كان يقرب الأكفاء من اليمينية مثل المهلب بن أبي صفرة وعبد الرحمن بن مخنف الأزديان ، وكانا يليان له قتال الخوارج في العراق والمشرق^٣ ، كما كان عبد الله بن إسحاق بسن الأشعث الكندي من أصحابه ، وقد أوصاه به الخليفة خيرا^٤ ؛ كما لم يعهد عن عبد العزيز بن مروان طوال حكمه لمصر الذي قارب عشرين سنة تعصب لليمانية ، أو صراع بين عرب الشمال والجنوب في مصر إبان ولايته .. ومع كل ذلك فلا تسلم هذه الدعوى الفارغة من تناقض تاريخي، إذ كان بشر بن مروان في هذه الفترة التي شهدت صراع كلب وفزارة واليا على العراق ، كما كان عبد العزيز حاكما على مصر ، فكيف يتآمران لمصلحة هذه القبيلة أو ذاك في بلاط الخليفة في دمشق ؟ وليس مقبولا اعتراض بعض الباحثين بأن هذه المؤامرات ربما حدثت أثناء زيارات الأميرين للخليفة^٥ ؛ إذ إن هذه الروايات التاريخية تصور هؤلاء الأمراء الأمويين في موقف التربص الدائم والمكر المستمر ، الذي يتطلب مقاما طويلا .. كما أنه مما يدخل في دائرة ذلك التناقض التاريخي أن تزعم هذه الروايات أن الحجاج بن يوسف كان واليا على العراق أثناء حروب كلب وفزارة في يسوم "بنات

^١ السابق 320/6

^٢ البلاذري : أنساب الأشراف 310/5 .

^٣ الطبري : السابق 195/6 - 197

^٤ السابق 164/6

^٥ د دكسن الخلافة الأموية 154 ، الحاشية رقم 70 ص 184

قين"، وأن بشرا كان يتآمر آنذاك لصالح فزارة من دمشق^١؛ إذ إنه من المعروف أن الحجاج لم يتسول العراق إلا سنة 75 هـ بعد وفاة بشر بن مروان ..

وشبهه بالأتهم السابق ما يؤكد بعض الباحثين من تعصب الحجاج بن يوسف — عامل عبد الملك على العراق — لقيس على حساب اليمانية، أو تشجيعه العصبية القبلية بإثارة الشعراء ضد بعضهم، والتحريض بينهم، والشعراء آنذاك لسان قبائلهم الناطق، حتى خلفوا لنا ما عرف بالنقائض مثل التي كانت بين جرير والفرزدق^٢؛ فالحقيقة أن الحجاج قد تولى العراق في ظروف عصيبة، واستطاع متأسيا بمنهج خليفته أن يللم جهود القبائل العراقية المتنافرة ويدفع بها إلى الجهاد والفتح، وهو وإن كان قد عين بعض أقاربه على بعض الولايات مثل محمد بن القاسم الثقفي عامله على السند والحكم بن أيوب خليفته على البصرة، فقد عين آخرين من اليمانية في وظائف هامة وأماكن حساسة مثل عبد الرحمن بن الأشعث الذي اختاره لولاية سجستان، وقيادة جيش الطواويس، والمهلب بن أبي صفرة وابنه يزيد في خراسان وغيرهم، ولم يكن الحجاج ممن يفضل أقاربه إذا كان ذلك ضد مصلحة الدولة، فقد سجن صهره مالك بن أسماء بن خارجة الفزاري لما أقمه بالاختلاس، ولم يستطع أبوه أن يشفع له عند الحجاج^٣، ومن المعروف أن عزله يزيد بن المهلب وموقفه من عبد الرحمن بن الأشعث إنما كان لأسباب سياسية لا قبلية^٤، أما التحريض بين الشعراء ونقائض جرير والفرزدق فالحقيقة أنها قد ألفت للتسلية أكثر منها للعداء السياسي، وكان جرير والفرزدق صديقين حميمين^٥؛ وعندما كانت تصل الأمور بالشعراء إلى حد إثارة العصبية القبلية بصورة فعلية، كان لولاة الأمويين معهم شأن آخر كما سوف نرى ..

٥ — موقف بني أمية بعد عبد الملك من العصبية القبلية :

أجهد بعض المؤرخين أنفسهم في تصنيف خلفاء بني أمية التاليين إلى متعصبين للقيسية أو اليمانية، واعتسفوا ليؤكدوا ذلك الأدلة والبراهين، فإذا ولي الخليفة واليا قويا من قيس عدوه لذلك قيسيا، وإذا مضى ذلك الخليفة وولى مكانه آخر، وبطش بذلك الوالي القوي لأسباب وجهية، وعزل أنصاره، عدوا ذلك الخليفة الجديد يمانيا .. وهكذا دواليك ..

ومن ذلك اتهمهم الوليد بن عبد الملك بالقيسية لاحتفاظه بولاية الحجاج على العراق، ولأن أمه كانت من قيس، واتهمهم سليمان بعده باليمانية لأنه عزل أصحاب الحجاج وأظهر عداه

^١ الأصفهاني :: الأغاني 115/15

^٢ انظر د. إحسان النص العصبية القبلية وأثرها في الشعر الأموي 262

^٣ الأصفهاني :: الأغاني 41/6

^٤ راجع د. دكسن الخلافة الأموية ص 176—177

^٥ السابق 177

١ هم ؛ رغم ما هو معروف من أن عداء سليمان للحجاج وأصحابه إنما كان يصدر عن أسباب دينية لما كان يراه هو وخليفته عمر بن عبد العزيز من تجاوزات الحجاج ، ولأسباب سياسية لما كان الحجاج قد أيد عزل سليمان من ولاية عهد أخيه الوليد ، واستخلاف عبد العزيز بن الوليد بدله ٢ ..

٦- مواجهة ثورة ابن المهلب هل كانت مواجهة قبلية :

غير أن أهم الشبهات التي تثار في هذا الشأن تدور حول أقام يزيد بن عبد الملك بالعصية لقيس إلى الحد الذي أدى به إلى قتل يزيد بن المهلب ، والتكيد بآل بيته الناهين ، ثم إنه ولي بعده على المشرق أخاه مسلمة بن عبد الملك ، ثم عزله وولى بعده عمر بن هبيرة وهو قيسي ؛ "واضطربت الدولة كلها بالصيغة القيسية المضربة ، وأصبح العنصر اليمني ضعيفا لا يملك من الأمر شيئا" ٣ ..

والحق أن استعراض أحداث ثورة يزيد بن المهلب وموقف يزيد بن عبد الملك منها يسري ساحة الأخير من هذا الاقحام ، فقد فر يزيد بن المهلب من سجن عمر بن عبد العزيز في مرض عمر الأخير ، وقيل في سبب هروبه أنه كان يخشى انتقام يزيد بن عبد الملك — ولي عهد عمر — منه ، ردا على ما فعله ابن المهلب بآل الحجاج بن يوسف من عذاب ونكال ، وهم أصحاب الخليفة الجديد ؛ إذ كانت أخت الحجاج تحت يزيد بن عبد الملك ٤ ..

ولكن ابن المهلب لم يكتف بالهروب من سجن الخليفة بل مضى إلى البصرة ليستعين بعصيته الأزدية وغيرهم من اليمانية هناك ، ويخلع الخليفة الجديد ، ويحشد الجيوش لمحاربه ٥ ؛ وليس يتوقع من الخليفة آنذاك إلا قتاله حرصا على وحدة الدولة الإسلامية ، وبقاء الحكم الأموي ، وكلا الأمرين مرتبطان بشكل يصعب معه فصل أحدهما عن الآخر آنذاك .. ورغم ذلك فقد أرسل الخليفة — لما علم بهروبه من سجن عمر بن عبد العزيز ، وقبل وثوبه على البصرة — بأمانه هو وأهل بيته ؛ "وبكل شيء أرادته" ، غير أن ابن المهلب سارع بإعلان الثورة والسيطرة على البصرة قبل وصول رسل الخليفة إليه ٦ ..

وكان المسلمون في ذلك العهد يدركون حقيقة طموح ابن المهلب وخطره ودوافع ثورته ، ولم ينظروا إليها على أنها صراع بين العصبة القيسية للخليفة والعصبة اليمنية للثائر عليه ، يؤكد

^١ راجع دوزي : تاريخ مسلمي إسبانيا 211/1 ، ورد فلهوزن عليه تاريخ الدولة العربية 251—252

^٢ الطبري : السابق 506/6—507

^٣ د. حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام السياسي 345/1

^٤ الطبري : السابق 564/6

^٥ راجع السابق 578/6—587

^٦ السابق 580/6 ، 584

ذلك توحد موقف العصية اليمنية في الشام مع موقف الخليفة ، فقد روى الطبري أن يزيد بن عبد الملك كان قد أرسل عبد الرحمن بن سليم الكلبي عاملا على خراسان فلما بلغ عبد الرحمن هذا أبناء ثورة ابن المهلب ، كتب إلى الخليفة يقول : " إن جهاد من خالفك أحب إلي من عملي على خراسان ، فلا حاجه لي فيها ، فاجعلني ممن توجهه إلى يزيد بن المهلب " ^١ وذلك رغم كون عبد الرحمن بن سليم كليبيا يمانيا ، إضافة إلى ذلك كانت اليمانية بالشام ممثلة تمثيلا قويا في الجيش الذي حارب ابن المهلب ^٢ بل إن الرجل الذي قتله كان يمانيا من كلب ^٣ ؛ وكان القائد الذي أرسله الخليفة ليتبع آل المهلب بعد فرارهم إلى كرمان كليبيا أيضا ، هو مدرك بن ضب الكلبي ^٤ ؛ وقد أراد عبد الرحمن بن سليم الكلبي الذي استخلفه مسلمة بن عبد الملك — قائد الأمويين — على البصرة ، أن يستعرض أهلها ليستأصل من أيد منهم ابن المهلب ، فلما علم مسلمة بذلك عزله عنها وولى بدله عبد الملك ابن بشر بن مروان ^٥ .. ولقد أثار موقف القبائل اليمنية بالشام غضب أحد الشعراء المواليين لابن المهلب وهو ثابت قطنة مما جعله يهجوهم ويهددهم بالانتقام في أبيات تقطر مرارة ^٦ ..

غير أنه من المثير أن نعرف أن بعض أزد العراق أيضا كانوا ضمن جيش الأمويين ^٧ ، تماما كما أيدت قبائل ربيعة وبعض تميم وقيس وبعض ناس من أهل الشام ابن المهلب في ثورته ^٨ ..

ولقد كان الفخر والاعتداد بالنفس اللذان يشعر بهما المهالبة وراء استمرار مقاومتهم للأمويين بعد هزيمتهم ، رغم أنهم عرضوا عليهم الأمان ^٩ ؛ فانتقلوا إلى كرمان ، وتعقبهم الأمويون وقتلوه حتى لم يبق إلا النساء والأولاد ، ويزعم المؤرخون أن مسلمة بن عبد الملك — الذي نعرف نبأ أخلاقه وإيمانه — قد أقسم على بيع ذريتهم ، فقال له الجراح بن عبد الله الحكمي (وهو أحد القيسية) : فأنأ اتديهم منك لأبريئك ، فاشترهم منه بمائة ألف ؛ فقال مسلمة : هاتهما ، فقال الجراح : إذا شئت فخذها ، فعادت إلى نفس فارس بن أمية طيعتها ووعيتها ، فلم يأخذ منه شيئا ، وخلي سبيلهم إلا تسعة فتية أرسل بهم إلى الخليفة فقتلهم ^{١٠} ، وما يذكر هنا أن آل المهلب لم يكونوا

^١ السابق 584/6 — 585

^٢ الطبري : السابق 595/6

^٣ السابق 597/6 واسم ذلك الرجل القحل بن عياش من بني جابر بن زهير بن جناب الكلبي

^٤ الطبري : السابق 601/6

^٥ السابق 605/6

^٦ راجع الأبيات في الطبري : السابق 603/6

^٧ الطبري : السابق 584/6

^٨ السابق 580/6

^٩ السابق 602/6

^{١٠} السابق 602/6 — 603

يخشون على نسايتهم من غضب بنى أمية^١ لما يعلمون من طبيعة الخلق العربي والإسلامي الذي يسأى امتهان الضعفاء ..

وكان من الطبيعي أن لا يولي الخليفة الأموي أحدا من القادة اليمانيين على العراق والمشرق بعد هذه الفتنة ، إذ ربما ثارت هذه النفوس الفائرة التي تعودت التمرد في هذه المناطق وتشجعت على ذلك بولاية أحد اليمانية عليها ، وربما كان ولاء يمانية أهل الشام للخليفة دافعا — فيما لو ولى أحدهم على المشرق — إلى مزيد من إراقة الدماء ، في محاولة لإثبات الولاء المطلق لبني أمية ، كما رأينا في صنيع عبد الرحمن بن سليم في البصرة ..

ولم تكن تولية الخليفة عمر بن هبيرة على العراق وهزيمة ابن المهلب تعنى أن الدولة قد اصطبغت بالصبغة القيسية أو أن الحكومة الأموية قد انقلبت حزبا يحكم باسم قيس كما يرى بعض الباحثين^٢ ؛ إذ إننا نرى أن ولاة الجزء الغربي من الدولة الأموية في مصر وإفريقية والمغرب والأندلس كانوا من يمانية الشام ! فقد ولى يزيد على مصر بشر بن صفوان الكلبي عام ١٠١هـ ، ثم بعد مدة أرسله واليا على إفريقية وجعل مكانة أخاه حنظلة بن صفوان الذي ظل أميرا حتى خلافة هشام بن عبد الملك عام ١٠٥ هـ ؛ كما أرسل كليا آخر هو عنبسة بن سحيم على الأندلس ، فظل واليا عليها حتى استشهد سنة ١٠٧ هـ^٣ ...

٧- العصبية القبلية في أواخر العصر الأموي :

وفي عهد هشام بن عبد الملك نشطت العصبية القبلية نتيجة تراجع حركة الفتح الإسلامية ونشاط المعارضة في شرقي الدولة وغربها ، ومحاولتها استغلال هذه العصبية لصالحها ، ولا يتهم هشام بالعصبية لقبيلة دون أخرى ؛ فقد كان يختار ولاته من قبائل شتى ، ولا يتردد في عزل أحدهم — ولو كان عالي الهمة واضح الكفاية ، إذا أيقن تعصبه لقومه ؛ وأن ذلك التعصب سوف يفسد إدارة البلاد ، كما حدث مع أسد بن عبد الله القسري عامله على خراسان لما عزله عنها سنة ١٠٩ هـ حين شعر بتعصبه ليمانيته ضد قيس هناك ، وولى بعده ولاة من القيسية أنفسهم ، لكن هؤلاء الولاة الجدد لم يبرءوا تماما من انحيازهم لذويهم ، فأعاد أسدا مرة أخرى ليحاول إصلاح ما أفسد ، وذلك سنة ١١٧ هـ^٤ ..

^١ السابق 602/6

^٢ د. حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام السياسي 345/1 ، فلهوزن : تاريخ الدولة العربية 312

^٣ راجع محمود شاكر تاريخ الإسلام السياسي 259/4 — 260 ، 271

^٤ الطبري السابق 49/7 ، 105

غير أن عزل وال وتعيين آخر لم يكن حلا كافيا في هذه المرحلة التاريخية للتخلص من العصبية وخطرها ، إذ يبدو أنها قد أصبحت شيئا معهودا في طبائع القوم ، كما أصبحت عاملا ينبغي حسابه في سياسة الأمور ..

ولم يكن ذلك التطور الخطير غائبا عن ذهن الخليفة هشام ، فقد رفض أن يولي عامله على العراق يوسف بن عمر الثقفي سلم بن قتيبة بن مسلم على خراسان ، وكتب إلى يوسف يقول : " إن سلم بن قتيبة رجل ليس له بخراسان عشيرة ، ولو كان له بها عشيرة لم يقتل بها أبوه " ^١ .. وحين كتب يوسف بن عمر إلى الخليفة بأسماء جماعة يختار أحدهم لولاية خراسان كانوا كلهم من قيس ، ليس بينهم عماري واحد ، فكتب هشام إليه : " قد فهمت كتابك وإطراءك القيسية " ؛ ويقول له : " .. ولكنك تقيست علي " (أي واليت قيسا دون سواها) ^٢ .. وقد أعى الخليفة أمر خراسان وعصيانها فاختار لهم نصر بن سيار الكتاني لكفايته ومقدرته ، فلما قيل له : إن نصرا عشيرته بخراسان قليلة ، قال هشام نخذه : لا أبا لك ، أريد عشيرة أكثر مني ، أنا عشيرته ^٣ ؛ ولكن نصرا نفسه رغم مؤهلاته لا ينجو أحيانا من العصبية ، فيختار ولاته كلهم من القيسية ، فيقول له رجل من عمانية الشام : ما رأيت عصبية مثل هذه ، فإرد نصر عليه : " بلى ، التي كانت قبل هذه " ^٤ ..

ورغم كل ذلك فقد كان حذر الخليفة وكفاية العمال وذكاءهم حاجزا دون انهيار الأوضاع تماما ، ولاشك أن سلامة جبهة الشام وتأييدها للخليفة كانت تتيح للأمويين قوة تكفي للاطمئنان والسيطرة على مواطن الخطوة المتبعة من أطراف الدولة ..

لكن هذه الأركان الثابتة تعرضت لهزات مخيفة بعد موت هشام كانت كفيلة بالتهيار الدولة الأموية ، فمع خلافة الوليد بن يزيد الذي اتهم بالضعف خسر الخليفة ولاء العصبية اليمانية بالشام لحد قتل خالد القسري زعيمها ، وانشق البيت الأموي على نفسه ، فعدا يزيد بن الوليد على ابن عمه الخليفة فقتله ، ثم جاء مروان بن محمد من الجزيرة خالعا إبراهيم بن الوليد ؛ مسيطرا على الخلافة بالقوة ، ونقل مقرها إلى الجزيرة بحران ؛ فخسر معظم ولاء أهل الشام ، الذين انقسموا على أنفسهم بين قيسيين ويمانيين ، وبين أنصار لهذا الأموي أو ذاك .. مما أتاح للثوار في أطراف الدولة أن يزحفوا على قلبها المتفسخ فيزيلوها ويقيموا بناء الدولة العباسية ، حيث ضعفت العصبية العربية ضعفا بليغا لحساب العصبية الفارسية الفتية ، ثم ظهرت قوميات أخرى أكثر قوة واتحادا فيما بعد في العصر العباسي الثاني ..

^١ السابق 154/7

^٢ السابق 156/7

^٣ السابق والصفحة نفسها

^٤ السابق 157/7

الخلاصة :

يتضح من ذلك العرض للعصية القبلية في العصر الأموي وموقف الأمويين منها أن بني أمية لم يكونوا هم المستولين عن بعث هذه العصية وتجاوز الأصل الإسلامي في تأخى المسلمين وتوحدتهم ، فهذه العصية قديمة عند العرب ، وإنما أخفاها الإسلام أول الأمر إبان توهج الروح الإسلامية ، فلما عظمت مكانة القبائل العربية بعد مضي فترة من عصر الراشدين ، وضعت بأهميتها في الحياة السياسية الإسلامية عادت هذه العصية إلى البروز تدريجياً ، ووجدت من الخلافات السياسية ما جذر دورها ، وزاده خطورة في أثناء الفتن زمن عثمان والصراع بين علي ومعاوية ...

وقد اجتهد معظم خلفاء البيت الأموي في إضعاف هذه العصية والسيطرة عليها ، شاعرين بخطورتها على البناء الاجتماعي والسياسي للدولة فأصابوا في ذلك نجاحاً كبيراً ، واستمر ذلك النهج حتى الفترة الأخيرة في حياة دولتهم لما كثرت الفتن والمؤامرات على الدولة وضعف خلفاؤها وأنصارها من أهل الشام ..

ملاحظات عامة :

ونلاحظ في نهاية هذا البحث عدة ملاحظات عامة أهمها :

— محاولة الأمويين استغلال الخلافات القبلية في تحقيق نصر سياسي ، وقد كان ذلك — للإنتصاف — في بضع حالات كانت فيها الخلافة الأموية غير موجودة ، إما قبل قيامها ، كما حدث في حركة ابن الحضرمي ، أو بعد انهيارها في الشام عقب تنازل معاوية بن يزيد عنها ، كما رأينا في لجوء ابن زياد إلى حماية الأزدي في العراق ..

أما في حركة ابن الحضرمي ، فقد أرسله معاوية إلى البصرة سنة 38هـ ليدعو إلى الطلب بدم عثمان ونصرة معاوية مستغلاً انقسام أهلها ووجود بعض العثمانيين بها ، فول عند تميم مستجيراً بهم ، وظل يث دعوته ولم يبدأ بقتال ، فلجأ زياد بن أبيه — وكان نائب ابن عباس أمير البصرة بها — إلى الأزدي مستجيراً هو الآخر بهم ولما أرادت الأزدي — بتحريض زياد — قتال تميم وابن الحضرمي أرسلت إليهم تميم : إنا لم نعرض لجاركم ولا لأحد من أصحابه ؛ فماذا تريدون إلى جارنا وحربنا ؟ فكرهت الأزدي قتالهم ولم تفعله ، ثم أرسل علي بن أبي طالب رضي الله عنه جارية بن قدامة السعدي التميمي ليفرق قومه عن ابن الحضرمي ، فنجح في ذلك بعض النجاح ، ثم قتل ابن الحضرمي^١ ..

^١ راجع الطبري : السابق 110/5—113 ويلاحظ أنه رغم صنيح الأزدي مع زياد فإنه لما ولى ولاية العراق في ظل خلافة معاوية لم يحاكم بشيء كما كانوا يتوقعون مما أثار حفاظ بعضهم عليه (راجع الطبري : السابق 509/5—510)

وهكذا لم تعد هذه المحاولة مجرد الدعوة إلى فكرة معاوية وتأييده — في هذه المرحلة — ولم يلجأ ابن الحنظلي إلى إثارة العداوات القبلية ، واكتفى بحماية التميميين له ، ولكنه ذهب ضحية موقفه السياسي لا القبلي ، ولم يكن للأمويين آنذاك خلافة ..

وأما لجوء ابن زياد إلى الأزدي بعد انهيار الخلافة الأموية عقب موت يزيد بن معاوية وتنزل ولده فقد كانت محاولة منه لحماية نفسه بعد ظهور عداة العراقيين له ومبايعة بعضهم لابن الزبير ، أمل القتال الذي نشب بين القبائل العراقية عقب ذلك فقد كان نتيجة عداوات قبلية أخرى لا شأن لابن زياد بها^١ ؛ فلما رأى ذلك آثر الهرب إلى الشام عن المضى في محاولة استئصال بعض القبائل على بعضها .. ليساهم هناك في إعادة الخلافة إلى البيت الأموي من جديد والبيعة لمروان بن الحكم^٢ ..

أما المحاولة الثالثة التي يذكرها المؤرخون فكانت لما سار عبد الملك بن مروان لحرب مصعب ابن الزبير سنة ٦١ هـ وأرسل خالد بن عبد الله بن خالد بن أسيد إلى البصرة ليسيطر عليها مستعينا بولاء بعض أهلها له ، فزل على بكر بن وائل فحمته ، ونشب قتال شديد ، كان فيه عبد الملك يمد صاحبه ومصعب يمد أنصاره بالرجال ، ثم انتهى بغلبة مصعب وهزيمة خالد ولجونه إلى عبد الملك ، ولكن بعد أن أفسد على مصعب ولأهل البصرة ، فكانت فاتحة الطريق إلى هزمته^٣ ..

وهكذا نرى أنه رغم معرفة بني أمية لما يتبعه الخلاف بين القبائل العربية من سبيل لنصرتهم في أوقات احتياجهم إلى هذه النصرة إلا أننا نرى أنهم لم يلجؤوا هذه الطريق إلا في أضيق الحدود ، وكانوا غالبا يؤثرون كسب الأنصار باللجوء إليهم والدعوة لهم ، دون التمادي في إثارة العداة بين القبائل وضرب بعضها ببعض ..

— محاولة الأمويين الإفادة من العصبية القبلية كذلك في حروبهم ضد المشركين ، وسعيهم لمد رقعة الإسلام على أرض جديدة ، فكانوا يثيرون أحيانا حمية بعض هذه القبائل للقتال لكسب بعض المواقف الحرجة في الحرب ، من ذلك أنه في فتح بخارى سنة ٩٥ هـ خرج الترك والصغد للقتال المسلمين الذين كان يقودهم قتيبة بن مسلم ، فقالت الأزدي : اجعلونا ناحية واخلوا بيننا وبين قتالنا ، فقال قتيبة : تقدموا ، فتقدموا وقاتلهم ، حتى انهزم المشركون ووقفوا على نحر ، فقال قتيبة : من يزيلهم عن هذا الموضع ؟ فلم يقدم عليهم أحد من العرب ، فأتى بني تميم وقال لهم : يوما كأيكمكم

^١ راجع الطبري : السابق 515/5-517 حيث قتل أحد بني ضبة التميميين رجلا يشكركا من حلفاء ربيعة ، كما كان ابن حازم في خراسان قد استعرض ربيعة هناك .

^٢ راجع الطبري : السابق 507/5-523

^٣ الطبري : السابق 152/6-155

! فأخذ وكيع بن أبي سود التميمي اللواء ، وقال يا بني تميم أتمسلموني اليوم ؟ قالوا : لا يا أبا مطرف ، فقاتلوا قتالا عجيبا حتى كان الفتح ^١ ..

— كان لبعض الشعراء دورهم في إثارة العصبية القبلية وذلك بافتخارهم بقيائلهم وحطهم من شأن غيرها ، وقد سبقت الإشارة إلى أنه يبدو أن العرب في ذلك الوقت كانوا لا يحملون جل ذلك الشعر محمل الجد ، ويعدونه وسيلة لإبراز مواهب الشعراء أكثر منه وسيلة لإبراز الاختلاف والضغائن بين القبائل العربية ، غير أن ذلك لا ينفي أن بعض الشعراء قد تمادوا في ذلك الأمر إلى حد أن هددوا العلاقات بين قبائلهم ، وأوشكوا أن يثيروا الصراع بينها ؛ وهنا كنا نجد بعض ولادة الأمويين يتدخلون لتفويت الخطر ، مثلما حدث حين تهاجى زياد الأعجم وكعب الأشقري واتصل المهجساء بينهما ، فأدى ذلك إلى وقوع الشر والحرب بين الأزدي وعبد القيس؛ فتدخل المهلب بن أبي صفرة بتسكين الأمر وإصلاح ما بينهما ، وتحمل المهلب ما أحدث كل فريق على الآخر ، وأدى ديته ^٢ ..

— وقد حاول بعض أعداء الأمويين أن يستغل هؤلاء الشعراء في إثارة مزيد من العداء بين القبائل العربية ، وبخاصة في أواخر عهد الأمويين حين ضعفت سيطرة بعض خلفائهم ، ليحققوا من خلال ذلك بعض أغراضهم .. فلما مدح الكميّ شاعر الشيعة آل البيت حاول عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب — الزعيم الناصر على بني أمية — مكافأته فأبي ، بزعم أنه ما قال هذه القصائد إلا تقربا لله ، فقال له معاوية : " إن أبيّ أن تقبل مني فإني رأيت أن تقول شيئا تغضب به بين الناس ، لعل فتنة تحدث ، فيخرج من بين أصابعها بعض ما تحب " ؛ وكان هذا سبب ما حدث بين الكميّ ودعبل الخراساني من مفاخرات وعداء ، فقد مدح الكميّ نزارا وهجا اليماني ، فدافع عنها دعبل ، وتطايّر الشر بين الفريقين ^٣ ؛ فمهد ذلك لرحف أعداء الأمويين من المشرق من خلال تأثيرات هذه الفتنة ، ومن المشهور جهود أبي مسلم الخراساني قائد العباسيين في خراسان من أجل التفريق بين القيسية واليمانية هناك وإثارة الفتنة فيهم ، حتى إذا ما أنخن بعضهم في بعض وتضعفت قواهم ، جاء هو بقوة الوافرة فسيطر على الأطراف كلها وخلصت له خراسان ..

ورغم جميع ما سبق فإننا ضد المغالاة في تصوير العصبية القبلية في العصر الأموي وكأنها هي السمة الاجتماعية الأكثر بروزا ؛ وكان المجتمع الإسلامي كان منقسما متنافرا يترصد فيه كل فريق بفريق .. فقد كان القوم مسلمين يجمعهم الإسلام على كثير من القيم والعادات والتقاليد المشتركة ، وكانوا يعيشون تحت حكم واحد ، تجمع بينهم آمال مشتركة وتحوطهم مخاطر واحدة .. وكانوا يشتركون معا في القتال والفتح ، ويصوغون معا تاريخا مجيدا للأمة الناهضة ..

^١ السابق 443/6 — 444 ، ابن الأثير : الكامل 113/4

^٢ الأصفهاني :: الأغاني 270/14

^٣ السعدي . مروج الذهب 243/2 — 245

وقد رأينا أن فترات خطورة العصبية القبلية كانت محدودة ، ومرتبطة بضعف السلطة المركزية للخلافة ، وفيما عدا ذلك فإنها غالبا ما كانت تظل مستترة خاملة منشغلة عن عداواتها ، رغم تأصلها في نفوس كثير من العرب منذ عصور طويلة ..

وإننا لنلاحظ أثر هذا التمازج الاجتماعي في بروز الروح الإقليمية ، وتزايد الإحساس بالانتماء إلى مصر واحد ، فإنه لما اختلفت تميم مع الأزدي وريعة . بعد موت يزيد بن معاوية ندب الأحنف بن قيس نفسه — وهو زعيم تميم — للإصلاح بين الناس ، فخطب الأزدي وريعة قائلا : " أنتم إخواننا في الدين ، وشركاؤنا في الصهر ، وأشقاؤنا في النسب ، وجيراننا في الجار ، ويدنا على العدو ، والله لأزدي البصرة (وكان الأحنف بصريا) أحب إلينا من تميم الكوفة ، ولأزدي الكوفة أحب إلينا من تميم الشام ، فإن استشرف شئناكم ، وأبي حسد صدوركم ، ففي أموالنا وسعة أحلامنا لكم سعة " ^١ ..

الفصل السادس

دراسة الشبهات حول سياسة الأمويين المالية

مقدمة

يتهم بعض المؤرخين والباحثين الأمويين بالخروج على منهج الخلفاء الراشدين في الاقتصاد وسياسة المال .. وذلك الاتهام قديم لاكنه السنة أعداء الأمويين من خوارج^١ وشيعة^٢ وعباسيين^٣ .. ومن المؤكد وجود بعض الفوارق بين سياسة الأمويين في الاقتصاد وسياسة الراشدين ، فالجتماع الإسلامي الذي حكمه الأمويون ليس هو ذلك المجتمع الذي حكمه الراشدون ، فسالون ملحوظ بين درجة الالتزام العقدي في كلا المجتمعين ، ودرجة الانسجام الاجتماعي ، والتأثر بالحضارات الوافدة ، وتعدد الولاء بين الاتجاهات السياسية المتباينة ، والأحزاب السياسية المتعددة .. إلى غير ذلك من فروق واضحة يلحظها كل باحث وقارئ لتاريخ الدولتين .. وسوف نلاحظ جلياً عند البحث في أسباب الاختلاف في سياسة هذين العصرين أن بعض أسباب ذلك الاختلاف تعود إلى ذلك التطور الاجتماعي الضخم ... كما أن أسباباً أخرى تعود إلى طبيعة الصراع السياسي في ذلك العصر ، وطبيعة تكوين الأسرة الأموية ذاتها ، حتى إن بعض ملامح هذه السياسة المالية يتغير في بعض فترات هذه الدولة عن بعضها الآخر ... كما أننا نلاحظ أن طبيعة العصر تترك آثارها حتى عند المخالفين لبني أمية من الخارجيين عليهم ؛ والذين كانوا أشد الناس انتقاداً لهم .

ومأخذ المؤرخين والباحثين على السياسة المالية للأمويين تشمل الحديث عن موارد هذه الأموال ووجوه صرفها ، مع التركيز على دور الخلفاء والولاة في صنع هذه التجاوزات التي رآها المؤرخون لاصقة بسياساتهم المالية .. وسوف نعرض بالدرس والتحليل لهذه الشبهات فيما يلي ..

^١ راجع الطبري : السابق 191/5 ، 286/6

^٢ السابق 172/7

^٣ السابق 427/7 ، 91/8

المبحث الأول

شبهات حول موارد الدولة الأموية

وهي الشبهات التي تتعلق بطرق جباية الأموال في الدولة الأموية ، ومدى مشروعية هذه الطرق وعدالتها ، ومن أهم هذه الشبهات :

١. استباحة هدايا النيروز والمهرجان :

وهي الهدايا التي كان يقدمها الفرس لعمامهم في عيدي " النيروز " و " المهرجان " من أعيادهم ^١ ، وقد قيل إن معاوية طالب أهل السواد أن يهدوا عامله على الخراج في هذين اليومين ففعلوا ، فبلغ ما حصل عليه من ذلك عشرة آلاف درهم في سنة ^٢ ..

والحق أن إهداء الفرس لعمامهم الأموال والهدايا في هذين العيدين عادة فارسية قديمة بلغ من تأصلها أنها كانت جزءاً من النظام المالي قى الإمبراطورية الساسانية ^٣ ، وقد ذكر أمر هذه الهدايا في زمن الراشدين ؛ ففي خلافة أبي بكر أهدوا إلى خالد بن الوليد منها ؛ فاستشار الخليفة فأمره أن يقبلها ويجسيها من الجزية المفروضة عليهم ^٤ ، وفي خلافة عثمان بن عفان سنة ٣٢ هـ ، أهدوا أحد القادة العرب — وهو أسيد بن المششم — الذي أنابه الأحنف بن قيس ليقبض صلح أهل بلخ ، فوافقت جبايته لهم يوم المهرجان ، فأهدوا إليه من آنية الذهب والفضة والدنانير والدرهم والمتاع والثياب ، فقال : هذا ما صاخناكم عليه ؟ قالوا : لا ، ولكن هذا شئ نصنعه في هذا اليوم لمن ولينا ؛ نستعطفه به ، قال : ما أدرى ما هذا ، ولكن أقبضه وأعزله ، حتى قدم عليه الأحنف فعلم منه ومنهم الخبر ، فحمل هذه الهدايا إلى عبد الله بن عامر ، وهو أميره ، فقال له : أقبضه يا أبا بحر (يعني الأحنف) فهو لك ، قال : لا حاجة لي فيه ، فأخذ ابن عامر ^٥ ..

^١ النيروز والمهرجان عيدان من أعياد الفرس ، والنيروز أعظم عندهم من المهرجان ، حيث إنه بداية دخول الشتاء واستقبال السنة والفتح الخراج وتولية العمال وتقريب القربان .. أما المهرجان فهو بداية الحر أو الصيف عندهم (راجع : الجاحظ : التاج في أخلاق الملوك ص ١٤٦)

^٢ الجهشيارى : الوزراء والكتاب ٢٤

^٣ كريستنسن : إيران تحت حكم الساسانيين ص ١٠٧ ، شكري فيصل : المجتمعات الإسلامية ص ٨٠

^٤ راجع الطبري : السابق ٣/ ٣٦٢ ، ٤٥٢-٤٥٣ ، د. شكري فيصل : السابق ٨٠-٨١

^٥ الطبري : السابق ٤/ ٣١٣-٣١٤ راجع الطبري : السابق ٣/ ٣٦٢ ، ٤٥٢-٤٥٣ ، د. شكري فيصل : المجتمعات الإسلامية ٨٠-٨١

وليس هناك ما يدل على توقف إعطاء هذه الهدايا إلى العمال حتى قامت الدولة الأموية، إلا أننا نفترض إهمال أمرها فيما يلي هذه الفترة ؛ نتيجة سيطرة أخبار الفتنة الكبرى التي تلت مقتل عثمان ، حتى اجتمعت الأمة من جديد تحت خلافة معاوية ، ومن المحتمل أن يكون معاوية قد رأى في هذه الأموال وسيلة لدعم بيت المال هو في حاجة إليها لمواجهة النفقات المالية المتزايدة ، كما أنها لا تشوبها شائبة قهر للناس ، أو إجبار لهم على أدائها إذ إنها هدايا تطوعية اعتاد الفرس على تقديمها لعمالهم منذ أمد بعيد ، ومن المحتمل جدا أن يكون معاوية قد أراد " تقنين " هذا المورد المالي غير المنضبط ، وخلق مجال صحيح له ، عندما توجه هذه الهدايا إلى بيت المال بدلا من تركها للعمال أو الجباة يجبوها جهرا أو سرا ، وقد حدث زمن الراشدين أن أضيفت ضريبة الحرزة — حرزة كسرى — وهي إحدى الضرائب التي اعتاد الفرس دفعها لأكاسرهم ؛ إلى اتفاقات الصلح بين زعماء بعض البلاد المفتوحة والمسلمين الفاتحين ^١ ..

وقد ظل الأمر على ذلك حتى استخلف عمر بن عبد العزيز ؛ فأوقف جباية هذا النوع من الضرائب وغيرها التي استقر أمر الناس على إعطائها عمالهم قبل الإسلام ^٢ ، ثم قيل إن عمر بن هبيرة عامل يزيد بن عبد الملك على العراق والشرق أعاد جبايتها من الأهليين ^٣ ، وربما كانت حجته في ذلك مشاهدة طجة معاوية ، فاستحلها مادامت تخلو من شائبة الغرض والإجبار ..

2. اصطفااء جزء من الغنائم :

زعم بعض الرواة أن عامل زياد بن أبي سفيان على خراسان الحكم بن عمرو الغفاري قد غزا جيل الأشل فغنم غنائم عظيمة ، فكتب إليه زياد : إن أمير المؤمنين كتب إلي أن أصطفي له الصفراء والبيضاء (أي من الذهب والفضة) ، والروائع ، فلا تحركن شيئا حتى تخرج ذلك ، فكتب إليه الحكم : "... فإن كتاب الله عز وجل قبل كتاب أمير المؤمنين ، وإنه والله لو كانت السماوات والأرض رتقا على عبد اتقى الله عز وجل جعل الله سبحانه وتعالى له مخرجا ، ثم قال للناس : اغدوا على غنائمكم ، وعزل الخمس وقسم الباقي بينهم ، ثم قال : اللهم إن كان لي عندك خير فاقبضني ؛ فمات بمرور في خراسان ^٤ .

^١ راجع عقد الصلح بين خالد بن الوليد وأهل الحيرة ، وكانت علي كل رأس أربعة دراهم (الطبري : السابق ٣٦٧/٣)

^٢ ابن عبد الحكم : سيرة عمر بن عبد العزيز ص 160 ، الطبري : السابق 569/6 .

^٣ اليعقوبي : السابق 48/3

^٤ الطبري : السابق 251/5 — 252 ، اليعقوبي : السابق 158/2 ، ابن الأثير الكامل 223/3

ولاشك أن عرض هذه الرواية على هذا النحو يزري بمعاوية ، ويجعله في موقف المتسهم بتجاوز أوامر الله تعالى في تقسيم الغنائم ، حيث قضى سبحانه بأن خمس الغنائم فقط هي حق بيت المال وتوزع على أصحابها الذين حددهم الله في قوله تعالى (واعلموا أنما غنمتم من شيء فإن لله خمسة وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ...)^١ ، أما الأربعة الأخماس الباقية فتوزع على المحاربين .. بل إن هذه الروايات توحى أن معاوية قد أراد أن يصطفي هذه الأموال لنفسه ، وهذا ما تنفيه روايات أخرى شيعية ومحايدة ؛ تزعم أن معاوية إنما أراد اصطفاة هذه الأموال لبيت المال^٢ ، وحتى على القراض ذلك فإن فيه أيضا تجاوزا للحكم الشرعي ؛ إذ يخرج أصنافا بعينها من الغنائم ويجرم المقاتلة منها ...

ونحن نعلم أن معاوية وزيدا كانا أتقى الله من ذلك ، بل إن زيادا إنما اختار الحكم بن عمرو واليا على خراسان لما عرفه عنه من تدين ، ولما أكبره فيه من صحة لرسول الله ﷺ^٣ ، فكيف يأمرانه بمثل هذه المخالفة الشرعية ؟ ثم إن هذه الواقعة المزعومة لا نجد لها مثيلا في التاريخ الأموي عسى كثرة ما شهدته من مغامم وفجوح ، مما يعزز احتمالات الشك فيها ، ويوجب تجاوز مثل هذه الروايات التي لا تهدف إلا إلى التشنيع على بني أمية.

3- زيادة خراج بعض الأقاليم:

وأول ما يذكره الرواة في ذلك المجال أن معاوية كتب إلى عامله على خراج مصر " وردان " أن يزيد على كل رجل من القبط قيراطا ، فرد وردان عليه : كيف أزيد عليهم وفي عهدهم أن لا يزداد عليهم ؟^٤ ..

ونحن نعلم أن الجزية المفروضة على مصر لم تكن مرهقة لأهلها ، ولم تكن على غير القادرين ، حيث كانت دينارين على كل رجل قادر ، وخرج منها النساء والصبيان^٥ ، ولم يكن القيراط الذي أراد معاوية زيادته والذي يرهق الرعية ، فهو يساوي جزءا من عشرين جسزا من الدينار^٦ ، وعلى هذا فإن علينا أن نبحث عن سبب آخر لرفض " وردان " هذه الزيادة ، ولصمت

^١ سورة الأنفال آية (41)

^٢ ابن أعمم الفتح 200/4-201 ، ابن كثير : البداية والنهاية 47/8

^٣ لطبري : السابق 225/5

^٤ ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب 86 ، البلاذري : فتوح البلدان ص ٢١٩ .

^٥ البلاذري : السابق ص 226 ، المقرئ : الخطوط 76/1

^٦ روى البلاذري عن ابن سعد قوله : " وزن الدرهم من دراهمنا هذه أربعة عشر قيراطا من قراريط مثقالنا : الذي جعل عشرين قيراطا " (فتوح البلدان ص 472 ، وقد انتهى بحث ، د. الرئيس في كتابه الخسراج ص 376 إلى أن وزن القيراط يساوي 0.2125 من الجرام ، وعلى هذا فهو مقدار ضئيل بالفعل

معاوية بعد ذلك عن طلبها ... وقد فسر لنا ذلك أبو عبيد فقال ^١: "وأما كتاب معاوية إلى وردان فإنما نرى ذلك لأن مصر كانت عنده عنوة فلهذا استجاز الزيادة ، وكانت عند "وردان" صلحا ؛ فكره الزيادة ، فلهذا اختلفا " ؛ ثم قال : " وقد ذكرنا ما كان من اختلاف الناس في التصاحبا " ... ولهذا نجد أن عامل " إرخنا " — إحدى كور مصر — لما طلب من عمرو بن العاص قبل ذلك أن يحدد مقدار ثابتا للجباية يجمع كل عام رفض عمرو وقال : إن كثر علينا كثرنا عليكم ، وإن خفف عنا خففنا عنكم ^٢ ؛ ومعنى ذلك أنه يجبي ما تطلبه منه الخلافة ، وهو يرى أن من حقها أن تزيد عليهم ^٣ ؛ وهكذا لم يزد الأمويون شيئا على خراج مصر إلا زمن هشام بن عبد الملك لما كتب إليه عامله على خراجها عبيد الله بن الحبحاب أن أرض مصر تحمل الزيادة ، فزاد على كل دينار قبطا ، ورغم قلة هذه الزيادة ، ومضي أعوام طويلة منذ فتحت مصر دون زيادة في خراجها ؛ فقد ثار أهلها من القبط في الحوف الشرقي ؛ وانتفضوا أول انتفاض لهم بها سنة ١٥٧ هـ فواجههم جيش الأمويين وهزمهم ^٤ .. وليس بعيدا أن يكون عمال الخراج من القبط الذين يتولون أمور الجباية وراء هذه الثورات حرصا على المبالغ الضخمة التي يقتصونها من الفوارق بين ما يجبونه بالفعل وما يوردونه إلى خزانة الدولة الإسلامية، وقد ظل ذلك التلاعب حتى انتبه إليهم المسلمون وتدخلوا لتحقيق إشراف حقيقي على الجباية ، ثم تعريب الدواوين كما سوف يأتي ..

وفي عهد هشام زاد خراج مصر زيادة ملحوظة ، ولكن ليس مردها إلى ذلك التعديل الطفيف الذي تسبب في هذه الثورة ، بل إلى القدرة على تقدير الخراج على أسس واقعية صحيحة ، فقد قام ابن الحبحاب بمسح أرض مصر وتقدير الوظائف من جديد على وحدات المساحة ^٥ ، كما قام والي مصر الوليد بن رفاعة بإحصاء عدد سكانها ، وتعديل الخراج عليهم بعد ذلك ، فأقام من أجل ذلك ستة أشهر بالصعيد حتى بلغ أسوان ، ومعه جماعة من الكتاب والأعوان ، وثلاثة أشهر بالوجه البحري ، ويروي المقرئ في أهم وجدوا عدد القرى أكثر من عشرة آلاف قرية ، وأن أصغر قرية لم يكن بها أقل من خمسمائة رجل ممن تجب عليهم الجزية ^٦ ، وربما كان في هذه الأعداد شيء من المبالغة

^١ أبو عبيد : الأموال 144

^٢ المقرئ : الخطوط 77/1

^٣ د. حسين مؤنس : هامش كتاب تاريخ التمدن الإسلامي لجرحي زيدان 23/2 وسوف يأتي قريبا أن مصر لم تكن طعمة لابن العاص كما يشيع عند كثير من المؤرخين .

^٤ المقرئ : الخطوط 79/1 ، الكندي : ولاة مصر 62

^٥ المقرئ : السابق 75/1 ، 99 ، د. الرئيس : الخراج 263

^٦ المقرئ : السابق 74/1

أو عدم الدقة^١ ، ولكنه بعد هذا التقدير الجديد بلغ خراج مصر أربعة آلاف دينار بدلا من ثلاثة آلاف^٢ بغير إرهابا للرعية ، أو إضاعة لحق بيت المال ..

أما في الجزيرة فقد زاد الأمويون الجزية التي كانت مفروضة عليها منذ فتحها " عياض بن غنم الفهري " ، ولكن ذلك أيضا لم يكن ظلما لأهلها أو تعنتا معهم ... فقد كان عياض فرض على كل إنسان دينارا ومدين قمحا وقسطين خلا وجعلهم جميعا طبقة واحدة^٣ ، فلما ولي عبد الملك بن مروان عليها الضحاك بن عبد الرحمن استقل ما يؤخذ من أهلها ، فأحصى الناس ، وجعلهم عمالا بأيديهم ، وحسب ما يكسب العامل سنته كلها ، ثم طرح من ذلك نفقته في طعامه وأدمه وكسوته وحذائه ، وطرح أيام الأعياد في السنة كلها (حيث لا يعمل الناس فيها عادة) فوجد الذي يفضل من ذلك في السنة لكل واحد أربعة دنائير ، فالزمهم ذلك جميعا ، وجعلهم طبقة واحدة ، وحملت الشام على مثل ذلك ، وحملت الموصل على مثل ذلك^٤ ..

ولعل في فرض هذه الجزية على أهل الشام ، وهي موطن الخلافة ؛ ورضاهم بها دليلا على أنها لم تكفلهم من أمرهم شططا ولا رهقا .. كما أنه من الحق أن نتذكر أن عياض بن غنم إنما فتح هذه البلاد صلحا وأنه قبل أن يصالح أهلها استشار أبا عبيدة في أمرها ، فشاور الأخير معاذ بن جبل الصحابي الفقيه ، فأفاته أن يصالحهم على أن يؤدوا إليه قدر الطاقة إن أيسروا أو أعسروا^٥ ، فكان ما فرضه عياض قدر طاقتهم أيام الفتح ، وإذا كان عامل عبد الملك بن مروان فيما بعد قد أحصى كسبهم ، وجعلهم طبقة واحدة على أنهم عمال بأيديهم ، وترك لهم ما يكفيهم ، وبقي من بعد كفايتهم لكل واحد منهم أربعة دنائير ، فذلك قدر طاقتهم في عهده ، وإذا أخذ ذلك منهم فإنه إنما عمل بما اشترط عليهم عياض لما فتح بلادهم ، وليس في ذلك تجاوز للعهد معهم . أو إخلال بشروط الصلح^٦ .

^١ د. الرئيس : الخراج 264

^٢ المقرئ : السابق 98/1 - 99

^٣ أبو يوسف : الخراج 43-44

^٤ السابق 44

^٥ السابق 43-44

^٦ د. عبد الأعلى مهدي : قضية الجزية حتى نهاية العهد الأموي ص 378 مقال بمجلة ندوة التاريخ الإسلامي العدد الثامن سنة 1410 هـ / 1990م

4. فرض الجزية على الموالي :

تذكر الروايات التاريخية أن الأمويين قد فرضوا الجزية على من أسلم من أهل البلاد ، متجاوزين بذلك أحكام الشريعة الإسلامية التي تقضي بفرض الجزية على المشركين فحسب ، وسقوطها عنهم إذا دخلوا الإسلام .

وتذكر الروايات أن ذلك حدث لأول مرة في خلافة عبد الملك بن مروان حين فرض عامله على العراق الحجاج بن يوسف الجزية على من أسلم من أهل العراق وفارس ، وأن ذلك كان في أثناء ثورة ابن الأشعث ، أما المرة الثانية فكانت في خلافة هشام بن عبد الملك حين فرض عامله على خراسان وما وراء النهر — أشرس بن عبد الله — الجزية على من أسلم من أهل هذه النواحي .

أ (فرض الجزية على موالي العراق :

روى الطبري بإسناده أن " عمال الحجاج كتبوا إليه أن الخراج قد انكسر ، وأن أهل الديمة قد أسلموا ولحقوا بالأمصار ، فكتب إلى البصرة وغيرها أن من كان له أصل في قرية فليخرج إليها ، فخرج الناس فمسكروا ، فجعلوا ييكون وينادون : يا محمداه ، يا محمداه ، وجعلوا لا يدرون أين يذهبون ، فجعل قراء أهل البصرة يخرجون إليهم متقمعين فيكون لما يسمعون منهم ويرون ، ... فقدم ابن الأشعث على تفتنة ذلك ، واستبصر قراء أهل البصرة في قتال الحجاج مع عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث " ^١ ..

وتشابه رواية ابن الأثير والنويري مع رواية الطبري ، وإن أضافت مزيدا مسن التحديد لقرار الحجاج بشأن الموالي وأنه إنما أخرج الموالي إلى قراهم " لتؤخذ منهم الجزية " ^٢ ..

ونحن نعلم أن التشريع الإسلامي استقر منذ عصر عمر بن الخطاب على اعتبار الأرض المفتوحة ملكا للمسلمين كافة ، وأن يترك فيها أهلها يؤدون عن رؤوسهم الجزية ، وعن أرضهم الخراج ، وأما من يسلم منها فإن جزية رأسه تسقط عنه ، بينما يظل مطالبا بخراج الأرض لأنها ملك للمسلمين ، فإن شاء أقام فيها ودفع عنها خراجها ، وإن شاء تركها للمسلمين يزرعوها ويدفعون عنها الخراج ، هذا إذا كانت هذه الأرضين قد فتحت عنوة ، فإن كانت صلحا فإنما يدفع أصحابها مبلغا من المال متفقا عليه مقابل الجزية والخراج ، ويتوزعون ذلك فيما بينهم ، فمن أسلم منهم رفعت عنه الجزية وظلت الأرض داخلة في نطاق ما يجب أن تدفع عنه ضريبة الصلح ^٣ .

^١ الطبري : السابق 381/6 .

^٢ ابن الأثير : الكامل 79/4 ، النويري : نهاية الأرب 237/21

^٣ أبو عبيد : الأموال 52 ، 53 ، 57 ، يحيى بن آدم : الخراج 21 ، 22 ، 60 — 62 ، ابن رجب : الاستخراج لأحكام الخراج 95—96 ، وانظر د. الريس : الخراج 130 — 131

ومن المعروف أنه لم تكن قيمة الخراج على الأرض الزراعية كبيرة إلى حد يرهق الفلاحين ، ويدفعهم إلى الهجرة الجماعية إلى المدن ، على ما تحكي هذه الروايات ، كما أننا نلاحظ هذه الهجرة فيما قبل عصر الحجاج ومنذ الفتح الإسلامي لهذه البلاد ، مع العلم بأن بعض العرب كانوا يسارعون لشراء أراضي السواد وزراعتها ويدفعون عنها الخراج^١ ، مما ينفي بشكل قاطع دعوى إرهاب الفلاحين بالضرائب مما يضطرهم إلى ترك أراضيهم ..

فما هو السبب الذي أدى إلى هذه الهجرة من القرى التي اضطرت الحجاج لمواجهتها ؟

لقد اختلفت تفسيرات الباحثين المعاصرين لها ، فعزاها بعضهم إلى القضاء على النظام الإقطاعي الذي كان سائدا بهذه البلاد قبل الفتح الإسلامي لها ، والذي كان يقضي بارتباط الفلاح بأرضه بشكل يستحيل معه انفصاله عنها ، على حين عزاه آخرون إلى إغراء الحياة في المدينة واتساع مجالات الرزق فيها ، وهي حجج لا تبدو مقنعة ، فقد انتهى نظام الإقطاع مع الفتح الإسلامي للعراق ، ورغم ذلك لم تظهر الهجرة الجماعية إلا بعد سنة 80 هـ في أثناء ثورة ابن الأشعث ، كما أن إغراء الحياة الجديدة في المدن لا يبدو عاملا مغريا للفلاح شديد الارتباط بأرضه ، يدفع به إلى تركها والمغامرة في ميادين حياة مجهولة في المدينة ، مع ضعف احتمالات أن يستطيع الفلاح منافسة الصانع والتاجر فيها^٢ .. كما لا يبدو مقنعا التركيز على الدافع الاقتصادي وراء قرار الحجاج إعادة هؤلاء المهاجرين إلى قرأهم ، لمواجهة ما ترتب على هجرتهم من أضرار نتجت عن إهمال الزراعة وتقلص قيمة الخراج ، مع حاجة من التحق منهم بالجيش إلى أخذ العطاء وحقه من الغنائم .. وحجتهم في ذلك هو تقلص قيمة خراج العراق زمن الحجاج عما كان يحجب قبله^٣ ..

كما أن رواية الطبري السالفة الذكر تنص على كسر الخراج ، ولكننا نعلم أن هناك أسبابا أخرى لانكسار الخراج زمن الحجاج من أهمها مواجهة الفتن الماتجة في العراق أول ولأياته ، ومواجهة نفقات جيوش الفتح التي استعادت نشاطها ، ومن المحتمل أن جباية العراق قد تحسنت في أواخر عهده لما استقرت الأمور هناك^٤ ؛ ورغم هذا فإن الدافع الاقتصادي وحده لا يجيب على التساؤل

^١ قار د. حسن إبراهيم قيمة خراج الفدان المزرع قمحا في عهد عمر بن الخطاب بأربعة عشر درهما ، وهي قيمة تبدو زهيدة (النظم الإسلامية 267) وقد كره جماعة من فقهاءنا شراء أرض الخراج للمسلمين على اعتبار أنها ليست ملكا لأصحابها بل هي ملك للمسلمين كافة (يحيى بن آدم الخراج 55-57 الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد 15/17)

^٢ د. فهمي عبد الجليل : التنظيم الإسلامي للأرض الزراعية 117-118 ، وانظر مراجعه هناك

^٣ كان خراج العراق زمن عمر بن الخطاب مائة ألف ألف درهم ، ثم نقص زمن الحجاج إلى أربعين ألف ألف (البلاذري : فتوح البلدان 270)

^٤ د. الرئيس : الخراج ص 254

الملح : لماذا تأخرت مواجهة الحجاج لهذا الوضع حتى بعد سنة 80 هـ مع أن هذه الهجرة لم تحدث فجأة ، وإنما تمت في خلال سنوات عدة ..

إننا نفترض أن الهجرة من القرى تمت في خلال سنوات عديدة ، وأن عمادها لم يكن هم الفلاحين أصحاب الأرض والمربطين بطبيعتهم بها ، وإنما هم من الأجراء الذين كانوا يعملون في هذه المزارع ، وكانوا أصحاب أرض فقدوها في أثناء الفتح والحروب ، وهم الذين يسميهم سيف بن عمر الرواية " بالسكرات " عند حديثه عن أهل " أمغيثيا " التي فتحها خالد بن الوليد سنة 12 هـ وخربها " فعاد أهلها سكرات لدهاقين القرى " ^١ ، ويضاف إلى هؤلاء طائفة من أبناء الفلاحين دفعهم حب المغامرة إلى الرحيل إلى المدن ، ولم يكن ارتباطهم كارتباط آباءهم بالأرض ، وربما وجدوا أمامهم الفرصة للتدريب على بعض الحرف والمهن الملائمة لهذا المجتمع الجديد ، وربما كان هدف بعضهم ممن أسلموا أو أسلم آباؤهم السعي في طلب العلم ، ودراسة اللغة ، وحفظ القرآن ورواية الحديث ، فلم يكن أمامهم من سبيل إلى تحقيق هذه الغاية إلا الرحيل إلى الأمصار ^٢ ، ثم جاءت مشاركة الموالي النشطة في ثورة ابن الأشعث — أخطر ما واجه الأمويون من ثورات حتى قامت ثورة العباسيين — وكان عدد الموالي في جيشه مساويا لعدد العرب الذين شاركوا في هذه الثورة ، ويصل إلى مائة ألف رجل ^٣ ! كما كانت مشاركة القراء ملحوظة في هذه الحرب مع ابن الأشعث ، وكان منهم عدد كبير من الموالي ، وذلك ما يؤكد وجود دافع سياسي قوي لدى الحجاج وراء قراره بإعادة هؤلاء الموالي إلى قراهم ، ليسقط بذلك أقدارهم ، حين يحولهم من طلاب علم ، ورجال دين ومهن وحرف إلى أجراء عند فلاح القرى .. ويوضح ذلك رواية الجاحظ حيث قال ^٤ : وإن الحجاج لما خرج عليه ابن الأشعث وعبد الله بن الجارود ، ولقي ما لقي من قراء أهل العراق ، وكلن أكثر من قاتله وخلعه وخرج عليه الفقهاء والمقاتلة والموالي من أهل البصرة ، فلما علم أنهم الجمهور الأكبر والسواد الأعظم أحب أن يسقط ديوانهم ، ويفرق جماعتهم ، حتى لا يتألفوا ولا يتعاضدوا ، فأقبل على الموالي وقال : أنتم علوج وعجم ، وقراكم أولى بكم ، ففرقهم وفض جمعهم كيف أحب ، وصيرهم كيف شاء ، ونقش على يد كل رجل منهم اسم البلدة التي وجهه إليها .. ويؤكد ذلك المبرد فيقول ^٥ : " ونظر الحجاج إلى كل من خرج مع عبد الرحمن بن الأشعث من الموالي ، فأراد أن

^١ الطبري : السابق 358/3 — 359

^٢ د. فهمي عبد الجليل : المرجع السابق 118 — 119 ، د. صالح العلي : التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في

البصرة 74

^٣ الطبري : السابق 347/6

^٤ روى ذلك ابن عبد ربه : العقد الفريد 64/2

^٥ الكامل 96/2 — 97

يزيلهم عن موضع الفصاحة والآداب ، ويخلطهم بأهل القرى والأنباط ، فقال : إنما الموالي علوج ، وإنما آتي بهم من قراهم ، فقراهم أولى بهم ؛ فأمر بتسييرهم من الأمصار ..
وقد عزز من عزم الحجاج على إعادة الموالي إلى قراهم ، وأخذ الخراج منهم أنه كان يربط بقوة دائما بين الولاء للدولة والإيمان بالدين ، وأنه رأى في اشتراك هؤلاء الموالي في هذه الثورة ؛ مع من يكون ترك أرضه وزرعهم منهم وذهب إلى الأمصار فكسر الخراج وأضر بالدولة ، رأى في ذلك خروجاً عن مقتضى الإيمان الذي يعني الطاعة لأولي الأمر ، والمساهمة في نهضة الدولة الإسلامية الاقتصادية ، فجاء شكه في إسلامهم مبرراً له لإعادة أخذ الخراج منهم ^١ ، كما أنه كان يرى أنهم صالحوا المسلمين على أن لا يعينوا بعضهم على بعض — كما حدث في صلح الأساورة والزرط والسيابجة مع أبي موسى الأشعري زمن عمر بن الخطاب — وأن اشتراكهم مع ابن الأشعث ضده وضد الخلافة يعني منهم تجاوزاً لشروط الصلح ونقضا له ، يستحقون معه إعادة الجزية عليهم وتفريقهم ؛ ولذا فقد أضر الحجاج بهذا الفريق من الموالي ؛ " فهدم دورهم وحط أعطيائهم ، وأجلى بعضهم وقال : كان في شرطكم ألا تعينوا بعضنا على بعض " ^٢ ..

وأخيراً فإنه إذا كان الحجاج قد تجاوز الصواب في عمله ذاك ، فقد أصلح ذلك الأمر عمر ابن عبد العزيز الذي عاد إلى سيرة عمر بن الخطاب في جباية المال وإسقاط الجزية عن فرضت عليه من الموالي ^٣ ... فلما فعل ذلك اتهمه مؤرخون آخرون بالسلفية والرجعية وفقدان الحرص على مصالح بيت المال ^٤ ، وهي اتهامات مرفوضة دون شك تكفل بردها مؤرخون آخرون مستندين إلى حقيقة واضحة هي أن عهد عمر بن عبد العزيز كان عهد رخاء وراحة نفسية ومادية قل أن تتحقق على هذا النحو ^٥ ..

(ب) فرض الجزية على موالي ما وراء النهر :

روى الطبري أن هشام بن عبد الملك استعمل سنة 109 هـ أشرس بن عبد الله السلمي والياً على خراسان ، وكان أشرس فاضلاً خيراً ، وكانوا يسمونه الكامل لفضله عندهم ^٦ ؛ فلما تولى أشرس عمله قال : ابغوني رجلاً له ورع وفضل أوجهه إلى من وراء النهر فيدعوهم إلى الإسلام ،

^١ د. الرئيس : الخراج 235 ، وانظر د. الطيب النجار : الموالي في العصر الأموي ص 47

^٢ الطبري : السابق 13/4 ، البلاذري : فتح البلدان 416

^٣ راجع د. الرئيس الخراج 285

^٤ فلوتين : السيطرة العربية 115 ، 127 ، د. حسن إبراهيم النظم الإسلامية 297-298

^٥ ابن سعد الطبقات الكبرى 347/5 ، ابن عبد الحكم سيرة عمر بن عبد العزيز 69 ، ابن كثير البداية والنهاية

200/9 ، د. الرئيس : الخراج 251-256 د. عماد الدين خليل : ملامح الانقلاب الإسلامي 125-127

^٦ الطبري : السابق 52/7

فأشاروا عليه بأبي الصيذاء طريف بن صالح مولى بنى ضبة ، فقال أبو الصيذاء : إنما أخرج على شريطة أن من أسلم لا تؤخذ منه الجزية ؛ فقال أشرس : نعم ؛ فشنخس أبو الصيذاء إلى سمرقند ، فدعا أهلها ومن حولهم إلى الإسلام على أن توضع عنهم الجزية ، فسارع الناس إلى الإسلام ، فكتب " غوزك " — وهو زعيم من زعماء الصغد^١ — إلى أشرس : أن الخراج قد انكسر ، فكتب أشرس إلى صاحب الخراج — وهو الحسن بن أبي العمرطة الكندي : " إن في الخراج قوة للمسلمين ، وقد بلغني أن أهل الصغد وأشباههم لم يسلموا رغبة ، وإنما دخلوا في الإسلام تعوذا من الجزية ، فانظر من اختن وأقام الفرائض وحسن إسلامه وقرأ سورة من القرآن فارفع عنه خراجـه " ، ثم عزل الأشرس — بعد فترة — ابن أبي العمرطة عن الخراج دون الحرب ، وصيره إلى هاني بن هاني ، وضم إليه الأشحيد ، فقال ابن أبي العمرطة لأبي الصيذاء : لست من الخراج الآن في شيء ، فدونك هانئا والأشحيد ، فقام أبو الصيذاء بمنعهم من أخذ الجزية ممن أسلم ، فكتب هاني : إن الناس قد أسلموا وبنوا المساجد ، فجاء دهاتين بخارى إلى أشرس فقالوا : ممن تأخذ الخراج وقد صار الناس كلهم عربا (أي مسلمين) ؟ فكتب أشرس إلى هاني وإلى العمال : خذوا الخراج ممن كنتم تأخذونه منه ، فأعادوا الجزية على من أسلم ، فاعتزل من أهل الصغد سبعة آلاف ، فلووا على عدة فراسخ من " سمرقند " ، وخرج إليهم أبو الصيذاء وجماعة من أهل الرأي من المسلمين لينصروهم ؛ وقد استطاع عامل " أشرس " حبس أبي الصيذاء ، واستخف هؤلاء العمال بعظماء المعجم والدهاتين وألحوا في جباية الخراج ... فكفرت الصغد وبخارى ، واستجاشوا الترك ، وجرت وقائع عنيفة بين الترك والمسلمين لم تنته حتى عزل هشام بن عبد الملك أشرس وأعاد واليه الأسبق أسد بن عبد الله القسري ، فحارب الترك حتى انتصر عليهم ، وتفرقوا بعده^٢ .

ومن العرض الموجز السابق يتضح ما يلي :

— إن حاكم هذه البلاد الذي فرضت الجزية في عهده على الموالي لم يكن متهمًا في دينه أو غيرته الإسلامية ، كما لم يكن متهمًا بمعاداة الموالي ، حيث كان خيرا فاضلا ، يسمونه الكسامل لفضله ، كما أنه بادر بالدعوة إلى الإسلام في هذه المناطق التي عانت من التمرد والانقراض عدة مرات فيما مضى ، ولما أراد عملا منظما في هذه الدعوة أسند هذه المهمة إلى أحد الموالي البارزين ، ووافقه على شرطه برفع الجزية عمن يسلم ويستجيب لدعوته .

— إن أول شكوى وصلت ذلك الحاكم كانت من دهاتين البلاد وجباة الخراج وزعماء الناس ، فهم الذين تعالى صياحهم — بدءا من زعيم الترك غوزك — بنقص الخراج وانكساره ، نتيجة إسراع الأهالي إلى الإسلام ، وخطورة ذلك على جباية الأموال ؛ فأوعزوا إلى الوالي أشرس بالشك في إسلام

^١ الصغد : بلاد تتصل ببخارى وشرقيها ؛ وقصبتها سمرقند (معجم البلدان ٨٦/٥)

^٢ الطبري : السابق ٥٤/٧ — ٥٥ ، ابن الأثير : الكامل ٢٠٢/٤

هؤلاء الموالي ، فأمر بامتحان من يسلم بالختان ليتأكد من أن إسلامهم قناعة بالدين وليس فرارا من الجزية ، ولكنهم استمروا في تخويف أشرس من نقصان الخراج ، وحلوه مسئولية ذلك ، وهو يعلم أنه مطالب بخراج ولايته من الخلافة ، فكان قراره الأخير بإعادة فرض الجزية على من يسلم من أهل البلاد ..^١

ووقوف الدهاقين ضد تيار الدخول في الإسلام له أسبابه التي يعود بعضها إلى ظروف فتح هذه البلاد ، والامتيازات التي تمتع بها جباة الخراج من هؤلاء الدهاقين نتيجة هذه الظروف ؛ فقد فتح كثير من مدن خراسان وما وراء النهر صلحا ، وترتب على ذلك فرض ضريبة محدودة يتكفل جباة الخراج بتوزيعها على السكان ، وجبايتها منهم ثم تسليمها للحكومة ، مما كان يعني استمرار الامتيازات والمكانة الاجتماعية التي كان يتمتع بها هؤلاء الدهاقين قبل الفتح ، وربما أتاحت لهم هذه الحرية في تنظيم الجباية وحقيقة كون ديوان الخراج هناك بالفارسية — مما يعنى غياب عمليات المراجعة والمراقبة العربية اللصيقة — فرصة فرض ضرائب أكثر من المحددة لهم ، وضم هذه الأموال إليهم .. وكان دخول كثير من هؤلاء السكان في الإسلام يعني سقوط هذه الضريبة عنهم ، وبالتالي زيادتها على من ظل على شركه منهم ، مما كان يهدد بثورة هؤلاء الفارمين من المشركين الذين ستزيد ضريبتهم ، أو ينقص قيمة الضريبة المحددة على المدى الطويل ، كما كان يقلل فرص الدهاقين في التلاعب في الضرائب لصالحهم ، ويهدد إحساسهم بالسيطرة على الأهليين الذين سيصبحون بإسلامهم مساوين لهم في الحقوق والواجبات والمكانة الاجتماعية ، بعد أن كانوا تابعين خاضعين لهم .. ولذلك كان البديل المتاح أمامهم هو محاربة دخول هؤلاء السكان في الإسلام ، وإثارة مخاوف الأمراء المسلمين منهم ، وتشكيكهم في حقيقة إسلام هؤلاء ، وأنهم إنما لجئوا إلى الإسلام تعوذا من الجزية .

وقد ذكرت عدة روايات تؤكد ذلك التصور، منها ما رواه الترشيحي مؤرخ بخارى من أن تغشادة صاحب بخارى كتب إلى أسد القسري والي الأمويين على خراسان وما وراء النهر : إن بخارى رجلا يلقي بذور الفتنة ويشق عصا الطاعة ، ويزعم أتباعه أنهم مسلمون ، وليسوا بمسلمين، فإنهم لم يسلموا إلا بالاستهتة ، وقد خدع أسد بهذا الكلام ، فكتب إلى نائبه على بخارى مقاتل بن شريك أن يقبض على هؤلاء ، ويسلمهم إلى تغشادة ، الذي أعدم أربعمائة منهم ، وأرسل الباقين إلى أسد بخراسان^١ .. وفيما بعد — في ولاية نصر بن سيار على خراسان — جاءه دهقانان من أقارب تغشادة يشكوا إلى نصر لأنه غصب منهما أرضا باتفاق مع أمير بخارى العربي واصل بن

^١ راجع فان فلوتن : السيطرة العربية ١٠٥ — ١٠٧ ، ١١٠ — ١١١

عمرو ، وقالوا : لقد اتحد هذان ، وهما يأخذان أملاك الناس ^١ . ولذلك فقد أصاب دينيت حين قال :
 " إن الموالي الذين كانوا يستغلون إنما كان يستغلهم أبناء جلدكم " ^٢ ..

ولكن ما صنعه أشرس السلمي من فرض الجزية على من أسلم من وراء النهر لم يكن إجراء واسع النطاق ، إذ إن المدن فقط في خراسان وما وراء النهر هي التي فتحت صلحا على وظيفة محددة ، وكانت تمر بالظروف السابق بيائها ، أما القرى والرساتيق التابعة لها فقد فتح معظمها عنوة ، وكان عليها جزية وخراج ^٣ ؛ كما أن هذه المشكلة لم تستمر طويلا ؛ إذا إنما ظهرت في ولاية أشريس سنة ١١٠ هـ ، وانتهت بتنظيم نصر بن سيار للخراج والجزية في هذه البلاد سنة ١٢١ هـ ..

* فكيف حل نصر هذه المشكلة ؟

لقد اكتشف نصر بعد توليه هذه البلاد ألعايب الدهاقين وعمال الخراج فوجد مسلمين يدفعون الجزية على حين يعفى منها مشركون كثيرون ا فقضى بأنه " أيما رجل من المسلمين كان يؤخذ منه جزية من رأسه ، أو ثقل عليه في خراجه وخفف مثل ذلك عن المشركين فليرفع ذلك عنه ، وليحول إلى المشرك " ؛ فما كانت الجمعة الثانية حتى أتاه ثلاثون ألف مسلم كانوا يؤدون الجزية عن رءوسهم ، وثمانون ألف رجل من المشركين قد ألقيت عنهم جزيتهم ؛ فحول ذلك عليهم ، وألقاه عن المسلمين ، ثم نظم نصر أمر الخراج وصنفه ووضع مواضعه ^٤ ، فأحسن الولاية والجباية ، وعمرت خراسان في عهده عمارة لم تعمر قبلها ^٥ ، ثم صالح نصر أهل الصغد على شروط سخية ، وأرسل إليهم يدعوهم إلى الرجوع إلى بلادهم وأعطاهم كل ما أرادوا وأجاز الخليفة هذا الصلح ^٦ ، فانتهت الحرب وعاد السلام ...

١- استغلال الصوابة:

الصوابة هي تلك الأراضي التي قتل أصحابها أو هربوا عنها أثناء الفتح الإسلامي ، ويدخل ضمنها أراضي كسرى وأهله في العراق والمشرق ^٧ وعلى ذلك فهذه الأرضين " بمحلة المال الذي لم يكن لأحد ، ولا في يد وارث ؛ فللإمام العادل أن يجيز منه ، ويعطى من كان له غناء في

^١ السابق ١٠٤ — ١٠٥ ، د. فهمي عبد الجليل : التنظيم الإسلامي للأرض الزراعية ١٧٢ عن الترشيحي : تاريخ بخارى ٨٩

^٢ الجزية والإسلام ١٩٦ نقله عنه د. فهمي عبد الجليل : مرجع سابق ١٧٣

^٣ راجع د. فهمي عبد الجليل : مرجع سابق ١٥٢ — ١٥٧

^٤ الطبري : السابق ٧٣/٧ ، ابن الأثير ٢٤٣/٤

^٥ الطبري : السابق ١٥٨/٧

^٦ السابق ١٩٢/٧

^٧ أبو يوسف : الخراج ٥٧ ، البلاذري : فوح البلدان ٢٧٢

الإسلام ، ويضع ذلك موضعه ولا يجاي " ١ ، ويزعم اليعقوبي أن معاوية أخرج من كل بلد ما كانت الفرس تستصفيه لأنفسها من الضياع العامرة ، وجعلها صافية لنفسه ؛ فأقطعها جماعة من أهل بيته ٢ ، كما زعم أن صاحب الخراج كان يحمل إلى معاوية من غلة صوافيه في العراق مائة ألف ألف درهم ، وأنه كان يعطي منها صلاته وجوائزه ، وأنه صنع في صوافي الشام والجزيرة واليمن مثلما صنع في صوافي العراق ، وأنه استصفها وصيرها لنفسه خاصة ، وأقطعها أهل بيته ٣ .

والرد على هذه الشبهة يتلخص في عدة نقاط :

أ) إن هذا الإقام مما يفترده اليعقوبي المتحامل على الأمويين عادة ، ولا نجده في المصادر التاريخية الأخرى ؛ بل إن كتب الخراج وغيرها تنص على أن صوافي العراق ظلت ملكا عاما للدولة حتى احترقت الدواوين في موقعة الجمامم أثناء ثورة ابن الأشعث ، فذهبت سجلات هذه الأراضي ، " وذهب ذلك الأصل ودرس " ٤ ..

ب) وليس يعقل أن يجيء معاوية من صوافي العراق وحدها مائة ألف ألف درهم في حين لم يجب عمر ابن الخطاب من صوافي العراق إلا سبعة آلاف ألف درهم ٥ وفي حين أن خراج العراق كله في عهده لم يتجاوز مائة ألف ألف وقد نقص بعده ٦ ..

ج) وإذا لم يصح ذلك الزعم عن العراق فإنه لا يصح كذلك أن معاوية استولى على صوافي الحجاز والشام ، فقد روى البلاذري أن معاوية اشترى أرضا بوادي القرى من أصحابها اليهود ، وأنه أصلح أرضا مواتا ضمت إليها ٧ ؛ وبعيد إذا كانت الصوافي في سائر البلاد قد صارت لمعاوية أن يكون لديه باعث من أجل شراء أو استصلاح أراض جديدة بالحجاز ، إذ إن ثلثي أراضي وادي القرى صارت صافية للمسلمين منذ عهد عمر بن الخطاب عندما أجلى عنها اليهود ٨ ، ولم يقطع معاوية أو خلفاؤه

١ أبو يوسف : السابق 58

٢ اليعقوبي : السابق 233/2

٣ السابق 334/2

٤ البلاذري : فتوح البلدان 272 ، أبو يوسف الخراج 57

٥ البلاذري : السابق 272

٦ السابق 270 ، وقد سبق القول بأنه كان في عصر الحجاج أربعين ألف ألف درهم ..

٧ البلاذري : السابق 238

٨ د. فهمي عبد الجليل . الأمويون والقيء ص 79-80 ، مقال بمجلة ندوة التاريخ الإسلامي كلية دار العلوم ١٠ المجلد السابع سنة 1409 هـ ، 1989 م

شيئا من صوافي الحجاز إلا فذك التي أقطعها معاوية مروان بن الحكم إقطاع إجارة ، ثم آلت إلى عمر ابن عبد العزيز الذي ردها إلى ما كانت عليه على عهد النبي ﷺ لينا لابن السبيل^١ ..

د) أما صوافي الشام فقد تصرف معاوية في بعضها فأقطع منها أناسا من قريش وأشرف العرب^٢ ، ولكنه كان إقطاع إجارة لا إقطاع تمليك ، ولعله اقتدى في ذلك بصنيع عثمان بن عفان حين أقطع طائفة من صوافي العراق لنفر من الصحابة فقبلوا ذلك^٣ ..

ولكن ذلك لم يكن شأن معاوية أو غيره في كل صوافي الدولة ، والمرجح أن صوافي الشام كانت محدودة المساحة ، ولم تكن في الوفرة والاتساع كصوافي العراق^٤ التي لم يقطع الأمويون منها أحدا ، وإنما كانت قطائعهم من الأرض الموات التي تحتاج إلى الاستصلاح وشق الأنهار^٥ ...

هـ) ولكن طول العهد بما أقطع من صوافي الشام ، وقد استمرت زمن عبد الملك والوليد وابنه سليمان ، قد جعل أصحابها يتمتعون بكل حقوق الملكية من بيع وهبة وتوريث^٦ ، وقد أجاز ذلك بعض الفقهاء فقال أبو يوسف^٧ " إن من أقطعه الولاة المهديون فليس لأحد أن يرد ذلك " ، فلما تولى الخلافة عمر بن عبد العزيز رد ما كان الخلفاء قبله أقطعه من هذه الصوافي مما لم يكن قد تمت فيه تصرفات شرعية بالبيع أو الهبة أو الميراث^٨ ، إذ رأى في إقطاعها شبهة استغلال السلطة لإقطاع الأقارب ، ومن المرجح أن تكون هذه جزءا من المظالم التي تحدث المؤرخون عن رد عمر بن عبد العزيز إياها^٩ ، وكيلا تتحول هذه الإقطاعات بمضي الزمن من إقطاع إجارة إلى إقطاع تمليك طلب عمر من عماله أن يعطوها إلى الفلاحين مزاعة^{١٠} ..

^١ راجع البلاذري : فحرج البلدان 42-46 ، ابن الجوزي : سيرة عمر بن عبد العزيز 136 السيوطي: تاريخ الخلفاء

231-232 د. فهمي عبد الجليل : المقال السابق 80-81

^٢ ابن عساکر تاريخ دمشق ج1 ص 595

^٣ د. فهمي عبد الجليل : مقال سابق 77 ، البلاذري : السابق 273

^٤ د. فهمي عبد الجليل : التنظيم الإسلامي للأراضي الزراعية 197 ، المقال السابق 78

^٥ د. فهمي عبد الجليل : الأمويون والفيء ص 81

^٦ ابن عساکر : تاريخ دمشق 595/1

^٧ الخراج 58

^٨ ابن عساکر السابق 596/1

^٩ ابن سعد الطبقات الكبرى 341/5 ، 373، 343 ، ابن الأثير الكامل 164/4 ، كرد علي : الإسلام والحضارة

العربية 175/2

^{١٠} يحيى بن آدم : الخراج 59

— استغلال السلطة في إحياء الأرض الموات :

إذا كان ما مضى هو موقف الأمويين من إقطاع الصوافي فماذا كان موقفهم من إحياء الأرض الموات الذي كان ركيزة مهمة من ركائز النهضة الزراعية في عهدهم ؟
نحن نعلم أن الإسلام قد حض على إحياء الأرض وجعل " من أحيا أرضا ميتة فهي له "، ومن تشجيعه ذلك أن النبي ﷺ قد أقطع بعض الأرض الموات بعض الصحابة وكذلك فعل أبو بكر وعمر^١، واستحسن العلماء ذلك الإقطاع فقال أبو يوسف^٢ : " ولا أرى أن يترك الإمام أرضا لا ملك لأحد فيها ولا عمارة حتى يقطعها ، فإن ذلك أعمر للبلاد وأكثر للخراج " ؛ وقد أقطع الأمويون من هذه الأراضي بعض أشرف الناس القادرين على استصلاحها^٣ ، وكان زياد بن أبي سفيان يقطع الرجل قطعة من الأرض تبلغ مساحتها ستين جريا ، ثم يدهه عامين ، فإن عمرها أصبحت له ، وإلا استردها منه^٤ ..

وقد ساهم رجال بني أمية في ذلك الإنجاز ، فأحيوا موات أرض عديدة بعد أن أنفقوا عليها نفقات طائلة ، وبعض الأخبار الواردة عن ذلك تدل على عزم أكيد وتضحية كبيرة ؛ لا عجب أن عادت بعد على أصحابها بالخير .. فقد أقطع الوليد بن عبد الملك — وقيل بل عمر بن عبد العزيز — سعيد بن عبد الملك بن مروان ، وكان ناسكا يدعى بسعيد الخير — أرضا كانت غيضة ذات سباع ، فحفر هنالك نهرا عرف بنهر سعيد وعمر ما حولها^٥ ..

وانبثقت البثوق من نهر دجلة في خلافة الوليد بن عبد الملك ، فهددت الأراضي الخيطة بها بالفرق ، وكتب الحجاج إلى الوليد أنه قدر لسد هذه البثوق ثلاثة آلاف ألف درهم ؛ فاستكثرها الخليفة ؛ فقال له مسلمة بن عبد الملك : أنا أنفق عليها على أن تقطعني الأرضين المنخفضة التي يبقى فيها الماء بعد إنفاق ثلاثة آلاف ألف درهم ، يتولى إنفاقها ثقتك ونصيحتك الحجاج ، فأجابته الخليفة إلى ذلك ، فحصلت له أرضون واسعة ، وحفر لها نهرا ، وتآلف الأكره والمزارعين لعمارتها^٦ . واستقطع عنبسة بن سعيد من يزيد بن عبد الملك دار الروميين ، وكانت مزبلة لأهل الكوفة تطرح فيها القمامات والكساحات ، فأنفق عنبسة على نقل ترابها فقط مائة وخمسين ألف درهم^٧ ..

^١ البلاذري فوح البلدان 26 — 27

^٢ الخراج 61

^٣ راجع البلاذري : السابق 357 حيث يورد أمثلة عديدة على ذلك ..

^٤ السابق 310 — 311

^٥ السابق 183 — 184

^٦ السابق 292

^٧ السابق 280

ووجه الأمويون عنايتهم إلى استزراع منطقة البطائح ، وهي الأراضي التي تكونت نتيجة فيضان الأنهار منذ عهد كسرى ، وقد استصلح معاوية منها أرضا بلغ خراجها خمسة آلاف درهم^١ ، واستمرت عناية الأمويين بها في خلافة عبد الملك حيث استصلح الحجاج هناك أراضي واسعة وحفر لها نهري النيل والزاب ، وبني مدينة النيل ومصرها ، وبني أيضا مدينة واسط ، وأتى بخلق كثير من إقليم السند ومعهم أولادهم وأهلهم وجواميسهم فأسكنهم المنطقة الوسطى من نهر كسكر ، فنشطوا في الزراعة وغلبوا على منطقة بالطيحة وتنازلوا بها^٢ ، ثم اهتم هشام بن عبد الملك بهذه المنطقة اهتماما خاصا لزيادة موارد الدولة فاختار لجبايتها نظام القبالة حيث يعطيها لمن يتعهد بدفع أكبر مبلغ مقابل استغلالها^٣ ...

وهكذا اجتمعت جهود الدولة مع جهود القادرين من أفرادها على إحياء الأراضي المسوات واستغلالها لمصلحة بيت المال في النهاية ..

ولكن ذلك العمل العظيم لم يخل من سلبات وتجاوز كشأن أعمال بني البشر.. كما لم يخل من محاولات لتشويه بني أمية واختلاق الأخبار عليهم ..

ومن النوع الأخير ما يرويهِ البلاذري عن عباس بن هشام الكلبي عن أبيه أن يزيد بن عبد الملك كتب إلى عمر بن هبيرة أنه ليست لأمر المؤمنين بأرض العرب خربة ، فسر على قطائع ، فخذ فضولها لأمر المؤمنين ، ففعل حتى ضج الناس فأمسك^٤ .. وابن الكلبي معروف بمغالاته في التشيع ، وبفضه بني أمية ، ويدل على فساد روايته أن الخليفة أقطع ابن هبيرة ألفا وخمسمائة جريب من أراضي آل المهلب ؛ ولو كان يرغب في اقتناء القطائع لأخذها لنفسه^٥ ، وقد تعرض يزيد بن عبد الملك لتشويه كبير كما مر بنا ..

ومن أمثلة السلبات والتجاوزات أن بعض الولاة استباح لنفسه استصلاح هذه الأراضي ، وهذا في الأصل أمر مباح ، فإن من أحيا موات أرض فهي له ، ولكن من المرجح أن يفتح ذلك الباب أمام الولاة الفرصة لاستغلال مناصبهم في ذلك العمل الذي سيعود عليهم بربح عظيم .. ومن الأمثلة الصارخة على ذلك ما فعله خالد القسري في أثناء ولايته على العراق ، فقد استصلح أرضا غلت عليه

^١ السابق: 291

^٢ السابق: 362

^٣ الجهمياري : الوزراء والكتاب 62-66 ، والقبالة : هو أن يجعل الشخص قبلا ، أي كقبلا بتحصيل الخراج وأخذته لنفسه مقابل قدر معلوم يدفعه ، وهو ما عرف فيما بعد بنظام الالتزام (راجع الفيروزآبادي: القاموس المحيط :

مادة : ق ب ل ، وانظر : د. الرئيس : الخراج 279 — 280)

^٤ البلاذري : فوح البلدان 359 — 360

^٥ د. فهمي عبد الجليل : الأمويون والقيء ص 83 حاشية 3 ، وكان سليمان قد أقطع يزيد بن المهلب هذه لأراضي من البطائح ..

ثلاثة عشر ألف ألف درهم ، ويبدو أنه استغل في ذلك منصبه ، حيث كسر الخراج في العراق فعزله هشام ، وأمر واليه الجديد يوسف بن عمر بحبسه وحبس عماله وتعذيبهم حتى استخرج يوسف منه تسعين ألف ألف درهم ^١ ..

وكما حدث من محمد بن مروان بن الحكم عامل الجزيرة الذي استغل بحسيرة الطريخ ، وكانت مباحة للناس ، فحوى صيدها وباعه ، ثم صارت لابنه مروان من بعده ^٢ ، وربما رأى أن صيد البحيرة قبل ذلك كان لا قيمة له وأنه هو الذي أنفق عليها بغية استثمارها حتى آتت أكلها ، فحازها لنفسه جزاء ما أنفق ..

ولكن هكذا دائما تظل أي محاولة للخلفاء أو الولاة موضع شك مادام الغرض منها تكثير الأموال وهم مازالوا في دائرة الحكم مسلطة عليهم الأضواء .. غير أنه لا يصح بحال أن نجعل مسن هذه الاستثناءات السمة العامة للممارسات الاقتصادية في العصر الأموي ...

^١ الطبري : السابق ٧ / ١٤٩-١٥١ ، الجهشباري : الوزراء والكتاب 62-66

^٢ البلاذري : فوح البلدان 203

المبحث الثاني

شبهات حول مصارف الأموال في العصر الأموي

وقد أثار بعض المؤرخين شبهات واسعة حول مصارف الأموال في ذلك العصر ، وذكروا عدة مصارف وسموها بأنها جائرة وغير شرعية .. وسوف نستعرض في هذا المبحث أهم هذه الشبهات ..

١- التفرط في خراج بعض الأقاليم :

أ) إعطاء مصر طعمة لعمر بن العاص :

تعدد الروايات التي تنص على أن معاوية أعطى مصر طعمة لعمر بن العاص لقاء تأييد الأخير له في حربه ضد علي بن أبي طالب ، وجل هذه الأخبار تحوي روحا عدائية لعمر ومعاوية ، وتصور اتفاقهما على حرب علي كما لو كان مؤامرة دنيئة أو صفقة مريبة ، خان فيها الرجلان ربما ودينهما وتاريخهما مقابل عرض زائل أو نصر سريع ، وكأنه من المستحيل أن يبذل ابن العاص نصره لقضية اجتمع حولها آلاف الرجال في الشام وفي غيرها — وهي الطلب بدم عثمان — إلا إذا نال ولاية مصر وخراجها لنفسه ، وبعض هذه الروايات تحوي سبابا لهذين الصحابين ؛ كأن تزعم أن عمرا فضل ولاية مصر على حسنى الآخرة وصرح بذلك فقال : " إنما أردنا هذه الدنيا " ^١ ، أو أنه قال لمعاوية : " لا أعطيك من ديني حتى آخذ من دنياك " ^٢ أو قوله : " إنما أباعك بما ديني " أي بمصر ^٣ ، أو قوله لمعاوية : " ولولا مصر وولايتها لركبت المنجاة منها ، فإني أعلم أن علي بن أبي طالب على الحق وأنت على ضده " ^٤ ؛ إلى غير ذلك من روايات ^٥ ..

وهناك عدة دلائل تضعف من قيمة هذه الرواية التي لاقت رواجاً واستقراراً منها :

^١ الطبري : السابق 561/4 رواية الواقدي ، ابن الأثير الكامل 141/3

^٢ الإمامة والسياسة 98/1

^٣ ابن عبد ربه : العقد الفريد 345/4

^٤ المسعودي : مروج الذهب 29/3

^٥ نصر بن مزاحم : وقعة صفين 237 ، وسلسلة هذه الرواية كلهم من الروافض (راجع : محمد بن صامل السلمي منهج كتابة التاريخ الإسلامي ص 267) ، الكندي : ولاية مصر وقضاها 31 ، الديوري : الأخبار الطوال 222 ،

الطبري : السابق 98/5 ، ابن سعد : الطبقات الكبرى 255/4

— ما عرف من تقوى معاوية وعمرو ، وتاريخهما المضىء في خدمة الإسلام منذ أسلمنا ^١ ..
— أنه من المرجح أن تكون بيعة أصحاب معاوية له آنذاك كانت على الطلب بدم عثمان ، وهو لم يكن خليفة ، ولم يكن يجاهر بطلب الخلافة حتى يتصور أن يوزع خراج أقاليم لا يملك من أمرها شيئا على أصحابه ، وهو آنذاك مهدد في ولايته بالشام ..
— ذكر أبو مخنف أحد رواة القرية السابقة ، أن دافع معاوية إلى فتح مصر وأخذها من يد أنصار علي بن أبي طالب سنة 38 هـ — وكان عمرو قائده في هذه الحملة — أنه كان " يرجو أن يكون إذا ظهر عليها ظهر علي حرب علي لعظم خراجها " ^٢ .. فكيف يهب معاوية ذلك الخراج كله لعمرو وهو في مسيس الحاجة إليه ؟ .

— أن معاوية قد كتب بعد استخلافه إلى عامله على خراج مصر — وردان — أن زد على كل امرئ من القبط قيراطا ، فرد عليه : كيف وفي عهدهم أن لا يزداد عليهم ؟ ^٣ ، " ولم يل وردان خراج مصر لمعاوية إلا في ولاية عمرو بن العاص لأن من ولوا مصر بعد موت عمرو — وهم عتبة بن أبي سفيان وعقبة بن عامر ومسلمة بن مخلد — كانوا يتولون صلاحها وخراجها ، وهذه الرواية صريحة قاطعة في الدلالة على اهتمام معاوية بزيادة حصيلة الخراج في مصر ، في ولاية عمرو بن العاص عليها ، وهذا الاهتمام لا معنى له إلا إذا كان فائض الخراج في مصر يحمل إلى معاوية في دمشق ليواجه به وجوه الإنفاق المتنوعة ^٤ ..

— أن معاوية لم يكن يستحل أن يتنازل عن خراج مصر — وهي من أغنى أقاليم الدولة الإسلامية آنذاك — لفرد واحد ، وهو يعلم أنه حق الأمة كلها ، وأنه لا يملك التنازل عنه ، وقد روى ابن تيمية عن عطية بن قيس قال : سمعت معاوية بن أبي سفيان يخاطبنا يقول : إن في بيت مالكم فضلا بعد أعطيائكم وإني قاسمه بينكم ؛ فإن كان يأتينا فضل عاما قابلا قسمناه عليكم ؛ وإلا فلا عتبة على ، فإنه ليس بمالي ، وإنما هو مال الله الذي أفاءه عليكم " ^٥ .

وكانت رقابة المجتمع المسلم في ذلك العهد المبكر من عمر الإسلام لصيقة ، لا ترضى الدنيا في الدين ، فقد زعموا أن أهل الكوفة منعوا الحسن بن علي من حمل خراج إقليم دارابجرد في فارس والذي قيل إن معاوية صاحبه عليه ؛ وقالوا : هو فيتنا ، وسيأتي بيان لذلك ، كما أنه في مصر نفسها ، وبعد فترة

^١ راجع ما سبق من هذا الكتاب عن تدين معاوية ومناقبه .. وراجع عن تدين عمر بن العاص وفضله : السرمذي : الجامع الصحيح 351/5 ، الحديثين رقمي 3933، 3934 تحت عنوان مناقب عمرو بن العاص ، الواقدي : فتوح الشام 14/2 ، الكندي : ولاية مصر وقضاها 32-34

^٢ الطبري : السابق 97/5

^٣ البلاذري : فتوح البلدان 219

^٤ د . فهمي عبد الجليل : الأمويون والقيء : مقال سابق ص 67-68

^٥ منهاج السنة النبوية 185/3

من موت عمرو بن العاص ، أعطى مسلمة بن مخلد عامل معاوية عليها أهسل الديوان أعطياهم وأعطيات عيالهم وأرزاقهم وأرزاق الكتبة وغير ذلك ، ثم بعث إلى معاوية بستمائة ألف دينار فضل خراجها ، فلما نهضت الإبل هذه الأموال إلى الشام لقيهم برح بن كسحل المهري فقال : ما هذا ؟ ما بال مالنا يخرج من بلادنا ؟ ردوه ، فردوه حتى وقف على باب المسجد فقال : أخذتم أعطياتكم وأرزاقكم وعطاء عيالكم ونوائكم ؟ قالوا : نعم ، قال : لا بارك الله لهم فيه ، خذوه ، فساروا به .. فمن لم يقبلوا ذهاب فضل الخراج بعد أخذ حقوقهم إلا بالكاد كيف يقبلون ذهاب الخراج كله إلى فرد واحد ؟

— إذا أضفنا إلى ذلك ما نعرفه من تنافس الأمصار الإسلامية مع بعضها ، ووجود معارضة للأمويين في مصر كانت حديثة العهد منذ تبعية مصر لعلي بن أبي طالب حتى فتحها عمرو بن العاص سنة 38 هـ ، لآزدنا يقينا أن أهلها لم يكونوا يقبلون ما يزعمه الرواة حول إعطائها طعمة لابن العاص .. وعلى ذات السبيل نذكر أن من رجال مصر من بذل في سبيل نصرة معاوية مثلما بذل عمرو بن العاص إن لم يفقه ؛ كمعاوية بن حديج وأصحابه من العثمانية ، وهؤلاء لا يقبلون بحال أن يتنازل عمرو عليهم كل هذا الامتياز ، لقد مر بنا فيما مضى أن معاوية بن حديج هذا قد أرجع ابن أخته معاوية — عبد الرحمن بن أم الحكم — الذي ولاه معاوية مصر ، من قبل أن يدخلها ، ورفض أن يتولى إمارتهم ، وردده إلى الشام على نحو غير كريم ، فما استطاع معاوية أن يفضب ابن حديج ..

ب (التنازل عن خراج " دارابجرد " للحسن بن علي :

زعم بعض المؤرخين أن معاوية تنازل للحسن عن خراج "دارابجرد" وأن يعطيه مما في بيت مال الكوفة مبلغ خمسة آلاف ألف درهم مقابل تنازل الحسن عن الخلافة لمعاوية ، وأن الحسن قد أخذ ما في بيت مال الكوفة ولكنه لم يستطيع الحصول على خراج " دارابجرد " ؛ إذ إن أهل الكوفة قد منعوه منه ، ويزعمون أن ذلك كان بتحريض من معاوية ^٢ .. وهكذا لم يحدث أن استولى الحسن على خراج هذا الإقليم ، سواء كان ذلك بتحريض معاوية أو بمبادرة من الكوفيين ..

على أن هذه الرواية تفرض من شأن الحسن ومعاوية معا ، وتجعلهما في موقف التواطؤ على أكل أموال المسلمين بالباطل ^٤ ، وقد روى الطبري بسنده عن الزهري أن الحسن كتب شروطه في سجل وأرسله إلى معاوية ، في ذات الوقت الذي أرسل إليه معاوية صحيفة بيضاء ليكتب فيها ما شاء ، فطلب الحسن أضعاف ما كان طلبه في صحيفته السابقة ، فلما التقيا سأله الحسن أن يفي له بما

^١ المقرئ : الخطط 127/1

^٢ راجع الفصل الخاص بدعوى الاستبداد السياسي عند الأمويين ..

^٣ ابن الأثير : الكامل 203/3

^٤ د. فهمي عبد الجليل : الأمويون والفيء ص 68

كتبه إليه آخرها ، بينما أصر معاوية على أنه ليس من حقه إلا ما طلبه أولا ، فاختلفا ، فلم ينفذ معاوية للحسن من الشروط شيئا^١ ، والزهرى أولى بالثقة من عوانة الذي روى قصة التنازل السابقة ؛ فهو من رواة الحديث الذين لم يشكك أحد في أمانتهم في النقل والثقة بهم^٢ .. ولا يعنى القول بأن معاوية لم ينفذ شيئا من مطالب الحسن أنه كان يخل عليه بمال أو مكانة ، وسوف نرى فيما بعد كيف زاد عطاءه وكيف كان إنفاق الحسن !

2. التفرقة في العطاء :

أول من سن ديوان العطاء في الإسلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه أما قبل ذلك في عهد الرسول ﷺ فكانت غنائم الحرب توزع على المسلمين فور انتهاء المعارك ، وقد قرر الفقهاء أن " الغنيمة ليست كمباح اشترك فيه ناس ؛ مثل الاصطياد والاحتطاب ؛ فإن ذلك الفعل مقصوده هو اكتساب المال بخلاف الغنيمة فإن المقصود الجهاد وإعلاء كلمة الله ، والغنائم لم تبح لمن كان قبلنا ؛ وإنما أبيحت لنا معونة على مصلحة الدين وأهله ، فمن نفع المجاهدين بنفع استعانوا به على تمام جهادهم ؛ جعل منهم ؛ وإن لم يحضر (المعركة) فإذا رأى الإمام إشراك من فيه منفعة المسلمين في الغنيمة جاز^٣ ، كما يجوز أن يفضل بعض الغنائم على بعض للمصلحة في أصح القولين ، وهو إحدى الروايتين عن أحمد بن حنبل ، ويدل عليه إعطاء النبي ﷺ المؤلفه قلوبهم من غنائم حنين ، وكان شيئا كثيرا لا يحتمله الخمس^٤ ..

فتقرر بذلك أن تفضيل بعض الناس في توزيع الغنائم أمر مباح وقد يكون مستحبا إذا اقتضت مصلحة المسلمين ذلك ؛ وإن كان ذلك يزيد في غنائمهم عن بقية المسلمين ، ثم كثرت بعد ذلك الغنائم انجذوبة إلى حاضرة المسلمين نتيجة اتساع نطاق الغزو زمن عمر بن الخطاب فاستشار أصحابه وانتهى أمره إلى تدوين ديوان العطاء ليكفل توزيعه على نحو معروف ، وفضل أصحاب السابقة والقرابة من النبي ﷺ على من عداهم ، ولعله من الجدير بالذكر هنا أن بعض الصحابة تخوفوا من تدوين ذلك الديوان مثل أبي سفيان بن حرب الذي قال لعمر : أديوان مثل ديوان بني الأصفر (يعنى الروم) ، إنك إن فرضت للناس اتكلوا على الديوان وتركوا التجارة ، فقال عمر : لابد من هذا ، فقد كثرت فيء المسلمين^٥ ، ومعنى هذا أن عمر كان يقر أبا سفيان على تخوفه ، ولكنه لم يجد وسيلة أخرى يلقي بها عن نفسه تبعة هذه الأموال خيرا من هذه الوسيلة ، ورغم ذلك فإنسه من

^١ الطبري : السابق 162/5 - 163

^٢ د. فهمي عبد الجليل : السابق 69

^٣ كما أشرك الي (ص) عثمان بن عفان وطلحة في غنائم بدر وكانوا عنهما غائبين ..

^٤ ابن رجب الحنبلي : الاستخراج لأحكام الخراج ص 26

^٥ البلاذري : فترح البلدان 444

الضروري أن تذكر أن أعداد المسلمين زمن عمر كانت أقل بكثير من أعدادهم زمن الأمويين لما فتحت عليهم المشرق والمغرب ودخل في الإسلام أجناس شتى ، وأنه بعد أن فضل عمر من سبق إسلامه وشهد مع النبي غزواته وأزواج النبي وعمه وقرابته ؛ وكان عطاء هؤلاء متميزا وكثيرا ، كمال عطاء من تأخر إسلامه كأهل مكة وعامة الناس ثمانمائة درهم في العام^١ ؛ وقيل إنه لم ينقص أحدا عن ثلاثمائة^٢ ، وهذه المبالغ لم تكن كبيرة بمقياس ذلك العصر ؛ ولكن كان أمرا جديدا على العرب فيه ضمان لهم ومعونة .

ويجب أن نلاحظ أن ذلك العطاء يعطى في الأصل للمجاهدين ، وكان الأمر كذلك في عهد عمر حيث كان المسلمون جميعا تحت طلب الجهاد في الساحات المفتوحة أمامهم ؛ ولذلك فإن عمر لم يعط لأهل مكة أحيانا عطاءهم ولم يضرب عليهم بعثا للجهاد وقال : كذا وكذا^٣ ، أي أن هذا العطاء مقابل ذلك الجهاد ؛ وكان كذلك الحال في عهد عمر بن عبد العزيز الذي كتب إلى عامله أبي بكر بن حزم أن لا يفرض لتاجر ، فقال سليمان بن يسار الفقيه لما علم ذلك " أصاب عمر ؛ التاجر مشغول بتجارته عما يصلح المسلمين^٤ ، وجاء إليه القاسم بن مخيمرة فطلب منه قضاء دينه فقضاه ثم قال له : اغني عن التجارة ، قال عمر : بماذا ، قال بفريضة ؛ ففرض له^٥ ، وكان عمر ابن عبد العزيز يكتب إلى ولاته حين يخرج العطاء : " لا يقبل من رجل له مائة دينار إلا فرس عربي ودرع وسيف ورمح ونبل"^٦ ؛ أي عدة الجهاد .

إن هذه المقدمة لا بد منها لفهم مدى شرعية ما نسب إلى الأمويين من أنهم كانوا يفرقون بين المسلمين في العطاء ، فيفضلون أهل الشام على من عداهم^٧ ، فقد كانوا أنصارهم المخلصين ، وهم عماد الجيوش المجاهدة سواء في الشمال في جهاد الروم ، أو في الغرب في فتوح إفريقيا والأندلس ، وهم المحافظون على سلامة الدولة وقمع مخالفها ، وكم استنجد بهم ولاية الأمصار حين خرج عليهم خارجون وعجز جند مصر في الدفاع عن أنفسهم ونظامهم ؛ كما حدث في قتال ابن

^١ راجع أبا يوسف . الخراج ص 42 - 44

^٢ البلاذري . السابق 441 وكذلك ألحق عمر الموالي بالعطاء وقال : " ومن أعنتهم من الحمراء فأسلموا فألحقوهم بمواليهم لهم ما لهم وعليهم ما عليهم ، وإن أحبوا أن يكونوا قبيلة وحدهم فأجلوهم أسوقهم في العطاء " ص 444

^٣ السابق 444

^٤ ابن سعد الطبقات الكبرى 346/5

^٥ السابق : 349/5

^٦ السابق : 351/5

^٧ د الخربوطلي تاريخ العراق 417-418 ، عمر أبو النصر الحضارة العربية (240)

الأشعث^١ ومواجهة ثورة يزيد بن المهلب زمن يزيد بن عبد الملك^٢ وكما حدث في انتفاض البربر الخوارج بإفريقية في عهد هشام^٣ ..

وذلك ضروري أيضا لفهم مبرر الأمويين في منع العطاء عن الثائرين وأنصارهم في بعض الفترات مثلما حدث حين قطع الوليد بن يزيد العطاء عن أهل الكوفة الذين أيدوا ثورة زيد بن علي ابن الحسين^٤ ، أو حين قطع الأمويين العطاء عن بعض خصومهم في بعض الأحيان ، كما يتردد في كتابات بعض المؤرخين ليردودن عن ذلك مبالغات غير مقبولة ولا صحيحة^٥ فقد كان قطع العطاء في ظروف كالسابق ذكرها ولفترات محدودة ؛ وليس من النصفة أن يطلب من الأمويين إعطاء الثائرين على الدولة^٦ مالا جعل في الأصل لنصرتها وللمجاهدين تحت لوائها ، كما أنه ليس من العدل أن يعطوا أناسا اشتغلوا بالحرف والتجارات واعتقاد الأموال عن الجهاد والغزو حيث لم يصبح كل المسلمين آنذاك في صفوف المجاهدين ، وهؤلاء لم يكن العطاء يمثل لهم آنذاك أهمية واضحة ؛ فما أقله في مقابل ما يرمحون في حياتهم الجديدة ..

والفرقة بين المسلمين في العطاء بحسب ولائهم وجهادهم كان أيضا سمة خصوم الأمويين الذين يحاربوهم ، فقد زاد علي بن أبي طالب وابنه الحسن عطاء جند العراق مائة درهم تشجيعا لهم على الصمود في وجه معاوية وجند الشام^٧ ، ولما تغلب المختار بن أبي عبيد على الكوفة وبيت مالهـا فرق أمواله بين أصحابه^٨ ، ولما أرسل ابن الزبير إليه عبد الله بن مطيع ليتولى بدله ولاية الكوفة أراد المختار — الذي كان يخادع ابن الزبير ويدعى الولاء له — أن يصرف عنه عبد الله بن مطيع ، فأرسل إليه من يهدده إن قدم الكوفة ويعرض عليه بدل ذلك مائة ألف درهم ، فقبضها ابن مطيع بالبصرة؛ ولم يرجع إلى خليفته فيما يزعم الرواة^٩ ، وكذلك فعل المختار مع عمر بن عبد الرحمن بن الحارث الذي أرسله ابن الزبير إلى الكوفة بعد ما فشل مع ابن مطيع ؛ حيث رشاه المختار بسبعين ألف درهم

^١ الطبري : السابق ٦ / ٣٣٨

^٢ السابق ٦ / ٥٨٤-٥٨٥

^٣ راجع الفصل الخاص باتقام الأمويين بالعصية العرية

^٤ الطبري : السابق ٧ / ١٩١

^٥ راجع : زيدان : تاريخ التمدن الإسلامي ٨٤/٤-٨٥ ، ومن ذلك زعمهم مثلا بأن معاوية كان لا يفرض عطاء لقيس ويفرض لليمن ، وقد سبق مناقشة ذلك ..

^٦ وهناك دائما فرق بين المعارضة والثورة كما مر بنا ..

^٧ الأصفهاني : مقاتل الطالبين ص ٦٤ ، الحروب طلي : السابق ٤١٤

^٨ الطبري : السابق ٦ / ٣٣ ، ابن الأثير : الكامل ٩٥ / ٣

^٩ الطبري : السابق ٦ / ٣٣

فأقام بالبصرة هو الآخر بجوار سلفة ابن مطيع^١، ولما استولى مصعب بن الزبير على العراق جعل لأهلها عطاءين كل سنة أحدهما في الصيف والآخر في الشتاء^٢ ولما تولى الحجاج العراق فيما بعد أعاد العطاء إلى ما كان عليه فأنقصه مائة درهم عن كل فرد، فأدى ذلك إلى ثورة عبد الله بن الجارود ضد الحجاج^٣، وقطع عبد الله بن الزبير العطاء — فيما يروى الرواة — عن أبي صخر الهذلي الشاعر لأنه كان مواليا لبني أمية وقال له: عليك ببني أمية فاطلب عندهم عطاءك^٤ ..

3. الإسراف في إنفاق الأموال لتأليف القلوب واكتساب الأنصار:

ويتعلق بما سبق إنفاق الأمويين الأموال ليتألفوا بذلك قلوب الزعماء والأشراف ويوطدوا أركان الدولة الإسلامية التي قامت بعد فترات من الصراع والتطاحن بين الفعاليات السياسية فيها؛ من ذلك زيادة معاوية عطاء الحسن بن علي إلى مائة ألف درهم وما جابه به من جوائز وعطايا^٥؛ وجوائزه لأخيه الحسين، وعطاياه لابني عمه ابن عباس وعبد الله بن جعفر^٦ كما أنه كتب لعمر بن الزبير مائة ألف درهم، وبعث معه بذلك الكتاب إلى رباد ليحصل عليها منه؛ ففض عمرو الكلب وجعل المائة ألف مائتي ألف درهم^٧، وغير ذلك

ومن الواضح أن هؤلاء الأفراد لم يقدموا للدولة خدمات خاصة، ولم يملوا بلاء متميزا يستحقون معه هذه الأموال ولكن هذه العطايا في الحقيقة لم تكن هؤلاء الرجال بصفاهم الشخصية؛ فإن كثيرا منها كان يتول في نهاية الأمر إلى أفراد قبائلهم وأقاربهم وأمصارهم التي يعدون هم قادقده؛ ولذلك كان يزيد بن معاوية يقول لمن يلومه على إعطائه عبد الله بن جعفر أربعة آلاف ألف فيما يزعم الرواة: "ويحكم إنما أعطيتها أهل المدينة أجمعين، فما يده إلا عارية"^٨.

كما أن الدولة الأموية قد قامت بغير رضا جماعة من الزعماء والقادة ممن غلب في الصراع ضدها، أو كان يحبك في صدره غضب منها، أو انتقص لرجالها، وكان بعض هؤلاء الزعماء ممن يستجيب لدعاة الثورة عليها، من شيعة أو خوارج أو غيرهم، أو يستغل الثائرون اسمه، فرأى

^١ البلاذري. أنساب الأشراف 243/5، الطبري السابق ٧١/٦-٧٢

^٢ البلاذري السابق 280/5

^٣ الطبري: السابق ٢١٠/6-٢١١

^٤ الأصفهاني. الأغاني 269/23-272

^٥ ابن كثير السابق 37/8، وزعم ابن أبي الحديد أن معاوية كان يعطي كلا من الحسن والحسين وابن جعفر وابن عباس ألف ألف درهم (شرح فتح البلاغة 251/15)

^٦ جرحى زيدان تاريخ التمدن 82/4، عمر أبو النصر. الحضارة العربية ص 246

^٧ الجهشاري: الوزراء والكتاب 24

^٨ كرد على الإسلام والحضارة العربية 161/2-162

معاوية ومن تبعه أن إراقة بعض المال خير من إراقة كثير من دماء المسلمين في ثورات الطامعين أو الساخطين ، فأعطى هؤلاء الرجال المال يستميل به قلوبهم وقلوب أتباعهم وأنصارهم ، ويعلي به مكانتهم ويسد خلة من وراءهم ، ولعله قد فهم من إعطاء الرسول ﷺ المؤلف قلوبهم بعد فتح مكة ليستميلهم نحو الدين ويسل سخائم نفوسهم ، أنه يجوز أن يعطي أمثال هؤلاء الرجال ليتألف قلوبهم ويضمن ولاءهم ، والولاء للدين والدولة يختلطان في فهم معاوية وبني أمية حيث قامت دولتهم فيما اعتقدوا لنصرة الدين وجمع شمل أهله^١ ..

وأخيرا فإن كان معاوية مخطئا في ذلك فما القول في هؤلاء الكبراء الذين قبلوا عطاياهم وجوائزهم ، وفيهم من اشتهرت تقواه وورعه !!

إن من الحق أن نقول أن المجتمع الإسلامي في ذلك العهد كان يشهد تغيرا كبيرا عن زمن النبي ﷺ وخلفائه الراشدين حتى صارت بعض فعاليات السياسية ترى أن من حقها التميز في العطاء .. وتعطى ولاءها على ذلك الأساس ، ولعل تجربة عبد الله بن الزبير في الحكم دليل على ذلك ، فقد كان أخوه مصعب في العراق يتألف قلوب زعماء القبائل بالأموال فنجح في ذلك نجاحا ملحوظا ، ثم جاء إلى أخيه بمكة بأموال عظيمة فقسمها في جماعة من قريش وغيرهم وبعث إلى عبد الله بن صفوان وجبير ابن شيبه وعبد الله بن مطيع وغيرهم بأموال كثيرة^٢ ، وفي سنة ٦١ هـ جاء مصعب للقاء أخيه عبد الله بن الزبير مصطحبا معه جماعة من وجوه أهل العراق فقال : يا أمير المؤمنين قد جئتكم بوجوه أهل العراق — لم أدع لهم بها نظيرا — فأعطهم من المال ، فقال عبد الله : " جئتني بعييد أهل العراق لأعطهم من مال الله ؟ وددت أن لي بكل عشرة منهم رجلا من أهل الشام ، صرف الدينار بالدرهم " ، فلما انصرف مصعب ومعه ذلك الوفد ؛ وقد حرمهم ابن الزبير ما عنده ، فسدت قلوبهم ، فاجتمعوا فاجمعوا رأيهم على خلعه ، وكتبوا إلى عبد الملك بن مروان أن أقبل إلينا^٣ ، وهكذا تحول ولاء أهل العراق السياسي بحسب مصلحتهم المادية ؛ فكان كل فريق يرى أن يستعمل أموال المسلمين في تحقيق مصالح الأمة ، ومصالح الأمة هي في نصر ذلك الفريق من وجهة نظره ! حتى أصبحت حجج المعارضين لبني أمية في أنهم يستعملون أموال الأمة من أجل تحقيق أهدافهم السياسية غير مقنعة إزاء ما وقع فيه هؤلاء المعارضون أنفسهم في ممارستهم السياسية العملية ، مثلما رأينا من صنيع مصعب بن الزبير في العراق ؛ ومثلما حدث من نجدة بن عامر الحنفي — أحد زعماء الخوارج — الذين طالما نادوا بالمساواة والعدل بين المسلمين ، فقد منح نجدة " مالك بن مسمع "

^١ د. فهمي عبد الجليل : الأمويون والقيء 72 — 73

^٢ الطبري : السابق 150/6

^٣ ابن عبد ربه : العقد الفريد 406/4 ، الإمامة والسياسة 65/2

أحد زعماء قبيلة بكر بن وائل عشرة آلاف درهم ليضم ولاءه وبصره فأثار ذلك غضب أصحابه^١ . غير أننا وإن تحسنا الحجة لهذا الفريق أو ذاك في مثل ذلك التصرف لا نستطيع أن نقره أو ندعي مشروعيته المطلقة ، وبخاصة حين نرى استمرار ذلك التصرف المالي في الفترات التالية التي استقرت فيها أمور الدولة ، واختفت الفتن الكبرى ، وأنه ظل يخضع لتقديرات الخلفاء والولاة الذاتية دون ضوابط أو قواعد محددة ..

— إعطاء الشعراء :

واستعان الأمويون بالشعراء فأجزلوا لهم العطاء يتألفوهم بذلك ، ويجندون لهم السنة حدادا . وجهازا إعلاميا مقتدرا ، ولهم في إعطائهم الشعراء حجة شرعية ، فمعروف أن النبي ﷺ لما امتدحه كعب بن زهير خلع عليه بردته ، وكان يشجع حسان بن ثابت على نصر الدعوة بلسانه . ويطري صنيعة ، والعرب منذ قديم مغمومون بالشعر ويعطون عليه ما لا يعطون على سواه ؛ وقد روى أن علي بن أبي طالب أجاز شاعرا مدحه بمائة دينار وحلة^٢ . ولما تفشت مظاهر الترف في المجتمع الإسلامي في ذلك العهد وكثرت الأموال أسرف بعض الخلفاء والولاة وأشرف الناس ، وبعض خصوم الأمويين أيضا ، في إعطاء الشعراء وتقريبهم ، ومشهورة عطايا عبد الملك بن مروان ويزيد ابن المهلب وخالد القسري وغيرهم من خلفاء الأمويين وولاتهم للشعراء ، ومعلوم أيضا مدى تنافس الأحزاب السياسية آنذاك في تجنيد هؤلاء الشعراء لهم ، وأنهم أصبحوا إحدى وسائل الصراع السياسي آنذاك ، ولا يشذ عن هذا السبيل إلا عمر بن عبد العزيز الخليفة الزاهد الذي رفض السيو في هذه الطريق ورفض إجازة الشعراء من بيت المال ، وقصر عطاءهم على ما لهم من حقوق مالية مقررة^٣

— مظاهر الترف عند الأمويين :

ويحتل الحديث عن ترف الأمويين وبذخهم مكانة واسعة عند مؤرخينا ، والحق أنه كان عندهم لون من ألوان البذخ في سكناهم وفي لباسهم وفي عطائهم ونفقاتهم ، ولقد لفت معاوية بن عمرو بن الخطاب إليه ؛ وهو بعد أحد ولاة الشام ؛ يغدو في موكب ويروح في آخر^٤ ، ولكن من الحق أيضا ألا ننظر إلى حياة الأمويين بمعزل عن حياة المجتمع العربي والإسلامي آنذاك ، فهي جزء منه ، تتأثر به كما تؤثر فيه ، وفي ذلك العصر كان التطور الاجتماعي يتلاحق ، ومظاهر الغنى وانثيال

^١ اليقوي السابق 273/2

^٢ ابن كثير البداية والنهاية 8/8

^٣ الأغاني دار الكتب 19/ 209 — 210

^٤ راجع الجزء الثاني من هذا الكتاب في فصله الأول

الأموال والرغبة في التمتع خلال به تصبح أمرا ظاهرا يدفع بالذوق العربي والقيم الاجتماعية الحاكمة آنذاك إلى مزيد من التفتح والاتساع .. وأن هذه السمة الظاهرة لا تنفيها ورود أخبار مؤكدة عن زهد معاوية ورقة ثيابه^١ أو زهد عامله زياد ولباسه المرقوع^٢ ؛ فلا تناقض بين هذه الروايات وما عرف من التلبس بمظاهر الملك ، بل هي دليل على نفوس عالية لا ترى الزهادة نقصا ، ولا ترى التمتع حراما ..

وهكذا إذا نظرنا نظرة شاملة إلى وجوه الإنفاق المالي في ذلك العصر لا نجد مظاهر السرف والبذخ قصرا على بنى أمية ؛ خلفائهم وولائهم ، فبعض العلويين والزبيريين وغيرهم من معارضضي الأمويين لم يكونوا أقل سخاة بالمال من بنى أمية ولا أكثر حرصا عليه ..

فقد قيل إن الحسن بن علي ربما أجاز الرجل الواحد بمائة ألف درهم^٣ ، وأعطى شاعرا مدحه عشرة آلاف درهم^٤ ، وأنه كان مزوجا مطلقا^٥ ، حتى إنه طلق امرأتين في يوم واحد ومتع كل واحدة بعشرة آلاف درهم^٦ ، ولما هزم المختار الثقفي عبد الله بن مطيع واستولى على الكوفة أمر له بمائة ألف درهم ، وحفظ فيه قرابته لابن عمر صهر المختار^٧ ، وقد مضت بنا صور لإنفاقه الأموال ، أما مصعب بن الزبير فإنه لما هزم المختار أعطى لمن قتلاه ثلاثين ألف درهم^٨ ، ومشهور أن مصعبا أصدق امرأته سكنية بنت الحسين وعائشة بنت طلحة ألفي ألف درهم حتى شكاه أحد المعتاضين لأخيه عبد الله ابن الزبير قاتلا :

بضع الفتاه بألف ألف كامل وتبيت قادات الجيوش جياعا
لو لأبي حفص أقول مقالتي وأبست ما أبستكم لارتاعا^٩

وكان من أثرياء العرب من تبلغ نفقاته وبذخه نفس الدرجات السابقة ، فيروى عن عبد الله بن جعفر ابن أبي طالب في ذلك أخبار عجيبه^{١٠} ، وقد مدح أحد الشعراء طلحة الطلحات الخزاعي فأجازه

^١ ابن حنبل : الزهد 172 ، الخطيب : هامش العواصم 217

^٢ الطبري : السابق 289/5 — 290

^٣ ابن كثير : السابق 37/8

^٤ البلاذري أنساب الأشراف 24/3

^٥ قيل إنه أحسن سبعين امرأة (ابن كثير : السابق 38/8) وقيل بل تسعين امرأة (البلاذري السابق 25/3) ، وهي مهالقات لا بد أن لها أساسا تعتمد عليه ..

^٦ ابن كثير : السابق 38/8 ، أبو نعيم : الحلية 38/2

^٧ الدينوري : الأخبار الطوال ص 292 ، والرقم الذي يذكره هو مائة ألف ألف درهم وربما تعرض للتحريف ، وقد مر بنا أن المبلغ — كما أورده الطبري — كان مائة ألف درهم ..

^٨ الدينوري : الأخبار الطوال 308

^٩ الأغاني 357/3 ، وأبو حفص هو عمر بن الخطاب ، انظر 170/11

^{١٠} السابق 217/12 — 218

بأربعين ألف درهم وحجر من ياقوت^١، وأجاز عبيد الله بن العباس بن عبد المطلب أحد الشمرء بعشرة آلاف درهم، وقضى دينه بعشرة آلاف أخرى^٢ ..

وكان من النساء من تضارع الرجال في بذخهم مثل سكينه بنت الحسين وعائشة بنت طلحة التي كانت تحج ومعها ستون بغلا عليها الهودج والرحائل^٣.

وإذا كان بنو أمية قد ابتنوا القصور ففقد بنو رجال من أشرف العرب أيضا قصورا كان لها ذكر وبهاء^٤ .. لقد كان العرب يعدون ذلك كراما، ويتفاخرون به، ويتوقعون مثله من كل شريف من أشرفهم؛ وإن لم يكن حاكما، بل إن بعض المؤرخين لما يتحدث عن كرم الأمويين بنفسى عنهم هذه الصفة، ويقارن بين ما عرف عن كرم ملوكهم وكرم ملوك بني العباس؛ فيرى أن بنى أمية يفتضحون عند المقارنة فضيحة ظاهرة، ويرى أن نساء خلفاء العباسيين أكثر معروفا من رجال بني أمية، ويضرب على ذلك الأمثلة؛ بل يرى أن موالهم وكتائبهم أكرم من الأمويين، وأن لكل واحد من هؤلاء (الموالي) ما يحيط بجميع صنائع بني عبد شمس^٥، وكان عديد من بني أمية موسرين أصحاب تجارات وعبيد وضياع؛ وإن لم يتولوا خلافة أو ولاية، على أنه لم يكن معروفا في ذلك العصر تحديد مراتب خاصة بالخلافة، وإن كنا نعرف أن المرتب الذي فرضه عمر بن الخطاب لمعاوية على عمله بالشام كان ألف دينار في السنة، وهو أكبر من المرتب الذي خصصه المسلمون لأبي بكر وهو خليفة إذ لم يعد ستمائة دينار^٦ .. كما سوف نرى أن مراتب الولاة والقضاة كانت كبيرة، وكثير من هؤلاء كانوا من الأشراف المعروفين بالغنى واليسار أو الوجاهة الاجتماعية، فكان الكرم من هؤلاء وأولئك أمرا متوقعا ومنتظرا ..

٢- مصارف شرعية لتحقيق أهداف الرعاية:

مما يجب إبرازه في هذا المجال ما شهدته العصر الأموي من زيادة كبيرة في النفقات التي وظفت في تحقيق مصالح الأمة ... ومن ذلك تعبئة طاقات الأمة وموارد الدولة من أجل الدفع بحركة الفتوح الإسلامية قدما إلى ساحات جديدة، صحيح أن كثيرا من هذه الحروب كانت تعود على

^١ السابق 82/13

^٢ السابق : 51/12-52

^٣ السابق : 177/11

^٤ راجع ما سيلي في الفصل التالي ..

^٥ ابن أبي الحديد شرح النهج 52/15 حيث يروى ذلك عن الجاحظ.

^٦ د الرئيس الخراج ص 200 وراجع القريري الخطط 95/1

خزينة الدولة بالغنائم الوفيرة ، ولكن من المؤكد كذلك أن بعضها كان يحتاج نفقات هائلة وإعدادا عظيما^١ ، وأن قادة هذه الحروب وأباطها كانوا ينالون عناية الخلفاء والولاة وجوائزهم^٢ .. كما شهد العصر الأموي توسعا في دائرة العطاء ، حيث زادت أعداد المسلمين وتضخمت أعداد الجنود الفاتحين ، وقد رووا أن معاوية كان قد جعل على كل قبيلة من قبائل العرب في مصر رجلا يدور في المجالس كل يوم فيسأل الناس : هل ولد فيكم مولود ، هل نزل بكم نازل ؟ ويأخذ أسماء هؤلاء إلى الديوان لتسجل به ، ويفرض لهم العطاء^٣ .. كما زاد الأمويون عطاء الجند في بعض فترات دولتهم مثلما حدث حين زاد يزيد بن معاوية أصحاب العطاء في الكوفة من سبعين ألفا إلى ثمانين ألفا ، وزيادة عدد العمال الذين التحقوا بخدمة الدولة من تسعين ألفا إلى مائة وأربعين ألفا^٤ ..

وقد مر بنا أن الأمويين كانوا مضطرين في بعض فترات دولتهم إلى تأليف قلوب كثير من الزعماء والمعارضين والمتربصين بهم ، ونذكر هنا أن الوليد بن عبد الملك كان يخصص الرزق للفقهاء ، والضعفاء والفقراء ، ويحرم عليهم سؤال الناس ، ويفرض لهم ما يكفيهم ، كما فرض للعميان والجنذومين^٥ ؛ وكذلك فرض سليمان بن عبد الملك لثمانية آلاف رجل من قرش وحدها^٦ ؛ ولما ولي الوليد بن يزيد أجرى على زمني أهل الشام وعميائهم ، وكساهم ، وأمر لكل إنسان بخادم ، وزاد الناس جميعا في العطاء عشرة عشرة ، ثم زاد أهل الشام بعد زيادة العشرات عشرة عشرة^٧ ، أما يزيد بن الوليد فقد فرض لثلاثين ألفا من أهل مصر لم يكن لهم عطاء في الديوان^٨ ..

وحق عمر بن عبد العزيز الذي عرف بالحرص الشديد على بيت المال والاقتصاد في النفقات لم يشذ عن هذا الاتجاه ، فقد جعل مرتب العامل من عماله ثلاثمائة دينار ، ولما سئل عن ذلك قال : أردت أن أغنيهم عن الخيانة^٩ ، وقيل إنه كان يرزق الرجل من عماله مائة دينار ومائتي دينار في الشهر وأكثر من ذلك ، فلما حدثه بعض أصحابه في ذلك قال : أراه لم يسيرا إن عملوا بكتاب الله وسنة نبيه ، وأحب أن أفرغ قلوبهم من الهم بمعاشهم ، وقال : ما طاعني الناس على ما أردت

^١ راجع المبحث الخاص بالفتوحات الإسلامية .

^٢ راجع عن جوائز الحجاج لآل المهلب بعد فراغه من حرب الأزارقة سنة 78هـ ، الطبري : السابق/319 (

^٣ ابن عبد الحكم : السابق 146

^٤ الطبري : السابق 504/5

^٥ الطبري : السابق 496/6 ، السيوطي تاريخ الخلفاء 224

^٦ اليعقوبي : السابق ٢٩٨/٢

^٧ الطبري : السابق 217/7 — 218

^٨ ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ٢٩٢/١

^٩ ابن عبد الحكم سيرة عمر بن عبد العزيز 46

من الحق حتى بسطت لهم من الدنيا شيئا^١ ، وكان له ثلاثمائة شرطي وثلاثمائة حرسى يأخذون عطاءهم^٢ .. كما توسع الأمويون في إفاضة المال على غير من سبق من عمالهم حتى كان قاضي مصر مثلا يرزق ألف دينار في السنة ، فقد كان ابن حجرية الأكبر على القضاء والقصاص وبيت المال بمصر (69 — 83 هـ) فكان رزقه من القضاء مائتي دينار ، ومن القصاص مائتي دينار ، ورزقه من بيت المال مائتي دينار ، وكان عطاؤه مائتي دينار وجائزته مائتي دينار^٣.

وسوف نرى فيما بعد أن نصيبا لا بأس به من الأموال كان يوجه لرعاية الحركة العلمية والثقافية وترجمة تراث فارس والروم ورعاية العلماء والحذب عليهم^٤ ، وظفرت الناحية الزراعية باهتمام الخلفاء والولاة الأمويين الذين أنفقوا مبالغ طائلة في حفر الأنهار والترع واستصلاح الأراضي الزراعية^٥ .. ونشير من كل الإنجازات الأموية في هذا المجال إلى ذلك النموذج عن خلافة هشام بن عبد الملك حيث قام واليه على الموصل بإنشاء مشروع رئيس لجر المياه عبر المدينة ، وذلك بحفر قناة متفرعة من نهر دجلة مارة في المدينة ، تبنى عليها ثماني عشرة طاحونة كلفتها ثمانية ملايين درهم ، وتم إنجاز المشروع بعد خمس عشرة سنة عام 121 هـ ، ومما يذكر أن عدد العاملين فيه كان نحو خمسة آلاف رجل ، ومما يؤكد الأهمية التي كانت معلقة على هذا المشروع أنه نفذ في وقت كانت الخزينة فيه رازحة تحت ضغط مواجهة الأخطار الخارجية ، ولا بد أن هشام أدرك تأثيرات الازدحام السكاني في هذه المنطقة ، فحاول معالجة الموقف بمشروع إنتاجي طويل المدى يحسن مجالات استخدام السكان المحليين على الأقل^٦ ..

^١ محمد كرد علي : الإسلام والحضارة العربية 181/2 وانظر ابن كثير : السابق 202/18—203

^٢ ابن كثير : السابق 202/9

^٣ محمد كرد علي : الإسلام والحضارة العربية 171/2

^٤ كما سيأتي قريبا

^٥ د. الخربوطلي : تاريخ العراق 339 — 341

^٦ د. شعبان : صدر الإسلام والدولة الأموية 165 — 166 ، وانظر أبا زكريا الأردني تاريخ الموصل 18/2 ، 24

26 ، 32 ، 43 .

المبحث الثالث

حرص الأمويين على أموال الدولة

إن روايات عديدة تدل على حرص الأمويين خلفاء وولاة على الحفاظ على مبادئ العدالة في جباية الأموال ، والرفق بالرعية ، والرغبة في الحفاظ على مال الدولة ، وذلك على غير ما يشيع في كتابات المؤرخين عنهم ..

ولقد مر بنا ما رواه ابن تيمية من أن معاوية كان يوزع على رعيته ما فضل من مال بعد إعطائهم ويقول : " فإنه ليس بمالي ، وإنما هو مال الله الذي أفاءه عليكم " ^١ ، ولما مات معاوية أوصى في مرض موته بنصف ماله أن يرد إلى بيت المال ، وكأنه أراد بذلك أن يطيب له الباقي ؛ لأن عمر بن الخطاب كان يقاسم عماله ^٢ ..

وكان عامله على العراق زياد بن أبي سفيان يختار كتاب الخراج من الموالي الخبيرين بطرق جبايته ويقول : " ينبغي أن يكون كتاب الخراج من رؤساء الأعاجم " ^٣ ، وكان ابنه عبيد الله لا يستعين بالعرب في أعمال الخراج ، فلما عاتبوه على ذلك قال : " كنت إذا استعملت الرجل من العرب انكسر الخراج ؛ فإن تقدمت إليه أوغرت صدور قومه ، أو أغرمت عشيرته أضرت بهم ، وإن تركته تركت مال الله وأنا أعرف مكانه ، فوجدت الدهاقين أبصر بالجباية ، وأوفى بالأمانة ، وأهون في المطالبة منكم ، مع أنني جعلتكم أمناء عليهم لئلا يظلموا أحدا " ^٤ ..

ولما استعمل ابن زياد حارثة بن بدر على جنديسابور ^٥ ؛ غاب عنه أشهراً ثم قدم فدخل عليه ، فقال له ابن زياد : ما جاء بك ولم أكتب إليك ، قال : استنظفت خراجك ونجنت به ، وليس لي بها عمل ، فما مقامي ؟ قال : أو بذلك أمرتك ؟ ارجع فاردد عليهم الخراج ، وخذه منهم نجوما حتى تنقضي السنة وقد فرغت من ذلك ، فإنه أرفق بالرعية وبك ، واحذر أن تحملهم على بيع غلاتهم ولا مواشيهم ولا التعنيف عليهم " ، فرجع ففعل ذلك ^٦ ..

^١ منهاج السنة 185/3

^٢ الطبري : السابق 327/5

^٣ البكري : السابق 295/2

^٤ الطبري : السابق 523 / 5

^٥ جنديسابور : إحدى مدن خوزستان افتتحها المسلمون زمن عمر بن الخطاب (ياقوت : معجم البلدان ١٤٩/٣ -

وذكر جماعة من الرواة أن عبد الملك بن مروان كان " شديد اليقظة ، كثير التعاهد لعماله ، فبلغه أن عاملا منهم قبل هدية ، فأمر بإشخاصه إليه ، فلما دخل عليه قال له : أقبلت هدية منى وليتك ؟ قال : يا أمير المؤمنين بلادك عامره ، وخراجك موفور ، ورعتك على أفضل حال ، قال : أجب فيما سألتك عنه ، أقبلت هدية منى وليتك ؟ قال : نعم ، فقال عبد الملك : لئن كنت قبلت ولم تعوض إنك للثيم ، ولئن أنلت مهديك لا من مالك ، أو استكفيت ما لم يكن يستكفاه إنك لجائر خائن ، ولئن كان مذهبك أن تعوض المهدي إليك من مالك ؛ وقبلت ما أقمك به عند من استكفاك (أي الخليفة) ، وبسط لسان عائبك ، وأطمع أهل عملك ؛ إنك لجاهل ، وما فيمن أتى أمرا لم يحل فيه من دناءة أو خيانة أو جهل مصطنع ، نحياه عن عمله " ^١ .

وقيل إن الحجاج كتب إلى عبد الملك بن مروان يستأذنه في أخذ الفضل من أموال السواد ، فمنعه الخليفة من ذلك ، وكتب إليه : " لا تكن على درهمك المأخوذ أحرص منك على درهمك المتروك ، وأبق لهم خوما يعقدون بها شحوما " ^٢ ..

وكان عبد العزيز بن مروان عاملا على مصر منذ سنة ٦٤ هـ " فكان خراجها وجبايتها إليه " ، فلما مات لم يوجد له مال نص (أي من الدراهم والدنانير) إلا سبعة آلاف دينار ، وكانت ولايته عليها ما يقرب من إحدى وعشرين سنة ^٣ ، ولما مات أرسل عبد الملك الضحاك بن عبد الرحمن إلى مصر ليقاسم كاتب عبد العزيز ماله ^٤ ، ولعله حاك في صدره شيء من إنفاق أخيه الذي اشتهر بكرمه الفياض ، وأراد أن يطهر له ماله بمقاسمته على نحو ما صنع معاوية أنفا .

وعزل الوليد بن عبد الملك أخاه عبد الله بن عبد الملك عن مصر لما شكاه بعض أهلها ، فخرج عبد الله من مصر بكل ما يمتلك من الأموال فتلقته رسل الوليد في الأردن فأخذه إلى الخليفة

^١ الجاحظ : البيان والبيان 275/3 - 276 ، السعدي : مروج الذهب 125/3 ، الجهنياري : الوزراء والكتاب

^٢ الماردي : الأحكام السلطانية 190

^٣ ولا يعني ذلك أنها كانت طعمة له كما فهم د. حسن إبراهيم (تاريخ الإسلام السياسي 300/1) ، وكما نص ابن كثير : السابق ٢٩/٩ ، من أن خراج مصر والمغرب ومناعهما كانت لعبد العزيز ، بل يعني أنه كان أمرا على الصلاة والخراج معا ، ولا يعقل أن يترك عبد الملك خراج مصر لأخيه عشرين سنة وهو في أمس الحاجة إليه وبخاصة أيام مواجهته العصية للزبيريين الذين كانوا يسيطرون على بقية العالم الإسلامي عدا الشام ومصر ، ومن المعروف أنه كانت بينهما خلافات أواخر حياتهما حيث كان عبد الملك يرغب في أن يتنازل أخوه عن ولاية العهد لولده الوليد ، ولو كانت مصر طعمة لعبد العزيز لهدده بحرمانه منها وهو ما لم يذكره أحد..

^٤ الكندي : ولاية مصر وقضاها 49

^٥ الجهنياري : السابق 34

وأحاطوا بجميع ما كان معه من أموال لما ظن الوليد أن فيها غصبا أو رشوة^١ ، وكان الوليد قد عين بدله قرّة بن شريك ، الذي كان حريصا على الخراج بعيدا عن الرشوة ، عظيم المراقبة لعماله^٢ ..

وفى سنة ٩١ هـ قدم محمد بن يوسف الثقفي — أخو الحجاج — من اليمن هدايا عظيمة، فأرسلت أم البنين بنت عبد العزيز بن مروان زوجة الوليد ، وبنت عمه ، فطلبتها منه ، فقال محمد ابن يوسف : حتى يراها أمير المؤمنين ، ففضبت ، ثم رأى الوليد هذه الهدايا وبعث بها إلى زوجته الغضبية فلم تقبلها ، وقالت : قد غصبها من أموال الناس ، فسأله الوليد ؛ فقال : معاذ الله ، فأحلفه الوليد بين الركن والمقام حسين يمينا ؛ ما ظلم أحدا ، ولا غصبه ، حتى قبلتها أم البنين^٣ ..

ولما مات محمد بن يوسف هذا كتب الحجاج إلى الوليد بن عبد الملك يقول : إنه أصيب محمد بن يوسف خمسون ومائة ألف دينار ، فإن يكن أصابها من حلها فرحه الله ، وإن تكن من خيانتة فلا رحمه الله ، فكتب إليه الوليد : أما بعد ، فقد قرأ أمير المؤمنين كتابك فيما خلف محمد بن يوسف ، وإنما أصاب ذلك المال من تجارة أحللناها له ، فترحم عليه ، رحمه الله^٤ .

وامتد حرص الحجاج على موارد الدولة إلى أن سجن صهره مالك بن أسماء بن خارجة لما اتهمه في خيانة ظهرت عليه ، حتى أشفق أبوه أسماء من الوساطة له عند الحجاج كي يطلقه ، وهو يعرف صلابته^٥ ، كما عزل الحجاج صهره الآخر يزيد بن المهلب عن خراسان لما اتهمه بتبديد أموال القوي في مظاهر الكرم والسخاء وطالبه وإخوته بستة آلاف ألف درهم ، وبسط عليهم العذاب ، ولم يبال بنواح زوجته هند بنت المهلب لما سمعت صراخ أخيها من الألم ، ثم كفف عنهم العذاب لما بدؤوا يؤدون بعض ما عليهم، ولكنهم هربوا من سجنه ولحقوا بالشام حيث استجاروا بسليمان بن عبد الملك الذي أجارهم وضمن عنهم ما بقي عليهم من أموال القوي^٦ ..

ولما تولى سليمان الخلافة تتبع بعض الولاة السابقين يستخرج منهم ما ظن أنهم اختلسوه من أموال ، ومنهم خليفة الحجاج يزيد بن أبي مسلم ، الذي أسلمه إلى غريم الحجاج ابن المهلب ليستأدى منه الأموال ، فشهد له ابن المهلب بالأمانة ، رغم كراهيته المتوقعة له ، وقال لسليمان : يا أمير المؤمنين ، أنا أعلم به ، لا والله ما عنده مال ، ولا كان ممن يحوي المال^٧ ..

^١ الكندي : السابق 55 ، ابن تفرى بردى : النجوم الزاهرة 210/1 — 211

^٢ أدولف جروهمان : أوراق البردي العربية 3/3 — 43

^٣ ابن تفرى بردى : النجوم الزاهرة 222/1 — 223 ، الطبري : السابق 498/6

^٤ المبرد : الكامل 305/1 ، وإن صدق ذلك ففيه مخالفة لنهج الراشدين إذ في اشتغال العامل بالتجارة أثناء عمله شبهة استغلال النفوذ ..

^٥ الأصفهاني : الأغاني 159/17 — 160

^٦ الطبري : السابق 448/6 ، 451 ، انظر ابن أعثم الفتح 208/7 — 209

^٧ يعقوبي : السابق 33/3

وكان عبد الله بن رفاعه عامل سليمان على مصر عقيفا يقول : " إذا دخلت الهديسة من الباب خرجت الأمانة من الطاق " ^١ ، كما كان عامله على مصر فيما بعد أسامة بن زيد التنوخي " لا يرتشي درهما ولا دينارا " ^٢ ..

وفما بعد حبس عمر بن عبد العزيز يزيد بن المهلب بعد أن عزله عن خراسان طالبا منه أداء أموال كان قد أرسل إلى سليمان بن عبد الملك أنه غنمها في بعض المعارك ، وظل في حبة حتى تمكن من الهرب ، ومضى ليثور على الأمويين بالعراق أوائل خلافة يزيد بن عبد الملك. وقد مر بنا أن هشام بن عبد الملك عزل عامله عن العراق خالد بن عبد الله القسري وطالبه بأموال متأخرة من خراج العراق ، واستخرجها منه الوالي الجديد يوسف بن عمر الثقفي ..

وبصورة عامة يذكر المؤرخون أن الخلفاء الأمويين " كانوا إذا جاءهم جبايات الأمصار والافاق يأتيهم مع كل جباية عشرة رجال من وجوه الناس وأجنادها ، فلا يدخل بيت المال من الجباية دينار ولا درهم حتى يحلف الوفد بالله الذي لا اله إلا هو ما فيها دينار ولا درهم إلا أخذ بحقه ، وأنه فضل أعطيات أهل البلد من المقاتلة والذرية ، بعد أن يأخذ كل ذي حق حقه " ^٣ .. وهكذا تتكاثر الأدلة على حرص بني أمية وعمالهم بوجه عام على موارد الدولة الإسلامية وحقوق بيت المال ...

^١ ابن قنبري بردي : النجوم الزاهرة 231/1

^٢ السابق 232/1

^٣ أخبار مجموعة في فتح الأندلس 22 — 23

الفصل السابع

منجزات حضارية في العصر الأموي

مُقدِّمة

لقد رأينا فيما سبق من صفحات هذا الكتاب مدى التطور الذي أصاب المجتمع الإسلامي قـبـل قيام الدولة الأموية ، وكيف واصل ذلك المجتمع طريقه إلى مزيد من التطور بعد قيامها ، ولقد كانت سمة الأمويين البارزة هي هذه الواقعية التي تواكب حركة الأحداث وتتفاعل معها ، ولذلك فإننا نراهم — في معظم أحوالهم — يسايرون سنن ذلك التطور ، بل يستشرفون من أطر العمل والإدارة ما يتناسب مع متطلباته .. ونستطيع أن نلمح من هذه الأطر جوانب ثلاثة ؛ أولها : تلك المنجزات الإدارية من تطوير دواوين الدولة ؛ باستحداث بعضها وتعريبها ؛ في أخطر حدث ثقافي شهده تاريخ الإسلام في هذه الفترة ، وتوحيد العملة المالية للدولة بعد تعريبها ، وثانيها : ذلك الشغف العجيب بالعمارة والبناء ؛ الذي ظهرت آثاره في بناء المدن وعمارة البلدان وبناء القصور الفخمة وتشيد المساجد الكبيرة ، وثالثها : تشجيع النهضة العلمية والثقافية والدفع بها إلى آفاق رحبية لم يعرفها العرب من قبل .. وسوف نحاول فيما يلي إلقاء مزيد من الضوء على هذه الجوانب ..

المبحث الأول

منجزات حضارية في مجال الإدارة

أدار الأمويون دولة شاسعة المساحة تمتد الأطراف تتعدد أجناس سكانها وتختلف مطامعهم ورغباتهم ، كما تختلف أنماط إدارتهم الموروثة ، وكان يجب على الأمويين إدارة هذه البلاد بطريقة تحقق أهداف الدولة وأهداف الأقاليم معا ، وتحفظ سيطرة الخلافة في وقت يترصد بها فيه أعداء كثيرون وتشتد طموحات القادة والولاة ، ولما كانت أساليب الإدارة المعهودة عند العرب آنذاك قد وضعت لإدارة أمة أبسط من ذلك بكثير ؛ فقد كان لزاما على الأمويين ابتكار أساليب جديدة ، وتطوير القديم منها ليوائم الأوضاع الجديدة .. وعلى ذلك فقد أنشأ الأمويون بعض الدواوين ؛ وطوروا أداء بعضها الآخر .. كما واجه الأمويون حاجات الدولة المادية والمعنوية التي تهدف إلى الإحساس بالسيادة والجد ؛ فعمدوا إلى استحداث الوسائل التي ضبطت الأداء المالي وأسهمت في نشر العروبة والإسلام معا ..

١- إنشاء ديوان الخاتم :

وقد أنشأ معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه ديوان الخاتم لتحقيق السرية والأمان لمراسلات الدولة فلا تطلع عليها عين جاسوس ، ولا تصل إليها يد خائن .. ويروى في سبب تفكير معاوية في ذلك أنه كتب لعمرو بن الزبير بمائة ألف درهم يصرفها له زياد بن أبيه في بالكوفة ، ففتح عمرو الكتاب وصير المائة مائتين ، ورفع زياد حسابه فأنكرها معاوية ، وطالب بها عمرو وحجبه حتى قضاها عنه أخوه عبد الله ، واتخذ معاوية عند ذلك ديوان الخاتم^١ ..

وديوان الخاتم " عبارة عن الكتاب القائمين على إنفاذ كتب السلطان والختم عليها إما بالعلامة أو الخزم ، وقد يطلق على مكان جلوس هؤلاء الكتاب .. والخزم للكتب يكون إما بدس الورق كما في عرف كتاب المغرب ، وإما بلبصق رأس الصحيفة على ما تنطوي عليه من الكتاب كمل في عرف أهل الشرق ، وقد يجعل على مكان الدس أو الإلصاق علامة يؤمن معها من فتحه والإطلاع على ما فيه ، فأهل المغرب يجعلون على مكان الدس قطعة من الشمع ويختمون عليها بختم نقش فيه علامة لذلك .. فيرسم النقش في الشمع ، وكان في المشرق في الدول القديمة يختم على

^١ ابن خلدون المقدمة ٧٧/٢ ، الطبري السابق ٣٣٠/٥ ، ابن طباطبا : الفخري ص ١٠٧

مكان اللصق بخاتم منقوش أيضا قد غمس في مذاق من الطين معد لذلك صبغه أحمر ، فيرسم ذلك النقش عليه " ١ ..

ويضيف ابن طباطبا مزيد بيان لمهمة ذلك الديوان فيقول: " ومعناه أن يكون ديوان وبه نواب ، فهذا صدر توقيع من الخليفة بأمر من الأمور أحضر التوقيع إلى ذلك الديوان ، وأثبت نسخته فيه ، وحزم بخط وختم بشمع " ٢ .. وبذلك " لا تخرج التوقيعات بدون ختم ، فلا يعلم ما تحتوى من أسرار غير الخليفة ، حتى لا تعرض هذه التوقيعات للتزوير " ٣ ..

٢- إنشاء ديوان البريد :

وأتى الأمويون إشرافهم على إدارة البلاد التابعة لهم باقتباس نظام البريد من البيزنطيين ، وكان معاوية واضع أسس هذا النظام الذي ظل يتطور طيلة العصر الأموي ، واستخدم البريد في نفس الأغراض التي اتبعت أيام البيزنطيين ؛ إذ اقتصر البريد على خدمة مصالح الدولة لا لتصرف شئون الأفراد والناس ٤ ..

والمراد بالبريد أن تجعل خيل مضمرة في عدة أماكن ، فإذا وصل صاحب الخبر المسرع إلى مكان منها وقد تعب فرسه ركب غيره فرسا مستريحا ، وكذلك يفعل في المكان الآخر حتى يصل بسرعة ٥ ..

ويشير القلقشندي إلى أن هدف معاوية من وضع نظام البريد هو أن تسرع إليه أخبار البلاد من جميع أطرافها ٦ ، وقد استطاع ذلك النظام أن يقوم بالمهمة المتوقعة به ؛ فقد كان " يكفل للدولة الحصول على أدق المعلومات ، وتوجيه التعليمات في آفاق الدولة الإسلامية المترامية الأطراف ، كمد كان يساعد الخليفة على الوقوف على تصرفات عماله ، وينقل للخليفة أفكار المعارضة وأقوالها وتصرفاتها ، ولذلك كانت تناط بديوان البريد أيضا مهمة مراقبة الولاة والمعارضة ..

ويبدو أن ديوان البريد وصل إلى درجة كبيرة من الإحكام في خلافة هشام بن عبد الملك ٧ ، حيث يصف صاحب كتاب " الإمامة والسياسة " استقرار الأمر في أرجاء البلاد بقوله : " فصارت

١ ابن خلدون المقدمة 707/2

٢ ابن طباطبا : الفخري ص 107

٣ د. محمد ليه حجاب : الدعاية السياسية في العصر الأموي ص 127

٤ د. العلوي : الأمويون والبيزنطيون ص 238

٥ ابن طباطبا : : الفخري ص 106 ، د. حسن إبراهيم وعلي إبراهيم : النظم الإسلامية ص 210

٦ القلقشندي : صبح الأعشى 368/14 ، وانظر أبا هلال العسكري : الأوائل ص 237 حيث يذكر أن معاوية أول

من وضع البريد .

٧ د. حجاب الدعاية السياسية في العصر الأموي ص 129

البلاد المتباعدة الشاسعة كدار واحدة ، فلا خبر يكون ، ولا قصة تحدث من مشرق الأرض ولا مغربها إلا وهو يتحدث به في الشام ، وينظر فيه هشام ^١ ، ويعقب الدكتور نبيه حجاب على ذلك بقوله " ومهما يكن في هذا القول من مبالغة إلا أنه يعطي صورة تمكننا من القول إن جهاز الاستخبارات كان من الأجهزة الهامة في الدولة ؛ وكان تطرق الخلل إلى هذا الجهاز في أواخر الدولة من الأسباب التي أدت إلى سقوطها كما اعترف بذلك أحد أفراد البيت الأموي حيث قال : وكان زوال ملكنا استار الأخبار عنا ، فزال ملكنا منا بنا " ^٢ ..

وقد أدخل بعض الخلفاء تطوراً إيجابياً على نظام البريد ، بحيث يقوم بالأعمال الطارئة المتعلقة بأمن الدولة وسلامتها ، والخدمات السريعة العاجلة ، فقد استخدم عبد الملك البريد في نقل قوات جيشه من الشام على وجه السرعة إلى أماكن الاضطرابات ؛ ففي ثورة ابن الأشعث أرسل عبد الملك قواته من الجند على خيل البريد ، فكانوا يصلون من مائة ومن خمسين وأقل من ذلك وأكثر ^٣ ، كما كان الوليد بن عبد الملك يحمل على خيل البريد الفيسفساء من القسطنطينية إلى دمشق ^٤ ..

٣- تعريب ديوان الخراج:

وديوان الخراج هو الديوان الذي يحوي أسماء الأراضي ومقدار محاصيلها ومقدار الخراج الموضوع عليها ^٥ ، وقد ظل ذلك الديوان بعد الفتح على الحال التي كان عليها قبل الفتح ، فكان ديوان العراق يكتب بالفارسية ، وديوان الشام بالرومية ، وديوان مصر بالقبطية ، وكان يعول هذه الكتابة كتاب من الفرس أو الروم من أهل هذه اللغات ^٦ ...

وهكذا كانت حسابات الدولة في يد مجموعة من صغار الموظفين القادرين على التزوير والتلاعب فيها ^٧ ، وكان ذلك أمراً تضطر إليه الدولة الإسلامية لما كان يكتنف هذا العمل من مصاعب ، ويمضي الزمن وجد بين المسلمين والعرب من يقن لغة البلاد المفتوحة مع إتقانه العربية ،

^١ الإمامة والسياسة 118/2

^٢ د. نبيه حجاب : السابق ص 129

^٣ الطبري : السابق 339/6

^٤ القلقشندي : صبح الأعشى 368/14

^٥ د. العشي : الدولة الأموية 232

^٦ ابن خلدون : المقدمة 676/2

^٧ الخربوطلي : تاريخ العراق 384

فأصبح من الممكن محاولة تعريب هذه الدواوين لتكون تحت بصر الحكومة الإسلامية ومراقبتها في أدق شئونها ...

ولا ريب أن ترجمة هذا الديوان إلى اللغة العربية أمر صعب جدا ، فهو لا يقتصر على نقل الأرقام إلى العربية — والأرقام كبيرة جدا لم تعد عليها اللغة العربية بعد — بل يجب أن تنقل أسماء المناطق والأشخاص الذين يقومون على الأراضي ، وكانت أسماءهم أجنبية لأنهم غير عرب^١ .. وكانت الصعوبات تتلاشى في عهد عبد الملك بن مروان الذي تنبه جيدا إلى ضرورة تعريب هذه الدواوين وتذليل المصاعب التي تواجه ذلك العمل العظيم ... وكان العرب في ذلك الوقت قد أخذوا يألفون أسماء الأشخاص الأجانب ، وأحدثوا المقابل باللغة العربية للأماكن والأراضي ، وبقيت صعوبة تعريب الأرقام والحسابات .. وهذا ما اقتضى رجالا نابغين يتولون تحقيق ذلك الأمر^٢ .. ومن هؤلاء سليمان بن سعيد والي عبد الملك على الأردن الذي كلفه الخليفة بنقل ديوان الشام إلى العربية ، وكان عملا عسيرا استغرق سنة كاملة كي يتم^٣ ، ويدلنا المبلغ الذي رصده عبد الملك مكافأة لسليمان على اهتمام الخليفة بذلك العمل ؛ فقد خصص له خراج الأردن لمدة سنة كاملة ؛ أي مبلغ مائة وثمانين ألف دينار^٤ ..

أما في العراق فقد وجد الحجاج ضالته في صالح بن عبد الرحمن مولى بني تميم الذي كان معاونًا لعامل الحجاج على الخراج زاذان فروخ ، فلما قتل زاذان فروخ في فتنة ابن الأشعث تولى عمله صالح الذي استطاع نقل ذلك الديوان من الفارسية إلى العربية ، وقد كان ذلك عملا مجيدا دفع فيما بعد عبد الحميد بن يحيى الكاتب — كاتب مروان بن محمد — أن يقول : " لله در صالح ، ما أعظم منته على الكتاب " ^٥ ..

وفيما بعد نقل ديوان مصر من القبطية إلى العربية أثناء ولاية عبد الله بن عبد الملك بن مروان أمير مصر في خلافة أخيه الوليد سنة ٨٧ هـ^٦ .

وبذا تكون الدواوين في أعظم الأمصار الإسلامية خطرا قد أصبحت عربية ، ولن يضروا أن تتأخر بعض دواوين الدولة في عملية التعريب ، ريثما تتكون عندهم الكفاءات القادرة على القيام

^١ العيش : الدولة الأموية ص 232

^٢ السابق والصفحة

^٣ ابن خلدون : المقدمة 677/2

^٤ العيش : الدولة الأموية ص 232

^٥ البلاذري : فوح البلدان 298 ، ابن خلدون : المقدمة 677/2 وكان ذلك فيما يرجح د . الرئيس (الخواج ص 229) في سنة 87 هـ وليس سنة 78 هـ كما يروى الجهشباري : الوزراء والكتاب ص 38

^٦ المقرئزي الخطط ٩٨ / ١

بذلك العمل وتسيره ، فقد نقل ديوان خراسان إلى العربية في ولاية نصر بن سيار عليها ، وذلك سنة ١٢٤هـ ..^١

ولم يقتصر جهد عبد الملك بن مروان على تعريب هذه الدواوين فحسب ، بل أراد أيضا أن يتم تعديل هذه الدواوين لتتناسب تطور الدولة الإسلامية ؛ " ذلك أن سجلات الجزية كانت تحدد أهل الذمة في الأماكن القديمة التي كانوا يقطنونها في الماضي ، وقد غير قسم منهم مكان إقامته ، فاضطرب الديوان ، فيتبني أن تغير أماكنهم في السجلات ، وهكذا أحدث عبد الملك ما سمي بالتعديل ، أي أنه أمر أن يسجل أهل الذمة بأسمائهم وأولادهم وما يملكون في مكان ولادتهم ؛ وكانت نتيجة ذلك أن جدد السجل تجديدا يلائم العصر من الناحية اللغوية ومن الناحية الفعلية الواقعية معا ، وكان سجل الجزية أصبح في الوقت نفسه سجل الأحوال المدنية لأهل الذمة " .^٢

وقد كان عمل عبد الملك في هذا المجال عظيما ، وترك آثارا خطيرة ؛ إذ " لا يخفى ما كان لهذا العمل من التأثير العظيم في تأييد الدولة الإسلامية ؛ لأنه جعل اللسان العربي لسانا عاما في سائر أنحاء المملكة ، فأصبح أهلها يتوالت الأجيال وقد نسوا جنسياتهم ، وصاروا يعدون أنفسهم عربا ، وساعد على ذلك أن العربية هي لغة الدين أيضا " .^٣

ولذا فليس غريبا أن نجد محاولات مستميتة من الموالى المتصيين لقومياتهم لإيقاف تنفيذ ذلك العمل .. فقد وقف مروان شاه بن زاذان فروخ أمام صالح بن عبد الرحمن وهو يقوم بتعريب ديوان العراق ليقول له متحسرا : " قطع الله أصلك من الدنيا ، كما قطعت أصل الفارسية " ؛ وبذل له هؤلاء الفرس مائة ألف درهم على أن يظهر عجزه عن نقل ذلك الديوان فأي ، ولما أتم سليمان بن سعيد نقل ديوان الشام قال سرجون بن منصور كاتب عبد الملك لكتاب الروم في حصرة : " اطلبوا العيش في غير هذه الصناعة ، فقد قطعها الله عنكم " .^٤

٤- ضرب العملة الإسلامية وتعريبها :

كانت عوامل عديدة تتجمع في الأفق كلها تشير إلى وجوب حدوث تطور كبير في نظام العملة المتعارف عليه في العالم الإسلامي بعد أن اتسعت رقعته ذلك الاتساع الكبير ، واستقرت

^١ الجهشباري : السابق ٦٧

^٢ العيش : السابق ص ٢٣٣

^٣ جرجي زيدان : تاريخ التمدن الإسلامي ٩١/١ .

^٤ البلاذري : فحول البلدان ص ٢٩٨

^٥ البلاذري : السابق ٢٩٨

^٦ ابن خلدون . المقدمة ٦٧٧/٢

أحواله الداخلية بعد مضي فترة من خلافة عبد الملك بن مروان ، فقد كان العالم الإسلامي يتعامل حتى ذلك الوقت بالعملة المالية لفارس والروم من دراهم ودنانير... وهذه العملات المالية قد تناقصت كمياتها المتداولة بشكل يثير القلق بعد انهيار الإمبراطورية الفارسية واضطراب الأحوال في إمبراطورية الروم ، فلم يعد حجم هذه العملات المتوافر يكفي لتغطية النشاط التجاري والاقتصادي والحاجة المالية للدولة الإسلامية الواسعة والنشطة^١ ، وكان الغش والتزييف قد انتشر في الدراهم منذ أواخر عهد الدولة الفارسية ؛ وكذلك كان حال الدنانير الرومانية إثر اضطراب أمور الدولة منذ زمن بعيد ، وفساد ذمم بعض المتعاملين بها من العرب أنفسهم ومن دخل في دولتهم^٢ ؛ فادى ذلك إلى أضرار وخيمة منها : " هبوط قيمة العملة وارتفاع أسعار الحاجيات ، وزوال الثقة المالية ، ومن أهمها الغبن الذي يقع على الدولة في استيفاء حقوقها من الضرائب ، ليؤدي ذلك إلى نقص كمية الخراج " ^٣ ..

كما كان الاختلاف في الأنظمة المالية السائدة في الدولة الإسلامية من نظم مالية أساسية وبيزنطية سببا في الاختلاف الواضح بين أحكام الجزية والخراج وعشور الأرض وعشور التجارة ؛ في العراق وفارس عنها في الشام ومصر ، مما قد يسبب بعض الصعوبات الاقتصادية^٤ .. وكانت هذه العملات مختلفة الأوزان والقيمة^٥ ؛ دون أن يكون هناك مقياس ثابت موحد في جميع أنحاء الدولة يمكن به أن تحدد النسب بينها^٦ ؛ مما كان يسبب عائقا ما للنشاط التجاري ، ويشكل حرجا وصعوبة للمسلمين حين يريدون دفع الزكاة^٧ ، زد على ذلك أن بعض الخارجين على الدولة كانوا يسارعون بسك عملات خاصة بهم ؛ ومن هؤلاء قطري بن الفجاءة الخارجي وعبد الله بن الزبير وأخوه مصعب وغيرهم^٨ كمظهر من مظاهر السيادة وتكريس الوجود والسيطرة السياسية ، كما أنه لم يعد مما يليق بدولة الإسلام الممتدة والقوية أن لا يكون لها عملتها الخاصة التي ترمز إلى استقلالها الاقتصادي وعزتها السياسية ...

^١ د. الرئيس: عبد الملك بن مروان ص 220، الخراج والنظم المالية ص 223-224

^٢ مقدمة بن جعفر: الخراج، المجلد الخامسة الباب الثامن (مخطوط) ص 22 ، ابن خلدون : المقدمة ج 2 ص 701

^٣ د. الرئيس: عبد الملك بن مروان ص 221

^٤ حسان علي حلاق : تعريب النقود والدواوين في العصر الأموي ص 45

^٥ البلاذري : فوح البلدان ص 454-455

^٦ د. الرئيس : الخراج ص 224

^٧ المقرئزي : رسالة النقود ضمن مجموعة النقود العربية الإسلامية وعلم النميات ص 43

^٨ حسان حلاق : مرجع سابق ص 25، 43، عبد الرحمن فهمي : النقود العربية 44

كل هذه العوامل كانت تتجمع لتشكيل حافزا إلى ضرب سكة إسلامية^١ خاصة يتعامل بها المسلمون جميعهم وتكون أساس نظامهم المالي غير معتمدين في ذلك على غيرهم من الدول والشعوب .. وكان الذي فعل ذلك على هذا الوجه الشامل عبد الملك بن مروان في الشام سنة ٧٤هـ^٢ ، ثم أمر بتعميمها في جميع النواحي سنة ٧٦هـ^٣ ، ثم جاء السبب المباشر والقريب والذي احتفى به بعض المؤرخين والرواة فجعلوه سبب تعريب العملة وسكها في دار الإسلام ..

فقد روي أنه في نطاق المبادلات التجارية بين الدولة الإسلامية وإمبراطورية الروم " كانت القراطيس تدخل بلاد الروم من أرض مصر، ويأتي العرب من قبل الروم الدنانير، فكان عبد الملك أول من أحدث الكتاب الذي يكتب في رءوس الطوامير مثل (قل هو الله أحد) وغيرها من ذكر الله ؛ فكتب إليه ملك الروم : إنكم أحدثتم في قراطيسكم كتابا نكرهه ، فإن تركتموه وإلا أتاكم في الدنانير من ذكر نبيكم ما تكرهونه ، فكبر ذلك في صدر عبد الملك أن يدع سنة حسنة سنها ؛ فاستدعى خالد بن يزيد بن معاوية وقص عليه الخبر ؛ فقال خالد : " أفرخ روعك يا أمير المؤمنين ؛ حرم دنائيرهم فلا يتعامل بها ، واضرب للناس سككا ، ولا تعف هؤلاء الكفرة عما كرهوا في الطوامير ، فقال عبد الملك : فرجتها عني فرج الله عنك ، وضرب الدنانير .. قال عوانة بن الحكم : وكانت الأقباط تذكر المسيح في رءوس الطوامير وتنسبه إلى الربوبية ؛ تعالى الله علوا كبيرا ، وتجعل الصليب مكان "بسم الله الرحمن الرحيم" فلذلك كره ملك الروم ما كرهه ، واشتد عليه تغيير عبد

^١ السكة: هي الحديدة التي تطبع عليها الدراهم ، ولذلك سميت الدراهم للضروبة سكة (الماوردي : الأحكام السلطانية ص ١٩٧) ويعرفها ابن خلدون من خلال تطور معناها فيقول : إنها " الحتم على الدنانير أو الدرهم التعامل بها بين الناس بطابع حديد ينقش فيه صور أو كلمات مقلوبة ويضرب بها على الدينار أو الدرهم ؛ فتخرج رسوم تلك النقوش عليها ظاهرة مستقيمة بعد أن يعتبر عيار النقد من ذلك الجنس في خلوصه بالسبك مرة بعد أخرى ، وبعد تقدير أشخاص الدراهم والدنانير بوزن معين صحيح يصطلح عليه ؛ فيكون التعامل بها عددا ، وإن لم تقدر أوزانها يكون التعامل بها وزنا ، ولفظ السكة كان اسما للطابع وهي الحديدة المتخذة لذلك ، ثم نقل إلى أثرها وهي النقوش المائلة على الدنانير والدراهم ، ثم نقل إلى القيام على ذلك والنظر في استيفاء حاجاته وشروطه وهي الوظيفة ، فصار علما عليها في عرف الدول ، وهي وظيفة ضرورية للملك ، إذ بها يتميز الخالص من المفشوش بين الناس في النقود عند المعاملات ، ويتقون في سلامتها الفش بتمت السلطان عليها بتلك النقوش المعروفة (ابن خلدون : المقدمة 2/700، 701)

^٢ سبق أن قام عمر بن الخطاب وعثمان ومعاوية وبعض عماله وابن الزبير وأخوه مصعب بمجهود محدودة في ضرب بعض العملات ، ولكنها لم تكن جهودا شاملة ضمن خطة واضحة لإحلال عملة عربية موحدة محل ما عداها من عملات (راجع د. الخربوطي : تاريخ العراق ص 221، 224، المقرئ : النقود الإسلامية ص 38، 40)

^٣ د. الرئيس : الخراج ص ٢٢٠-٢٢١ .

الملك ما غيره " ١ .. وبذلك أرضى عبد الملك غيرته الإسلامية وحيته الدينية ؛ فضرب الدينار والدرهم ؛ وجعلهما " على شكلين مدورين ، والكتابة عليهما في دوائر متوازية ، يكتب فيها من أحد الوجهين أسماء الله تليلاً وتحميداً وصلاة على النبي وآله ، وفي الوجه الثاني التاريخ واسم الخليفة " ٢ ..

ولم يكتف عبد الملك بتعريب العملة ؛ بل وحد عيارها .. فقد " كانت الدراهم من ضرب الأعاجم مختلفة كباراً وصغاراً ، فكانوا يضربون منها مثقالاً ، وهو وزن عشرين قيراطاً ، ويضربون منها وزن اثني عشر قيراطاً ويضربون عشرة قيراط ، وهي أنصاف المثاقيل ، فلما جاء الله بالإسلام واحتيج في أداء الزكاة إلى الأمر الوسط أخذوا عشرين قيراطاً واثني عشر قيراطاً وعشرة قيراط ، فوجدوا ذلك اثنين وأربعين قيراطاً فضربوا على وزن الثلث من ذلك ؛ وهو أربعة عشر قيراطاً ، فوزن الدرهم العربي أربعة عشر قيراطاً من قيراط الدينار العزيز ، فصار وزن كل عشرة دراهم سبعة مثاقيل " ٣ ، وهذا موافق لما سنه رسول الله ﷺ في فريضة الزكاة بغير وكس ولا اشتطاط ، فمضت بذلك السنة واجمعت عليه الأمة " ٤ ..

وبعث عبد الملك بالسكة إلى الحجاج ، حتى إذا فرغ الحجاج من ضرب الدراهم بعث بالسكة إلى سائر الأمصار لتضرب الدراهم بها ، وأمر عماله أن يرفعوا إليه تقريراً شهرياً عن مقدار ما يضربونه من دراهم " ٥ ..

محاربة تزيف العملة :

^١ البلاذري : فتوح البلدان ص 241-242 ، النويري : نهاية الأرب ج 21 ص 223-224 ، المقرئ : النقود الإسلامية ص 11 ، وقد انتهر رواة الشيعة هذه الفرصة فجعلوا من أشار على عبد الملك بضرب الدينار هو محمد الباقر بن علي بن الحسين . راجع : البيهقي : الخاسن والمساوي ج 467 ، 468 ، الدميري : حياة الحيوان ج 1 ص 55-56

^٢ ابن خلدون : المقدمة ج 2 ص 702 ، ويرجع بعض الباحثين في ضوء ما عثر عليه من دنانير عربية أن شكل الدينار قد تطور من الشكل البيزنطي إلى النمط العربي الكامل عبر ثلاث مراحل من التحسن التدريجي حتى تخلص من التصاوير والشارات البيزنطية وكذلك التصاوير العربية ولم يعد يحمل إلا الكتابة العربية فقط (النقشبندي : الدينار الإسلامي في المتحف العراقي ص 19 ، 24)

^٣ البلاذري : فتوح البلدان ص 45 وكان النبي (ص) قد أقر ذلك من قبل (أن كل عشرة دراهم وزن سبعة مثاقيل) وجعل هذا الوزن الشرعي إماماً ، واستمر في القضايا الشرعية إلى اليوم (ناصر النقشبندي : الدينار الإسلامي ص 12) ، ويستعين من فريضة الزكاة أن في العشرين ديناراً نصف دينار ، وفي المائتي درهم خمسة دراهم ، فيكون نصف الدينار ، يساوي خمسة دراهم كبار ، والدينار عشرة دراهم ، (السابق ص 14)

^٤ المقرئ : النقود الإسلامية المسمى بشذور العقود في ذكر النقود ص 13

^٥ السابق والصفحة

هذا وقد تشدد عبد الملك وخلفاؤه من بعده وولاقم في تعقب أية محاولة لغش النقود وتزييفها ومعاقبة من يثبت عليه ذلك ، فقد روي أنه أخذ رجلا يضرب على غير سكة المسلمين فأراد قطع يده ، ثم ترك ذلك وعاقبه ؛ " فاستحسن ذلك شيوخ المدينة " ^١ .. " ولما ولي ابن هبيرة العراق ليزيد بن عبد الملك خلص الفضة أبلغ من تخليص من قبله ، وجود الدراهم ، فاشتد في العيار ، ثم ولي خالد القسري فاشتد في النقود أكثر من شدة ابن هبيرة ، حتى أحكم أمرها أبلغ من إحكامه ، ثم ولي يوسف بن عمر بعدة فأفرط في الشدة على الطباعين وأصحاب العيار ، وقطع الأيدي وضرب الأبخار ، فكانت (العملة) الهبيرية والخالدية واليوسفية أجود نقود بني أمية ^٢ ..

^١ البلاذري : فوح البلدان ص 454

^٢ السابق والصفحة ، ابن خلدون : المقدمة 701/2

المبحث الثاني

جهود معمارية عظيمة للأمويين

انتقل المجتمع الإسلامي في العصر الأموي من طور البساطة والزهد ومحاولة التزام المشل الإسلامي الرفيع في إيتار الآخرة والتخفف من متاع الدنيا ، إلى طور حديد فيه شيء من الترف وقدر من التعم ، يقل أو يكثر ، وفيه أيضا ترخص في التلذذ بالدنيا ومتعها مادام ذلك لا يتناقى مع ما أباحه الدين وأحلته الشريعة ، وقد تركت هذه النقلة المدنية أثرها على مناحي الحياة المختلفة في العصر الأموي ؛ فإن اهتمام الأمويين بالإسلام وإعزازه لا يأخذ عندهم شكل الفتح والغزو ونشر الدين واللغة فحسب ، بل يشهد أيضا اهتماما بتشيد المساجد في البلاد المفتوحة وتعمير ما أنشئ منها من قبل ، وتزيينها وزخرفتها على نحو غير مسبوق ظل على مدار الزمن بعد ذهاب بني أمية مثار إعجاب وفخر ، وحرص الأمويين على قضاء مصالح الرعية ورعايتهم يتبدى أيضا في بناء مدن جديدة ، وتوسيع المدن القديمة ، ليتناسب ذلك مع اتساع رقعة الدولة ، وزيادة أعداد سكانها ، وشق الطرق وحفر الأنهار وإقامة المنتزهات التي تضفي على حياة الرعية لمسة من الراحة والتيسر وإشعارا بالحية وضرورات الحياة السياسية والعسكرية تفرض على الأمويين إقامة الحصون والقلاع ، وبناء المدن في البلاد المفتوحة لتكون مستقرا للجند وحماية لهم ، ومراكز إشعاع لنشر الدين وتعليم اللغة والاندماج الاجتماعي بين العرب وبعضهم ؛ وبينهم وبين أهل البلاد الأصليين .

والأمويون بعد ذلك لا ينسون حظ أنفسهم فينبون القصور الفخمة في الحواضر والبادي ، وفيها من وسائل التعم وأسباب الراحة الكثير ، ولا يقتصر الأمر عليهم في ذلك بل يشاركونهم فيه مياسر الرعية ؛ فتكون لهم أيضا قصورهم وأسباب راحتهم في ذلك المجتمع الذي فاضت فيه الأموال وكثر الخير ؛ وسنعرض فيما يلي عجالة من مآثر الأمويين الخالدة في هذه المجالات

١. عمارة المساجد :

شهد العصر الأموي بناء عديد من المساجد في البلاد المفتوحة لتكون منارات لنشر الدين وتعليم القرآن واللغة والانصهار مع سكان البلاد المفتوحة^١ ، كما شهد تطورا لكثير من المساجد القديمة .. وسوف نتناول فيما يلي نبذة عن بعض هذه المساجد ودور الأمويين في إنشائها على أعظم وجوه الفن والعمارة التي عرفها ذلك الزمان ..

^١ انظر المبحث الخاص بنشر الإسلام في عهد بني أمية

أ) مسجد قبة الصخرة^١ :

يقدم لنا ابن كثير وصفا له فيقول : " ولما أراد عبد الملك عمارة بيت المقدس وجهه إليه بالأموال والعمال ، واكل بالعمل رجاء بن حيوة ويزيد بن سلام مولاة .. وجمع الصناع من أطراف البلاد وأرسلهم إلى بيت المقدس ، وأرسل إليه بالأموال الجزيلة الكثيرة ، وأمر رجاء بن حيوة ويزيد أن يفرغا الأموال إفراغا ولا يتوقفا فيه ، فبثوا النفقات وأكثروا ، فبنوا القبة فجاءت من أحسن البناء ، وفرشها بالرخام الملون وحفاها بأنواع الستور ، وأقاما لها سدة وخداما بأنواع الطيب والمسك والعنبر والماورد والزعفران ، يعملون منه غالية ويخرون القبة والمسجد من الليل ، وجعلوا فيها من قناديل الذهب والفضة والسلاسل الذهبية والفضية شيئا كثيرا ، وفرشها بأنواع البسط الملونة ، وكانوا إذا أطلقوا البخور شم من مسافة بعيدة ، وقد عملوا فيها من الإشارات والعلامات المكذوبة شيئا كثيرا مما في الآخرة ، فصوروا فيه صورة الصراط وباب الجنة وقدم رسول الله ﷺ ، ووادي جهنم وكذلك في أبوابه ومواضع منه ، فاعتر الناس بذلك إلى زماننا " ... " وبالجمل فبان صخرة بيت المقدس لما فرغ من بنائها لم يكن لها نظير على وجه الأرض بمجة ومنظرا ، وقد كان فيها من القصوص والجواهر والفسيفساء وغير ذلك شيء كثير وأنواع باهرة ، ولما فرغ رجاء بن حيوة ويزيد بن سلام من عمارتها على أكمل الوجوه ، فضل من المال الذي أنفقاه على ذلك ستمائة ألف مثقال ، وقيل ثلاثمائة ألف مثقال ، فكتبوا إلى عبد الملك يخبرانه بذلك ، فكتب إليهما قد وهبته لكما ، فكتبوا إليه ، إنا لو استطعنا لزدنا في عمارة هذا المسجد من حلي نساتنا ، فكتب إليهما " إذا أبيتما أن تقبلاه فأفرغاه على القبة والأبواب ، فما كان أحد يستطيع أن يتأمل القبة مما عليها من الذهب القديم والحديث " ^٢.

ب) عمارة المساجد في عهد الوليد بن عبد الملك :

كانت النهضة العظمى في عمارة المساجد في عصر الوليد بن عبد الملك الذي شهد استقرارا داخليا وفتحا عظيما في الخارج ، وكان الرجل مغرما بحب العمارة والبناء ، وفي عصره

^١ بنه عبد الملك سنة 691م ويسميه الإفرنج خطأ مسجد عمر والظاهر أن البناء تداعى بعد مائة سنة فرم على عهد الخليفة العباسي المأمون ، فغير اسم عبد الملك في النقش وجعله عبد الله وأضاف إليه اسم المأمون إلا أنه سها عن تغيير التاريخ فجاءت الكتابة كما هي الآن : (بني هذه القبة عبد الله عبد الله الإمام المأمون) أمير المؤمنين في سنة اثنين وسبعين يقبل الله منه ورضى عنه ، آمين) ولقد سعى الرسام العباسي إلى التقريب بين حروف الاسم الجديد ، وحشرها في الفراغ الضيق الذي أحدثه ، وقد كان دوفروغوه أول من اكتشف هذا التزوير (فيليب حتى : تاريخ العرب ص286-287)

^٢ ابن كثير : البداية والنهاية 280/8-281

اعتنى بالمسجد الحرام بمكة وأعاد بناء مسجد المدينة المنورة ؛ كما ابنتى مسجد بيت المقدس والمسجد الأموي فأتى في ذلك عملا عظيما وأنفق نفقات هائلة فخلف آثارا خالدة ...
فقد بعث الوليد إلى عامله على مكة خالد بن عبد الله القسري بثلاثين ألف دينار فضربت صفائح وجعلت على باب الكعبة وعلى الأساطين التي داخلها وعلى الأركان والميزاب فكان أول من ذهب البيت في الإسلام^١ ..

وأمر عامله على المدينة عمر بن عبد العزيز رحمه الله بهدم مسجد الرسول ﷺ في المدينة وإعادة بنائه من جديد ، فجرد عمر لذلك ومعه وجوه أهل المدينة وعلماءها مثل القاسم بن محمد بسن أبي بكر وسالم بن عبد الله بن عمر وأبي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث ؛ وبعث الوليد إلى ملك الروم يعلمه أنه أمر بهدم مسجد النبي ﷺ وبنائه من جديد فأرسل إليه ملك الروم مائة ألف مثقال من الذهب ومائة عامل وبعث إليه من الفسيفساء بأربعين حملا وأمر أن يتبع الفسيفساء في المدائن التي خربت فبعث بها إلى الوليد^٢ ..

— المسجد الأموي :

وقد بناه الوليد بن عبد الملك على أنقاض كنيسة ماري يوحنا بعد أن عوض نصارى دمشق عنها^٣ ؛ فجاء على نحو منير للدهشة والإعجاب ، ومازال يحتفظ ببعض جوانب العظمة حتى الآن ، وقد ترك لنا الحافظ ابن كثير وصفا منيرا لذلك المسجد نقبس منه هذه الفقرات :

" وذكروا أن أرضه كانت مقضضة كلها ، وأن الرخام كان في جدرانها إلى قامات ، وفوق الرخام كرمة عظيمة من ذهب ، وفوق الكرمة الفصوص المذهبة والخضر والحمر والزرق والبيض ، وقد صور بها سائر البلدان المشهورة ؛ الكعبة فوق الخراب وسائر الأقاليم بمنة ويسرة ، وصوروا ما في البلدان من الأشجار الحسنة المثمرة والمزهرة وغير ذلك ، وسقفه مقرنص بالذهب ، والسلاسل المعلقة فيها جميعها من ذهب وفضة ، وأنوار الشموع في أماكن مفرقة .. وكان في محراب الصحابة برنية حجر من بلور ، ويقال : بل كانت حجرا من جوهر ، وهي الدرة ، وكانت تسمى القليلة ،

^١ يعقوبي : السابق 24/3

^٢ الطبري : السابق 435/6 ، 436 ، يعقوبي : السابق 24/3

^٣ ابن كثير : السابق 144/9 ، وذلك أن المسلمين لما فتحوا دمشق كان خالد قد فتحها عنوة من الباب الشرقي وأبو عبيدة فتحها صلحا من باب الجابية ، ولذلك أخذوا نصف كنيسة يوحنا عنوة فجعلوه مسجدا وتركسوا للنصارى نصفها فظل كنيسة ، فلما ضاق المسجد بالمصلين وأراد الوليد توسيعه وبناءه من جديد أراد أن يضم إلى مساحته ما تبقى من الكنيسة ، فلم يوافق النصارى ، ثم تفاوضوا على أن يترك لهم كنيسة توما وبعض الكنائس الأخرى ولم تكن دخلت في عهد الصلح وتركوها له فوافقه على ذلك ، وكان أول من هدمها بيده (ابن كثير السابق 144/9-146)

وكانت إذا طفتت القناديل تضيء لمن هناك بنورها ... وكانت الأبواب الشارعة من داخل الصحن ليس عليها أغلاق ، وإنما كان عليها الستور مرخاة ، وكذلك الستور على سائر جدرانسه إلى حد الكرامة التي فوقها القصوص المذهبة ، ورءوس الأعمدة مطلية بالذهب الخالص الكثير ، وعملوا له شرفات تحيط به.. والمقصود أن الجامع الأموي لما كمل بناؤه لم يكن على وجه الأرض بناء أحسن منه ولا أسمى ولا أجمل منه ، بحيث إذا نظر الناظر إليه أو إلى جهة منه أو إلى بقعة أو مكان منه تحير فيها نظره لحسنه وجماله ، ولا يمل ناظره بل كلما أدمن النظر بانت له أعجوبة ليست كالأخرى ، وكانت فيه طلسمات من أيام اليونان ، فلا يدخل في هذه البقعة شيء من الحشرات بالكلية ، ولا من الحيات ولا من العقارب ولا الخنافس ولا العناكيب ، ويقال : ولا العصافير أيضا تعشش فيه ولا الحمام ولا شيء مما يتأذى به الناس ، وأكثر هذه الطلسمات أو كلها كانت مودعة في سقف هذا المعبد ^١ ..

وقد بالغ المؤرخون وكثروا في وصف النفقات الهائلة التي أنفقت على ذلك العمل الهائل فقال بعضهم : " وأنفق في مسجد دمشق أربعمئة صندوق من الذهب ، وفي كل صندوق أربعة عشر ألف دينار " ، وفي رواية في كل صندوق ثمانية وعشرون ألف دينار ، فعلى ذلك يكون ما أنفق على المسجد خمسة ملايين وستمئة ألف دينار ، أو أحد عشر مليوناً ومائتي ألف دينار ، وقيل إنه صرف أكثر من ذلك بكثير ^٢ ..

ويبدو أن الروايات كثرت في ذلك في عهد الوليد نفسه ، فجمع الناس وخطبهم قائلاً : " إنه بلغني عنكم أنكم قلتم أنفق الوليد بيوت الأموال في غير حقها ، ثم قال : يا عمرو بن مسهجر : قم وأحضر أموال بيت المال ، فحملت على البغال إلى الجامع ثم بسط لها الأنطاع ثم أفرغ عليها المال ذهباً صبيها وفضة خالصة ، حتى صارت كوما ؛ حتى كان الرجل إذا قام من الجانب الواحد لا يرى الرجل من الجانب الآخر ، ثم أمر بها فوزنت فإذا هي تكفي الناس ثلاث سنين مستقبلة ، وفي رواية أخرى : تكفيهم ست عشر سنة مستقبلة ، لو لم يدخل للناس شيء بالكلية ، فقال لهم الوليد : والله ما أنفقت في عمارة هذا المسجد درهماً من بيوت المال ، وإنما هذا كله من مالي ، ففرح الناس وكبروا وحمدوا الله عز وجل على ذلك ، ودعوا للخليفة وانصرفوا شاكرين داعين ^٣ ..

وهذه الروايات رغم ما قد تحمله من مبالغات فهي لا ريب تحمل عناصر صدق كثيرة ، فلا ريب أن هذا المسجد على هذا النحو من البناء قد تكلف تكلفة عظيمة ، وهذه التكلفة لا يستطيع أن يقوم بها مال الوليد بن عبد الملك وحده فيما نظن ، غير أنه من المرجح أن الوليد وغيره

^١ البداية والنهاية ٩-١٤٩-١٥٠

^٢ السابق ٩-١٤٨-١٤٩

^٣ السابق ٩-١٤٩

من الأمراء والكبراء قد تبرعوا بكثير من أموالهم لإتمام هذا العمل الجليل ، الذي جاء معبرا عن قدرات الدولة الإسلامية الفنية والإنشائية ؛ مما كان منار دهشة لأعدائها حين كان بعض رسلهم يأتون إلى دمشق فيروا هذا الأثر العجيب ، ولذا فإنه يقال إن عمر بن عبد العزيز لما ولي الخلافة هم أن يروع ما بمسجد دمشق من الرخام والفسيفساء والذهب ويجعله في بيت المال ، فقيل له : إن فيه مكيدة للعدو ، فتركه على حاله ^١ ..

ولا ريب كذلك أن الوليد نفسه كان بصيرا بأمره إلى الحد الذي لا يذهب به إلى لون من السرف الغليظ المستهجن ، فقد روي أنه أراد أن يجعل بيضه قبة المسجد من ذهب خالص ، فقال له مهندسوه : إن صنع لبنة واحدة يحتاج ألوفاً من الذهب ، فقال الوليد : " إني لا أعجز عن ذلك ، ولكن فيه إسراف وضياح مال في غير جهة اللائق به ، ولا يكون ما أردنا من ذلك نفقة في سبيل الله ؛ ورده على ضعفاء المسلمين خير من ذلك " ^٢ ..

٢- بناء المدن وعمارة البلدان :

ظفر العصر الأموي بجماعة من الولاة البارزين الذين امتازوا بقدرات عالية في الإدارة والحكم مثل زياد بن أبي سفيان وابنه عبيد الله بن زياد وعبد العزيز بن مروان وموسى بن نصير ويزيد ابن المهلب وخالد القسري وغيرهم .

وقد أفسحت طبيعة النظام الأموي القائم على اللامركزية في الإدارة المجال أمام هذه الشخصيات القوية لتترك بصماتها الواضحة على الحياة في الأمصار التي تولت قيادتها ..

ومن أجل أعمالهم فيها بناء المدن وعمارتها وشق الأنهار والتيسير على الرعية ؛ فزياد بن أبي سفيان لما ولي البصرة عاملاً لمعاوية قام بإصلاحات عمرانية كثيرة فأعاد بناء المسجد الجامع وبناه بالحص والآجر وسقفه بالساج وزاد فيه ؛ كما أعاد بناء دار الإمارة على نحو أهاج بلابل الشعر عند بعض الشعراء فقال :

بني زياد لذكر الله مصنعة من الحجارة لم تعمل من الطين

لولا تعاون أيدي الناس ترفعها إذا قلنا من أعمال الشياطين ^٣

وطلب أهل البصرة من معاوية أن يحفر لهم نهراً جارياً ؛ فأمر زيادا فحفر ذلك النهر وبعث

بمعقل بن يسار ففتحه تبركا به لأنه من أصحاب رسول الله ﷺ فقال الناس : نهر معقل ! ^٤ ..

^١ البعقوري : السابق ٤٢/٣-٤٣

^٢ ابن كثير : السابق ١٤٧/٩-١٤٨

^٣ ابن قتيبة . المعارف ٢٤٦ ، البلاذري فتح البلدان ٣٤٢

^٤ البلاذري السابق ٣٥٢

وسار ابن زياد على نهج أبيه فبنى قصر البيضاء^١ ؛ فكان مثار دهشة وعجب وكان الناس يقصدونه من كل مكان للتفرج عليه^٢ ؛ كما ابنتى مدينة صغيرة سماها مدينة الرزق ، وكان قد مسمى خلقا كثيرا من أهل بخارى فأنشأ لهم مدينة ، عرفت باسمهم^٣ ، وقد حذا أهل البصرة حذو أمرالسهم فابنتى أغنياؤهم القصور ، وأشهرها قصر أنس بن مالك رضي الله عنه والقصر الأحمر الذي بناه عمرو بن عبسة ابن أبي سفيان ، وقصر المسيرين الذي شاده عبد الرحمن بن زياد ، وقصر التواقي الذي بناه زياد ، وقصر النعمان بن صهبان وقصر زربي مولى عبد الله بن عامر^٤ ، كما اهتموا بحفر الأنهار العذبة مثل نهر الأساورة الذي حفره عبد الله بن عامر؛ ونهر حرب الذي حفره مسلم بن زياد وغيرها^٥ ، كما ابتنوا الحمامات الكثيرة المتنوعة^٦ ..

ولما ولي الحجاج العراق بنى مدينة واسط واتخذها مقرا له ، كما بنى مدينة أخرى تعرف بالفيل ومصرها وحفر أنهارا عديدة كنهري الصين والنيل والزاي ، وأحيا ما حول هذه الأنهار من أراض^٧ .

ولما وقع سيل الجحاف بمكة سنة ٨٥ هـ وأحاط بالكعبة وذهب بالحجاج وأمتعهم حتى حلت نكبة مفضلة بأهلها أرسل عبد الملك بن مروان إلى عامله على مكة أن يعمل على تصريف هذه المياه وتحسين دور الناس ففعل^٨ ..

فلما تولى خالد القسري العراق أظهر مواهبه في استصلاح الأراضي وشق الأنهار والعمير والبناء فحفر بالعراق أنهارا عديدة من أشهرها نهر خالد المبارك والجامع وغيرها^٩ ، كما استصلح كثيرا من الأراضي الزراعية^{١٠} ، وابنتى بنايات عديدة بالكوفة^{١١} ، كما قام ببناء أسواق جديدة

^١ الطبري : السابق ٥ / ٥٢٢ ، الإمامة والسياسة ٢٢/٢

^٢ القزويني : آثار البلاد ص ٢٠١ ، الخروبلي : السابق ص ٢٩٢

^٣ ابن الفقيه : مختصر كتاب البلدان ص ١٩١

^٤ البلاذري : فحول البلدان ص ٣٤٩ — ٣٥٠

^٥ البلاذري : السابق ٣٤٢

^٦ البلاذري : السابق ٢٤٨ — ٣٥٠

^٧ البلاذري : فحول البلدان ٢٨٨

^٨ السابق ٦٥٠

^٩ النويري : السابق ٢١/٤٥٢ ، ابن الأثير : السابق ٤/٢٣٦

^{١٠} الطبري : السابق ٧ / ١٤٣

^{١١} ابن قتيبة : المعارف ٣٩٨

وجعل لكل أهل حرفة مكانا خاصا بهم^١ ، وبني أخوه أسد بن عبد الله قرية جديدة عرفت باسمه ، ونقل الناس إليها ، فقبل سوق أسد^٢ ..

ولما قدم عبد الله بن عمر بن عبد العزيز عاملا على العراق من قبل يزيد بن الوليد أتاه أهل البصرة فشكوا إليه ملوحة مائهم ؛ وطلبوا منه حفر نهر لهم ، فكتب بذلك إلى يزيد الذي أرسل إليه يقول ، " إن بلغت نفقة هذا النهر خراج العراق — ما كان في أيدينا — فأنفقه عليه " ، فحفر النهر الذي يعرف بنهر ابن عمر ، فقال رجل ذات يوم في مجلسه : والله إني أحسب نفقة هذا النهر تبلغ ثلاثمائة ألف أو أكثر ، فقال ابن عمر : لو بلغت خراج العراق لأنفقته عليه^٣ ..

وفي مصر أيضا تولى عبد العزيز بن مروان أمرها نحو عشرين عاما (٦٤ — ٨٥ هـ) فكانت له فيها إنجازات واضحة .. وأدخل ضروبا من الإصلاح وبني مقياسا للنيل ؛ وزاد في جامع عمرو بن العاص من ناحية الغرب ، وأدخل في شماله رحبة فسيحة ، وأقام على خليج أمير المؤمنين قنطرة عند الحمراء القصوى بطرف القسطنطينية ونقش عليها اسمه سنة ٦٩ هـ^٤ .. وبني مدينة حلوان واتخذها عاصمة لولايته سنة ٧٣ هـ بعد أن تفشى وباء الجذام بالقسطنطينية ، ونقل إليها بيت المال وأنشأ بها بركة كبيرة ساق إليها الماء من العيون القريبة من جبل المقطم على قناطر معلقة مشيدة على أعمدة تصل عيون الماء بالبركة ، وغرس عبد العزيز في حلوان الأشجار والنخيل ، وبني بها المساجد وغيرها من البنايات الفخمة ، حتى قيل إنه بذل في سبيل ذلك مليون دينار^٥ ..

وفي الموصل شيد الحر بن يوسف حفيد مروان بن الحكم ، وكان واليا عليها في عهد هشام دارا أنيقة من الرخام الخالص والمرمر عرفت بالمنقوشة لما امتازت به من النقش البديع ، كما بني فيها الفنادق ؛ ولما رأى الحر ما يعانيه أهل الموصل من المشاق في الحصول على ماء الشرب شق لهم قناة عمرت طويلا وغرس الأشجار على ضفتيها ، حتى أصبحت وكأنها منتزه عام لأهل المدينة^٦ .. ومن آثار الأمويين الخالدة في دمشق مجاري مياهها ، فقد بلغ نظام مجاري الماء من الدقة بحيث أصبح لكل دار في دمشق نافورة خاصة بها ، وذلك بفضل القنوات السبع الرئيسية التي شققها

^١ اليعقوبي : كتاب البلدان ص 319

^٢ البلاذري : السابق 184

^٣ البلاذري : السابق 363

^٤ ابن دقماق : الانتصار لواسطة عقد الأمصار 63/4 ، ١٢٠

^٥ د. حسن إبراهيم تاريخ الإسلام السياسي 299/1 ، والنظر : ابن دقماق : السابق ٣٩/٤ ، ١٠٥

^٦ عمر أبو النصر : الحضارة العربية 385—386

الأمويون لتوصيل الماء إلى أنحاء المدينة ؛ والقناطر الكثيرة المقامة على الأعمدة التي شيدها لتوصيل ماء الشرب إلى الدور^١ ..

وعلى ذلك يتضح لنا مدى التوجه المعماري وفلسفته عند الأمويين التي لا تفصل تلبية حاجات الناس والرغبة الصادقة في التيسير عليهم ..

٣- بناء القصور :

كان خلفاء بني أمية يصرفون كثيرا من سني خلافتهم في البوادي طلبا للصحة والهواء النقي وهربا من الأوبئة والطاعون الذي كان يكثر في المدن^٢ .

ولم يكن خلفاء بني أمية بدوا جالفي الطباع ، بل كانوا رجالا متعممين يأخذون بحظهم من الحياة ، عارفين في الوقت ذاته أنهم أئمة الناس وقادتهم وأن عليهم أن يظهروا أمامهم بمظهر من يحترم قواعد الدين وأصول الشريعة .. ومنذ زمن بعيد خط لهم معاوية رضي الله عنه هذا الخط ، فقد كان صحابيا جليلا تعرف له الرعاية قدره ولكن في ذات الوقت جاري طبيعة عصره الذي ابتنى فيه أفراد الرعاية الموسرون القصور^٣ ، وتعم المسلمون بشمار الفتح وأموال الغنائم وسبل الرفاهية .. وعلى ذلك فقد ابتنى معاوية قصر الخضراء في عهد عثمان وهو بعد وال على الشام^٤ ..

ولقد أسفرت البحوث الأثرية الحديثة من اكتشاف عدد من القصور في بادية الشام يرجح الباحثون أنها كانت لبني أمية لأسباب شتى وأدلة متعددة ..

وإذا كنا لا نرد ذلك فإننا يجب أن نحذر من الإسراف في استنباط الأحكام عن حياة الأمويين في ذلك العصر أو أنماط معيشتهم من تلك الرسوم التاريخية الباقية التي وجدوها على جدران هذه القصور .. فقد ظلت هذه البنايات أمدا بعد بني أمية غير مهجورة ، وليس بمستبعد أبدا أن يضيف إليها من جلاء بعدهم ما شاء من ألوان وظلال ..

ومن هذه القصور المكتشفة حديثا " قصر المشقى " الذي أهدي السلطان عبد الحميد جزءا كبيرا من إفريز واجهته إلى القيصر وليم الثاني فهي معروضة اليوم في متحف القيصر فردريك ببرلين^٥ ، وقصر عمرة الذي اكتشفه ألوا موزل 1898م الذي نقبتس بعض وصفه المتع الطويل الذي سجله كارل بروكلمان حيث قال : " فعلى أحد جدران القصر نجد رسوم أربعة ملوك يفترض أنهم يمثلون

^١ د. حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام السياسي 543/1 ، فليب حتى : تاريخ العرب 198/1

^٢ عمر أبو النصر : الحضارة العربية 393

^٣ عن هذه القصور (معجم البلدان ٩٧/7 وما بعدها)

^٤ البلاذري : انساب الأشراف 53/5 حيث أقمه أبو ذر الغفاري بأحد أمرين إما بالإسراف الذي لا يقر إن كان المال ماله ، أو بالخيانة إن لم يكن المال ماله ..

^٥ بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية 185/1-189

الإمبراطوريات التي دانت للإسلام ؛ وقد نقش فوقها بالحروف العربية واليونانية ما يميز كلا منها عن كل في عين الناظر ، فهذا قصر وهذا كسرى وهذا النجاشي وهذا للذريق (آخر ملوك إسبانيا القوط) .. ويشتمل البناء — الناهض من حجر كلسي يضرب إلى الحمرة — على قاعة رئيسية مسقوفة بثلاثة عقود أسطوانية ، وهي تؤدي مقابل المدخل إلى محراب ذي عقد أسطواني منخفض ؛ تقوم على كل من جانبيه غرفة هي بدورها ذات عقد أسطواني وعلى شكل هيكل ، ويدخل الضياء إلى هذه الفسحة من ست نوافذ صغيرة في جدران العقود الأسطوانية الأمامية ، وإلى جهة الشرق تجاور الغرفة الرئيسية ثلاث غرف صغيرة أولاهها بمسقوفة بعقد أسطواني والثانية بعقد مصلب والثالثة بقبة ، وهذه تؤلف قسم الحمامات في القصر ؛ وهي مزودة بمقاعد تمتد على طول الجدران ، وبشبكة من أنابيب الماء ، وإنما تزدان هذه الغرف الأربع كلها برسوم حفظت لنا في حالة رائعة ، وهي تمثل آخر ما أبدعه الفن الهليني في البلاد الآسيوية..^١ ، وغير قصر المشق وعميرة تتردد في كتب المؤرخين المحدثين أسماء قصور أخرى ثم اكتشفتها مثل الأخضر والموقر والقسطل والخير^٢ ، والقصر الأخير كشف عن الأثري الفرنسي شلومبرج ، ونقلت بعض بقاياها إلى دمشق حيث نصبست في مدخل المدينة الغربي^٣ ، وقصر آخر يعرف الآن بخرقة مفجر — قرب أريحا — كشف عنه الأثري ديمتري براكلي بين سنتي ١٩٣٦ — ١٩٤٨م^٤ ..

^١ بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية ١٨٦/١ — ١٨٩

^٢ الخير كلمة بمعنى البستان أو الحديقة (عمر أبو النصر : الحضارة العربية ص ٣٧٧ ، ٣٧٦ ، ٣٧٧ ، بروكلمان :

السابق ١٨٩ ، فيليب حقي : السابق ٣٣٨/١ — ٣٣٩)

^٣ فيليب حقي : السابق ٣٣٩/١

^٤ فيليب حقي : السابق ٣٤:٢ ، تاريخ سورية ١٢٥/٢.

المبحث الثالث

نهضة الثقافة والعلوم في العصر الأموي

ظل كثير من الناس يظنون أن العرب في العصر الأموي كانوا يشـتاقون إلى البداوة ؛ ويحتنون إلى الحفظ والتلقين ؛ يتناقلون به العلوم فلا يكتبون ولا يدونون ويصنفون^١ .. غير أنه يتضح — كما مر بنا — أن الدراسات الحديثة تثبت أن العرب آنذاك عرفوا الكتابة وتأليف الكتب وتصنيف العلوم ، بل إنهم اهتموا بالترجمة إلى لغتهم وافتوا إلى معارف الآخرين ينهلون منها ... كما أثبتت هذه الدراسات أن بني أمية كان لهم نصيب كبير في تشجيع ذلك ورعايته ، وضربوا بسهم وفر في النهضة الثقافية والمعرفية للآمة الإسلامية ؛ وأن هذه النهضة لم تكن قاصرة على رواية الشعر أو حفظ الأمثال أو معرفة القرآن والحديث فقط بل امتدت لتشمل جوانب شتى من العلوم النظرية والطبيعية على السواء ..

وفيما يلي سوف نلقي نظرة فاحصة وسريعة أيضا على هذه الجوانب المختلفة ودور الأمويين الثقافي والحضاري في هذه الحقبة من تاريخنا ؛ والذي يعد بحق واحدا من مآثرهم الخالدة وإنجازاتهم العظمى حيث لم يكونوا مجرد حكام أو ساسة ، ولم يكونوا محض فاتحين أو غزاة .. بل كانوا أيضا مساهمين بنشاط في بناء الحضارة الثقافية الإسلامية والإنسانية ..

أولا: العلوم العربية والشرعية:

مرت بنا في صفحات هذا البحث أمثلة عديدة لتدين الأمويين واهتمامهم بالعلوم الشرعية وحرصهم على تعليمها أبناءهم ، وقد كان بعضهم علماء مشهورين وقتها ، مثل معاوية وعبد الملك وعمر بن عبد العزيز وغيرهم .. وسوف نستعرض فيما يلي نبذة عن تطور هذه العلوم ودور الأمويين في ذلك ..

١- نهضة هذه العلوم في العصر الأموي :

شهد العصر الأموي نهضة كبيرة في التفسير وعلوم القرآن والفقه والعقيدة وعلم الكلام ، وتألق فيه نجم عديد من العلماء الذين ظل المسلمون بعد ذلك يأخذون من علومهم ويستشهدون بأقوالهم واجتهاداتهم ، وليس ذلك بمستغرب على عصر عاش فيه جماعة من كبار الصحابة والتابعين وعدد وفير من العلماء على امتداد الدولة الإسلامية المترامية الأطراف آنذاك ، على اختلاف نواحي نبوغهم وتفوقهم ..

^١ جرجي زيدان : تاريخ التمدن الإسلامي 50/3

فظهر منهم في التفسير أمثال ابن عباس وتلاميذه كسعيد بن جبير ومجاهد بن جبر وغيرهما ،
والضحاك بن مزاحم ومحمد بن كعب القرظي وقتادة بن دعامة السدوسي وغيرهم^١ .
وبلغ الاهتمام بالقرآن وعلومه شأوا بعيدا حتى ظهر في عصرهم عدد من أصحاب
القراءات القرآنية المشهورين ، وكان معظمهم من الموالى مما يدل على مدى تغلغل الإسلام في نفوس
بعضهم ، فمنهم عبد الله بن عامر بن زيد اليحصبي (ت ١١٨ هـ)^٢ وعاصم بن أبي النجود مولى بني
جذيمة (ت ١٢٧ هـ)^٣ وأبو عمرو بن العلاء (ت ١٥٥ هـ)^٤ وحزرة بن حبيب الزيات (ت ١٥٦ هـ)
٥ ، وقد توفي العالمان الأخيران في العصر العباسي ، ولكن كان لهما عطاؤهما في العصر الأموي ، وفيه
كانت جهودهم لتلقي العلم حتى نبغا فيه ، وعلى شيوخ ذلك العصر تعلمنا^٦ ، وكان هؤلاء العلماء
تلاميذهم ومجالسهم ، وكانت لهم أيضا كتبهم في القراءات مثل كتاب "اختلاف مصاحف الشام
والحجاز والعراق" لعبد الله بن عامر و"المقطوع والموصول" له أيضا ، و"الوقف والابتداء" لأبي
عمرو بن العلاء^٧ ..

وبرز جماعة من الفقهاء مثل شريح بن الحارث الكندي القاضي وقبيصة بن ذؤيب الخزاعي
الذي تولى الكتابة لعبد الملك بن مروان ، وكان مقربا منه ، وإبراهيم النخعي ومكحول بن أبي مسلم
الدمشقي وحامد بن أبي سليمان وأبي الزناد عبد الله بن ذكوان وربيعة بن أبي عبد الرحمن التيمي
المعروف بريعة الرأي^٨ ..

كما ظهر آخرون في علم الكلام والجدل مثل الحسن البصري الذي تعددت نواحي نبوغه
والحسن بن محمد بن الحنفية وغيلان الدمشقي القدرى وعمرو بن عبيد وواصل بن عطاء إمامي
المعتزلة وجهم بن صفوان رأس الجهمية ، بل إنه يروى أن الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز كان له
جهد في بحث العقائد الإسلامية فألف رسالة في الرد على القدرية^٩ ..

^١ راجع : سزكين : تاريخ التراث العربي ١٧٩/١ - ١٩٦

^٢ راجع : ابن النديم : الفهرست ٤٣

^٣ ابن النديم : الفهرست ٤٣

^٤ ابن خلكان : وفيات الأعيان ٣ / ٤٤٦ - ٤٧٠ .

^٥ السابق ٢ / ٢١٦ ، ابن النديم : السابق ص ٤٤

^٦ جرجي زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية ١ / ٢٤٠ - ٢٤٢

^٧ سزكين : السابق ١ / ١٤٧ - ١٤٨

^٨ السابق ٢ / ١٩ - ٢٦

^٩ راجع : السابق ١ / ٢٥٤ وما بعدها ، وراجع أبا نعيم : حلية الأولياء ٣٤٦/٥ - ٣٥٣

٢- دور الأمويين في هذه النهضة الثقافية :

أ) الاهتمام بالقرآن واللغة :

شهد العصر الأموي دخول كثير من الأعاجم في الإسلام وتعربهم ، مما كان له أثره الواضح على نطقهم اللغة العربية ، والمحرف ألسنتهم لها ، فالتفتى ذلك عملا مضاعفا للحفاظ على اللغة وتقوم السنة الناطقين الجدد بها وتيسر اطلاعهم على علوم الإسلام المكتوبة ..

وقد روي أن زياد بن أبي سفيان هو الذي أشار على أبي الأسود الدؤلي بوضع بدايات علم النحو ، وقيل إن معاوية نفسه هو الذي طلب من عامله على العراق ذلك لما دخل عليه أحد أبناء زياد فسمعه يلحن ، فأرسل إلى أبيه يلومه ، فتفتق ذهن زياد عن ضرورة وضع قواعد اللغة العربية ^١ ، ويبدو أن إعجم المصحف بالنقط والشكل يرجع إلى نفس العصر ، فقد ذكر أبو داود السجستاني أن عبيد الله بن زياد والي البصرة كلف كاتبه يزيد الفارسي هذا العمل ^٢ ، ولما ولي الحجاج العراق طلب من عاصم بن أبي النجود وضع النقط المميزة للحروف المتشابهة في القرآن ليسر على قارئه ، وبخاصة من غير العرب ، فوضع بذلك أسس الإعجم في العربية ^٣ ، ثم وضع النحوي نصر بن عاصم علامات الألفاظ والأعشار في القرآن ، فتم بذلك تقسيم كتاب الله إلى أجزاء مختلفة في عصر الحجاج ^٤ ..

وفي هذا المقام لا ينبغي أن ننسى الإشارة إلى دور تعريب الدواوين — الذي قام به الأمويون وولاقم — في الدفع بالعربية والتعريب إلى آفاق جديدة ..

ب) تدوين الحديث والفقه :

واشتد حرص الأمويين على تدوين العلوم الإسلامية وبخاصة الحديث الشريف ، وقد لاقوا في سبيل ذلك عدة صعوبات نشأت في الأساس من تخرج العرب من التدوين واحتمالات الخطأ أو التحريف في الحديث بما له من أهمية تشريعية قصوى ..

وقد بدأ ذلك الاهتمام الأموي بالتدوين وحفظ تراث الإسلام منذ سنين ولايتهم الأولى ؛ فقد كان مروان بن الحكم أثناء ولايته على المدينة في خلافة معاوية حريصا على العلم وتدوينه خشية عليه من الضياع ؛ فقد أراد أن يحفظ معارف مشاهير الصحابة فاستقدم زيد بن ثابت إليه وطرح عليه

^١ ابن خلكان : السابق ٥٣٦/٢-٥٣٧ ، ابن نباتة : سرح العيون ١٥٨ ، ١٥٩

^٢ السجستاني : المصاحف ص 117

^٣ راجع سزكين : السابق ٨ / ١

^٤ ابن الجزري : غاية النهاية 336/2 وقد توفي نصر بن عاصم سنة 90 هـ أو سنة 100 هـ

عددا من الأسئلة بينما كان الكتاب الجالسون خلف ستر يدونون الإجابات ، فلما لحظ زيد ذلك تخرج وقال : يا مروان عذرا، إنما أقول برأيي ^١ ..

وأرسل عبد العزيز بن مروان عند ما كان واليا على مصر إلى التابعي كثير بن مرة الحضرمي (ت 7هـ) راجيا منه أن ينسخ عن الصحابة أحاديث رسول الله ﷺ التي لم يروها أبو هريرة ، إذ كانت أحاديث أبي هريرة لديه ^٢ ..

وكانت الدفاتر المدونة عن علم الزهري كثيرة جدا في خزانة الوليد بن عبد الملك ^٣ ، وكان عمر بن عبد العزيز عالما مرهف الحس عظيم الوعي ، فقد أراد أن يوقف تيار الكذب على الرسول ﷺ الذي فشا ، فرأى أن يسجل الحديث الصحيح من تلك الثروة الهائلة ، فكتب إلى عامله على المدينة أبي بكر بن محمد بن حزم الأنصاري (ت 12هـ) يأمره أن يدون حديث رسول الله ﷺ قبل أن يدرس العلم ويفنى العلماء ؛ ويحضره على الجلوس للناس ونشر العلم كيلا يكون سرا فيضيع ؛ فقال له : " انظر ما كان من حديث رسول الله ﷺ فأكبه فإني خفت دروس العلم وذهاب العلماء ؛ ولا تقبل إلا حديث النبي ﷺ ، ولفشوا العلم ولتجلسوا حتى يعلم من لا يعلم ، فإن العلم لا يهلك حتى يكون سرا " ^٤ ، وقد كتب ابن حزم بعض ذلك ولكن ضاع منه ، وتوفي الخليفة ولم ير نتاجه ^٥ ، وقد وضع هشام بن عبد الملك من يكتب أخبار الزهري عنه ^٦ ..

ج) تدوين التاريخ والاهتمام به :

يشير بعض الباحثين إلى معاوية بن أبي سفيان على أنه كان "المؤسس الأول لعلم التاريخ الإسلامي ؛ أو على الأقل كان الراعي الذي عمل على أول تدوين باللغة العربية " للتاريخ " بمعناه العام لا على أنه المغازي النبوية وقصص الأنبياء ؛ ولا على أنه الأنساب وأيام العرب ، ولكن على أنه تاريخ الأمم السالفة ، وسير الملوك والحروب وأنواع السياسات مما هو جدير بالقراءة على الملوك " ^٧ ..

وهذا الحكم يعتمد على مبررات تاريخية حقيقية ؛ فقد روى المسعودي أن معاوية " كان ينام ثلث الليل ؛ ثم يقوم فيقعد فيحضر الدفاتر فيها سير الملوك وأخبارها والحروب والمكائد ؛

^١ ابن سعد : الطبقات 361/2

^٢ السابق 448/7 ، سزكين : السابق 234/1

^٣ ابن سعد : السابق 236/2

^٤ البخاري : الصحيح ، باب كيف يقبض العلم 31/1 ، الدارمي : السنن ١٢٦/١ ابن سعد : السابق ٣٥٣/8

^٥ ابن حجر : تهذيب التهذيب 39/12 ، سزكين : السابق 228/1

^٦ راجع : شاکر مصطفى : التاريخ العربي والمؤرخون ٩٥/١

^٧ راجع السابق ١٢٥/١

فيقرأ ذلك غلمان له مرتبون ، وقد وكلوا بحفظها وقراءتها ، فتمر بسمعه كل ليلة جل من الأخبار والآثار وأنواع السياسات "١ .. وقد استقدم معاوية إلى دمشق أحد علماء اليمن البارزين في التاريخ وهو عبيد بن شربة الذي ألف عدة كتب منها "كتاب الملوك وأخبار الماضين" ٢ ، ولم يكن عبيد هذا هو العالم الوحيد الذي استقدمه معاوية إلى دمشق فكتب عنه روايات وصيرها كتباً ؛ بل إن كثيراً من الأخباريين أهل الدراية بأخبار الماضين وسير الغابرين من العرب وغيرهم من المتقدمين وفدوا على معاوية أيضاً ٣ ..

ثانياً : الاهتمام بالشعر والشعراء :

استمر الشعر العربي في تألقه في العصر الأموي وقد ساعدت ظروف الحياة ومنجزات الدولة آنذاك على توسيع مجالات القول وإثراء اللغة، فقد وجد الشعراء في تعدد الآراء السياسية وتباين الأحزاب والجماعات وإيمان القادة بدور الشعر وأهميته ؛ وجدوا في ذلك كله سيلاً إلى الاهتمام بأمور الدولة ؛ فظهر الشعر السياسي الذي يعد من أبرز ملامح التطور الشعري في العصر الأموي ؛ ووجدوا مجالاً جديداً للإبداع الفني في معارك الفتح ومواطن الظفر والنصر وساعات القتال والخوف ، وكان الشعراء يواكبون هذه الحياة الثرية بشاركتهم الفعلية أو مساهمتهم الفنية ، ثم جاءت مظاهر الرفاهية التي ولدت على العالم الإسلامي مع اتساع مساحته ومشاركة غير العرب في نواحي نشاطه ووفرة الغنائم وكثرة الأموال ؛ جاءت هذه الرفاهية لتهيئ لبابل الشعر عند جماعة من الشعراء توهجت عواطفهم وتيسرت حياتهم ؛ فأفرغوا جهودهم في شعر الغزل الصريح ، يلقونه واثقين من عفتهم وتفهم المجتمع الإسلامي لهم ؛ مع ما نالهم أحياناً من سوء ظن وكدر صفو .. بينما أطلق آخرون لأنفسهم الخيال وراء غزل عفيف يتغنون به وينسجون حوله القصص والخيالات عن عشاق عشقوا وماتوا ضحايا الهوى مخلصين لمن أحبوا ...

والأمويون شريحة من ذلك المجتمع النابض بالحياة ، ولكنها شريحة فعالة ومؤثرة ؛ وهم الحاكمون الموجهون دولااب النشاط السياسي والاجتماعي في ذلك العصر، ونحسن نرصد بعض إسهاماتهم في تقدم مسيرة الشعر العربي الذي حظي دائماً في هذه الفترة بالرعاية والاهتمام ..

١ المسعودي : مروج الذهب ٤١/٢

٢ ابن النديم : الفهرست ١٣٢ ، المسعودي : مروج الذهب ٨٥/ ٢

٣ المسعودي : السابق ٤٠٦/٢ ، شاعر مصطفى : السابق ١٢٥/٢

أ) علاقة الأمويين بالشعراء :

لقد أدرك الأمويون أهمية الشعراء في الدعاية السياسية لهم إزاء الأحزاب السياسية الأخرى ؛ وأهيتهم في إبراز منجزات الدولة ودحض حجج الخصوم ؛ ولذلك فقد جمعوا حولهم جماعة من أكابر الشعراء في ذلك العصر، منهم من اختص بهم وانقطع إليهم ؛ ومنهم من مدحهم بين الحين والآخر، وكان ذلك دأب ولائم أيضا ^١ ، وبعض هؤلاء الشعراء ظل على ولائه لبني أمية حتى في أيام محنتهم أو تسلط خصومهم ؛ كأي صخر الهذلي الذي عانى اضطهاد ابن الزبير له وسجنه إياه ^٢ ؛ وكذلك أبو العباس الأعمى الذي نقاه ابن الزبير إلى الطائف ^٣ ، ثم لم يزحزحه ذلك غن ولائه للأمويين حتى إذا جاء سلطان بني العباس عرفوا ذلك فيه فتكروا له ^٤ ، وكذلك فعل العباسيون مع أبي عطاء السندي لعلمهم بميله إلى بني أمية ، حتى هجأهم وأنشد شعرا يترحم فيه على أيام الأمويين وعزهم ^٥ ..

ووجد بالمثل شعراء آخرون منحرفون عن الأمويين ، منحازون لأعدائهم ، وكم لاقى الأمويون من لسانهم وقولهم ، فإذا ما اقترمت أحزابهم وأتوا إلى الأمويين من جديد عرفوا لهم قدرهم وخطرهم فغفروا لهم ، وكان هناك فريق آخر من الشعراء الذين لا ينتمون إلى حزب بعينه ، فإذا لم يعجبهم من أحد شيئا سلطوه بالسنة حداد ، كما فعل يزيد بن مفرغ الحميري مع ابن زياد ، حيث هجأه هجاء مقذعا ، فلما خاف تبعة عمله استجار بمعاوية فأجاره ، ثم صفح عنه ابن زياد ^٦ ، وكذلك صفح الحجاج عن العديل بن الفرخ ؛ وتناسى هجاءه إياه وأستهانت بوعيده ^٧ ، وكان ابن قيس الرقيات شاعر الزبيريين محاربا في صفوفهم مع مصعب بن الزبير ، فلما انتصر عليه عبد الملك عفا عن الشاعر ونال مدامحه ^٨ ، وبالمثل فعل هشام بن عبد الملك مع الكميث بن زيد شاعر الشيعة ؛ بعد أن كان أمر بالتكيد به وسجنه لما أسرف في هجاء بني أمية ، ثم عفا عنه في النهاية ^٩ ، والأمثلة على ذلك عديدة ... وبصورة عامة فإن حلم الأمويين قد امتد ليشمل كثيرا من الشعراء المعارضين ،

^١ الحوي : أدب السياسة في العصر الأموي ٢٣٢-٢٣٣

^٢ الحوي : السابق ١٥٣

^٣ الأصفهاني : الأغاني 243/16

^٤ راجع السابق 228/16-230

^٥ السابق 250/17-251

^٦ راجع الطبري : السابق ٣١٧/5-٣٢١ ، الأصفهاني : السابق 60/17-61

^٧ راجع الحوي : السابق ص 251

^٨ راجع السابق ص 250 ، الأصفهاني : الأغاني ٦٩-٧٠

^٩ الأصفهاني : السابق ١٦/338-٢39

اللهم إلا في حالات قليلة كان فيها الشاعر خارجا عن الجماعة محاربا للدولة ، مثلما حدث مع أعشى همدان الذي اشترك في ثورة ابن الأشعث فقتله الحجاج ^١ .. وهكذا استطاع الأمويون تجميع كثير من هذه الألسنة الحداد ، وجعلها خادمة لأهدافهم ورؤيتهم ، وساعدهم على ذلك ثراؤهم ؛ وظنوا أن إعطاء هؤلاء من بيت المال ليس حراما ، إذ إنهم يدعون إلى تمكين سلطان الإمام وحرب الخارجين عليه ، وتمجيد منجزات الدولة ، فهم بمثابة جهاز إعلامي خطير لابد من وجوده ؛ ولا ضرر من معاونته وتقويته ...

ب) اهتمام الأمويين بالدور الاجتماعي والتربوي للشعر :
ومن ناحية أخرى كان الأمويون تواقين للشعر ، مدركين أهميته ودوره الاجتماعي بغض النظر عن نفعه السياسي ..

فقد كتب معاوية إلى زياد أن أوفد إلي ابنك ، فلما قدم عليه لم يسأله معاوية عن شيء إلا نفذ منه ، حتى سأله عن الشعر، فلم يعرف منه شيئا، فقال له : ما منعك من تعلم الشعر ، فقال: يا أمير المؤمنين إني كرهت أن أجمع في صدري مع كلام الرحمن كلام الشيطان ، فقال معاوية : اغرب ؛ فوالله ما منعتني من القرار يوم صفين إلا قول ابن الاطنابة حيث قال :

أبت لي عفتي وأبي بلالي	وأخذي الحمد بالثمن الريح
وإعطائي على الإعدام مالي	واقدمي على البطل المشيح
وقولي كلما جشأت وجاشيت	مكائنك تحمدي أو تستريحي

ثم كتب إلى أبيه أن روه الشعر، فرواه حتى كان لا يسقط عنه شيء منه ^٢ ..

وروى ابن عساكر بإسناده عن أبي العباس أحمد بن يحيى بن ثعلب : " قال معاوية لعبد الرحمن بن الحكم بن أبي العاص : قد رأيتك تعجب بالشعر (وكان عبد الرحمن شاعرا) ؛ فإذا فعلت إياك والتشبيب بالنساء ، فصر الشريفة وترمي العفيفة ، وتقر على نفسك بالفضيحة ، وإياك والهجاء فإنك تحق به كريما وتستثير به لثيما ، وإياك والمدح الوقاح ، وطعمة السؤال ، ولكن الفخر بمفاخر قومك ، وقل من الأمثال ما تزين به نفسك وشعرك وتؤدب به غيرك " ^٣ ..

^١ الطبري : السابق ٦ / 377-378

^٢ ابن كثير : البداية والنهاية ٨ / 283-284

^٣ ابن عساكر تاريخ دمشق مجلد ٤٠ / 272 ، 407

(ج) تذوق الأمويين الشعر وعنايتهم بتدوينه :

وكان عبد الملك خيرا بالشعر ناقدا له ؛ وقد أحس أن مدح بعض الشعراء له جاف ؛
يصدر عن عاطفة باردة فقال : " تشبهونا مرة بالأسد الأبحر ومرة بالجبل الأوعر ؛ ومرة بالبحر
الأجاج ؛ ألا قلتم فينا كما قال أيمن بن خزيم في بني هاشم :

فأركم مكابدة وصوم وليلكم صلاة واقترء

إلى آخر الأبيات ^١ ..

ولما وفد عليه ذو الرمة ومدحه بقصيدة أطال فيها وصف الناقة ولم يذكر الخليفة إلا في
بيتين اثنين قال له عبد الملك : ما مدحت بهذه القصيدة إلا ناقتك فخذ منها الثواب .. ^٢

بل كان عبد الملك يختار رعيته في الشعر ويحزنه تضييع بعضهم له ؛ فقد روى أنه كان
معجبا بشعر عبد الله بن جحش فكتب إليه بالقدوم ؛ فورد كتابه وقد مات ؛ فجاءه ابنه يرجو ثوابه ؛
فلما سأل عن بعض شعر أبيه لم يعرف ؛ فقال : أف لك ، ورحم الله أباك ، فقد ضيعت أدبه ؛
وعقفته إذ لم ترو شعره ، أخرج فلا شيء لك عدنا ^٣ ..

ولما قدمت عليه قبيلة عدوان تقدمهم رجل وسيم عفيف ، وكان فيهم معبد بن خالد
الجدلي ؛ وكان دميما فتأخر فيهم ، فأنشد عبد الملك بعض أبيات ذي الإصبع العدواني وسأل عنها
الرجل الوسيم فلم يمر جوابا ؛ وكان معبد يجيب في كل مرة ؛ فأنقص عطاء الجميل من سبعمائة إلى
ثلاثمائة وزاد عطاء معبد من ثلاثمائة إلى سبعمائة ^٤ ..

وهكذا كان كثير من خلفاء بني أمية يطرب للشعر ويجزي عليه ^٥ ، وكان هذا دأب
أمرائهم ؛ حتى لقد أوصى مسلمة بن عبد الملك بثلاث ماله لأهل الأدب وقال : " إنما صنعة جحف
بأهلها " ^٦ ، بل كان بعضهم شعراء معروفين بجودة شعرهم ؛ مثل يزيد بن معاوية والوليد بن يزيد
من الخلفاء ؛ وعبد الرحمن بن الحكم — الذي سبق ذكره — من الأمراء ...

^١ الحوفي : السابق ص 157

^٢ الأصفهاني : الأغاني 150/10 ، الحوفي : السابق ص 236

^٣ الأغاني 158/19 — 160

^٤ الطبري : السابق 163/6 — 164

^٥ راجع عن مواقف هشام بن عبد الملك : الحوفي : السابق ص 236

^٦ ابن كثير : السابق ٣٢٩/٩

ومن الجدير بالذكر هنا أن اهتمام الأمويين بالشعر لم يقتصر على هذه الجوانب المتعددة بل امتد أيضا إلى محاولة جمعه وتدوينه ، حيث كلف الوليد بن عبد الملك حمادا الرواية بجمع الشعر الجاهلي في ديوان^١ ..

ثالث : اهتمام الأمويين بالعلوم التجريبية والترجمة :

ورثت الدولة الأموية علوم الأعاجم من الفرس والروم بعد انقيار دولتهم .. وكان لابد — للإفادة من ذلك التراث — من ترجمته ونقله إلى العربية بعد أن غدا " تراثا تقليديا تداولته أيدي الشارحين والمخترفين من أجداد اليونانية أو السريانية "^٢ ..

وقد كان بعض هذه الترجمات حافظا على الاهتمام بالعلوم التجريبية وربما كان العكس صحيحا أحيانا .. ومعلوم أن كل ذلك يحتاج إلى جهد كبير تعجز عنه إمكانات الأفراد العاديين؛ ولذا فقد وقف الأمويون يشجعون على ذلك حتى تحققت أعمال جيدة على نحو ما سئرى ..

فقد كان معاوية سباقا إلى رعاية العلوم وأهلها فأنشأ بيتا للحكمة " أي مركزا للبحث ومكتبة ، واستمر المروانيون يعنون بهذا البيت حتى في أسفارهم وحروبهم، يسألون عنه ويهتمون به"^٣ كما بنى الأمويون مرصدا في دمشق ، والمرصد تدل على قوس عريض في العلم لما تقتضيه من أدوات وقتية ومن خبرة ومن علم^٤ ، ويشير بعض المؤرخين إلى دور ابن أنال النصراني طبيب معاوية في نقل بعض معارف الطب إلى العربية^٥ ، وكان يحيى الدمشقي النصراني من علماء دينه والقادرين على الترجمة إلى العربية ؛ وكان صديقا ليزيد بن معاوية ؛ واتسع له حلم الخليفة ووزرائه حتى أُلِفَ عدة مؤلفات في العقيدة المسيحية والدفاع عنها ؛ وفي التاريخ والفلسفة والخطابة والشعر؛ منها كتاب لإرشاد النصراني في جدالهم مع المسلمين؛ وكانت بعض مناقشاته تحدث في مجلس الخليفة نفسه^٦ ..

على أن بداية الجهود الحقيقية في الترجمة بدأت مع خالد بن يزيد بن معاوية حكيم بني أمية، وقد تلمذ للراهب الرومي مريانس وتعلم منه صناعة الطب والكيمياء ؛ وله ثلاث رسائل في الصناعة ؛ ذكر في إحداها ما كان بينه وبين مريانس ؛ وكيف تعلم منه الرموز التي أشار إليها^٧ ؛ ويعتبر خالد أول من عني بنقل الطب والكيمياء إلى العربية ؛ فقد أمر بإحضار جماعة من اليونانيين ممن

^١ الأغاني 144/5 — 165 ، شاعر مصطفى : السابق 95/1

^٢ فيليب حتي : تاريخ سورية 132/1

^٣ العرش الدولة الأموية ص 348

^٤ السابق والصفحة

^٥ ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء في طبقات الأطباء ص ١٧١

^٦ حتي : تاريخ العرب 314/2 ، الحزبي : أدب السياسة ص 402

^٧ ابن خلكان : السابق ٢٢٤/2 ابن الندم الفهرست ص ٤٩٧

درسوا بمدرسة الإسكندرية في مصر وتفصّحوا بالعربية كذلك ؛ فطلب منهم نقل كثير من الكتب من اللسان اليوناني والقبطي إلى اللسان العربي ، وكان هذا أول نقل في الإسلام ^١ ، كما طلب منهم أن يترجموا كتب جالينوس في الطب ، فوضع بذلك أساس العلوم الطبية ^٢ ، وهو أول من أعطى الترجمة والفلاسفة والحروب والآلات والصناعات ، وهو أول من جمعت له الكتب وجعلها في خزانة الإسلام .. ففي دمشق إذن أنشئت أول دار للكتب في العالم العربي ^٣ ..

وفي عهد مروان بن الحكم ترجم طبيب يهودي فارسي الأصل اسمه ماسرجويه كتابا في الطب عن السريانية ؛ وكان قد ألفه باليونانية راهب نصراني في الإسكندرية يدعى أهرون ^٤ .. أما عبد الملك بن مروان فقد قام بأعظم هذه الأعمال جميعها في الترجمة وأكثرها خطرا وأثرا حين أمر بتعريب الدواوين ؛ ففتح للعربية بابا واسعا للانتشار والثراء ... وفي عهد عمر بن العزيز أمر الخليفة بنقل معاهد الطب من الإسكندرية إلى أنطاكية وحران ^٥ ، وأشار عمر على بعض الروم الذين كانوا في قصره وكانوا يعرفون العربية أن يترجموا له بعض كتب اليونان ، فترجموا له كتابا في الطب ، وأخرجه للناس بنعد أن استخار الله أربعين يوما ^٦ ..

وكان الخليفة هشام بن عبد الملك مشغولا بالاطلاع على الآثار الأدبية الخاصة بالأمم الأخرى ، فقد أمر بترجمة كتاب عن تاريخ فارس يحتوي على صور الأكاسرة الذين ورد ذكرهم فيه ؛ وذلك سنة ١١٣هـ ، ويخبرنا المسعودي أنه رأى هذا الكتاب سنة ٣٥٣هـ في إصطخر ^٧ ، وتسرب هذا الشغف إلى المحيطين بالخليفة ؛ فترجم سالم مولاة بعض كتب أرسطو إلى العربية ؛ كما ورث ابنه جبلة بن سالم عن أبيه كثيرا من معارفه وعلومه فترجم بعض الآثار التاريخية الفارسية إلى العربية ^٨ ، ثم جاء ابن المقفع الأديب الفارسي الأصل بعد ذلك في أواخر العصر الأموي فترجم آثاره الجليلة مثل كلیلة ودمنة وغيرها عن الأدب الفارسي ^٩ ..

^١ ابن ندیم : الفهرست ص ٣٥٢ ، وراجع د . عمر فروخ : العلم في العصر الأموي ص ١٥٠ ، مقال بمجلة المجمع العلمي العراقي ج ١ مج ٤٠ يناير سنة ١٩٦٥م

^٢ راجع : د . حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام السياسي ٥٢٤/١

^٣ كرد علي : خطط الشام ٢٣/٤ — ٢٤

^٤ ابن ندیم : السابق ٤١٣ ، ابن العربي : تاريخ مختصر الدول ص ١٩٢

^٥ ابن أبي أصيبعة : السابق ص ١٧١

^٦ الحوفي : أدب السياسة ص ٤٠٣

^٧ المسعودی التنبيه والإشراف ص ١٠٦ ، عمر أبو النصر : الحضارة العربية ص ٣٥٥

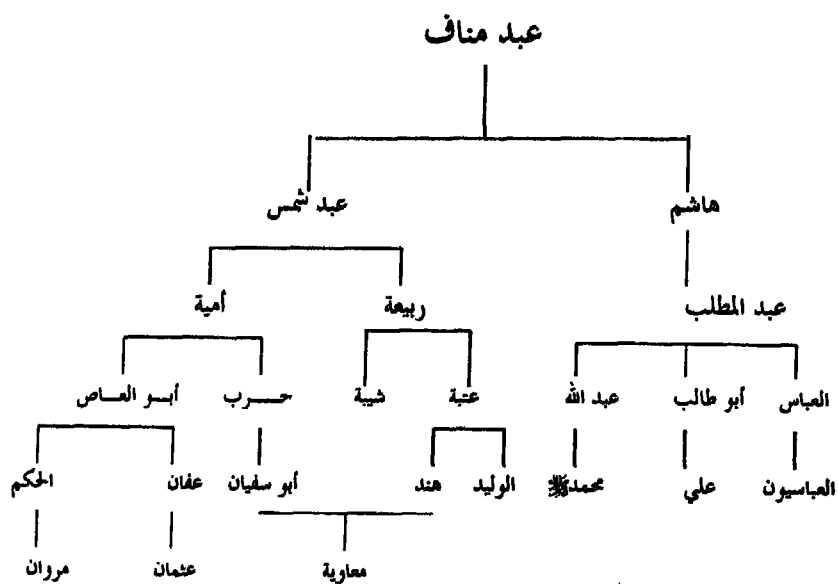
^٨ ابن ندیم الفهرست ص ١٧١ ، عمر أبو النصر : السابق والصفحة

^٩ ابن ندیم : السابق ١٧٢

الملاحق

ملحق رقم (١)

نسب بني أمية وقرابتهم لبني هاشم



ملحق رقم (٢)

الخلفاء الأمويون وسنوات حكمهم

- ١- معاوية بن أبي سفيان ٤١-٦٠هـ ، (٦٦١-٦٧٩ م)
- ٢- يزيد بن معاوية ٦٠-٦٤هـ ، (٦٧٩-٦٨٣ م)
- ٣- معاوية بن يزيد ٦٤هـ ، (٦٨٣-٦٨٤ م)
- ٤- مروان بن الحكم ٦٤-٦٥هـ ، (٦٨٤-٦٨٥ م)
- ٥- عبد الملك بن مروان ٦٥-٨٦هـ ، (٦٨٥-٧٠٥ م)
- ٦- الوليد بن عبد الملك ٨٦-٩٦هـ ، (٧٠٥-٧١٥ م)
- ٧- سليمان بن عبد الملك ٩٦-٩٩هـ ، (٧١٥-٧١٧ م)
- ٨- عمر بن عبد العزيز ٩٩-١٠١هـ ، (٧١٧-٧٢٠ م)
- ٩- يزيد بن عبد الملك ١٠١-١٠٥هـ ، (٧٢٠-٧٢٤ م)
- ١٠- هشام بن عبد الملك ١٠٥-١٢٥هـ ، (٧٢٤-٧٤٣ م)
- ١١- الوليد بن يزيد ١٢٥-١٢٦هـ ، (٧٤٣-٧٤٤ م)
- ١٢- يزيد بن الوليد بن عبد الملك ١٢٦هـ ، (٧٤٤ م)
- ١٣- إبراهيم بن الوليد بن عبد الملك ١٢٦-١٢٧هـ ، (٧٤٤ م)
- ١٤- مروان بن محمد ١٢٧-١٣٢هـ ، (٧٤٤-٧٤٩ م)

ملحق رقم (٣)

موقف الإسلام من الغنائم

ينص الإسلام على وجوب إخلاص نية الجهاد لله ؛ لتكون كلمة الله هي العليا ، وقد ورد تعبير " في سبيل الله " مرتباً بالجهاد والقتال ٣٢ مرة في القرآن الكريم ، ولا يكاد أمر بالقتال يخلو من ذلك التعبير ^١ .. وقد أوضح النبي ﷺ أن من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله ، وليس من قاتل لغنم أو ذكر ^٢ ، وقد نظم القرآن أمر الغنائم والأنفال تنظيماً دقيقاً ، وبين مصارفها كما اعتبرها منة من الله على المؤمنين ما دامت تأتي كنتائج للقتال ، إذ إنَّما " في وضع الشرع غير مقصودة " ^٣ ، وقال النبي ﷺ في معرض تعداده نعم الله عليه : " وأحلت لي الغنائم ولم تحل لنبي قبلي " ^٤ ، كما أمر النبي أصحابه بالخروج يوم بدر قائلاً : هذه غير قریش فيها أموالهم ، اخرجوا إليها لعل الله ينفلكموها ^٥ ، وكانت ممارسات أبي بكر وعمر في قيادة حركة الفتح والتخطيط لها تضع حافز الغنائم كأحد المخبرات النفسية للجهاد ؛ بخاصة عند القبائل العربية التي أسلمت بأخرة ، مثلما حدث عندما حرض أبو بكر العرب عند دعوتهم لقتال الروم ^٦ ، وكما رغبهم عمر كسي يتجهوا لقتال الفرس — وكانوا يكرهون قتالهم — حتى جعل ليجيلة ربع ما غلبوا عليه إن ساروا نحو العراق ^٧ ، وقال أحد جنود العرب وقادة القبائل محرضاً إياهم على قتال الروم يوم اليرموك : " وكيف ندع هذه الأنهار المتفجرة والزروع والأعشاب والذهب والفضة والدياج ؛ ونرجع إلى قحط الحجاز وجديه وخيز الشعر ولباس الصوف " ، وقد أيدته في حديثه قائد المسلمين أبو عبيدة بن الجراح المشهور بزهده وورعه ^٨ ، لأنه يعرف أن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده ، والعاقبة للمتقوى ،

^١ د. جميل عبد الله المصري : الفتحاحات بين دوافعها الإسلامية ودعاوى المستشرقين ، مقال بمجلة المنهل السعودية ص ٧٠ ، وراجع : محمد فؤاد عبد الباقي : المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم لملاحظة هذه الظاهرة ..

^٢ البخاري حديث رقم ٢٨١٠

^٣ الجويني : غياث الأمم ٢٠٧ ، وراجع سورة الحشر ، وسورة الفتح ١٩-٢٠ ، وسورة الأنفال ٧ ، وسورة الأحزاب ٢٦-٢٧

^٤ راجع مسلم : صحيح مسلم كتاب الجهاد ٥٣/١٢ ، وأحمد : المسند رقم ٧٤٢٧

^٥ ابن هشام : السيرة النبوية ١٠٨/٢

^٦ البلاذري : فتوح البلدان ١١٥

^٧ السابق ٣٥٣

^٨ الرازي : فتوح الشام ٩٨-٩٩

وأن المال في الحقيقة مال الله الذي استخلف فيه عباده ، ليطيعوه ؛ فإذا لم يفعلوا أَدال منهم وأورثه قوما آخرين ...

ملحق رقم (٤)

آراء الفقهاء حول تعيين أهل الحل والعقد

اختلفت آراء فقهاءنا في المراد من مصطلح أهل الحل والعقد ، فمنهم من يقوإهم الفقهاء والعلماء الذين يمتازون بالخصافة وعمق الدراية والإخلاص لدين الله عز وجل ، ممن أطلق عليهم فيمد بعد اسم : المجتهدين ، وقد فسروا بذلك لفظ : أولي الأمر في قوله تعالى : " وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم " ^١ ، ومن قال بذلك من الصحابة ابن عباس ، ومن التابعين مجاهد ، ومن المتكلمين الماوردي ، وبعض المحدثين ^٢ ، ويمكن وصف هذه النظرة في تحديد معنى أهل الحل والعقد بأنها نظرة تجريدية تتخطى الواقع التاريخي للأمة ؛ حيث لم تكن طائفة العلماء والفقهاء هي صاحبة الكلمة الأولى في اختيار أحكام في معظم فترات تاريخنا ، بل كانت في بعض الأحيان طائفة مستبعدة من دائرة الاختيار ؛ تعرض للأذى والنكال وتسلط المتغلبين على الحكم ، وهي نظرة مثالية تفترض وجود مجتمع فاضل يجعل على قمة جهازه السياسي والإداري طبقة مثقفة واعية تقوده نحو المثل الأعلى؛ وربما بدت هذه النظرة متأثرة إلى حد كبير بما ينبغي أن يكون ، وبما كان حادثا بالفعل في دولة الرسول ﷺ وخلفائه الراشدين ، تلك الفترة التي كانت فيها دائرتا السياسة والعلم منطبقتين انطباقا يكاد يكون كاملا ، فكانت الطليعة البارزة في ذلك المجتمع — أو أهل الحل والعقد فيه — أعلم الناس بالإسلام وأخلصهم له ، وكانت الأمة من حولهم مدفوعة بدافع النديين الصادق إلى الالتزام بآرائها وتبجيلها ، غير أنها للأسف كانت فترة صغيرة من عمر تاريخنا لم تستغرق أكثر من بضع وثلاثين سنة ، وبدأت في أواخرها دائرتا السياسة والعلم تفترقان تدريجيا وبدرجة متزايدة ...

وفي عصر متأخر من عصر الصحابة والتابعين الذين حددوا غالبا مفهوم أهل الحل والعقد كما سبق ، كانت مساحة الرؤية أكثر اتساعا ووضوحا ورصدا للتطور الحادث في ذلك المصطلح ؛ كما نجد عند ابن تيمية وابن خلدون والجويني وغيرهما ، فابن تيمية يقول : " ولا يصير الرجل إماما

^١ سورة النساء آية ٥٩

^٢ راجع : ظافر القاسمي : نظام الحكم في الشريعة والتاريخ الإسلامي ص ٢٣٥-٢٣٦ ، ومن ذكر أن ذلك رأيهم من المحدثين : د. سعيد رمضان البوطي من فقهاء الشام المعاصرين .

حتى يوافقه أهل الشوكة الذين يحصل بطاعتهم له مقصود الإمامة ، فإن المقصود من الإمامة إنما يحصل بالقدرة والسلطان " ^١ ..

ويسير ابن خلدون في نفس الاتجاه فيرى أن الشورى والحل والعقد " لا تكون إلا لصلح عصبية يقتدر بها على حل أو عقد أو فعل أو ترك ، وأما من لا عصبية له ولا يملك من أمر نفسه شيئا ولا من حمايتها إنما هو عيال على غيره ، فأى مدخل له في الشورى أو أي معنى يدعوه إلى اعتباره فيها " ^٢ ، ويقول الجويني : " فالوجه عندي في ذلك أن نعتبر في البيعة حصول مبلغ من الأتباع والأنصار والأشياء يحصل بهم شوكة ظاهرة ومنعة قاهرة " ^٣ ، ثم يقول في الرد على من يعتبرون أهل الحل والعقد هم أهل الاجتهاد الفقهي : " فلا أرى لاشتراط كون العاقد مجتهدا وجهها لانحسا ، ولكن أشرت أن يكون المبايع ممن يفيد مبايعته منة واقتهارا .. " ^٤ .

ومن علمائنا المعاصرين يرى الإمام محمد عبده أن أهل الحل والعقد هم : " الأمراء والحكام والعلماء ورؤساء الجند وسائر الرؤساء والزعماء ، الذين يرجع إليهم الناس في الحاجات والمصالح بعامه " ^٥ ، وهذا القول كأنه تفسير عصري لمعنى أهل الشوكة والعصبية في عصرنا والتي تحدث عنها العلماء السابقون ^٦ ..

^١ منهاج السنة ١/١٤٢

^٢ المقدمة ٢/٦٣٤

^٣ غياث الأمم ٥٥-٥٦

^٤ السابق ص ٥٧

^٥ مجلة المنار ص ٣٨٣-٣٨٩ الجزء الثاني عشر من المجلد الثالث عشر ، عدد الأحد ٣٠ ذي الحجة ١٣٢٨ هـ ، ١ ،

يناير سنة ١٩١١ م

^٦ راجع: محمد عبده : تفسير القرآن الحكيم ٢٠٣/٤ - ٢٠٤

ملحق مرقم (٥)

دراسة حول أسباب العداء بين القيسية واليمانية

حاول بعض المؤرخين رد العداء بين القيسية واليمانية إلى جذور تعود إلى العصر الجاهلي ، على أن ذلك لا دليل عليه ، فقد عاش العرب الشماليون والجنوبيون معا قبل الإسلام دون صراع خاص ، إلا ما كان من شأنه أن يحدث بين القيسية أنفسهم أو اليمانية أنفسهم في مجتمع الجاهلية^١ ، ويميل لجولدسيهر إلى اعتبار العداوة بين عرب الشمال وعرب الجنوب نتيجة ثانوية للخصومة المزعومة بين قريش والأنصار — الذين يعدون من عرب الجنوب — ويبدو ذلك الافتراض تعسفا للأحداث والنتائج ، أما فلهورزن فيؤكد وجهة النظر القائلة بأن العداء بينهما لم يظهر قبل فتح الشام وهجرة قيس إلى هناك^٢ ، هذا في حين يرجح بروكلمان أن العداوة بين الفريقين قائمة على أساس الفروق الجنسية بين عرب الشمال وهم شريقون خلص وعرب الجنوب الذين تسري في عروقهم دماء عربية مختلطة^٣ .. ويفترض آخرون أن الصراع بينهم يعود إلى أسباب اقتصادية خالصة ؛ حيث يرى أن كلا الفريقين كان يمثل حزبا سياسيا ذا رؤية متميزة ، وبخاصة فيما يتصل بالفتوحات الإسلامية والموقف إزاء الاندماج مع الشعوب في البلاد المفتوحة^٤ ...

ولاشك أن تفجر الصراع بين القيسية واليمانية في مرج راهط لم يكن له صلة بالفتوحات والموقف من الشعوب المفتوحة مما يشكك في سلامة التصور السابق ..

ومن الواضح وجود فروق ثقافية واجتماعية بين عرب الشمال — الذين كانوا أكثر بدواة وأقل غنى وثروة قبل الإسلام — وعرب الجنوب الذين كانوا أكثر تحضرًا واحتكاكا بالثقافات الأجنبية ؛ حبشية كانت أو فارسية أو رومية^٥ ، وقد استمرت بعض هذه الفروق في التأثير بعد الإسلام ، ثم تجاوز الفريقان في البلاد المفتوحة وحدث تنافس اجتماعي واقتصادي وجد الغطاء السياسي المناسب له في فترة ضعف الخلافة الأموية ، فتفجر على ذلك النحو المثير في مرج راهط ، وكان من الطبيعي أن يستمر بعد ذلك لاستمرار بعض أسبابه وطروء أسباب أخرى تتعلق بالثأر والكرامة وغيرها من خصال متحركة في الشخصية العربية ...

^١ د. يوسف العش : الدولة الأموية ص ١٨٥-١٨٦

^٢ راجع عن ذلك : د. العش : السابق ١٨٦-١٨٧ ، د. عبد الأمير دكسن : الخلافة الأموية ص ١٣٩-١٤٠ ،

فتحي عثمان : الحدود الإسلامية البيزنطية ص ٥٥ ، ماجد : التاريخ السياسي للدولة العربية ٩٣-٩٤

^٣ تاريخ الشعوب الإسلامية هامش ص ١٥٦-١٥٧

^٤ د. شعبان : السابق ١٣٥-١٣٩ .

^٥ راجع : د. فتحي عثمان : السابق ٥٨-٥٩

خاتمة الكتاب

استهدف هذا البحث : إظهار حقيقة التاريخ الأموي ، وتجليه ملامحه الأساسية ، ودراسة أهم شبهات المؤرخين عنه ؛ بغية إنصافه ورد حملات التشويه عنه ، وقد انتهى الباحث إلى عدة نتائج — بسط أسبأها وشرح مقدماتها في صفحات هذا البحث — أهمها :

١ — إن دراسة الظروف التاريخية التي أحاطت بتدوين التاريخ الأموي توضح بـجسلاء أن عملية التدوين تمت في مناخ معاد للأمويين ، وخضعت لعدة عوامل ساعدت على تشويه كثير من أحداث ذلك التاريخ . وأبرز هذه العوامل تأثير الأحزاب السياسية المعادية للأمويين على رواة ذلك التاريخ وكتابه ، حيث كان عديد منهم من الشيعة أو الشعوبيين أو المعتزلة ، كما أن ذلك التدوين تم في العصر العباسي حيث سيطرت روح العداء للأمويين ، والرغبة في تشويه تاريخهم ومنجزاتهم .. علاوة على ذلك فقد ضاع كثير من النتاج التاريخي الباكر الذي روي أو كتب عن الأمويين في عصرهم ، أو بيد أنصارهم وأوليائهم .. كما صنعت الدعاية ضد الأمويين في أواخر عهدهم وفي العصر العباسي الأول طبقة من الفوغاء والعوام معادية للأمويين ، وموالية لأعدائهم من الشيعة والعباسيين ، وكان تأثيرها عظيما على الرواة والمؤرخين ، حيث أشاعت جوا من الإرهاب والخوف الجهم كثيرا من الألسنة ، وحال بينها وبين إظهار كثير من محاسن الأمويين ..

2 — ودراسة ما كتب عن الأمويين في كتابات المؤرخين القدماء تظهر أن هذه الكتابات اعتمدت اعتمادا كبيرا على تسجيل الروايات التاريخية دون نقدها ، مع الوقوع تحت تأثير الرواة النشطين من المتحاملين على الأمويين ، من شيعة ومعتزلة وشعوبيين .. لقد كان بعض كبار مؤرخينا أيضا مستعدين لإفساح المجال لهذه الروايات ، حيث كان بعضهم من الشيعة كاليعقوبي والمسعودي ، وكان آخرون يرددون ما يصلهم مما اشتهر من هذه الروايات تاركين للقارئ مهمة قبولها أو تركها كما فعل الطبري ..

3 — وعند بحث ما كتبه الأدباء البارزون من القدماء عن بني أمية اتضح أن الغرض الأساسي من كتاباتهم كان تحقيق المتعة الفنية والأدبية ، مع ضمور النقد التاريخي عندهم ، وقد أدى ذلك إلى قبولهم كثيرا مما يحقق هدفهم ، وإن لم يكن صدقا أو يعبر عن حقيقة هذه الفترة التاريخية ، وإضافة إلى ما سبق فإن عديدا من هؤلاء الأدباء كالجاحظ والأصفهاني وابن أبي الحديد كانوا ممن المتحيزين ضد الأمويين والمتحاملين عليهم بسبب اعتزالهم أو تشييعهم .

4 — على أن كثيرا من العدالة والإنصاف نجدها في كتابات الفقهاء التاريخية عن الدولة الأموية ، فقد تحررت من الحزبية السياسية والأهواء المذهبية ، وعمدت إلى نقد الأخبار والروايات ؛ مع أنه من المؤسف حقا أن هؤلاء الفقهاء لم يكتبوا تاريخنا متصلا إلا نادرا ، إذ كان منهجهم التشدد

في قبول الروايات يحول بينهم وبين ذلك ، وقد قدمت في هذا الكتاب نماذج لإنصاف اثنين من أبرزهم الأمويين ؛ وهما ابن العربي وابن تيمية .

— واستمرت اتجاهات التحريف والتشويه في كتابات المؤرخين المعاصرين ، فكان للمستشرقين دورهم في التشويش على التاريخ الأموي ، وكان ذلك نتيجة متوقعة لمؤثرات منهجية أثرت على كتاباتهم في التاريخ الإسلامي عامة ..

وعند مؤرخينا من العرب والمسلمين اتضح وجود عدة تفرعات لتيار التحامل على الأمويين ؛ منها التأثير بالاستشراق ، والتعلق بالتفسير المادي للتاريخ ؛ وهو مذهب فلسفي غربي في فلسفة التاريخ حاول بعضهم تطبيقه على التاريخ الأموي ، ثم جاءت كتابات فريق من غير المختصين في التاريخ لتضيف مزيدا من التشويه للتاريخ الأموي ، وقد قدمت نماذج لكل من هذه الاتجاهات في صفحات هذا الكتاب ..

على أنه ظهر في عصرنا اتجاه آخر حاول إنصاف الأمويين وتحسس الطريق لذلك الهدف في وسائل ثلاث ؛ أولها : الحذر من روايات المؤرخين القدماء ؛ وثانيها : رد شبهات المتحاملين على الأمويين أو مناقشتها ، ثم إظهار مآثر الأمويين وحضارتهم ..

وعند بحث شبهات المؤرخين عن الدولة الأموية اتضح لنا ما يلي :

— إن بني هاشم وبني أمية لم يكونوا في موقف عداوة وترص قبل بزوغ شمس الإسلام ، فالفرقيان يتنميان إلى جلد واحد هو عبد مناف ، وكان بينهما تعاون وتصاهر ، فلما جاء الإسلام آمن به فريق من بني أمية مع أول من آمن من قريش ، وكان آخرون في صفوف أعدائه مثل غيرهم ، ثم إنهم لم يكونوا — عند تحليل مواقفهم أشد الناس عداوة للنبي ﷺ ولا أكثرهم كفرا به ، ولكن الذي أساء إليهم هو زعامة أبي سفيان للمشركين في عدة معارك ضد الإسلام ، ثم آمن أبو سفيان قبيل الفتح بقليل ؛ وتبعته زوجته هند بنت عتبة بعد الفتح وحسن إسلامها.. وولى النبي ﷺ من بني أمية الولاة والعمال ، واتخذ معاوية كاتبا للوحي ..

7— وساهم الأمويون في صنع مجد الإسلام وتاريخه — زمن أبي بكر وعمر — فكان لهم دور بارز في حرب المرتدين ثم في الفتح الكبرى ، وولى معاوية الشام فقام بمجهود بارزة في الدفاع عنها ضد الروم وتكوين أسطول بحري إسلامي ..

8— وفي خلافة عثمان ؓ اشتد بروز الدور الأموي ، ولكن ليس صحيحا أن الخليفة قد حاباهم بغفر حق ، أو أنهم قد استغلوا خلافته .. ولما قتل عثمان طالب معاوية بالنار له ، ولذا فقد امتنع عن البيعة لعلي ؓ ، كما امتنع آخرون ، حيث كان يرى قتلة عثمان في مقدمة جيشه ، مع براعة علي ؓ المعروفة من قتل عثمان .. واختلقت اجتهادات الرجلين لافقتلا في صفين ، ثم كان التحكيم ، ثم قتل علي ، وبويع لمعاوية ، وليس صحيحا أن معاوية كان يستغل قتل عثمان أو يتستر

وراء ذلك لتحقيق مآربه ، كما أنه ليس صحيحا ما اشتهر من أن التحكيم كان خدعة لكسب الحرب ، بل كان حلا لا بد منه لوقف إراقة الدماء ، وكان رغبة صادقة عند الطرفين آن أوامنا .. كما أنه لا صحة لخداع عمرو أبا موسى الأشعري وتبادلها السباب القبيح ؛ فذلك من وضع الشيعة الكذابين الذين يسعون إلى إسقاط أقدار رجال هم تاريخهم وفضلهم .

و لما قامت الدولة الأموية كان شعارها الإسلام ، فكان جل الخلفاء والولاة ملتزمين به ، ومجاهدين في سبيله ؛ والشبهات التي تثور حول مواقفهم الإسلامية لا تصمد أمام البحث السري ، حتى بالنسبة لهؤلاء الذين ثار حولهم لفظ شديد كالحجاج بن يوسف و خالد القسري ... وراجست سوق الفتوحات في عصرهم وبذلوا الجهود لحراسة المجتمع الإسلامي من عوامل التفسخ الخلقي ، والمذاهب الضالة ، كما رعوا العلم والعلماء ، وكان المجتمع في عصرهم — بصورة عامة — ملتزما بقيم الإسلام ، وإن ظهرت ألوان من الترف لا تذهب بحقيقة الإيمان .

١٥ — واحتلت الشورى مكانة مهمة في النظام السياسي الأموي عند معظم خلفائهم وولايتهم ، واحتفظ الأمويون بالاتصال المكثف بالرعية ، أما اعتماد الأمويين ولاية العهد مذهباً في توريث الخلافة — رغم مخالفة ذلك للنسق الإسلامي الأعلى الذي يؤثر الشورى الكاملة في اختيار الخلفاء — فهو أمر كانت ظروف المجتمع الإسلامي توحى به ، وكان عدم وجود طريقة واحدة للاستخلاف في عصر الراشدين ، وما جرى بين المسلمين من تقاتل ودماء بسبب اختلافهم حول منصب الخلافة ، دافعا لمعاوية للتفكير على ذلك النحو ، ولم يكن الأمويون وحدهم في الحقيقة هم الذين يعتمدون هذه الطريقة في الحكم ، بل كان خصومهم من الشيعة على ذات الطريق ، بل هم في الحقيقة أول من ابتدعها وطبقها ، ثم أصبحت فكرة راسخة في النظام السياسي الإسلامي عدة قرون ، فلم يغيرها العباسيون أو من تلاهم ..

١١ — ولم يمنع الأمويون معارضتهم من التعبير عن آرائهم ومعارضتهم ، مادام ذلك يتم بطرق مشروعة ، أما إذا لجأ هؤلاء المعارضون إلى الثورة المسلحة فإن النظام الإسلامي نفسه لا يقره إلا بشروط معينة ، وفي مراحل مخصوصة ، ومن هذا المنطلق كانت معالجتهم ثورة أهل المدينة وابن الزبير فحاولوا منع حدوث الثورة ، فلما اندلعت وهددت وجودهم ، حاربوها وقضوا عليها ، وكذلك كان الأمر بالنسبة لثورة الحسين عليه السلام التي شابهها عدم الاستعداد والتسرع .

وليس صحيحا ما يزعمه المؤرخون من عدا بين بني أمية — في خلافتهم — وبين هاشم ، فقد كان الأمويون يجلون عليا عليه السلام في الحقيقة ؛ أما ما شاع عن لعنهم له فتم في ظروف معينة ، وكرد فعل على تطاول الشيعة على زعماء الأمويين ؛ وتغريهم بالبطش من الناس مستغلين حبهم آل البيت .. بل إن ما ناله آل البيت من مكانة في ظل الحكم الأموي لم ينالوها فيما بعد عند بني عمومته من العباسيين .

١٢- وإن ما ترويه كتب الأدب والتاريخ عن الاضطهاد الاجتماعي للموالي في العصر الأموي لا يعبر عن سياسة مقصودة للأمويين ؛ بل كان مرتبطا بتفشي روح العصبية القبلية عند بعض العرب الذين لم يتمثلوا بشكل كامل روح الإسلام التي تنص على المساواة بين البشر وأن لا تفاضل بينهم إلا بالقوى ، والأمثلة التي ترد عن ذلك التعصب الاجتماعي ضد الموالي لا تذكر دورا للأمويين فيه أو مشاركة ...

١٣- أما ما يذكره عن الاضطهاد السياسي للموالي في العصر الأموي فلم يكن عقيدة سياسية للأمويين ؛ وإنما صدرت بعض ممارسات العنف من الأمويين ضد الموالي ردا على حالات التمرد والثورة المتكررة من الموالي ذوي النزعة العنصرية القومية من الفرس ، ولذا فقد تركزت هذه الممارسات بصورة أساسية في العراق وفارس في أثناء الفترة الأولى من ولاية الحجاج بن يوسف على العراق ؛ حيث زخرت هذه الفترة بالثورات التي واكبت إعادة فرض سلطة الدولة بعد سنوات من التمرد والثورة .. ولم يحدث مثل ذلك الراح في غرب الدولة الأموية - حيث لا يسمى مؤرخوننا أهلها الموالي ، بل يطلقون عليهم لفظ " البربر " - إلا حينما تسلسل إليه دعاة الفتنة من خوارج العراق والشرق في عهد هشام بن عبد الملك ..

١٤ - وعلى عكس ما يشيع عن الدولة الأموية فقد احتل كثير من الموالي المخلصين للدين والدولة مكانة كبيرة في العصر الأموي ، سواء كان ذلك في الناحية العلمية والدينية ، أو الحياة السياسية والإدارية والعسكرية ، وتكاثر الأدلة على ذلك في مختلف المجالات .

١٥- وليس صحيحا أن الأمويين أحيوا العصبية القبلية عند العرب من جديد ؛ فالحق أن هذه العصبية كانت موجودة في التاريخ العربي منذ أمد بعيد ؛ وإن اختفت لفترة محدودة في عصر النبوة ثم عادت لتظهر تدريجيا في أواخر حياة النبي ﷺ نفسه ، وبلغت مرحلة خطيرة بالثورة على عثمان رضي الله عنه وفي الحروب التي أعقبت قتله ، بل إننا نرى أدلة عديدة على محاربة الأمويين هذه العصبية القبلية طوال فترات طويلة من تاريخهم ، على حين كان أعداؤهم يجتهدون في استغلالها لمصلحتهم الضيقة ..

١٦- وتثور شكوك قوية حول الروايات التي تتهم الأمويين بإساءة التصرف في أموال المسلمين أو استغلالها لمصلحتهم الخاصة ، ومن هذه الشبهات ما يثار حول فرضهم ضرائب عديدة لا يحق لهم فرضها ، أو أخذهم الجزية من أسلم من الموالي .. وبالنسبة إلى هذه النقطة الأخيرة فإن ذلك لم يحدث إلا لفترة محدودة من تاريخ الدولة ، ولأسباب سياسية واقتصادية عمقت الشكوك في حقيقة إسلام هؤلاء الموالي ، وقد وجدت هذه الممارسات الأموية في المرتين اللتين حدثت فيهما من عارضها من العرب والأمويين أنفسهم ، وأبطل عمر بن عبد العزيز ما فعله الحجاج في المرة الأولى ، كما أبطل نصر بن سيار - الوالي الأموي على خراسان - ما فعله سلفه الأسبق أشرس السلمي ..

ولقد رأينا في أثناء البحث أن الأمويين كانوا في معظم الأحوال شديدي الحرص على مصارف بيت المال ، وأنهم وجهوا نصيبا عظيما منها إلى تحقيق مصالح الرعية وتلبية حاجاتها .

١٧- وقد شهد العصر الأموي عديدا من المنجزات الحضارية الكبرى التي واكبت حاجات الأمة وتطورها السياسي والإداري والنفسي .. فكان منها مما اتجه إلى تطوير الإدارة الإسلامية بابتكار بعض الدواوين مثل ديوان البريد وديوان الخاتم .. والاتجاه إلى صهر الأمة الإسلامية مختلفة الأجناس في الإطار العربي ؛ وذلك ببدء حركة التعريب الكبرى ؛ سواء بتعريب أهم دواوين الدولة وهو ديوان الخراج ؛ أو بتعريب العملة وذلك بسك العملة الإسلامية ؛ مما حقق الاستقلال الاقتصادي للدولة الإسلامية ، ومن هذه الإنجازات الحضارية ما اتجه إلى ميدان العمارة التي افتتحت بها بعض الخلفاء والولاة ، فخلقوا لنا عديدا من المساجد الخالدة كالمسجد الأموي ، وعديدا من المدن الباقية كالقيروان وتونس وغيرها، وعديدا من القصور التي ما زالت بعض آثارها ماثلة في بادية الشام.

١٨- وشارك الأمويون مشاركة ناشطة في نهضة العلوم والمعارف في دولتهم ، فدفعوا باللغة العربية إلى الأمام خطوات واسعة بالتقعيد لها والتعريب لغيرها ، وأثروا الحركة الشعرية في عصرهم إثراء واسعا ، كما اهتموا — على نحو مثير — بالترجمة إلى العربية ونقل العلوم التجريبية وتيسير النبوغ فيها أو المعرفة بها للعرب والمسلمين ...

وهكذا فإن تاريخ الدولة الأموية — على كثرة ما كتب فيه — ما زال يحتاج إلى مزيد من البحث والعناية ، ولكن من منظور جديد يضع في اعتباره ما تعرض له تاريخ هذه الدولة من تحريف والفتراء ؛ حيث كتب كتاريخ دولة مهزومة بيد أعدائها ..

ورغم ما ورد في هذا البحث ؛ وأبحاث أخرى قليلة من محاولة لإنصاف الأمويين إلا أن تاريخهم يظل بحاجة إلى مزيد من البحث التفصيلي الذي يتبع جوانب ذلك التاريخ المختلفة ، ومحاوّل بحث شبهات المؤرخين عنها بشيء من الاستقصاء والإنصاف ، مما سيؤكد الرؤية الصحيحة لذلك التاريخ الذي يحتل مساحة واسعة من خير القرون في عمر أمتنا المديد بإذن الله ، ذلك التاريخ السني ينبغي أن يظل عاملا من أهم عوامل الإحياء في هذه الفترة العصيبة ... والله من وراء القصد وهو الهادي إلى سواء السبيل ..

٤٧٢

الخرائط

١ - مسرح عمليات معاوية الأمير

٤٧٣

٢- مسرح عمليات معاوية الخليفة

٤٧٤

٣ - فتح المغرب (أ)

٤٧٥

— فتح المغرب (ب)

٤٧٦

٥ - فتوح قتيبة بن مسلم ومحمد بن القاسم

٤٧٧

٦ - فتح الأندلس

المصادر والمراجع

أولا: المخطوطات:

- البياسي جمال الدين بن يونس بن محمد (ت ٦٥٤ هـ) :
- الإعلام بالحروب الواقعة في صدر الإسلام ، مخطوط بدار الكتب المصرية، تحت رقم ٣٩٩.
- السيوطي عبد الرحمن بن أبي بكر (ت ٩١١ م) :
- الأساس في مناقب السادة بني العباس ، مخطوط بالمكتبة الأزهرية تحت رقم ٤٠٢٢ تاريخ .
- ابن العديم أبو القاسم عمر بن أحمد بن هبة الله (٥٨٨-٦٦٠ هـ) :
- بغية الطلب في تاريخ حلب ، نسخة مصورة عن مخطوط بأيا صوفيا رقم ٣٠٣٦ ، نشره معهد تاريخ العلوم بفرانكفورت سنة ١٩٨٨ م .
- ابن عساكر أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله (٤٩٩-٥٧١ هـ) :
- تاريخ مدينة دمشق ، نسخة مصورة عن مخطوط المكتبة الظاهرية بدمشق تحت رقم ٣٥١ علم وأدب ٢٠٥ ، نشر دار البشير (د. ت)

ثانيا: المصادر:

- ابن الأثير عز الدين أبو الحسن علي بن محمد (ت ٦٣٠ هـ) :
- الكامل في التاريخ ط ٤ ، دار الكتاب العربي ببيروت سنة ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٣ م ، طبعة ليدن ، سنة ١٨٥١-١٨٧٦ م .
- أسد الغابة في معرفة الصحابة ، تحقيق محمد إبراهيم البنا وآخرين طبعة دار الشعب (د.ت)
- الأزدي أبو زكريا يزيد بن محمد (٣٣٤ هـ) :
- تاريخ الموصل ، طبعة القاهرة سنة ١٩٦٧ م
- الأزرقي أبو الولي محمد بن عبد الله بن أحمد (ت ٢٣٤ هـ) :
- أخبار مكة شرفها الله تعالى وما جاء فيها من الآثار ، طبع مدينة غنتغة سنة ١٢٧٥ هـ
- الإسفرائيني أبو إسحق إبراهيم بن محمد بن مهران (ت ٤١٨ هـ) :
- نور العين في مشهد الحسين ، ط ٣ ، مكتبة الحلبي بمصر ، سنة ١٣٧٤ هـ / ١٩٥٥ م .

الأصفهاني أبو الفرج علي بن الحسين بن محمد (ت ٣٥٦ هـ) :

— الأغاني ، ط ٦ ، دار الثقافة ببيروت سنة ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٣ م ، طبعة دار الكتب سنة ١٩٢٧ م

— مقال الطالبين ، تحقيق السيد محمد صقر ، ط ٢ ، مؤسسة الأعلمي ، بيروت ، سنة ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٧ م .

ابن أبي أصيبعة أبو العباس أحمد بن خليفة السعدي الخزرجي (٦٠٠-٦٦٨ هـ) :

— عيون الأنباء في طبقات الأطباء؛ تحقيق د. نزار رضا؛ دار مكتبة الحياة ، بيروت (د.ت).

ابن أعثم الكوفي أحمد بن علي (ت ٣١٤ هـ) :

— الفتوح ، ط ١ ، باغند ، نشر دار الندوة ببيروت ، سنة ١٣٩٢ هـ / ١٩٧٢ م .

البخاري أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم (ت ٢٥٦ هـ) :

— التاريخ الكبير ، ط ١ ، الهند سنة ١٣٦١ هـ .

— الجامع الصحيح ، ط ٥ ، عالم الكتب ، بيروت ، سنة ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٦ م .

ابن بشكوال أبو القاسم خلف بن عبد الملك (٤٩٤-٥٧٨ هـ) :

— الصلة في تاريخ أئمة الأندلس وعلماهم ومحدثهم ، تحقيق السيد عزت العطار الحسيني ،

مكتبة الثقافة الحديثة ، سنة ١٣٧٤ هـ / ١٩٥٥ م .

البغدادي الخطيب أبو بكر أحمد بن علي (ت ٤٦٣ هـ) :

— تاريخ بغداد ، ط ١ ، مكتبة الخانجي ، سنة ١٣٤٩ هـ - ١٩٣١ م .

— الكفاية في علم الرواية ، مراجعة عبد الحلیم محمد وعبد الرحمن حسن محمود ، ط ١ ،

دار الكتب الحديثة ، سنة ١٩٧٢ م .

البغدادي عبد القادر بن عمر (١٠٣٠-١٠٩٣ هـ) :

— خزنة الأدب ، تحقيق عبد السلام هارون ، دار الكتاب العربي ، سنة ١٣٨٧ هـ —

١٩٦٧ م .

البغدادي عبد القاهر بن طاهر بن محمد (ت ٤٢٩ هـ) :

— الفرق بين الفرق ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، دار المعرفة ، بيروت ، (د.ت).

البغوي أبو محمد عبد الله بن محمد (ت ٣١٧ هـ) :

— معالم التنزيل (مامش تفسير ابن كثير) ، تحقيق محمد رشيد رضا ، ط ١ ، مطبعة المنلر ،

سنة ١٣٤٥ هـ .

البلاذري أحمد بن يحيى بن جابر (ت ٣٧٩ هـ) :

— أنساب الأشراف ج ١ ، تحقيق محمد حميد الله ، دار المعارف بمصر ، سنة ١٩٥٩ م .

- ج ٤ ، طبعة القدس ، سنة ١٩٣٦ م .
- ج ٥ ، طبعة القدس ، سنة ١٩٣٦ م ، وطبعة مكتبة المنفى ببغداد (د . ت) .
- فتوح البلدان ، نشرة دي غويه ، بريل ؛ ليدن ، سنة ١٨٦٦ م .
- البيهقي إبراهيم بن محمد (ت ٣٢٠ هـ) :
- المحاسن والمساوي ، دار صادر ، بيروت ، ١٣٨٠ هـ / ١٩٦٠ م .
- البيهقي أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي (ت ٤٥٨ هـ) :
- السنن الكبرى ، ط ١ ، الهند ، سنة ١٣٥٤ .
- الترمذي أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة (٢٠٩ - ٢٧٩ هـ) :
- الجامع الصحيح ، تحقيق عبد الرحمن محمد عثمان ، المكتبة السلفية ، المدينة المنورة ، (د . ت)
- ابن تغري بردي جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن بردي الأتابكي (ت ٨٧٤ هـ) :
- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، ط ١ ، دار الكتب المصرية سنة ١٣٤٨ هـ / ١٩٢٩ م .
- أبو تمام حبيب بن أوس الطائي (ت ٢٣١ هـ) :
- ديوان الحماسة بشرح التريزي ، ط ٢ ، المكتبة الأزهرية ، سنة ١٣٣١ هـ / ١٩١٣ م .
- ابن تيمية الحراني ، تقي الدين أحمد بن عبد الحلیم بن عبد السلام (ت ٧٢٨ هـ) :
- مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية ، طبعة الرباط بالمغرب مكتبة المعارف ، سنة ١٤٠١ هـ .
- منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة والقدرية ، ط ١ ، بولاق سنة ١٣٣١ هـ .
- المنقى من منهاج الاعتدال في نقض كلام أهل الرفض والاعتزال (وهو مختصر منهاج السنة النبوية السابق ذكره ، اختصره الحافظ الذهبي) تحقيق محب الدين الخطيب ، المطبعة السلفية بالقاهرة ، سنة ١٣٧٤ هـ .
- الثعالبي أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل النيسابوري (ت ٤٢٩ هـ)
- لطائف المعارف ، طبعة ليدن ، سنة ١٨٦٧ م .
- الجاحظ أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب (ت ٢٥٥ هـ) :
- البيان والتبيين ، تحقيق حسن السندوي ، المكتبة التجارية الكبرى بمصر ، ط ٢ ، سنة ١٣٥١ هـ / ١٩٣٢ م .
- التاج في أخلاق الملوك ، تحقيق أحمد زكي باشا ، ط ١ ، القاهرة سنة ١٣٢٢ هـ / ١٩١٤ م .
- المحاسن والأضداد ، طبعة ليدن ، سنة ١٨٩٨ م .

- رسالة في مناقب الترك وعامة جند الخلافة ، ضمن مجموعة رسائل الجاحظ ، طبعة محمد ساسي المغربي ، مصر ١٣٢٤هـ .
- رسالة في النابتة ، ضمن مجموعة رسائل الجاحظ ، تحقيق عبد السلام هارون ، مكتبة الخانجي ، سنة ١٣٨٤هـ / ١٩٦٥م .
- ابن الجوزي عبد الرحمن بن علي بن محمد (ت ٥٩٧هـ) :
- تلبيس إبليس ، مكتبة المثنى ، بيروت ، (د . ت)
- تلقيح فهوم أهل الأثر في عيون التاريخ والسير ، مكتبة الآداب سنة ١٩٧٥م .
- سيرة ومناقب عمر بن عبد العزيز ، تحقيق د. السيد الجميلي ، دار ومكتبة الهلال ، بيروت ، سنة ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م .
- صفة الصفوة ، ١ ط ، الهند ، سنة ١٣٥٥هـ .
- الموضوعات ، تحقيق عبد الرحمن محمد عثمان ، المكتبة السلفية ، المدينة المنورة ، ١ ط ، سنة ١٣٨٦هـ / ١٩٦٦م .
- ابن الجزري أبو الخير محمد بن محمد (ت ٨٣٣هـ) :
- غاية النهاية في طبقات القراء ، تحقيق برجستراسر ، ١ ط ، مكتبة الخانجي ، سنة ١٣٥٢هـ / ١٩٣٣م .
- الجهشياري محمد بن عبد الملك بن عبدوس (ت ٣٣٠هـ) :
- الوزراء والكتاب ، تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الإياري وعبد الحفيظ شلي ، مكتبة الحلبي بمصر ، سنة ١٩٣٨م .
- ابن الجوزي عبد الرحمن بن علي بن محمد (ت ٥٩٧هـ) :
- سيرة ومناقب عمر بن عبد العزيز ، تحقيق د. السيد الجميلي ، دار ومكتبة الهلال ، بيروت ، سنة ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م .
- الجويني إمام الحرمين أبو المعالي عبد الملك بن عبد الله بن يوسف (ت ٤٧٨هـ) :
- غياث الأمم في التياث الظلم ، تحقيق د. مصطفى حلمي ود. فؤاد عبد المنعم ، دار الدعوة سنة ١٩٧٧م .
- ابن حجر العسقلاني أحمد بن علي (ت ٨٥٢هـ) :
- الإصابة في تمييز الصحابة ، تحقيق علي محمد البجاوي ، دار فحضة مصر .
- قذيب التهذيب ، ١ ط ، حيدر آباد الدكن ، نشر دار صادر بيروت سنة ١٣٢٢هـ .
- فتح الباري بشرح صحيح البخاري ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي وآخرين ، ١ ط ، دار الريان للتراث ، سنة ١٤٠٧هـ .

- ابن أبي الحديد عبد الحميد بن هبة الله بن محمد (٥٨٦ - ٦٥٥ هـ ، أو ٦٥٦ هـ)
 - شرح فحج البلاغة ، تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم ، ط ١ ، دار إحياء الكتب العربية ،
 سنة ١٣٧٩ هـ / ١٩٥٩ م .
- ابن حزم الظاهري أبو محمد علي بن أحمد (٣٨٣ - ٤٥٤ هـ) :
 - الفصل في الملل والأهواء والنحل ، ط ٢ ، دار المعرفة بيروت ، سنة ١٣٩٥ هـ /
 ١٩٧٥ م .
- موجز تاريخ الإسلام ، تعليق بديع السيد اللحام ، ط ١ ، دار الإيمان سنة
 ١٤٠٩ هـ / ١٩٨٨ م
- ابن حنبل : الإمام أحمد الشيباني (ت ٢٤١ هـ) :
 - الزهد ، دار الكتب العلمية بيروت ، سنة ١٩٧٦ م .
 - المسند ، تحقيق أحمد محمد شاكر ، دار المعارف بمصر ، سنة ١٣٦٨ هـ / ١٩٤٩ م .
- ابن خلدون عبد الرحمن بن محمد (٧٣٢ - ٨٠٨ هـ) :
 - التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا ، تحقيق محمد بن تايوت الطنجي ، لجنة
 التأليف والترجمة والنشر ، سنة ١٩٥١ م .
 - العبر وديوان المبدأ والخبر في أخبار العرب والعجم والبربر ومن جاورهم من ذوي
 السلطان الأكبر ، ط بيروت .
 - المقدمة ، تحقيق د. علي عبد الواحد والي ، ط ٣ ، دار نهضة مصر ، سنة ١٤٠١ هـ .
- ابن خلكان أحمد بن محمد (ت ٦٨١ هـ) :
 - وفيات الأعيان ، تحقيق د. إحسان عباس ، دار الثقافة بيروت .
 خليفة بن خياط (ت ٣٤٠ هـ) :
 - تاريخ خليفة بن خياط ، تحقيق د. أكرم ضياء العمري ، ط ١ ، النجف الأشرف ، سنة
 ١٣٨٦ هـ / ١٩٦٧ م
- أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني الأزدي (٢٠٢ - ٢٧٥ هـ)
 - سنن أبي داود ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، دار إحياء السنة النبوية (د ت) .
- ابن دقماق إبراهيم بن محمد بن أيدير العلالي (٨٠٩ هـ) :
 - الانتصار لواسطة عقد الأمصار ، ج ٤ ، ٥ ، ط ١ ، المطبعة الأميرية ببولاق ، سنة
 ١٣٠٩ هـ .
- ابن أبي الدم الحموي ، شهاب الدين إبراهيم بن عبد الله بن عبد المنعم (ت ٦٤٢ هـ)

- التاريخ الإسلامي ، المعروف بالتاريخ المظفري ، تحقيق د حامد ريان غام . دار الثقافة ، القاهرة ، سنة ١٩٨٥ م .
- كمال الدين محمد بن موسى (ت ١٤٠٥ هـ) :
- حياة الحيوان ، ط ٢ ، القاهرة ، سنة ١٣١٣ هـ .
- الديار بكرى ، حسين بن محمد (توفي في القرن السادس عشر الميلادي)
- تاريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس ، مؤسسة شعبان للنشر والتوزيع بيروت ، سنة ١٢٨٣ هـ .
- الدينوري ، أبو حنيفة أحمد بن داود (ت ٢٨٢ هـ) :
- الأخبار الطوال ، تحقيق عبد المنعم عامر ومراجعة د. جمال الدين الشيال ، ط ١ ، مكتبة الحلبي ، سنة ١٩٦٠ م .
- الذهبي ، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان (ت ٧٤٨ هـ) :
- تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير والأعلام ، مكتبة القدسي ، سنة ١٣٦٧ هـ .
- سير أعلام النبلاء ، تحقيق شعيب الأرنؤوط وزملائه ، مؤسسة الرسالة بيروت ، سنة ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م .
- ابن رجب الحنبلي ، أبو الفرج عبد الرحمن بن أحمد (ت ٧٩٥ هـ) :
- الاستخراج لأحكام الخراج ، تحقيق السيد عبد الله صديق ، دار المعرفة بيروت ، (د . ت) .
- الزبيري مصعب بن عبد الله بن مصعب بن ثابت (ت ٢٣٦ هـ) :
- نسب قریش ، تحقيق ليفي برونفسال ، دار المعارف ، سنة ١٩٥٣ م .
- ابن سعد ، أبو عبد الله محمد بن سعد البصري الزهري (ت ٥٢٣ هـ) :
- الطبقات الكبرى ، دار صادر بيروت (د . ت) ، وطبعة سخاو ، ليدن سنة ١٩٠٥ م .
- سعيد بن البطريق (٢٦٣ - ٣٢٨ هـ) :
- التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق في معرفة التواريخ ، بيروت ، سنة ١٣٠٥ هـ / ١٩٠٩ م .
- السهيلي ، أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله الخثعمي (٥٠٨ - ٥٨١ هـ)
- الروض الأنف ، تحقيق عبد الرحمن الوكيل ، ط ١ ، دار الكتب الحديثة سنة ١٣٨٧ هـ / ١٩٦٧ م .
- السيوطي ، عبد الرحمن بن أبي بكر (٨٩٤ - ٩١١ هـ)
- تاريخ الخلفاء ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، ط ١ ، المكتبة التجارية الكبرى
عصر سنة ١٣٧١ هـ / ١٩٥٢ م

الشهرستاني ، أبو الفتح محمد بن عبد الكريم (ت ٥٤٨ هـ) :

- الملل والنحل (بامش الفصل لابن حزم) ط ٢ ، دار المعرفة بيروت ، سنة ١٣٩٥ هـ /
١٩٧٥ م

الشوكاني ، محمد بن علي بن محمد الصنعاني (١٢٥٠ هـ) :

- فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير ، ط ١ ، مكتبة مصطفى البابي
الحلي سنة ١٣٥٠ هـ .

ابن طباطبا العلوي ، محمد بن علي المعروف بابن الطقطقي (ت ٧٠٩ هـ)

- الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية ، دار صادر ، بيروت (د . ت) .

الطبري محمد بن جرير (ت ٣١٠ هـ) :

- تاريخ الرسل والملوك ، تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم ، ط ٤ ، دار المعارف ، سنة
١٩٧٩ م .

- جامع البيان في تفسير القرآن ، ط ١ ، المطبعة الأميرية الكبرى ، بولاق ، سنة ١٣٣٨ هـ .

الطبراني ، أبو القاسم سليمان بن أحمد (٢٦٠ - ٣٦٠ هـ) :

- المعجم الكبير ، تحقيق حمدي عبد المجيد السلفي ، ط ١ ، مكتبة التوعية الإسلامية ، سنة
١٤٠٥ هـ

ابن طولون ، شمس الدين محمد (ت ١٠٤٦ هـ) :

- قيد الشريد في أخبار يزيد تحقيق فاطمة عامر ، دار العلوم للطباعة ، سنة ١٩٧٨ م .

ابن عبد البر النعمري ، أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر (ت ٤٦٣ هـ) :

- الدرر في اختصار المغازي والسير ، تحقيق د. شوقي ضيف ، ط ٢ ، دار المعارف سنة
١٤٠٣ هـ

- الاستيعاب في معرفة الأصحاب ، تحقيق علي محمد البجاوي ، مكتبة نهضة مصر ، (د . ت)

عبد الجبار بن أحمد الأسدأبادي القاضي المعتزلي (ت ٤١٥ هـ) :

- شرح الأصول الخمسة ، تحقيق د. عبد الكريم عثمان ، ط ١ ، مكتبة وهبة ، سنة
١٣٨٤ هـ .

ابن عبد الحكم ، أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم (ت ٢٥٧ هـ) :

- فتوح مصر والمغرب ، طبعة توري ، ليدن ، سنة ١٩٢٠ م .

ابن عبد الحكم ، أبو محمد عبد الله بن عبد الحكم (ت ٢١٤ هـ) :

- سيرة عمر بن عبد العزيز ، تحقيق أحمد عبيد ، ط ٢ ، مكتبة وهبة ، سنة ١٣٧٣هـ / ١٩٥٤م

ابن عبد ربه أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي (ت ٣٢٨هـ)
- العقد الفريد ، تحقيق أحمد أمين وآخرين ، لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٣٥٩هـ / ١٩٤٠م

ابن العبري ، أبو الفرج غريغوريوس الملطي (ت ٦٨٥هـ) :
- تاريخ مختصر الدول ، تحقيق الأب أنطون ملحاني اليسوعي ، دار الراشد اللبناني ، بيروت ، سنة ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م
أبو عبيد القاسم بن سلام (ت ٢٢٤هـ) :

- الأموال ، تحقيق محمد خليل هراس ، مكتبة الكليات الأزهرية ١٩٦٢م
ابن عذاري ، أبو عبد الله محمد المراكشي (توفي في مطلع القرن ٨هـ)
- البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ، تحقيق كولان وليفسي بروفنسال ، ط ٣ ، بيروت ، سنة ١٩٨٣م .

ابن العربي ، أبو بكر محمد بن عبد الله بن محمد القاضي المعافري (٤٦٨ - ٥٤٣هـ)
- العواصم من القواصم ، تحقيق محب الدين الخطيب ، ط ١ ، دار الكتب السلفية ، سنة ١٤٠٥هـ

ابن أبي العز الحنفي ، صدر الدين علي بن علي بن محمد (٧٣١ - ٧٩٢هـ)
- شرح الطحاوية في العقيدة السلفية ، تحقيق أحمد محمد شاكر ، دار التراث بالقاهرة ، (د.ت)

ابن عساكر ، أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله (ت ٥٧١هـ) .
- تاريخ مدينة دمشق ، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق ، مج ٤٠ ، ترجمة عثمان بن عفان رضي الله عنه ، تحقيق سكينه الشهابي ، سنة ١٤٠٧هـ / ١٩٨٦م

الغزالي ، أبو حامد محمد بن محمد (ت ٥٠٥هـ) :
- الاقتصاد في الاعتقاد ، ط ١ ، مكتبة الحسين التجارية بالقاهرة .

أبو الفدا ، عماد الدين إسماعيل بن علي (ت ٧٣٢هـ) .
- المختصر في أخبار البشر ، ط ١ ، المطبعة الحسينية بالقاهرة

الفرزدق ، تمام بن غالب (ت ١١٢هـ) .
- ديوان الفرزدق ، دار صادر بيروت ، سنة ١٩٦٦م .

- ابن الفقيه الهمداني ، أبو بكر أحمد بن محمد (ت حوالي ٣٨٩هـ) :
 - مختصر كتاب البلدان ، تحقيق دي غويه ، طبعة ليدن ، سنة ١٩٦٧م
 الفيروزآبادي ، مجد الدين محمد بن يعقوب الشيرازي (ت ١٤١٤ - أو ١٤١٥م) :
 - القاموس المحيظ ، ط ٤ ، المكتبة التجارية الكبرى ، سنة ١٩٣٨م .
 القالي ، أبو علي إسماعيل بن القاسم (ت ٢٨٨ - ٣٥٦هـ) :
 - الأمالي ، دار الكتب العلمية بيروت ، (د . ت) .
 ابن قتيبة ، أبو محمد عبد الله بن مسلم (٢١٣ - ٢٧٦هـ) :
 - (ينسب إليه) : الإمامة والسياسة ، مكتبة الحلبي بمصر ، الطبعة الأخيرة ، سنة ١٣٨٨هـ .
 - عيون الأخبار ، ط ١ ، دار الكتب المصرية ، سنة ١٩٣٠م .
 - المعارف ، تحقيق د. ثروت عكاشة ، ط ٤ ، دار المعارف ، سلسلة ذخائر العرب ، (د . ت) .
 قدامة بن جعفر بن قدامة أبو الفرج البغدادي الكاتب (توفي لبضع وثلاثمائة) :
 - الخراج وصناعة الكتابة ، شرح وتعليق محمد حسين الزبيدي ، دار الحرية للطباعة ، بغداد ، سنة ١٩٨١م .
 القرطبي ، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري :
 - الجامع لأحكام القرآن ، مطبعة دار الكتب المصرية : ج ١٦ ، سنة ١٣٦٥هـ -
 / ١٩٤٦م ، ج ١٨ ، سنة ١٣٦٧هـ / ١٩٤٨م .
 القرماني ، أحمد بن يوسف (١٥٣٢ - ١٦١٠م) :
 - أخبار الدول وآثار الأول في التاريخ ، مكتبة المثنى بالقاهرة (د . ت)
 القزويني ، زكريا بن محمد بن محمود (ت ٦٨٣هـ) :
 - آثار البلاد وأخبار العباد ، دار صادر بيروت ، (د . ت) .
 القلقشندي ، أبو العباس أحمد بن عبد الله (ت ٨٢١هـ) :
 - صبح الأعشى في صناعة الإنشا ، المطبعة الأميرية بالقاهرة ١٩١٣م
 ابن القوطية ، أحمد بن علي (٧٥٦ - ٨٢١هـ) :
 - تاريخ الفتاح الأندلس ، تحقيق إبراهيم الإيباري ، ط ١ ، دار الكتب الإسلامية ، سنة ١٤٠٢ - ١٩٨٢م .
 ابن القيم ، الإمام شمس الدين محمد بن أبي بكر (ت ٧٥١هـ) :

- زاد المعاد في هدي خير العباد . دار الريان للتراث ط ١ . سنة ١٩٨٧م
- ابن كثير ، الحافظ أبو الفداء إسماعيل بن كثير القرشي (ت ٧٧٤ هـ)
- البداية والنهاية ، مطبعة السعادة بمصر ، (د ت)
- تفسير ابن كثير ، تحقيق محمد رشيد رضا . ط ١ . مطبعة المنار . سنة ١٣٤٥هـ
- الكندي ، أبو عمر محمد بن يوسف (ت ٣٥٠ هـ)
- تاريخ ولاية مصر وقضاها ، ط ١ ، مؤسسة الكتب الثقافية بيروت . سنة ١٩٨٧م
- ابن ماجه ، أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني (ت ٢٠٧-٢٧٥ هـ)
- سنن ابن ماجه ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ، دار إحياء الكتب العربية ، سنة ١٣٧٣هـ / ١٩٥٢م .
- مالك بن أنس ، الإمام الفقيه (ت ١٧٩ هـ) :
- الموطأ ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ، دار إحياء الكتب العربية .
- المالكي ، (أبو بكر عبد الله بن عبد الله المالكي) :
- رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية ، نشرة الدكتور حسين مؤنس ، مكتبة النهضة بمصر ، سنة ١٩٥١ م .
- الماوردي ، أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب (ت ٤٥٠ هـ) :
- الأحكام السلطانية ، ط ١ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، سنة ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م .
- المبرد ، أبو العباس محمد بن يزيد النحوي (ت ٢٨٥ هـ) :
- الكامل في اللغة والأدب ، مؤسسة المعارف بيروت ، (د . ت) .
- المسعودي ، أبو الحسن علي بن الحسين بن علي (ت ٣٤٦ هـ)
- التنبيه والإشراف ، تحقيق عبد الله إسماعيل الصاوي ، دار الصاوي للطبع والنشر والتوزيع بمصر ، سنة ١٣٥٧هـ / ١٩٣٨م .
- مروج الذهب ومعادن الجوهر ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، دار المعرفة بيروت ، سنة ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م .
- مسلم بن الحجاج النيسابوري (ت ٢٦١ هـ) :
- صحيح مسلم بشرح النووي ، دار الفكر ، سنة ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م
- المقدسي ، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد البشاري (توفي في القرن الرابع الهجري)
- أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، طبعة لندن ، سنة ١٩٦٧م .
- المقري التلمساني ، أحمد بن محمد (٩٨٦ - ١٠٤١ هـ) :

- نفح الطيب من غصن أتدلس الرطيب ، تحقيق د. إحسان عباس ، دار صادر ببيروت ، سنة ١٣٨٨هـ / ١٩٦٨ م .
- المقريزي ، تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر (ت ٨٤٥هـ) :
- المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، بولاق سنة ١٣٢٤هـ .
- الزراع والتخاصم فيما بين بني أمية وبني هاشم ، مكتبة الأهرام بمصر ، سنة ١٩٣٧ م .
- النقود الإسلامية ، تحقيق محمد السيد علي بحر العلوم ، ط ٥ ، النجف الأشرف ، ونشرها الأب أنستاس الكرمللي ضمن مجموعة النقود العربية الإسلامية وعلم النميات .
ابن منظور ، جمال الدين محمد بن مكرم الأنصاري (٦٣٠ - ٧١١هـ) :
- لسان العرب ، تحقيق عبد الله علي الكبير وزميله ، دار المعارف .
المنقري ، نصر بن مزاحم (ت ٢١٢هـ) :
- وقعة صفين ، تحقيق عبد السلام هارون ، ط ٢ ، المؤسسة العربية الحديثة بمصر ، سنة ١٣٨٢هـ .
الميداني ، أبو الفضل أحمد بن محمد النيسابوري (ت ٥١٨هـ) :
- مجمع الأمثال ، طبعة القاهرة ، سنة ١٣٥٢هـ .
ابن نباتة المصري ، جمال الدين محمد بن محمد (ت ٧٦٨هـ) :
- شرح العيون شرح رسالة ابن زيدون ، ط ١ ، طبعة الحلبي بمصر ، سنة ١٣٧٧هـ / ١٩٥٧ م .
أبو نعيم ، أحمد بن عبد الله الأصبهاني (ت ٣٤٠هـ) :
- حلية الأولياء ، ط ١ / مكتبة الخانجي ، سنة ١١٣٥١هـ / ١٩٣٢ م .
- كتاب ذكر أخبار أصفهان ، طبعة ليدن ، سنة ١٩٣١ م .
التويري ، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب (٦٧٧ - ٧٣٣هـ) :
- نهاية الأرب في فنون الأدب ، ج ٢١ ، تحقيق علي محمد البجاوي ، الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٧٦ م .
ابن هشام المعافري ، أبو محمد عبد الملك بن هشام (ت ٢١٣هـ) :
- السيرة النبوية ، تحقيق د. محمد فهمي السرجاني ، المكتبة التوفيقية بمصر ، (د . ت) .
الهمداني ، أبو محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب (ت ٣٣٤هـ) :
- صفة جزيرة العرب ، ليدن ، مطبعة بريل ، سنة ١٨٨٤ م .
أبو هلال العسكري : الحسن بن عبد الله (ت ٣٩٥هـ) :

— الأوائل ، تحقيق د محمد السيد الوكيل ط ١ دار البشير للثقافة والعلوم الإسلامية
سنة ١٤٠٨هـ / ١٩٨٧م .

الواقدي : محمد بن عمر (ت ٢٠٧هـ)

— فتوح الشام ، المكتبة الشعبية بيروت ، (د ت)

— كتاب المغازي ، تحقيق د . مارسدن جوس ط ٣ . عالم الكتب بيروت . سنة
١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م .

اليافعي ، أبو محمد عبد الله بن أسعد بن علي (ت ٧٦٨هـ) .

— مرآة الجنان وعبرة اليقظان ، ط ٢ ، مؤسسة الأعلمي ، بيروت . سنة ١٣٩٠هـ .
٩٧٠م .

ياقوت بن عبد الله الحموي (ت ٦٢٦هـ) .

— معجم البلدان ، ط ١ ، مكتبة الخالجي ، سنة ١٣٢٤هـ / ١٩٠٦م

يحيى بن آدم : أبو زكريا بن سليمان (ت ٢٠٣هـ) :

— كتاب الخراج ، تحقيق أحمد محمد شاكر ، دار المعرفة بيروت .

أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم (ت ١٨٢هـ) :

— كتاب الخراج ، دار المعرفة بيروت ، (د ت)

اليقوي أحمد بن أبي يعقوب (ت ٢٨٤هـ) .

— تاريخ اليعقوبي ، طبعة لندن ، سنة ١٨٨٣م . وطبعة دار صادر بيروت سنة ١٩٦٠م

مؤلف مجهول :

— أخبار مجموعة في فتح الأندلس ، طبعة مدريد . سنة ١٨٦٧م

ثالثا : المراجع العربية :

إبراهيم بيضون (دكتور)

— الحجاز والدولة الإسلامية ، ط ١ . المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع .

بيروت ، سنة ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م

— الدولة الأموية والمعارضة ، ط ٢ . المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع .

بيروت ، سنة ١٤٠٥هـ .

إبراهيم شعوط (دكتور)

— أباطيل يجب أن تمحي من التاريخ ، المكتب الإسلامي بيروت

إبراهيم العدوي (دكتور) :

— الأمويون والبيزنطيون ، مكتبة الأنجلو المصرية ، سنة ١٩٥٣م.

— تاريخ العالم الإسلامي ، مكتبة الأنجلو المصرية ، سنة ١٩٨٣م.

إحسان إلهي ظهير :

— الشيعة والتشيع : فرق وتاريخ ، ط ١ ، إدارة ترجمان السنة ، باكستان ، سنة

١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م .

— الشيعة والسنة ، دار طبية للنشر والتوزيع ، الرياض ، (د . ت) .

إحسان النص (دكتور) :

— العصبية القبلية وأثرها في الشعر الأموي ، بيروت ، سنة ١٩٦٤م.

أحمد أمين (دكتور) :

— ضحى الإسلام ، ط ٢ ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، سنة ١٣٥٧هـ / ١٩٣٨م .

— فجر الإسلام ، ط ١٤ ، مكتبة النهضة المصرية ، سنة ١٩٨٦م .

أحمد الحوفي (دكتور) :

— أدب السياسة في العصر الأموي ، ط ١ ، مكتبة النهضة مصر ، سنة ١٩٦٠م .

أحمد زكي صفوت :

— جبهة رسائل العرب في العصور العربية الزاهرة ، المكتبة العلمية ببيروت (د . ت) .

أحمد شلبي (دكتور) :

— موسوعة التاريخ الإسلامي ، ج ٢ ، ط ٧ ، مكتبة النهضة المصرية ، سنة ١٩٨٤م .

— موسوعة النظم والحضارة الإسلامية ، ج ٣ : السياسة في الفكر الإسلامي ، ط ٥ ، مكتبة

النهضة المصرية ، سنة ١٩٨٣م .

إسماعيل بك جول :

— الزيدية قديما وحديثا ، تحقيق د . قسطنطين رزيق ، بيروت ١٩٣٤م

إنستاس الكرملي (الأب) :

— التقود العربية وعلم النميات ، ط ٢ ، مكتبة الثقافة الدينية بمصر ، سنة ١٩٨٧م .

بدر الدين حي الصيني :

— العلاقات بين العرب والصين ، ط ١ ، مكتبة النهضة المصرية ، سنة ١٣٧٠هـ /

١٩٥٠م .

بسام العسلي :

- معاوية بن أبي سفيان ، ط ٦ . دار النقائس ، بيروت سنة ١٩٨٦م
جرحي زيدان .
- تاريخ آداب اللغة العربية ، تعليق د شوقي ضيف ، دار الهلال ، سنة ١٩٥٧م
- تاريخ التمدن الإسلامي ، تعليق د . حسين مؤنس . دار الهلال بمصر . سنة ١٩٥٨م .
حسان علي حلاق :
- تعريب النقود والدواوين في العصر الأموي ، ط ١ ، دار الكتاب اللبناني - دار الكتاب
المصري ، سنة ١٣٩٨هـ / ١٩٧٨م .
- حسن إبراهيم (دكتور) :
- تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي ، ط ١٠ ، مكتبة النهضة المصرية ،
سنة ١٣٥٨هـ / ١٩٣٩م .
- حسن إبراهيم وعلي إبراهيم (دكتور) :
- النظم الإسلامية ، ط ١ ، مكتبة النهضة المصرية ، سنة ١٩٣٩م .
- حسين مؤنس (دكتور) :
- أطلس التاريخ الإسلامي ، دار الزهراء للإعلام العربي ، ط ١ ، سنة ١٤٠٧هـ /
١٩٨٥م .
- فتح العرب للمغرب ، مكتبة الآداب ، سنة ١٣٦٦هـ / ١٩٤٧م .
- راضي آل ياسين :
- صلح الحسن عليه السلام ، ط ٤ ، بيروت ، ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م
- سعيد البوطي (دكتور) :
- فقه السيرة ، ط ٧ ، دار الفكر ، سنة ١٣٩٧هـ / ١٩٧٧م .
- سعيد حوى :
- الرسول صلى الله عليه وسلم ، ط ٤ ، سنة ١٣٩٧هـ / ١٩٧٧م
- السلوي ، ، أبو العباس شهاب الدين أحمد بن حماد الناصري :
- الاستقصا لأخبار المغرب الأقصى ، القاهرة ، سنة ١٣١٢هـ .
- سيدة كاشف (دكتورة) :
- مصر في فجر الإسلام ، دار الفكر العربي ، سنة ١٩٤٧م
- السيد عبد العزيز سالم (دكتور) :

- تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس من الفتح العربي حتى سقوط الخلافة بقرطبة ، دار المعارف ببلن ، سنة ١٩٦٢م .
- سيد قطب (الشهيد) :
- معالم في الطريق ، دار الشروق .
- شاكر مصطفى (دكتور) :
- التاريخ العربي والمؤرخون ، ط١ ، بيروت ، سنة ١٩٧٨م .
- شكري فيصل (دكتور) :
- المجتمعات الإسلامية في القرن الأول الهجري ، ط٥ ، دار العلم للملايين ، بيروت ، سنة ١٩٨١م
- صفى الرحمن المباركفوري :
- الرحيق المختوم ، دار الكتاب الإسلامي ، القاهرة ، سنة ١٣٩٦هـ
- ضياء الدين الرئيس (دكتور) :
- الحراج والنظم المالية في الدولة الإسلامية ، ط٣ ، دار المعارف ، سنة ١٩٦٩م .
- عبد الملك بن مروان والدولة الأموية ، ط٣ ، مطابع سجل العرب ، سنة ١٩٦٩م .
- النظريات السياسية الإسلامية ، ط٥ ، دار المعارف ، سنة ١٩٦٩م
- طله حسين (دكتور) :
- حديث الأربعاء ، دار المعارف بمصر .
- الفتنة الكبرى ، دار المعارف بمصر سنة ١٩٥٣م .
- عباس محمود العقاد :
- الحسين أبو الشهداء ، مكتبة سعد بالفجالة ، (د . ت) .
- عبقرية علي ، دار نهضة مصر (د . ت) .
- عثمان بن عفان ذو النورين ، مكتبة العروبة ، (د . ت) .
- معاوية بن أبي سفيان في الميزان ، دار الهلال ، (د . ت) .
- عبد الأمير دكسن (دكتور) :
- الخلافة الأموية (٥٦ - ٨٦ هـ) دراسة سياسية ، ط١ ، دار النهضة العربية ، بيروت ، سنة ١٩٧٧م .
- عبد الحليم عويس (دكتور) :
- دراسة لسقوط ثلاثين دولة إسلامية ، ط٢ ، دار الشروق ١٩٨٢م .
- عبد العزيز الدوري (دكتور) :

- بحث في شأنة علم التاريخ عند العرب ، المطبعة الكاثوليكية ، بيروت . سنة ١٩٦١م.
- مقدمة في تاريخ صر الإسلام ، مطبعة المعارف ، بغداد ، سنة ١٩٤٩م
- عبد المنعم ماجد (دكتور) .
- التاريخ السياسي للدولة العربية ، مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٥٧م
- عثمان موابي (دكتور) :
- منهج النقد التاريخي الإسلامي والمنهج الأوربي ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، سنة ١٩٨٤م .
- علي جريشة (دكتور) ومحمد شريف الزبيق
- أساليب الغزو الفكري للعالم الإسلامي ، دار الاعتصام ، القاهرة، سنة ١٩٧٨م
- علي حسني الخربوطلي (دكتور) :
- تاريخ العراق في ظل الحكم الأموي ، دار المعارف ، سنة ١٩٥٩م
- المسعودي ، ط ٢ ، دار المعارف ، سنة ١٩٨٠م
- علي سامي النشار (دكتور)
- نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام ، دار المعارف ، ط ٨ ، سنة ١٩٨١م
- عماد الدين خليل (دكتور)
- التفسير الإسلامي للتاريخ ، ط ٢ ، دار العلم للملايين ، سنة ١٩٧٨م
- ملامح الانقلاب الإسلامي في خلافة عمر بن عبد العزيز ، ط ٧ ، مؤسسة الرسالة ، بيروت، سنة ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م
- عمر أبو النصر .
- الحسين بن علي ، المكتبة الأهلية ، بيروت ، سنة ١٣٥٣هـ
- الحضارة العربية في دمشق ، مكتبة ربيع ، حلب ، سنة ١٩٤٨م.
- فتحي عثمان (دكتور) :
- أعضاء على التاريخ الإسلامي ، المكتب الفني للنشر ، سنة ١٣٦٧هـ / ١٩٥٦م
- الحدود الإسلامية البيزنطية بين الاحتكاك الحربي والاتصال الحضاري ، دار الكاتب العربي ، القاهرة
- محسن الأمين .
- أعيان الشيعة ، دار التعارف ، بيروت ، سنة ١٩٨٠م
- محمد أبو زهرة (الشيخ)

- ابن تيمية : حياته وعصره ؛ آراؤه وفكره ، ط ١ ، دار الفكر العربي ، سنة ١٣٧١هـ -
١٩٥٢م /
محمد أحمد خلف الله (دكتور) :
- صاحب الأغاني أبو الفرج الأصفهاني الراوية ، دار الكاتب .
محمد باقر الخوانساري :
- روضات الجنات في أحوال العلماء والسادات ، تحقيق أسد الله إسماعيليان ، طبعة طهران ، نشر دار المعرفة بيروت ، سنة ١٣٩٢هـ .
محمد البهي (دكتور) :
- الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي ، ط ٨ ، مكتبة وهبة ، سنة ١٣٩٥هـ / ١٩٧٥م .
محمد جاسم حمادي المشهدي (دكتور) :
- موارد البلاذري عن الآسرة الأموية في أنساب الأشراف ، مكتبة الطالب الجامعي ، مكة المكرمة ؛ سنة ١٤٠٧هـ / ١٩٨٦م .
محمد جبر أبو سعدة (دكتور) :
- ابن أعم الكوفي ومنهجه التاريخي في كتاب الفتوح ، ط ١ ، مطبعة الجبلاوي بمصر ، سنة ١٩٨٧م
محمد جمال الدين سرور (دكتور) :
- الحياة السياسية في الدولة العربية الإسلامية ، ط ٢ ، دار الفكر العربي بالقاهرة ، سنة ١٩٦٤م .
محمد حلمي محمد أحمد (دكتور) :
- الخلافة والدولة في العصر الأموي ، ط ١ ، معادة ، القاهرة ، سنة ١٩٧١م .
محمد الخضري (الشيخ) :
- محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية ، ط ٥ ، المكتبة التجارية الكبرى بمصر ، ١٣٦٦هـ .
محمد بن صامل السلمي :
- منهج كتابة التاريخ الإسلامي وتدريسه ، ط ١ ، دار الوفاء ، سنة ١٩٨٨م
محمد الطيب النجار (دكتور) :
- الدولة الأموية في الشرق بين عوامل البناء ومعاول القضاء ، مكتبة الجامعة الأزهرية ، سنة ١٣٨٢هـ / ١٩٦٢م

- الموالي في العصر الأموي ، ط ١ ، دار النيل للطباعة ، ١٩٥٤م
- محمد عبد الحفي شعبان (دكتور)
- صدر الإسلام والدولة الأموية ، الأهلية للنشر والتوزيع ، بيروت ، سنة ١٩٨٣م
- محمد عبد الله عنان :
- تاريخ الجمعيات السرية والحركات الهدامة في المشرق ، دار أم البنين للنشر والتوزيع ، (د.ت)
- محمد عبده (الإمام) :
- تفسير القرآن الحكيم ، جمعه محمد رشيد رضا ، ط ١ ، مطبعة المنار سنة ١٣٢٥هـ
- محمد فؤاد عبد الباقي :
- اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان ، الكتبة العلمية ببيروت
- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ، ط ١ ، دار الحديث ، القاهرة ، سنة ١٤٠٦هـ
- / ١٩٨٦م .
- محمد قطب :
- حول التفسير الإسلامي للتاريخ ، ط ٣ ، نشر المجموعة الإعلامية ، جدة ، (د . ت) .
- محمد كرد علي :
- خطط الشام ، دمشق ، سنة ١٣٤٧هـ / ١٩٣٨م .
- الإسلام والحضارة العربية ، ط ٣ ، دمشق ، سنة ١٩٦٨م .
- محمد منير حجاب (دكتور) :
- الدعاية السياسية في العصر الأموي ، طنطا ، سنة ١٩٦٨م .
- محمد مهدي شمس الدين :
- ثورة الحسين . ظروفها الاجتماعية وآثارها الإنسانية ، ط ٦ ، دار التعارف ، بيروت ، سنة ١٩٨١م .
- محمد نبيه حجاب (دكتور) :
- الدعاية السياسية في العصر الأموي ، طنطا ، سنة ١٩٦٨م
- مظاهر الشعبية في الأدب العربي ، ط ١ ، مكتبة قنطرة مصر ، سنة ١٣٨١هـ /
- ١٩٦١م .
- محمود إسماعيل (دكتور)
- الحركات السرية في الإسلام ؛ رؤية عصرية ، ط ١ ، دار القلم ، بيروت ، سنة ١٩٧٣م .

محمود شاکر .

- التاريخ الإسلامي ، ط ١ ، المكتب الإسلامي ، بيروت ، سنة ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م

مصطفى حلمي (دكتور) :

- نظام الخلافة في الفكر الإسلامي ، دار الأنصار ، سنة ١٩٧٧م .

ناصر الدين الألباني (الشيخ) :

- سلسلة الأحاديث الصحيحة ، ط ١ ، المكتب الإسلامي ، دمشق ، ج ١ ، سنة ١٩٦٩م

، ج ٢ ، سنة ١٩٧٢م .

ناصر النقشبندی :

- الديار الإسلامي في المتحف العراقي ، بغداد ، سنة ١٩٥٣م .

نجيب العقيقي :

- المستشرقون ، ط ٣ ، دار المعارف ، سنة ١٩٦٥م .

نيفين عبد الخالق مصطفى (دكتور) :

- المعارضة في الفكر السياسي الإسلامي ، ط ١ ، مكتبة الملك فيصل الإسلامية ، القاهرة ،

سنة ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م .

ياسين إبراهيم الجعفري :

- اليعقوبي ؛ المؤرخ والجغرافي ، دار الحرية ، بغداد ، سنة ١٩٨٠م .

يوسف العش (دكتور) :

- الدولة الأموية ، ط ٢ ، دار الفكر ، دمشق ، سنة ١٩٨٥م .

مراجعا : المراجع الأجنبية والمترجمة :

Browne , E,G ,

A Literary History of Persia , London , 1909 .

Gibbon , E ,

The decline and fall of the Roman Empire , London , 1911.

Encyclopedia of Islam .

أرنولد ، توماس :

- الدعوة إلى الإسلام ، ترجمة حسن إبراهيم حسن وآخرين ، مكتبة النهضة المصرية ، (د

ت)

بالنسيا ، جونزاليز :

— تاريخ الفكر الأندلسي، ترجمة د. حسين مؤنس، طبة الجامعة العربية، القاهرة، سنة

١٩٥٥م

بامات، حيدر :

— مجالي الإسلام، ترجمة عادل زعير، دار إحياء الكتب العربية، سنة ١٩٥٦م.

بتلر، ألفرد :

— فتح العرب لمصر، ترجمة محمد فريد أبو حديد، ط٢، لجنة التأليف والترجمة والنشر، سنة

١٩٤٦

بروكلمان، كارل :

— تاريخ الشعوب الإسلامية، ترجمة د. نبيه أمين فارس ومنير البعلبكي، دار العلم

للملايين، بيروت، سنة ١٩٤٨م.

بلات، شارل :

— الجاحظ في البصرة وبغداد وسامرا — ترجمة د. إبراهيم الكيلاني، ط١، دمشق، سنة

١٩٦١م.

جروهمان، أدولف :

— أوراق البردي العربية بدار الكتب المصرية، ترجمة د. حسن إبراهيم ومراجعة عبد

الحميد حسن، طبة دار الكتب المصرية ١٩٥٥م،

جوزي، بتلي :

— من تاريخ الحركات الفكرية في الإسلام، دار الروائع، بيروت (د.ت).

جولدسيهر، أجناس :

— العقيدة والشريعة في الإسلام، ترجمة د. محمد يوسف موسى وآخرين، ط١، القاهرة

، سنة ١٩٤٦م.

حقي، فيليب :

— تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين، ترجمة د. كمال اليازجي و د. جبرائيل جبور، ط٢،

دار الثقافة، بيروت، سنة ١٩٧٢م.

— صانعو التاريخ العربي، ترجمة د. أنيس فريجة ومراجعة د. محمود زايد، ط١، دار

الثقافة، بيروت، سنة ١٩٦٩م.

حقي، فيليب (مع د. إدوارد جورج و د. جبرائيل جبور) :

— تاريخ العرب (مطول)، ط٣، دار الكشف، بيروت ١٩٦١م.

دوزي، رينهرت :

٤٩٨

- تاريخ مسلمي إسبانيا ، ج ١ ، ترجمة د حسن حبشي ، دار المعارف ، سنة ١٣٨٢هـ / ١٩٦٢م

روزنثال ، فرانز :

- علم التاريخ عند المسلمين ، ترجمة د. صالح أحمد العلي ، ط ٢ ، مؤسسة الرسالة . بيروت ، سنة ١٩٨٣ م .

سزكين ، فؤاد :

- تاريخ التراث العربي ، ترجمة د . محمود فهمي حجازي ، و د . فهمي أبو الفضل ، طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٧م

علي ، سيد أمير :

- مختصر تاريخ العرب والتمدن الإسلامي ، ترجمة رياض رأفت ، لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة ، سنة ١٩٣٨ م .

فلهوزن ، يوليوس :

- تاريخ الدولة العربية ، ترجمة د . محمد عبد الهادي أبي ريدة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة ، سنة ١٩٥٨ م .

- الفوارج والشيعية ، أحزاب المعارضة الرئيسية في الإسلام ، ترجمة د . عبد الرحمن بدوي ، مكتبة النهضة المصرية ، (د . ت)

فلوتن ، فان :

- السيطرة العربية والتشيع والمعتقدات المهدوية ، ترجمة د . إبراهيم بيضون ، ط ٢ ، المؤسسة الجامعية ، بيروت ، سنة ١٩٨٥ م .

مرجليوث :

- دراسات عن المؤرخين العرب ، ترجمة د . حسين نصار ، المطبعة العصرية ، بيروت ، سنة ١٩٢٩ م .

ونسك ، ر . أ . ي . :

- المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي — طبعة ليدن ، سنة ١٩٣٦م

خامساً: الرسائل الجامعية:

عبد الباري محمد الطاهر

٤٩٩

– الأتراك والخلافة في العصر العباسي الأول ، رسالة ماجستير ، كلية دار العلوم ، سنة ١٤٠٩هـ / ١٩٨٩م .

عبد الرحمن أحمد سالم :

– التاريخ السياسي للمعتزلة حتى نهاية القرن الثالث الهجري ، رسالة ماجستير ، كلية دار العلوم ، سنة ١٩٧٤م .

عبد المرحضي محمد عطوة :

– العلاقات بين المغرب والأندلس من الفتح الإسلامي للأندلس إلى قيام الدولة الفاطمية بالمغرب ، رسالة دكتوراه ، كلية دار العلوم ، سنة ١٩٨٩م .

علي بكر حسن :

– الطبري ومنهجه في التاريخ ، رسالة ماجستير ، كلية دار العلوم ، سنة ١٩٨٣م .

ناهد عبد المجيد مصطفى :

– مسائل الخلاف الفقهي بين الشيعة الإمامية وأهل السنة ، رسالة ماجستير ، كلية دار العلوم ، سنة ١٩٨٨م .

سادساً : الدوريات :

جميل عبد الله المصري (دكتور) :

– الفتوحات بين دوافعها الإسلامية ودعاوى المستشرقين ، مقال بمجلة المنهل السعودية ، مجلد ٥٠ ، العدد ٤٧١ ، السنة ٥٥ ، رمضان وشوال سنة ١٤٠٩هـ / أبريل ومايو سنة ١٩٨٩م .

جواد علي (دكتور) :

– موارد تاريخ الطبري ، مجلة المجمع العلمي العراقي ، ج ١ ، السنة الأولى ، ذو القعدة ١٣٦٩هـ / ١٩٥٠م ، ج ٢ ، سنة ١٣٧١هـ / ١٩٥١م .

حسين محمد ربيع (دكتور) :

– منهج السيوطي في كتابة التاريخ ، مقال ضمن مجموعة بحوث في كتاب : جلال الدين السيوطي ، نشر الهيئة المصرية العامة للكتاب ، سنة ١٩٧٨م .

حسين عطوان (دكتور) :

٥٠٠

— المرجنة بخراسان في العصر الأموي ، مقال بمجلة مجمع اللغة العربية الأردني ، العدد المزدوج ٢٨ ، ٢٩ ، السنة التاسعة ، شوال ١٤٠٥ هـ ربيع ثان ١٤٠٦ هـ / تموز — كانون الأول ١٩٨٥ م .

حسين نصار (دكتور) :

— الاستشراق بين المصطلح والمفهوم ، مقال بمجلة المنهل السعودية ؛ العدد ٤٧١ ، سنة ١٤٠٩ هـ ، (السابق ذكره) ..

طله الحاجري (دكتور) :

— أبو عبيدة ، مقال بمجلة الكاتب المصري السنة الثانية ، العدد السادس ، سنة ١٩٢٦ م .

عبد العزيز صالح الهلاي (دكتور) :

عبد الله بن سبأ ، مجلة حوليات كلية الآداب ، جامعة الكويت ، الحولية الثامنة ، سنة ١٤٠٧ - ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٦ - ١٩٨٧ م .

علي حسني الخربوطلي (دكتور) :

— دراسات نقدية وتحليلية لكتاب " تاريخ الخلفاء " للسيوطي ، مقال بكتاب " جلال الدين السيوطي " السابق ذكره ..

عمر فروخ (دكتور) :

— الاستشراق ؛ ما له وما عليه ، مقال بمجلة المنهل ، العدد السابق ذكره ..

— العلم في العصر الأموي ، مقال بمجلة المجمع العلمي العربي بدمشق ، الجزء الأول من المجلد الأربعين ، شعبان سنة ١٣٣٤ هـ / ١٩٦٥ م .

فاروق عمر فوزي (دكتور) :

— حول طبيعة الحركة الشعبية ، مقال بمجلة المجمع العلمي العراقي ، الجزء الثاني من المجلد السادس والثلاثين ، شوال سنة ١٤٠٥ هـ / حزيران ١٩٨٥ م .

فهمي عبد الجليل (دكتور) :

— الأمويون والفيء ، مقال بمجلة ندوة التاريخ الإسلامي ، كلية دار العلوم ، مج ٧ ، سنة ١٤٠٩ هـ / ١٩٨٩ م .

— فرقة السبئية ونشاطها الهدام في خلافة عثمان وعلي وعلاقتها بالفرق السياسية في تلويخ الإسلام ، مجلة ندوة التاريخ الإسلامي بكلية دار العلوم ، مج ٧ ، سنة ١٤٠٩ هـ / ١٩٨٩ م .

محمد عبد المنعم خفاجي (دكتور) :

— حركة الاستشراق ، مقال بمجلة المنهل السعودية ، العدد السابق ذكره

محمد عبده (الإمام) :

- مقال في تفسير قوله تعالى " وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم " ، مجلة المنار ، عدد الأحد ٣٠ ذي الحجة سنة ١٣٢٨هـ ، ج ١٢ من المجلد الثالث عشر ..

محمد بن عبود :

- منهجية الاستشراق في دراسة التاريخ الإسلامي ، مجلة المنهل السعودي ، العدد السابق ذكره ..

محمود شيت خطاب (اللواء الركن) :

- جيش المسلمين في عهد بني أمية ، مجلة المجمع العلمي العراقي ، ج ١ ، مج ١٤ ، سنة ١٩٥٦ م .

- فتح كاشغر ، مقال بمجلة الأمة القطرية ، العدد ٥٠ ، السنة الخامسة ، نوفمبر ١٩٨٤ م .

وفاء محمد علي (دكتور) :

- سليمان بن عبد الملك وعهد تصفية الحسابات ، مجلة ندوة التاريخ الإسلامي بكلية دار العلوم ، العدد ٨ ، سنة ١٤١٠هـ / ١٩٩٠ م .

دائرة المعارف الإسلامية : الترجمة العربية ، عدة مقالات ..

الفهرست

الموضوع	الصفحة
مقدمة	٥
الباب الأول: اتجاهات الكتابات التاريخية عن الدولة الأموية	١٠
تمهيد : صورة قاتمة عن الأمويين في التاريخ	١٠
أ) حول علاقة بني أمية وبني هاشم	١٠
ب) الأمويون في الطريق إلى الخلافة	١١
ج) تاريخ الخلفاء والولاة	١٢
د) تصوير المؤرخين نظام الحكم والمجتمع	١٧
هـ) الفتوحات في عصر بني أمية وأحوال الموالي	١٨
و) موقف الأمويين من حركات المعارضة	١٩
ز) دور بعض كتب التفسير والحديث في تحريف التاريخ الأموي	٢١
الفصل الأول : أدلة تحريف التاريخ الأموي وأسباب ذلك التحريف	٢٤
المبحث الأول : أدلة تحريف التاريخ الأموي	٢٤
أولا : إثبات بعض المؤرخين القدماء حدوث التحريف وتحذيرهم منه	٢٤
ثانيا : شيوع الكذب على الأمويين في دولتهم وبعد زوالها	٢٥
ثالثا : كتب ضائعة في فضائل الأمويين	٢٦
المبحث الثاني : أسباب تحريف التاريخ الأموي	٢٧
أولا : ضياع معظم النتاج التاريخي الباكر	٢٧
ثانيا : تأثير الحزبية السياسية على تدوين التاريخ الأموي	٢٩
ثالثا : تأثير السلطة العباسية على تحريف التاريخ الأموي	٣٥
— محاولات قديمة لتحريف التاريخ الأموي	٤١
الفصل الثاني : دراسة في مصادر التاريخ الأموي	٤٣
المبحث الأول : دراسة عن بعض رواة التاريخ الأموي	٤٤
المبحث الثاني : الأمويون في كتابات المؤرخين القدماء	٥٥
سيمان أساسيتان : ١- الاعتماد على الرواية وقصور النقد التاريخي	٥٥
٢- شيوع التحامل على الأمويين	٥٧
المبحث الثالث : الأمويون في كتابات قدامى الأدباء	٦٥
ظاهرتان أساسيتان : ١- القصد إلى تحقيق المتعة الفنية أو أغراض أدبية	٦٥

- ٦٧ ... ٢- تميز كثير من الأدباء القدامى ضد بني أمية
- ٧٦ المبحث الرابع : الأمويون في كتابات الفقهاء التاريخية
سبيان لإنصاف الفقهاء الأمويين :
- ٧٧ ... ١- التحرر من الحزبية السياسية والأهواء المذهبية ...
- ٧٨ ... ٢- تأثير منهج علم الحديث في نقد الروايات والأخبار ...
- ٧٨ ... أ - رفض روايات أهل البدع والأهواء ..
- ٨٠ ... ب- اعتماد كتب الحديث والفقهاء كمصدر تاريخي ...
- ٨١ ... ج - النقد الداخلي للروايات التاريخية ...
- ٨٢ نماذج من إنصاف الفقهاء بني أمية ...
- ٨٧ الفصل الثالث : الأمويون في كتابات المؤرخين المعاصرين ...
- ٨٨ المبحث الأول : اتجاه تحريف التاريخ الأموي ...
- ٨٨ أولا : دور المستشرقين في دراسة التاريخ الأموي ...
- ٨٨ أهم المؤثرات المنهجية على تناول المستشرقين التاريخ الأموي ...
- ٩٠ نماذج من تناول المستشرقين التاريخ الأموي ...
- ٩٣ ... ثانيا : اتجاه تحريف التاريخ الأموي عند المؤرخين المحدثين من العرب والمسلمين
- ٩٥ أ- التيار المتأثر بالاستشراق ...
- ٩٩ ب- التفسير المادي للتاريخ ...
- ١٠٢ ج- كتابات غير المختصين ...
- ١١٢ المبحث الثاني : اتجاه الإنصاف للتاريخ الأموي ...
- ١١٢ ركائز الإنصاف للتاريخ الأموي ...
- ١١٢ ١- الحذر من روايات المؤرخين القدماء ...
- ١١٦ ... ٢- رد شبهات المتحاملين على الأمويين أو مناقشتها ...
- ١١٨ ... ٣- إظهار مآثر الأمويين وحضارتهم ...
- ١١٩ ... الباب الثاني : دراسة الشبهات التي أثارها المؤرخون حول التاريخ الأموي ...
- ١١٩ مقدمة ...
- ... الفصل الأول : موقف الأمويين من الإسلام والخلافة منذ البعثة النبوية
- ١٢١ حتى قيام الخلافة الأموية
- ١٢١ تمهيد علاقات بني أمية وبني هاشم قبل الإسلام ...
- ١٢٤ المبحث الأول : موقف الأمويين من الإسلام ، حياة الرسول ﷺ

١٤٧	...	المبحث الثاني : الأمويون في خلافة أبي بكر وعمر
١٥٨	..	المبحث الثالث : الأمويون في خلافة عثمان
١٥٩ - دعوى محاباة عثمان بني أمية واستغلالهم خلافته
١٦٦	..	المبحث الرابع : الأمويون في الطريق إلى الخلافة
١٦٦	...	مقدمة : الدولة الإسلامية بين عهدين ودور التطور الاجتماعي
١٦٧	...	١- ظروف بيعة علي وامتناع معاوية
١٦٨	...	٢- حجة معاوية في الامتناع عن البيعة
١٦٩	...	٣- دور قتلة عثمان في تجذير الفتنة
١٧٣	...	٤- بحث الشبهات حول موقف معاوية من نصره عثمان
١٧٨	...	٥- موقف معاوية من قتلة عثمان
١٨١	...	٦- بحث الشبهات حول التحكيم ووسائل معاوية للوصول إلى الخلافة
١٩٣	...	الفصل الثاني : موقف الأمويين من الالتزام بالإسلام بعد قيام دولتهم
١٩٤	...	المبحث الأول : تدين الخلفاء والولاة
٢٢٥	..	المبحث الثاني : التوجه الإسلامي للمجتمع والدولة
٢٢٥	...	أولا : شبهات حول تدين المجتمع الأموي ..
٢٢٩	...	ثانيا : دور الخلفاء والولاة في حراسة المجتمع
٢٣٧	...	المبحث الثالث : الفتوحات عند الأمويين ...
٢٣٨	...	١- شبهات حول دوافع الفتوحات الإسلامية
٢٤٢	...	٢- قوة الروح الإسلامية في فتوحات الأمويين
٢٤٧	...	٣- عناية الأمويين بالجيش الإسلامي
٢٥٠	...	٤- جهود الأمويين في نشر الإسلام واللغة العربية .
٢٥٩	..	الفصل الثالث : نظام الحكم الأموي بين الشورى وولاية العهد
٢٦٠		المبحث الأول : مكانة الشورى عند الأمويين
٢٦٠		أولا : الشورى عند خلفاء الأمويين
٢٦٨		ثانيا : الشورى عند ولاة الأمويين
٢٧٠		ثالثا : الأمويون بين مظاهر الملك وحقيقة الشورى
٢٧٥		رابعا : معنى الملك لا يقتضي انعدام الشورى
٢٧٦	...	خامسا : بعض الأمويين يتمنى لو سار سيرة الراشدين

٢٧٨	المبحث الثاني : ولاية العهد وتوريث الخلافة
٢٧٨	توطئة : كلمة عن تطور نظام الخلافة حتى العصر الأموي
٢٨٠	أولا : رأي الفقهاء في معنى أهل الحل والعقد
٢٨١	ثانيا : ظروفبيعة يزيد بولاية العهد
٢٨٦	ثالثا : حول أهلية يزيد بالخلافة ...
٢٨٧	رابعا : كيف تمت البيعة ليزيد بولاية العهد ؟ ...
٢٩٢	خامسا : استقرار فكرة توريث الخلافة فيما بعد
٣٠١	الفصل الرابع : موقف الأمويين من المعارضة ..
٣٠١	مقدمة : بين المعارضة السلمية والثورة المسلحة
٣٠٣	المبحث الأول : موقف الأمويين من المعارضة السلمية
٣٠٦	المبحث الثاني : موقف الأمويين من الثورات ضدهم ..
٣٠٧	أولا : ثورة الحسين بن علي ...
٣٢٧	— نظرة عامة على ثورة الحسين وتقييمها ...
٣٣١	تعقيب : موقف الأمويين من آل البيت
٣٤٠	ثانيا : ثورة أهل المدينة ...
٣٤٥	ثالثا : ثورة ابن الزبير ...
٣٤٦	— حول دعوى حرق الأمويين الكعبة
٣٥١	الفصل الخامس : موقف الأمويين من العصية العربية والقبلية
٣٥٣	المبحث الأول : حول تعصب الأمويين للعرب ضد الموالي
٣٥٣	أولا : الاضطهاد الاجتماعي للموالي
٣٥٨	ثانيا : الاضطهاد السياسي للموالي ...
٣٦٢	ثالثا : أوضاع المسلمين من غير العرب في غرب الدولة
٣٦٨	رابعا : دور كبير للموالي في النظام الأموي
٣٧٣	خامسا : مكانة الموالي أواخر الدولة الأموية
٣٧٦	المبحث الثاني : موقف الأمويين من العصية القبلية
٣٧٦	أولا : العصية القبلية قبل قيام الدولة الأموية
٣٧٧	ثانيا : العصية القبلية في العصر الأموي ؛ نظرة عامة...
٣٧٩	ثالثا : جهود الخلفاء والولاة للسيطرة على العصية القبلية
٣٩٣	ملاحظات عامة ...

٣٩٧	...	الفصل السادس : دراسة الشبهات حول سياسة الأمويين المالية
٣٩٨	...	المبحث الأول : شبهات حول موارد الدولة الأموية
٣٩٨	...	١- استباحة هدايا التبرز والمهرجان ..
٣٩٩	...	٢- اصطفاء جزء من الغنائم
٤٠٠	...	٣- زيادة خراج بعض الأقاليم .
٤٠٣	...	٤- فرض الجزية على الموالي
٤٠٣	...	أ- فرض الجزية على موالي العراق
٤٠٦	...	ب- فرض الجزية على موالي ما وراء النهر
٤٠٩	...	٥- استغلال الصوافي
٤١٢	...	- استغلال السلطة في إحياء الأرض الموات
٤١٥	...	المبحث الثاني : شبهات حول مصارف الأموال في العصر الأموي
٤١٥	...	١- التفریط في خراج بعض الأقاليم ...
٤١٨	...	٢- التفرقة في العطاء
٤٢١	...	٣- الإسراف في إنفاق الأموال لتأليف القلوب واكتساب الأنصار
٤٢٥	...	- مصارف شرعية لتحقيق أهداف الرعية ...
٤٢٨	...	المبحث الثالث : حرص الأمويين على أموال الدولة
٤٣٢	...	الفصل السابع : منجزات حضارية في العصر الأموي
٤٣٣	...	المبحث الأول : منجزات حضارية في مجال الإدارة ...
٤٣٣	...	١- إنشاء ديوان الخاتم
٤٣٤	...	٢- إنشاء ديوان البريد ..
٤٣٥	...	٣- تعريب ديوان الخراج
٤٣٧	...	٤- ضرب العملة الإسلامية وتعريبها
٤٤٢	...	المبحث الثاني : جهود معمارية عظيمة للأمويين
٤٤٢	...	١- عمارة المساجد
٤٦٤	...	٢- بناء المدن وعمارة البلدان
٤٤٩	...	٣- بناء القصور
٤٥١	...	المبحث الثالث : فحصة الثقافة والعلوم في العصر الأموي
٤٥١	...	أولا : العلوم العربية والشرعية ..
٤٥٥	...	ثانيا : الاهتمام بالشعر والشعراء

٤٥٩	...	ثالثا : اهتمام الأمويين بالعلوم التجريبية والترجمة
		الملاحق :
٤٦١	...	ملحق رقم (١) : نسب بني أمية وقرابتهم لبني هاشم
٤٦٢	...	ملحق رقم (٢) : الخلفاء الأمويون وسنوات حكمهم
٤٦٣	...	ملحق رقم (٣) : موقف الإسلام من الغنائم ...
٤٦٤	...	ملحق رقم (٤) : آراء الفقهاء حول تعيين أهل الحل والعقد
٤٦٦		ملحق رقم (٥) : دراسة حول أسباب العداء بين القيسية واليمانية
٤٦٧	...	خاتمة الكتاب
		الخرائط :
٤٧٢	...	١- مسرح عمليات معاوية الأمير
٤٧٣	...	٢- مسرح عمليات معاوية الخليفة
٤٧٤	...	٣- فتح المغرب (أ) ...
٤٧٥	...	٤- فتح المغرب (ب) ...
٤٧٦	...	٥- فتوح قتبية بن مسلم ومحمد بن القاسم
٤٧٧	...	٦- فتح الأندلس ...
٥٠١-٤٧٨	...	المصادر والمراجع
٥٠٧-٥٠٢	...	الفهرست



الملاحة - دار السلام ٥٦ ش حسين الفخراني من ش اليوم ٣١٧٤٧٨٢

